

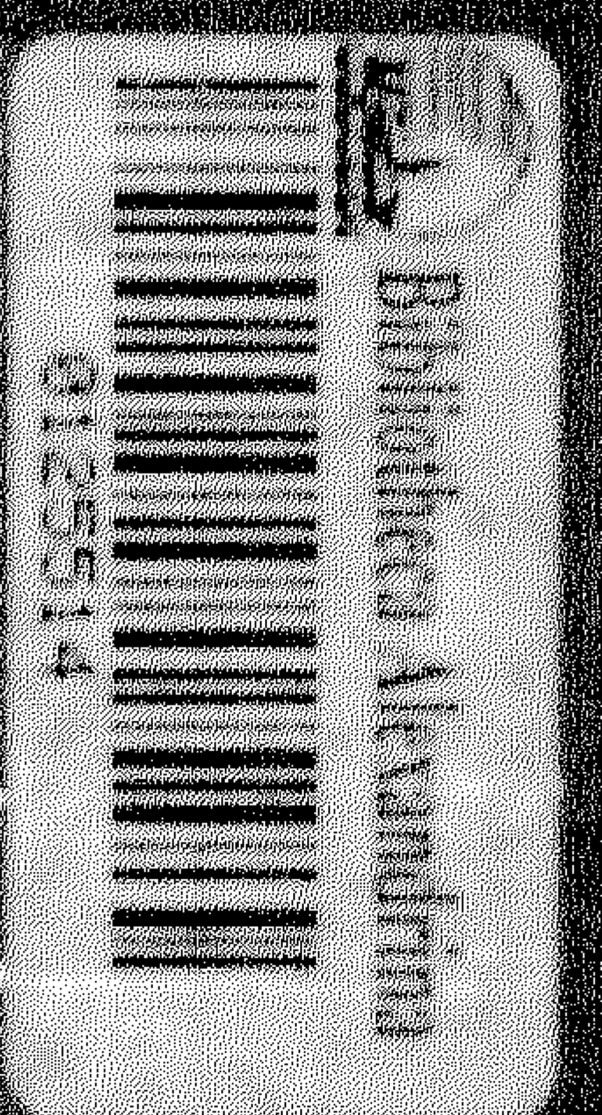
المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

النبي الأعزل

تروتسكي ١٩٢١ - ١٩٢٩



تأليف
إسحق
دويتشر
٢



قيصر
داغر

النبي الأعزل

تروتسكي ١٩٢١ - ١٩٢٩

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً - موكيالي بيروت . ص.ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٢

إسحق دويتشر

النبي الأعزل

تروتسكي ١٩٢١ - ١٩٢٩

ترجمه وقدم له
كميل قيصر داغر

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي بيروت ـ ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

هذا الكتاب معرَّب عن الترجمة الفرنسية

الصادرة بعنوان

Le Prophète désarmé

Trotsky (1921- 1929)

par

ISAAC DEUTSCHER

مقدمة المؤلف

قال كارليل يوماً إنه كان عليه ككاتب لسيرة كرومويل ، أن يخلص اللورد الحامي(*) من جبل من الحطام ، من كومة ضخمة من الافتراء والنسيان . وككاتب لسيرة تروتسكي ، كان عليّ أن انجز عملاً مماثلاً ، لكن مع الفرق المتمثل في أني حين تصديت لجبل الحطام الخاص بي ، جاءت أحداث عظام توجه اليه ضربة ساحقة . فيوم أنهيت « النبي المسلح » ، وهو الجزء الأول من هذه السيرة ، كان ستالين لا يزال على قيد الحياة ، وكانت «عبادة» ستالين تبدو بمنعة العار الملصق بشخص تروتسكي . ومعظم التحليلات المخصصة للـ «نبي المسلح» كانت تتفق من حيث الجوهر مع ذلك الناقد الانكليزي الذي كتب ان « هذا الكتاب ، لوحده ، يزيل من الوجود ثلاثين عاماً من التشهير الستاليني » ، . لكن بالطبع ، لا الكتاب ولا التوثيق الذي دعمه انتزعا كلمة واحدة من النقاد والمؤرخين السوفيات ، الذين يولون مع ذلك ، عموماً ، اهتماماً لا حدود له لأدنى مبحث يتعرض لموضوعات سوفياتية ، مهما يكن طفيفاً وتافهاً ، يظهر في الغرب . ثم مات ستالين ، وانعقد المؤتمر العشرون وتلا خروتشيف خطابه « السري » . كان ذلك زلزالاً لجبل الحطام المشار اليه ، الذي تبخر نصفه واندثر في الرياح الأربع ؛ وأمكن الاعتقاد لبرهة من الزمن ان النصف الآخر لن يتأخر في ان يكون له المصير ذاته . بدأت إشارات تاريخية شرعية ، الى دور تروتسكي في الثورة الروسية تظهر في الصحف السوفياتية للمرة الأولى منذ ٣٠ عاماً ، لكن ندرتها وحياءها كانا يدلان على ان التاريخ والسياسة ، في هذا الموضوع بالذات ، أمران لا يزالان وثيقي الارتباط ، الواحد بالآخر ، وأن المشكلة المطروحة هي من اكثر المشكلات دقة .

(*) ترجمة Protector Lord أو اللورد الوصي على العرش ، والمقصود هنا كرومويل (م).

حين تحطم الصنم الستاليني وجرى فضح التزوير الستاليني للتاريخ بصورة رسمية وبعنف ، استثار شبح خصم ستالين الأكبر ، حتماً ، اهتماماً جديداً وشديداً ، لكن مفعماً بالدهشة أيضاً . ففي موسكو وبكين وفارصوفيا وبرلين الشرقية ، عاد الناس يتساءلون حول طبيعة نضال تروتسكي ضد ستالين ، ومعنى ذلك النضال . وصل مؤرخون شباب فجأة الى المحفوظات التي كانت حتى ذلك الحين سرية بقدر ما هي محظورة ، وبحثوا عن إجابة في الملفات المجهولة للبلشفية . ولما كان خروتشيف قد أعلن أن ستالين دمّر معارضيه في الحزب عبر اتهامات كاذبة ومخيفة ، توقع المؤرخون بالطبع إعادة الاعتبار طبقاً للأوضاع لضحايا التطهيرات الكبرى . في بعض البلدان ، تمت اعادة الاعتبار تلك بسهولة ؛ ففي بولونيا مثلاً أصبحت مؤلفات تروتسكي وبوخارين وراكوفسكي ورادك موضع الاستشهاد بها ، لا بل اعيد نشرها ، لأنه جرى الحكم بضرورتها لفهم لغز الحقبة الستالينية (وتلك كانت حال كتبي ودراساتي أيضاً) .

لكن لم يطل الوقت الذي تم فيه إيقاف الهجوم ضد « جبل الحطام » . ففي نهاية عام ٥٦ أو بداية عام ٥٧ ، خلال رد الفعل ضد تمرد المجر ، تقرر في موسكو تعليق عملية ترميم الحقيقة التاريخية ، وعادت مشكلات السياسة الآنية وتموجاتها تلوِّن العِلْم التاريخي ، ولا سيما على حساب تروتسكي بالذات . مذاك ، جرى استبدال **تاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي** (ح . ش . س) القصير الذي كتبه ستالين ، وكان قد رمي في سلة المهملات ، بموجز رسمي جديد لتاريخ الحزب يعيد صياغة اللعنة المستهدفة تروتسكي ، لكن معدلة وملطفة . وفي الصحف والمجلات السوفياتية ، اصبح عدد الدراسات التي ترمي إلى التشهير ضمناً بتروتسكي أكبر مما خلال السنوات العشر السابقة ، أو حتى في أيام ستالين .

لكن ما كان في الماضي تراجيديا لم يعد اليوم اكثر من هرجة بائسة . فاللعنة الستالينية ، مهما تكن عبثية ، كان لها على الأقل « منطقـ »ـها وتماسكها . وستالين كان يعرف ان عليه لكي يبقي على الماضي أن يزوِّره بشكل وقح وفظ ومنظم . أما خروتشيف فيحظر قول الحقيقة حول تروتسكي لكنه لا يريد اللجوء إلى التزويرات اللافتة للنظر : إنه يكتفي بقدرٍ « معتدل » من التزويرات ، وهو ما يجعل اللعنة مضحكة تماماً . هكذا يمجد مؤلفو التاريخ الجديد للحزب عمل اللجنة الثورية

العسكرية لعام ١٩١٧ ومفوضية الحرب ، لكن دون الاشارة الى ان تروتسكي هو الذي قاد هذه وتلك . لكنهم لا تفوتهم تلك الاشارة ، ولو في الجملة اللاحقة ، اذا كان الأمر يتعلق بإبراز هذا الخطأ ، أو ذاك ، الصادر عن اللجنة ذاتها والمفوضية ذاتها . هكذا يفعل طفل يلعب مع أمه لعبة التخبئة ، حين يقول لها ، هو الذي لم يفهم بعد مبدأ اللعبة : ها أنذا ، ابحثي عني ! وكأن المؤرخين الخروتشيفيين يعتقدون ان القراء السوفيات حمقى، بما يكفي لكي لا يلاحظوا أن المدائح والتوبيخات تستهدف الشخص ذاته . أما ستالين، فكانت لديه، على طريقته الخاصة ، وهي طريقة منحرفة وفاسدة للغاية ، فكرة ارفع بكثير حول ذكاء رعاياه : كان يفضل ألا يضع في متناولهم أي واقعة يمكن أن تولّد لديهم شكوكاً هرطوقية ، أو بصورة أبسط ، ألّا يعطيهم حتى امكانية الشك . والرواية الجديدة لتاريخ الحزب تعرض كذلك الخلافات بين لينين وتروتسكي بتحيز مطلق . لكن القادة الجدد للحزب ، الذين نشروا نصوص لينين ، المبقاة سرية حتى ذلك الحين ، والذين فتحوا المحفوظات ، فعلوا عملياً كل ما هو ضروري لاعادة اعتبار تروتسكي . مذاك ، ستكون باطلة كل محاولاتهم لمحوه من جديد من حوليات الثورة .

لا يزال شبح تروتسكي يلاحق بصورة واضحة خلفاء ستالين . وآمل ان يجد القراء في الصفحات التالية تفسيراً جزئياً على الأقل لهذه الظاهرة الغريبة في الظاهر . فرغم الهزات والتغييرات الكبرى التي عرفها المجتمع السوفياتي منذ العشرينات ، أو ربما بسبب تلك الهزات والتغييرات بالضبط ، لم تفقد بعض المشكلات الكبرى ، التي كانت في قلب الصراع بين ستالين وتروتسكي ، شيئاً من حاليتها . فتروتسكي كان قد فضح « الانحطاط البيروقراطي » للدولة العمالية ، وعارض الحزب « وحيد الاتجاه» و «ذا القيادة المعصومة عن الخطأ» لدى ستالين بالحاجة لحرية التعبير والنقاش والنقد ، لأنه كان يعتقد أن انضباطاً شيوعياً أصيلاً وارادياً لا يمكن ـ ولا يجب ـ ان يقوم إلا على قواعد من هذا النوع . لقد جرى خنق صوته في روسيا العشرينات ، لكن مع التطورات العديدة ، الصناعية والتربوية والاجتماعية ، في الاتحاد السوفياتي ، تعود هذه المطالب الى الظهور ، والعديد من الشيوعيين يستعيدونها لحسابهم الخاص . وخلال لحظة الحقيقة بالغة القصر لدى خروتشيف وميكويان ، ماووغومولكا ، كادار وتوغلياتي ، بصرف النظر عن تيتو وناجي ، اضطر هؤلاء الى الاعتراف بصحتها . ومذاك ، عادوا القهقرى بعد ان ارعبتهم

جسارتهم . والنظام السوفياتي والحزب الشيوعي ، اللذان يقومان بخطوة الى الوراء مع كل خطوتين الى الامام ، لم يصبحا الى الآن على وشك التخلص من « تشويههما البيروقراطي » .

إذا كانت المشكلات التي طرحها تروتسكي قد حُلّت نصفياً ، في أفضل الأحوال ، فذلك يجعل من تاريخ معارضته للستالينية أمراً ليس أقل حالية بل أكثر حالية بكثير . ونضال تروتسكي ضد البيروقراطية الستالينية ليس الوجه الواحد لمعركته التي لا تزال لها أهميتها الى اليوم . ثمة وجه آخر لتلك المعركة ، وهو وجه مرموق : إنه التعارض بين أممية تروتسكي والانعزالية الراضية عن نفسها لبلشفية ما بعد عام ١٩٢٥ . ولقد عادت هذه المشكلة الى الظهور حتى قبل نهاية الحقبة الستالينية ، وكانت مصدر توتر . مذاك ، بدأ الميزان يميل الى جهة الأممية ، دون أن يعني ذلك أن القضية وجدت حلاً نهائياً لها . لذا يحتفظ خلاف العشرينات بكل أهميته في أيامنا هذه .

إذا كان خلفاء ستالين يشعرون بخوف مضحك الى هذا الحد من شبح تروتسكي ، فلأنهم يخافون مواجهة المشكلات التي طرحها ، متقدماً على عصره الى ذلك الحد . ويجد موقفهم تفسيره في الظروف الموضوعية ، من جهة ، وفي جمودهم من جهة أخرى ، لأن خروتشيف ورفاقه يبقون ، حتى لو تمردوا على الستالينية ، ورثة لستالين . لكنهم يتصرفون كذلك بمحض دفاع عن الذات ، والحادثة التالية ، التي تمت خلال دورة اللجنة المركزية في حزيران / يونيو ١٩٥٧ ، بالغة التعبير بهذا الصدد . خلال تلك الدورة ، ذكّر خروتشيف ، إزاء مشروع قرار يطالب بطرد مولوتوف وكاغانوفيتش ومالينكوف ، بالتطهيرات الكبرى ، وهو ما كان يتكرر حتماً في كل النقاشات السرية منذ وفاة ستالين . دلَّ بإصبعه على مولوتوف وكاغانوفيتش ، وصرخ بهما : « على أيديكما دم قادة حزبنا ودم ما لا يحصى من البلاشفة البريئين ! » فصاح مولوتوف وكاغانوفيتش : « ويداك ؟ » . فأجاب خروتشيف : « أجل لا تقل يداي احمراراً ، إني أعترف بذلك . لكنني لم أفعل ، خلال التطهيرات الكبرى ، غير تنفيذ أوامركما . لم اكن عضواً في المكتب السياسي ، ولم أكن مسؤولاً عن قراراته . أما أنتما ، فكنتما مسؤولين ! » . وفيما بعد حين روى ميكويان هذه الحادثة في كومسومول موسكو ، وسأله الحاضرون لماذا لم تتم محاكمة شركاء ستالين ، يقال إنه أجاب : لا يمكننا محاكمتهم ، لأنه إذا شرعنا نرسل الى المحاكم شركاء ستالين ،

لا يعود هنالك وسيلة لمعرفة اين يمكن التوقف . فكلنا مسؤ ولون ، الى هذا الحد أو ذاك ، عن التطهيرات » . هكذا يجد خلفاء ستالين أنفسهم مضطرين ، إن لم يكن لشيء فلحماية أنفسهم ، لأن يُبقوا في الزنزانات أشباح بعض ضحايا ستالين . أما تروتسكي ، أفليس أقل خطراً ، في الحقيقة ، تركه حيث هو ، تحت جبل من الأكاذيب ، نصف المُهَوّاة ، من أن تُفتح له أبواب بانتيون(*) الثورة .

لا أعتقد الآن ، ولم أعتقد في يوم من الأيام ، أن ذكرى بروتسكي تحتاج بصورة ما لأن يعيد الاعتبار اليها الحكام الروس أو قادة الحزب . (يبدو أن عليهم ، هم ، أن يبرِّئوا أنفسهم ، إذا كان ذلك بمستطاعهم ،). ومع ذلك لا شيء ، أبعد ، بالنسبة إلي ، من السقوط في عبادة تروتسكي .

أعتبر أن تروتسكي هو أحد القادة الثوريين ، الأكثر روعة وفرادة ، في أي زمن من الأزمان ، وأنه كان مناضلاً ومفكراً وشهيداً لا مثيل له . لكن ليس في نيتي ان اكتب بصدده سيرة قديس لا عيب فيه ولا مأخذ عليه . كل ما هنالك اني أردت رسمه كما كان في الواقع ، بكل عظمته وكل مقدرته ، لكن كذلك بكل ما لديه من نقاط ضعف . حاولت أن أُظهر القوة والخصب والفرادة الخارقة في ذكائه ، لكن دون إخفاء ما في ذلك الذكاء من جوانب سلبية . ولقد حاولت أن اميِّز في تحليلي الاطروحات والأفكار التي تشكل ما قدمه للماركسية والفكر الحديث ، ما بدا لي ذا قيمة موضوعية ودائمة (وسيبقى على الأرجح كذلك زمناً طويلاً) مما لم يكن يعكس غير أوضاع عابرة ، أو انفعالات شخصية ، أو أخطاء في الحكم على الأشياء . فعلت ما في وسعي لاعطاء بطولة تروتسكي حقها ، تلك البطولة التي لم أجد إلا القليل مما يعادلها في التاريخ . لكني وصفت كذلك الرجل في لحظات تردده وحيرته ، حين يترنح الجبار ويسيخ في الطين ثم يقف على قدميه من جديد ويمضي لمواجهة قدره . يبدو لي تروتسكي كنموذج الشيوعي ما قبل الستاليني ، ورائد الشيوعي ما بعد الستاليني ؛ ولا أعني بذلك ان التروتسكية هي مستقبل الشيوعية . لا بل أميل للاعتقاد أن تطور التاريخ بصدد تجاوز الستالينية والتروتسكية معاً ، وأنه سيؤ دي الى نظام أوسع وأكمل من هذه وتلك . لكن هذه وتلك سيتم « تجاوزهما » بشكل مختلف ، فما سيحتفظ الاتحاد السوفياتي والشيوعية به من الستالينية ، إنما هي انجازاتها الملموسة قبل كل شيء ؛ أما من النواحي الأخرى ، أي طرائق

(*) مدفن عظماء الأمة (م) .

الحكم ، والممارسة السياسية ، والايديولوجيا ، والـ « مناخ الاخلاقي » ، فإرث الحقبة الستالينية أسرأ مما لو لم يوجد ؛ وكلما كان التخلص منه اسرع ، كلما كان ذلك أفضل . لكن في هذا الحقل بالذات ، لا يزال يمكن تروتسكي ان يعطي الكثير . ولن يمكن للتطور السياسي ان يتجاوز التروتسكية إلا بدمجه كل ما ينطوي فكرها عليه من حيوي وخصب لتطبيقه على حقائق اكثر نضجاً بما لا يقاس ، واكثر تنوعاً واكثر تعقيداً ، من الحقائق التي عرفها تروتسكي .

كنت أشرت في مقدمة النبي المسلح إلى أني أنوي أن أعرض في جزء واحد ، بعنوان **النبي الأعزل** ، حياة تروتسكي وعمله من عام ١٩٢١ حتى مماته[1]. وكان احد كتّاب الملحق الأدبي للتايمز كتب انه لا يرى كيف يمكن جمع ما بقي من سيرة حياة تروتسكي في جزء واحد إذا جرى احترام النِّسَب . وهو لم يكن مخطئاً ، إن **النبي الأعزل** ينتهي في كانون الثاني / يناير ١٩٢٩ اي في الحين الذي غادر فيه تروتسكي المنفي الاتحاد السوفياتي دون ما عودة . وسوف يروي جزء ثالث ، بعنوان **النبي المنبوذ** ، السنوات الاثنتي عشرة العاصفة في المنفى الاخير لتروتسكي ، ويطرح حكماً نهائياً على دوره التاريخي . وليست هذه الاجزاء الثلاثة إلا العنصر الثاني في ثلاثية ، كان عنصرها الأول، **ستالين ، سيرة سياسية** ، ظهر عام ١٩٤٩ ، وسيكون الثالث سيرةً لـ **حياة لينين** ، في جزأين ، ما تزال في مرحلة التحريات الأولية . (وفي نيتي ايضاً أن أكمل سيرة حياة ستالين بمؤلَّف حول السنوات الأخيرة من حياة ستالين ، إذا أصبح التوثيق التاريخي الضروري في متناولي أو حين يصبح كذلك) .

إن الأجزاء الثلاثة في العمل الحاضر مترابطة طبعاً بشكل وثيق ، مثلما الحال ايضاً مع العناصر الثلاثة في الثلاثية الكاملة ، لكن بدقة أقل . لكنني تصورتها بحيث يمكن لكل جزء أن يكفي نفسه بنفسه ، بقدر الامكان ، وتتم قراءته كعمل معزول . والجزء الحاضر يغطي السنوات التي تشكل ، من نواح عديدة ، فترة تكوّن الاتحاد السوفياتي . وهو يبدأ عام ١٩٢١ ، غداة الحرب الاهلية ، حين كان تروتسكي لا يزال في قمة السلطة ، وينتهي عام ١٩٢٩ يوم أقلع تروتسكي الى

(١) سوف تتذكر ان هذين العنوانين يلمّحان إلى كلمة ماكيافيللي التي تقول إن « كل الأنبياء المسلحين جيداً انتصروا بينما انهزم العزّل من السلاح » . (انظر النص المأخوذ من الأمير والمذكور في النبي المسلح ، المقدمة) .

القسطنطينية ودخل الاتحاد السوفياتي في فترة تصنيع وتجميع مجنونين . بين ذينك التاريخين تتم مأساة الحزب البلشفي الذي انخرط بعد موت لينين في معركة سياسية لا شك أنها كانت احدى اشرس المعارك واضخمها في العصر الحديث : الحزب الممتلىء حيرة سياسية ، والباحث عن طريقه ، ضحية توتر اجتماعي وسياسي مخيف ، معزولاً في منطق الحزب الواحد وخاضعاً للأوتوقراطية الستالينية . خلال كل تلك الفترة ، كان تروتسكي في قلب المعركة ، لأنه خصم ستالين الرئيسي ، ومنافسه الوحيد في قيادة الحزب البلشفي ، لأنه كذلك المحامي « قبل الأوان » للتصنيع والتخطيط الاقتصادي ، ولأنه انتقد اطروحة الاشتراكية في بلد واحد ، وأخيراً لأنه يجعل من نفسه بطل « الديمقراطية البروليتارية » .

إن مصادر هذا الكتاب بقيت في قسم كبير منها مجهولة حتى اليوم . ولقد نهلت كثيراً من محفوظات تروتسكي ، التي تعطينا خلاصات غنية جداً حول طرائق عمل المكتب السياسي واللجنة المركزية ، وحول نشاط مختلف تكتلات الحزب البلشفي . ولجأت أيضاً إلى المراسلة الضخمة بين تروتسكي ورادك وراكوفسكي وپريوبراجنسكي وسوسنوفسكي وبلاشفة مرموقين آخرين ، وإلى محاضر مؤتمرات الحزب ومؤتمراته التداولية ، والى محفوظات الصحف والمجلات الروسية ، أو غير الروسية ، في تلك الحقبة ، وإلى الشهادات العينية المنشورة أو غير المنشورة. ولقد استفدت كثيراً من اتصالاتي الشخصية بناتاليا سيدوفا ، ارملة تروتسكي ، وبهاينريخ براندلر والفرد روسمر وماكس ايستمان وكثيرين غيرهم ، من مقاتلي تلك الحقبة أو الباقين بعدها على قيد الحياة ، الذين تلطفوا فأجابوا عن أسئلتي وخضعوا أحياناً لاستجواب طويل الأمد ومتكرر . ورجعت أيضاً إلى ذكرياتي الشخصية ، لاعادة تكوين جو الحقبة المشار اليها ومناخها . فمنذ عام ١٩٢٥ ، ناضلت بنشاط داخل الحزب الشيوعي البولوني الذي كان الأقرب الى الحزب البلشفي ، بين كل الأحزاب الشيوعية ؛ بعد ذلك بقليل ، غدوت داخل الحزب واحداً من الناطقين الرئيسيين باسم معارضة كانت تتأثر الى حد بعيد بأفكار تروتسكي . وفي عام ١٩٣٢ حصل لي الشرف الغريب بأن اكون أول عضو في الحزب البولوني يُطرد منه لعدائه للستالينية .

إن دراسة مصادر غير مستثمرة سمحت لي بأن أقدم روايات جديدة كليا أو جزئياً ، لعدد كبير من الأحداث والوقائع الكبرى : العلاقات بين لينين وتروتسكي

خلال السنوات الأخيرة من حياة لينين ؛ تقلبات الصراعات التي تلت؛ العلاقات بين تروتسكي وبوخارين ، وزينوفييف ، وكامينيف ، ورادك وقادة آخرين ؛ نشوء مختلف المعارضات المناهضة للستالينية وهزيمتها ؛ حياة تروتسكي خلال السنة الاولى لنفيه ، قرب الحدود الصينية ـ السوفياتية ، ولاسيما الانقسامات التي ظهرت منذ تلك الحقبة داخل المعارضة التروتسكية والتي حملت سمات سقوطها اللاحق قبل محاكمة موسكو . كل تلك الأحداث تقريباً تمت روايتها وشرحها انطلاقاً من عناصر جديدة ومجهولة حتى ايامنا هذه . وكما في الجزء السابق ، اهتممت بشكل خاص بتروتسكي اديباً وتكلمت بغزارة على افكاره حول العلم والأدب والفنون ، كما على اعماله كأول ناقد ادبي في روسيا حوالى عام ١٩٢٠ . وتستحق هذه الأعمال الاشارة اليها ، سواء لأنها تشهد على ذكاء واسع ، ومنفتح ، أو لأننا نجد فيها إدانة لكل وصاية سياسية على العلم والفن : إنها لا تزال تتمتع بالراهنية : فالتطورات التي حدثت في الاتحاد السوفياتي في هذا الحقل ، خلال « ذوبان الجليد » ما بعد الستاليني ، تتبع الطريق التي عيّنها تروتسكي . لكن يلزم بالتأكيد المزيد والمزيد من الوقت قبل أن تروج في الاتحاد السوفياتي مفاهيم بهذه الجرأة وبهذا القدر من قلة الدوغمائية .

واذا كنت اجتهدت في أن أؤدي بأكبر قدر ممكن من الأمانة كل خطوط الدراما التاريخية وكل خصوصياتها ، لم أتمكن في يوم من الايام أن أطرد من تفكيري الموضوعة المأساوية التي تجتازها من طرف لآخر وتلوّن كل الشخصيات . نحن هنا أمام تراجيديا حديثة ، وفقاً للتعريف الذي يعطيه عنها تروتسكي (انظر الفصل ٣) : « طالما ليس الانسان سيد تنظيمه الاجتماعي ، يسيطر هذا التنظيم عليه ويكون قدراً حقيقياً له . . إن مادة التراجيديا المعاصرة هي النزاع بين الفرد والجماعة ، أو بين جماعات متعادية يجسدها أفراد . » كان تروتسكي يعتبر « صعباً ان يقال مسبقاً إذا كانت الكتابة المسرحية الثورية ستنتج من نوع التراجيديا العظيمة » . ولا شك ان كتّاب المسرح السوفيات لم ينتجوا من هذا النوع الى الآن . لكن أي ايشيل أو أي سوفوكل حديثين يمكن أن يؤلفا تراجيديا بعظمة حياة تروتسكي ذاتها ؟ هل في وسعنا أن نتجرأ فنأمل أن تكون مع ذلك « تراجيديا متفائلة » ، تراجيديا لا يتألم بطلها ولا يموت عبثاً ؟

أدين بالكثير للسيد دونالد تيبرمان الذي قرأ مخطوطة هذا الكتاب ، كما سبق وفعل بالنسبة لكتبي الأخرى ، والذي كان بالنسبة لي مصدر تشجيع لا ينفد . ويهمني أن أشكر السيدين دان دافين وجون بل،على الانتقادات والايحاءات الواقعة في محلها تماماً التي وجهاها إليّ بصدد أسلوبي . وكما يحصل دائماً ، كانت امرأتي مساعدي الوحيد في أعمال البحث ؛ كانت كذلك قارئي الأول ، قارئاً لا يرحم بقدر ما هو عطوف .

إ . د .

الفصل الأول

المقدرة والحلم

صنع البلاشفة ثورة اوكتوبر ١٩١٧ مقتنعين بأن البشرية تبتدىء معها « القفزة الكبرى من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية » . رأوا النظام البورجوازي يتفكك ومجتمع الطبقات ينهار في اي مكان من العالم ، لا في روسيا وحدها . اعتقدوا ان الشعوب تتمرد اخيراً في كل مكان ضد الشروط التي تجعل منها لُعَباً في يد قوى الانتاج غير المنظمة اجتماعياً ، وضد فوضى وجودها الخاص بها . تصوروا ان العالم اصبح مستعداً للتحرر من ضرورة المعاناة وارهاق النفس للحصول على وسائل الحياة ، ومستعداً أيضاً لوضع حد لسيطرة الانسان على الانسان . حيّوا فجر ذلك العهد الجديد الذي سيحقق فيه الانسان انسانيته كليّاً ، على اساس ان كل طاقاته وقدراته ستطلق لنفسها العنان . بفضلهم سوف « تنتقل البشرية مما قبل التاريخ إلى التاريخ » ، وهو ما كانوا يعتزون به .

هذه الرؤيا الباهرة لم تلهم قلب القادة والمنظّرين والحالمين البلاشفة وروحهم وحسب ، بل غذّت كذلك أمل مجمل انصارهم ومحازبيهم ، وحميتهم . انطلقوا في الحرب الاهلية وقاتلوا بلا هوادة لأجل اعدائهم كما لأجلهم ، هم ، لأنهم كانوا يعتقدون انهم يقدمون بذلك لروسيا وللعالم فرصة تحقيق القفزة العجيبة من الضرورة الى الحرية .

حين انتصروا أخيراً ، لاحظوا أن روسيا الثورية ، ضحية جهودها الخاصة بها ، كانت في قاع هاوية . ما من أمة أخرى اقتفت مثالها الثوري . فروسيا المحاطة بعالم معاد ، أو على الأقل لا مبال ، كانت باقية وحدها ، منهكة ، ميتة من الجوع ، مرتعشة برداً ، رازحة تحت الأمراض ، غائصة في الظلام . وفي عفونة الدم والموت ، كان شعبها يبحث بجنون عن نسمة هواء ، شعاع رقيق من النور ، كسرة خبز . وكان يتساءل : « هل هذه هي مملكة الحرية ؟ هل هذا هو المكان الذي أوصلتنا اليه القفزةالكبرى الى الأمام ؟ » .

بماذا كان يمكن أن يجيب قادتهم ؟ قالوا إن الثورات الكبرى والمشهورة في القرون الخوالي اجتازت هي الأخرى فترات حرجة بتلك الدرجة من القساوة دون أن تجد منجزاتها

نفسها أقل تبريراً في نظر الاجيال اللاحقة ، وان روسيا ستخرج بدورها منتصرة من تلك الضائقة . ولا أحد كان يُحاجّ هكذا بقوة اقناع اكبر من الشخصية الرئيسية في هذا الكتاب . أمام الجموع الجائعة في بتروغراد وموسكو ، ذكّر تروتسكي بالحرمانات والتعاسة التي عرفتها فرنسا الثورية بعد سنوات طويلة من تدمير الباستيل ، وروى لها أن القنصل الأول كان يذهب شخصياً كل صباح الى أسواق باريس ، فيراقب بغمٍّ وقلق عربات الفلاحين القليلة التي كانت تجلب سلعاً من الريف ، وانه كان يعود في كل صباح وهو يعرف أن شعب باريس سيواصل الموت من الجوع[1] . وكانت المقارنة صحيحة تماماً ، لكن المقارنات التاريخية المعزّية ، مهما تكن دقيقة ووثيقة الصلة بالموضوع ، ما كان في وسعها أن تملأ المعدة الفارغة لروسيا .

ما كان باستطاعة أحد أن يسبر غور الهاوية التي سقطت فيها الأمة . في قاع تلك الهاوية ، كانت تبحث بصورة محمومة عن نقاط استناد صلبة ، عن مكان تضع فيه قدمها ، عن صدع تتمسك به اليد للاستعداد مجدداً للوثوب . ما أن تخرج روسيا الثورية من الهاوية ، حتى يكون لها أن تواصل بالتأكيد حركتها من الضرورة إلى الحرية . لكن كيف الصعود من جديد إلى حافة الهاوية ؟ كيف تهدئة الجحيم الذي كان في القاع ؟ كيف ضبط الجموع اليائسة والخروج بها ؟ كيف يمكن للجمهورية السوفياتية ان تتخطى البؤس والخواء المرعبين وتستمر في الوفاء بوعود الاشتراكية ؟

بادىء ذي بدء ، لم يحاول القادة البلاشفة أن يبخسوا قدر الوضع أو يجمّلوه ، ولا ان يخدعوا انصارهم . لقد حاولوا تنشيط شجاعتهم وأملهم بكلمات تعبر عن الحقيقة ، لكن الحقيقة العارية كانت قاسية جداً ، فلا يمكنها الانقاذ من البؤس وتهدئة اليأس . لذا بدأت تخلي المكان للكذب المسكِّن . إن الكذبة المعدَّة في الأصل لتمويه التباعد بين الحلم والحقيقة ، سرعان ما اكدت ان مملكة الحرية قد تم بلوغها ، وانها هي تلك الموجودة هناك في قاع الهاوية . « إذا رفض الناس التصديق ، سيلزم جعلهم يصدقون قسراً » . كبرت الكذبة شيئاً فشيئاً حتى أصبحت بارعة ومعقدة ، وضخمة ، بضخامة ما كان عليها أن تخفيه . ووجدت بين القادة البلاشفة مبشرين بها وانصاراً مخلصين اعتبروا انه من دونها ومن دون القوة التي تستند اليها ، لن يمكن للأمة أن تخرج من ورطتها . إلا أنه ما كان بامكان الكذبة الملائمة ان تتحمل المواجهة مع الرسالة الاصلية للثورة ، كما أنه بمقدار ما كانت تكبر لم يعد بامكان من كانوا ينشرونها أن يبقوا وجهاً لوجه ، أو جنباً الى جنب ، مع القادة

(١) تروتسكي ، سوشينيا ، ج ١٢ ، ص ٣١٨ - ٣٢٩ .

الأصيلين لثورة اوكتوبر الذين كانت الرسالة الثورية بالنسبة اليهم أمراً لا يمكن انتهاكه ، وبقيت كذلك .

لكنهم لم يرفعوا الصوت فوراً للاحتجاج . لم يتعرفوا حتى ، على الفور ، الى الكذبة ككذبة ، لأنها تسللت ببطء وبصورة غير محسوسة . لم يتمكن القادة الثوريون من الحيلولة دون أن يكونوا ضالعين فيها في البدء ؛ لكنهم نهضوا فيما بعد ، الواحد بعد الآخر ، مترددين ومضطربين ، ليفضحوا الكذبة ويدينوها ، ويتمسكوا ضدها بوعد الثورة المنتهَك . إلا أن اصواتهم ، التي كانت بالغة القوة والتأثير من قبل ، دوت في الفراغ في قاع الهاوية ولم يُسمع لها صدى وسط الجماهير الجائعة والمنهكة والمنهارة . وبين كل تلك الاصوات ، لم يرتجّ أي واحد بالقدر من الاقتناع الساخط الذي تميز به صوت تروتسكي . بدأ إذاك يأخذ قوامه كنبي اعزل من انبياء الثورة ؛ بدل أن يفرض ايمانه بالقوة لم يعد يستطيع الاستناد إلاّ الى قوة ايمانه .

حملت سنة ١٩٢١ ، في الأخير ، السلام الى روسيا البلشفية ، ومات صدى طلقات الرصاص الأخيرة في ميادين قتال الحرب الاهلية . كانت الجيوش البيضاء قد تفككت ، واختفت . وانسحبت قوات التدخل الاجنبية ، وتم توقيع الصلح مع بولونيا . أما الحدود الأوروبية للاتحاد السوفياتي فقد جرى تثبيتها .

وسط الصمت الذي ران على ساحات القتال ، كانت روسيا البلشفية ، المتوترة ، تصغي إلى الضجيج الذي يصلها من العالم الخارجي ، وتعي انعزالها وهي مغمومة قلقة . فمنذ صيف ١٩٢٠ ، منذ انهزم الجيش الأحمر على ابواب ڤارصوفيا كانت الحمىّ الثورية قد خبت . استعاد النظام القديم بعضاً من توازنه ، توازناً هشّاً لكنه كافٍ للسماح للقوى المحافظة بأن تخرج من البلبلة والذعر . لم يكن في مستطاع الشيوعيين أن يعتمدوا على فتوحات ثورية جديدة في المستقبل القريب ، وما كان يمكن لأي محاولة للتسبب بفتوحات جديدة أن تؤدي إلا إلى كوارث مكلفة . وقد لوحظ ذلك جيداً في آذار / مارس ١٩٢١ ، حين انفجرت في أواسط المانيا انتفاضة يائسة وسيئة الإعداد . أما الانتفاضة فشجعها ، لا بل استثارها جزئياً زينوڤييف ، رئيس الاممية الشيوعية ، وبيلاكون ، القائد البائس للثورة المجرية لعام ١٩١٩ ، اللذان كانا يعتقدان ، كلاهما ، بأن انتفاضة قد تكهرب الجمهور الخامل للطبقة العاملة الالمانية وتدفعه للعمل[٢] . إلا أن الجمهور لم يتحرك وقمعت

(٢) تروتسكي ، بيات ليت كومنترنا ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٧ ؛ رادك ، بيات ليت كومنترنا ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ ، ؛ تريتبي فسيميرنيي كونغرس كومنترنا ، ص ٥٨ ، وص ٣٠٨ ؛ لينين ، سوش ، ، ج ٣٢ ، ص ٤٤٤ ـ ٤٥٠ وهنا وهناك.

الحكومة الالمانية الانتفاضة بسهولة . وهذا الفشل القى بالحركة الشيوعية الالمانية في الفوضى والارتباك ، وقطع قائد الحزب الشيوعي الالماني ، پول ليڤي ، علاقته بالأممية ، مطلقاً اتهامات مريرة . وهكذا كانت نتيجة انتفاضة آذار / مارس زيادة إضعاف قوى الشيوعية في اوروبا ، وتقوية شعور روسيا السوفياتية بالعزلة .

كانت الأمة التي يحكمها حزب لينين في حالة قريبة إلى التفكك ، فالاسس المادية لوجودها كانت قد اهتزت وتصدعت . ويكفي التذكير بأنه مع نهاية الحرب الاهلية لم يكن دخل روسيا القومي يبلغ ثلث ما كان في عام ١٩١٣ ، وبأن الانتاج الصناعي لم يكن يبلغ خمس مستواه لما قبل الحرب ، وبأن مناجم الفحم لم تكن تنتج إلا عشر انتاجها العادي ، وصناعة التعدين إلا واحداً على أربعة عشر ، بينما كانت سكك الحديد مدمرة ، وكانت المخزونات ، والاحتياطيات ، التي يستند اليها سير كل اقتصاد ، مستنفدة كلياً ، ولم يعد يتم تبادل المنتجات بين المدن والأرياف ، وأقفرت المدن والأرياف الى حد انه لم يعد يسكن موسكو عام ١٩٢١ إلا نصف سكانها من قبل ، ولم يعد يسكن بتروغراد الا ثلثهم . ومنذ اشهر عديدة لم يعد سكان تينك العاصمتين يحصلون يومياً إلا على وجبة غذائية مؤلفة من ستين غراماً من الخبز وبضعة رؤوس بطاطا مجلدة ، وكان عليهم أن يشعلوا أثاث بيوتهم كي يستدفئوا . هذه الصورة تعطينا فكرة عن وضع الأمة الروسية في السنة الرابعة من ثورتها(٣) .

لم تكن لدى البلاشفة الرغبة في الاحتفال بالنصر ، وقد اجبرتهم انتفاضة كرونشتادت في الأخير على التخلي عن شيوعية الحرب واصدار السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) . كان هدفها الفوري هو دفع الفلاحين لبيع منتجاتهم والتجار لنقل المنتجات الزراعية من الريف الى المدينة ، من المنتج إلى المستهلك . وكانت تلك بداية سلسلة من التنازلات للزراعة والتجارة الخاصتين ، بداية ذلك « التراجع القسري » الذي اضطرت حكومة لينين ـ وفقاً لما اعترفت هي به ـ إلى القيام به أمام جمهور الملاّكين الصغار الفوضوي الذي كان يشكل الجزء الأكبر من السكان .

وسرعان ما حلت بالبلاد كارثة كبرى ، فالمنطقة الزراعية في الڤولغا ، المزدحمة بالسكان ، عرفت إحدى أسوأ المجاعات في التاريخ . فمنذ ربيع ١٩٢١ ، بعد انتفاضة كرونشتادت مباشرة ، تلقت موسكو تقارير مثيرة للذعر ، تتحدث عن الجفاف والعواصف

(٣) كريتسمان ، جيرويشسكي بيريود ڤيليكوي روسكوي ريڤولوشيي ، ص ١٥٠ ؛ ٣ سييزد بروفسويوزوف ، ص ٧٩ ـ ٨٦ ، وتقرير ميليوتين ، في ٤ سييزد بروفسوريوزوف ، ص ٧٢ ـ ٧٧ .

الرملية وعن غزو الجراد في مقاطعات الجنوب والجنوب الشرقي . أما الحكومة فغالبت كبرياءها وطرحت الصوت على المنظمات الخيرية البورجوازية في الخارج . وفي تموز/يوليو، كان هناك خوف من أن تصيب المجاعة عشرة ملايين فلاح ؛ وفي نهاية العام ، أصابت هذه ٣٦ مليون فلاح(٤) . وقد فرت جموع لا تحصى أمام عواصف الرمل وامطار الجراد ، وهامت كلياً على وجهها يائسة في السهول الواسعة . وذرّ أكل لحوم البشر بقرنه ، في سخرية مشؤومة بالمثل الاشتراكية العليا التي نادت بها العاصمتان .

سبع سنوات من الحرب العالمية ، والثورة ، والحرب الاهلية ، والتدخل الخارجي وشيوعية الحرب ، كانت قد هزت المجتمع الى حد ان الافكار والنظريات والشعارات السياسية المعتادة فقدت تقريباً أي معنى . لم تتم اطاحة البنية الاجتماعية لروسيا وحسب ، بل جرى سحقها وتدميرها . كانت الطبقات الاجتماعية التي تجابهت بجنون وبلا هوادة في الحرب الاهلية إما منهكة وواهنة أو معدومة ، ما عدا قسماً من الفلاحين ، لقد هلكت الارستقراطية العقارية في حريق قصورها وفي ساحات الحرب الاهلية ، ومن بقي منها هربوا الى الخارج مع بقايا الجيوش البيضاء التي تفرقت ايدي سبأ . أما البورجوازية ، التي لم يكن عددها كبيراً في يوم من الأيام ، والتي لم تحصل أبداً على الكثير من الأمن السياسي ، فقد هلك العديد من اعضائها ، أو هاجروا . والذين بقوا على قيد الحياة ، وظلوا في روسيا وحاولوا التكيف مع النظام الجديد ، فلم يكونوا غير حطام طبقتهم . وشاطرت البورجوازية مصيرها الانتليجنسيا القديمة ، وبدرجة أقل ، البيروقراطية : ذهب البعض الى الغرب يأكلون خبز المهاجرين ، والتحق آخرون بسادة روسيا الجدد بصفة « اختصاصيين » . ومع انبعاث التجارة الخاصة ، ظهرت بورجوازية محدثي نعمة جديدة . اعضاء هذه البورجوازية ، الذين اطلقت عليهم تسمية النيپمان التحقيرية ، شرعوا يستفيدون بعزم وبسرعة من الفرص التي كانت النيب تقدمها لهم ، فجمعوا ثروات طفيلية واستمتعوا بالوقت الحاضر بشعور من يعيشون بين طوفانين ، ذلك الذي اجتازوه وذلك الذي لن يعتم ، في رأيهم ، أن يحدث . هذه الشريحة الاجتماعية الجديدة ، التي كان يحتقرها حتى من بقوا على قيد الحياة من البورجوازية القديمة ، لم تتطلع إلى اعطاء نفسها فكراً سياسياً خاصاً بها . كانت سوخاريفسكا ، السوق السوداء الوضيعة والوقحة في موسكو ، رمز وجودها الاجتماعي واخلاقيتها .

ومن النتائج الغريبة والمشؤومة للصراع ، ان الطبقة العاملة ، التي كان يفترض انها

---

(٤) انظر تقرير كالينين ، في ٩ ڤسيروسيكي سييزد سوڤييتوف ، ص ٢٣ - ٢٦ .

تمارس الآن ديكتاتوريتها ، كانت هي الأخرى معدومة . فالعمال الأكثر جسارة والأفضل تكويناً سياسياً ، إما قضوا خلال الحرب الأهلية ، أو غدوا يحتلون مراكز مسؤولية في الادارة الجديدة ، في الجيش والشرطة والمنشآت الصناعية وجمهرة المؤسسات والاجهزة المنشأة حديثاً . هؤلاء البروليتاريون ، الواعون لأصلهم والمعتزون به ، الذين غدوا مفوّضين ، توقفوا في الواقع عن الانتساب إلى الطبقة العاملة . ومع الوقت ، انفصل العديد منهم عن العمال ، واندمجوا بالوسط البيروقراطي . أصبح جمهور البروليتاريا أيضاً منتزعاً من طبقته . فقد غادرت حشود من العمال المدينة إلى الريف خلال سنوات المجاعة ؛ ولما كان معظمهم مدينيين من الجيل الأول وكانوا قد احتفظوا بجذور لهم في الريف ، امتصتهم طبقة الفلاحين مجدداً بسهولة . وفي السنوات الأولى للنيب حدث نزوح في الاتجاه المعاكس ، من الريف الى المدن ، عاد بعض العمال القدامى الى المدن ، لكن معظم القادمين الجدد كانوا فلاحين اميين ، لا تجربة لديهم ، ولا تقليد سياسي ، ولا ثقافي بالطبع . لكن في السنتين ٢١ و ٢٢ ، بقيت الهجرة من الريف إلى المدينة خفيفة جداً .

أدى تشتت الطبقة العاملة القديمة إلى ظهور فراغ في روسيا المدينية . فالحركة العمالية القديمة ، باستقلالها ووعيها الطبقي ، وبمؤسساتها ومنظماتها المتعددة ، بنقاباتها وتعاونياتها وجمعياتها الثقافية ، التي كانت تضج دائماً في الماضي بنقاشات عنيفة ومحمومة ، وتعج دوماً بالنشاط السياسي ، هذه الحركة لم تعد الآن غير صدفة فارغة . هنا وهناك ، كانت مجموعات صغيرة من مجرّبي نضال الطبقات تلتقي لنقاش منظورات الثورة . كانوا شكلوا حقاً في الماضي « طليعة » الطبقة العاملة ، بينما لم يعودوا الآن غير حفنة ، ولم يعد بإمكانهم أن يروا خلفهم الجزء الأكبر من طبقتهم الذي كان يصغي اليهم في الماضي ويأخذ برأيهم ويتبعهم وسط المعمعة إبان المعارك الاجتماعية[٥] .

كانت الديكتاتورية البروليتارية ظافرة ، لكن البروليتاريا اختفت تماماً تقريباً . لم تكن يوماً غير أقلية في الأمة ، واذا كانت لعبت دوراً حاسماً في ثلاث ثورات ، فلم يكن ذلك بفعل اهميتها العددية بل بسبب الدينامية الخارقة لتنظيمها ولفكرها السياسي . ففي ذروة نشاط الصناعة الروسية الكبرى ، لم تستخدم يوماً أكثر من ثلاثة ملايين عامل ، وفي نهاية الحرب الاهلية ، هبط العدد الى النصف . كما أن عدداً مهماً كان لا يعمل شيئاً لأن المصانع لا تدور ، وكانت الحكومة تستمر في تهيئة جداول دفع لهم لأسباب تتعلق بالسياسة الاجتماعية : كانت هنالك ضرورة أن تُنقذ ، للمستقبل ، نواة للطبقة العاملة . كان

---

(٥) انظر ٤ سيزد ، پروفسويوزوف ، تقارير لبوخارين ولوزوفسكي وميليوتين .

العمال ، في الواقع ، فقراء ؛ فإذا كان الأجر يُدفع نقداً ، لم يكن بإمكان العامل أن يشتري شيئاً ، بنتيجة الهبوط الكارثي لقيمة الروبل . ولكي يكسب قوته ، كان عليه ممارسة مهن غريبة ، كالبيع في السوق السوداء أو نهب القرى المحيطة للحصول على التموين . واذا حصل على أجره عيناً ، لا سيما بصورة منتجات لمصنعه ، كان يهرع الى السوق السوداء ليحصل مقابل زوج أحذية أو قطعة قماش على الخبز أو البطاطا . فاذا لم يتوافر له ما يبادله ، كان يعود الى المصنع ليسرق منه أداة ، أو بضعة مسامير أو كيس فحم ، يمضي فيبيعها في السوق السوداء . وكانت السرقة في المصانع منتشرة لدرجة أنه كان يُقدَّر أن نصف العمال يسرقون عادةً السلع التي أنتجوها بذاتهم[٦] . ولا يصعب تخيّل النتائج التي أمكن أن يؤدي اليها الجوع والبرد والبطالة المريعة في المصانع ، وفوضى السوق السوداء ، والغش والسرقة ـ الصراع شبه البيولوجي من أجل الحياة ـ على معنويات أولئك الذين كان مفترضاً أنهم يشكلون الطبقة القائدة في الدولة الجديدة .

الفلاحون ، وحدهم ، بما هم طبقة اجتماعية ، لم يتحطموا . فلا شك ان الحرب العالمية والحرب الأهلية والمجاعة انتزعت منهم ضريبتها ، لكنها لم تحطم المرتكزات والنوابض الاساسية للحياة الفلاحية . لم تجهز على مقاومتها وعلى طاقات الانبعاث والتجدد لديها : إن أسوأ الآفات بالذات ما كان يمكنها أن توجه إصابة قاتلة لجمهور الفلاحين الواسع الذي لما كان منيعاً مناعة الطبيعة ذاتها ، لم يحتج من أجل مواصلة الحياة إلا للاستمرار بالعمل في صلة مع الطبيعة ، بينما اختفى الشغيلة الصناعيون حين انهار الجهاز الصناعي المفتعل الذي كان يرتكز عليه وجودهم . لقد حافظت طبقة الفلاحين على طابعها ومكانتها في المجتمع ، وعززت موقعها على حساب الارستقراطية العقارية ، وكان يمكنها الآن أن تجري جردة بالارباح والخسائر التي تسببت بها الثورة حيالها . ولما كانت المصادرات قد توقفت ، كان الفلاحون يأملون ان يجنوا كامل الحصاد في ملكياتهم المتوسعة . وفي الحقيقة أنهم كانوا يعيشون في فقر مدقع ، إلا أن هذا الفقر الذي كان يتماشى مع تأخرهم الاقتصادي كان جزءاً من ارثهم الاجتماعي . وبعد أن تحرر الفلاحون من سيطرة الأسياد ، كانوا يفضلون الفقر في قطع الأرض الصغيرة التي غدوا يملكونها،على منظورات الوفرة الشيوعية التي كان المحرضون المدينيون يلوّحون بها أمام أعينهم . لم يعد مذاك لخطب أولئك المحرضين واحاديثهم تأثير كبير على الموجيك ، الذين لاحظوا أنه ، منذ قليل ، اصبح المحرضون يتحاشون إزعاجهم ، لا بل يسعون لكسب

(٦) أكد لوزوفسكي ان الأنتاج كانت تتم سرقته في بعض المصانع ؛ وثمة تقديرات بأن الأجور لم تكن تغطي إلا ٢٠ ٪ من الحد الادنى لحاجات العامل . المرجع ذاته . ص ١١٩ .

ودهم ويتملقونهم . في الوقت الحاضر ، كان الموجيك حقاً هو الابن المدلل للحكومة البلشفية ، الراغبة في اعادة وصل ما انقطع بين المدينة والريف ، و« التحالف بين العمال والفلاحين » . ولما كانت الطبقة العاملة عاجزة عن اشعار الآخرين بوزنها ، كانت أهمية الفلاحين تزداد ، وكل شهر ، كل اسبوع ، كان يقدم للفلاح الف برهان على وزنه الجديد ، فتزيد ثقته بذاته بالنسبة نفسها .

إلا أن هذه الطبقة الاجتماعية التي كانت الوحيدة التي احتفظت بطابعها، وبمكانتها في المجتمع كانت عاجزة سياسياً تبعاً لطبيعتها بالذات. لقد وصف كارل ماركس قديماً بتعابير مذهلة «بلاهة الحياة الريفية»، التي حالت في القرن الماضي دون تمكن الفلاحين الفرنسيين من «الدفاع عن مصالحهم الطبقية باسمهم الخاص بهم»؛ وينطبق تحليله تماماً على طبقة الفلاحين الروس، في العشرينات من قرننا هذا: «إن الفلاحين... يعيشون جميعاً في ظروف متشابهة، لكن دون أن يقيموا فيما بينهم علاقات متشعبة. إن نمطهم في الانتاج يعزلهم بعضهم عن البعض الآخر، عوضاً عن دفعهم نحو إقامة علاقات متبادلة. وتشتد هذه العزلة بسبب وسائل المواصلات السيئة... والفقر. إن استغلال قطعة الأرض الصغيرة لا يسمح بأي تقسيم للعمل... ولا يسمح بالتالي بأي تنوع في التطور، ولا بتنوع المواهب أو بغنى العلاقات الاجتماعية. إن كل اسرة فلاحية مكتفية ذاتياً تقريباً، وهي تنتج بنفسها مباشرة الجزء الأكبر مما تستهلكه، وتحصل بذلك على وسائل معيشتها من التبادل مع الطبيعة اكثر مما من التعامل مع المجتمع. هنا قطعة أرض صغيرة وفلاح وأسرته. وهناك قطعة ارض صغيرة أخرى وفلاح آخر وأسرة أخرى. إن مجموعة من هذه الوحدات تشكل قرية، ومجموعة قرى تشكل مقاطعة. وبهذه الطريقة تتكون الجمهرة العظمى من الأمة الفرنسية بمجرد اضافة مقادير متناظرة بعضها لبعض، مثلما يشكل كيس ممتلىء بطاطا كيس بطاطا، تقريباً»(٧) .

بدا كيس البطاطا الضخم الذي كانت تشكله روسيا الريفية عاجزاً كلياً عن الدفاع عن نفسه « باسمه الخاص به » . في الماضي ، مثلته الانتليجنسيا الشعبوية أو الاشتراكية الثورية وتكلمت باسمه . لكن الحزب الاشتراكي الثوري ، الذي أفقده حظوته رفضه دعم الثورة الزراعية ، ثم جرى دفعه الى السرية ، ودمره البلاشفة في الأخير ، لم يعد له أي دور يلعبه . كان كيس البطاطا هناك ، ضخماً ، ومخيفاً ، وأخرس . لم يكن يمكن لأحد أن يحرف عنه الانظار ، ولم يكن يمكن لأحد أن يتجاهله ، أو يدوسه بالأقدام دون عقاب .

---

(٧) ماركس ، ١٨ برومير لويس بونابرت .

لقد سبق أن ضرب روسيا المدينية على رأسها ، مما استوجب انحناء القادة البلاشفة أمامه . لكن لم يكن يمكن لكيس البطاطا ان يقدم هيكلاً وشكلاً وإرادة وصوتاً لمجتمع فاقد الشكل ومتفكك .

هكذا ، بعد سنوات على الثورة ، كانت الأمة عاجزة عن تسيير شؤونها الخاصة بها ، والدفاع عن نفسها بواسطة ممثليها الشرعيين ، فالطبقات الحاكمة القديمة انسحقت ، أما الطبقة القائدة الجديدة ، البروليتاريا ، فلم تعد غير ظل لما كانت في الماضي . لم يكن يمكن لأي حزب ان يدعي تمثيل الطبقة العاملة المشتتة ، ولم يكن في وسع العمال ان يراقبوا الحزب الذي كان يدعي التكلم لحسابهم ويدير البلاد باسمهم .

ماذا كان يمثل الحزب البلشفي إذاً ؟ لم يكن يمثل غير نفسه ، اي ارتباطه الماضي بالطبقة العاملة ، وارادته الحالية العمل كحارس لمصالح البروليتاريا ، ونيته في ان يجمع إبان اعادة البناء الاقتصادي ، طبقة عاملة جديدة تكون قادرة في اللحظة المناسبة على ان تمسك بيدها مصير البلاد . لكن طالما لم يحن موعد تلك اللحظة ، كان الحزب البلشفي يحتفظ بالسلطة بنوع من الاغتصاب . وقد نظر اليه اعداؤه كمغتصب ، لكنه ظهر كمغتصب حتى بنظر مقاييسه ومفاهيمه الخاصة به ، بصدد الدولة الثورية .

الكل يذكر أن أعداء البلشفية نددوا منذ البدء بثورة اوكتوبر ، ثم بحل الجمعية التأسيسية عام ١٩١٨ ، كعملين من اعمال الاغتصاب . ولم يول البلاشفة اهتماماً خاصاً لهذا الاتهام : أجابوا بأن الحكومة التي انتزعوا السلطة منها في اوكتوبر لم تستند لأي هيئة تمثيلية منتخبة ، وأن الثورة سلمت السلطة لحكومة تساندها الاغلبية الساحقة لمجالس نواب العمال والجنود ، وكانت مجالس منتخبة وتمثيلية . ولما كانت السوفييتات قائمة على مبدأ التمثيل الطبقي ، فقد كانت تشكل من حيث تحديدها اجهزة ديكتاتورية البروليتاريا . لم يتم انتخابها بالاقتراع العام ، فالنبلاء والبورجوازيون حرموا من حق التصويت ، والفلاحون لم ينتخبوا نواباً إلا بمقدار ما لا تهدد نسبتهم رجحان عمال المدن . ولم يصوّت العمال كأفراد وفي دوائر انتخابية تقليدية ، بل في المصانع والمشاغل ، بما هم اعضاء في وحدات الانتاج تلك التي كانت تتألف منها طبقتهم . لم يكن هنالك غير ذلك التمثيل الطبقي الذي كان يعتبره البلاشفة منذ عام ١٩١٧ أساساً صالحاً للشرعية(٨) .

وبالضبط ، بنظر المفهوم البلشفي للدولة العمالية ، توقفت حكومة لينين شيئاً فشيئاً عن ان تكون تمثيلية . فمن الناحية النظرية ، كانت لا تزال تستند إلى السوفييتات ، لكن

(٨) لينين ، سوش ، . ج ٢٦ ، ص ٣٩٦ - ٤٠٠ ؛ تروتسكي ، الشيوعية والارهاب .

السوفييتات في ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ ، على عكس سوفييتات ١٩١٧ ، لم تكن ـ ولم يكن بإمكانها أن تكون ـ تمثيلية . لم يكن ممكناً ، بالنسبة اليها ، أن تمثل طبقة عاملة لم تعد موجودة عملياً. كانت مجالس خلقها الحزب البلشفي، لذا حين كانت حكومة لينين تزعم أنها تحصل على سلطتها من السوفييتات، كان الواقع هو أن السوفييتات هي التي كانت تأخذ منها سلطتها الخاصة بها.

إن دور المغتصب فرض نفسه على الحزب البلشفي . لم يعد ممكناً بالنسبة إليه ان يبقى أميناً لمبدئه طالما تبددت الطبقة العاملة . ماذا كان يمكن للحزب أن يفعل ضمن تلك الظروف ، او ماذا كان عليه أن يفعل ؟ هل كان عليه ان يستقيل ، ان يتخلى عن السلطة ؟ إن حكومة ثورية ، انخرطت في حرب أهلية مدمرة وعديمةالرحمة ، لا تتخلى عن سلطتها غداة النصر ولا تسلم نفسها لأعدائها المهزومين ولانتقامهم ، حتى لو عجزت عن الحكم بالتوافق مع مبادئها الخاصة بها ، ولو لم تعد تتمتع بالدعم الذيكانت تستحوذ عليه يوم القت بنفسها في غمار الحرب الاهلية . لقد فقد البلاشفة هذا الدعم ، لا لأن انصارهم القدامى مالوا عنهم بصراحة ، بل لأن هؤلاء قد زالوا . كانوا يعرفون أن انتدابهم الحكومي لم تجدده لهم في الواقع الطبقة العاملة ، كما لم يجدده لهم الفلاحون بوجه خاص . لكنهم كانوا يعرفون أيضاً أنه يحيط بهم فراغ عظيم ، وأنه لا يمكن ملء ذلك الفراغ إلا ببطء ، ومع مرور السنين ، وأنه لا يمكن الآن لأحد أن يمدد لانتدابهم أو أن يلغيه . إن كارثة اجتماعية ، قوة قاهرة ، جعلت منهم مغتصبين ، لذا رفضوا أن يعتبروا أنفسهم بهذه الصفة .

إن الاختفاء السريع الى هذا الحد لطبقة اجتماعية نشيطة ومقاتلة وضمور المجتمع الذي تلا الحرب الاهلية كانا يشكلان ظاهرة غريبة ، بالتأكيد ، لكن غير فريدة في التاريخ . فخلال ثورات عظيمة أخرى انهار المجتمع المنهك ، وحدث تحول مشابه على صعيد الحكومة الثورية . لقد رفعت الثورة البيوريتانية الانكليزية والثورة الفرنسية الكبرى ، كلاهما ، المبدأ الجديد للحكم التمثيلي في وجه النظام القديم . دافع البيوريتانيون عن حقوق البرلمان ضد التاج ، وفعل الشيء نفسه قادة الطبقة الثالثة الفرنسية حين شكلوا جمعية وطنية . تلا ذلك اضطراب شامل وصراع أهلي ، لم يعد يمكن بعدهما لقوى النظام القديم ان تسيطر على المجتمع ، في حين كانت الطبقات التي ساندت الثورة عميقة الانقسام وشديدة الانهاك بحيث كانت عاجزة عن ممارسة السلطة . ما من حكومة تمثيلية كانت بالتالي قيد الامكان ، وكان الجيش الهيئة الوحيدة الممتلكة وحدة ارادة ، وتنظيماً وانضباطاً بما يكفي للتحكم بالفوضى والخواء . وقد اعلن عن نفسه حارس

المجتمع وأقام سلطان السيف ، وهو شكل من الحكم الاغتصابي الفظ . وفي انكلترا ، تجسد الطوران الكبيران من اطوار الثورة بالشخص ذاته : لقد قاد كرومويل ، في البدء ، مجلس العموم لمهاجمة التاج ، وبعد أن أعلن نفسه اللورد الحامي* ، اغتصب سلطات التاج وسلطات مجلس العموم . أما في فرنسا ، فحصل فصل واضح بين الطورين اللذين كان لكل منهما اشخاصه التاريخيون الخاصون به . ولم يلعب الغاصب بونابرت ، في الواقع ، اي دور مهم في الاعمال الأولى للثورة .

في روسيا ، كان الحزب البلشفي الجسم الموحد والمنضبط بشكلٍ وثيق ، الذي تحركه ارادة واحدة ، والذي كان قادراً على قيادة الأمة المتفككة وتوحيدها . ولم تعرف الثورات السابقة حزباً مماثلاً ، فقوة البوريتانيين الرئيسية كانت جيش كرومويل ، لذا خضعوا في نهاية المطاف لسيطرة الجيش . وولد الحزب اليعقوبي خلال الهزة : إذا كان حمله مد الثورة فقد انهار وزال مع جزْرها . وعلى العكس من ذلك ، كان الحزب البلشفي يمتلك منظمة صلبة وممركزة قبل ١٩١٧ بزمن طويل . وهذا ما سمح له بالاضطلاع بقيادة الثورة ، وبأن يلعب بعد الانحسار ، وطيلة عقود عديدة ، الدور الذي لعبه الجيش في فرنسا وانكلترا الثوريتين ، ويضمن الاستقرار الحكومي ، ويعمل على توحيد البلاد وإعادة قولبة الحياة القومية .

كان الحزب البلشفي معداً تماماً ، من حيث تكوينه الذهني وتراثه السياسي ، لدور المغتصب ، ومع ذلك غير متكيف ، بشكل خاص ، مع ذلك الدور . لقد أعد لينين تلامذته لدور « طليعة » الطبقة العاملة ونخبتها . ولم يكتف البلاشفة يوماً بالتعبير عن اتجاهات الطبقة العاملة وتطلعاتها الحاضرة ، بل كانوا يعتبرون أن من مهمتهم اعطاء تلك الاتجاهات شكلها ، والايحاء بتلك التطلعات وتطويرها . كانوا يعتبرون انفسهم الأوصياء السياسيين على الطبقة العاملة ، وكانوا مقتنعين ، كماركسيين منطقيين ، بأنهم يعرفون ، أفضل من الطبقة العاملة المضطهدة والمتخلفة ، اين تكمن مصلحتها التاريخية ، وما ينبغي فعله لتأمينها . ونحن نذكر انه بسبب هذا الموقف كان تروتسكي الشاب قد اتهم البلاشفة بأنهم يريدون « إحلال » حزبهم محل الطبقة العاملة ويزدرون اماني العمال ورغباتهم الأصيلة[٩] . إن الاتهام ، في الحقبة التي صاغه فيها تروتسكي للمرة الأولى ، عام ١٩٠٤ ، كان يستبق الوقائع كثيراً . ففي عام ١٩١٧ ، كما في عام ١٩٠٥ ، كانت التدخلات البلشفية في الثورة متناسبة بشكل بالغ الدقة مع الدعم البروليتاري الذي كان

(*) تعبير يطلق في انكلترا على الوصي على العرش (م) .

(٩) انظر النبي المسلح

يمكنها ان تعتمد عليه . كان لينين وفريقه يتفحصان بنظرة باردة ونقدية أدنى تموجات مزاج العمال السياسي ، وكانت قراراتها السياسية تأخذانها بالحسبان بعناية . لم يتصور البلاشفة يوماً ان بإمكانهم استلام السلطة والاحتفاظ بها من دون مساندة اغلبية العمال ، أو العمال والفلاحين . وحتى حدوث الثورة ، وخلالها ، لا بل بعدها بفترة ، أرادوا إخضاع قراراتهم السياسية لـ « حكم الديمقراطية البروليتارية » ، أي لتصويت الطبقة العاملة .

لكن حوالى نهاية الحرب الاهلية ، غدا « حكم الديمقراطية البروليتارية » جملة خالية من المعنى . كيف كان يمكن التعبير عن هذا الحكم بينما الطبقة العاملة مشتتة ومنزوعة الهوية الطبقية ؟ أفي الانتخابات للسوفييتات ؟ أفي العمل « العادي » للديمقراطية السوفياتية ؟ كان البلاشفة يعتقدون أنه سيكون ، من جانبهم ، ذروة الجنون إذا اهتدوا في نشاطهم بتصويت بقية يائسة من الطبقة العاملة وبأمزجة اكثريات عرضية يمكن ان تتكون داخل سوفييتات وهمية . وقد انتهوا في الواقع - وتروتسكي معهم - إلى إحلال حزبهم محل الطبقة العاملة . ماثلوا ارادتهم وفكرهم مع ما كانوا يعتقدون أنه قد يكون إرادة طبقة عاملة نشيطة وفكرها . وقد جعلت هذا الاحلال اكثر سهولة عادتهم بأن يعتبروا انفسهم كالمعبرين عن مصالح البروليتاريا الطبقية . إن الحزب ، الذي كان طليعة قديمة ، وجد من الطبيعي ان يعمل باسم الطبقة العاملة وبدلاً منها خلال تلك الفسحة الزمنية الغريبة ، والقصيرة (حسبما كان يأمل) التي كانت هذه الطبقة إبانها في حالة تفكك . هكذا وجد البلاشفة تبريراً اخلاقياً لدورهم كمغتصبين ، سواء في تراثهم السياسي ، او في الوضع الراهن للمجتمع .

لكن التراث البلشفي كان دمجاً دقيقاً لعناصر متنوعة . فثقة الحزب بنفسه ، وتفوّقه ، وشعوره برسالته الثورية ، وانضباطه الداخلي وقناعته الراسخة بأن السلطة autorité ضرورية لنجاح الثورة البروليتارية ، كل هذه الصفات اعطت البلشفية ميولها الى نزعة التسلط . لكنه كان يوازنها في السابق اتصال الحزب الوثيق بالطبقة العاملة الحقيقية ، ليس فقط بطبقة عاملة نظرية ، والأخلاص الأصيل من جانب الحزب لهذه الطبقة ، وقناعته الحارة بأن سعادة المستغَلين والمضطهدين هي هدف الثورة الاساسي ، وبأن العامل سيغدو في أحد الأيام السيد الحقيقي للدولة الجديدة ، وبأن التاريخ سيصدر بنفسه حكماً صارماً وعادلاً على كل الأحزاب ، وعلى أعمالها ، بما فيها الحزب البلشفي . كانت فكرة الديمقراطية البروليتارية لا تنفصل عن هذا الموقف . وحين كانت البلشفية تشير الى الديمقراطية البروليتارية كانت تعبر عن احتقارها للديمقراطية البورجوازية الشكلية والمحبطة ، وتبدي استعدادها لتدوس بالأقدام ، عند الحاجة ، الطبقات غير

البروليتارية ، لكنها كانت تشعر في الوقت ذاته بأن عليها واجباً مطلقاً هو واجب احترام ارادة الطبقة العاملة ، حتى لو كانت على خلاف مؤقت معها .

لقد تغلب لدى البلاشفة ، في الفترات الأولى للثورة ، الميل الى الديمقراطية البروليتارية . أما الآن فأصبح الرجحان للاتجاه الى القيادة التسلطية . إن البلشفي ، الذي بدأ يعمل دون أن تكون الطبقة العاملة وراءه ، كالعادة ، استمر بفعل العادة يتذرع بإرادة الطبقة العاملة ليبرر أدنى عمل يقدم عليه . لكن ما كان يستند اليه لم يكن غير حقيقة نظرية ، معيار مثالي للسلوك ، وخلاصة القول اسطورة . شرع يعتبر حزبه لا كمستودع لمثال الاشتراكية الاعلى المجرد وحسب بل كذلك كمستودع للرغبات الملموسة للطبقة العاملة . وحين كان بلشفي ـ من عضو المكتب السياسي حتى مناضل الخلية الأكثر تواضعاً ـ يقول إن « البروليتاريا تصر » أو « تشترط » أو « لن تقبل أبداً » ، كان يعني أن حزبه أو قادته « يصرون » أو « يشترطون » أو « لن يقبلوا أبداً » . ومن دون ذلك التزييف نصف الواعي ، كان تعرَّض الفكر البلشفي للشلل . ما كان بإمكان الحزب أن يسلّم ـ أو حتى أن يقر أمام نفسه ـ بأن الديمقراطية البروليتارية لم تعد تمتلك قاعدة . وفي الحقيقة أن القادة البلاشفة اعترفوا بصراحة ، في بعض لحظات الوضوح القاسي ، بصعوبات الوضع . لكنهم كانوا يأملون بأن يسمح بتجاوزها الزمن والانبعاث الاقتصادي وإعادة تكوين الطبقة العاملة . وكانوا يعودون للكلام والعمل كما لو لم توجد تلك الصعوبات أبداً وكما لو كانوا يعملون استناداً إلى وكالة بديهية وشرعية من جانب الطبقة العاملة(١٠) .

كان البلاشفة قد ألغوا آنذاك كل الأحزاب الأخرى وأقاموا احتكارهم السياسي . كانوا يفهمون انه لا يمكنهم السماح لخصومهم بالتعبير عن أنفسهم بحرية وبالاحتكام الى تصويت السوفييت ، دون جعل الثورة ، وأنفسهم ، يتعرضون لمخاطر عظيمة . كان

(١٠) في مؤتمر للسوفييتات ، في كانون الأول / ديسمبر ١٩٢١ ، قال لينين مهاجماً اولئك الذين كانوا يقدمون انفسهم في الغالب كـ « ممثلين للبروليتاريا » : « أعذروني ، لكن ما الذين تعنون بكلمة بروليتاريا ؟ تعنون طبقة الفلاحين هذه التي تعمل في الصناعة الكبرى لكن اين صناعتـ (كم) الكبرى ؟ بأي نوع من البروليتاريا يتعلق الأمر ؟ اين صناعتكم ؟ لماذا تسترخي وتنعس ؟ » (لينين ، سوش . ، ج ٣٣ ، ص ١٤٨ .) وفي آذار / مارس ١٩٢٢ ، عاد لينين في المؤتمر الحادي عشر للحزب الى مساجلته ، فقال : «منذ الحرب ، ليس أناس الطبقة العاملة هم الذين ذهبوا الى المعامل ، بل الكسالى . هل يسمح الوضع الاقتصادي والاجتماعي الحالي للبلاد للبروليتاريين الحقيقيين بالذهاب الى المصانع ؟ كلا ! عليهم ، وفقاً لماركس ، ان يذهبوا إليها ، لكن ماركس لم يتكلم لروسيا ، بل للرأسمالية عموماً ، للرأسمالية كما تشكلت منذ القرن الخامس عشر . كان ذلك صحيحاً خلال ستمائة سنة ، لكنه لم يعد كذلك في روسيا الحالية » . المرجع المذكور ، ص ٣٦٨ . واجاب شليابنيكوف لينين باسم المعارضة العمالية فقال : « لقد قال فلاديمير ايليتش البارحة ان البروليتاريا ، بما هيَ طبقة ، بالمعنى الماركسي للكلمة ، ليست موجودة (في روسيا) . دعوني اهنئكم بأن تكونوا طليعة طبقة غير موجودة» . سيززد ر. ك. ب. ص ١٠٩ . كانت السخرية تعبّر عن حقيقة مرّة . انظر كذلك خطاب زينوفييف ، المرجع ذاته ، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

يمكن لمعارضة منظمة أن تستفيد من الفوضى والاستياء بسهولة بالغة ، لا سيما أن البلاشفة كانوا عاجزين عن تعبئة طاقات الطبقة العاملة . وقد رفضوا تعريض انفسهم والثورة لهذا الخطر ؛ والحزب الذي احل نفسه محل البروليتاريا احل ديكتاتوريته أيضاً محل ديكتاتورية البروليتاريا . لم تعد« الديكتاتورية البروليتارية » تقود مذاك الطبقة العاملة ، التي أوكلت سلطاتها للبلاشفة ، من موقعها كمنظّمة في سوفييتات ، لكن كان لها دستورياً حق تنحيتهم أو « عزلهم » . كانت الديكتاتورية البروليتارية قد اصبحت مرادفاً للسيطرة الحصرية للحزب البلشفي . فالبروليتاريا كانت قادرة على تنحية البلاشفة أو « عزلهم » مثلما كان في وسعها أن « تعزل » نفسها أو تتنحى هي بالذات .

بالغاء البلاشفة كل الأحزاب ، عدّلوا بصورة جذرية محيطهم السياسي الى حد أنه ما كان يمكنهم ألا يتأثروا ، هم ذاتهم ، بذلك . لقد ترعرع الحزب البلشفي في ظل النظام القيصري ، في نظام متعدد الأحزاب ، نصف شرعي نصف سري ، وفي جو مساجلات وتنافسات سياسية حادة وكثيفة . واذا كان الحزب ، بما هو جسم مقاتل يضم ثوريين ، قد امتلك مذهباً وانضباطاً خاصين ، ميّزاه عن الاحزاب الاخرى ، فهو تنفس ، مع ذلك ، هواء البيئة المحيطة ، وطبع النظام متعدد الاحزاب حياته الداخلية بميسمه . إن البلاشفة المنخرطين باستمرار في سجالات مع خصومهم ، كانوا يخوضون كذلك المساجلة في صفوفهم الخاصة بهم . فقبل أن يصعد عضو الحزب الى المنصة لمناقضة عضو في حزب الكاديت أو في الحزب المنشفي ، كان قد سبق ان ناقش في خلية أو لجنة حزبية المشكلات التي تشغل باله ، ودرس وجهة نظر الخصم ، والجواب الذي ينبغي اعطاؤه ، وموقف الحزب وتكتيكه . واذا كان يفكر بأن الحزب مخطىء بصدد هذه النقطة أو تلك ، أو بأن قيادته غير ملائمة ، كأن يقول ذلك دون وجل أو رحمة ، ويحاول ان يكسب رفاقه لوجهة نظره . وطالما ناضل الحزب لأجل حريات العمال الديمقراطية ، ما كان بوسعه رفض تلك الحقوق لأعضائه داخل اجهزته الخاصة به[11] .

إذ دمر البلاشفة نظام تعدد الأحزاب لم يكونوا يتوقعون ما سينتج عن ذلك بالنسبة إليهم . اعتقدوا انهم قد يبقون ، خارج هذا النظام ، مماثلين لأنفسهم ، عصبة منضبطة لكن حرة لمناضلين ماركسيين . اعتقدوا أن الروح الجماعية للحزب ستظل تتشكل بالتبادل

(١١) ستتكون لدينا فكرة عن الصعوبات التي عانى منها البلاشفة للاعتياد على نظام الحزب الواحد ، حتى بعد خمس سنوات على الثورة ، إذا قرأنا ، بوجه خاص ، هذا المقتطف من خطاب زينوفييف في المؤتمر الحادي عشر : « . . . نحن الحزب الوحيد الموجود بشكل شرعي . . . اننا نملك ، هكذا ، احتكاراً . . . وهذا يسلخ آذاننا ويصدم وطنيتنا كحزب . . . . لقد حرمنا خصومنا من اية حرية سياسية . . . لكن لا يسعنا أن نفعل شيئاً آخر . . . » المرجع ذاته ، ص ٤١٢-٤١٣ .

التقليدي للآراء وبتواجه الحجج السياسية والنظرية . لم يدركوا أنه يستحيل الغاء النقاش خارج الحزب وإبقاؤه حياً داخله . ما كان بإمكانهم الغاء الحريات الديمقراطية بالنسبة لمجمل المجتمع والاحتفاظ بها لهم وحدهم .

كان نظام الحزب الواحد تناقضاً في التعابير : فالحزب الذي كانواحداً ،ما كان يمكن في الواقع،أن يبقى حزباً بالمعنى المعتاد للعبارة . كان محكوماً على حياته الداخلية بأن تضيق وتتيبس ، ومن « المركزية الديمقراطية » ، التي هي المبدأ الأساسي للتنظيم البلشفي ، لم يبق غير المركزية . حافظ الحزب على انضباطه ، لكن ليس على حريته الديمقراطية . ولم يكن يمكن ان يحصل غير ذلك . ولو انطلق البلاشفة يومذاك بحرية في المساجلة ، لو ناقش قادتهم خلافاتهم علانية ، لو شرع المناضل القاعدي ينتقد القادة وسياستهم ، لشكلوا امثلة بالنسبة لغير البلاشفة الذين ما كان يمكن ان ننتظر منهم عند ذلك الامتناع عن النقاش والنقد . لو أن اعضاء الحزب الحاكم حصلوا على حرية تشكيل تكتلات وجماعات لضمان رجحان مواقف خاصة داخل الحزب ، كيف كان أمكن منع اولئك الذين كانوا خارج الحزب من تشكيل جمعياتهم الخاصة بهم وصياغة برامجهم السياسية الخاصة بهم ؟ لا يمكن لأي جسم سياسي ان يكون اخرس في تسعة اعشاره فقط . إن حزب لينين ، الذي فرض الصمت على روسيا غير البلشفية ، لسوف ينتهي الى فرض ذلك الصمت على نفسه ايضاً .

لم يكن بإمكان الحزب ان يتوافق بسهولة مع وضع من هذا النوع . فالثوريون المعتادون على ألا يعترفوا أبداً بأية سلطة بشكل مسبق ، وعلى أن يُخضعوا للنقد الحقائق المقبولة ، وعلى النظر بعين ناقدة الى حزبهم الخاص بهم ، ما كان في وسعهم أن ينحنوا بغتة أمام السلطة بطاعة عمياء . حتى حين كانوا يطيعون ، كانوا يستمرون في طرح الاسئلة . لقد حظر المؤتمر العاشر ، في عام ١٩٢١ ، التكتلات داخل الحزب ، لكن الجمعيات البلشفية ظلت تدوّي بضجيج المساجلات . والاعضاء الذين كانوا يملكون آراء متشابهة شكلوا مجموعات ، وقدموا « أفكاراً أساسية » و « اطروحات » وهاجموا القادة بعنف . وبذلك كانوا يهددون بتقويض أسس نظام الحزب الواحد . إن الحزب البلشفي الذي أزال كل أعدائه وكل خصومه ، ما كان يمكنه الاستمرار في الوجود إلا لقاء قمع ذاتي متواصل .

حتى ظروف نمو الحزب ونجاحه قادته إلى طريق القمع الذاتي . ففي بداية عام ١٩١٧ ، لم يكن يصل تعداد أعضاء الحزب إلى اكثر من ٢٣ ألفاً في كل روسيا . وخلال الثورة تضاعف العدد ثلاثاً ورباعاً ، وفي ذروة الحرب الاهلية ، عام ١٩١٩ ، وصل تعداد أعضاء الحزب الى ٢٥٠ الفاً ، وكان هذا النمو يعكس سطوة الحزب الحقيقية على الطبقة

العاملة . ومن عام ١٩١٩ الى عام ١٩٢٢ ، تضاعف عدد الاعضاء ثلاث مرات أيضاً ، فانتقل من ٢٥٠ ألفاً الى ٧٠٠ ألف . لكن هذا التضخم كان قد غدا مصطنعاً ، ذلك ان الأمر كان يتعلق بجمهور متعاظم باستمرار يتدفق الآن على مقطورة المنتصرين . كان على الحزب أن يملأ مراكز لا تحصى في الحكم وفي الصناعة وفي النقابات ، الخ ، وكان من صالحه ان يعين اناساً يقبلون بالانضباط الحزبي . وسط هذا الحشد من القادمين الجدد ، لم يعد يشكل البلاشفة الأصيلون غير أقلية ضئيلة[١٢] . كانوا يدركون بأن عناصر غريبة تغمرهم ، وهالهم ذلك فأرادوا فصل القمح عن التبن .

لكن كيف الوصول الى ذلك ؟ فمن الصعوبة بمكان التمييز بين هؤلاء الذين انضموا للحزب عن قناعة منزهة وأولئك الانتهازيين والمستفيدين . وكان أصعب أيضاً تحديد ما إذا كان اولئك بالذات الذين انضموا لأسباب فوق كل شبهة فهموا أهداف الحزب وتطلعاته وكانوا مستعدين للكفاح من اجلها . ففي ايام كانت عدة احزاب تعرض برامجها وتنسّب اعضاء جدداً كان صراعها المتواصل كافياً لتأمين اختيار مناسب للرجال ولتوزيعهم بين الأحزاب. كان القادم الجديد إلى العمل السياسي قادراً آنذاك على مقارنة البرامج وطرائق العمل والشعارات لدى الأحزاب المتنافسة، فإذا انضم لصفوف البلاشفة، فذلك يتم بعد خيارٍ واعٍ، وعمل رزين. لكن اولئك الذين كانوا يدخلون الحلبة السياسية في ١٩٢١- ١٩٢٢ كانوا عاجزين عن القيام بذلك الخيار، إذ لم يكونوا يعرفون غير الحزب البلشفي. وربما كانت مفاضلتهم جعلتهم، في ظروف أخرى ينضمون الى المناشفة، أو الاشتراكيين الثوريين، أو أي حزب آخر. أما حماسهم للعمل السياسي فكان يقودهم الآن إلى الحزب الوحيد القائم، الذي كان يقدم لهم منفذاً لطاقتهم وحميتهم. ان الكثيرين بين الجدد كانوا، كما سمّاهم زينوفييف، «مناشفة غير واعين»، أو «اشتراكيين ثوريين غير واعين»[١٣]، يعتقدون بصدق إنهم «بلاشفة جيدون». وهدد تأثير عناصر من هذا النوع بتشويه طابع الحزب وإفساد تقاليده. وفي عام ١٩٢٢، أكد زينوفييف في المؤتمر الحادي عشر للحزب، ان الحزب البلشفي غدا يضم حزبين أو ثلاثة بالقوة، مشكّلة من اولئك الذين يعتبرون أنفسهم، بكل نزاهة، بلاشفة، لكنهم مخطئون في اعتقادهم. هكذا بمجرد كون الحزب هو الحزب الوحيد القائم، كان يفقد وحدته الفكرية، في الوقت ذاته الذي

---

(١٢) وفقاً لزينوفييف ، فالبلاشفة الذين عملوا في حالة السرية قبل شباط / فبراير ١٩١٧ لم يكونوا يشكلون إلا ٢٪ من اعضاء الحزب في عام ١٩٢٢ . المرجع ذاته ، ص ٤٢٠ .

(١٣) المرجع ذاته ، ص ٤١٣ ـ ٤١٤ .

بدأت تظهر في داخله مواد بديلة بدائية للأحزاب التي ألغاها. عاد يظهر المحيط الاجتماعي، مع كل مضمونه المكبوت من المصالح والمواقف السياسية المتباينة، ويضغط على المنظمة السياسية الوحيدة القائمة، ويتسلل إليها من كل الجهات.

قرر القادة ان يحموا الحزب من تلك التسلّلات ، فنظموا عملية تطهير . كانت المعارضة العمالية هي التي طالبت بعملية تطهير في المؤتمر العاشر ، وقد تمت العملية الأولى عام ١٩٢١ ، ولم تتدخل الشرطة والمحاكم في القضية اطلاقاً. خلال الاجتماعات السياسية ، درست لجان الرقابة ، اي المحاكم الحزبية ماضي كل اعضاء الحزب ، كباراً وصغاراً ، وأخلاقهم ، وكان يمكن لأي رجل وأية امرأة من الحضور المجيء للشهادة لصالح الشخص الذي تتم دراسة حالته أو ضده ، وكانت لجنة الرقابة تعلن آنذاك إذا كان هذا الشخص يستحق الاستمرار في عضوية الحزب أو لا يستحق . ومن كان يتم استبعادهم لم يكونوا يتعرضون لأي جزاء ، لكن من كانت تسحب منه بطاقة الحزب ، الحزب الحاكم ، كان يفقد عملياً فرص الارتقاء أو التعيين في مركز مسؤولية .

وهكذا جرى طرد سريع للغاية لمئتي ألف عضو ، أي ثلث مجمل الأعضاء ، من الحزب . وصنفت لجنة الرقابة المطرودين في فئات عدة : مبتذلين وصوليين ، اعضاء سابقين في احزاب معادية للبلشفية ، ولا سيما مناشفة سابقين انضموا الى الحزب بعد نهاية الحرب الاهلية ، بلاشفة افسدتهم السلطة او الامتيازات ، وأخيراً العناصر غير الناضجة سياسياً التي كان ينقصها الفهم الأولي لمبادىء الحزب[١٤] . ويبدو أن اولئك الذين كان خطأهم الوحيد كونهم انتقدوا سياسة الحزب أو قيادييه لم يجر استبعادهم . لكن سرعان ما لوحظ ان التطهير ، مهما كان ضرورياً ، إنما كان سلاحاً ذا حدين ، فقد قدم للأشخاص فاقدي الذمة إمكانات تخويف وذرائع لتصفيات حساب خاصة . وصفق مناضلو القاعدة لطرد الانتهازيين والمفوضين الفاسدين ، لكنهم ذهلوا إزاء اتساع التطهير . وقد علم الناس أن التطهيرات ستتكرر دورياً ، فتساءلوا حول ما سيحدث في السنة اللاحقة والتي بعدها ، ما دام ثلث الأعضاء طُردوا في سنة واحدة . وشرع العامّة والحذرون يفكرون مرتين قبل المغامرة بتوجيه ملاحظة أو القيام بمسعى يمكن في التطهير القادم أن يؤدي الى مؤاخذتهم بنقص النضج وبالجهل السياسي . إن التطهير الذي تأسس لتنقية الحزب وحماية طابعه ، سوف يبدو كأداة القمع الذاتي الأكثر رهبة في الحزب .

---

(١٤) ازفستيا تس . ك ، ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢١ (عدد ٣٤) . ن بوبوف ، تاريخ صغير للحزب الشيوعي السوفياتي (ب) ، ج ٢ ، ص ١٥٠ .

رأينا أنه ما أن اختفت الطبقة العاملة ، كقوة اجتماعية حقيقية ، حتى حل محلها الحزب بكل واقعه المخيف . لكن الحزب ، هو الآخر ، كان يبدو الآن أنه يغدو كياناً وهمياً وشبحياً بمقدار ما هو وضع الكيان الذي حل محله . هل ثمة ماهية حقيقية وهل يمكن ان تكون هنالك حياة مستقلة في حزب اعلن في عام واحد عدم صلاح ثلث اعضائه وطردهم من صفوفه ؟ إن المئتي الف رجل وامرأة ، ضحايا التطهير ، ساهموا في العمل العادي للحزب ، وصوّتوا على قراراته ، وانتخبوا مندوبين الى المؤتمرات : لقد ساهموا رسمياً ، وإلى حد بعيد ، في بلورة سياسة الحزب . ومع ذلك ، لم يؤد طردهم إلى أي تغيير ملحوظ ، أي تعديل لتلك السياسة . عبثاً كان بحث المرء في هيئة الحزب عن اثر لتلك العملية الجراحية الضخمة التي استأصلت ثلث مجموعه . هذه الواقعة لوحدها كانت تثبت انه ، منذ بعض الوقت ، لم يعد لجمهور اعضاء الحزب أي تأثير على تسيير الأمور ، فالسياسة البلشفية كان يقررها جزء صغير في الحزب حل محل الحزب بأكمله .

من كان يدخل في هذا الجزء ؟ لقد أجاب لينين ذاته عن هذا السؤال بتعابير غير ملتبسة . ففي آذار / مارس ١٩٢٢ ، كتب لمولوتوف الذي كان يومذاك سكرتير اللجنة المركزية : « إذا أردنا فتح أعيننا ، علينا أن نسلّم بأن الطابع البروليتاري لسياسة الحزب لا يحدده الآن الوضع الطبقي لأعضائه ، بل السلطة الهائلة والحصرية بين يدي هذه الشريحة الضئيلة جداً من الأعضاء الذين يمكن تسميتهم الحرس القديم للحزب »(١٥) . كان لينين يرى الآن في هذا الحرس القديم ، المستودع الواحد والوحيد للمثل الأعلى الاشتراكي ، وكيل الحزب ، وفي الأخير ، بديل الطبقة العاملة . كان الحرس القديم يتألف بمجموعه من عدة آلاف من المحاربين القدامى الشرعيين في صفوف الثورة . وفي رأي لينين أن الجمهور الكبير للحزب لم يكن الآن غير نبات فطري هائل معرض لكل التأثيرات المفسدة لمجتمع فوضوي ومضطرب . حتى افضل اعضاء الحزب الشباب كانوا بحاجة لتكوين صبور ، وتربية سياسية قبل التمكن من أن يصبحوا « بلاشفة حقيقيين » . هكذا انتهت مماثلة الحزب بالبروليتاريا الى ان تتحول لمماثلة اكثر انحصاراً ، هي مماثلة البروليتاريا بحرس الحزب القديم .

لكن لم يكن يمكن للحرس القديم ان يبقى بسهولة على الارتفاع المثير للدوار الذي سما إليه . هو ايضاً كان عاجزاً عن مقاومة التأثيرات المفسدة في تلك الحقبة ، والانهاك ، وإفساد السلطة ، وضغوط المحيط الاجتماعي . بدأ الحرس القديم يتصدع ، وقد لاحظ

---

(١٥) لينين ، سوش . ، ج ٣٣ ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ .

لينين في رسالته لمولوتوف : « ادنى شقاق في هذه الشريحة يمكن أن يكفي لإضعاف . . . سلطتها لدرجة أنه (اي الحرس القديم) سيفقد سلطة القـرار » ويفقد بذلك سيطرته على الاحداث . لذا كان ينبغي الابقاء على تضامن الحرس القديم مهما يكن الثمن ، والابقاء على شعوره بسمو رسالته حياً في نفسه ، وضمان تفوقه السياسي . إن التطهيرات الدورية لم تكن كافية ، وكان ينبغي فرض قيود صارمة على الانـضمام للحزب، وإخضاع المنضمين الجدد للامتحانات الأكثر عسراً . وأوحى لينين في الأخير بضرورة أن يُرسى داخل الحزب تسلسل خاص يرتكز على الجدارة والاقدمية في الخدمات الثورية . فبعض المناصب المهمة لا يمكن إيلاؤها إلا لمناضلين انضموا الى الحزب في بدايات الحرب الاهلية ، على الأقل ؛ ولا يمكن اعطاء مراكز أخرى ، ترتبط بها مسؤ وليات أعلى ايضاً ، إلا لمناضلين خدموا الحزب منذ بداية الثورة ؛ أما المناصب القيادية ، فينبغي ابقاؤ ها للمحاربين القدامى في النضال السري ضد القيصرية(١٦) .

لم يكن هنالك بعد أي أثر للمحاباة في هذه التعليمات. فالحرس القديم كان لا يزال يعيش وفقاً للقانون الصارم للاخلاقية الثورية . فتبعاً للـ حصة القصوى ، لم يكن يمكن لعضو الحزب ، حتى لو كان يشغل أعلى وظيفة ، أن يكسب اكثر من العامل المتخصص في المصنع . ولنكون صادقين ، وجد بعض اصحاب المقام وسائل لزيادة أجرهم الهزيل بشتى انواع الربح ، لكن لم يكن يتعلق الامر بعد إلا باستثناءات . وبالتنظيمات الجديدة ، لم يكن يجري السعي اطلاقاً لشراء الحرس القديم بواسطة المنافع ، بل لضمان بقاء الحزب والدولة بين يديه أدوات نقية لبناء الاشتراكية .

كان الحرس القديم يشكل جسماً مخيفاً . كان مؤلفاً من أناس تربط ما بينهم ذكرى النضالات البطولية التي خيضت بصورة مشتركة ، وإيمانهم الذي لا يتزعزع بالاشتراكية ، وقناعتهم بأن فرص الاشتراكية ترتكز عليهم ، وعليهم وحدهم ، وسط الانحلال والخمول الشامل . كانوا يتصرفون بسلطة ، لكن كذلك بعجرفة في الغالب . كانوا منزهين ، لكن كذلك طموحين . واذا كانت تحركهم المشاعر الأكثر نبلاً ، فقد كانوا يظهرون احياناً مفتقدين للذمة بصورة لا هوادة فيها . كانوا يماثلون انفسهم مع مصير الثورة التاريخي ، لكنهم كانوا يماثلون هذا المصير ايضاً مع انفسهم . وفي اخلاصهم الاقصى للاشتراكية ، توصلوا الى ان يروا في النضال لاجل الاشتراكية مهمتهم الحصرية ،

---

(١٦) انظر قرارات المؤتمر التداولي الحادي عشر للحزب وللمؤتمر الحادي عشر ، في ك . ب . س . س . ف ريزولوتسياخ ، ج ١ ، ص ٥٩٥ - ٥٩٦ ، ٦١٢ ، ٦٢٨ - ٦٣٠ .

والى حد ما عملهم الشخصي ، وكانوا يميلون لتبرير سلوكهم ، لا بل طموحاتهم الخاصة ، بتعابير الايديولوجيا الاشتراكية . .

وخلال محن السنين ، كانت الطاقة الاخلاقية للحرس القديم مورداً للبلشفية لا يقدر بثمن . فإحياء التجارة الخاصة ، وإعادة الاعتبار للملكية جزئياً ، بذرا الاحباط في صفوف الحزب ، وتساءل الكثير من الشيوعيين بانزعاج:اين سيقود الثورة التراجع الذي قرره لينين : بدا لينين مستعداً للذهاب بعيداً بقدر ما يلزم لتشجيع التجارة والزراعة الخاصتين . وبما أن الفلاح كان يرفض مبادلة منتجاته مقابل أوراق مصرفية لا قيمة لها ، « أعيد الاعتبار » للعملة ، التي احتقرت في ظل شيوعية الحرب كأثر من آثار المجتمع القديم ، ثم جرى تثبيتها . لم يكن يمكن الحصول على شيء من دونها . قلصت الحكومة الاعانات التي منحتها للمنشآت التي تمتلكها الدولة ، وفقد العمال ، الذين تشبثوا بمشاغلهم في أسوأ الظروف ، عملهم . واستخدمت مصارف الدولة ممتلكاتها الهزيلة لتشجيع المنشآت الخاصة بواسطة التسليفات . أكدت اللجنة المركزية للحزب أنه، مع ذلك ، لما كانت الدولة تحتل « القمم التي تقود » الصناعة الكبيرة ، فستبقى قادرة في كل الأحوال على الاشراف على الاقتصاد القومي . لكن كان لتلك « القمم » مظهر حزين وغير مشجع كثيراً : كانت صناعة الدولة في حالة ركود كلي بينما كانت التجارة الخاصة تزدهر . عندئذٍ دعا لينين الملتزمين القدامى والرأسماليين الاجانب للعودة الى روسيا والقيام بأعمال فيها . واذا كان عنصر مهم من عناصر الرأسمالية ، لم يظهر مجدداً في روسيا ، فلأن الرأسماليين لم يستجيبوا لندائه . وتساءل البلاشفة : ما الذي سيحدث لو شرع الملتزمون يقبلون عرض لينين ؟ في غضون ذلك كان النيبمان يكسب ثقة بالذات ، ويعيِّد في المدن الجائعة ، ويسخر من الثورة . وفي الريف ، كان الكولاك يحاول ان يعيد فرض طغيانه على عامل المزرعة ؛ هنا وهناك ، بدأ الكولاك وزبائنه يهيمنون على السوفييتات الريفية ، بينما كان ولده يغدو قائداً للفرع المحلي للشبيبة الشيوعية . وفي الجامعات ، كان الأساتذة والطلاب ينظمون مظاهرات واضرابات معادية للشيوعية ، وكانت تساء معاملة الشيوعيين لأنهم أنشدوا النشيد الأممي ، نشيد الثورة . أين سيتوقف التراجع ؟ لقد طرحت المعارضة العمالية السؤال على لينين في جلسات اللجنة المركزية وفي الاجتماعات العامة . وفي العديد من المرار ، وعد لينين بوضع حد للتراجع ، وفي العديد من المرار اجبرت الاحداث لينين على المضي أبعد فأبعد . واستشاط المثاليون غيظاً ، لا بل ارتفعت صيحة : خيانة . وغالباً ما كان عامل ، محارب قديم في صفوف الحرس الأحمر ، يمضي أمام لجنة الحزب المركزية فيمزق باشمئزاز بطاقته كعضو في الحزب ويرمي مزقها على رأس السكرتير . وكانت

المشاهد من هذا النوع علامة من علامات تلك الفترة لدرجة اننا نجد العديد من الأوصاف لها في روايات الحقبة المشار اليها ؛ وكان قادة الحزب يتحدثون عنها بقلق ظاهر(١٧) .

وسط الوهن العام ، كان يبدو أن الثورة عاجزة عن الاستناد إلا الى الحرس القديم ، إلى إيمانه الذي لا يتزعزع وإرادته الحديدية . لكن هل كان يمكنها ذلك حقاً ؟

في نهاية الحرب الاهلية ، نزل تروتسكي من القطار العسكري الذي استخدمه كمقر قيادة للقتال ، والذي ركض فيه ، طوال ثلاث سنوات كاشفة للغيب ، من خطر الى خطر ، على امتداد جبهة طولها ثمانية آلاف كيلومتر ، ولم يكن يقطع رحلاته إلا للمشاركة في مشاورات قصيرة أو للظهور في تظاهرات عامة في موسكو . وُضع القطار العسكري في متحف ، وجرى حل فريق السائقين والميكانيكيين والرماة وأمناء السر الذين عملوا فيه . واخذ تروتسكي عطله الأولى منذ بدء الثورة . امضاها في الريف ، غير بعيد عن موسكو ، في صيد الطيور أو الاسماك ، في الكتابة ، في اعداد فصل جديد من فصول حياته . وحين عاد الى موسكو ، التي كان صوتها خلال كل تلك السنوات ، ظهر فيها كما لو كان غريباً تقريباً . إن أول نظرة القاها تروتسكي على العاصمة القديمة كانت في نهاية القرن السابق ، حين زُجَّ به في سجن بوتيركي ، قبل نفيه الى سيبيريا . من وراء قضبان عربة السجناء ، تأمل تروتسكي للمرة الأولى مدينة انتصاراته وهزائمه اللاحقة . لم يعد الى موسكو إلا بعد مرور عشرين عاماً ، عام ١٩١٨ ، خلال أزمة بريست ـ ليتوفسك ، حين أخلت الحكومة البلشفية بتروغراد ، ومضت للاقامة في الكرملين . لكنه سرعان ما انطلق الى الجبهة ، وفي كل مرة كان يعود فيها الى موسكو ، كان يحس بنفسه في غير موقعه في « قرية القياصرة » المتباينة ، في روما الثالثة لمحبي السلافية ، بكنائسها البيزنطية ، وأسواقها الآسيوية ، وقدريتها الشرقية المفعمة باللامبالاة . لقد كان ميدان عمله الثوري في بتروغراد ، بتروغراد منافسة موسكو ونافذة روسيا على اوروبا . وكان يحس بنفسه مرتاحاً وسط عمال المنشآت الميكانيكية ، ومشاريع البناء النهرية والكهربائية في بتروغراد ، أكثر مما مع عمال موسكو المستخدمين بمعظمهم في صناعة النسيج ، والمنتمين بالتالي ، بمظهرهم وسلوكهم، الى الموجيك أكثر مما إلى ابن المدينة .

واحس بنفسه كذلك اكثر غربة بين جدران الكرملين وابراجه ، في الشوارع

---

(١٧) اعترض مانويلسكي ، مثلاً ، في المؤتمر الحادي عشر على واقع أن محاربي الحرب الاهلية القدامى الذين كانوا يمزقون بطاقتهم الحزبية كانوا يحصلون على شهادات بطولة ، بينما كان يجب النظر اليهم كخونة ؛ وقارن هذه الدَّرجة المقلقة بالاحباط الذي تلا هزائم ثورات ١٨٤٩ و ١٩٠٧ ؛ ١١ سيزد ر . ك . ب . (ب) ، ص ٤٦١ ـ ٤٦٣ .

الضيقة الصغيرة المتعرجة ، داخل القلعة القديمة ، في ظل الاسوار ، إزاء رنين الاجراس القديمة المصلصلة ، بين كاتدرائيات الكرملين ، وترساناته ، وثكناته ، وابراج سجونه ، وابراج حصاره ، وفي القاعات المذهبة داخل قصوره ، المزينة بما لا يحصى من الايقونات العجائبية التي كان القياصرة قد جلبوها من البلدان المغزوة . وقد أقام تروتسكي مع زوجه وأولاده في أربع غرف صغيرة داخل مبنى كافاليرسكي ، وهو القسم الرئيسي القديم لمسكن موظفي البلاط ، وفي الجانب الآخر من الممشى ، كان يسكن لينين وكروبسكايا . كانت العائلتان تتقاسمان قاعة الطعام ذاتها وغرفة الحمام ذاتها ؛ ومن وقت لآخر ، كان يُرى لينين يلعب في الممشى ، أو في غرفة الاستحمام ، مع ولدي تروتسكي . وأحياناً ، كان صديق قديم ، كراكوفسكي ، أو مانويلسكي أو غيرهما ، يعود من المقاطعات، حيث انجز مهمة حكومية ما ، ويقيم مع العائلة . كان تروتسكي يعيش بالتواضع ذاته الذي كان يعيش به في الماضي ، حين كان منفياً في سقيفته الباريسية ، أو في إحدى ضواحي ڤيينا . لا بل ربما كانت الحياة التي يحياها اكثر فقراً ، لأن الطعام كان نادراً ، حتى في الكرملين[١٨] . أما الولدان ـ كان ليوڤا في الخامسة عشرة من عمره عام ١٩٢١ وسيريوشا في الثالثة عشرة ـ فكانا قليلي الاستفادة من أبويهما ؛ لم يكونا يريان والدتهما إلا في لحظات قصيرة ، إذ كانت تمضي وقتها في مفوضية التربية حيث كانت تدير فرع الفنون الجميلة .

كانت فخامة الكرملين تشكل مفارقة مذهلة مع نمط حياة قاطنيه الجدد . ويروي تروتسكي الارتباك اللاهي لأفراد الاسرة حين خدمهم للمرة الاولى رئيس مائدة للبلاط القديم كان يقدم الأطعمة على صحون تحمل شعارات القيصر ؛ كان يدير الصحون دائماً بالكثير من العناية ، وهو يقدمها للكبار والصغار ، بحيث لا تُرى النسور القيصرية أبداً ـ معاذ الله ـ ورأسها الى الاسفل[١٩] . من كل زاوية من زوايا القصر ، كانت « همجية موسكو الثقيلة » تتفرس في القادة البلاشفة ؛ وحين كان رنين الاجراس القديمة المصلصلة يزعج محادثة تروتسكي ولينين ، كانا ينظران الواحد للآخر « كما لو كنا قد فوجئنا ـ يكتب تروتسكي ـ ونحن نفكر بالشيء ذاته : كان الماضي ، يرهف سمعه وهو يصغي الى احاديثنا . . . » لكن لم يكن الماضي يقتصر على الاصغاء اليهما ، كان يعيد الكرة في مواجهتهما . ويقول تروتسكي ذاته انه لم يتوصل للاعتياد على الكرملين . بقي محتفظاً دائماً

---

(١٨) يروي ارثور رانسوم ان اقراص الساكارين التي قدمها يوماً لبوخارين لتحلية الشاي كان لها تأثير العيد ؛ كانت وجبة طعام في مركز قيادة زينوڤييف تضم الشورباء مع القليل من لحم الحصان . . . والقليل من الكاشا . . . والشاي وقطعة سكر ، ستة اسابيع في روسيا ، ص ١٣ ، ٥٦ .

(١٩) حياتي ، ج ٢ ، ص ٧٧ .

بتباعده ، ولم يتسلّ غيرُ حسٍّ سخرية التاريخ لديه بدخول الثورة الى قدس اقداس موسكو .

كان لديه الشعور الممض بأن نهاية الحرب الاهلية هي بداية أفوله الشخصي . وكان يصارع ضد هذا الشعور بإرادة تفاؤ ل واعية لا تتخلى ابداً عن الثوري ، وكان يتطلع الى المستقبل ، نحو انتصارات جديدة لمثله الأعلى ولحظِّه . لكننا بدأنا نجد في خطبه وكتاباته بعض الملاحظات الموزعة هنا وهناك التي تحن إلى العهد البطولي للثورة والحرب الاهلية ، ذلك العهد الذي غدا ينتمي إلى الماضي . وهذا لا يعني انه يرفع إلى مستوى المثل الأعلى تلك الفترة التي كانت هراوة الموجيك تخدم فيها الثورة ، « الأداة الفضلى » ، تلك الهراوة البدائية التي استعان بها في الماضي فلاحو روسيا لطرد نابوليون خارج روسيا ، مثلما استأصل الفلاحون المعاصرون الارستقراطية العقارية منها . كما أنه لم ينس الارث الثقيل لتلك الفترة : فالجنّيات المدمِّرة التي حررتها الحرب الأهلية كانت تنقلب الآن ضد جمهورية السوفييتات ، في الوقت الذي أرادت فيه هذه ان تباشر مهمات البناء . لكن سنوات التخريب تلك كانت ، رغم كل آلامها ، وكل بؤسها ، وكل قساوتها ، سنوات خلق أيضاً . كان تروتسكي يحلم بقدرتها المخيفة ، بشجاعتها ، وبأملها الخيالي ، ويشعر بأن تلك السنوات تترك فراغاً خلفها[20] .

لم يعد فكره وطاقته منشغلين الآن إلا نصفياً . لقد توقفت مفوضية الحرب عن أن تكون محور الحكم ، فالجيش ، الذي تم إنهاء استنفاره في بداية عام ١٩٢٢ ، لم يعد يزيد تعداده عن ثلث ما كان يضم في زمن الحرب : كان بدأ يفقد كذلك مثاليته الثورية وحماسه ، ذلك أن مجرّبي الحرب الاهلية كانوا قد مضوا . وفي الثكنات ، كان جنود السَّوْقة العسكرية ، الواصلون حديثاً ، يشبهون ببلادتهم واسترخائهم أولاد الفلاحين الذين كانوا يأتون إلى هذه الثكنات في أيام القياصرة . وقد اجبرت الظروف مفوض الحرب على التخلي عن خطته العزيزة على قلبه ، فبدل ان يحول الجيش إلى ميليشيا حديثة ، وديمقراطية ، واشتراكية ، اخضعها بكل بساطة للروتين العادي وللأعمال الادارية وللتدريب . أمضى وقته يفلّي الجيش ، ويعلمه فن تلميع الاحذية وتنظيف البنادق ، ويتوسل لأفضل القادة وأفضل المفوضين ألا يتركوا مراكزهم . وحث اللجنة المركزية على ايقاف نزوح الشيوعيين الجماعي الى خارج الجيش ، فأصدرت هذه قرارات بتدابير حظر شتى ، لكن دون

---

(٢٠) انظر بوجه خاص رسالة تروتسكي الى الضباط الكبار والمفوضين في حامية موسكو ، في ٢٥ تشرين الاول / اوكتوبر ، وخطابه بمناسبة نهاية العمليات في أيلول / سبتمبر ١٩٢١ ، كاك ڤوروجالاس ريڤولوتسيا ، ج٣ ، ك ١ .

جدوى . وخلال مؤتمرات تداول قومية ، توسل تروتسكي مراراً للمفوضين السياسيين كي يقاوموا « جرثومة النزعة المسالمة » وأبدى أسفه لهبوط معنويات الجيش الأحمر . حاول بمختلف الوسائل أن يحفظ الجيش من عدوى « روح السوخاريڤكا » ، وأن يجعل منه أداة كفاح حضاري ماركسي ضد قذارة الأم روسيا وتخلفها وتوسوسها ، وفوق كل شيء أن يبقي حياً فيه التراث الثوري والوعي الأممي[٢١] .

كانت تلك هي الفترة التي تلقى فيها القادة الشباب للحرب الاهلية ، وبينهم الماريشالات اللاحقون للحرب العالمية الثانية ، تكويناً جدياً ، وأبصرت فيها النور تنظيمات الجيش الأحمر . وقد لعب تروتسكي في ذلك دور الملهم ، وبصورة جزئية دور الصانع . ومن المثير للفضول ، مثلاً ، الاشارة الى القرابة بين « تنظيمات المشاة » لتروتسكي ، و« كتاب تعليم الجندي » لكرومويل . وتعلِّم تنظيمات مشاة الجيش الأحمر ما يلي : « أنت نظير رفاقك . رؤساؤك هم بالنسبة اليك إخوة اكثر خبرة وأفضل ثقافة . عليك ان تطيعهم خلال القتال ، وأثناء التدريب ، في الثكنات ، وفي العمل . مذ تغادر الثكنة تكون مطلق الحرية . . . » « إذا سئلت كيف تقاتل ، أجب : أقاتل بالبندقية والحربة والرشاش . لكني أقاتل أيضاً بكلمة الحقيقة . أتوجه الى جنود العدو الذين هم كذلك فلاحون وعمال ، بحيث يفهمون أني اخوهم في الحقيقة ، لا عدوهم » .

إن حب تروتسكي للكلمات ، للكلمات البسيطة مثلها للكلمات الغنية ، وحس الشكل واللون لديه ، كانا يتلاقيان لتكوين تقاليد معدة لصدم خيال المجندين وإفهام الجيش بأنه شيء آخر غير لحم المدافع المنظم في الفوج . في أول أيار وأعياد الثورة السنوية ، كان يخرج ممتطياً جواداً عبر ابواب سپاسكي الخاصة بالكرملين ليمضي الى الساحة الحمراء حيث يستعرض أرتال حامية موسكو ، يرافقه قادة الحامية . كان يهتف : « سلاماً يا رفاق ! » ، فتجيب القوات : « في خدمة الثورة ! » وكان الصدى المدوّي يصعد حتى أقواس كاتدرائية ڤاسيلي ويلف قبور شهداء الثورة على امتداد جدران الكرملين . لم يكن هنالك عرض احتفالي للآليات . وبعد الاستعراض ، كان مفوض الحرب ينضم الى الاعضاء الآخرين في اللجنة المركزية الذين كانوا يشاهدون ، من منصة خشبية مهتزة ، أو مكدسين على متن شاحنة عسكرية ، استعراض العمال والجنود[٢٢] .

---

(٢١) انظر التقرير السنوي للجنة المركزية ، الذي يأتي كملحق لـ ١١ سييزدر . ك . ب . (ب) ، ص ٦٣٧ ـ ٦٦٤ ؛ يياشالت سوڤييتسكوي ڤلاستي ، و كاك ڤوروجالاس ريڤولوتسيا ، ج ٣ ، هنا وهناك .

(٢٢ ـ موريزيه ، لدى لينين وتروتسكي ، ص ١٠٨ ـ ١١١ ، ويرسم سيرج وروسمر في مؤلفاتهما صوراً حية وودية لتروتسكي في =

كان ظهور تروتسكي وخطبه لا تزال تلهب الجماهير ، لكن لم يعد يبدو مذاك يقع مع المستمعين اليه على التماسّ الحميم الذي كان يستحصل عليه حتماً خلال الحرب الأهلية ، هذا التماسّ الذي كان يقيمه لينين دائماً بحضوره شبه الممّحي ولغته البسيطة . ما أن كان تروتسكي يعتلي المنبر حتى يغدو بلا حدود ، وكانت خطبه لا تزال تهتز بكل النبرات البطولية التي استخدمها في الماضي . لكن البلاد كانت متعبة من البطولة ، ومن المنظورات الفسيحة ، والآمال المحمومة والحركات الفخمة . من جهة اخرى ، كان تروتسكي يعاني من هبوط شعبيته ، الناجم عن محاولاته الحديثة لعسكرة العمل . كانت عبقريته الخطابية لا تزال تفتن كل اللقاءات الحاشدة ، لكنْ فتنةً أضعفها الشك لا بل الحذر . لم تكن عظمته ، ولا كفاءاته الثورية مثار جدال ، لكن ألم يكن كثير الأبهة ، شديد الاحتدام ، وربما حتى عظيم الطموح ؟ .

إن أساليبه المسرحية وكلامه البطولي لم تبد غريبة في السنوات الأولى ، لأنها كانت بمستوى الدراما التي عاشها الجميع . أما الآن فكانت تذكّر قليلاً بطرائق بهلوان . إلا أن تروتسكي كان يتصرف هكذا لأنه لا يستطيع أن يتصرف بشكل آخر . لم يكن هنالك أدنى تكلف في مغالاته ، إذ كانت طبيعية لديه ، فلغته كانت درامية بشكل حاد ، لا نتيجة تصنع أو سعي وراء التأثير ، بل لأن تلك كانت لغته الأكثر طبيعية ، تلك التي كانت تناسب بالشكل الأفضل التعبير عن فكره الدرامي وعن انفعاله الحاد . يمكن أن نقول عنه ما كان يقول هازليت(*) عن بورك(**) الذي كان مع ذلك مختلفاً تماماً عن تروتسكي : « كان يمكّن خصومه منه بمزجه الشعور والتخيل بالاستدلال العقلي » . ولما كان الناس « غير معتادين على أن يُقدَّم حقل السياسة هكذا لهم . . فقد كانوا يحسون بالخيبة ويعجزون عن التمييز بين الزهر والثمر . . . . » « إن عمومية الناس » كما يحصل دائماً « تجتهد في إحباط كل اولئك الذين يلمعون من دون ضرورة » . لكن « إذا كان ذهبه قد نُقش بأناقة فذلك لم ينتقص من قيمته الكبرى » ، « إن مقدرة الفهم لدى رجل ما لا ينبغي أن يتم تقديرها دائماً بالتناسب مع افتقاده للخيال . لم يكن ذكاؤه أمراً أقل حقيقية إن لم يكن الطاقة الوحيدة التي امتلكها » .

= تلك السنوات . ومن العديد من الشهادات العينية والصور ، الودية او المعادية ، لن نستبقي غير ما يلي : تحت برج جوريس ، ومن جوريس الى لينين ؛ لـ ل . أوفروسار؛ مع ستالين في الكرملين ، لـ ب . باجانوف ؛ ستالين والشيوعية الالمانية ، لروث فيشر ؛ ٦٠ جاهري كيتزر ، لـ ف . برويباشر ؛ الوجوه الروسية ، لكلير شريدان ، وأولى كتابات رادك وبوخارين وسادول وايستمان وهوليتشر ول . فيشر .

(*) كاتب انكليزي (١٧٧٨ - ١٨٣٠) (م) .

(**) رجل سياسة وكاتب بريطاني (١٧٢٩ - ١٧٩٧) (م) .

ومثل بورك ، كان تروتسكي « صريحاً ، مطنباً ، وطناناً » . هو أيضاً كان يتكلم في اللقاءات الخاصة مثلما يتكلم امام الجموع ، بالروح نفسها ، وبدوائر الكلام الموقَّعة ذاتها التي كان يتميز بها على المنبر أو في كتاباته . وإذا لعب دوراً ، كان يظهر كممثل كوميدي يجهل كل فرق بين المسرح وبيت الفنانين ومنزله العائلي الخاص ، ممثل كوميدي يختلط لديه المسرح والحياة . كان شخصية بطولية في دراما تاريخية وهذا هو السبب في أنه لا بد أن يظهر مغالياً في تقديره ومتصنِّعاً لجيل مفتقد لروح الشعر وصفراوي . هذا هو السبب ايضاً في أنه لا يظهر في موقعه وسط الجو الكامل لبدايات النيب ، بل يظهر كغريب .

إلا أن لا حاجة مع ذلك لتوجيه الاتهام للوجه الرومانسي لطبع تروتسكي ، فهو يبقى واقعياً بالقوة نفسها التي اتسم بها دائماً . لم يكن بأي شكل من الأشكال المحارب القديم « الذي يتأخر طويلاً على المسرح » . لقد غاص بحماس في المشكلات الجديدة الاقتصادية والاجتماعية التي طرحتها النيب . ولم ينظر الى هذه الأخيرة أبداً عبر موشورة مسبقات ثورية تبسيطية . ولما كانت استغرقته المشكلات المالية والصناعية والتجارية والزراعية ، فقد اقترح على المكتب السياسي واللجنة المركزية مشاريع محددة سوف يدور حولها فيها بعد جدال طويل ، ووضع كل ما لديه من فصاحة وحماس للدفاع عن « التراجع » الذي لم يكن فيه ما يثير الكثير من الحماس ، وهو الذي وضع تقارير حول النيب في مؤتمري الاممية الشيوعية الثالث والرابع في عامي ١٩٢١ و١٩٢٢[٢٣] . خصص المزيد من الوقت والطاقة للأممية ، وقاوم داخل الهيئة التنفيذية اتجاه بوخارين وزينوفييف لتشجيع انتفاضات متهورة وفي غير محلها ، ضمن البلدان الأجنبية ، مثل المارزاكتيون في المانيا . وترأس اللجنة الفرنسية للكومنترن ، وتدخل في قيادة اعمال كل الفروع الكبرى في الأممية .

إلا أن مفوضية الحرب ، والصعوبات الاقتصادية والكومنترن لم تكن تمتص كل طاقته . كان ينصرف لمجموعة من المهمات الأخرى كل واحدة منها كافية لتشغل كامل وقت رجل يتمتع بحيوية أقل وقدرات أدنى . لقد قاد مثلاً عصبة الملحدين ، قبل أن يترأسها ياروسلافسكي . وضعها على طريق التفكير الفلسفي النيِّر ، الذي كان أقل تعرضاً لتوليد تلك المبالغات الكفيلة بصدم حساسية المؤمنين ، التي افسدت عمل العصبة بشكل بالغ السوء حين قادها ياروسلافسكي . (حتى انه قاد لجنة سرية لمصادرة الكنوز الكنسية

(٢٣) شتفرتيي فسيرميرنيي كونغرس كومنترنا ، ص ٧٤ ـ ١١ وتروتسكي ، بيات ليت كومنترنا ، ص ٢٣٣ ـ ٢٤٠ ، ٤٦٠ ـ ٥١٠ .

التي كان سيستفاد منها لدفع ثمن المنتجات الغذائية المستوردة لانقاذ ضحايا المجاعة في منطقة الڤولغا[٢٤]) . كان في تلك الفترة المحرك الثقافي الرئيسي لروسيا واكبر ناقد أدبي فيها . كان يتكلم باستمرار أمام جمعيات العلماء ، والأطباء ، والمهتمين بالمكتبات ، والصحفيين ، الخ . الذين كان يفسر لهم انعكاسات الماركسية على مشكلاتهم المهنية . في الوقت ذاته ، قاوم داخل الحزب الاتجاه الذي كان بدأ يبصر النور والرامي إلى فرض تماثل مميت على الحياة الثقافية في البلاد[٢٥] . وقد اصر في العديد من المقالات والخطب ، بنبرة اكثر شعبيه على ضرورة تمدين النمط الفظ للحياة الروسية ، وعلى الاهتمام بالعادات ، والعناية بالوقاية الصحية ، وتحسين اللغة المحكية والمكتوبة التي تقهقرت منذ الثورة ، وتوسيع اهتمامات اعضاء الحزب وإضفاء الأنسنة عليها ، الخ . كان ، هو ولينين الذي كان قد غدا مبتعداً قليلاً عن الحياة العامة ، الناطق الرئيسي والأكثر هيبة بلسان الحزب خلال تلك السنوات ، السنوات الأخيرة في حياة لينين .

ولم يثر مزاجه الرومانسي في تلك الحقبة على الواقعية الفظة التي أقام بها الحزب ، أو الحرس القديم بوجه خاص ، احتكاره السياسي وعززه . بعد إقرار النيب مثلما قبله ، كان احد اكثر المدافعين عن الانضباط صرامة ، حتى لو كانت تحريضاته في هذا الاتجاه تتوجه إلى الاقناع والعقل . لقد تذرع أيضاً بـ « حق البكورة التاريخية للحزب »[٢٦] . وأوضح أنه لا يمكن الالتزام بإجراءات الديمقراطية البروليتارية في المجتمع الحاضر المضطرب والخوائي ، وأنه لا يمكن ربط مصير الثورة بالأمزجة المتبدلة لطبقة عاملة مهزولة ومحبطة ، وأن واجب البلاشفة حيال الاشتراكية هو إبقاء « ديكتاتوريتهم الحديدية » بكل الوسائل المتوافرة لديهم . لا بل كان قد ترك مجالاً في السابق لتصور ان الاحتكار السياسي للحزب تدبير طارىء سيزول حين تزول الحالة الطارئة ، لكن لم يعد هذا ما غدا يقوله الآن . فبعد انتفاضة كرونشتادت بأقل من عام ، تكلم في البرافدا على علامات النهوض الاقتصادي و« الحركة الصاعدة »التي ظهرت في كل الحقول ، فتساءل اذا لم يحن الوقت لوضع حد لنظام الحزب الواحد ورفع الحظر الذي يثقل كاهل الأحزاب ، على الأقل الحزب المنشفي ، وكان جوابه لا قاطعة[٢٧] . كان يبرر الآن احتكار الحزب ، لا بالصعوبات الداخلية في الجمهورية بقدر ما بواقع أن الجمهورية « قلعة محاصرة » حيث لا يمكن التسامح مع أية

(٢٤) ـ المحفوظات .

(٢٥) انظر الفصل ٣ .

(٢٦) انظر نهاية النبي المسلح .

(٢٧) البرافدا ، ١٠ أيار / مايو ١٩٢٢ ، وبيات ليت كومنترنا ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

معارضة ، مهما تكن هزيلة . لقد دعا إلى تقوية نظام الحزب الواحد ، طالما تدوم العزلة الدولية لروسيا ، وهي عزلة ما كان يعتقد أنها ستطول قدر ما فعلت . وإذ ذكّر بأنه سخر في الماضي من محاولات الحكومة لخنق المعارضة السياسية وبرهن عن لا جدواها المطلقة ، برّر تغيير موقفه بهذه الحجة التي ستستخدم ضده في يوم من الأيام : « إن تدابير القمع لا تبلغ هدفها حين يوجهها حكم ونظام مغلوطان تاريخياً ضد قوى تاريخية جديدة وتقدمية . لكن اذا استخدمتها حكومة تقدمية تاريخياً ، يمكن أن تكون وسائل فعالة جداً لتنظيف الحلبة من القوى البالية التي لا تزال على قيد الحياة » .

وقد أعاد تأكيد هذا الرأي في حزيران / يونيو ١٩٢٢ ، خلال المحاكمة المشهورة للاشتراكيين الثوريين . وانطلق في فضح باهر وشرس للمتهمين ؛ قال إنهم مسؤ ولون سياسياً عن محاولة دورا كاپلان اغتيال لينين وعن أعمال ارهابية أخرى . حدثت المحاكمة في حين كان ينعقد في برلين « المؤتمر التداولي للأمميات الثلاث » . كان بوخارين ورادك يمثلان البلاشفة في المؤتمر الذي استهدف إقامة « جبهة موحدة » بين الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الغربية . وقد احتج القادة الاشتراكيون ـ الديمقراطيون الغربيون على المحاكمة ، ووعد بوخارين ورادك بألا يحكم على المتهمين بالموت ، وذلك لتسهيل المفاوضات . وغضب لينين لأن بوخارين ورادك « خضعا للابتزاز » وسمحا هكذا للاصلاحيين الاوروبيين بالتدخل في الشؤ ون الداخلية للسوفييتات . ولم يكن تروتسكي أقل غيظاً ، لكنه اقترح حلاً وسطاً من أجل انتهاك الالتزام المقطوع : صدر الحكم بالاعدام ، لكنه أوقف تنفيذه بشرط صريح هو أن يتوقف الحزب الاشتراكي الثوري عن اقتراف أي عمل إرهابي آخر أو تشجيعه(٢٨) .

في داخل الحزب ايضاً ، بدا تروتسكي نصيراً للانضباط الحديدي وباسم اللجنة المركزية ، اتهم المعارضة العمالية امام الحزب والأممية الشيوعية . فمنذ المؤتمر العاشر ، الذي أدينت فيه نشاطات المعارضة العمالية ومفاهيمها ، واصلت هذه هجماتها على قيادة الحزب بحدة متنامية . كان شليابنيكوف وكولونتاي يتهمان الحكومة بتشجيع مصالح البورجوازية الجديدة والكولاك ، ودوس حقوق العمال بالأقدام ، واخيراً بخيانة الثورة بفظاظة . ولما كانا انهزما في الحزب وهددهما لينين بالطرد ، فقد استأنفا ضده أمام الأممية الشيوعية . ترافع تروتسكي ضدّهما وحصل على رفض استئنافهما(٢٩) . وفي المؤتمر الحادي

---

(٢٨) برافدا ، ١٦ و ١٨ أيار / مايو و ١٨ حزيران / يونيو ١٩٢٢ ؛ لينين ، سوش . ، ج ٣٣ ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٨ ؛ الاممیتان الثانية والثالثة واتحاد فيينا ؛ تروتسكي ، حياتي .

(٢٩) ١١ سيزد ر . ك . ب . (ب) ، ملحق .

عشر للحزب الروسي ، في ربيع ١٩٢٢ ، الذي كان عليه هو الآخر أن يحكم في القضية ، لعب تروتسكي مرة اخرى دور الاتهام[٣٠] . تكلم دون عدوانية أو ضغينة ، بنوع من حرارة التعاطف مع المعارضة ، لكنه أبقى مع ذلك على إدانته لها . قال إن المعارضة العمالية مارست حقها حين بادرت الى الخطوة التي لا سابقة لها المتمثلة بالاستئناف ضد الحزب الروسي أمام الأممية . إلا أنه اخذ على شليابنيكوف وكولونتاي كونهما أدخلا في النقاش نبرة ذات عنف لا يُحتمل ، واستخدما وهما يتكلمان على نفسيهما وعلى الحزب عبارتي « نحن » و« هم » ، « كما لو كان لديهما حزب آخر احتياطي » . إن سلوكاً كهذا ـ قال ـ يقود الى الانشقاق ويصب الماء في طاحونة اعداء الثورة . ودافع عن الحكومة وسياستها الريفية وتنازلاتها للملكية الخاصة ، وكذلك عن نظريتها التي كانت موضع تهجمات حادة للغاية والتي كانت ترى انه تنفتح « حقبة طويلة من التعايش السلمي والتعاون الجدي مع البلدان البورجوازية »[٣١] . ولم تكن المعارضة العمالية الوحيدة التي أعلنت عن استيائها ، ففي المؤتمر الحادي عشر ، الأخير الذي حضره لينين ، تعرض تروتسكي ولينين لهجوم أصدقاء حميمين ، ومن وقت طويل : تكلم أنطونوف ـ أوفسينكو على استسلام الحزب أمام الكولاك والرأسمالية الأجنبية[٣٢] ؛ ودوّى صوت ريازانوف ضد الاحباط السياسي العام وضد الاعتباط الذي كان المكتب السياسي يقود به الحزب[٣٣] ؛ واحتج لوزوفسكي وسكريبنيك ، المفوض الأوكراني ، ضد المركزية القصوى للحكم التي تذكّر كثيراً بروسيا الماضي « الواحدة وغير القابلة للقسمة »[٣٤] . وندد بوبنوف بخطر « الانحطاط البورجوازي الصغير » للحزب[٣٥] ؛ واحتج بريو براجنسكي ، هو الآخر ، وكان أحد المنظرين الاقتصاديين الكبار ، والسكرتير سابقاً للجنة المركزية[٣٦] . وفي تاريخ لاحق ، سيكون معظم هؤلاء المحتجين أعضاء مرموقين في المعارضة « التروتسكية » ؛ سوف يأتي يوم ايضاً يستأنف فيه تروتسكي ، مثل شليابنيكوف وكولونتاي ، ضد اللجنة المركزية الروسية أمام الأممية . لكنه الآن ، بدعم حار من لينين ، واجه المعارضة كناطق بلسان الحرس البلشفي القديم ، مطالباً بالانضباط ، وبالانضباط ايضاً ، ودائماً بالانضباط .

(٣٠) المرجع ذاته ، ص ١٣٨ ـ ١٥٧ .
(٣١) المرجع ذاته ، ص ١٤٤ .
(٣٢) ١١ سييزد ر . ك . ب (ب) ، ص ٨٠ ـ ٨٣ .
(٣٣) المرجع ذاته ، ص ٨٣ ـ ٨٧ .
(٣٤) المرجع ذاته ، ص ٧٧ ـ ٧٩ .
(٣٥) المرجع ذاته ، ص ٤٥٨ ـ ٤٦٠ .
(٣٦) المرجع ذاته ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

إلا أنه بقي غريباً في الحرس القديم ، فقد كان معه لكنه لم يكن منه . هذا ما أكده ، في مؤتمر ١٩٢٢ ، من أعلى المنبر ودون مقاطعة من أحد ، واحد كميكويان ، وكان آنذاك مندوباً أرمنياً شاباً . فخلال النقاش ، ندد لينين وزينوفييف وتروتسكي بالخطر المتمثل باضطراب الحزب والدولة ، وقالوا إن من الضروري الفصل الى حد ما بين وظائفهما الخاصة بكل منهما . أجاب ميكويان آنذاك أنه ليس مدهشاً سماع تروتسكي يقول ذلك الكلام ، لأن تروتسكي ، حسبما زعم ، هو « رجل الدولة ، لا الحزب » ؛ لكن كيف أمكن لينين وزينوفييف اقتراح امر من هذا القبيل؟[٣٧]. ولم يعبر ميكويان هنا عن فكرة محض شخصية، بل كان يلخص ما يفكر فيه العديد من اعضاء الحرس القديم دون أن يقولوه بعد علناً: في نظرهم،كان تروتسكي رجل الدولة، لا الحزب.

إن الحرس القديم الذي ارتقى الى ذروة عجيبة ، فوق الشعب بكثير ، بدأ يعنى بماضيه الخاص به ، وبالأساطير المحيطة به أيضاً ، مع ما يرافق ذلك حتماً من توقير يميز مجموعات المحاربين القدامى الذين تجمع بينهم الذكريات المشتركة لمعارك كبيرة وانتصارات عظيمة . لم تكن الأمة تعرف شيئاً ، أو كانت تعرف القليل فقط ، عن أولئك الناس الذين خرجوا من ظلمة الحركة السرية وغدوا اليوم يقودونها ، حان الوقت ليقال للشعب من كان هؤلاء الناس وما فعلوا . غاص مؤرخو الحزب في المحفوظات وشرعوا يعيدون بناء ملحمتهم ؛ وكانت القصة التي رووها ملأى بالبطولة التي تلامس ما هو فوق البشر ، وبالحكمة والاخلاص للقضية . لم يكن ذلك تاريخاً مكتوباً ببرودة نقدية ؛ كان صحيحاً في جزء كبير منه ، لكن جرى ، بكل صدق ، تصديق ما لم يكن صحيحاً تماماً . إذ تأمل أعضاء الحرس القديم أنفسهم في مرآة الماضي المهتزة ،لاحظوا حتماً أن المرآة تشع وأن انعكاساتهم تتضخم في عملية العودة الى الماضي تحت الأضواء الباهرة للثورة الظافرة . لكن فيما كانوا يتأملون تلك المرآة ، رأوا فيها دائماً صورة تروتسكي الذي كان خصمهم ، تروتسكي منشفي ، حليف للمناشفة ، زعيم لكتلة آب ، مساجل عنيف ولاذع ودائم الخطر ، حتى حين كان معزولاً . وجدوا فيها كل النعوت الجارحة التي تبادلها هو ولينين في المساجلات العلنية . والمحفوظات التي كانت تضم رسائل ومخطوطات مجهولة كانت تكشف العديد العديد من الملاحظات الأخرى التي أعطاها الواحد بصدد الآخر . جرى تخزين أدنى وثيقة تتناول ماضي الحزب ، مهما تكن تافهة ، ثم نشرها باحترام . انطرح السؤال حول معرفة ما إذا كان ينبغي القبول بنشر خطب تروتسكي القديمة المعادية للبلشفية . طرح أولمينسكي ، حافظ محفوظات الحزب ، السؤال على تروتسكي حين

(٣٧) ١١ سيزد ر . ك . ب (ب) ص ٤٥٣ ـ ٤٥٧ .

اكتشف في ملفات الدرك القيصري رسالة تروتسكي الى تشخيدزه ، المكتوبة عام ١٩١٢ ، والتي تصف لينين بالـ « دسّاس » و « المشوِّش » ، و « المستغل لوضع روسيا المتخلف »(٣٨) . وقد عارض تروتسكي النشر قائلاً إنه سيكون من الجنون جذب الانتباه إلى تلك الخلافات التي تم تخطيها منذ زمن بعيد ؛ وأضاف أنه لا يعتقد بأنه اخطأ دائماً في انتقاداته للبلاشفة ، لكنه لا يرغب في الانصراف الى تفسيرات تاريخية . وهكذا لم يتم نشر الوثيقة المهينة لكن مضمونها كان قارصاً بحيث عرف به اعضاء الحزب القدامى والمحنكون . قالوا : انظروا إذاً كيف اغتاب تروتسكي لينين في رسالة ؛ رسالة لمن ؟ لذلك الخائن القديم تشخيدزه ! ويقول أيضاً إنه لم يكن مخطئاً تماماً ! وفي الحقيقة أن تروتسكي قام مذاك بتعويض واسع لما فات ، إذا كان هناك من حاجة لذلك . في عام ١٩٢٠ ، في الذكرى الخمسين لمولد لينين ، رسم له تروتسكي صورة نفاذة بحقيقتها السيكولوجية بقدر ما هي فياضة بالاعجاب ، كتحية باهرة لشخصه(٣٩) ، ومع ذلك ، فأحداث الماضي الغريبة ذكرت أولئك الذين لم يكونوا يشعرون يوماً بغير العبادة لمؤسس الحزب ، كم كان اهتداء تروتسكي للبلشفية حديثاً .

ولم تكن ذكرى الخصومات القديمة هي الوحيدة التي منعت الحرس القديم من الاعتراف بتروتسكي كواحد منه . فشخصيته القوية لم يغطّها الحرس القديم ولم تذب في رتابة المجموع . كان يسيطر على اللينينيين القدامى بمقدرته الفكرية وطاقته . وحتى حين كانت استنتاجاته تتطابق مع استنتاجات الآخرين ، كان يتوصل اليها انطلاقاً من مقوماته الخاصة به ، وعلى طريقته ، دون العودة الى المسلّمات التي كرسها تراث الحزب . كان يعرض آراءه بسهولة وحرية تتناقضان بشكل فريد مع الأسلوب الشاق للصيغ الأورثوذكسية ، الذي كان يعتمده معظم تلامذة لينين . كان يتكلم بسلطان لا ككاتب مبتذل . وكان اتساع اهتماماته الفكرية وتنوعها يثيران حذراً متكتماً لدى أناس اعتادوا ، سواء بفعل الضرورة أو العدول أو الانصياع ، تركيز اهتمامهم على مشكلات السياسة والتنظيم بوجه الحصر ، وكانوا يعتزون بمحدوديتهم كما لو كانت فضيلة .

هكذا كان كل شيء فيه ، ذكاؤه الخصيب ، وجرأته الخطابية ، وفرادته الأدبية ، وصفاته كإداري ، ودقة طرائقه في العمل ، وتصلبه ازاء معاونيه ومرؤوسيه ، وتحفظه ، وابتعاده عن الابتذال ، وحتى عجزه عن المحادثات التافهة ، كل ذلك كان يعطي اعضاء الحرس القديم شعوراً بالدونية حياله . لم يهتم يوماً بالانحناء إلى حيث هم ، لا بل لم يكن

(٣٨) المحفوظات : رسالة من تروتسكي الى اولمينسكي بتاريخ ٦ كانون الأول / ديسمبر ١٩٢١ .

(٣٩) برافدا ، ٢٣ نيسان / أبريل ، ١٩٢٠ .

يعتقد بأن في وسعه ذلك . لم يكن البلهاء يمتعونه ، ليس ذلك فقط ، إنما كان يشعرهم دائماً ببلاهتهم . كان رجال الحرس القديم يأخذون راحتهم أكثر بكثير مع لينين الذي اعترفوا دائماً بأنه قائدهم والذي كان يراعي في العادة حساسيتهم . فمثلاً حين كان لينين ينتقد موقفاً سياسياً يعرف انه يخص أحد تلامذته ، كان يهتم بألا ينسبه أبداً لأولئك الذين يأمل كسبهم الى جانب وجهة نظره ، سامحاً لهم هكذا بالتراجع دون فقد ماء الوجه . وحين كان يسعى لجعل أحدهم يتبنى رأيه ، كان يتصرف بشكل يذهب معه هذا الأخير مقتنعاً بأنه وصل بذاته ، وباستدلاله العقلي الخاص به ، لا تحت ضغط لينين ، الى هذا الاستنتاج أو ذاك . كان هنالك القليل من هذه الرهافة لدى تروتسكي الذي نادراً ما كان يقاوم إغراء تذكير الآخرين بأخطائهم ، والإلحاح على تفوقه ، وبعد نظره . حتى بعد نظره ، الذي إذا كان تفاخرياً لم يكن أقل صحة ، فقد كان عدوانياً . كانت روحه الخلاقة ، المتيقظة دائماً ، تبلبل وتثير الاضطراب وتغيظ على الدوام . لم يكن يترك زملاءه ومرؤوسيه يستسلمون لجمود الظروف والافكار . ما أن كان يتبنى الحزب سياسة جديدة حتى كان يعرّي « تناقضاتها الديالكتيكية » ، ويستخلص منها النتائج ، ويستبق الصعوبات والمشكلات الجديدة في الوقت ذاته ، ويطالب بقرارات جديدة . كان معكّراً بالفطرة ، ومع أن أحكامه كانت تظهر صائبة في معظم الأحوال ، إلا أنها كانت تستثير المقاومة حتماً . وكانت سرعة بديهته تترك الآخرين مذهولين ، منهكين ، ممتلئين غِلاً وغاضبين .

ووسع ذلك ، ورغم انه كان شبه غريب في موسكو ، في الكرملين وضمن الحرس القديم ، كان لا يزال يهيمن ، إلى جانب لينين ، على مسرح الثورة .

في نيسان / ابريل ١٩٢٢ ، حدث أمر عارض فعل الكثير لتعكير العلاقات بين تروتسكي ولينين . ففي ١١ نيسان / أبريل ، خلال جلسة للمكتب السياسي ، اقترح لينين تعيين تروتسكي نائب رئيس لمجلس مفوضي الشعب ، فرفض تروتسكي المنصب بصورة جازمة ، ليس بدون بعض التعالي . وقد أزعج الرفض ، واللهجة التي جاء فيها ، لينين ، وغذى الحادث الخلافات الجديدة التي ، اذا اضيفت الى العداوات القديمة ، كانت تقسم المكتب السياسي[٤٠] .

كان لينين قد تأمل قبول تروتسكي ، ان يكون الشخص الذي سيحل محله على رأس الحكومة ، وقد عرض عليه ذلك بعد اسبوع على تعيين ستالين أميناً عاماً للحزب . كانت وظيفة الأمين العام ، من الناحية النظرية ، تطبيق قرارات اللجنة المركزية والمكتب

(٤٠) المحفوظات .

السياسي ، لكن تم تعيين ستالين في هذا المنصب لتقوية الانضباط داخل الحزب . ونحن نعلم أن لينين كان قد طلب طرد قادة المعارضة العمالية ، ولم يكن ينقصه غير صوت واحد للحصول على أكثرية الثلثين المطلوبة لتمرير هذه النقطة[٤١] . وكان ينتظر من ستالين أن يطبق بمواجهة المعارضة الداخلية والمنظمة التحريم الذي قرره المؤتمر العاشر في جلسة سرية . ضمن تلك الظروف ، كان أمراً شبه محتوم أن يضطلع الأمين العام بسلطات استنسابية واسعة .

أثار تعيين ستالين مخاوف لدى لينين . ولما كان تسبب به ، فقد حاول بشكل واضح أن يوازن نتائجه بوضع تروتسكي في مركز تأثير ومسؤولية مماثلين في مجلس المفوضين. ومن الممكن أن يكون اعتبر هذه القسمة للوظائف بين ستالين وتروتسكي وسيلة لبدء ذلك الفصل بين الدولة والحزب الذي طالب به بإلحاح في المؤتمر. وليكون الفصل فعلياً، بدا أنه كان يلزم لسير الآلة الحكومية أن يقودها رجل له الحجم المعنوي ذاته الذي يتمتع به من يقود آلة الحزب.

وفقاً لخطة لينين ، لم يكن ينبغي مع ذلك أن يكون تروتسكي وحده في منصب النائب الأول للرئيس . فقد كان يشغل هذا المنصب ايضاً كل من ريكوف ، الذي كان يجمع الى ذلك مركزه كرئيس للمجلس الاعلى للاقتصاد القومي ، وتزوروبا ، مفوض التموين . وفيما بعد ، اقترح لينين أن يتولى كامينيف أيضاً هذا المنصب[٤٢] . كان كل من نواب الرئيس يشرف على بعض فروع الادارة أو على بعض مفارز المفوضية . لكن إذا كان تروتسكي سيتولى واحداً من مناصب نيابة الرئاسة الثلاثة أو الاربعة ، فلا شك أن لينين كان ينوي ان يجعل منه ثانيه الحقيقي . وكان تروتسكي لعب هذا الدور في كل المناسبات ، من دون لقب رسمي ، وذلك بمحض خصوبة مبادرته في كل قطاعات الحكومة . كان اقتراح لينين يهدف إذاً إلى جعل هذا الأمر الواقع نظامياً والى تثبيته بصورة بارزة .

الى أي حد كان لينين يرغب في ان يحتل تروتسكي هذا المنصب ؟ إننا نكتشف ذلك بسهولة حين نلاحظ أنه كرر الاقتراح ذاته مراراً خلال تسعة أشهر . حين أطلقه للمرة الاولى في نيسان / ابريل ، لم يكن داهمه المرض بعد ولم تكن مشكلة خلافته مرت على الأرجح في ذهنه حتى ذلك الحين ، لكنه كان مثقلاً بالأعمال ومرهقاً . كان يمر بنوبات أرق

---

(٤١) كان ذلك في ٩ آب / أغسطس ١٩٢١ : جرى التلميح الى ذلك باستمرار في المؤتمر الحادي عشر ، ١١ سييزد ر ك ب (ب) ، ص ٦٠٥ - ٦٠٨ وهنا وهناك .

(٤٢) - لينين ، سوش . ، ج ٣٣ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٦ ، ٣١٦ - ٣١٨ .

طويلة ، ويجد نفسه مضطراً للسعي لتخفيف حمله الخاص . وقبل نهاية أيار / مايو ، أصابته نوبة الفالج الأولى ، ولم يتمكن من استئناف العمل قبل تشرين الأول / اوكتوبر . إلا أنه خابر ستالين في ١١ أيلول / سبتمبر ـ وكان لا يزال مريضاً وقد فرض عليه اطباؤه الراحة المطلقة ـ وطلب اليه أن يطرح مجدداً أمام المكتب السياسي مسألة تعيين تروتسكي ، بالصورة الأكثر الحاحاً . وأخيراً ، في بداية كانون الأول / ديسمبر ، أعاد لينين طرح المسألة ، مرة اخرى ، على تروتسكي ، لكن هذه المرة بصورة مباشرة ، وفي لقاء خاص ، في وقت كانت مشكلة خلافته بدأت تقلقه بشكل خطير .

لماذا رفض تروتسكي ؟ ربما ثار عنفوانه إزاء ترتيب يضعه رسمياً على المستوى ذاته لنواب الرئيس الآخرين ، الذين لم يكونوا غير معاونين تابعين للينين . قال تروتسكي إنه لا يرى مبرراً لوجود هذا العدد من نواب الرئيس وأعطى تعليقات ساخرة حول وظائفهم غير المحددة ، والمتداخلة[٤٣] . وأجرى أيضاً تمييزاً بين واقع التأثير السياسي وظله ، ليثبت أن لينين لم يكن يقدم له غير الظل ، فكل روافع الحكومة كانت بين يدي سكريتيرية الحزب ، أي بين يدي ستالين . لقد استمر تضاد تروتسكي وستالين بعد انتهاء الحرب الاهلية ، وكان يعود الى الظهور دائماً في النقاشات السياسية والنزاعات بصدد التعيينات التي كان على المكتب السياسي ان يبتّ أمرها . كان تروتسكي مقتنعاً أنه ، حتى كثانٍ للينين ، سيخضع في كل لحظة لقرارات الأمانة العامة التي كانت تختار الموظفين البلاشفة في مختلف الأقسام الوزارية ، وتشرف بذلك عليهم فعلياً . وحول هذه النقطة ، كان سلوكه ، مثله مثل سلوك لينين ، متناقضاً : كان يريد من الحزب ، أو من الحرس القديم بوجه خاص ، أن يمسك حصرياً بزمام الحكم ، لكنه كان يسعى في الوقت ذاته لمنع آلة الحزب من التدخل في عمل الحكومة . لكن لم يكن يمكن إرضاء هذين المطلبين معاً ، إذا لم يكن لشيء فلأن آلة الحزب كانت في جزء كبير منها ، لا كلياً ، بين يدي الحرس القديم . ولما كان تروتسكي رفض اقتراح لينين ، فقد اقترح أولاً خطة اعادة تنظيم للادارة : لكنه اقتنع فيما بعد بأن أي خطة من هذا النوع لن تؤدي الى النتائج المتوخاة ، طالما لم يجر الحد من سلطات الأمانة العامة (ومكتب التنظيم) .

كانت العداوات الشخصية ، والخلافات حول مشكلات إدارية مرتبطة كالعادة بخلافات سياسية .

كان الهم الرئيسي للمكتب السياسي الآن هو قيادة الشؤون الاقتصادية ، ، ولم

---

(٤٣) انظر شروحات تروتسكي في المكتب السياسي في ١٨ نيسان / أبريل ١٩٢٢ ، في المحفوظات .

تكن الخطوط العريضة للنيب موضع جدال . الجميع كانوا يعتقدون أن شيوعية الحزب اخفقت وأنه ينبغي استبدالها باقتصاد مختلط ، حيث يتعايش القطاع الخاص والقطاع الاشتراكي (أي قطاع ملكيّة الدولة) ، ويتنافسان بمعنى ما . كان الجميع يرون في النيب ، لا وسيلة مؤقتة ، بل سياسة طويلة المدى ، سياسة توفر إطاراً لانتقال تدريجي الى الاشتراكية . كان كل واحد يعتبر من دون تحفظ أن للنيب هدفاً مزدوجاً : هدفاً مباشراً هو النهضة الاقتصادية بفضل المنشأة الخاصة ، وهدفاً عميقاً هو تشجيع القطاع الاشتراكي وامتداده التدريجي الى كل الميدان الاقتصادي . لكن إذا لاقت النيب ، على هذا الصعيد العام ، تأييداً إجماعياً ، فقد ظهرت خلافات منذ أصبح مطروحاً ترجمة المبادىء العامة الى تدابير خاصة . كان بعض القادة البلاشفة يفكرون قبل كل شيء بضرورة تشجيع المنشأة الخاصة ، بينما كان آخرون لا ينكرون هذه الضرورة لكنهم يهتمون قبل كل شيء بتشجيع القطاع الاشتراكي .

انطبعت السنوات الأولى من النيب بميل إلى رد الفعل العنيف ضد شيوعية الحرب . كان البلاشفة يسعون لإقناع البلاد بألا تخشى السقوط مجدداً في شيوعية الحرب ، علاوة على أنهم كانوا مقتنعين هم أيضاً بأن انتكاسة من هذا النوع لن تكون محتملة (إلا في حالة الحرب) . لم يكن ثمة شيء أهم من إنقاذ الاقتصاد من الدمار التام وكانوا يفهمون أن لا شيء غير الزراعة والتجارة الخاصة يمكنه الشروع بإنقاذه . بالنسبة اليهم ، لم يكن أي جاذب مقدم للتجارة والزراعة ليبرالياً جداً . ولم يطل الوقت لتظهر النتائج ففي عام ١٩٢٢ بلغت المحاصيل ثلاثة أرباع ما كانت عليه قبل الحرب ، ونتج عن ذلك تبدل جذري في ظروف البلاد ، لأن محصولاً جيداً ، يمكن أن يصنع المعجزات في بلد زراعي بدائي ، فلقد تم الانتصار على المجاعات والأوبئة . لكن هذا الانتصار الأول للنيب أبرز في الحال أخطار الوضع ، فالصناعة لم تكن تنبعث إلا ببطء ، وفي عام ١٩٢٢ لم يبلغ إنتاجها إلا ربع ما كان قبل الحرب . لكن حتى هذا الازدياد الخفيف بالنسبة للسنوات السابقة لم يكن يطول بشكل رئيسي غير الصناعة الخفيفة ، وبخاصة صناعة النسيج ، إذ بقيت الصناعة الثقيلة مشلولة ؛ فالبلاد كانت تفتقر إلى الفولاذ والفحم والآلات ، وهو ما كان يخاطر من جديد بشل الصناعة الخفيفة التي ما كان باستطاعتها أن تصلح تجهيزاتها أو تجددها وكان ينقصها الفحم . وقفزت أسعار المنتجات الصناعية إلى حد أنها اصبحت في غير متناول المستهلكين . هذا الارتفاع نجم عن اتساع الطلب غير الملبّى ، وعن تدني استخدام المصانع وندرة المواد الأولية ، الخ . ولقد فاقم الوضع انعدام خبرة البلاشفة في تسيير الصناعة وافتقاد البيروقراطية للفعالية . كان ركود الصناعة يهدد بانعكاسات كارثية على

الزراعة وبقطع « الرباط » المحتفظ به بين المدينة والريف مرة أخرى . كان الفلاح ينفر من مبادلة منتجاته لقاء مال لا يمكن ان يشتري به سلعاً صناعية . ولم يكن يمكن التنازلات المقدمة للتجارة والزراعة الخاصتين ، مهما كانت ضرورية ، أن تحل المشكلة . ولم يكن يمكن الطلب الى السوق أن تأخذ هذه المشكلة بالاعتبار وتحلها بسرعة ، عبر اللعبة الآلية للعرض والطلب ، من دون توجيه ضربة الى التطلعات الاشتراكية للحكومة .

لم تكن الحكومة ترى بوضوح كيف العمل في حالة كهذه . كانت تكتفي بما تيسر لها ، وتلجأ لوسائل تملي اختيارها عليها روح رد الفعل لديها ضد شيوعية الحرب . لقد حرق القادة البلاشفة أصابعهم ، وهم يحاولون متجاسرين أن يلغوا كل اقتصاد سوق ؛ لذا كانوا يتدخلون الآن في السوق بحذر وحيطة . فخلال فترة شيوعية الحرب ، لم يردعهم أي وسواس عن انتزاع المنتجات الغذائية والمواد الأولية من الفلاحين ، وها هم الآن راغبون قبل كل شيء في تهدئة الفلاحين . كانوا يأملون أن تبقي الحاجة الشديدة والملحة الى المنتجات الاستهلاكية على سير الصناعة ، وأن تنجح الصناعة الثقيلة ، بشكل أو بآخر ، في استعادة انطلاقتها ؛ والموقف ذاته كان قائماً في ميدان السياسة المالية . في ظل شيوعية الحرب ، كان مفترضاً أن تزول العملة والتسليف ، وهما من آثار النظام القديم المزدراة . وفيما بعد ، أعادت مفوضية المال ومصرف الدولة اكتشاف اهمية العملة والتسليف ،ووظفا مواردهما في منشآت يمكن أن تؤمن لهما ربحاً فورياً اكثر مما في المنشآت ذات الأهمية القومية . منحا قروضاً للصناعة الخفيفة وأهملا الصناعة الثقيلة . إن رد الفعل هذا ضد شيوعية الحرب كان طبيعياً لا بل مفيداً إلى حد ما ، لكن بعض قادة الحزب ، كريكوف وسوكولنيكوف ، ممن كانوا يتولون ادارة المصالح الاقتصادية والمالية ، دفعوا برد الفعل هذا إلى حدود مبالغ بها .

ينبغي التذكير بأن إقرار النيب لم يثر أي خلاف بين تروتسكي والقادة الآخرين ، فتروتسكي كان دافع بذاته عن المبادىء التي اعتمدتها النيب قبل عام من تبني اللجنة المركزية لها ، لذا كان على حق حين أظهر للينين ، على حدة ، بأن الحكومة تتصدى للمشكلات الاقتصادية شديدة الالحاح متأخرة عاماً ونصفاً أو عامين(٤٤) . لكن اذا كان تروتسكي أول من دافع عن النيب ، فهو لم يدع نفسه ينجرف في رد فعل مغالٍ ضد شيوعية الحرب . كان أقل ميلاً من زملائه في المكتب السياسي للاعتقاد بأن تنازلات إضافية للمزارعين والتجار كافية لاعادة اطلاق الاقتصاد ، أو أن لعبة السوق الآلية ستعيد التوازن

---

(٤٤) مداخلات تروتسكي في المكتب السياسي في ٧ آب / اغسطس ١٩٢١ و ٢٢ آب / اغسطس ١٩٢٢ ، في المحفوظات .

بين الزراعة والصناعة ، أو بين الصناعة الخفيفة والصناعة الثقيلة . كما لم يكن يشاطر سوكولنيكوف وريكوف حماسهما اليافع لفضائل الأورثوذكسية المالية المعاد اكتشافها .

كان لتلك الخلافات القليل من الأهمية ، أو لم يكن لها أهمية بتاتاً ، في عام ١٩٢١ وفي بداية ١٩٢٢ ، طالما لم تستعد الزراعة والصناعة وتيرتها العادية ، لكن أفسحت في المجال ، فيما بعد ، لخلاف خطير . فقد اكد تروتسكي ، أن النجاحات الأولى للنيب تتطلب مراجعة ملحة للسياسة الصناعية ، وأنه ضروري تسريع وتيرة النمو الصناعي . كان « الازدهار المفاجىء » للصناعة الخفيفة سطحياً ، يستند إلى أساس ضيق ، ولم يكن يمكنه أن يدوم إلا إذا جرى تمكين الصناعة الخفيفة من إصلاح آلاتها وتجديدها (كانت الزراعة ايضاً تحتاج إلى المعدات لمواصلة تقدمها) . لذا كان الجهد المتواصل ضرورياً إذا أريد الخروج بالصناعة الثقيلة من المأزق الذي كانت فيه : كان على الحكومة أن تضع « خطة إجمالية » للصناعة بدل الاعتماد على سير السوق ، ولعبة العرض والطلب . كان يلزم تصنيف القطاعات الاقتصادية وفقاً لترتيبها من حيث الأولوية ، وكان يجب أن تأتي الصناعة الثقيلة في أعلى اللائحة . وكان ينبغي للموارد واليد العاملة أن يجري تركيزها بصورة عقلانية في منشآت الدولة التي تُعتبر أهميتها اساسية بالنسبة للاقتصاد القومي ، بينما يجب اغلاق تلك التي تعجز عن الاسهام بشكل فعال وبسرعة في إنهاض البلاد ، مع احتمال دفع عمالها مؤقتاً إلى البطالة . كان ينبغي إخضاع السياسة المالية لمتطلبات السياسة الصناعية ، وللمصلحة القومية لا لقانون الربح . وينبغي توجيه التسليفات نحو الصناعة الثقيلة ؛ كما أن على مصرف الدولة أن يقوم بتثميرات طويلة الأجل لاعادة تجهيزها . وشرح تروتسكي أن اعادة التوجيه هذه للسياسة قد جعلها شديدة الالحاح للتوازن المفقود بين القطاع الاشتراكي والقطاع الخاص. كان القطاع الخاص قد اصبح يحقق ارباحاً، ويراكم رأس مال ويتوسع، بينما كان الجزء الأكبر من صناعة الدولة يعمل بخسارة. وكانت اللامساواة الصارخة بين القطاعين تشكل تهديداً للأهداف الاشتراكية للسياسة الحكومية.

هذه الأفكار التي ستكون بديهية بعد ثلاثين أو أربعين سنة ، احدثت في البدء تأثير مبالغات ، وتسبب إلحاح تروتسكي على تأكيد ضرورة التخطيط بأثر أسوأ أيضاً . إن الفكرة القائلة بأن التخطيط جوهري بالنسبة لاقتصاد اشتراكي كانت مسلّمة ماركسية مألوفة بالتأكيد لدى البلاشفة ، لا يشكك بها أي منهم ، على الصعيد العام . وخلال فترة شيوعية الحرب ، تصوروا أنهم قادرون على أن يرسوا فوراً اقتصاداً مخططاً كلياً وتماماً ، ولم يلق تروتسكي أية معارضة حين تكلم على ضرورة « خطة موحدة » لضمان إعادة بناء

اقتصادية متوازنة[٤٥] . وقبل نهاية شيوعية الحرب بقليل ، في ٢٢ شباط / فبراير ١٩٢١ ، قررت الحكومة خلق لجنة خطة ، الغوسپلان . لكن بعد اقرار النيب ، حين توجهت كل الجهود لبعث اقتصاد السوق ، شهدت فكرة التخطيط نوعاً من الكسوف . كانت مقرونة في ذهن الناس بشيوعية الحرب الى حد أن كل ما كان يذكّر بهذه الأخيرة يظهر في غير محله . وفي الحقيقة أنه غداة اقرار النيب ، في أول نيسان / ابريل ١٩٢١ ، تقرر تشكيل الغوسپلان وتعيين كزيجانوفسكي رئيساً لها . لكن المؤسسة الجديدة عاشت حياة الاشباح ، فصلاحياتها كانت سيئة التحديد وقليل من الناس كانوا يبدون استعجالاً لتحديدها . لم تكن لديها أية سلطة لوضع سياسة طويلة الأجل ، ولارساء خطة أو فرض تطبيق خطط . كانت الغوسپلان تكتفي بمساعدة مديري الصناعة على حل صعوباتهم الادارية اليومية[٤٦] ، عبر اسداء النصائح .

انتقد تروتسكي هذا الوضع منذ البداية تقريباً . وأكد أنه مع الانتقال الى النيب أصبحت الحاجة إلى التخطيط اكثر الحاحاً لا أقل الحاحاً ، وأن الحكومة اخطأت حين لم تر فيه إلا مشكلة هامشية أو محض نظرية . فلأننا عدنا بالضبط الى اقتصاد السوق ، على الحكومة ـ حسبما أوضح ـ أن تسعى للاشراف على السوق ولتنظيم نفسها لتأمين هذا الاشراف . وجدد مطالبته بـ « خطة موحدة »، بدونها كان يرى أن من المستحيل عقلنة الانتاج وتركيز الموارد في الصناعة الثقيلة واعادة اقامة التوازن بين مختلف قطاعات الاقتصاد . وفي الاخير ، طلب تحديد صلاحيات الغوسپلان بوضوح ، بحيث تصبح هذه جهاز تخطيط مزوداً بكل السلطات الضرورية ، له صلاحية جرد طاقات الانتاج ، واليد العاملة ، ومخزونات المواد الأولية ، والإشراف عليها ، وتحديد أهداف الانتاج بالنسبة للسنوات القادمة ، وفرض احترام « التناسبية الضرورية بين مختلف فروع الاقتصاد القومي » . ومنذ ٣ أيار / مايو ١٩٢١ ، كتب تروتسكي الى لينين : « للأسف ، لا يزال عملنا يتم من دون خطة ، ودون أن يكون تمّ فهم ضرورة وجود خطة . إن الغوسپلان تمثل نفياً واعياً إلى هذا الحد أو ذاك لضرورة وضع خطة اقتصادية صلبة وعملية للمستقبل المباشر »[٤٧] .

---

(٤٥) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٥ ، ص ٢١٥ ـ ٢٣٢ . ومع ذلك ، لحق آنذاك حرر لينين لكزيجانوفسكي ملاحظة صغيرة معبرة جداً : « نحن فقراء . نموت من الجوع ، بائسون ، معدمون . خطة . . . اجمالية . . بالنسبة الينا : « طوبى بيروقراطية » . لينين ، سوش . ، ج ٣٥ ، ص ٤٠٥ .

(٤٦) بيات لت سوفييتسكوي فلاستي ، ص ١٥٠ ـ ١٥٢ .

(٤٧) إن رسالة تروتسكي الى لينين ، موجودة في المحفوظات ؛ انظر كذلك لينينسكيي سبورنيك ، ج ٢٠ ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ . وفي ملاحظة الى زينوفييف يقول لينين : « ان تروتسكي ذو مزاج عدواني بشكل مزدوج » .

لم يتعاطف معه أحد في المكتب السياسي حول هذا الموضوع ، وكان لينين ضده . فاستناداً إلى النظرية الماركسية الكلاسيكية ، أكد لينين أنه لا يمكن ان يتم التخطيط إلا في اقتصاد مركّز ومتطور بشكل كثيف ، لا في بلد نجد فيه عشرين مليوناً ، وأكثر ، من الاستثمارات الصغيرة المشتتة ، وصناعة متفككة واشكالاً همجية وبدائية من التجارة الخاصة . لم يكن لينين ينفي إطلاقاً ضرورة خطط إنماء لأجل طويل ، فلقد اقترح هو وكزيجانوفسكي خطة لكهربة روسيا وأطلق صيغته المشهورة « السوفييتات زائد الكهربة تساوي الاشتراكية » ؛ إلا أنه كان يعتبر أن فكرة « خطة إجمالية » ، تتناول كامل الصناعة المؤممة فكرة مبكرة بقدر ما هي تافهة . وقد رد تروتسكي بأنه حتى خطة لينين للكهربة معلقة في الفراغ اذا لم تستند الى خطة إجمالية . قال : كيف يمكن تخطيط الكهربة حين لا يتم تخطيط إنتاج الصناعات التي ينبغي ان تقدم التجهيز الكهربائي ؟ وأوضح انه يعرف تماماً انه لا يمكن ضمن الشروط الراهنة تصور التخطيط كما تصورته النظرية الماركسية الكلاسيكية ، لأن هذه النظرية تفترض مسبقاً مجتمعاً حديثاً ، أي مجتمعاً تكون فيه قوى الانتاج متطورة ومشرَّكـة بشكل كامل . إلا أن الخطة الاجمالية التي كان يطالب بها لم تكن تشمل غير منشآت الدولة ، لا منشآت القطاع الخاص . ولم يكن مبكراً جداً أبداً ، في رأيه ، القيام بتطبيق الخطة . لقد قال إن هنالك تناقضاً بين وجود ملكية الدولة واتجاه الحكومة لترك مختلف منشآت الدولة تعمل دون تنسيق فيما بينها . لقد جعل التأميم من مجمل الصناعة نوعاً من المنشأة الواحدة التي لا يمكن ادارتها بفعالية من دون خطة موحدة[٤٨] .

بالنسبة لتلك الفترة كان ذلك تصوراً جسوراً . والأجسر منه ايضاً كانت نظرية « التراكم الاشتراكي البدائي » التي شرع تروتسكي يعرضها عام ١٩٢٤[٤٩] . كان ذلك تكييفاً لأحد مفاهيم ماركس التاريخية مع شروط الثورة الاشتراكية في بلدٍ متخلف. لقد اطلق ماركس تسمية فترة التراكم البدائي على الطور الأولي لنمو الرأسمالية الحديثة ، والذي لم يكن يسمح خلاله بعد تراكمُ رأس المال ، الوليد أو الذي لا يزال ضعيفاً جداً ، بتوسع الصناعة انطلاقاً من مواردها الخاصة بها ، أي انطلاقاً من أرباحها الخاصة بها . لم تكن البورجوازية تتراجع في بدايتها أمام أي عنف ، أية طريقة « غير اقتصادية » ، بغية أن تركّز بين يديها وسائل الانتاج ؛ وكانت تستمر في استخدام تلك الطرائق إلى أن تصبح

(٤٨) كان تروتسكي دافع عن هذه النقطة عشية النيب بالذات ، انظر سوش . ، ج ١٥ ، ص ٢١٥ - ٢٣٢ ، ٢٣٣ - ٢٣٥ .
(٤٩) انظر خطابه في المؤتمر الخامس للشبيبة الشيوعية ، في ١١ تشرين الاول / اوكتوبر ١٩٢٢ . سوش . ، ج ٢١ ، ص ٢٩٤ - ٣١٧.

الصناعة الرأسمالية قوية كفاية ، ذات مردود كافٍ ، بحيث تحقق أرباحاً ضخمة يمكنها أن تعيد تثميرها في الانتاج ، إلى أن تجد الصناعة ، التي غدت ناضجة ، مصادر تجدُّدِها وتوسعها في ذاتها . كانت مصادر ملكية صغار المالكين ، ونهب المستعمرات ، والقرصنة ، وفيما بعد دفع اجور متدنية ايضاً ، الوسائل الرئيسية لهذا التراكم البدائي الذي دام قروناً في انكلترا ، البلد الرأسمالي النموذجي . وسننتظر حتى تصبح هذه السيرورة متقدمة نسبياً كي يبدأ حقاً عصر التراكم العادي ، وتبدأ الأرباح « الشرعية » تشكل المصدر الرئيسي ، لكن غير الوحيد ، للتثميرات الواسعة والتصنيع المتواصل .

ماذا كان ينبغي إذاً أن يكون التراكم الاشتراكي البدائي ؟ لم يتخيل الماركسيون يوماً أنه سيكون على الاشتراكية ، هي الأخرى ، ان تمر بطور مماثل للتراكم البدائي الرأسمالي . لقد اعتبروا دائماً كأمر بديهي أن يقوم الاقتصاد الاشتراكي على أسس الثروة الصناعية الحديثة ، التي راكمها المجتمع البورجوازي ، ثم جرى تأميمها . لكن لم يتوافر ما يكفي من هذه الثروة في روسيا ، وأدت كوارث السنوات الأخيرة إلى إتلاف جزء كبير منها . وبعد أن أعلن البلاشفة أن الاشتراكية هي هدفهم ، لاحظوا الآن ان الأسس المادية للاشتراكية غير متوفرة في روسيا ، وينبغي خلقها أولاً . قال تروتسكي إن عليهم أن ينطلقوا في عملية التراكم البدائي التي تختلف عن عمليات التراكم البدائي الأخرى في التاريخ في كونها ستتم على قاعدة الملكية الاجتماعية .

لم يكن يريد اطلاقاً أن يوحي بأن على حكومة اشتراكية ـ أو يمكنها ـ أن تتبنى الطرائق « الدامية والمشينة » للاستغلال والنهب التي قرنها ماركس بالتراكم البدائي البورجوازي ، أو بأن الاشتراكية ستبصر النور مثل الرأسمالية ، « ناضحة دماً ووحلاً من رأسها إلى أخمصيها ، ومن كل مسامها ». إلا ان تكويناً سريعاً وكثيفاً لرأس المال كان أمراً ضرورياً . لم يكن قد أصبح في وسع الصناعة السوفياتية ان تنمو عبر السيرورة العادية المتمثلة بإعادة تثمير الارباح في الانتاج لأنها كانت لا تزال تنتج في جزء كبير منها بخسارة ، وحتى لو لم يكن الأمر على تلك الحال ، لم يكن غدا في مقدورها أن تنتج فوائض مهمة كفاية لتغذية تصنيع سريع هو الشرط Sine qua non* لبناء الاشتراكية . كان يمكن لمراكمة رأسمال الأمة أن تتنامى على حساب أرباح المنشأة والزراعة الخاصتين ، أو على حساب جدول دفع الأمة . ولم يبدأ تروتسكي ، إلا لاحقاً ، يطالب برفع الضريبة على النيمان والفلاحين الأغنياء . أما في عام ١٩٢٢ ، فأشار فقط ، بقوة ، الى انه لا يمكن للاقتصاد أن ينهض ويتوسع إلا

(*) باللاتينية في النص ، وهي بمعنى الضروري أو الواجب (م) .

على حساب العمال . انظروا كيف عبر عن افكاره في تشرين الأول / اوكتوبر ، أمام مؤتمر الكومسومولات : « لقد تسلمنا بلداً متهدماً ومفلساً . والبروليتاريا ، وهي الطبقة القائدة في دولتنا ، مضطرة للانطلاق في فترة يمكن ان ندعوها فترة التراكم البدائي الاشتراكي . لا يمكننا أن نكتفي بالاستعانة بتجهيزها الصناعي لما قبل ١٩١٤ ، فهو قد تدمر ويجب اعادة بنائه قطعة فقطعة لقاء جهد جبار من جانب الشغيلة » . وأضاف : « لا يمكن للطبقة العاملة الاقتراب من الاشتراكية إلا لقاء تضحيات عظمى ، عن طريق بذل كل طاقتها ، وتقديم لحمها ودمها . . . » .

وقد اصطدم تروتسكي بمقاومة على الفور . فجماعة المعارضة العمالية كانوا قد قالوا إن النيب (NEP) هي الأحرف الأولى للاستغلال الجديد للبروليتاريا ، وأصبح التلاعب على الكلمات ما يشبه الشعار(*) . وجاءت محاجة تروتسكي في وقتها لتأكيد صحة الاتهام واعطائه الوزن المنشود . ألم يكن يعمل في الواقع على إقناع العمال بالخضوع لاستغلال جديد ؟ ورد تروتسكي بأنه لا يمكن الحديث بشكل دقيق عن استغلال إلا عندما تجبر طبقة اجتماعية على العمل بشكل ذليل لصالح طبقة اخرى ؛ وبأنه لا يفعل اكثر من مطالبة العمال بالاشتغال لصالحهم هم . وقال انه لا يمكن اتهامه ، في اسوأ الأحوال ، إلا أنه يعمل على اقناع العمال بـ « استغلال أنفسهم بأنفسهم » ، لأنه اذا طلب الى العمال أن يقدموا « تضحيات » ، ويبذلوا « لحمهم ودمهم » فذلك لأجل دولتهم البروليتارية الخاصة بهم ، ولأجل صناعتهم الاشتراكية الخاصة بهم .

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يسند فيها برهاناً إلى المماثلة بين الطبقة العاملة والدولة . ففي عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ ، فعل الشيء ذاته حين عارض استقلال النقابات ، فقد قال يومذاك انه ليس للعمال مصالح يدافعون عنها في وجه الدولة التي هي دولتهم . ورد لينين آنئذٍ بأن الدولة البروليتارية التي تذرع بها تروتسكي كانت لا تزال تجريداً : لم تكن اصبحت حقاً دولة العمال ، لأنها كانت تضطر في الغالب إلى الموازنة بين العمال والفلاحين ، والأسوأ من ذلك أنها كانت ضحية التشويه البيروقراطي . كان من واجب العمال ، بالتأكيد ، أن يدافعوا عن دولتهم ، إلا أنه كان عليهم ايضاً ان يدافعوا عن انفسهم في وجهها(٥٠) . وإذ زعم تروتسكي من جديد أن مصالح الطبقة العاملة

(*) تعني النيب (NEP) «السياسة الاقتصادية الجديدة»، حصراً، وقد قامت المعارضة العمالية باللعب على الكلمات ، فقرأت التعبير كما لو كان « الاستغلال الجديد للبروليتاريا » (New Exploitation of Proletariat) (م) .

(٥٠) ١٠ سييزد ر . ك . ب (ب) ، ص ٢٠٨ ، و S9 ; النبي المسلح ، في النهاية .

ومصالح الدولة متشابهة ، فقد كان يعرّض نفسه للانتقاد ذاته . ألم يكن يطالب العمال ، باسم فكرة مجردة ، بأن يأخذوا على عاتقهم العبء الرئيسي للتراكم البدائي ؟ ألن تكون البيروقراطية ، وربما الكولاك والنيبمان ايضاً ، المستفيدين الأولين من كل ذلك ؟ وكيف يمكن أن يتواصل التراكم البدائي الاشتراكي إذا رفضت الطبقة العاملة أن تدفع من ذاتها ؟ تلك اسئلة ستصبح ملحة في السنوات اللاحقة . أما الآن فكان تروتسكي يجيب بأن السياسة التي كان ينادي بها لا يمكن ـ ولا يجب ـ فرضها على العمال فرضاً ، وأنه لا يمكن تطبيقها إلا برضاهم . كانت الصعوبة الرئيسية ، بالتالي ، « ذات طابع تربوي » : كان ينبغي جعل العمال واعين ما هو ضروري ، وما هو مطلوب منهم ، لأنه من دون إرادتهم الطوعية وحماسهم الاشتراكي لا يمكن بلوغ أي شيء(٥١) . حاول ان يهز في الطبقة العاملة وتر البطولة كما فعل سابقاً بنجاح ساحق في عام ١٩١٩ ، حين كانت الجيوش البيضاء تهدد موسكو وبتروغراد ، وكما حاول ايضاً ان يفعل ، لكن دون اي نتيجة، خلال شتاء ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ، قبل تمرد كرونشتادت . علينا أن نضيف ان دفاعه عن التراكم البدائي الاشتراكي لم يصادف ، في تلك الفترة ، أي معارضة في المكتب السياسي ، مع أن معظم اعضائه كانوا يفضلون ألا يسيئوا الى شعبيتهم بالطلب إلى العمال بصراحة أن يبذلوا « لحمهم ودمهم » .

تلك كانت الاطروحات الاقتصادية الرئيسية التي عرضها تروتسكي في سنوات النيب الاولى ، حين كان في الواقع رائد الاقتصاد السوفياتي المخطط . ولم يكن المحرك الوحيد ، فتلك الاطروحات كانت تمثل الفكر الجماعي لحلقة صغيرة من المنظرين والاداريين القريبين منه ، حتى إذا كان بعضهم لا يؤيدون ميله الى الانضباط . ووفقاً لتروتسكي بالذات ، كان أول من اطلق عبارة « التراكم البدائي الاشتراكي »(٥٢) . هو ڤلاديمير سميرنوف ، قائد الديسيميين ، عضو المجلس الأعلى للاقتصاد القومي . وينبغي اعتبار إيفغيني پريوبراجنسكي المطلق الرئيسي للنظرية : إن مؤلّفه ، **الاقتصاد الجديد** ، الصادر عام ١٩٢٥ ، هو اعمق بكثير ، على الصعيد النظري ، من كتابات تروتسكي ؛ وقد جاءته الفكرة ، بالتأكيد ، حوالي ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ . كان يوري پياتاكوف ، محرك المجلس الاعلى للاقتصاد القومي والنصير ، هو الآخر ، لخطة اقتصادية اجمالية ، قلقاً من حالة الصناعة الثقيلة ، وقد انتقد سياسة التسليف التي اعتمدتها مفوضية المال ومصرف الدولة(٥٣) . ولا شك ان تروتسكي اخذ عن هؤلاء وعن آخرين أيضاً . لكن هؤلاء كانوا

(٥١) سوش . ، ج ٢١ ، المرجع المذكور .

(٥٢) ١٢ سييزد ر ك ب (ب) ، ص ٣٢١ ؛ پريوبراجنسكي ، نوڤايا ايكونوميكا ، ج١ ، القسم الأول ، ص ٥٧ .

(٥٣) المحفوظات .

جد غارقين في النظرية أو غائصين في المشكلات الادارية فلم ينتجوا غير دراسات مجردة أو استنتاجات تجريبية مشذرة . وقد حوّل تروتسكي ، دون غيره ، افكارهم واستنتاجاتهم الى برنامج سياسي دافع عنه امام المكتب السياسي وعرضه أمام مجمل الأمة .

استمر لينين يبدي القليل من الحماس للـ « خطة الموحدة » ولـ « توسيع سلطة الغوسبلان » . قال إن خطته للكهربة هي « العمل الجدي الوحيد حول الموضوع » وادان « الثرثرة غير النافعة » بصدد « خطة اجمالية » . وفعل ستالين الشيء نفسه . لا بل بذل ما في وسعه لتوسيع الشقة بين لينين وتروتسكي[٥٤] . أما القادة الأقل اهمية ، كريكوف وسوكولنيكوف ، فرأوا في سياسة تروتسكي تعدياً على مسؤ ولياتهم . كانوا متشككين بصدد التخطيط ، ومعارضين لتكليف الغوسبلان بسلطات كبيرة . وكانوا يقولون في حلقاتهم الضيقة ان تروتسكي يطالب بسلطات كبرى للغوسبلان ، لأنه يأمل الاضطلاع بقيادتها (وهو اتهام سرعان ما سينقلونه إلى العلن) ، ولأنه لما كان توقف عن ان يكون ديكتاتور البلاد العسكري ، فقد تطلع لأن يصير سيدها في حقل الاقتصاد . ولا نعرف اذا كان تروتسكي رغب حقاً في تولي قيادة الغوسبلان . ولو كان ذلك صحيحاً ، لكان من الصعوبة بمكان اعتبار رغبة من هذا النوع تستوجب اللوم . واذا كان تروتسكي انتقد انعدام فعالية كزيجانوفسكي ، مدير الغوسبلان في ذلك الحين[٥٥] ، فهو لم يقترح أبداً ان يحل محله واكتفى بتناول القضية من حيث الموضوع . إلا أنه لم تتوقف المطامح الشخصية وحالات الغيرة بين الوزارات عن لعب دورها : هكذا زعم خصوم تروتسكي أن لجنة خطة (غوسبلان) معززة ستنافس مجلس العمل والدفاع الذي كان يرأسه لينين وكان تروتسكي نائب رئيسه . وفي جلسة اللجنة المركزية ، في ٧ آب / أغسطس ١٩٢١ ، اجاب تروتسكي بأنه يرى بأن على المجلس ان يستمر في تحديد السياسة العامة ، بينما على الغوسبلان أن تترجم هذه السياسة إلى خطط اقتصادية خاصة تشرف على تنفيذها . إلاّ أنه لم ينجح في كسب اللجنة المركزية إلى جانب وجهة نظره[٥٦] .

بالتوازي مع تلك المجادلات ، كان يدور نزاع بصدد الرابكرين ، هيئة تفتيش العمال والفلاحين . كان ستالين على رأسها من ١٩١٩ إلى ربيع ١٩٢٢ ، حتى تعيينه في

---

(٥٤) انظر ستالين ، سوش ، ج ٥ ، ص ٥٠ ـ ٥١ ، حيث يقارن تروتسكي وافكاره حول التخطيط ، في رسالة الى لينين ، بـ « حرفي من القرون الوسطى يعتبر نفسه بطلاً من ابطال إيبسن مرسلاً لإنقاذ روسيا . . » .

(٥٥) ذكّر لينين بهذا الانتقاد في رسالة إلى المكتب السياسي ، في ٥ أيار / مايو ١٩٢٢ . انظر لينين ، سوش ، ج ٣٣ ، ص ٣١٦ ـ ٣١٨ .

(٥٦ المحفوظات .

منصب الامين العام ، إلا أنه احتفظ مع ذلك فيها بعد بنفوذ كبير على هذا الجهاز . كانت لهيئة التفتيش صلاحيات واسعة ومتعددة : التحقق من اخلاقية سلك الموظفين ، تفتيش عمل أي مفوضية من دون إنذار سابق ، مراقبة مردود كل ادارة واتخاذ تدابير لزيادته . وكان لينين يرى ان على الرابكرين ان تكون نوعاً من المفوضية العليا التي على الادارة ، التي لم تكن خاضعة لأية رقابة ديمقراطية ، ان تراقب نفسها بواسطتها وان تفرض في داخلها انضباطاً حازماً . وفي الواقع كان ستالين قد جعل من هيئة التفتيش شرطته الخاصة داخل الحكومة . ومنذ عام ١٩٢٠ ، هاجم تروتسكي الرابكرين ، فاضحاً تشوش طرائقها في التفتيش وانعدام فعاليتها ، وقائلاً انها لا تفعل غير وضع العصي في دواليب الآلة الحكومية . قال : «لا يمكن خلق ادارة خاصة مزودة بكل حكمة الحكم وقادرة على مراقبة كل الأدارات الأخرى . . . ففي كل فرع من فروع الحكم ، من المعروف انه حين يتم تلمس الحاجة الى تعديل للسياسة او لاصلاح جدي للتنظيم ، لا يجدي ابداً الاستنجاد بنصائح الرابكرين . إن الرابكرين هي برهان مذهل على غياب التناغم بين القرار الحكومي والجهاز الحكومي ، وهي تغدو عاملاً قوياً من عوامل الاضطراب والفوضى » . في كل حال ، ما كان يلزم جهازاً كالرابكرين إنما هو « منظور واسع ، وسعة نظر في حقول الدولة والاقتصاد ، اوسع بكثير من نظر الناس الذين تولوا هذا العمل » . وصف الرابكرين كما لو كانت ملجأ الفاشلين والساخطين ، الذين نبذتهم كل المفوضيات الأخرى ، والذين كانوا « مقطوعين بعمق عن كل نشاط حقيقي وخلاق وبناء » . ولم يذكر في أي من المرار اسم ستالين ، الذي كان يرى فيه الفاشل الأمثل ، الذي جرى رفعه الى قمة الهرم[٥٧] .

دافع لينين عن ستالين وعن الرابكرين ، فلما كان حانقاً من لافعالية الادارة وفسادها ، علق آمالاً عظاماً على هيئة التفتيش ، وكان يغتاظ مما كان يعتبره الثأر الشخصي لدى تروتسكي[٥٨] ، الذي كان يزعم أن التشوش - على الأقل في المصالح الاقتصادية - كان نتيجة تنظيم سيىء يعكس بدوره غياب مبدأ موجِّه في السياسة الاقتصـادية . لم يكن في وسع اعمال الرابكرين التفتيشية أن تبدل شيئاً في ذلك ، اذ العلاج يكمن في التخطيط وفي غوسپلان معاد تنظيمها . ولن يتم شفاء انعدام الكفاءة بعلاج الصدمة وبالتخويف اللذين كانت مفوضية ستالين تخضع لها الادارة . ففي بلدٍ متخلف ، يملك اسوأ تقاليد الهمجية والفساد الحكومي ، تكمن المهمة الرئيسية ، في نظر تروتسكي ، في المبادرة الى

(٥٧) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٥ ، ص ٢٢٣ .

(٥٨) لينين ، سوش . ، ج ٣٣ ، الاستشهاد ذاته ، وهنا وهناك .

التربية المنهجية للملاك الحكومي وإلى تدريبه على طرائق عمل متمدنة .

إذا أخذنا بالحسبان كل تلك الخلافات ، تقل دهشتنا أمام رفض تروتسكي منصب النائب الأول للرئيس . لم يكن في وسعه أن يقبل ، من دون مناقضة نفسه ، منصباً سيكون عليه أن يطبق فيه سياسة اقتصادية يعتبرها غير ملائمة ، وأن يقود جهازاً ادارياً كان يرى ان بنيته فاسدة . وحين حثه لينين ، في صيف ١٩٢٢ ، على قبول ذلك المنصب ليكبح تجاوزات البيروقراطية ، أجاب بأن مصدر أسوأ التجاوزات يكمن في قمة هرم الحزب بالذات . وتذمر من أن المكتب السياسي ومكتب التنظيم كانا يتدخلان بصورة لا تحتمل في شؤون الحكومة ويتخذان قرارات تخص مختلف المفوضيات ، حتى من دون استشارة قادتها . لذا كان غير مجد ، بالتالي ، النضال ضد الفوضى في الادارة طالما كان ذلك الشر يعيث فساداً بكل حرية في الحزب(٥٩) . ولم يرد لينين ان يفهم تضمينات تروتسكي ، فهو لم يكن يعتمد على ستالين كأمين عام للحزب أقل مما كان يعتمد عليه كرئيس للرابكرين .

وخلال صيف ١٩٢٢ ، برزت خصومة إضافية بصدد الطريقة التي كانت تعامل بها موسكو الجمهوريات غير الروسية ، ومقاطعات فدرالية السوفييتات . كان البلاشفة ضمنوا لتلك الجمهوريات حق تقرير المصير ، الذي كان يستتبع صراحة حق الانسحاب من فدرالية السوفييتات . وكانت الضمانة واردة في دستور ١٩١٨ . في الوقت ذاته ، كان البلاشفة يريدون حكومة ممركزة بشدة ، وكانوا يتجاوزون في الممارسة استقلال الجمهوريات غير الروسية الذاتي . ونذكر أن تروتسكي احتج عام ١٩٢١ على غزو جيورجيا ، الذي كان ستالين المحرض الرئيسي عليه . وفيما بعد ، رضخ تروتسكي للأمر الواقع ، لا بل كتب مقالة يبرر فيها ذلك الغزو(٦٠) . وفي ربيع ١٩٢٢ ، بقي صامتاً حين اتهم بلاشفة مرموقون ، في المؤتمر الحادي عشر ، حكومة لينين بأنها تدوس بالأقدام حق تقرير المصير وتعيد إرساء روسيا « الواحدة وغير المنقسمة » التي كانت قائمة في السابق . إلا أنه سرعان ما تبنى ، داخل المكتب السياسي ، هذا الاتهام . وقد انفجر النزاع بصدد جيورجيا ايضاً والنشاطات التي كان ستالين يتولاها فيها .

كان ستالين قد حظر لتوه الحزب المنشفي في جيورجيا ، بصفته مفوضاً للقوميات . وحين احتج القائدان البلشفيان الجيورجيان ، مديڤاني ومخارادزه ضد هذا الحظر سعى

---

(٥٩) انظر رسائل تروتسكي الى المكتب السياسي في ٢٢ آب / اغسطس ١٩٢٢ ، و١٥ ، و ٢٠ ، و ٢٥ كانون الثاني / يناير ١٩٢٣ ، في المحفوظات ؛ انظر ايضاً ، حياتي .

(٦٠) النبي المسلح .

لتخويفها ، وخنق احتجاجاتها[٦١] . كان ذلك التدبير يندرج إلى حد ما في منطق السياسة البلشفية ، لأنه إذا كان سليماً حظر الحزب المنشفي في موسكو ، فليس في الظاهر أي مبرر لكي لا يكون الشيء ذاته في تفليس . وكان تروتسكي دعم الحظر في روسيا ، لكنه هاجم تطبيقه على جيورجيا ، موضحاً أن المناشفة الروس افقدوا أنفسهم حظوتهم بموقفهم المناهض للثورة ، فبينما كان المناشفة الجيورجيون لا يزالون يتمتعون بمساندة شعبية قوية . وكان ذلك صحيحاً بما فيه الكفاية . لكن لم يكن يمكن للمحاجّة أن تكون ذات قيمة إلا في حال أقام البلاشفة سيطرتهم على اساس الديمقراطية البروليتارية . وكانت تفقد قيمتها ما أن يتم قبول المبدأ الذي كان البلاشفة مخوَّلين بموجبه أن يحافظوا على احتكارهم السياسي ، لمصلحة الثورة ، أتمتعوا بالدعم الشعبي أو لم يتمتعوا، وهو مبدأ وافق عليه تروتسكي . ومن إرساء نظام الحزب الواحد إلى اضطهاد البلاشفة الجيورجيين الذين لم يكونوا يؤ يدون ذلك ، لم يكن هنالك غير خطوة واحدة ، لكنها كانت الخطوة التي تقود من المنطق الى العبث. إن ستالين الذي كان يسعى لإرعاب مديڤاني وماخارادزه ، كان ينقل القمع ، للمرة الأولى ، إلى أعضاء في الحزب البلشفي . زد على ذلك انه كان يشوه بشكل خطير السياسة البلشفية تجاه القوميات غير الروسية ، وهي السياسة التي كان ملهماً إياها والتي كانت موضوع فخر بالنسبة للبلاشفة ، من حيث اتساع منظوراتها .

للدفاع عن النفس ، هاجم مديڤاني وماخارادزه المركزية القصوى لسياسة ستالين ، فقالا : أي حقوق يمكن أن تتمتع بها مفوضية في موسكو لاتخاذ قرارات تتعلق بالحياة السياسية في تفليس ؟ أين تقرير المصير إذاً ؟ هل على القوميات الصغيرة أن تدخل عنوة في الامبراطورية الروسية « الواحدة وغير المنقسمة » ؟ كانت تلك اسئلة ملائمة ، لا سيما أن ستالين كان يعدّ في الفترة ذاتها دستوراً جديداً اكثر مركزية بكثير من دستور ١٩١٨ ، كان سيحد من حقوق القوميات غير الروسية أو يلغيها ، ويحوّل الفدرالية السوفياتية للجمهوريات إلى اتحاد سوفياتي . ضد هذا الدستور ايضاً ، وجه الجيورجيون والاوكرانيون وغيرهم العديد من الاحتجاجات .

حين وصلت تلك الاحتجاجات الى المكتب السياسي ، دعمها تروتسكي لأن القلق الذي كان دفعه في البدء الى معارضة ضم جيورجيا غدا له الآن ما يثبته . كان يرى في سلوك ستالين تجاوزاً للسلطة فاضحاً ومشهوداً يصل بالمركزية الى درجة مفرطة وخطيرة

---

(٦١) كتب كل من مديڤاني، وماخارادزه ، واورجونيكيدزه ، وينوكيدزه وستالين،وبوخارين تقارير حول النزاع ، في ١٢ سبيزد ر ك ب (ب) ، ص ١٥٠ - ١٧٦ ، ٥٤٠ - ٥٦٥ . انظر كذلك دويتشر ، ستالين ، سيرة سياسية ، (الطبعة الانكليزية ، ص ٢٣٦ - ٢٤٥) .

تسيء الى كرامة القوميات غير الروسية وتجعلها تفهم أن « تقرير المصير » كان مجرد حيلة . وقد اعد ستالين واورجونيكيدزه قرار اتهام ضد مديڤاني وماخارادزه جرى التأكيد فيه ان هذين «الانحرافيين القوميين» يعارضان ادخال العملة السوفياتية إلى جيورجيا ويرفضان التعاون مع الجمهوريات القوقازية المجاورة ومشاطرتها احتياطياتها الهزيلة ، وفي الأخير ، وبصورة اكثر عمومية ، يعملان بروح انانية قومية وعلى حساب مجمل الفدرالية السوفياتية . ولو كان للاتهامات أساس ، فإن سلوكاً من هذا النوع ما كان يمكن لاعضاء الحزب ان يتسامحوا إزاءه . أما تروتسكي فلم يكن يصدق الاتهامات ، بينما رأى لينين ومعظم اعضاء المكتب السياسي في القضية برمتها خصومة عائلية بين عشيرتين من البلاشفة الجيورجيين ، وكانوا يعتقدون أن أفضل ما يمكن أن يفعله المكتب هو تبني وجهة نظر ستالين ما دام هذا خبيره بصدد المشكلات القومية . ولم يكن لينين يرى ادنى مبرر للاشتباه بأن ستالين ، مؤلف الكتاب المشهور حول الماركسية والمسألة القومية ، وهو مرافعة كلاسيكية للحزب لصالح تقرير المصير ، قد يسيء بصورة خبيثة إلى الكرامة القومية لمواطنيه الخاصين به . وبدا تروتسكي مرة اخرى للينين كرجل تملي عليه سلوكه ضغينته الشخصية ، أو تلك « الفردية » التي جعلته يعارض المكتب السياسي بصدد الكثير من المسائل الأخرى . كان أحد اعمال لينين الأولى ، حين استأنف نشاطه في تشرين الأول / اوكتوبر ١٩٢٢ ، هو توجيه اللوم لمديڤاني وماخارادزه ، ودعم سلطة ستالين .

إذا درسنا النزاعات داخل المكتب السياسي ونظرنا الى الدور الذي لعبه تروتسكي فيه ، نذهل إزاء التبدل الذي طرأ على موقف تروتسكي في مدة عام . ففي النصف الأول من عام ١٩٢٢ ، كان تروتسكي لا يزال يتكلم بصورة اساسية كبلشفي يناصر الانضباط الدقيق ؛ وفي الجزء الثاني من العام ، غدا في نزاع مع انصار الانضباط . وتظهر هذه المفارقة في العديد من مواقفه ، لكنها تصبح ساطعة حين نتذكر انه هاجم في بداية العام ، باسم المكتب السياسي ، المعارضة العمالية امام الحزب والأممية . ومع ذلك ، نراه حوالى نهاية العام يصدر آراء عبرت عنها حتى ذلك الحين المعارضة (والديسيميون). كانت المعارضة العمالية هي الأولى التي صاغت بشكل مضطرب استياء المناضل البلشفي البسيط من النيب وقالت بضرورة اعطاء هذه منظوراً اشتراكياً . وكانت المعارضة العمالية هي الأولى التي هاجمت البيروقراطية الجديدة ، واحتجت على تجاوزات السلطة ونددت بالامتيازات الجديدة . كانت المعارضة والديسيميون قد بدأوا يتمردون ضد السلطات المبالغ بها لآلة الحزب وطالبوا بالعودة الى الديمقراطية داخل الحزب . وقد لامهم تروتسكي في البدء محذراً إياهم من أنه لا ينبغي ، في أي ظرف من الظروف ، ان يعارض بلاشفة قادة

الحزب بقولهم « نحن » و« هم » . ومع ذلك بدا في بحر عام ١٩٢٢ كما لو كان تبنى معظم افكارهم وكما لو كان اتخذ موقفاً يؤدي به الى التكلم ضد اغلبية المكتب السياسي قائلاً ، هو ايضاً ، « نحن » و« هم » . بدا حقاً أنه فيما يقمع المعارضة اهتدى الى آرائها ، وغدا المتطوع الجديد الأكثر سمواً في صفوفها .

وفي الحقيقة أن تروتسكي واجه خلال كل تلك الفترة معضلة كانت تشغل الحزب بأسره ، إلا أنه واجهها بحدة أشد مما فعل آخرون . كانت المعضلة هي معضلة السلطة والحرية ، وكان تروتسكي حساساً بصورة شبه متساوية تجاه حقوق هذه وتلك . طالما صارعت الثورة فقط لكي لا تهلك ، قدّم السلطة على ما عداها . مركز الجيش الاحمر ، وعسكر العمل ، وأراد امتصاص النقابات في الدولة ، وكرز بضرورة بيروقراطية قديرة لكن متحضرة ، وألغى الديمقراطية البروليتارية ، وساعد في الحد من المعارضة داخل الحزب ، لكن حتى في تلك الفترة ، بقي الاشتراكي « الفوضوي » حيّاً فيه . وفي نداءاته الأكثر حزماً الى الانضباط ، كانت ترن ، كلحن « مُصاحِب » ، نغمةٌ قوية للحرية الاشتراكية . كانت اعماله الأكثر انعدام شفقة ، وأحاديثه الأكثر صرامة لا تزال تشع بحرارة انسانية ، وهو ما كان يميز تروتسكي عن معظم انصار الانضباط الآخرين . وفي الطور الأول من الثورة ، كان قد رفع اصبع الاتهام في وجه « البيروقراطي الجديد » عديم الثقافة ، والحذر والمتغطرس ، الذي كان « ثقلاً مشؤوماً معيقاً » و« تهديداً حقيقياً للثورة الشيوعية » ، الثورة التي لن تجد تبريرها « كليّاً إلا حين سيحس كل شغيل ، رجلاً كان أو امرأة ، بأن حياته أصبحت أسهل ، وأكثر حرية ، ونظافة وكرامة »(٦٢) .

زادت نهاية الأعمال القتالية من حدة التوتر بين السلطة والحرية داخل البلشفية ، وكذلك لدى تروتسكي . كانت المعارضة العمالية والمجموعات القريبة منها تمثل رد فعل ضد السلطة. وإذا كان تروتسكي تحزب ضدها ، فلأنه كان يفهم بعمق متطلبات الوضع . لم يكن في وسعه أن يتخلى بسهولة عن متطلبات السلطة التي كانت تمد جذورها في الواقع . ولم يكن في وسعه أيضاً أن يبقى مرتاحاً هادئاً حين يرى الحرية ـ الحرية الاشتراكية ـ تُقتلع من جذورها . كان محصوراً داخل معضلة حقيقية لم تكن المعارضة العمالية تمسك إلا بأحد طرفيها الذي كانت تنبهر فوقه . كان يسعى للموازنة بين الانضباط البلشفي والديمقراطية البروليتارية ، وكلما كان الميزان يميل لصالح الأول اكثر ، كان يميل هو اكثر لتدعيم الثانية . إن الوقائع الحاسمة التي جعلت إحدى كفتي الميزان تترجح حدثت في

(٦٢) النبي المسلح .

سنوات ٢١ ـ ٢٣ ، وفي تلك السنوات بالذات توصل تروتسكي تدريجياً الى دعم مطالب ديمقراطية الحزب الداخلية في وجه مطالب الانضباط .

إلاّ أنه لم يصبح مع ذلك « فوضوياً » صرفاً ، مفعماً بالاضطغان على تعديات السلطة . بقي رجل الدولة البلشفي ، المقتنع كما دائماً بالحاجة الى دولة ممركزة وقيادة حزبية حازمة ، والغيور كما دائماً على صلاحياتها . لقد هاجم التجاوزات لا مبدأ تلك الصلاحيات . في اشد شتائمه ضد البيروقراطية غضباً وفي مرافعاته الأكثر حرارة لصالح الديمقراطية داخل الحزب ، سوف يجعل صوت الانضباط مسموعاً كذلك على الدوام . فإذا كان يعلم ان « البيروقراطية تمثل حقبة كاملة ، لم تنته بعد ، في تطور البشرية » وأن مساوئها « تتناسب عكساً مع التعليم والمستوى الثقافي والوعي السياسي لدى الجماهير »(٦٣) ، كان يحرص دائماً على عدم الإيهام بإمكانية تكنيس كل إيجابياتها بضربة واحدة . حتى ذلك الحين لم يكن يهاجم البيروقراطية عموماً ، لا بل كان يتوجه الى الناس التقدميين والمستنيرين في صفوفها ضد من كانت تضمهم من عناصر طاغية ومتخلفة ، آملاً أن يتوصل الأولون ، بعون العمال المتقدمين،لاعادة كبح الآخرين وتربيتهم ، وإزالتهم عند الاقتضاء . كان قد غيّر ، في الحقيقة ، الأرض التي يقف عليها ، فاقترب من المعارضة العمالية والمجموعات التي تمت اليها بصلة ، وكان يعترف ضمناً بالوجه العقلاني لرد فعلها ضد السلطة . لكنه لم يكن يترك رد الفعل يجرفه ، كما كانت تفعل المعارضة . لم يكن « ينبذ » البيروقراطية بلا قيد أو شرط . كان لا يزال يتصدى لمشكلة حقيقية ، لكنه كان يواجهها بشكل مختلف عما في السابق ، من الجهة المعاكسة تقريباً .

لذا يستحيل أن ندرك التبدل في موقف تروتسكي لحظة حدوثه ، وأن نحدد بدقة اكبر ما أدى اليه ومتى تم . ففي الواقع ، لم يكن ثمة حادث محدد وراءه ، ولا لحظة خاصة جرى فيها ؛ وسياسة المكتب السياسي تحولت ، في معرض سلسلة من المشكلات ، من الديمقراطية العمالية الى كلّيانية الدولة . وتحول تروتسكي مع السياسة البلشفية ، لكن في الاتجاه المعاكس . بدأ يحتج ضد الافراط في المركزية حين شرع هذا يصبح ملموساً ، وبدأ يدافع عن حقوق الأمم الصغيرة حين انتهكت تلك الحقوق . اصطدم بـ « جهاز الحزب » حين أصبح الجهاز مستقلاً عن الحزب ، ووضع الحزب والدولة تحت قطّاعته . ولأن الطرائق التي كان يقاومها كانت ترتسم بطفرات وبصورة ملتبسة ، كانت ردود فعله غير منتظمة وملتبسة هي الأخرى . ولم يشعر حقاً ، في أي من اللحظات ، بالحاجة الى مراجعة

(٦٣) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٥ ، ص ٢١٨ ـ ٢٢١ ؛ النبي المسلح .

نشيطة ، لمفاهيمه : ما كان يقوله الآن في فترة عدائه للبيروقراطية ، كان قد قاله ايضاً في فترة دعوته للانضباط ، وإن بصورة أقل الحاحاً وفي سياق مختلف . انتقل من فترة للأخرى ، دون ان يلاحظ ذلك تقريباً .

في زوبعة الخلافات السياسية ، بقي شيء ما ثابتاً نسبياً : الخصومة بين ستالين وتروتسكي . لقد لعبت دورها ، كما نذكر ، حتى في قيادة الحرب الاهلية . كان مصدرها الطبيعي يكمن في تضاد الأمزجة ، والتكوين ، والميول السياسية والطموحات الشخصية . وكان ستالين يلعب فيها دوراً فاعلاً وهجومياً : كان يجد نفسه مستاء من دونية الموقع الذي يشغله . لم يلاحظ تروتسكي تلك المنافسة إلا ببطء ، وشرع يرد عليها وينجر اليها ، لكن على مضض . حتى ذلك الحين ، كانت قد بقيت تلك المنافسة في المؤخرة ،حيث كانت شخصية لينين القوية تبقيها . لم تكن اخذت اهمية اشد لأنها لم تتماثل حتى ذلك الحين مع أي نزاع سياسي معلن أو أي تعارض في المصالح . ولم تبدأ سيرورة التماثل إلا عام ١٩٢٢ . فكزعيم لآلة الحزب ، كان على ستالين ، الذي يدعمه الآن لينين ، أن يمثل السلطة مدفوعة الى اقصاها ، وأن يفرض احترام حقوقها ، وطاعتها. بدأ نزاع سياسي ثقيل ، كان كذلك نزاع مصالح ، يأخذ شكلاً ويمتص التضاد الشخصي ، ويتركز عليه في الوقت ذاته ، بحيث جرى ترك هذا التضاد في الظل وتعظيمه في الوقت ذاته بفعل النزاع الأكثر اتساعاً .

إن روايةً لخلافات تروتسكي مع لينين وستالين وأغلبية المكتب السياسي ، يمكن ان تعطي صورة غير صحيحة وجزئية عن الوضع الحقيقي لتروتسكي داخل القيادة البلشفية . يجد كاتب السيرة نفسه منجرّاً إلى إبراز خاص للاحداث والأوضاع التي ولدت منها فيما بعد نضالات تروتسكي ضد ستالين ، والتي كانت لها أخطر النتائج على حظه ومصيره . إلا أن تلك الأحداث والأوضاع لم تبرز بهذا الوضوح ذاته في نظر المعاصرين . ولم يكن للخصومات التي تكلمنا عليها ، هي الأخرى ، تأثير عظيم على موقع تروتسكي وسط القادة البلاشفة ، وعلى علاقاته مع لينين بوجه خاص . فالمجادلات لم تكن تتخطى دائرة المكتب السياسي ، ولم يكن الحزب والبلد يعرفان شيئاً عنها . كان لا يزال الرأي العام يلصق اسم تروتسكي باسم لينين ، وكان تروتسكي باقياً في نظر الناس احد الملهمين الرئيسيين للسياسة البلشفية . وفي الحقيقة ان خلافاته مع لينين لم تكن تتغلب في ميزان عملهما المشترك على اتفاقهما الوثيق والصلب الذي يتناول مروحة اوسع بكثير من مشكلات السياسة الداخلية او الخارجية .

فكمفوض للحرب ، ظل تروتسكي يتمتع بدعم لينين الكامل . وحتى بعد الحرب الاهلية ، كان عليه ان يكافح « المعارضة العسكرية » التي قاومت سياسته في السنوات الأولى . كان توخاتشيفسكي لا يزال يسعى لكسب الحزب لفكرته المفضلة المتعلقة بهيئة أركان امية للجيش الأحمر . وكان فرونزي وفوروشيلوف، الحائزان على تشجيع ستالين وزينوفييف ، لا يزالان يسعيان للحصول على تأييد رسمي لـ « استراتيجيتهما البروليتارية » و « مذهبهما العسكري الهجومي » . كانت تلك المشكلات مهمة بشكل كافٍ لجعلها موضع نقاش خلال المؤتمر الحادي عشر ، في جلسة خاصة وسرية . حصل تروتسكي في النهاية على نبذ اقتراحات خصومه(٦٤) . ، وساعد على ذلك بالتأكيد ان سلطة لينين كانت تقف وراءه . فلينين ، الذي تعلم أن يقدر عمل تروتسكي العسكري ، كان يفوّض أمره بصورة شبه آلية ، في هذا الصدد ، لما يحكم به . وبعد انتفاضة كرونشتادت ، اقترح لينين على تروتسكي ان يصفّيَ اسطول البلطيق ، أن « يغلقه » . قال إن البحارة غير موثوقين ، والأسطول غير مفيد ، فهو يستهلك الفحم والمؤ ن والألبسة التي تفتقر اليها البلاد بشكل يائس : سيكون حله ربحاً بالكامل . إلا انه كان لتروتسكي رأي معاكس ، فقد صمم على الاحتفاظ بالبحرية ، وأعلن عن ثقته بالقدرة على اعادة تنظيمها وتبديل معنوياتها . عولجت القضية بالصورة الاقل تقليدية ، بتبادل لملاحظات خاصة صغيرة سوّدها لينين وتروتسكي ، الواحد للآخر ، خلال احدى جلسات المكتب السياسي . وقد وافق لينين على تأكيدات تروتسكي وجرى إنقاذ البحرية(٦٥) .

في العديد من المناسبات ، ابدى لينين كذلك للحزب والأممية تقديره لتروتسكي كشارح للماركسية . من جهة اخرى ، دعم من دون أي تحفظ التأثير الراجح الذي كان تروتسكي يمارسه على الحياة الثقافية في روسيا . (سوف ندرس هذا الوجه من نشاط تروتسكي في فصل لاحق) . كان الاثنان يدينان ، كلاهما ، المجموعات المضجاجة من الكتّاب والفنانين ، لا سيما جماعة البروليتكولت(*) ، الذين كانوا يطمحون لخلق « ثقافة بروليتارية » و « أدب بروليتاري » . وعلى صعيد مشكلات التربية ، التي كانا يوليانها ، كلاهما ، أهمية استثنائية منذ الحرب الاهلية ، وفي كل المسائل المتعلقة بالدفاع عن الماركسية ، كانا ينصحان بالحذر والتسامح . وكانا ، كلاهما ، يوصيان بحزم باستبعاد

---

(٦٤) نجد خطاب تروتسكي في تلك الدورة في كاك فوروجالاس ريفولوتسيا ، ج٣ ، ك ٢ ، ص ٢٤١ ؛ انظر النبي المسلح .

(٦٥) جلسة ٢١ آذار / مارس ١٩٢١ . المحفوظات. بعد ذلك بأشهر اشار تروتسكي لهذه الحادثة في خطاب علني. كاك فوروجالاس ، ريفولوتسيا ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ٨١ .

(*) الثقافة البروليتارية (م) .

التبسيطية الفظة ، والاعتداد بالنفس والعصبية التي بدأ يظهرها اعضاء نافذون في الحزب .

وقد برهن تروتسكي كذلك على نشاط كثيف ومبادرة مستمرة في قيادة السياسة الخارجية . اتخذت قرارات دبلوماسية مهمة لجنة صغيرة مؤلفة من لينين وتروتسكي وكامينيف كانت تدعو تشيتشرين ، ورادك في الغالب ، للمشاركة في المناقشات . كانت الدبلوماسية السوفياتية تكرس في الحاضر جهودها لتوطيد السلام وإقامة علاقات مع اوروبا البورجوازية . ونذكر أن تروتسكي ضغط بكل نفوذه لعقد معاهدة سلام مع بولونيا عام ١٩٢١ ، ذلك السلام الذي لم يكن لينين متحمساً له أبداً . كما أنه بذل جهداً ايضاً للحصول على موافقة المكتب السياسي حول تعيين الحدود وتوقيع معاهدة سلام مع الجمهوريات البلطيقية الصغيرة[٦٦] . ومنذ عام ١٩٢٠ كان تروتسكي قد نصح لينين بتبني سياسة مصالحة تجاه بريطانيا العظمى ، لكن لم يجر اتباع نصائحه إلا بعد بعض الوقت . لكن مبادرة تروتسكي الدبلوماسية الأهم تمت عام ١٩٢١ ، حين بادر الى عدد من الخطوات الجريئة والدقيقة للغاية التي ادت الى توقيع معاهدة رابالو الجرمانية ـ السوفياتية ، وهي المعاهدة التي تشكل اعظم فتح دبلوماسي لروسيا السوفياتية في العشرين سنة التي تفصل معاهدة بريست ـ ليتوفسك عن المعاهدة الجرمانية ـ السوفياتية لعام ١٩٣٩ .

وكمفوض للحرب ، أراد تروتسكي تجهيز الجيش الأحمر بأسلحة حديثة ، إلا أن صناعة التسلح السوفياتية ، البدائية ، والمنهكة ، كانت عاجزة عن تقديم السلاح المطلوب ، لذا أرسل تروتسكي معتمدين الى الخارج مهمتهم شراء معدات حيث يمكنهم ذلك ، حتى من الولايات المتحدة . بيد أن المشتريات كانت ثمرة الصدفة . كان الجيش الأحمر يعتمد بشكل خطر على التجهيزات الاجنبية . لذا قرر تروتسكي ان يبني لروسيا صناعة تسلح حديثة ، مستعيناً بالمساعدة الخارجية . لكن اين يجد هذه المساعدة ؟ اية بورجوازية يمكن ان توافق على مساعدة حكومة شيوعية على ان تجعل من نفسها قوة عسكرية ؟ لم يكن هنالك غير بلد يمكن التوجه اليه ، هو المانيا . وكانت معاهدة فرساي تحظر على المانيا صناعة الاسلحة ، وكانت معامل الأسلحة فيها ، الأحدث في اوروبا ، عاطلة عن العمل. وكان السؤال هو: ألا يقبل مالكوها بتقديم المعدات والمساعدة التقنية الضرورية إذا قُدِّم إليهم عرض مغرٍ بما فيه الكفاية؟ في بداية عام ١٩٢١، تولى ڤيكتور كوپ، المنشفي القديم الذي سبق أن اشتغل في البرافدا الفيينوية،

---

(٦٦) النبي المسلح .

اتصالات سرية مع المنشآت الكبرى لكروب، وبلوم وفوس، وألباتروس وورك، وذلك بطلب من تروتسكي. ومنذ ٧ نيسان / أبريل ١٩٢١، أعلن كوپ ان تلك المنشآت مستعدة للتعاون وتقديم المعدات والمساعدة التقنية الضرورية لروسيا لصناعة طائرات وغواصات ومدافع واسلحة متنوعة اخرى. وطيلة ذلك العام تنقل الرسل بين برلين وموسكو، وقد أعلم تروتسكي لينين وتشيتشرين بأدق تفاصيل تلك المفاوضات[٦٧]. واجاز المكتب السياسي له مواصلة المفاوضات في سرية تامة، فاحتفظ تروتسكي بكل خيوط القضية خلال كل الاجراءات التمهيدية لمعاهدة رابالو، إلى أن آن أوان بدء عمل الدبلوماسيين.

خلال المفاوضات ، توسع حقل التسويات ، فثمة أمور اخرى غير الصناعات الحربية كانت تهجع في المانيا ، من بينها سلك الضباط القديم والرائع الذي كان يعاني هو الآخر من البطالة . وقد وافق اعضاؤه بفرح على تعليم الجنود والطيـارين الروس ، وبالمقابل تم السماح لهم بأن يدربوا سراً في روسيا الكادرات العسكرية الالمانية التي لم يكن بوسعهم تكوينها في داخل المانيا . هكذا أرسيت قواعد ذلك التعاون الطويل بين الرايخسفهر والجيش الاحمر الذي سيتواصل طوال اكثر من عشرة اعوام بعد رحيل تروتسكي ، والذي سيساهم الى حد بعيد في تحديث القوات المسلحة السوفياتية قبل الحرب العالمية الثانية .

مع ذلك ، بقيت القضية محض مشروع حتى ربيع ١٩٢٢ . فالتردد كان في موسكو كما في برلين لأن الدبلوماسيين كانوا لا يزالون يأملون ، هنا وهناك ، إحداث تقارب مع دول التحالف لصالح مؤتمر جنوى الذي كان سينعقد في وقت قريب ، والذي كان اللقاء العالمي الأول الذي دعيت اليه المانيا وروسيا السوفياتية ، اللتان كانتا الى ذلك الحين من منبوذي الدبلوماسية . ولم يتم توقيع معاهدة رابالو إلا حين تلاشت كل تلك الآمال . كانت المعاهدة صفقة « واقعية وعملية » اكثر مما كانت تحالفاً حقيقياً . ولما كان البلاشفة يرغبون في ان يحصلوا من القضية على اكبر قدر ممكن من المنافع ، فقد كان مبدأهم ألا يشجعوا التحريفية ولا روح الثأر لدى المانيا ، مع أنهم فضحوا ، على اساس مبدئي ، معاهدة فرساي منذ البدء ، وفي فترة كانت المانيا لم تعترف فيها بعد بحكومتهم ، وفي حين كانت ذكريات بريست ـ ليتوفسك لا تزال طازجة للغاية .

بذل تروتسكي ، بوجه خاص ، كل جهده ، ليمنع السياسة السوفياتية من التعثر في شباك النزعة القومية الالمانية . فبعد رابالو ، كما قبلها ، حاول تحسين علاقات روسيا مع

(٦٧) نجد تقرير كوب وملاحظات تروتسكي ولينين في المحفوظات .

فرنسا ، وفي خريف ١٩٢٢ ، استقبل في الكرملين ادوار هيريو ، الذي سيصبح رئيساً للوزراء بعد قليل ، كزعيم لاتفاق اليسار . إن هيريو الذي أعطى رواية تفصيلية لزيارته ، ذكّر بالقناعة التي دافع تروتسكي بها عن قضية تحسين العلاقات الفرنسية ـ الروسية . لقد أكد تروتسكي لهيريو أن عداء الحلفاء الأعمى هو وحده الذي دفع روسيا للتعاهد مع المانيا ، أولاً في بريست ـ ليتوفسك ، ثم في راپالو ؛ وأخيراً أن معاهدة راپالو لم تكن تنطوي على أي بند موجه ضد فرنسا . وروى هيريو أنه في حين كان تروتسكي يسترجع ذكرى تراث فرنسا اليعقوبي ويدعو رجال الدولة الفرنسيين والرأي العام الفرنسي الى فهم افضل لليعقوبية والبلشفية ، مرت مفرزة من الجيش الأحمر وهي تنشد المارسيلياز بالفرنسية ، ودوت في قاعة المؤتمر عبر النافذة المفتوحة كلمات « سنعرف كيف نموت من اجل الحرية »[٦٨] .

إن الاهتمام المولى حديثاً للدبلوماسية في الشؤ ون السوفياتية كان نتيجة لهزائم الحركة الشيوعية خارج روسيا . ففي اوروبا ، كانت الثورة في قمة جزرها ، وكانت الأممية الشيوعية قد انقلبت جانباً ، فالأحزاب التي كانت تتألف منها لم تعد تقود إلا أقلية من الطبقة العاملة الاوروبية ، ولم تكن قادرة على ان تبادر الى خوض هجوم جبهي ضد النظام البورجوازي تتوفر له بعض حظوظ النجاح . مع ذلك ، كانت معظم الأحزاب الشيوعية ترفض الاعتراف بالهزيمة ، وتميل الى الثقة بقوتها الخاصة بها ومواصلة تنظيم تمردات وانتفاضات ، آملة ان تتوصل ، عن طريق المثابرة ، الى أن تجر معها غالبية العمال . كانت إعادة توجيه للأممية قد اصبحت مسألة اكثر من ملحة ، وقد كان ذلك عمل لينين وتروتسكي المشترك . فيما يخص الأممية ، كان تعاونهما وثيقاً وحميماً ، ولم يعكره ، حسبما نعلم ، حتى ظلّ خلاف[٦٩] .

ما انفك تروتسكي ولينين مقتنعين بشكل أساسي بأن ثورة اوكتوبر الروسية افتتحت عصر الثورة البروليتارية العالمية . وحافظ تروتسكي على تلك القناعة خلال السنوات العشرين اللاحقة ، أي حتى نهاية حياته . إلا أنه كان يعتبر الآن أن صراع الطبقات ، خارج روسيا ، كان في آن معاً أكثر تعقيداً وأقل سرعة مما اعتقد هو وآخرون . لم يعد يرى ان نتيجته مقررة مسبقاً ، إنما يجد من الضروري النضال ضد هذا النوع من الطمأنينية

(٦٨) هيريو ، روسيا الجديدة ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٦٩) كان لينين وتروتسكي القائدين السوفياتيين الوحيدين اللذين انتخبا رئيسين شرفيين في المؤتمر الثالث للأممية ، تريتيي فسيميرنيي كونغرس كومنترنا ، ص ١٦ .

وتبديد الأوهام « المتطرفة يساراً » داخل الأممية . وفي تموز / يوليو ١٩٢١ ، انتقد بعمق اولئك الشيوعيين الذين كانوا يؤكدون أن انتصار الاشتراكية « محتوم »[٧٠] . قال إن الايمان بتقدم محتوم للمجتمع يرتكز على تفسير « آلي » للمفهوم الماركسي للتاريخ . « لم تتقدم البشرية دائماً وبشكل ثابت . . . فتاريخها شهد فترات طويلة من الركود . وشهد انكفاءات نحو الهمجية . جاءت فترات بلغ فيها المجتمع مستوى معيناً من التطور ، ثم عجز عن البقاء عنده . . . لا يمكن للبشرية ان تتوقف ابداً ، وأي توازن تمكنت من بلوغه إثر صراعات طبقية أو نضالات قومية هو من حيث طبيعته ذاتها غير مستقر . والمجتمع الذي لا يرتفع لا بد أن ينحدر . إن مجتمعاً لا تظهر فيه أية طبقة قادرة على ضمان صعوده يتفكك ، وتنفتح عند ذلك طريق الهمجية » .

ذلك كان السبب الرئيسي لانهيار الحضارات القديمة : كانت الطبقات العليا في روما واليونان قد انحطت ، بينما عجزت الطبقات المستغَلة ، أي العبيد ، عجزاً كاملاً عن خوض عمل ثوري والاضطلاع بقيادة سياسية . وهذا تحذير لنا ، فانحطاط النظام البورجوازي أمر اكيد . وفي الحقيقة أن الرأسمالية الاميركية لا تزال دينامية ، وهي تنطوي للآن على قوة توسع ، لكن حتى في الولايات المتحدة يمكن للاشتراكية ان تطور الموارد القومية بشكل اكثر عقلانية وبربح أعظم للمجتمع مما تفعل الرأسمالية . لكن الرأسمالية الاوروبية خائرة القوى تاريخياً ، فهي لم تعد تطور قواها الانتاجية بشكل ملحوظ ، ولم يعد لها دور تقدمي تلعبه ، ولا يمكنها أن تفتح أي منظور جديد . ولو لم يكن الأمر كذلك ، لكانت اية فكرة ثورة بروليتارية في عصرنا طوباوية . لكن مهما تكن الرأسمالية الاوروبية في حالة انحطاط قصوى، لا ينهار النظام البورجوازي ، ولن ينهار ، تلقائياً . ينبغي اطاحته ، وللطبقة العاملة ، وحدها ، أن تطيحه من ضمن عمل ثوري . فاذا اخفقت الطبقة العاملة ، ربما تحققت عند ذلك النبوءة المشؤومة لأوزوالد شبنغلر ، L'Untergang des Abendlandes . إن التاريخ يوجه انذاراً نهائياً للعمال : « فليكن معلوماً لديكم انكم اذا لم تطيحوا البورجوازية، سوف تهلكون تحت انقاض الحضارة ، اجتهدوا في ان تؤدوا عملكم[٧١] ! » .

في غضون ذلك ، كانت الرأسمالية الاوروبية قد تحملت صدمة الحرب العالمية وتغلبت على ازمات ما بعد الحرب . وكانت الطبقات المالكة في اوروبا الغربية قد

---

(٧٠) بيات لت كومنترنا ، ص ٢٦٦ ـ ٣٠٥ .

(٧١) استشهاد مذكور .

استخلصت دروس الثورة الروسية : كانت عازمة على ألا تقع تحت هول المفاجأة ، كما حصل للقيصرية . وكانت تعبىء كل مواردها وحذقها الاستراتيجي . وقد قال تروتسكي عام ۱۹۲۲ ، اي عام زحف موسوليني على روما ، ان ظهور الفاشية علامة من علامات تلك التعبئة ؛ وأضاف أنه يخشى ان يستولي ايضاً على السلطة موسوليني الماني[٧٢] .

كل ذلك كان نذيراً ثقيلاً لمستقبل الثورة الاشتراكية . ان تطوره الاجمالي ، مع التعاقب الخاص لأطواره التي لم يتوقعها الماركسيون الأوائل ، يمكن ان يظهر الاشتراكية بمظهر غير ملائم . كانت الثورة البروليتارية اعطت افضل النتائج لو حدثت أول ما حدثت في الولايات المتحدة ، أو ، بالمقام الثاني ، في بريطانيا ، ضمن سياق موارد إنتاجية رفيعة التطور . لكن الذي حصل هو أن الثورة انتصرت بدلاً من ذلك في روسيا ، في بلدٍ لم تجد فيه غير امكانات محدودة لاظهار ميزاتها . ولقد كانت صادفت شروطاً أسوأ أيضاً ، لو تمت في بلدان آسيا وافريقيا ، الأكثر تخلفاً من روسيا . وهو ما دفع تروتسكي إلى إبداء هذه الملاحظة الكئيبة : « يبدو ان التاريخ يبسط ربطة خيوطه من الطرف الرديء » ، أي مبتدئاً بالبلدان الأقل نضجاً[٧٣] .

ولم ينفك يأمل في أن تبدأ أربطة الخيوط بالانبساط من الطرف الجيد ، أي من الغرب ، من أوروبا . إن تأخر الثورة ، وتعبئة الثورة المضادة ، ومنظور تجميد لصراع الطبقات ، وانحطاط للحضارة الاوروبية ، كل تلك الامور لم تكن بالنسبة اليه اقداراً محتومة ، بل كانت اخطاراً ينبغي مكافحتها وإزاحتها . كانت الحظوظ لا تزال الى جانب الثورة ، وبشكل ساحق ، لكن الكثير من الأشياء كانت تتوقف على موقف الاحزاب الشيوعية . لقد كان من واجبها إخراج المجتمع الاوروبي من المأزق ، كان عليها النضال لتغدو القوة القائدة ، وما كان في وسعها بلوغ ذلك إلا اذا غدت احزاباً كفاحية وواعية، تعرف معرفة عميقة الاستراتيجية والتكتيك الثوريين ، إلا إذا اعتادت توحيد جهودها منصاعة لانضباط اممي دقيق . ولا بد أن تفشل إذا بقيت تنويعاً متطرفاً من الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية ، وإذا غذت أوهاماً حول البرلمانية البورجوازية ، واذا لم يخرج نشاطها من اطار سياستها القومية . لكنها ستفشل بشكل اكيد ايضاً إذا اصبحت ، في نوع من ردة الفعل على التقليد الاشتراكي - الديمقراطي ، بدعاً ضيقة منطوية على ذاتها ، جامدة في مفاهيمها كما في اعمالها ، إذا اكتفت بمقاطعة محض سلبية وعقيمة لمؤسسات

---

(٧٢) المرجع المذكور ، ص ٥٦٣ .

(٧٣) المرجع المذكور ، ص ٤٢٩ - ٤٣٠ .

المجتمع البورجوازي ، بدل أن تشجع المثال الأعلى الثوري داخل تلك المؤسسات بالذات ، واخيراً إذا استمرت ترغب في مهاجمة قلاع الرأسمالية دون أن تأخذ بالحسبان الظروف وميزان القوى .

لم تكن الاحزاب الشيوعية تصادف على الفور مناسبات ثورية ، وكان عليها إذاً أن تتعافى وتكسب الى جانبها غالبية العمال الذين لا يمكن لأي ثورة ان تنتصر يوماً من دون مساندتهم .

وقد بلور تروتسكي ، هو ولينين ، تكتيك « الجبهة الموحدة »(٧٤) . كانت « الجبهة الموحدة » ترتكز على المبدأ التالي : على الشيوعيين ، الذين لا يزالون عاجزين بسبب ضعفهم الشديد عن اطاحة النظام البورجوازي ، ان يكونوا المقاتلين الأكثر نشاطاً في نضالات العمـال اليومية لزيادة الأجور ، وخفض ساعات العمل وانتزاع الحريات الديمقراطية . لم يكن على الاحزاب الشيوعية ابداً أن تقايض مثالها الاعلى الثوري مقابل فراطة النزعة النقابية ، بل على العكس كان عليها أن تحمل إلى النضال من اجل نجاح « مطالب جزئية » روحها ومثلها الاعلى الثوريين . كان عليها أن تُفهم العمال ان كل المكاسب التي يمكن ان يربحوها في ظل الرأسمالية ضئيلة للغاية ، وان تؤلبهم حتى بواسطة نضالات من اجل تلك المكاسب الصغيرة ، لأجل المعركة النهائية . أما الاشتراكيون ـ الديمقراطيون ، من جهتهم ، فكانوا يوجهون النضال لأجل « المطالب الجزئية » بحيث يُبقون الطاقة الكفاحيـة للعامـل داخل الاطـار الرأسمـالي ؛ كـانـوا يستخدمـون الاصلاحات ، كوسيلة إلهاء ، لتحاشي الثورة ، بينما كان على الشيوعيين ، على العكس ، ان يجعلوا منها مقفزاً للثورة .

لكن لما كان على الشيوعيين أن يناضلوا لأجل مطالب وإصلاحات جزئية ، كانوا يجدون انفسهم على ارضية مشتركة ، وإن محدودة ، مع الاشتراكيين ـ الديمقراطيين ، والنقابيين المعتدلين . كان عليهم إذاً أن يحاولوا العمل بالاتفاق معهم داخل جبهة موحدة . هذه الجبهة يمكن أن تلغي على الأقل عاقبة خطرة للشقاق الحتمي والأساسي بين الاصلاحية والشيوعية : يتم التغلب بواسطتها على انقسام الطبقة العاملة والحيلولة دون تشتيت طاقاتها . إن الشيوعيين والاصلاحيين ، إذ يسيرون منفصلين ، سيضربون

(٧٤) قدم تروتسكي « التقرير حول الأزمة العالمية ومهمات الأممية » ، في الجلسة الثانية للمؤتمر ، في ٢٣ حزيران / يونيو ١٩٢١ ، وقدم رادك « التقرير حول التكتيك » بدلاً من زينوفييف الذي لم يكن بعيداً عن معارضة يسارية متطرفة . تريتي فسيميرني كونغرس كومنترنا .

البورجوازية معاً في كل مرة تهددهم فيها أو يكون ممكناً انتزاع تنازلات منها . كان على العمل المشترك أن يمتد الى ميادين البرلمان والانتخابات ، التي على الشيوعيين ان يكونوا مستعدين خلالها لدعم الاشتراكيين ـ الديمقراطيين . إلا أن حقل العمل الرئيسي للجبهة الموحدة موجود خارج البرلمانات ، في النقابات ، وفي الصناعة ، و « في الشارع » . كان على الشيوعيين السعي لبلوغ هدف مزدوج : ضمان النجاح الفوري للجبهة الموحدة ، وأن يؤكدوا في الوقت ذاته وجهة نظرهم الخاصة بهم داخل تلك الجبهة ، بنية انتزاع العمال الاشتراكيين الديمقراطيين من عاداتهم الاصلاحية وتوليد وعي ثوري لديهم .

كان لينين عرض هذه الافكار منذ عام ١٩٢٠ ، في اليسارية مرض الشيوعية الطفولي ، حيث يلح على اساءة عصبوية المتطرفين العمياء للشيوعية . وبعد انتفاضة آذار / مارس ١٩٢١ الالمانية ، غدا ضرورياً إدانة المتطرفين رسمياً وبحزم . في تلك الفترة بالذات عرض لينين سياسة جديدة على الهيئة التنفيذية للأممية ، فاصطدم بمعارضـــة قوية تضم زينوفييف وبوخارين وبيلاكون وآخرين . وأمكن الاعتقاد لفترة أن اليساريين سينتصرون ؛ ولم تقبل الهيئة التنفيذية دعم سياسة « تجميع القوى » إلا بعد نقاشات بالغة الحدة ، واجه المعارضة خلالها كل من لينين وتروتسكي مجتمعين . وقد كلفت الهيئة لينين وتروتسكي بعرض تلك السياسة في المؤتمر اللاحق للأممية[٧٥] .

في المؤتمر الذي انعقد في تموز / يوليو ١٩٢١ ، أبدى المتطرفون مقاومة . لقد كانوا يمارسون نفوذاً قوياً على الأحزاب الالماني والأيطالي والهولندي ، ويستمدون قواهم من تيار عاطفي قوي داخل الأممية . كانت الأحزاب الشيوعية قد ولدت بنتيجة صراع يائس ضد قادة الاحزاب الاشتراكية القديمة ، المدانين لكونهم دعموا « المجزرة الامبريالية » لما بين ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، والمسؤولين فيما بعد عن تصفية الثورة في اوروبا وعن اغتيال روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت ، وأخيراً الذين اتخذوا موقفاً ملتبساً حيال التدخل الاوروبي

(٧٥) يعطي ألفرد روسمر وصفاً مسهباً لتلك الأيام في موسكو في ظل لينين ، ص ١٧٢ ـ ١٨٨ . رادك ، پيات لت كومنترنا ، ج ٢ ، المقدمة . تكلم لينين أمام الهيئة التنفيذية ليؤكد تضامنه الكامل مع تروتسكي ويهاجم بعنف بيلاكون ، الناطق بلسان جماعة أقصى اليسار ، وقد وصفه مراراً عديدة بالـ « مجنون » . ان النص الكامل لمداخلة لينين ، الذي قرأته منذ زمن طويل ، لم يكن في متناولي حين كتبت هذا الفصل . وقد نشر تروتسكي مقتطفات منه في بولتن أو بوزيتسيي في كانون الأول / ديسمبر ١٩٣٢ . قال لينين : « جئت لاحتج على خطاب بيلاكون الذي هاجم فيه الرفيق تروتسكي ، بدل أن يدافع عنه ـ وهو ما كان عليه أن يفعله لو أراد أن يتصرف كماركسي حقيقي . . . لقد كان الرفيق تروتسكي على حق لا مراء فيه . . . واري من واجبي ان ادعم خطاب الرفيق تروتسكي في كل نقاطه . . . » وساند لينين تروتسكي ايضاً ضد كاشين وفروسار ، اللذين كانا يمثلان في المؤتمر اقصى اليمين . (المرجع ذاته) .

في روسيا . ولا شيء يدهش في أن العديد من الشيوعيين تبلبلوا واغتاظوا وهم يسمعون لينين وتروتسكي يطالبانهم بالاعتراف بالهزيمة ، ولو مؤقتاً ، وبالتعاون مع الاشتراكيين ـ الديمقراطيين والاشتراكيين ـ الخونة المكروهين. فبالنسبة لجماعة اليسار ، كان ذلك هو الاستسلام أو حتى الخيانة . وقد كان على تروتسكي ولينين في المؤتمر ، كما أمام الهيئة التنفيذية من قبل ،أن يلجآ إلى كل نفوذهما وبلاغتهما ليمنعا المعارضة من الغلبة . وذهب لينين وتروتسكي الى حد تهديد الأممية بالانشقاق اذا هي دعمت اليساريين .

صوَّت المؤتمر على السياسة الجديدة . لكنه فعل ذلك مع تحفظات ذهنية ودون ان يفهم بوضوح كل هذه التوريطات . كان لينين وتروتسكي أوكلا الى الاحزاب الشيوعية المهمة المزدوجة المتمثلة بالقتال متضامنة مع الاصلاحيين ضد البورجوازية وبتخليص الطبقة العاملة من نفوذ الإصلاحيين . كانت نظرية الجبهة الموحدة تلخص كل التجربة التكتيكية للبلاشفة الذين ناضلوا في البداية ضد القيصرية ثم ضد الكاديت ، ثم ضد كورنيلوف ، في نوع من الجبهة الموحدة التي تضم كذلك المناشفة والاشتراكيين الثوريين ، وانتهوا الى السيطرة على هؤلاء الاخيرين ايضاً . ولم ينتج نجاح البلاشفة عن قيمة قيادييهم وحسب ، بل كذلك عن انهيار نظام اجتماعي بأكمله وعن الحركة من اليمين إلى اليسار ، وهي الميزة الكلاسيكية لكل ثورة . لكن هل يمكن لتكتيك من هذا النوع ان يطبق خارج روسيا بحظوظ نجاح مماثلة ، حتى لو لم يكن أي تكتيك آخر واقعياً من وجهة النظر الشيوعية ؟ لقد استعاد النظام القديم في اوروبا درجة من الثبات ، وهو ما أدى الى حركة مشوشة لكن محسوسة من اليسار إلى اليمين ما كان يمكنها إلا أن تميل لاعطاء الرجحان للإصلاحيين داخل اي جبهة موحدة . من جهة اخرى ، لم يكن هنالك بين الشيوعيين الاوروبيين قيادي واحد شبيه بلينين أو تروتسكي من حيث سلطته أو تجربته النضالية . لذا بدا الشيوعيون الاوروبيون عاجزين عن تطبيق تكتيك الجبهة الموحدة بوجهها المزدوج . انطلق بعضهم في التعاون الحماسي مع الاشتراكيين ـ الديمقراطيين بينما أظهر آخرون انهم مستعجلون للتقليل من اعتبارهم . رأى البعض في الجبهة الموحدة محاولة جدية لتوحيد الطبقة العاملة خلال النضال من أجل مطالب جزئية ، بينما لم يجد فيها آخرون غير حيلة ماهرة . وكان آخرون يتأرجحون بين هذين الموقفين المتعاكسين . وبدأت الأممية تنقسم الى جناح يساري وجناح يميني ، الى مجموعة متطرفة ومجموعة وسيطة ، بين « وسطيين » و « يساريين متطرفين » .

في المؤتمر كافح تروتسكي ولينين المعارضة اليسارية المتطرفة بوجه خاص ؛ لذا بدا احياناً كما لو كانا يشجعان الجناح اليميني . تكلم تروتسكي ، بوجه خاص ، معبراً عن

ازدراء قاس لليساريين المتطرفين أركادي ماسلوف وروث فيشر ، زعيمي المنظمة الشيوعية في برلين ، فصوّرهما كحسّاسين كبيرين فارغي الرأس ، لافكارهما القليل من العلاقة بالماركسية ، وهما مهيّآن للغرق في الانتهازية الأكثر وقاحة[٧٦] . وقد صفق لكلامه كل العناصر المعتدلة في المؤتمر ، وغدا التصفيق هتافاً حماسياً حين تكلمت كلارا زتكين المناضلة القديمة والمشهورة في الحركة الشيوعية الالمانية ، باسم اكثرية المندوبين ، فوجهت اليه تحية إكبار مدوّية واحتفالية[٧٧] .

في المؤتمر اللاحق ، أي الرابع ، تكلم لينين ، وكان قد غدا مريضاً ، باختصار تام وبصعوبة بالغة . كان تروتسكي هو الذي احتل واجهة المسرح ، وظهر كالناطق الرئيسي بلسان استراتيجية الاممية وتكتيكها ، فدافع مرة اخرى عن الجبهة الموحدة ، لا بل قام بخطوة إضافية حين طلب الى الاحزاب الشيوعية أن تقدم دعمها المشروط للحكومات الاشتراكية - الديمقراطية ، لا بل أن تشارك في تلك الحكومات في ظروف خاصة ، في حالات سابقة للثورة يمكن فيها لائتلافات من هذا النوع أن تمهد الطريق للديكتاتورية البروليتارية . وقد استشاطت المعارضة غيظاً واستياء ، فمنذ اليوم الأول لوجود الأممية ، اعلنت هذه كمبدأ اساسي لسياستها أنه ليس من المقبول أبداً ان يدخل حزب شيوعي في ائتلاف حكومي : إن مهمته تدمير جهاز الدولة البورجوازي لا محاولة الاستيلاء عليه من الداخل . إلا أن المؤتمر وافق مع ذلك على هذا التجديد التكتيكي[٧٨] ، وتقرر أن ترصد الأحزاب الشيوعية مناسبات تشكيل حكومات ائتلاف مع الاشتراكيين - الديمقراطيين . وسوف يكون لهذا القرار أهمية حاسمة في أزمة الشيوعية الالمانية ، خريف عام ١٩٢٣ .

تلك كانت الوسائل التي كان تروتسكي (ولينين) لا يزالان يأملان ان تنحل بواسطتها ربطة خيوط الثورة « من الطرف الجيد » ، أي من الطرف الاوروبي .

طوال صيف ١٩٢٢ ، تطاولت وامتدت النزاعات داخل المكتب السياسي بصدد القضايا الداخلية ، وبقي الخلاف قائماً بين لينين وتروتسكي . وفي ١١ أيلول / سبتمبر اتصل لينين بستالين من معتزله في غوركي ، بعيداً عن موسكو ، طالباً إليه ان يعرض على المكتب السياسي ، بأقصى درجات الالحاح ، مشروع قرار بتعيين تروتسكي في منصب نائب أول لرئيس مجلس المفوضين . وحوّل ستالين المشروع هاتفياً إلى اعضاء المكتب ،

---

(٧٦) تروتسكي ، پيات لت كومنترنا ، ص ٢٨٨ .

(٧٧) تريتيي ڤسيميرنيي كونغرس كومنترنا ، ص ٥٨ .

(٧٨) انظر تقرير تروتسكي الى المؤتمر الرابع في پيات لت كومنترنا .

المثبتين والاحتياطيين ، الموجودين آنذاك في موسكو . وقد صَوَّت ، هو وريكوف ، الى جانب التعيين ، وأعلن كالينين أنه لا يعترض عليه ، بينما امتنع تومسكي وكامينيف . ولم يصوت احد ضد المشروع ، إلا أن تروتسكي رفض المنصب مرة اخرى(٧٩) . ولما كان لينين قد اوضح أن هذا التعيين أمر بالغ الالحاح ، لأن ريكوف سيمضي في عطلة ، اجاب تروتسكي بأنه ، هو الآخر ، موشك أن يأخذ عطلته ، وبأنه ، في كل حال ، ينوء تحت عبء المهام التي يفرضها الاعداد للمؤتمر اللاحق للأممية . لم تكن تلك أعذاراً ذات قيمة ، لأن التعيين لم يكن معداً اطلاقاً ، في ذهن لينين ، لسد ثغرة العُطَل . وفي ١٤ أيلول / سبتمبر ، اجتمع المكتب السياسي واقترح ستالين مشروع قرار قاسياً جداً حيال تروتسكي ، لأنه كان يتهمه بمغادرة المركز(٨٠) . وتبدو ظروف القضية كما لو كانت تُظهر أن لينين أوحى لستالين بمضمون القرار أو أن ستالين حصل على الأقل على موافقة لينين .

بعد أقل من شهر ، وضع حادث غير متوقع ، حداً للخلاف بين لينين وتروتسكي . ففي بداية تشرين الأول / أوكتوبر ، تبنت اللجنة المركزية بعض القرارات المتعلقة باحتكار التجارة الخارجية . كانت الحكومة السوفياتية احتفظت لنفسها بالحق الحصري للتجارة مع البلدان الاجنبية ومركزت كل المعاملات التجارية مع تلك البلدان . كان هذا هو التدبير الحازم للـ « حمائية الاشتراكية » ـ التعبير لتروتسكي(٨١) ـ المعد لحماية الاقتصاد السوفياتي الضعيف في وجه الضغوطات المعادية والتموجات غير المتوقعة للسوق العالمية . وقد منع هذا الاحتكار التجارة الخاصة ايضاً من التدخل في قضايا التجارة الخارجية ، ومن تصدير السلع الضرورية للبلاد أو استيراد سلع غير اساسية ، ومن الاخلال اكثر بتوازن البلاد الاقتصادي . إن قرارات اللجنة المركزية الجديدة ، المتخذة في غياب تروتسكي ولينين ، لم تصل الى حد السماح للتجارة الخاصة بممارسة التجارة الخارجية ، لكنها ارخت الرقابة المركزية على الوكالات التجارية السوفياتية في الخارج . كان بإمكان بعض منشآت الدولة أن تعمل ، بصورة فردية تقريباً ، في الاسواق الخارجية ، لمصلحة القطاع الذي تمثله قبل كل شيء ، وأن تسيء هكذا ، إلى « الحمائية الاشتراكية »(٨٢) .

اعترض لينين فوراً على هذا القرار الذي رأى أنه قد يثقل الاقتصاد السوفياتي بعبء تهديد خطير . كان مذعوراً وغاضباً و . . . مشلولاً . وإذا كان ينجح في بعض اللحظات

---

(٧٩) المحفوظات .

(٨٠) المرجع ذاته .

(٨١) پريوبراجنسكي، المرجع المذكور ، ص ٧٩ .

(٨٢) لينين ، سوش . ، ج ٣٣ ، ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠ .

بالافلات من اطبائه وممرضاته فيملي ملاحظات ومذكرات واحتجاجات وتشجيعات ، إلا أنه كان عاجزاً عن التدخل شخصياً أمام اللجنة المركزية . وقد أثلج صدره كثيراً بلوغه أن تروتسكي اتخذ موقفاً مماثلاً لموقفه ؛ وطيلة شهرين تقريباً ، ضغط هذا التماثل في الرؤية بثقله في الميزان . وفي ١٣ كانون الاول / ديسمبر كتب لينين لتروتسكي : « اطلب اليك بإلحاح أن تكلف نفسك الدفاع في الجلسة القادمة (للجنة المركزية) عن موقفنا المشترك حول الحاجة الملزمة لحماية احتكار التجارة الخارجية وتعزيزه. » فقبل تروتسكي باندفاع . لكن لما كان حذر لينين والمكتب السياسي مرارا من أن سياستهما تشجع الادارة على الخضوع بشكل سلبي للقوى الفوضوية لاقتصاد السوق ، لفت الانتباه الى ان القرار الاخير للجنة المركزية يظهر أن مخاوفه كان لها ما يبررها تماماً . طالب مرة اخرى بالتنسيق والتخطيط وطلب أن تعطى صلاحيات واسعة للغوسپلان . وقد حاول لينين أن يترك جانباً مسألة الغوسپلان ورجا تروتسكي أن يهتم حصراً بالاحتكار التجاري . كتب الى تروتسكي يقول : « أعتقد أننا وصلنا الى اتفاق كامل ، وأسألك أن تعلن تضامننا في الجلسة التي ستنعقد بكامل هيئتها » . فإذا حصل أن حُشِر الاثنان في وضع الأقلية ، كان على تروتسكي ان يعلن حينئذٍ بأنه ، ولينين ، عازمان على المضي حتى ابطال التصويت وأنهما سيهاجمان ، كلاهما ، اللجنة المركزية علناً[٨٣] .

لم يحتاجا للجوء لوسائل بهذا الحزم ، فخلافاً لما كان يخشاه لينين ، اقنع تروتسكي اللجنة المركزية بسهولة بأن تعود عن قرارها حين اعادت اللجنة دراسة مشكلة التجارة الخارجية ، في النصف الثاني من كانون الأول / ديسمبر . فابتهج لينين ، وقال لتروتسكي في ملاحظة كتبها : « بإذن من البروفسور فورستر »[٨٤] . : « لقد انتصرنا دون ان نطلق رصاصة واحدة . . . أقترح ألا نتوقف عن مواصلة الهجوم . . . »[٨٥] .

قرّبت الحادثة بين الرجلين مجدداً ؛ وفي الايام التي تلت ، فكّر لينين بالانتقادات التي وجهها تروتسكي للسياسة الاقتصادية خلال السنتين الأخيرتين ، وأوصل نتيجة تأملاته الى

---

(٨٣) انظر المراسلة بين لينين وتروتسكي بين ١٢ و ٢٧ ديسمبر ١٩٢٢ ، المحفوظات ، وتروتسكي ، المدرسة الستالينية في التزوير ، ص ٥٨ - ٦٣ .

(٨٤) كان البروفسور فورستر احد اطباء لينين .

(٨٥) كتبت الفصلين الأولين من هذا الجزء في عام ١٩٥٤ ، وكانت مصادري الرئيسية محفوظات تروتسكي . ولم تنشر بعض هذه الوثائق المهمة للمرة الأولى في موسكو إلا بعد عامين ، إثر ما كشفه خروتشيف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي . مذاك جرى جمعها في جزء خاص ، الجزء ٣٦ الذي جاء يكمل الطبعة الرابعة لمؤلفات لينين . وبعد مقارنة النصوص ، ادركت انه لم يكن عليّ أن أبدل فاصلة في الاستشهادات المأخوذة من محفوظات تروتسكي . ومع ذلك لم ينشر إلى الآن إلا قسم واحد من مراسلات لينين ، الموجودة في المحفوظات كما لم تنشر بالطبع الوثائق الأخرى .

المكتب السياسي في رسالة بتاريخ ٢٧ كانون الأول / ديسمبر : « هذه الفكرة أطلقها ، على ما أعتقد ، منذ زمن طويل الرفيق تروتسكي . وكنت قد عارضتها . . لكن بعد تفحصها ملياً ، لاحظت أنها فكرة صائبة في الجوهر : تقع لجنة الخطة (الغوسپلان) إلى حد ما بعيداً عن مؤسساتنا التشريعية ، مع أنها . . تمتلك في الواقع الحد الاقصى من العناصر للحكم على الاشياء بشكل صحيح . . . وأرى أن علينا التقدم مسافة للانضمام الى الرفيق تروتسكي . . . »[٨٦] .

وقد فهم لينين أن ذلك قد يكون إحباطاً لأعضاء المكتب السياسي ؛ لذا يبدو كما لو كان يعتذر . أما المكتب السياسي فتلقى بشكل سيىء ، في الواقع ، اهتداءه المفاجىء ، وقرر ألا ينشر ملاحظات لينين ، رغم احتجاج تروتسكي[٨٧] .

في الأسابيع الأخيرة والايام الاخيرة من العام ، قطع لينين طريقاً طويلة جداً « للانضمام الى الرفيق تروتسكي » بصدد مسائل اخرى كانت باعدت بينهما . وفي بداية كانون الأول / ديسمبر ، حث تروتسكي مرة اخرى على قبول منصب النائب الأول للرئيس[٨٨] . فعل ذلك ، هذه المرة ، خلال محادثة خاصة ، لا بواسطة اجراءات المكتب السياسي ورسمياته . كانت مشكلة خلافته تشغل باله الآن بالدرجة الأولى ، وكان سيكتب عما قليل وصيته . لكنه لم يُسرَّ بشيء من ذلك إلى تروتسكي ، بل تكلم فقط على قلقه الكبير حيال تجاوزات السلطة المتفاقمة اكثر فأكثر وضرورة وضع حد لها . ولم يرفض تروتسكي هذه المرة العرض بشكل جازم ، بل كرر قوله إن عملاً ما ضد تجاوزات البيروقراطية داخل الحكومة سيكون معدوم النتائج أو معدومها عملياً ، طالما يجري التسامح مع تجاوزات مماثلة في الاجهزة القيادية للحزب . فأجاب لينين بأنه مستعد لأن « يتكتل » مع تروتسكي ، أي أن يخوض معه عملاً مشتركاً ضد البيروقراطية في الحزب وفي الحكومة . ولم يكن أي من الاثنين بحاجة لايراد أسماء ، فعمل من هذا النوع لا يمكن أن يوَجّه إلا ضد ستالين . لم يتوفر لهما الوقت لمتابعة الحديث ومناقشة خطة ، فبعد أيام أصيب لينين بنوبة جديدة .

---

(٨٦) المحفوظات ، لينين ، سوش . ، ج ٣٦ ، ص ٦١٢ - ٦١٣ ، في الطبعة الفرنسية . كان لينين يؤيد في الواقع جوهر مشروع تروتسكي ، لا الانتقادات التي يوجهها لكزيجانوفسكي ، رئيس الغوسپلان ، الذي اخذ عليه قصوره وانعدام كفاءته .

(٨٧) المحفوظات . اعطى ستالين هذه الملاحظة الغامضة : « اعتقد انه ليس ضرورياً نشر ذلك ، لا سيما أن لينين لم يعطنا الاذن بالنشر » .

(٨٨) تروتسكي . حياتي .

خلال تلك المحادثة الأخيرة ، لم يخبر لينين تروتسكي بأنه راجع كلياً حكمه حول المسألة الكبيرة الأخرى التي فصلت بينهما ، مسألة سياسة ستالين في جيورجيا . فعلى هذا الصعيد أيضاً ، كان بصدد « الانضمام الى الرفيق تروتسكي » . كان لينين في الوضع الذهني لرجل يشعر أنه على وشك الموت ، وهو يتأمل نتاج حياته ، ويكتشف وهو قلقٌ مغمومٌ الأخطاء التي تركها فيه . قبل أشهر ، كان قال في المؤتمر الحادي عشر ان لديه في الغالب الشعور المقلق للسائق الذي يلاحظ فجأة أن العربة لا تذهب في الاتجاه الذي يديرها نحوه . كانت قوى قديرة تجر الدولة السوفياتية خارج سكتها : فردية الفلاح الروسي نصف البدائي ، ضغط المحيط الرأسمالي و ، قبل كل شيء ، التراث الطويل للاستبدادية الحكومية الهمجية(٨٩) .. بعد كل نوبة ، كان لينين يستأنف النظر الى حركات آلة الدولة وكان قلقه يتعاظم ؛ كان يبذل جهده آنذاك ، بعزم درامي ، ليعيد الامساك بمقْود الآلة بيديه المشلولتين .

كان يلاحظ أن العربة تسيخ في وحل أخدود الشوفينية الروسية الكبرى . (كم هو مألوف ذلك الأخدود !) . في النصف الثاني من كانون الاول / ديسمبر ، أعاد لينين تفحص ظروف النزاع مع البلاشفة الجيورجيين ، وهو النزاع الذي اصطف خلاله الى جانب ستالين . قام بتجميع الوقائع ، ورتّبها ، وتفحصها بدقة ؛ فاتضحت له الفظاظة التي تصرف بها في تفليس كل من ستالين واورجونيكيدزه ، مرؤوس ستالين ؛ فهم ان الاتهامات الموجهة ضد « الانحرافيين الجيورجيين » كانت خاطئة وثار على نفسه لأنه ترك ستالين يستغل ثقته ويغشّي حكمه بالسواد .

ضمن هذه الحالة الذهنية حرر في ٢٣ و ٢٥ ك١ / ديسمبر الى تلامذته تلك الرسالة التي اصبحت في الواقع ارادته الاخيرة ، وصيته . كان يريد أن ينير الحزب حول اولئك الذين سيكونون مدعوين قريباً لقيادته ، وصف باختصار اعضاء الفريق القيادي ليعرف الحزب ما هي ، في رأيه ، معايب كل واحد وميزاته .

كتب يقول إن على الحزب أن يحْذَرَ خطر انشقاق قد يتواجه فيه ستالين وتروتسكي، « القائدان الأكثر بروزاً في اللجنة المركزية الراهنة » . لم يكن تضادهما يمثل الآن أي تنازع اساسي لمصالح طبقية أو لمبادىء ، بل فقط تصادم شخصيتين . كان تروتسكي « أقدر » قادة الحزب ، لكنه « يخطىء بفرط الثقة بالنفس ، بالشغف المبالغ به بالجانب الاداري البحت للأشياء » ويميل لمواجهة اللجنة المركزية بشكل فردي . تلك الصفات لدى قائد

(٨٩) لينين ، سوش . ، ج ٣٣ ، ص ٢٣٥ - ٢٧٦ .

بلشفي هي بالتأكيد أخطاء مهمة تضعف حكمه وطاقاته على العمل الجماعي . لكن لينين أضاف ان على الحزب ألا يشهر ضد تروتسكي ماضيه « غير البلشفي » . كانت النصيحة تعني ان الخلافات القديمة دفنت منذ زمن طويل ، لكن كان يعرف لينين أن ذلك لم يكن بالضرورة ما يفكر فيه تلامذته .

أما بصدد ستالين فاكتفى بالقول : « . . . إذ أصبح ستالين أميناً عاماً ، جمع بين يديه سلطة غير محدودة ، وأنا لست واثقاً من أنه يستطيع دائماً ان يستخدم تلك السلطة بما يكفي من التبصر والتأني » . كان التحذير واضحاً لكنه لم يكن ينطوي على استنتاج . امتنع لينين عن تقديم نصيحة صريحة وعن تأكيد تفضيلات شخصية . بدا يلح باستفاضة اكثر على عيوب تروتسكي مما على عيوب ستالين ، ربما لأنه تكلم باستفاضة اكثر على ميزات تروتسكي . إلا أنه عاد فمحص ما قاله ، بعد ذلك بقليل . ففي الرابع من كانون الثاني / يناير ، كتب هذه التتمة المختصرة والمكثفة التي يؤكد فيها أن فظاظة ستالين لم تعد « تحتمل . . . في وظائف الأمين العام » ويوصي بـ« إقالة » ستالين من هذا المنصب وتعيين « شخص آخر فيه . . . أكثر تسامحاً ، أكثر صدقاً ، أكثر تهذيباً ، وأكثر مراعاةً ، حيال رفاقه ، شخص ذي مزاج أقل تقلباً » الخ . إذا لم يتم هذا ، سيتفاقم النزاع بين تروتسكي وستالين وتكون له عواقب وخيمة على الحزب بأكمله[٩٠] . وكانت النتيجة الحتمية لـ « إقالة » ستالين ، في ذهن لينين ، هي إحلال تروتسكي محله في القيادة .

إن تلميحات الوصية ، وحتى ملحق الوصية ، لا تعطي فكرة عن عنف غضب لينين الحديث ضد ستالين وعن عزمه على إفقاده حظوته مرة وإلى الأبد . ولقد اتخذ لينين هذا القرار ما بين ٢٥ كانون الأول / ديسمبر وأول كانون الثاني / يناير . كان افتُتح للتو مؤتمر السوفييتات الذي اعلن ستالين أمامه ان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية سيحل منذ الآن محل الفدرالية التي خلقها دستور عام ١٩١٨[٩١] ، ولينين الذي دعم هذا التعديل الدستوري غدا يخشى الآن أن يضرب صفحاً باستقلال الجمهوريات غير الروسية الذاتي ويعيد في الواقع إرساء روسيا « الواحدة وغير المنقسمة » . قال في نفسه إن ستالين تذرع بالحاجة الى حكومة ممركزة لتمويه اضطهاد القوميات الصغيرة ، وقد تحول الشك الى قناعة حين فهم لينين بشكل أفضل طبع ستالين : رجل فظ ومداج وغدار . وفي ٣٠ كانون الأول / ديسمبر ، تحايل لينين مرة اخرى على اطبائه وصحته وأعلن سلسلة من الملاحظات

---

(٩٠) لينين ، سوش . ، ج ٣٦ ، ص ٦٠٨ ، من الطبعة الفرنسية .

(٩١) ستالين ، سوش . ، ج ٥ ، ص ١٤٥ ـ ١٥٩ .

حول السياسة حيال الأمم الصغيرة . كانت تلك في الواقع رسالته الأخيرة حول هذا الموضوع ، وهي فحص ضمير حيث يتناوب الندم الحارق مع الغضب المقدس[٩٢] .

لقد كتب : « أنا مذنب جداً أمام عمال روسيا لأني لم أتدخل بما يكفي من الحزم والقساوة في (هذه) المسألة . . . » . كان قد حال المرض بينه وبين القيام بذلك ، لكنه أسرّ بمخاوفه وشكوكه لزينوفييف . لكنه لم يفهم بوضوح « إلى أي مستنقع » انزلق الحزب ، إلا بعد أن استمع الى تقرير دزرجنسكي حول جيورجيا . لقد جرى التذرع لتبرير احداث جيورجيا ومناطق أخرى بضرورة امتلاك الحكومة آلة إدارية لجهاز واحد وموحد . سأل لينين : « من اين تنبثق هذه التأكيدات ؟ أليس من جهاز روسيا هذا بالذات الذي . . . استعرناه من القيصرية مقتصرين على طلائه قليلاً ببرنيق سوفياتي ؟ » بالنسبة للأمم الصغيرة ، أصبحت « حرية الخروج من الاتحاد » صيغة فارغة . لقد كانت في الواقع معرضة لـ « غزو الروسي الأصيل ، الشوفيني الروسي الكبير ، هذا الوغد ، هذا المضطهدالمتمثل في الواقع بالبيروقراطي الروسي النموذجي » . آن الأوان للدفاع عن الطارئين في وجه « الدزرجيموردا » (الوحش الغليظ في اهجوّة غوغول) . . . « لقد لعب استعجال ستالين دوراً مشؤوماً هنا في حماسه كإداري كما بسبب الاثارة والسخط . . . اخشى كذلك أن يكون الرفيق دزرجنسكي . . تميز هنا ايضاً بشكل اساسي بعقليته الروسية مئة بالمئة (معروف أن الطارئين المتروِّسين(*) يبالغون والحالة هذه في روسيتهم باستمرار) . . . . » .

في ٣١ كانون الاول / ديسمبر كتب لينين ايضاً :

« إن النزعة الاممية من جانب الأمة . . التي يقال عنها كبيرة (مع أنها ليست كبيرة إلا بأعمالها العنيفة ، كبيرة ببساطة مثلما هي حال الشرطي الذي يراقب السجناء) لا يجب ان تكمن فقط في احترام المساواة الشكلية للأمم بل كذلك في بذل جهد نحو مساواة (حقيقية) تعوض . . . اللامساواة التي تتجلى عملياً في الحياة . . . إن الجيورجي الذي ينظر بازدراء الى هذا الجانب من القضية ، الذي يطلق باحتقار أتهامات بـ « الاشتراكية ـ القومية » ، (بينما هو ذاته ليس اشتراكياً ـ قومياً حقيقياً وأصيلاً ، بل كذلك شرطي روسي كبير بالغ الفظاظة) هذا الجيورجي يسيء في الواقع الى التضامن البروليتاري الطبقي . . . لا

---

(٩٢) لينين ، المرجع المذكور . ص ٦١٨ ـ ٦٢٤ ، في الطبعة الفرنسية . انظر أيضاً ذكريات ل . أ . فوتييفا المنشورة في فوبروزي ايستوريي ك ب س رس ، عدد ٤ ، ١٩٥٧ .

(*) نسبة الى روسيا (م).

شيء يؤخر تطور هذا التضامن وتوطيده كالجور القومي . . . هذا هو السبب في أن من الأفضل ، في الحالة التي نحن بصددها ، المبالغة في اتجاه روح التوفيق والكياسة تجاه الاقليات القومية لا العكس » .

كانت حقوق الجيورجيين والأوكرانيين وطارئين آخرين اهم بما لا يقاس من الحاجة الى المركزة الادارية التي تذرع بها ستالين لتبرير « علاقات شبه امبريالية حيال القوميات المضطهدة » . وخلص لينين الى القول إنه إذا دعت الحاجة.ينبغي نبذ الدستور الجديد الذي رعاه ستالين ، علاوة على التنظيم المركزي الجديد للحكم .

بعد أن عبر لينين عن وجهة نظره بصراحة ممضة بقدر ما هي عديمة الشفقة ، يبدو أنه أراد التفكير بالمشكلة وتفحُّص التدابير التي ينبغي اتخاذها . لقد امتنع طيلة اكثر من شهرين عن ايصال ملاحظاته الى اي من اعضاء المكتب السياسي .

إن الخضة الفكرية التي دفعت لينين الى إجراء تبديل حقيقي لموقفه من عدد كبير من النقاط المهمة ، ربما ستبدو اكثر بلبلة وأشد مباغتة من تلك التي عرفها تروتسكي في عامي ١٩٢١ و١٩٢٢ . كان ذلك ناتجاً لدى لينين ايضاً عن تنازع شديد بين الحلم وقدرة الثورة ، وهو تنازع لم يكن يتواصل لديه فقط . ففي حلم الحزب البلشفي كان يرى نفسه بنفسه كجسم من الثوريين المنضبطين لكن الاحرار والمخلصين ، الناجين من إفساد السلطة . كان قد تعهد بالحفاظ على الديمقراطية البروليتارية وباحترام حرية الامم الصغيرة ، لأن ذلك كان شرط مسيرة حقيقية نحو الاشتراكية . وفي ملاحقة البلاشفة لحلمهم كانوا قد بنوا آلة سلطة ضخمة وممركزة قرضت حلمهم شيئاً فشيئاً لكن بشكل اكيد : قرضت الديمقراطية البروليتارية ، حقوق الأمم الصغيرة ، وفي الأخير حريتهم الخاصة بهم . ما كان بإمكانهم الاستغناء عن القدرة إذا أرادوا النضال لبلوغ مثلهم الأعلى ، لكن هي ذي قدرتهم تكسف الآن مثلهم الأعلى ، ، تسحقه . لقد انطرحت أخطر الورطات وحدث انفلاق عميق بين أولئك الذين كانوا يتشبثون بالمثل الأعلى وأولئك الذين كانوا يتمسكون بالقدرة .

لم يكن القطع واضحاً ،لأن القدرة والحلم كانا إلى حد ما غير قابلين للفصل الواحد عن الآخر . إن اخلاص البلاشفة للثورة هو الذي دفعهم الى بناء آلة السلطة التي كانت تعمل الآن تبعاً لقوانينها الخاصة بها ولحركتها الخاصة بها ، والتي كانت تتطلب منهم اخلاصاً كاملاً . لذا فأولئك الذين كانوا يتشبثون بالحلم لم يكن شيء يغريهم بسحق آلة السلطة ، واولئك الذين كانوا يتماثلون مع السلطة لم يكونوا يتخلون كلياً عن الحلم .

اولئك ذاتهم الذين كانوا يدافعون في لحظة ما عن وجه للبلشفية ، كانوا يندفعون في اللحظة التالية ليجعلوا من انفسهم ابطال الوجه الآخر . في ١٩٢٠ - ١٩٢١ ، لم يكن ذهب أحد إلى الدرجة التي وصل اليها تروتسكي حين طالب بإخضاع كل مصلحة وكل تطلع الى « الديكتاتورية الحديدية » . مع ذلك ، كان الأول بين القادة البلاشفة الذي انقلب ضد آلة تلك الديكتاتورية حين بدأت تفترس الحلم . وحين وجد تروتسكي نفسه فيها بعد منخرطاً في الصراع لخلافة لينين شك معظم الذين سمعوه يذكرٌ بالمثل العليا للثورة بصدقه وتساءلوا اذا لم يكن يستخدمها كذرائع محضة لبلوغ السلطة . أما لينين فبقي فوق كل شبهة . لقد كان القائد غير المنازع للحزب . لم يكن لديه - ولم يكن يمكن ان يكون لديه - أي حافز غير طبيعي ، حين اعترف خلال الأسابيع الأخيرة من نشاطه بأنه يشعر بنفسه مذنباً لكونه لم يقاوم بما فيه الكفاية الاضطهاد الجديد للضعفاء على يد الاقوياء ، وحين استنفد قواه الاخيرة ليوجه ضربة للمركزة القصوى لآلة السلطة . لقد تذرع بهدف الثورة ، يدفعه اخلاص للثورة عميق ومنزه ونادم . وفي الاخير ، عشية موته ، حين أراد ورأسه يضطرم ، أن يخلّص الثورة من السلاسل الثقيلة التي اوثقت نفسها بها ، كان تروتسكي هو من التفت اليه ليكون حليفه .

الفصـــل الثـــاني

اللعنـــة

منذ بداية الحرب الأهلية كان المكتب السياسي يتصرف كدماغ الحزب ، كسلطته العليا ، مع أن أنظمة الحزب لم تلحظ وجوده . كانت المؤتمرات السنوية تكتفي بانتخاب لجنة مركزية في يديها أوسع السلطات السياسية والتنظيمية ، مسؤولة أمام المؤتمر اللاحق . كانت اللجنة المركزية تنتخب المكتب السياسي الذي كانت مهمته في البدء حل المشكلات الملحة التي يمكن ان تنطرح خلال الاسبوع ، أو نصف الشهر ، الذي يفصل بين دورتين للجنة المركزية . لكن حين تنوعت القضايا التي تعالجها اللجنة ، بحيث طالت قطاعات تزداد اتساعاً من العمل الحكومي ، حين اصبح يتولى اعضاء اللجنة مسؤوليات متعددة ومتزايدة باستمرار ، ويجبرون على التغيب في الغالب عن موسكو ، اوكلت اللجنة المركزية شيئاً فشيئاً ، وبصورة غير رسمية بعض صلاحياتها للمكتب السياسي . عندئذٍ غدت اللجنة المركزية ، التي لم تكن تضم في السابق غير دزينة من الأعضاء ، كثيرة العددوشديدة الارباك بحيث لا يمكن ان تعمل بفعالية . عام ١٩٢٢ ، لم تجتمع أكثر من مرة كل شهرين ، بينما كان اعضاء المكتب السياسي يعملون يومياً في اتصال وثيق فيما بينهم ، وكانوا يتقيدون كلياً بالعملية الديمقراطية . وحين تظهر تباينات ، كان يجري حلها بالاقتراع بالاكثرية البسيطة . ضمن هذا الإطار ، كـ Primus inter pares* ، كان لينين يمارس السلطة العليا(١) .

بدءاً بعام ١٩٢٢ ، كانت خلافة لينين الاهتمام الرئيسي للمكتب السياسي . ومن الناحية النظرية ، كانت تلك مشكلة لا يمكن حتى ان تنطرح ، مع ذلك . فبوجود لينين أو بدونه ، كان المكتب السياسي (وعبره اللجنة المركزية) هو المفترض ان يقود الحزب ، وكانت إرادة المكتب السياسي هي إرادة اكثريته . لم تكن المشكلة التي انطرحت إذاً هي في معرفة من سيخلف لينين بل كيف سيحدث الفرز، من دون لينين، بين اعضاء المكتب السياسي، وأية اكثرية ستتبلور فيه سامحة بتكوين قيادة مستقرة. كان استقرار

(*) باللاتينية في النص ، ومعناها الأول بين متساوين (م) .

(١) ك ب س س ف ريزولوتسياخ ، ج١ ، ص ٥٢٥ ، ٥٧٦ ـ ٥٧٧ ، ٦٥٧ ـ ٦٥٨ .

القيادة ناجماً حتى ذلك الحين، جزئياً على الأقل، عن سلطة لينين التي لا منازعة فيها وقدرة الاقناع لديه ومهارته التكتيكية التي كانت تسمح له عموماً بالحصول في كل النقاشات على اكثرية الى جانب اقتراحاته. لم يحتج لينين يوماً، لبلوغ تلك الأكثرية، إلى خلق تكتله الخاص به داخل المكتب السياسي. لكن سواء في كانون الاول / ديسمبر ١٩٢٢، أو في كانون الثاني / يناير ١٩٢٣، حين توقف لينين عن المشاركة في عمل المكتب السياسي، تأسس تكتل خاص كان هدفه الوحيد منع تروتسكي من الحصول على اكثرية تسمح له بالحلول محل لينين. هذا التكتل كان يتألف من ثالوث ستالين وزينوفييف وكامينيف.

واضحة هي الأسباب التي دفعت ستالين لمواجهة تروتسكي بصورة مكشوفة، فتضادهما يرجع إلى معارك تزاريتسين الأولى عام ١٩١٨[٢]: ومؤخراً، جاءت انتقادات تروتسكي اللاذعة ضد مفوض الرابكرين والامين العام فأثارت حفيظته. وفي كانون الأول / ديسمبر١٩٢٢ أو في كانون الثاني / يناير الذي تلاه، لم يكن بإمكان ستالين بأي حال من الأحوال أن يشتبه بأن لينين وتروتسكي كانا يتهيآن للـ «تكتل» ضده، وبأن لينين قرر إزاحته من الأمانة العامة، وكان يتهيأ لمهاجمة سياسته الجيورجية و «شوفينيته الروسية الكبرى». إلا أنه شعر بالخطر[٣]. رأى أن لينين وتروتسكي كانا يعملان باتفاق تام على صعيد قضية احتكار التجارة الخارجية، ثم في قضية الغوسپلان. سمع لينين يحتدم غضباً ضد مساوىء البيروقراطية وعرف على الأرجح عن طريق زينوڤييڤ ان لينين كان يبدي قلقه حيال أحداث جيورجيا. وكان ستالين غدا يمتلك، بما هو امين عام، سلطة واسعة: كانت الامانة العامة ومكتب التنظيم قد انتزعا من المكتب السياسي معظم وظائفه التنفيذية، غير تاركين له، إلا القرارات بصدد السياسة العامة. إلا أن المكتب السياسي كان يشرف، من الناحية النظرية، على الأمانة العامة ومكتب التنظيم، وكان يمكنه تمديد انتداب ستالين أو رفض تمديد انتداب الشخص المذكور الذي كان مقتنعاً بأن عليه ألا ينتظر شيئاً جيداً من مكتب سياسي يسيطر عليه تروتسكي. في تلك الحقبة، كان قلقاً فقط للاحتفاظ بالنفوذ الذي اكتسبه، لا لأخذ موقع لينين. كان يعرف ان الحزب لا يرى فيه اكثر من التقني الأعلى، الرجل الذي يمسك جهاز الحزب، لا منظّراً سياسياً، أو مفكراً ماركسياً كما ينبغي أن يكون خليفة لينين. لا ادنى شك في أن هذا الحكم لم يؤذ طموح ستالين، لكن احتراسه دفعه لأخذ ذلك بالحسبان.

(٢ النبي المسلح، ص ٥٥٧- ٦١.

(٣) انظر فوتييفا،، «إز ڤوسبوميناني أو لينين» في ڤوپروزي إيستوريي ك ب س س، عدد ٤، ١٩٥٧.

بعد لينين وتروتسكي ، كان زينوفييف العضو الأكثر شعبية - وإلى حد بعيد - داخل المكتب السياسي . كان رئيس الأممية الشيوعية ، وكانت رئاسة الأممية الموقع الأعلى الذي يمكن ان يشغله بلشفي ، في تلك الفترة التي لم يكن توصل خلالها الحزب الروسي لاعتبار الكومنترن كمحض أداة ، بل كان يعتبر نفسه تحت سلطتها الأدبية . كان زينوفييف كذلك قائد كومونة الشمال ، سوفييت بتروغراد ، كان دعاوياً وخطيباً عظيم القدرة . كان يبدو بشكل شبه متواصل ، في نظر الحزب ، كأحد عمالقة الثورة ، كتجسيد للفضيلة البلشفية ، جموحاً وعنيداً . لم تكن صورته الشعبية تتطابق مع شخصيته الحقيقية التي كانت معقدة ومترددة . فحيناً كان يغلي بطاقة محمومة ، وحيناً آخر يسقط في خموله ؛ كانت انفجارات ثقته بنفسه تخلي المكان سريعاً لنوبات وهن . كانت تجتذبه عموماً الأفكار والسياسات المقدامة ، التي كان يتطلب إنجاحها أعظم شجاعة وأكبر حزم ، إلا أنه كان ضعيفاً ومتردداً لا بل خائفاً[٤] . كان يترك أثراً بليغاً حين يستثمر أفكار لينين أو حين يجعل من نفسه ناطقاً بلسانه راعداً وعصوفاً ؛ إلا أنه كانت تنقص ذكاءه القوة . كان قادراً على أسمى العواطف ، وفي افضل لحظاته ، في نوبات المثالية لديه كان يسحر سامعيه لدرجة أنه في أحد الايام ، خلال خطاب دام ثلاث ساعات ألقاه بلغة أجنبية ، راداً على ألمع فحول الاشتراكية الاوروبية حصل على موافقة مؤتمر متردد ومنقسم للحزب الاشتراكي الالماني المستقل ، الذي اقنعه بالانضمام الى الأممية الشيوعية[٥] . لقد وصف شهود عيان سلطانه على روح الجماهير الروسية بأنه « شيطاني »[٦] . لكنه كان يستطيع ان ينزل من اسمى العواطف إلى اكثر المناورات دناءة وإلى أسوأ الحيل الديماغوجية . طوال السنوات العديدة التي قضاها الى جانب لينين في أوروبا الغربية سمحت له حيويته الذهنية بتمثل جمهرة واسعة من المعارف ، إلا أنه بقي فظاً وخشناً . كان له مزاج حار ، إلا أنه كان كذلك برياً وقاسياً . وإذا كان متعلقاً بصدق، بمبادىء الأممية ، رجلاً « على نطاق اممي » ، فقد كان في الوقت ذاته سياسيّاً محلياً ، ميّالاً لتسوية أعظم المشكلات بطرق التدليس . وصل الى اعلى

---

(٤) في رسالة الى ايفان سميرنوف(كتبت من المآآتا عام ١٩٢٨) يروي تروتسكي قصة « اللقاء القصير » بينه وبين لينين غداة ثورة اوكتوبر : « قلت للينين : ان من يدهلني إنما هو زينوفييف ، أما كامينيف فقد عرفته عن كثب بحيث اميز اين ينتهي فيه الثوري واين يبدأ الانتهازي .لكنني لم اكن أعرف زينوفييف شخصياً (قبل ١٩١٧) . ومما سمعته عنه ، ومارأيته منه كنت أعتقد انه الرجل الذي لا يوقفه شيء ولا يخشى من شيء . وقد اجابني فلاديمير ايليتش : إذا لم يكن يخاف ، فلأنه لا شيء يمكن الخوف منه . . . » محفوظات تروتسكي .

(٥) انظر بروتوكول أويرداي فرهاندلونجن ديس أوسيروردزتليشن بارتيتياغز زو هالي ، وزينوفييف ، زوولفا تاجي إن دوتشلاند .

(٦) هكذا وصفه هاينريخ براندلر وانجيليكا بالابانوف ، وآخرون .

المواقع ، إلا أن الطموح كان يتناهشه فيحاول أن يصعد أكثر فأكثر . وكان إلى ذلك نهباً للشك والحيرة.

ومن أشد دواعي اعتزاز زينوڤييف أنه كان التلميذ الأقرب للينين بين ١٩٠٧ و ١٩١٧ ، خلال تلك السنوات العشر من الردة والعزلة واليأس التي ناضلا فيها معاً لإبقاء الحزب حيّاً وإعداده لليوم العظيم ، وحين أطلقا معاً إبان مؤتمري زيمرڤالد وكيينتال فكرة الأممية الثالثة في وجه العالم . لكن العار الكبير الذي وصم زينوڤييف به نفسه ـ وكان هذا رأيه هو ورأي رفاقه ـ هو كونه خار عزمه في اوكتوبر ١٩١٧ ، فعارض الانتفاضة ، وجعل لينين يصفه بـ « كاسر إضراب الثورة » .

كانت حياة زينوڤييف السياسية بكاملها ممزقة بين ذلك الاعتزاز وهذا العار . وكان يبذل جهده ليمحو من الاذهان ذكريات عام ١٩١٧ ، يساعده في ذلك لينين الذي حث الحزب حتى في وصيته ، على نسيان « الخطأ التاريخي » الذي ارتكبه زينوڤييف وكاميتيف . في عام ١٩٢٣ ، كان معظم اعضاء الحزب نسوا تقريباً ذلك الحادث الخطير ؛ لم يعودوا راغبين ابداً في نبش الماضي . كان الحرس القديم يفضل نسيانه ، إذا لم يكن لشيء فلأن المقسم كان يقطعه عشية ثورة اوكتوبر في الوسط تماماً ولأن العديد من اعضائه كانوا يومذاك الى جانب زينوڤييف . كان المؤرخون وكاتبو السير التبجيلية من بين أفراد الحرس القديم يهتمون اكثر بالحقبة السابقة ، تلك بالضبط التي كان زينوڤييف يستمد منها بالغ اعتزازه . اذا كان هناك رجل ، في غياب لينين ، قادر على الكلام باسم الحرس القديم ، هذا الرجل هو زينوڤييف .

لم يكن متصوراً أن يسعه الآن القبول بسلطة تروتسكي ، أولاً لأنه كان لا يزال متشبعاً بذكريات الخصومات الكثيرة لما قبل الثورة ، التي غالباً ما اندفع فيها ضد تروتسكي يشجعه على ذلك لينين(٧) . ثم لأن عاره العظيم يتعلق بالحدث الذي كان بالضبط اكبر سند لمجد تروتسكي ، عنينا انتفاضة اوكتوبر . واخيراً وبوجه خاص ، لأنه عارض منذ عام ١٩١٧ تروتسكي باستمرار بصدد كل النقاط الحاسمة في السياسة البلشفية . كان النصير الأكثر استبسالاً لصلح بريست ـ ليتوفسك ؛ وكان قد شجع الى هذا الحد أو ذاك المعارضة العسكرية بوجه تروتسكي خلال الحرب الاهلية . وفي ربيع ١٩١٩ انتقل تروتسكي الى بتروغراد لينظم فيها الدفاع ضد هجوم يودنيتش ، في حين استسلم زينوڤييف قائد المدينة الرسمي ، للذعر . وقد اخذ تروتسكي فيما بعد على زينوڤييف كونه

(٧) زينوفييف ، سوش ،، ج١ ، ٢ و ٥ : وجيجسن دن ستروم

تسبب ، من دون ادنى ضرورة ، بانتفاضة كرونشتادت . من جهة اخرى ، كان زينوفييف احد خصوم تروتسكي الأكثر صخباً خلال الجدال حول عسكرة العمل والنقابات[٨] . فيما بعد ، صوّت في المكتب السياسي ضد اقتراحات تروتسكي المتعلقة بالسياسة الاقتصادية والغوسپلان ، ليجد نفسه في الاخير ضمن الاقلية المهزومة ، حين انتقل لينين الى جانب تروتسكي . حتى في المكتب التنفيذي للأممية ، هزمه تروتسكي من جديد حين فرض ، بالاتفاق مع لينين ، سياسة الجبهة الموحدة . لا شيء يدهش في أن يكون موقفه تجاه تروتسكي ناتجاً عن إعجاب غير معترف به ، وغيرةٍ ، وعن ذلك الشعور بالنقص الذي كان يثيره تروتسكي لدى العديد من اعضاء الحرس القديم .

كان كامينيڤ يشاطر عموماً زينوفييف موقفه ، فالتعاون السياسي بين هذين الرجلين كان وثيقاً لدرجة ان البلاشفة كانوا يعتبرونهما مثل كاستور الثورة وبولّوكسها(*) . وللغرابة ، مع ذلك ، أن ما كان يجعل منهما توأمين سياسيين لم يكن التماثل في ذهنهما ومزاجهما بل التضاد . فمع أن كامينيڤ كان زعيم منظـمة موسكو الحزبية ، كان أقل شعبية بكثير من زينوڤييڤ لكن أكثر مدعاة للاحترام في دائرة القادة . وإذا كان أقل هيبة على المنبر ، أقل موهبة على صعيد زخارف الفصاحة ، والمواقف البطولية ، فقد كان يمتلك ذكاء أكثر حدّة وأشد ثقافة ، وطبعاً أكثر حزماً بكثير ، إلا أنه كان ينقصه اندفاع زينوڤييڤ وخياله . كان رجل افكار اكثر مما رجل شعارات . وخلافاً لزينوڤييڤ كانت تجتذبه عموماً الافكار والسياسات المعتدلة ، لكن قوة قناعاته الماركسية كانت تمنعه من الاستسلام لاعتداله ؛ كان فكره النظري يدخل في نزاع مع ميله السياسي . إن طبعه المصالح كان يعده لدور المفاوض ، وفي الأيام الأولى غالباً ما عيّنه لينين كممثل رئيسي للحزب في الاتصالات مع الاحزاب الأخرى ، وبوجه خاص حين كان يهتم بأن يتم عقد اتفاق ما . (وفي الجدالات داخل الحزب أيضاً كان كامينيڤ الرجل الذي يتساهل ويفتش عن أرضية تفاهم بين الخصوم) . لكن اعتداله ادخله مراراً في نزاع مع لينين . خلال محاكمة النواب البلاشفة في الدوما بتهمة الخيانة في بداية الحرب العالمية الاولى ، اعلن كامينيڤ ، من داخل قفص الاتهام أنه لا يلتزم بـ « الانهزامية الثورية » . التي نادى بها لينين : وفي آذار / مارس ونيسان / أبريل ١٩١٧ ، قبل عودة لينين الى روسيا ، وجه الحزب نحو التصالح مع المناشفة ؛ واخيراً ، في اوكتوبر ، عارض الانتفاضة . ومع ذلك ، فليست الشجاعة هي

---

(٨) النبي المسلح ، الفصول ١٠ ـ ١٣ .

(*) شخصيتان من الميثولوجيا الاغريقية ، ولدا زوش . حين قتلا لم يرد الاغريق فصلهما الواحدعن الآخر . نقلهما زوش الى السماء وجعل منهما كوكبة نجوم . (م).

التي كانت تنقصه ، كما لم يكن محض انتهازي . كان بارداً ومتحفظاً ، متجرداً من كل غرور ومن كل طموح بالغين ، لكنه يخفي خلف مظهره الفاتر اخلاصاً مطلقاً للحزب . وقد تكشَّف طبعه في اليوم ذاته الذي اندلعت فيه ثورة اوكتوبر : هو الذي عارض الانتفاضة علانية ، حضر منذ البدء إلى مركز قيادة المنتفضين ، ووضع نفسه تحت تصرفهم وتعاون دون تحفظ معهم ، مضطلعاً هكذا بمسؤولية سياسة كان قد شجبها وبكل المخاطر الشخصية والسياسية التي كانت تستتبعها[8] .

إن ما كان يجتذبه بشدة لدى زينوڤييف هو على الأرجح التباين بين شخصيتيهما . فلدى الاثنين كانت تفعل دوافع يمكن أن تباعد فيما بينهما ، لكن كانت تكبحها لدى الاثنين ايضاً موانع قوية . كان ينتج عن ذلك عموماً أن الرجلين كانا يلتقيان في منتصف طريق المواقف المتطرفة التي كانت تجتذبهما .

لم يكن كامينيف يشارك زينوڤييف وستالين أبداً عداوتهما الشرسة لتروتسكي ، نسيبه بالمصاهرة سابقاً ، وكان أمكنه التوافق مع سيطرته بصورة أسهل . واذا كان وقف ضد تروتسكي ، فلتعلق صرف بالحرس القديم ، وبفعل صداقته مع زينوڤييف . مهما تكن ميوله وأذواقه الشخصية ، فقد كان حساساً للغاية تجاه عقلية البلاشفة القدامى وكان يخضع لها . وحين شن هؤلاء حربهم ضد تروتسكي ، حذا كامينيف حذوهم ، مفعماً بالتردد وكسير القلب . لم يكن يأمل ـ وما كان بإمكانه أن يأمل ـ كسب أي شيء عن طريق الانضمام الى زينوڤييف وستالين ، فهو لم يكن يطمح لخلافة لينين . لكنه دعم الطموح الجشع لتوأمه السياسي وشجعه ، جزئياً لأنه كان مقتنعاً بأن ذلك الطموح لم يكن مضراً ، وبأن زينوڤييف لن يستطيع في كل حال أن يحل محل لينين وبأن الثلاثة يقودون في الواقع الحزب بصورة جماعية ؛ وجزئياً أيضاً لأن كامينيف ، المعتدل ، كانت ترعبه حقاً شخصية تروتسكي الحاسمة والمهيمنة ، وأفكاره ومشاريعه المغامرة .

مهما تكن حوافز زينوڤييف وستالين وكامينيف وشخصياتهم فقد كانوا ينتمون جسداً وروحاً الى الحرس القديم ، وكان يبدو أنهم يجسدون ، ثلاثتهم ، كل وجوه حياة الحزب وتراثه . كان زينوڤييف يجسد انطلاقة البلشفية وجاذبيتها الشعبية ، وكامينيف تطلعاتها العقائدية الأكثر جدية ومظهرها العلمي ، بينما كان يجسد ستالين رباطة الجأش والحس العملي في جهازها الصلب والمجرّب في المعارك . وحين اجتمعوا ليمنعوا تروتسكي من احتلال المقام الأول ، كانوا يعبرون عن الحذر والنفور الغريزي لدى العديد من اعضاء

(٨) مكرر بروتوكولي تسنتر النوئو كوميتيلا ، ص ١٤١ ـ ١٤٣ ، النبي المسلح .

الحرس القديم . حتى ذلك الحين لم يكونوا ينوون طرد تروتسكي من الحزب ، أو حتى من اجهزته القيادية ، فهم كانوا يعترفون بمؤهلاته ، ويرغبون في رؤ يته يحتل مقاماً رفيعاً في المكتب السياسي ، إلا أنهم لم يكونوا يعتبرونه جديراً باحتلال مقعد لينين ، وكان يرعبهم التفكير بأنه قد يفعل ذلك إذا لم يتم عمل شيء لمنعه من أن يفعل .

تعهد الثلاثي الحاكم بالتشاور في كل خطوة من خطاهم ، وبالعمل متفقين[٩] . بذلك يسيطرون آلياً على المكتب السياسي ، ففي غياب لينين كان هذا يتألف من ستة اعضاء فقط : الثلاثي وتروتسكي ، وتومسكي وبوخارين ، وحتى لو ضمن تروتسكي صوتي تومسكي وبوخارين ، لم يكن ليحصل على اية اكثرية . لكن طالما لم يكن بوخارين وتومسكي يشكلان معه أي تكتل ، كان يكفي أن يصوّت احدهما مع الثلاثي ، أو يمتنع ، حتى يعطي الثلاثي الأكثرية . وكان المثالثون يعرفون مسبقاً أن تومسكي لن يتضامن مع تروتسكي . فكعامل مستقيم وبلشفي قديم ، وقبل كل شيء كقائد نقابي ، كان تومسكي العضو الأكثر تواضعاً في المكتب السياسي . كان يرغب بوجه خاص أن يدعم مطالب العمال المتعلقة بالأجور ، وذلك ضمن حدود معينة ، وبحذر ؛ لذا كان في عام ١٩٢٠ ، أول من عارض عسكرة العمل التي طالب بها تروتسكي ، وقد ثار حين هدد هذا بتحطيم النقابات . انتقده تروتسكي بعنف ، متهماً إياه بأنه نقابي من الطراز القديم ، سابق للثورة بفعل العادة ، وبأنه يدفع العمال الى الاستهلاك ولا يفهم بأن الدولة الاشتراكية تحتاج الى الانتاجية . وخلال ردح من الزمن ، أطلق تومسكي النقابات عملياً في تمرد ضد الحزب ، فأزيح من المجلس المركزي للنقابات و«أرسل في مهمة » الى تركستان ، وكانت تلك طريقة مموهة للنفي . وبعد إقرار النيب ، عاد الى الكرملين وعيّن عضواً في المكتب السياسي . لكن الجرح الذي تلقاه التهب ، وكشف سلوكه عداءه حيال تروتسكي ، نصير عسكرة العمل ، وهو عداء كان عدد كبير من النقابيين البلاشفة يضمرونه منذ عام ١٩٢٠ .

كان بوخارين العضو الوحيد في المكتب السياسي الذي ظل يقيم علاقات ودية مع تروتسكي . في سن الثلاثين ، كان بوخارين قد غدا بلشفياً « قديماً » واحداً من منظري الحزب البارزين ، لامعاً وذا ثقافة واسعة . كان لينين ينتقد ميله الى المدرسية والحدة المذهبية لفكره ، الذي مارس مع ذلك نفوذاً كبيراً ، حتى على لينين الذي غالباً ما كان يتبناه ويعطيه تعبيراً اكثر واقعية ، وأشد مرانة[١٠] . وفي الواقع ، كان لبوخارين ذكاء مزوّى ،

(٩) سلم ستالين للمرة الأولى علناً بوجود الثلاثي في المؤتمر الثاني عشر ، في نيسان ١٩٢٣ . انظر مؤلفاته الكاملة ، ج ٥ ، ص ٢٢٧ ، وكتابي ستالين ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ (الطبعة الانكليزية) .

(١٠) ستجري دراسة العلاقات الفكرية بين بوخارين ولينين في كتابي حياة لينين .

تفتنه الصرامة المنطقية الخاصة بالقضايا المجردة اكثر مما الوقائع المشوشة والمحيِّرة . لكن هذا الجفاف الفكري كان يقترن لديه برهافة فنان مرتعشة ، وبلطافة طبع ، وبحس دعابة متيقظ دائماً ، لا بل أحياناً شبه صبياني . إن صرامة فكره ، وميله الى التجريد والتساوق ، كانا يدفعانه لاتخاذ مواقف متطرفة : بعد ان كان، طيلة سنوات، زعيم « الشيوعيين اليساريين » ، انقلب موقفه جذرياً ليصبح زعيم جناح اليمين في الحزب .

كان بوخارين يتفق مع تروتسكي ، بقدر ما يختلف معه . خلال ازمة بريست - ليتوفسك ، كان قائد حزب الحرب وعارض « الصلح المخجل » . وخلال الحرب الاهلية ، كان يتعاطف مع معارضي الانضباط والتنظيم المركز الذي فرضه تروتسكي على الجيش الأحمر . ثم اقترب الى تروتسكي في اثناء الجدال حول النقابات . وكتروتسكي لا بل بحماس اشد بكثير ، دافع عن حقوق القوميات غير الروسية وناصر « الانحرافيين » الجيورجيين . لكن سواء كان على اتفاق أو على خلاف مع تروتسكي ، فقد كانت تشده اليه مودة عميقة . كانت شخصية تروتسكي تسحره[11] . ويروي تروتسكي انه في عام ١٩٢٢ ، وكان مضطراً لملازمة غرفته ، تلقى زيارة بوخارين الذي أنبأه بأول عارض شلل أصيب به لينين .

« في تلك الفترة ، كان بوخارين متعلقاً بي بالصورة الخاصة به تماماً ، نصف الهستيرية نصف الصبيانية . وبعد أن روى لي ما حدث للينين ، ارتمى على سريري وتمتم وهو يضغط عليَّ عبر الأغطية: « لا تمرض أنت أيضاً ، أرجوك ، لا تفعل . . . هناك رجلان لا يمكن أن أتصور موتهما دون هلع ، لينين وأنت » .

مرة اخرى ، بكى على كتف تروتسكي : « ماذا يفعلون بالحزب ؟ كدسة من الزبل »[12] . لكن مع هذا الصديق الوحيد في المكتب السياسي ، لم يكن في وسع تروتسكي ان يفعل الشيء الكثير ؛ لم يكن يمكن لنحيب بوخارين وبكائه أن يقدما له عوناً مجدياً لمواجهة الثلاثي .

علاوة على هؤلاء الأعضاء المثبتين في المكتب السياسي ، كان هناك العضوان الاحتياطيان : ريكوف ، رئيس المجلس الاعلى للاقتصاد القومي ، وكالينين الذي كان يحمل لقب رئيس الدولة . وكان الاثنان من البلاشفة « المعتدلين » . كلاهما من أصل

(١١) كتب بوخارين في روايته لأحداث ١٩١٧ : « تروتسكي المحامي الشعبي الرائع والبطولي لثورة اوكتوبر ، خطيب الثورة العاصف والذي لا يكل . . . » .

(١٢) تروتسكي ، حياتي ، ص ٤٧٨ .

فلاحي ، وقد احتفظا بالكثير من سلوك الموجيك وطبعه . كانا حسّاسين ، ربما اكثر من كل القادة الآخرين ، حيال ردود فعل روسيا الريفية ، ومخاوفها وآمالها ، وبعض مسبقاتها أيضاً . كلاهما كانا يرمزان إلى الوجه « الروسي الأصيل » للحزب وكل ما يستتبعه : عداء واضح للنزعة الفكرية ، حذر من كل ما هو اوروبي ، اعتزاز بأصلهما الاجتماعي ، ونوع من الفظاظة في السلوك . كل ذلك كان يجعلهما مهيأين ضد تروتسكي . نحن نعرف ان الفلاحين كانوا يتمسكون بالحرية المستعادة للتجارة والملكية الخاصتين ؛ وما كانوا يخافون شيئاً قدر خوفهم من العودة مجدداً الى شيوعية الحرب . وكان كالينين وريكوف يجعلان من نفسيهما الناطقين بلسان ذلك الخوف داخل الحزب ، ويشعران ، اكثر من أي شخص آخر ، أن مشاريع تروتسكي للتخطيط يمكن ان تعيد الى شيوعية الحرب . وحين كان تروتسكي يأخذ على المجلس الأعلى للاقتصاد القومي أنه ليس لديه فكرة موجّهة وأنه يمارس نوعاً سوفياتياً من الـ Laisser faire(*) ، إنما كان يقصد ريكوف . أما ريكوف ، فكان يرى ، من جهته ، في خطة اعادة تنظيم الغوسپلان التي اقترحها تروتسكي إساءة إلى صلاحياته ، وأكثر من ذلك ، تعدياً على مبدأ النيب الأساسي . كان الآن أول من يتهم تروتسكي بالعداء للفلاحين ، وهو اتهام سيصبح احدى الموضوعات الرئيسية للحملات ضد تروتسكي في السنوات اللاحقة[13] .

أما كالينين فكان يكنّ، على العكس، احتراماً عميقاً لتروتسكي وصداقة ظل يعبر عنها حتى في ذروة الصراع المعادي لتروتسكي . ربما يجب أن نذكّر، بهذا الصدد ، بأن تروتسكي الذي أخذ بالحسبان موقع كالينين الاستثنائي لدى الفلاحين عضد ترشيحه لمنصب رئيس الدولة[14] . ومع ذلك ، حين بدأ ريكوف يتكلم على عداء تروتسكي للفلاحين ، تأثر كالينين دون جدال ، لم يكن لديه رأي جازم حول مشاريع تروتسكي السياسية ، التي لم يكن يفهم منها ، فضلاً عن ذلك ، أي شيء ، لكنه خلص من دون ضغينة الى اعتبار انه لا شيء اعقل وأكثر احتراساً من إفشال تأثير تروتسكي ، تأثير يمكن أن يعرِّض للخطر « تحالف العمال والفلاحين » .

رجلان آخران ، هما دزرجنسكي ومولوتوف ، كانا في تلك الفترة مرتبطين بشكل وثيق بعمل المكتب السياسي ، مع انهما لم يكونا من أعضائه . إن دزرجنسكي ، قائد

(*) شعار الحرية الاقتصادية القصوى بعيداً عن أية رقابة : دعهم يعملوا (م)
(١٣) ١٣ كونفرنتسيارك ب ، ص ٦ - ٧ ؛ فسبرو زيبسكي سيزد سوفيتوف ، ص ١٠٠ - ١٠٢ .
(١٤ - تروتسكي ، سوش . ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٥٤٢ .

التشيكا والغبيبو ، كان الوحيد من كل مجموعة القياديين هؤلاء الذي لا ينتمي للـ « حرس القديم » . كان ناصل في البدء داخل الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي في مملكة بولندا وليتوانيا ، الذي أسسته روزا لوكسمبورغ ، ولم ينضم الى الحزب البلشفي إلا عام ١٩١٧ ، أي في الوقت ذاته تقريباً الذي انضم فيه تروتسكي . كان حزبه الاصلي تبنى تحت تأثير روزا لوكسمبورغ ، موقفاً مماثلاً لموقف تروتسكي تجاه البلاشفة : انتقاد البلاشفة كما المناشفة . وكان الحزب الوحيد داخل الأممية الذي ساند نظرية الثورة الدائمة لتروتسكي . وحتى بعد انضمام دزرجنسكي الى البلاشفة ، واصل معارضته للينين بصدد حقوق القوميات غير الروسية في تقرير مصيرها . وحاذياً مرة اخرى حذو روزا لوكسمبورغ ، أكد أن على الاشتراكية أن تتخطى ميول الأمم الصغيرة الى الانفصال لا أن تشجعها . ولقد قادته محاجّته الأممية ، هو البولوني ذو الأصل النبيل ـ ويا للمفارقة ! ـ الى مساندة سياسة ستالين المركزية القصوى والى التصرف حيال الجيورجيين كمدافع عن روسيا الجديدة « غير المنقسمة » .

إلا أن مواقف دزرجنسكي لم تكن حتى ذلك الحين ذات أهمية داخل الحزب ؛ فإذا كان شخصاً مهماً ، فبوصفه مسؤولاً رئيسياً عن الشرطة الثورية ، لا كقائد سياسي . وحين قرر البلاشفة تنظيم اللجنة فوق العادة للنضال ضد الثورة المضادة ، كما سميت في البدء الشرطة السياسية ، بحثوا عن رجل نظيف اليدين يتولى هذا « العمل القذر » ، فوجدوه في شخص دزرجنسكي . كان غير قابل للافساد ، منزهاً وشجاعاً . وكانت لديه في الوقت ذاته حساسية شعرية بالغة ، فهو ينفعل بسهولة حيال الضعف والألم(١٥) . لكنه كان في الوقت ذاته مخلصاً للثورة لدرجة انه اصبح متعصباً لها لا يتراجع أمام أي عمل إرهابي ، طالما يكون مقتنعاً بأنه ضروري للقضية . ولما كان ممزقاً باستمرار بين مثاليته الرفيعة والمجزرة التي كانت عمله اليومي ، متوتراً باستمرار ، حارقاً قواه الحية ، فقد اعتبره رفاقه « قديساً للثورة » غريباً ، من نوع سافونارولا . ولسوء حظه ، لم يكن طبعه غير القابل للإفساد يتلازم مع روح قديرة ونفّاذة . كانت خدمة الثورة حاجة بالنسبة اليه ، وقد توصل الى مماثلة الثورة مع حزبها الأصلي ، ثم الى مماثلة هذا الحزب مع قادته ، مع لينين وتروتسكي حتى تلك الأزمنة الأخيرة ، والآن مع الثلاثي الذي كان يرى وراءه الحرس القديم . واذا كان لم يخرج ، هو بالذات ، من صفوف الحرس القديم ، فهو لم يظهر إلا اندفاعاً اكبر للدفاع عن مصالح ذلك الحرس . وأصبح هكذا اكثر بلشفية من

(١٥) ان مراسلة دزرجنسكي الخاصة ، المنشورة في ز . بولا والكي ودوريات بولندية اخرى ، تعطي لمحة ممتازة عن طبعه .

البلاشفة القدامى ذاتهم ، مثلما بدا ، حسب لينين ، اكثر شوفينية روسية من الروس انفسهم ..

أما مولوتوف فيشكل مفارقة مدهشة مع دزرجنسكي ، إذا لم يكن في شيء ففي افتقاره للرونق واللون . قبل ان يبلغ الثلاثين عاماً ، كان غدا يحتل موقعاً رفيعاً في الهرم ، موقع سكرتير اللجنة المركزية قبل ان يغدو ستالين سكرتيراً عاماً ، ثم اشتغل تحت أوامر ستالين وكان معاونه الرئيسي . في تلك الفترة ، كانت محدوديته وبلادته الذهنية غدتا مضرب الأمثال في الحلقات البلشفية ، فقد كان يبدو مفتقراً لأية موهبة سياسية وعاجزاً عن أية مبادرة . كان يتكلم عموماً في جمعيات الحزب كمقدم تقارير بصدد نقاط ذات أهمية ثانوية ، وكانت خطبه تافهة مثل الماء المغلي . ومع أنه يتحدر من عائلة مثقفين ، وكان قريباً لسكريابين ، الموسيقي الكبير ، كان يبدو النقيض بالذات لرجل الثقافة والفكر ، رجلاً لا يمتلك أي فكر شخصي . ما كان شيئاً لولا أنه كانت له شرارته في عام ١٩١٧ ، هذه الشرارة التي غدت الآن مطفأة تماماً .

كان مولوتوف النموذج شبه المكتمل للثوري الذي غدا موظفاً ، وإذا كان حصل على ترقية فلأن تحوله كان كاملاً . كان يمتلك بعض الصفات الخاصة التي ساعدته على النجاح في المهنة : صبراً غير محدود ، واحتمالاً لا يتزعزع ، وخضوعاً أمام رؤسائه ، واجتهاداً لا يكل ، شبه آلي ، وكلها صفات كان يرى رؤساؤه فيها تعويضاً عن رداءته وانعدام كفاءته . ارتبط باكراً جداً بستالين ، كظل له ، وباكراً جداً ، أيضاً أحس بكره شديد ، ممتزج بالخوف ، حيال تروتسكي . يقال إنه في احد الأيام جاء تروتسكي الى السكريتارية ليبدي تذمره من خطأ ما ، وقد انهال سخرية على بيروقراطيي السكريتارية البليدين ، مشيراً بالاصبع تقريباً الى مولوتوف ، فغمغم مولوتوف : « رفيق تروتسكي ، يا رفيق تروتسكي ، لا يمكن لكل امرىء أن يكون عبقرياً »[١٦] .

هكذا، حتى قبل أن يبدأ الصراع على خلافة لينين ، وجد تروتسكي نفسه معزولاً عملياً داخل المكتب السياسي . اشتبه لأول مرة بعمل متواطأ عليه ضده في الأسابيع الأولى لعام ١٩٢٣ ، قبل عام من موت لينين ، حين رأى ستالين يهاجمه في جلسات المكتب السياسي بشراسة مسمومة ومستهجنة تماماً[١٧] . هاجم ستالين عناده في رفض منصب نائب الرئيس . تساءل حول مبررات تروتسكي ، مضمّناً أنه إذا كان هذا يرفض القيام

(١٦) باجانوف ، مع ستالين في الكرملين ، ص ١٣٩ .

(١٧) محفوظات تروتسكي .

بواجبه فلأنه لم يكن يريد ، من ضمن جشعه الطموح ، الاكتفاء بأن يكون أحد مساعدي لينين . ثم غمر تروتسكي باتهامات التشاؤم وسوء النية ، لا بل الانهزامية ، وكلها مرتكزة على أتفه الأسباب . هكذا للبرهان على « انهزامية » تروتسكي ضخمّ كثيراً ملاحظة أعطاها تروتسكي في الماضي ، في لقاء خاص بلينين ، قال فيها ان « الكوكو سينشد نهاية الجمهورية السوفياتية »(١٨) .

كان لدى ستالين عدة مقاصد . كان لا يزال يحسب حساب إبلال لينين وعودته المحتملة : باثارته مشكلة تعيين تروتسكي الذي اقترحه لينين وكان يأمل تسميم الخلاف بينهما . كان يعرف أنه لا شيء يمكنه أن يربك تروتسكي كالتلميح الى انه يسعى بجشع إلى الاستيلاء على مقعد لينين . وكان الحساب صحيحاً ، إذ جرح ذلك تروتسكي عميقاً . كان لديه مبررات أفضل من مبررات ستالين للأمل بعودة لينين ، لأن ذلك سيعني أن « كتلتهما » ستباشر عملها . في كل حال كـان تروتسكي يشعر بنفسه مطمئناً تماماً لموقعه في الحزب وفي البلاد ، فقد كان يعي تفوقه على خصومه لدرجة انه لم يكن يفكر حتى بالصراع من اجل الخلافة . لم يحاول كسب حلفاء وشركاء ، لا بل لم يتبادر الى ذهنه اللجوء الى المناورة . مع ذلك ، كانت الاتهامات والتلميحات تجعل من العبث بالنسبة لتروتسكي أن يدحضها بمقدار ما من الخطر أن يتجاهلها . وكانت نتيجتها وضعه في حالة سيئة باضطراره إلى أن ينتزع من نفسه تلك الانكارات وتلك الاعذار التي تجعلك تقول : من يبرر نفسه يتهمها . من يكون رجلاً في وضع يشبه وضع تروتسكي متهماً بالسعي وراء السلطة ، لا يكفي اي تكذيب من جانبه لتبديد الشك الذي نشأ ؛ عليه من اجل ذلك التخلي حالاً عن كل مسؤولية ، والمضي الى الصحراء والامتناع حتى عن التعبير عن رأيه . وبالطبع لم يكن تروتسكي مستعداً للانحاء . فمراراً وتكراراً ، كان قد أوضح أنه لا يرى اي دور مفيد بوجه خاص يمكنه ان يلعبه حين يكون واحداً من نواب الرئيس أولئك الذين تتداخل وظائفهم ، وبأن قسمة العمل داخل الحكومة مثيرة للرثاء ، « حيث كل مفوض يقوم بأشياء كثيرة ، وكل شيء يقوم به الكثير من المفوضين » . وأضاف في هذه المرة أنه لن يتصرف بصفته نائباً للرئيس بأي جهاز تنفيذي ، ولن يكون له أي تأثير . اجاب عن الاتهام بالتشاؤم والانهزامية : « في رأيي أن تعييني في منصب كهذا سوف يلغيني سياسياً » . لقد تلفظ في الواقع بتلك الملاحظة « حول الكوكو الذي ينشد نهاية الجمهورية السوفياتية » ، في يوم كان يحاول خلاله ان يقنع لينين بالآثار الكارثية للتبذير الاقتصادي ، وركام الورق البيروقراطي غير المفيد ؛ لكن ثمة حاجة للقول إنه كان يهدف الى تقديم

(١٨) الكوكو في الفولكلور السلافي هو عصفور مشؤوم الطالع .

العلاج لتلك المساوىء لا لإثارة الذعر[١٩] . في هذر من هذا النوع غاصت خصومات المكتب السياسي ، وتواصلت هكذا الأمور طوال اسابيع امتنع خلالها تروتسكي عن الهجوم منتظراً عودة لينين .

كان لديه ما يبرر الانتظار ، فالتقارير الطبية حول صحة لينين كانت مشجعة . وكان لينين يطلق من سريره سهماً وراء سهم ضد ستالين بتصميم لا هوادة فيه كان يدهش تروتسكي . فكّر تروتسكي بأن من الأنسب ترك المبادرة في هذا الصدد للينين ، وفي بداية شباط / فبراير كتب لينين بين ما كتب نقداً صارماً للرابكرين أوصله الى المكتب السياسي . ومع أن ستالين كان قد انسحب من الرابكرين إلا أن الهجوم أصابه شخصياً ، لأن لينين لم يكن يكتم رأيه في انه في ظل ستالين بالذات كان التفتيش العمالي فشلاً كاملاً . تكلم على اخطاء هيئة التفتيش بالتعابير نفسها تقريباً التي استخدمها تروتسكي : « الافتقار للثقافة » ، « الارتباك » ، « البلبلة والفوضى البيروقراطية » الخ ؛ ومرّر لينين كذلك بضع قرصات ضد « البيروقراطية التي تعيث كذلك فساداً في الحزب » . وقد اقترح في النهاية إصلاحاً للتفتيش العمالي ، وخفضاً لعدد عناصر مِلاكه وخلق لجنة للرقابة المركزية تتولى عدداً كبيراً من الوظائف المحفوظة حتى ذلك الحين للتفتيش . وقد طالب تروتسكي ، طوال عدة اسابيع ، بنشر انتقادات لينين ، إلا أن المكتب السياسي رفض الاستجابة[٢٠] .

في الوقت ذاته ، عرض تروتسكي مشروع إعادة تنظيم كاملة للجنة المركزية واجهزتها المختلفة ، مشروعاً دعمه بتحليل نقدي لوضع الحزب . كرر بإلحاح أن اللجنة المركزية فقدت التماس مع قاعدة الحزب وتحولت الى آلة بيروقراطية مقطوعة عن الواقع . كانت تلك هي المشكلة التي ستنفجر بصددها المساجلة علناً في الخريف اللاحق : لكن تروتسكي طرحها منذ كانون الثاني / يناير وشباط / فبراير امام المكتب السياسي بصراحة اكثر قساوة ايضاً من تلك التي سيستخدمها فيما بعد في النقاش العلني . كان مشروعه يختلف في بعض التفاصيل ، كعدد اعضاء اللجنة المركزية وعلاقاتها مع لجنة الرقابة المركزية، عن مشروع لينين. وقد أبرز الثلاثي هذه الفروق، قائلاً إن تروتسكي الذي لم يكتف بإهانة لينين إذ رفض ان يصبح نائباً له يحاول أيضاً أن يحرف الحزب عن خطط لينين التنظيمية. إذاك بالذات جرى إعلام الكوادر الحزبية العليا بالصراع

(١٩) انظر صحف كانون الثاني / يناير ١٩٢٣ ، في محفوظات تروتسكي .

(٢٠) لينين ، سوش . ، ج ٣٣ ، ص ٤٤٠ ، نجد رسالة تروتسكي الى كامل اعضاء اللجنة المركزية ، في ٢٣ شباط / فبراير ١٩٢٣ ، في المحفوظات . (انظر ايضاً مذكرات فوتييفا في فويروزي إستوريي ك ب س س ، عدد ٤ ، ١٩٥٧) .

داخل المكتب السياسي. ولا شيء كان يمكنه أن يضعف في نظرهم موقع تروتسكي كخليفة مفترض للينين، اكثر من حملة إشاعات تصور تروتسكي معارضاً لينين بصدد كل المشكلات تقريباً. كانت كلمات الثلاثي محسوبة لتغذية حملة من هذا النوع، وقد تم تسجيلها في المستندات الأصلية لجلسات المكتب السياسي، التي تم إبلاغها، على سبيل التفحص، لأعضاء اللجنة المركزية الذين لم يتأخروا في كشف أسرارها لأصدقائهم ومرؤ وسيهم.

كانت الحملة قد اطلقت منذ بعض الوقت حين رد تروتسكي عليها للمرة الأولى. ففي ٢٣ شباط / فبراير ١٩٢٣، وجه رسالة الى اللجنة المركزية يقول فيها: « بعض الاعضاء . . عبروا عن رأيهم في أن خطط الرفيق لينين تهدف للحفاظ على وحدة الحزب، بينما تهدف خططي، في نظرهم، لاحداث الشقاق». قال تروتسكي إن هذا التعريض قد هيأته وركّبته زمرة كانت في الواقع تخفي عن اعين اعضاء الحزب كتابات لينين، وكشف ما الذي حصل داخل المكتب السياسي: « في حين أكدت الأكثرية . . . أن من المحال حتى نشر رسالة لينين، فإني . . . لم أصر فقط على نشرها بل دافعت عن الافكار الاساسية في الرسالة، أو لمزيد من الدقة، عن الافكار التي بدت لي أساسية». وأضاف: « إني احتفظ لنفسي، في الختام، بحق وضع الوقائع في علم الحزب بكامله، إذا غدا ذلك ضرورياً لدحض تعريض ما وإفحام أصحابه الذين لم يتمكنوا من الاستمتاع بإفلات كامل من القصاص إلا لأني امتنعت دائماً تقريباً عن الرد عليهم»[٢١]. كان « الكشف» سيتم في المؤتمر الثاني عشر للحزب، في نيسان / أبريل. وكان التهديد على طريقة تروتسكي: تبعاً للقوانين غير المكتوبة للصدق والاستقامة داخل الحزب، كان يشعر بنفسه ملزماً بإبلاغ خصومه بكل عمل يعزم أن يبادر اليه ضدهم. كان يحرم بذلك نفسه من مغنم المفاجأة ويعطي وقتاً لخصومه كي يتفادوا الضربة؛ وكان ذلك هو العكس تماماً لطرق ستالين المعتادة. ومع ذلك لم يكن تروتسكي ينوي وضع تهديده موضع التنفيذ. كان يحاول فقط أن يكبح ستالين، ويكسب الوقت، بانتظار عودة لينين. وقد حصل على نتيجة فورية: في ٤ آذار / مارس نشرت البرافدا اخيراً هجوم لينين على الرابكرين.

في ٥ آذار / مارس، تلقى تروتسكي، الذي كان يلازم هو أيضاً فراشه، رسالة من لينين ذات أهمية وإلحاح بالغين[٢٢]. كان لينين يرجوه أن يتدخل لصالح « الانحرافيين

(٢١) مخطوطات تروتسكي.

(٢٢) حياتي، ص ٤٨٩: المدرسة الستالينية في التزوير، ص ٦٩ ـ ٧٠، الطبعة الانكليزية.

الجيورجيين » في الجلسة اللاحقة للجنة المركزية ، وكان ذلك أول اتصال بين تروتسكي ولينين منذ حديثهما في كانون الاول / ديسمبر بصدد « الكتلة » ؛ كان ذلك ايضاً أول مؤشر لتروتسكي حول تبديل لينين لموقفه حيال القضية الجيورجية . كتب لينين : « إن قضيتهم (أي قضيـة الانحرافيـين) هي الآن عرضـة لـ « ملاحقـات » ستالـين ودزرجنسكي ، ولا أستطيع الوثوق بتجردهما . لا بل العكس هو الصحيح . إذا وافقت على الاضطلاع بالدفاع عن هذه القضية سترتاح نفسي » . وضم لينين الى رسالته نسخة عن ملاحظاته حول سياسة ستالين تجاه القوميات (ملخصة في الفصل السابق) . تلك الملاحظات أعطت تروتسكي للمرة الأولى فكرة عن الاستبسال الذي كان لينين ينوي ان يخوض به هجومه ؛ إن انتقادات لينين بصدد التفتيش العمالي تبدو لطيفة لدى المقارنة . وأضاف سكريتارو لينين بأنه أعد ، وفقاً لتعبيره الخاص به « قنبلة حقيقية » ضد ستالين سيفجرها في المؤتمر . علاوة على ذلك ، وفي انتفاضة اخيرة ومنهكةٍ لادراكه ، طالب تروتسكي بإصرار بألا يُظهر ضعفاً أو تردداً ، وبألا يقبل أي « مساومة عفنة » قد يقترحها ستالين ، وأخيراً وبوجه خاص ، بألا يفعل شيئاً ينبه ستالين وشركاءه إلى الهجوم . في اليوم التالي ، أرسل بنفسه رسالة الى « الانحرافيين » الجيورجيين يعبر لهم فيها عن تعاطفه ويعدهم بالكلام لصالحهم . في الوقت ذاته ، علم تروتسكي من كامينيف بأن لينين هدد ستالين في رسالة بـ «قطع كل علاقاته الشخصية به»(٢٣). كان ستالين قد تصرف بشكل عديم اللياقة تماماً حيال كروبسكايا، حين كانت تجمع للينين معلومات حول القضية الجيوروجية. ولينين الذي علم بذلك تمكن بصعوبة من كظم غيظه واشمئزازه. قالت كروبسكايا لكامينيف إنه قرر «تحطيم ستالين سياسياً»:

أيّ أرضاء معنوي ، وأي انتصار ، كان ذلك بالنسبة لتروتسكي . فكما في العديد من المناسبات الأخرى ، كان لينين ينتهي الى الاعتراف بأن تروتسكي كان على حق . وكما في أغلب الاحيان سابقاً ، كان بعد النظر الجسور لتروتسكي قد حكم عليه لفترة من الوقت بالانعزال السياسي ، وأثار خصومة بين لينين وبينه . وكما أن الأحداث انتقمت له وقادت لينين إلى استنتاجات شبيهة باستنتاجاته ، أولاً في قضية الغوسپلان ، ثم في قضية التفتيش العمالي ، وفي « بيروقراطية الحزب » ، كذلك جاءت الوقائع تعطيه اليوم الحق في القضية الجيورجية . كان تروتسكي متأكداً من أن الثلاثي قد تحطم وانهزم ستالين . كان هو ظافراً

(٢٣) ـ قرأ خروتشيف هذه الرسالة في المؤتمر العشرين : وهي واردة في نص خطابه ، كما جرى نشره في الولايات المتحدة وبريطانيا ، لكننا لا نجده في الجزء ٣٦ من اعمال لينين ، ولا في العدد ٩ من كومونست (١٩٥٦) . ولم يكن هنالك غير فوتييفا تشتبه بوجود هذه الرسالة .

ويستطيع أن يملي شروطه . وكان خصومه يفكرون مثله ، وحين أتى كامينيف في السادس من آذار / مارس ليلتقي تروتسكي من طرفهم ، كان منهاراً : مستعداً للخضوع وراغباً في تهدئة تروتسكي[٢٤] .

لكن لم يكن هنالك حاجة كبرى للتهدئة ، وتروتسكي منتصراً سوف يظهر شهامة ورحمة . وإذ نسي تحذير لينين ، سارع الى عقد « تسوية عفنة » . كان لينين ينوي إرجاع ستالين ودزرجنسكي إلى القاعدة ، لا بل طرد أورجونيكيدزه (احد تلامذته المفضلين) من الحزب « على الأقل لمدة سنتين »عقاباً له على فظاظته حديثاً في تفليس . وطمأن تروتسكي كامينيف حالاً ، قائلاً له إنه لن يقترح ، من جهته ، عقوبات بهذه القساوة . « أنا ضد نزع يد ستالين ، ضد طرد أورجونيكيدزه وضد إزاحة دزرجنسكي . . . لكنني متفق مع لينين حول الجوهر[٢٥] . كل ما كان يشترطه هو ان يبدّل ستالين أساليبه ، وأن يتصرف باستقامة حيال زملائه ، ويعتذر لكروبسكايا ويتوقف عن إساءة معاملة الجيورجيين . كان ستالين هيأ لتوه « موضوعات » ليعرضها على مؤتمر الحزب ، بصدد القوميات غير الروسية ؛ وكان سيتوجه في هذا الصدد إلى المؤتمر كمقرر للجنة المركزية . وإذ كـان يريد تبرير موقفه ، ألح كثيراً على إدانة « القوميات المحلية » . طلب تروتسكي أن يعيد ستالين كتابة خطابه ، وأن يضمنّه ادانة للشوفينية الروسية الكبرى ولروسيا « الواحدة وغير المنقسمة » ، وأن يضمن رسمياً للجيورجيين والاوكرانيين بأن حقوقهم سيتم احترامها بعد الآن . لم يكن يطلب شيئاً آخر من ستالين ، لا أن يقر بذنبه ولا أن يعترف . وعلى اساس هذه الشروط ، كان مستعداً لترك ستالين في الامانة العامة .

وبالطبع ، كان ستالين مستعداً ، على اساس هذه الشروط ، للرضوخ أو على الأقل لتصنُّع الرضوخ . فأن يجد ستالين نفسه على حافة الدمار السياسي ، وأن يشعر بانفجار غضب لينين ضده ، ثم يرى في هذا الوقت بالذات تروتسكي يمد اليه يد الرحمة ، كل ذلك ، كان بالنسبة لستالين فلتة من فلتات الحظ لم يكن يمكن إلا أن يكون شاكراً لها . وقد وافق فوراً على شروط تروتسكي ، وأعاد كتابة « موضوعاته » مضمناً إياها كل التعديلات المطلوبة . أما الشروط الأخرى ، فقد اوضح بصددها أن كل الإساءات التي صدرت عنه ، كل الضربات التي وجهها ، كان سببها حالات سوء فهم يرغب جداً في تبديدها .

وفي حين كان كامينيف يواصل مهماته كوسيط ، أصيب لينين بنوبة جديدة عاش

(٢٤) تروتسكي حياتي ، ص ٤٩١ .

(٢٥) استشهاد مذكور .

بعدها عشرة اشهر اخرى ، لكن مشلولاً ، عاجزاً معظم الوقت عن الكلام ، ومستغرقاً في نوبات فقدان للوعي كانت تمضّه أشد المضض لا سيما أنه كان يدرك ، في فترات وعيه ، إدراكاً تاماً ما يحاك حوله . إن نبأ انتكاس صحة لينين أثلج للحال صدر الثلاثي ، ولم تمر ايام على خضوعهم أمام تروتسكي باتّضاع ، حتى عادوا فاستأنفوا الاعداد لتصفيته ، وذلك بنشاط مضاعف ، لكن باحتراس اشد . أما تروتسكي فكان يحس بنفسه في وضع أفضل ، ذلك أنه كان لا يزال يأمل أن يبلّ لينين من مرضه . في كل حال ، كانت بين يديه رسائل لينين ومخطوطاته . ولو حملها معه الى المؤتمر ، ولا سيما الملاحظات حول القضية الجيورجية ، لما كان للحزب ظلٌّ للشك حول موقف لينين . وكان يعتقد ان الثلاثي يعرف ذلك ، وسيحترم المساومة خشية كشفٍ للحقيقة .

كان الثالوث يعرف أن تروتسكي وعد لينين بالدفاع عن « الانحرافيين » الجيورجيين وبتعريف المؤتمر بوجهات نظر لينين . (كان كامينيڤ قد قرأ الملاحظات حول جيورجيا) . كان اهتمام ستالين الرئيسي الآن هو دفع تروتسكي للاخلال بوعده . ألم يفعل هو (اي ستالين) كل ما طلبه تروتسكي ؟ لقد خضع . لذا وافق تروتسكي على عرض ملاحظات لينين على المكتب السياسي وترك المكتب يقرر اذا ينبغي ابلاغها للمؤتمر ، وبأي شكل . وقرر المكتب السياسي ألا ينشر الملاحظات في أية حال وألا يكشف مضمونها إلا لمندوبين مختارين ، وفي أقصى درجات السرية . لم يكن ذلك هو السلوك الذي انتظره لينين من تروتسكي حين طلب اليه ان يبقى شرساً لا يلين ، وأن يتكلم في المؤتمر بصراحة مطلقة وألا يقبل بمصالحة وقتية فاسدة . لكن كل هذه التحذيرات وتلك التنبيهات لم تنفع في شيء ، لأن تروتسكي ، ذا المزاج الشهم ، ساعد الثالوث على ان يخفي عن العالم أن لينين اعترف من على فراش موته بما كان يشعر به من خجل واحساس بالذنب إزاء انبعاث الروح القيصرية في روسيا البلشفية . وسوف تبقى ملاحظات لينين بصدد السياسة تجاه القوميات غير الروسية مجهولة لدى الحزب طوال ثلاثة وثلاثين عاماً [٢٦] .

وإذا نظرنا الآن إلى الوراء ، يبدو لنا سلوك تروتسكي مجنوناً بشكل لا يمكن تصديقه . كان خصومه يتخذون موقفاً وكانت تبدو كل خطوة من خطواته محسوبة لتسهيل عملهم . وبعد ذلك بسنوات ، لاحظ بمرارة الأسف انه لو تكلم إلى المؤتمر الثاني عشر ، مدعوماً بسلطة لينين ، لهزم ستالين على الأرجح في الحاضر ، لكن كان يمكن لستالين مع

---

(٢٦) نشرت للمرة الاولى في كومونست ، في حزيران / يونيو ١٩٥٦ .

الوقت أن يقف من جديد على قدميه ويربح[٢٧] . والحقيقة ان تروتسكي اعتبر من غير المفيد مهاجمة ستالين لأنه كان واثقاً من نفسه . فما أحد من معاصري تلك الفترة ، وهو أقل من أي شخص آخر ، كان يلاحظ في ستالين عام ١٩٢٣ ، الشخص الكبير والخطر الذي سيتحول إليه . كان اعتقد تروتسكي بمزحة سمجة لو قيل له إن ستالين العنيد ، والمداجي ، لكن كذلك البائس ، والعاجز ، هو منافسه ، وسيغدو منافسه . لن يقلق بشأنه ، ولن يتعب نفسه للانحناء إلى مستواه أو حتى لمستوى زينوفييف ؛ وبوجه خاص لم يكن مستعداً لاعطاء الحزب انطباعاً بأنه ، هو ايضاً ، يشارك في اللعبة غير اللائقة التي كان يلعبها تلامذة لينين حول نعش المعلم الذي لا يزال فارغاً . كان سلوك تروتسكي أخرق وغير معقول بقدر ما يكون كذلك سلوك شخصية مأساوية تجد نفسها بغتة في هرجة من مستوى منحط .

وكان الأمر يتعلق حقاً بهرجة . حين اجتمع المكتب السياسي عشية المؤتمر ، اقترح ستالين ان يلقي تروتسكي باسم اللجنة المركزية التقرير السياسي ، وهو دور حُفظ دائماً حتى ذلك الحين للينين . ورفض تروتسكي ، قائلاً إنه ينبغي لستالين ان يكون هو المقرر ، لأنه الامين العام . فأجاب ستالين بكل تواضع وخشوع : « كلا ، لن يفهم الحزب . . . ينبغي أن يقدم التقرير العضو الأكثر شعبية في اللجنة المركزية »[٢٨] . إن « العضو الأكثر شعبية » ، الذي جرى اتهامه قبل اسابيع بالسعي بجشع خلف السلطة ، بذل يومذاك قصارى جهده ليبرهن ان الاتهام كان من دون اساس . بذلك جعل من السهولة بمكان أن يطيحه الثلاثي . ولقد قرر المكتب السياسي ان يكون زينوفييف هو من سيتلو التقرير الذي اعتاد الحزب سماعه من فم لينين .

حين انعقد المؤتمر الثاني عشر اخيراً ، في اواسط نيسان / أبريل ، كان افتتاحه مناسبة لتظاهرة عفوية من التبجيل لتروتسكي . كالعادة ، قرأ الرئيس على المؤتمر التحيات التي كانت تتدفق من خلايا الحزب ، من النقابات ، من مجموعات العمال والطلاب في البلاد بأسرها . كل الرسائل تقريباً كانت تحيي لينين وتروتسكي . من حين لآخر فقط ، كانت التحيات تذكر زينوفييف وكامينيف ، أما اسم ستالين فلم يرد ذكره ابداً . لقد استغرقت قراءة الرسائل عدة جلسات ، ولم يكن هنالك ادنى شك في انه لو كان على الحزب ان يختار آنذاك خليفة لينين ، لكان اختار تروتسكي[٢٩] .

---

(٢٧) تروتسكي ، حياتي ، ص ٤٨٧ .

(٢٨) تروتسكي ، ستالين ، ص ٣٦٦ . (الطبعة الانكليزية) .

(٢٩) ١٢ سييزد ر ك ب) ، ص ٨٩ ، ٤٨٨ ، ٤٩٦ ، ٢ ٥ - ٥٠٣ .

فوجىء الثلاثي وانزعج ، لكنه لم يكن يخشى الشيء الكثير . لم يكن لينين هنالك ليفجر قنبلته ، وتروتسكي الذي وعد بعدم إطلاقها وفى بوعده . لم يعط في المؤتمر أدنى اشارة إلى خلاف ما بينه وبين الثالوث وأبقى نفسه في المؤخرة . في غضون ذلك ، تحرك الثالوث في الكواليس . قام عملاؤه بإبلاغ المندوبين بالأزمة داخل القيادة وقلبوا ضد تروتسكي التوقير الذي قوبل به للتو . بذلوا جهدهم لإقناع مندوبي الأقاليم بالأخطار التي أكدوا أن شعبية تروتسكي الخارقة تنطوي عليها : ألم تحمل بونابرت « حفار قبر » الثورة الفرنسية الى السلطة تهليلات من هذا النوع ؟ هل يمكن الوثوق بأن تروتسكي المتصلف والطموح لن يسيء استغلال شعبيته ؟ أليس من المفضل ، في غياب لينين ، قيام « قيادة جماعية » لرجال أقل بروزاً ، لكن يعرفهم الحزب ويمكن ان يثق بهم ، بدل سيطرة شخص واحد ؟ إن اسئلة كهذه ، مهموساً بها ، متمتماً بها بنبرة قلقة ، جعلت الكثير من المندوبين مفعمين بالخوف . كان البلاشفة معتادين على الاستناد الى الثورة الفرنسية الكبرى ، وكان فكرهم يلجأ تلقائياً إلى المقارنات التاريخية . كانوا يبحثون ، عند الحاجة ، بين قادتهم عن الدانتون أو البونابرت المحتمل الذي قد يهدد ثورتهم في يوم من الأيام . بين اولئك القادة ، لم يكن احد يشبه دانتون قدر تروتسكي ؛ وكـان يبدو أيضاً ان قناع بونابرت لا يناسب شخصاً بقدر ما يناسبه . كان تفوق تروتسكي يشكل خطراً في نظر عدد كبير من البلاشفة القدامى . ولدى التفكير ، كان يبدو اكثر حذراً ان يقود الحزب فريق من الرفاق ربما يكون أقل بريقاً ، لكنه موثوق اكثر(٣٠) .

برهن الثالوث عن تواضع مثابر . أعلن أعضاؤه أن سندهم الوحيد للتمتع بثقة الحزب هو كونهم التلامذة المجربين والمستقيمين للينين . وفي هذا المؤتمر بالذات دشن زينوفييف وكامينيف تمجيد لينين وتعظيمه اللذين سيصبحان فيما بعد عبادة من عبادات

---

(٣٠) احد النقاد حلل كتابي ستالين حيث أشرت الى هذه الحملة (ص ٢٧٣ ، الطبعة الانكليزية) فكتب : « أن يكون بعض الشيوعيين اعتبروه (أي تروتسكي) بونابرت محتملاً هو اكتشاف حديث لكتّاب كالسيد دويتشر . . . لم يفكر احد بذلك في تلك المرحلة ». (ج . ل . أرنولد في ـ القرن العشرون ، تموز / يوليو ١٩٥١) . لا يمكن لكاتب ان يتكلم دائماً ، مستنداً الى براهين ، على « حملة اشاعات كاذبة » ؛ لكني تكلمت في كتابي ستالين على ما سمعته بالتناقل في موسكو ، حين كانت ذكرياتي لا تزال طازجة. في غضون ذلك ، كان الفرد روسمر نشر مذكراته ، روسمر الذي كان عام ١٩٢٣ ، في موسكو بصفته عضواً في الهيئة التنفيذية للكومنترن ، وكان بوجه خاص على علم تام بما يتعلق شخصياً بتروتسكي . هو ذا ما كتبه : « لكن اليوم (عام ١٩٢٣) إن ضجة يجري تداولها في كل مكان بعناد ، هي مؤشر لمناورة معدة بإتقان . . . » « تروتسكي يعتبر نفسه بونابرت » أو « يريد تروتسكي ان يصنع من نفسه بونابرت » . الضجة تسري في كل البلاد . جاء يكلمني في ذلك شيوعيون وصلوا الى موسكو . فهموا ان شيئاً ما يجري اعداده ضد تروتسكي ورجوني أن أنبهه (روسمر ، موسكو في ظل لينين ، ص ٢٨٣) . نجد كذلك اشارات الى « حملة الاشاعات الكاذبة » هذه في الأدب المعاصر . في كتاب إيستمان ، **Since Lenin Died** ، خصص فصل كامل لهذا الحادث ، بعنوان : «التكتل المعادي للبونابرتية » .

الدولة[٣١] . كانا ، بالتأكيد ، صادقين جزئياً ، فذلك كان المؤتمر البلشفي الأول من دون لينين ، وكان الحزب بدأ يشعر بنفسه يتيماً . وقد لعب المثالثون على هذه العاطفة ، عارفين أن تمجيد لينين سينعكس على اولئك الذين كان يعرف المؤتمر أنهم تلامذته الأكثر قدماً . إلا أنهم بذلوا جهداً كبيراً لإقناع المؤتمر بأن لينين يتكلم بفمهم . كان المندوبون منزعجين ، وقد استقبلوا زينوفييف بصمت مطبق حين صعد الى المنبر ليقدم تقريره . وإذ عبر عن عبادته بتعابير مبالغ بها لا بل مضحكة ، أثاراشمئزاز العقول الواعية والنقدية ، لكن لما كان هؤلاء أقلية فقد امتنعوا عن الاحتجاج مخافة ألا يفهمهم أحد .

تابع المثالثون تحركهم مطلقين دعواتهم إلى الانضباط والوحدة والاجماع . فالحزب الذي حرم من قائده ، عليه أن يرص صفوفه . هتف زينوفييف : « كل نقد لخط الحزب ، حتى إذا زعم انه نقد « من اليسار » ، هو نقد منشفي موضوعياً »[٣٢] . كانت تلك التحذيرات موجهة الى كولونتاي وشليابنيكوف وانصارهما . لا بل قال لهم زينوفييف ، بعد ان ترك لنفسه العنان ، إنهم أكثر ضرراً من المناشفة . هذه الكلمات ، الموجهة جهاراً ضد المعارضة العمالية ، كانت حبلى بالتضمينات كانت تشير الى أي نوع من الاتهام يعرِّض كل شخص يوجه نقداً نفسه . ان المبدأ الذي يرى ان كل نقد سيتم اعتباره مسبقاً هرطقة منشفية كان مبدأ جديداً . لا شيء من هذا القبيل قيل من قبل . مع ذلك ، كان يمكن استنتاج هذا المبدأ من محاجة زينوفييف في المؤتمر السابق : ألم يقل إنه بنتيجة احتكار البلاشفة السياسي فإن هؤلاء يضمون في اطارهم حزبين أو ثلاثة احزاب كامنة ، وأن أحد هذه الأحزاب مؤلف من « مناشفة غير واعين » إن زينوفييف ، غير المهتم إلا بالظروف الفورية للصراع من اجل السلطة ، والمندفع بثقته الخاصة به ، مضى ابعد ايضاً وقدم مسبقاً أي معارض للمجموعة الحاكمة كناطق بلسان أولئك « المناشفة غير الواعين » . كان ينتج عن ذلك ان القادة ، أيّاً كانوا ، من حقهم ، لا بل من واجبهم ، ان يحطموا أيّ معارض ، داخل الحزب ، كما جرى تحطيم المعارضة المنشفية الحقيقية . هكذا توصل زينوفييف الى صياغة ما سيكون قانون القمع الذاتي البلشفي .

هذا النداء الى الانضباط وهذا التصور الجديد للوحدة ، لم يمرا دون إثارة احتجاجات . صعد اعضاء المعارضة العمالية وآخرون إلى المنبر لينددوا بالثالوث ويطالبوا بحله . احتج لوتوفينوف ، وكان عاملاً شهيراً في الحزب ، ضد « العصمة البابوية »

---

(٣١) أنظر خطابي زينوفييف وكامينيف في الافتتاح في ١٢ سييزد ر ك ب (ب)
(٣٢) المرجع المذكور ، ص ٤٦ ـ ٤٧.

والحصانة حيال كل نقد اللتين طالب بهما زينوفييف لصالح المكتب السياسي(٣٣) . وأكد كوسيور ، وهو بلشفي قديم آخر ، ان زمرة تقود الحزب ، وان الأمانة العامة تلاحق بحقدها الناقدين ، وان ستالين قام خلال سنته الأولى في الأمانة بنقل قادة منظمات بأهمية منظمتي الأورال وبتروغراد واضطهادهم ، وبأن كل خطبه حول القيادة الجماعية لم تكن غير مكر وتضليل . ووسط الجلبة العامة ، طالب كوسيور بتكوين مجموعات داخل الحزب (٣٤).

إلا أن المثالثين سيطروا مع ذلك على المؤتمر : ترأسه كامينيف ، وحدد زينوفييف خطه السياسي ، وعالج ستالين آلة الحزب . ولم يكتموا سر تشاركهم : فجواباً عن تحدي المعارضة العمالية ، اعترفوا بوجود الثالوث بغطرسة(٣٥) . لكن بدأ يظهر تبدّل داخل الثالوث: كان زينوفييف يفقد فيه رجحانه . وقع ضحية خداعه فخسر العديد من المندوبين واجتذب الى شخصه معظم الهجمات الصاعدة من القاعة . أما ستالين ، الأكثر رزانة ومهارة ، فقد زاد من رصيده . اتجهت أعين المندوبين باعجاب اليه حين امتدحه نوجين وكان عضواً قديماً في اللجنة المركزية ، نافذاًومعتدلاً ، ومجد عمل القيادة المّحي ، لكن الحيوي ، الذي انجزه في الأمانة العامة . قال نوجين : « من حيث الجوهر ، تشكل اللجنة المركزية الجهاز الاساسي الذي هو مصدر كل النشاط السياسي في بلادنا . إن مكتب الامانة هو العنصر الأهم في هذا الجهاز »(٣٦) . لا بل اشار بعض المستائين الى رشاد ستالين مقابل المبالغة الديماغوجية لدى زينوفييف .

خرج موقع ستالين معززاً من الجدال حول السياسة تجاه القوميات غير الروسية ، الذي كان يمكن أن يؤدي إلى دماره . كان الجيورجيون وصلوا الى موسكو متوقعين الحصول على الدعم العظيم الذي وعدهم به لينين(٣٧) ، إلا أن أملهم خاب . وقد دافع عنهم راكوفسكي ، رئيس حكومة اوكرانيا ، الذي لم يكن له نفوذ جدي في موسكو . سأل : هل ستشرع موسكو في ترويس القوميات الصغيرة ، كما سبق أن فعل رجال الدرك القيصريون ؟ وتبلبل الجيورجيون حين سمعوا ستالين بالذات ينتفض بنقمة متعففة ضد

---

(٣٣) المرجع المذكور ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٣٤) المرجع ذاته ، ص ٩٢ ـ ٩٥ . أشار خطيب آخر إلى منشور غفل تدوول أثناء المؤتمر وكان يطلب عزل الثالوث من اللجنة المركزية . وقد زعم أن المعارضة العمالية مسؤولة عن تحرير المنشورات . المرجع ذاته ، ص ١٣٦ .

(٣٥) ستالين ، سوش ، ، ج ٥ ، ص ٢٢٧ .

(٣٦) ١٢ سييزد ر ك ب (ب) ص ٦٣ .

(٣٧) المرجع ذاته ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

كل شكل من أشكال اضطهاد القوميات غير الروسية ، وحين لاحظوا أن ستالين أدخل في موضوعاته تنديدهم الخاص بهم بالشوفينية الروسية الكبرى . هذا المشهد الذي كان نتيجة المساومة المعقودةبين تروتسكي وستالين ، ظهر لهم كاستهزاء بشكواهم واحتجاجاتهم . وباطلاً طلبوا أن تقرأ على الأقل ملاحظات لينين علانية[٣٨] ، فأعضاء المكتب السياسي أبدوا تكتماً ملغزاً ، ولم يقطع مؤامرة الصمت غير بوخارين . لقد دافع عن القوميات الصغيرة ، وفضح ادعاء ات ستالين ، وذلك في خطاب كبير ملتهب سيكون آخر صيحة له كزعيم للشيوعية اليسارية . هتف قائلاً إن استنكار الشوفينية الروسية الكبرى على لسان ستالين ليس سوى نفاق صرف ، وبأن جو المؤتمر ، حيث كانت نخبة الحزب مجتمعة ، يبرهن على ذلك : كل جملة يتم اطلاقها من على المنبر ضد النزعة القومية الجيورجية أو الأوكرانية كانت تثير تصفيقاً مجنوناً ، بينما لم تكن اكثر التلميحات براءة الى الشوفينية الروسية الكبرى تثير غير السخرية وتلاقي غير الصمت المطبق[٣٩] . وبصمت مطبق استقبل المندوبون خطاب بوخارين بالذات . وستالين ، الذي رفع موقف المؤتمر معنوياته ، كان يستطيع الآن أن يسمح لنفسه بتقزيم معنى هجمات لينين على سياسته وأهمية تلك الهجمات ، وبإنزال الهزيمة بالـ « انحرافيين » .

تابع تروتسكي المناقشات ببرودة أعصاب ، وتغيّب في بعض الأحيان . لقد تقيّد بدقة بالغة ببنود مساومته مع الثالوث وبمبدأ « التضامن الوظيفي » للمكتب السياسي . لم يحل هذا المبدأ مع ذلك دون أن يوجه إليه زينوفييف بعض الانتقادات القارصة حول « هاجس التخطيط »[٤٠] لديه . إلا أن تروتسكي لم يرد على ذلك ، وبقي وجهه فاقد التعبير حين طالب قادة المعارضة العمالية بحل الثالوث وهاجموا الأمانة العامة ؛ لم يعط أية إشارة تشجيع للجيورجيين المحبطين ، وحين تم افتتاح النقاش حول القوميات ، غادر القاعة قائلاً إنه سيعد تقريره الخاص الى المؤتمر[٤١] .

وحين تكلم تروتسكي أخيراً ، في ٢٠ نيسان / أبريل ، ترك جانباً المشكلات التي أثارت الكثير من الانفعالات ، وتكلم حصراً على السياسة الاقتصادية[٤٢] . ولا شك ان

(٣٨) ١٢ سييزد ر ك ب (ب) ، ص ٥٢٨ ـ ٥٣٤ .

(٣٩) المرجع ذاته ، ص ٥٦١ ـ ٥٦٥ .

(٤٠) المرجع ذاته ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٤١) ١٢ سييزد ر ك ب (ب) ، ص ٥٧٧ . إلا أن تروتسكي هاجم سياسة ستالين في جيورجيا على صفحات البرافدا مرة اخرى بعد شهر واحد ، لكن دون أن يورد اسمه . كتب أنه إذا كانت الشوفينية الروسية الكبرى ستفرض في القوقاز ، فسيبدو الغزو السوفياتي للقوقاز كما لو كان « الجريمة الكبرى » سوش . ، ج ٢١ ، ص ٣١٧ـ ٣٢٦ .

(٤٢) المرجع ذاته ، ص ٢٨٢ ـ ٣٢٢ .

ذلك الموضوع كان بالغ الأهمية ، ذلك الذي كان يعتبره تروتسكي مفتاح كل المشكلات الأخرى. توفرت له أخيراً المناسبة ليعرض بشكل كامل ، أمام حضور على مستوى قومي ، تلك الأفكار التي لم يفصلها حتى ذلك الحين إلا بصورة غير كافية ، وفي حلقة القادة المقفلة . كان بنداً من بنود صفقته مع الثالوث أن يُسمح له بتقديم افكاره على أنها تعبر عن السياسة الرسمية ، مع ان المكتب السياسي لم يكن موافقاً على تلك الأفكار اكثر مما كان موافقاً على سياسة ستالين حيال القوميات غير الروسية . كان يعلق أقصى الأهمية على التمكن من إطلاق سياسته الاقتصادية بصفتها « خطاً » رسمياً للحزب ؛ ومن المرجح أن يكون ذلك هو ما كان يبرر بنظره التنازلات التي قدمها للثالوث . وفي الواقع ، لم يناقضه أي عضو من المكتب السياسي بشكل مكشوف حين كان المؤتمر يناقش تقريره .

كان تروتسكي يطلب الى الحزب ، من خلال مداخلته ، ان يضع يده على مصير البلاد الاقتصادي ، وينكب على المهمة العظيمة والصعبة المتمثلة بالتراكم البدائي الاشتراكي . تفحص تجربة سنتين من تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) وأعاد تحديد مبادىء تلك السياسة . قال إن الهدف المزدوج للنيب كان تطوير الموارد الاقتصادية لروسيا وتوجيه هذا التطور نحو الاشتراكية . كان تنامي الانتاج الصناعي لا يزال بطيئاً ، وكان يتبع وتيرة أبطأ من انبعاث الزراعة الخاصة . إن اللاتكافؤ في التطور على صعيد هذين القطاعين من الاقتصاد كان ينعكس في « المقصات » التي كانت تنفتح بين الأسعار المرتفعة الخاصة بالصناعة وأسعار الزراعة المنخفضة (دخلت الاستعارة التي أطلقها تروتسكي في لغة الاقتصاديين في العالم اجمع)(٤٣) . ولما لم يكن لدى الفلاحين ما يشترونه من المنتجات الصناعية ولم يكن لديهم أية مصلحة حقيقية في بيع منتجاتهم ، كانت « المقصات » تهدد مرة اخرى بقطع الروابط الاقتصادية بين المدينة والريف ، وبتخريب التحالف بين العمال والفلاحين . كان ينبغي إعادة إغلاق « المقصات » عن طريق خفض الاسعار الصناعية بدل زيادة الاسعار الزراعية . كان ضرورياً عقلنة الصناعة وتحديثها وتركيزها . ولأجل ذلك ، كان ينبغي اللجوء الى التخطيط .

كان التخطيط هو الفكرة الرئيسية والمركزية لتقرير تروتسكي . لم يزعم أبداً ـ كما اكد خصومه فيما بعد ـ انه ينبغي التخلي عن النيب لصالح التخطيط . طلب الى الحزب الانتقال من « التراجع » الى الهجوم الاشتراكي في إطار النيب . قال : « إن السياسة الاقتصادية الجديدة هي الحلبة التي أسسناها نحن بالذات للصراع بيننا وبين رأس المال الخاص . نحن أسسناها ، نحن اعطيناها شرعيتها ، وعلينا في اطارها ان نخوض الصراع بجدية ولزمن

---

(٤٣) ١٢ سييزد ر ك ب (ب) ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

طويل »[٤٤] . كان لينين قال إن النيب قد تم تصورها « جدياً ولزمن طويل » ، وغالباً ما ذكّر مناهضو التخطيط بهذه الصيغة للينين . أجاب تروتسكي : « نعم ، جدياً ولزمن طويل ، لكن ليس الى الأبد . لقد أسسنا النيب من أجل الانتصار عليها في ساحتها الخاصة بها ، وبطرائقها الخاصة بها إلى حد بعيد . كيف ذلك ؟ عن طريق استخدام قوانين اقتصاد السوق استخداماً فعلياً . . . وعبر التدخل كذلك بواسطة صناعتنا ، صناعة الدولة ، في مسار هذه القوانين ، وبتوسيع حقل التخطيط بصورة منهجية . وسوف ننتهي بمد التخطيط إلى كل الاقتصاد ، وهو ما سيؤدي إلى امتصاص كامل السوق والغائها »[٤٥] .

لم يكن لدى البلاشفة حتى ذلك الحين إلا افكار غامضة جداً حول العلاقات بين التخطيط واقتصاد السوق . كان معظمهم يعتقدون أن النيب شبه متعارضة مع التخطيط ، ويرون في النيب فعل تهدئة حيال الملكية الخاصة ، فعلاً جعله ضعفهم محتوماً . كانوا يعتقدون انه سيبقى ضرورياً طوال سنوات ، وأن من الضروري إذاً تقوية النيب وإجبار الفلاحين والتجار على الثقة بها . ولن يصبح الحزب قادراً على التراجع عن التنازلات المقدمة الى الملكية الخاصة ، وعلى الغاء النيب ، إلا بعد ردح من الزمن قد يطول أو يقصر . عند ذلك فقط يصير ممكناً إرساء اقتصاد مخطَّط . هذا الاستدلال سوف يلهم سياسة ستالين طوال العشر سنوات القادمة ، التي عارض خلالها في البدء التخطيط باسم النيب ، ثم قرر « إلغاء » النيب لصالح التخطيط ، و « صفّى » اخيراً التجارة الخاصة ودمر الزراعة الفردية .

بالنسبة لتروتسكي ، لم يكن هدف النيب تهدئة الملكية الخاصة وحسب ، بل كانت ترسي لزمن طويل أسس تعاون وتنافس وصراع بين القطاع الاشتراكي والقطاع الخاص في الاقتصاد . كان التعاون والصراع يظهران له كاللحظات المتعارضة ديالكتيكياً لسيرورة واحدة وحيدة . لذا طلب الى الحزب ان يحمي القطاع الاشتراكي ويطوره ، حتى حين يجتهد في الاتفاق مع القطاع الخاص ، وفي المساعدة على تطويره . لم يكن على التخطيط الاشتراكي أبداً ان يحل محل النيب ذات صباح بصورة مباغتة ، بل أن ينمو داخل الاقتصاد المختلط ، الى أن يتمكن القطاع الاشتراكي من أن يمتص عبر توسعه المتنامي القطاع الخاص شيئاً فشيئاً ، ويحّوله ويزيله ، ويفجر أطار النيب . لن يكون هنالك إذاً وفقاً لتصور

---

(٤٤) المرجع ذاته ، ص ٢٨٥ .

(٤٥) ١٢ سييزد ر ك ب (ب) ، ص ٣٣١ .

تروتسكي ، إلغاء ما مفاجىء للنيب ، حظر بمرسوم للتجارة الخاصة ، تدمير عنيف للزراعة الفردية ، مثلما لا يمكن أن تكون هناك لحظة ستعلن فيها الادارة انه سيتم « الانتقال الى الاشتراكية » . إن الفرق بين مفهوم تروتسكي ومفهوم ستالين لن يظهر بصورة صادمة بوجه خاص إلا عند نهاية العقد الذي نحن بصدده . إلّا أن تروتسكي بدا لكثيرين في الحالة الحاضرة ، معارضاً للنيب بشكل جوهري ، بسبب إلحاحه على ضرورة سياسة اشتراكية هجومية .

لا حاجة هنا على الاطلاق للدخول في تفاصيل افكار تروتسكي الاقتصادية وفي نظريته عن التراكم البدائي ، لأننا أعطينا صورة عنها في الفصل السابق . يكفي أن نقول إن خطابه و « الموضوعات » التي قدمها هي بين الوثائق الأساسية لتاريخ الاقتصاد السوفياتي ، وانه رسم فيها منظورات الاقتصاد السوفياتي خلال العقود الآتية ، وهي عقود تحكمت بتطور الاتحاد السوفياتي خلال سيرورات تكوُّن سلطوي لرأس المال في اقتصاد متخلف لكن مؤمم بشكل واسع . يمكن للمؤرخ الماركسي ان يصف في الواقع تلك العقود ، العقود الستالينية، ويحللها، وأن يجعل منها عهد التراكم الاشتراكي البدائي، وذلك بتعابير مستعارة من صفحات تروتسكي حول الموضوع، العائدة لعام ١٩٢٣[٤٦].

لكن مهما تكن القيمة التاريخية لمأثرة تروتسكي في المؤتمر الثاني عشر ، ومهما يمكن ان تمثل فائدة تلك المأثرة بالنسبة لدراسة الأفكار الماركسية ، فهي لم تحسِّن موقع تروتسكي في الصراع الذي كان ينتظره . لقد احدث كالعادة تأثيراً عميقاً على المؤتمر ، لكن كان ذلك ، في تلك المرة ، بفعل النفحة التي كانت تفعم خطابه لا بفعل مضمونه . إن عناصر فكرته القليلة التي كان بمستطاع جمهور المندوبين ان يفهموها لم تتمكن إلا من إثارة الخوف وحتى الحذر . لم يتمكن البعض من الامتناع عن التساؤ ل اذا لم يكن تروتسكي يلزم الحزب ، بعد كل شيء ، بأن يتخلى عن النيب ليقع مجدداً في شيوعية الحرب الكارثية . وحين طلب أن يجري تركيز الانتاج الصناعي في عدد صغير من المنشآت الكبرى ذات المردود الجيد ، جرى التساؤ ل ما الذي سيحصل للعمال الذين قد يفقدون عملهم بعد اغلاق المنشآت التي كان سيرها رديئاً . وحين أوضح انه سيكون على الطبقة العاملة ان تتحمل معظم عبء اعادة البناء الصناعي ، لم يبذل ادنى جهد لتلطيف قساوة كلامه ، بل صَلّب ، على العكس ، صياغة فكرته ، وهو ما لم يكن يمكن إلا أن يصدم الكثير من العمال ، لا بل ان

---

(٤٦) لم يتكلم تروتسكي مجدداً ابداً ، أو تقريباً ، في السنوات اللاحقة ، على « التراكم الاشتراكي البدائي » .

يرعبهم . قال : « يمكن ان تكون هنالك فترات لن تعطيكم الحكومة خلالها اجراً ، أو اذا اعطتكم نصف اجركم ، فسيكون عليكم ، انتم العمال ، أن تقرضوا الدولة النصف الآخر[٤٧] ». بهذه الطريقة بالذات، تصرف ستالين فيما بعد لمراكمة رأس المال ، أي « بأن أخذ من العامل نصف أجره » ؛ لكنه قال للعمال آنذاك إن الدولة تقدم لهم أجوراً اكبر مرتين أو ثلاث مرات مما في الماضي . حين عرض تروتسكي في المؤتمر معطيات هذه المشكلة بأقصى الصراحة وبالصدق الذي لا رحمة فيه ، لم يكن الصدق هو الذي صدمهم بل انعدام الرحمة فيه . لم يتمكنوا من الامتناع عن التفكير كالتالي : أليس يقول لنا مجدداً ما قاله لنا من قبل حين خلق جيوش العمل ، أي أن علينا ان ننظر الى أنفسنا كمنتجين لا كسمتهلكين ؟ لن يكون هنالك أسهل ، بالنسبة للثلاثي ، ستالين وكامينيف وزينوفييف ، من تثبيت العمال في حذرهم . وتساءل آخرون : كيف سيكون رد فعل الفلاحين على سياسة تروتسكي ؟ الن تقود هذه السياسة الحزب إلى الاصطدم بالموجيك بعنف ؟ كان ريكوف وسوكولنيكوف قد قالا في المكتب السياسي وفي اللجنة المركزية ان هذا ما سيحصل . وقد أعاد اطلاق القضية بكاملها حادث معبر ، خلال المؤتمر . فخلال النقاش ، توجه كراسين ـ وكان رفيقاً قديماً لتروتسكي ـ بالكلام المباشر إلى الأخير وسأله إذا كان استخلص كل نتائج محاجّته حول التراكم الاشتراكي البدائي . وأبدى كراسين ملاحظته بأن الرأسمالية لم تكتف في بداياتها ، في سعيها لإحداث التراكم ، بدفع اجور مجحفة للعمال وبالاعتماد على تقشف المقاولين و « زهدهم » . لقد استغلت المستعمرات و « نهبت قارات بكاملها » ؛ دمرت في انكلترا طبقة المالكين العقاريين الصغار ، ودفعت صغار الحرفيين العاملين في الحياكة في الهند الى الافلاس، وبنت فوق عظامهم التي « تبيِّض سهول الهند » صناعة النسيج الحديثة . هل كان تروتسكي يدفع بالمقارنة الى نتيجتها المنطقية[٤٨] ؟

طرح كراسين سؤاله من دون أية عدوانية . كان يدرس المشكلة من وجهة نظره الخاصة : بصفته مفوض التجارة الخارجية ، كان قد حاول إقناع اللجنة المركزية بضرورة تنمية التجارة الخارجية ، واللجوء ، لأجل ذلك ، إلى تقديم تنازلات اضافية للرساميل الأجنبية . كان يريد أن يفهم أعضاء المؤتمر بأنهم طالما كانوا عاجزين ، كبلاشفة ، عن مصادرة املاك الفلاحين ، وعن نهب مستعمرات ، وهو ما لم يكن أحد يثير موضوعه ، فعليهم أن يسعوا لاجتذاب الرساميل الاجنبية ؛ فرأس المال الاجنبي يمكن ان يساعد

(٤٧) المرجع ذاته ، ص ٣١٥ .

(٤٨) المرجع ذاته ، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

روسيا على إحداث تراكمها البدائي ، فيما تتحاشى المظالم التي رافقته في الغرب . لكن كان البلاشفة قد لاحظوا أن لديهم القليل من الحظ لاجتذاب تسليفات اجنبية بشروط مقبولة ، لذا احتفظ السؤال الذي طرحه كراسين بكل الحاحه : من أين الحصول على الموارد الضرورية لتراكم سريع ؟ حين تكلم كراسين على نهب الفلاحين وعلى « العظام المبيّضة » للحائكين الهنود ، انتفض تروتسكي مؤكداً انه لم « يقترح أي شيء من هذا القبيل »[٤٩] . ومع ذلك ألم يكن منطق موقفه يؤدي الى « نهب الفلاحين » ؟ . إذا كان تروتسكي ، قفز ليحتج فذلك يبين أنه أحس بظل الحذر ، الذي كان لا يزال ضئيلاً ، يرفرف فوق رأسه .

بعد أن قال تروتسكي كل ما ينبغي ليفقد تعلق العمال ويبذر في الحزب الخشية من نزاع مع الفلاحين ، اجتذب بعد ذلك عداء مسؤولي المنشآت والمديرين . لم يكن يتمكن من الامتناع عن قول الحقائق الأكثر لا شعبية ما أن يقتنع بأن ما سيقول ذو أهمية حيوية ومن واجبه ان يقوله . وقد رسم لوحة قاتمة جداً عن وضع الصناعة واتهم البيروقراطية الاقتصادية الجديدة ، من دون هوادة ، بالادعاء والغرور وانعدام الفعالية بحيث استهولت الأمر وأرادت التعبير له عن حقدها . أجاب المدراء بأن تروتسكي لم يكن يرى الاقتصاد بهذه الصورة القاتمة ، ولم يكن مستاء من عملهم الى هذا الحد ، إلا لأنه لا ترضيه إلا طوبى اقتصاد مخطط[٥٠] .

هكذا ارتسم ببطء ، لكن بصورة لا مفر منها ، وتنظّم الوضع الذي سيقود تروتسكي إلى الهزيمة . ترك مناسبة إخزاء الثالوث وإفقاد ستالين حظوته تفلت من يده ، وتخلى عن حلفائه . رفض العمل كناطق بلسان لينين بالتصميم الذي أوصاه به هذا الأخير ، ورفض أن يساند أمام الحزب بأكمله الجيورجيين والأوكرانيين الذين دافع عنهم أمام المكتب السياسي . احتفظ بالصمت حين تعالت من القاعة صيحات تطالب بالمزيد من الديمقراطية داخل الحزب . عرض سياسة اقتصادية لم يدرك سامعوه أهميتها التاريخية ، لكن خصومه تمكنوا من استخدامها ضده ، عن طريق إقناع العمال والفلاحين والبيروقراطيين بأن تروتسكي ليس صديقهم ، وبأن على كل الطبقات الاجتماعية وكل المجموعات أن ترتجف هلعاً لدى مجرد فكرة إمكانية أن يصبح خليفة لينين . في الوقت ذاته ، بذل الثالوث جهده للتوافق مع اي كان ، واعداً كل طبقة وكل مجموعة اجتماعيتين بشيء ما ، مشجعاً كل ذوي الادعاء ، متملقاً كل المغترين .

---

(٤٩) استشهاد مذكور .

(٥٠) المرجع ذاته ، ص ٣٢٢ ـ ٣٥٠ ، وهنا وهناك .

وفي الأخير ، قوّى تروتسكي الثالوث مباشرة باعلانه تضامنه « الذي لا يتزعزع » مع المكتب السياسي واللجنة المركزية وبدعوته القاعدة لأن تبرهن « في هذه الفترة الحرجة » عن الحذر الأكثر دقة واليقظة القصوى . وبصدد مشروع قرار يدعو إلى الوحدة والانضباط في غياب لينين ، أعلن : « لن أكون الأخير في هذه الجمعية في الدفاع (عن هذا الاقتراح) ، وتطبيقه ، والمكافحة عديمة الرحمة، لكل من يمكن ان يحاولوا انتهاك نقاطه[٥١] . وأضاف : « إذا حذركم الحزب بإلحاح ، في الوضع الحالي ، من بعض الأشياء التي تبدو له خطيرة ، فهو على حق حتى إذا بالغ ، لأن ما يمكن ألا يكون خطراً في ظروف أخرى ينبغي ان يظهر اليوم مشبوهاً مرتين وثلاثاً » . في هذا الجو من الذعر والحذر الشديد ، لم يكن الثالوث ليصادف اية صعوبة تحول دون فرض نفسه وإخراس المعارضة . كان تروتسكي يشاركه قلقه بما يخص الصدمة التي قد يسببها موت لينين للحزب ، وفي رغبته بتقوية الحـزب أضعف موقعه داخل هذا الحزب . ولا شك أنه كان يعتمد على استقامة المثالثين . فمع أنه استخف بهم ، إلا أنه عاملهم كرفـاق يمكن ان ينتظر منهم التصرف حياله ببعض اللياقة . لم يكن يتخيل انهم سيستخدمونه بادارته المنزهة لصالحهم الشخصي والفوري .

أعادت اللجنة المركزية الموسعة المنتخبة في المؤتمر الثاني عشر تعيين ستالين أميناً عاماً . لم يفعل تروتسكي شيئاً لمنع هذا التعيين ، ولم يقترح على الأقل أي مرشح آخر ، مع أنه كان يعلم أن لينين كان فعل ذلك . في كل حال ، لم يكن لديه أي حظ ، في غياب لينين ، بإزاحة ستالين . وكما في السابق ، كان الثلاثة يشرفون على المكتب السياسي ، وعبره على اللجنة المركزية . كانوا يشرفون كذلك على لجنة الرقابة المركزية الجديدة المنتخبة للعب دور محكمة تأديبية للحزب ، فالرجل الذي عُيِّنَ رئيساً لها كان كويبيشيڤ ، المعاون المقرَّب لستالين .

لم يكن لدى الثالوث أي مبرر لتسريع الأمور مع تروتسكي . فهو لم يكن يبدو مستفزّاً ، ولم يكن يمكن بعد للثالوث ان يتوقع كيف سيكون رد فعل الحزب فيما لو انفجر النزاع علانية . مع ذلك ، لم يكن ستالين يضيع وقته ، بل كان يمهد الطريق . استخدم سلطة التعيين الواسعة التي كانت بمتناوله ليصفّي من المراكز المهمة ، في المركز كما في المقاطعات ، كل الاعضاء المحتّمل ان يتبعوا تروتسكي ، واستبدلهم بأنصار للثالوث ، ومن باب التفضيل بأنصاره الخاصين به . اهتم كثيراً بتبرير تلك الترقيات وعمليات

(٥١) استشهاد مذكور ، ص ٣٢٠ .

الصرف بالكفاءات الظاهرة للأفراد المعنيين ؛ وساعدته كثيراً على ذلك القاعدة التي أرساها لينين ذاته ، التي تقول بأنه ينبغي أن تأخذ التعيينات بالحسبان أقدمية الأعضاء في الحزب . كانت هذه القاعدة تعطي الأفضلية آلياً للحرس القديم ، ولا سيما لزمرته الانتخابية .

خلال ذلك العام بالذات ، عام ١٩٢٣ ، اصبح ستالين شيئاً فشيئاً سيد الحزب ، عبر استخدامه نظام العَرّابة(*) هذا إلى اوسع الحدود . كان الموظفون الذين يعينهم في الامانات الاقليمية والمحلية يعرفون أن موقعهم وبقاءهم فيه لا يتوقفان على اعضاء منظمة المنطقة ، بل على الأمانة العامة . وبالطبع ، كانوا يستمعون بانتباه اكبر بكثير الى موسيقى الأمانة العامة مما الى موسيقى الفروع المحلية للحزب . توصلت كتيبة الامناء حينذاك الى « الحلول محل » الحزب وحتى محل الحرس القديم ، الذي كانت تشكل جزءاً مهماً منه . ثم اعتادت على الخضوع بانتظام لأوامر الأمانة العامة ، ثم سمحت لهذه الأخيرة بالحلول عملياً محل الحزب بأكمله . لكن منذ الآن لن يمكن لمؤتمرات الحزب أن تكون اكثر من مشاهد جاهزة : سيكون لمرشحي الأمانة العامة وحدهم حظ في انتخابهم مندوبين .

لاحظ تروتسكي هذا التبدل ، وفهم كل ما يعنيه ، لكنه لم يستطع شيئاً لإيقافه . ما كان أمكنه محاولة القيام بذلك إلا بطريقة واحدة : عن طريق التوجه علناً الى القاعدة والطلب اليها الوقوف في وجه تجاوزات الأمانة العامة . لكن لما كان يدعم ستالين المكتب السياسي وأغلبية اللجنة المركزية ، فإن عملاً كهذا كان شكل حضاً على التمرد ضد القيادة المنتخبة حديثاً والمشكلة بصورة نظامية . ما كان يمكن لأي عضو معزول داخل المكتب السياسي ، حتى إن كان يتمتع بأرفع سلطان ، أن يغامر بذلك . وأقل من أي شخص ، لم يكن في وسع تروتسكي أن يفعل هذا الآن ، بعد أن اخفى عن الحزب خلافاته مع الثالوث ، وبعد أن أعلن أمام الجميع تضامنه الكامل معه ، وبعد أن تعهد بأن يجعل من نفسه حارس الانضباط الأكثر حماساً والأكثر يقظة . ولو حاول أن يثير الحزب ضد الثالوث لبدا أنه يتصرف برياء ، تدفعه ضغينة شخصية أو الطموح للحلول محل لينين .

لم يكن يستطيع في الحالة الحاضرة أن يكافح ستالين إلا من داخل المكتب السياسي واللجنة المركزية . لكنه كان معزولاً فيهما ، وكانت مداخلاته قليلة التأثير . حتى بوخارين كان يقترب اكثر فأكثر من الثالوث . (بين الأربعين عضواً في اللجنة المركزية الجديدة ، لم يعد لتروتسكي غير ثلاثة اصدقاء سياسيين : راكوفسكي ، ورادك ، وبياتاكوف) . اصبحت جلسات المكتب السياسي التي كان يشارك فيها محض شكليات : كانت كل

(*) Système de parrainage

القرارات تعد سلفاً وضده ، وكان المكتب السياسي الحقيقي يعمل في غيابه . وهكذا بعد قليل من المؤتمر الثاني عشر ، بدأ تروتسكي يدفع ثمن تسويفه . كان قد أصبح السجين السياسي للثالوث . ولما كان عاجزاً عن فعل شيء ضده داخل الأجهزة القيادية للحزب ، عاجزاً عن المبادرة لأي عمل في الخارج ، لم يكن يستطيع إلا أن يكظم غيظه وينتظر الحدث الذي قد يفتح له منظوراً جديداً .

خلال صيف ١٩٢٣ ، هزت موسكو وبتروغراد فجأة حمّى سياسية ، فطوال شهري تموز / يوليو وآب / أغسطس عرفت الصناعة هيجاناً شديداً . فهم العمال أنهم كانوا معدين لتحمل أضخم تكاليف إعادة البناء الصناعي . كانت أجورهم هزيلة ، وغالباً ما لم يكونوا يقبضونها . وجد المدراء الصناعيون الذين كانوا يديرون مصانعهم بخسارة ، والذين تم حرمانهم من تسليفات الدولة وإعاناتها ، وجدوا انفسهم عاجزين عن الدفع لعمالهم ، وذلك منذ شهور طوال ؛ كانوا يلجأون الى مخادعات وحيل بائسة لخفض جداول الدفع . والنقابات ، المترددة في تعكير الانبعاث الصناعي ، رفضت تقديم مطالب . في الأخير ، انفجرت اضرابات « برية » في الكثير من المصانع ، وامتدت ، ورافقتها انفجارات استياء عنيفة . وقد فوجئت النقابات ، وفوجيء قادة الحزب ايضاً . كان التهديد بإضراب عام يحوم في الجو وبدا أن الحركة على وشك التحول الى تمرد سياسي . لم تعرف الطبقة العاملة أبداً ، منذ انتفاضة كرونشتادت ، توتراً مماثلاً ، والدوائر القيادية ذعراً مشابهاً .

كانت الصدمة قاسية بمقدار ما كانت غير متوقعة . كانت الدوائر القيادية ألقت على الوضع الاقتصادي نظرة الرضى وامتدحت نفسها على تحسنه المتواصل . لم تلحظ في الوقت المناسب إشارات الأزمة المهددة ، أو إذا هي لاحظتها فقد تجاهلتها . وإذ صحت بفظاظة من غفلتها ، بدأت تبحث عن المذنبين ، اولئك الذين أثاروا العمال . وفي القاعدة ، على صعيد فروع الحزب ، دفعت الصدمة المناضلين للتساؤ ل بصورة اكثر جدية كيف يمكن ان يكون هناك استياء بتلك الحدة ، بعد اكثر من سنتين من إقرار النيب . وتساءلوا أي قيمة هناك للتقارير الرسمية المفعمة تفاؤلاً ؟ ألم يبرهن قادة الحزب عن اعتداد بالنفس ، ألم يفقدوا التماسّ مع الطبقة العاملة ؟ لم يكن يفيد في شيء البحث عن مذنبين طالما بقيت هذه المسائل دون جواب .

لم يكن سهلاً إيجاد مذنبين . لم يمكن نسبة أصل الهياج إلى أي من المجموعات ، بقايا الاحزاب المناهضة للبلاشفة ، لأن هذه الأخيرة ، التي تعرضت لقمع كلي ، كانت عديمة

النشاط . توجهت الشبهات الرسمية الى المعارضة العمالية ، لكن قادة هذه المعارضة ، هم ايضاً ، فوجئوا بالاضرابات . والمعارضة العمالية ، التي وقعت تحت إرهاب تهديدات متواصلة بالطرد ، كانت قد تحطمت ، وكانت تتفكك . إلا أن الشُلل التي انبثقت منها انخرطت الى حد ما في التحرك الذي كان عفوياً في جزء كبير منه . كانت أهم تلك الشلل **مجموعة العمال** ، بقيادة ثلاثة عمال يدويين هم مياسنيكوف وكوزنتسوف ومويسييف، وكلهم أعضاء في الحزب منذ عام ١٩٠٥ ، على الأقل . ففي نيسان / أبريل وأيار / مايو ، اي بعد المؤتمر الثاني عشر مباشرة ، وضعوا في التداول بياناً يفضح الاستغلال الجديد للبروليتاريا وطلبوا الى العمال النضال من اجل ديمقراطية السوفييتات[٥٢]. وفي أيار / مايو أوقف مياسنيكوف ، لكن أنصاره واصلوا نشر افكاره . وحين انفجرت الاضرابات ، تساءلوا إذا لم يكن عليهم ان يذهبوا الى المصانع للدعوة الى الاضراب العام . كانوا لا يزالون في طور نقاش ذلك حين أوقفتهم الغيبيو(*) ، وكانوا عشرين شخصاً بمجملهم[٥٣] .

إن اكتشاف ان هذه المجموعة ، ومجموعات مماثلة، مثل **حقيقة العمال**، قد تحركت في المصانع، أثار لدى قادة الحزب هلعاً بدا غير متناسب اطلاقاً مع سببه. لكن مهما كانت تلك المجموعة صغيرة فقد كانت لها صلات عديدة داخل الحزب وفي النقابات. كان مناضلو القاعدة البلاشفة يصغون إلى احاديثهم بتعاطف ، مكتوم أو مكشوف . ولما كانت النقابات لا تعبر عن شكاوى العمال ، ولما كان الحزب لا يعيرها غير القليل القليل من الاهتمام ، فإن شيعاً سياسية صغيرة كان يمكن ان تكسب بسرعة نفوذاً واسعاً وتقود المستائين لو لم يتم كبحها . فالمحرضون على انتفاضة كرونشتادت لم يكونوا اكثر عدداً ولا أشد نفوذاً ، وحيث توجد كمية قليلة من المواد الملتهبة ، تكفي شرارة ليندلع الحريق . وقد سعى قادة الحزب لسحق تلك الشرارة : قرروا أن يحظروا **مجموعة العمال** و **حقيقة العمال** ، بحجة أن أعضاء تينك المنظمتين لم يعودوا يعتبرون انفسهم مرتبطين بانضباط الحزب وكانوا يمارسون تحريضاً نصف سري ضد الحكومة ، وتم تكليف دزرجنسكي بالقمع ، وحين بدأ هذا التحقيق حول نشاط المذنبين المفترضين ، لاحظ أنه حتى اعضاء حزبيون لا شك في استقامتهم كانوا ينظرون اليهم نظرتهم الى رفاق ويرفضون الشهادة ضدهم . توجه عندئذٍ شطر المكتب السياسي طالباً اليه

---

(٥٢) نشر البيان متعاطفون المان من مجموعة برلين ، عام ١٩٢٤ .

(*) الشرطة السرية (م) .

(٥٣) انظر فابسورين ، رابوتشايا غروبا ، ص ٩٧ - ١١٢ . كانت المجموعة تضم في الظاهر ٢٠٠ عضو في موسكو .

الاعلان ان من واجب كل عضو في الحزب ان يكشف للغيبيو أولئك الذين يشنون ، داخل الحزب ، حملة ضد القادة الرسميين .

حين صارت القضية أمام المكتب السياسي ، كان تروتسكي بدأ لتوه صدامات مع الثالوث سممت العلاقات بين الطرفين ، وكان التماس دزرجنسكي اكثر مما يمكن ان يتحمله . لم يكن مستعداً إطلاقاً للدفاع عن مجموعة العمال وعن الشلل المعارضة الشبيهة الأخرى ، ولم يعترض حين ألقي بأعضائها في السجن . فمع أنه كان يعتقد ان جزءاً كبيراً من استياء تلك الشُلل كان مبرراً والعديد من انتقاداتها يستند الى اساس صحيح ، لم يكن يشعر بأي تعاطف مع اولئك المحرضين ، الفوضويين والفظين ، ولم يكن مستعداً ايضاً لرعاية التحريض في الصناعة . لم يكن يرى كيف يمكن للحكومة ان ترضي المطالب العمالية في حين كان الانتاج الصناعي لا يزال تافهاً : لم يكن يفيد في شيء دفع اجور عالية فيما ليس ثمة سلع تُشترى . كان يعتبر أن الأضرابات ، إذ تؤخر إعادة البناء ، لا تفعل غير إفساد الوضع ، وقد رفض أن يكسب شعبية عن طريق بذل وعود لا يمكن الوفاء بها ، أو باستغلال الاستياء . على العكس ، طالب من جديد باعادة النظر بالسياسة الاقتصادية ، الضرورية منذ زمن طويل . ولم يكن مستعداً أكثر لدعم المطالب المتعلقة بالديمقراطية السوفياتية بالشكل القصوي الذي اعطتها إياه المعارضة العمالية وشللها . لكنه استهجن الطريقة التي كان يعتزم الثالوث ودزرجنسكي أن يقمعا بها الحركة والعناد الذي كانا يبديانه في الاهتمام بدلائل الاستياء لا بأسبابه الحقيقية . وحين رأى المكتب السياسي على وشك توجيه الأمر الى اعضاء الحزب بالتجسس بعضهم على البعض الآخر وبالوشاية بعضهم بالبعض الآخر ، اشمأز كلياً .

أثار التماس دزرجنسكي مشكلة دقيقة . لم يكن في موقف البلاشفة من الغيبيو شيء شبيه بذلك الازدراء المتعالي الذي يشعر به البورجوازي الديمقراطي الطيب حيال كل شرطة سياسية . كانت الغيبيو سيف الثورة وقد شعر كل بلشفي بالفخر في مساعدتها على النضال ضد اعداء الثورة . لكن بعد الحرب الاهلية ، حين برزت ردة الفعل ضد الارهاب ، أحس الكثيرون ممن هرعوا عفوياً للخدمة في الغيبيو بالسعادة وهم يغادرون صفوفها . وقد اشتكى دزرجنسكي يوماً أمام رادك وبراندلر قائلاً : « لا يمكن ان يخدم في الغيبيو إلا قديسون أو حثالة ، لكن القديسين يبتعدون اليوم عني وأنا ابقى مع الحثالة »(٥٤) . إلا أن هذه الغيبيو المنحطة كانت كذلك حارسة الاحتكار البلشفي للسلطة . حتى ذلك الحين لم

---

(٥٤) ذكر براندلر ذلك للمؤلف .

تدافع عنه إلا في وجه اعداء خارجيين ، من حراس بيض ومناشفة واشتراكيين ثوريين وفوضويين ، أما الآن فكان الأمر يتعلق بمعرفة ما اذا كانت الغيبيو ستدافع ايضاً عن هذا الاحتكار في وجه اعدائه البلاشفة المحتملين . إذا كان الأمر كذلك ، لن يمكنها ان تقوم به إلا بالعمل داخل الحزب بالذات .

لم يقل تروتسكي جهاراً للمكتب السياسي إن عليه رفض التماس دزرجنسكي ، بل تجنب المسألة وتكلم على المشكلة التي تحتها . كتب في رسالة الى اللجنة المركزية في ٨ تشرين الأول / اوكتوبر ١٩٢٣ : « يبدو أن إعلام منظمة الحزب بأن عناصر معادية تستخدم فروعها هو بالنسبة لكل عضو واجب أولي لدرجة أنه ليس ضرورياً إدخال قرار خاص في هذا الصدد ، بعد ست سنوات من ثورة اوكتوبر . إن مجرد المطالبة بقرار من هذا النوع دلالة خطيرة للغاية بين دلالات اخرى ليست اكثر إثارة للطمأنينة»(٥٥). أصر تروتسكي فيما بعد على الفجوة التي كانت تفصل الآن بين القادة والقاعدة ، فجوة توسعت بشكل خاص منذ المؤتمر الثاني عشر ولم يفعل نظام العَرّابة ، الذي أرساه ستالين غير تعميقها .

أجاب الثالوث بتذكير تروتسكي بأنه ، هو ايضاً ، قاد النقابات خلال شيوعية الحرب بواسطة مرشحيه . فرد تروتسكي بأنه حتى في ذروة الحرب الاهلية ، « لم يبلغ نظام التعيين داخل الحزب في يوم من الايام عشر ما هي الحال اليوم ، فتعيين أمناء لجان المقاطعات هو القاعدة الآن ، وهو ما يعطي الامناء وضعاً مستقلاً على الاطلاق عن المنظمات المحلية . . . » ولم يوجه تروتسكي الاتهام علناً لصلاحيات الامين العام ، إلا أنه حثه فقط على أن يستخدمها بحذر واعتدال . اعترف بأنه حين استمع في المؤتمر الاخير الى المرافعات لصالح الديمقراطية البروليتارية ، فالكثير من تلك المرافعات « بدت له مبالغاً بها ، وديماغوجية الى حد بعيد ، لأن ديمقراطية عمالية كلية وكاملة ، لا تتفق مع نظام الديكتاتورية » . إلا أنه ليس على الحزب أن يواصل الحياة في ظل الانضباط الصارم جداً الذي فرضته الحرب الاهلية . ينبغي لهذا الانضباط « أن يخلي المكان لمسؤولية حزبية اكثر حيوية واكثر اتساعاً . إن النظام الحالي . . . ابعد بكثير عن كل ديمقراطية عمالية مما كان نظام الفترة الاكثر شراسة في شيوعية الحرب » . « ان الاختيار بواسطة الأمانة العامة » هو السبب وراء « البقرطة التي لا مثيل لها لجهاز الحزب » . إن هرم الامناء « يخلق رأي الحزب » ، ويثبط عزم المناضلين على التعبير عن رأيهم ، لا بل على أن يكون لهم رأي ، لأنه لا يتوجه اليهم إلا ليأمر ويتطلب . لا شيء يدهش في ان الاستياء الذي لم يكن يمكن

---

(٥٥) ماكس ايستمان ، **Since Lenin died** ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

« أن يتبدد بتبادل حر للآراء في اجتماعات الحزب وبتأثير الجمهور الواسع للأعضاء على منظمة الحزب . . . تراكم خفية وتسبب بتوترات واضطرابات[٥٦] . .

جدد تروتسكي كذلك هجومه على سياسة الثالوث الاقتصادية . اوضح ان الهياج في الحزب زاده حدةً القلقُ والانزعاج في الصناعة ، الناجمان عن غياب بعد النظر الاقتصادي . كان تروتسكي يلاحظ الآن ان العلامة الوحيدة التي سمح له المثالثون بتسجيلها في المؤتمر الثاني عشر ، العلامة التي تنازل لهم مقابلها عن الكثير من العلامات الأخرى ، كانت علامة لاغية : تبنى المؤتمر قراراته حول السياسة الصناعية ، لكنها بقيت حبراً على ورق . كانت الادارة الاقتصادية تزرع الارتباك والفوضى كما في السابق . لم تتم المباشرة بأي شيء لجعل الغوسبلان المركز المنظم للاقتصاد. كان المكتب السياسي خلق لجاناً عديدة للتحقيق حول عوارض الأزمة، لا حول أسبابها، وسئل تروتسكي ذاته بأن يدخل في لجنة تحقيق حول الأسعار، لكنه رفض. أعلن أنه ليس لديه أدنى رغبة في المشاركة في عمل معد للتهرب من المشكلات، وتأجيل القرارات.

كنا قد قلنا ان تروتسكي اصطدم بالثالوث مراراً قبل أن يصوغ انتقاداته . بعض تلك الاصطدامات تمت اثناء مناقشات حول الوضع في المانيا ، وكان تروتسكي اكد اثناء تلك المداولات ان الاضطراب الذي احدثه احتلال الفرنسيين للروهر يقدم للشيوعيين الالمان فرصة فريدة . وحدثت اصطدامات أخرى حين اقترح الثالوث تعديل تأليف اللجنة العسكرية الثورية التي كان يرأسها تروتسكي . كان زينوڤييڤ يريد ان يدخل الى المجلس ستالين ، أو على الأقل ڤوروشيلوف ولاشيڤتش ، ولا نعرف ما الذي دفعه لتقديم ذلك الاقتراح . هل تصرف بالاتفاق مع ستالين ، لرغبة بإعطاء الثالوث امكانية حقيقية للاشراف على القضايا العسكرية ، أو انه كان بدأ مناورة دقيقة ضد ستالين لعزله من الامانة العامة[٥٧] ؟ . يبقى انه حين قدم زينوفييف اقتراحه ، اعلن تروتسكي ، المجروح ، والغاضب ، بأنه يستقيل ، احتجاجاً ، من كل كل المراكز التي كان يحتلها في مفوضية الحزب ، والمجلس الثوري العسكري ، والمكتب السياسي واللجنة المركزية . وقد طلب إرساله الى الخارج ، كـ « جندي للثورة » ، لمساعدة الحزب الشيوعي الالماني على اعداد ثورته . ولم تكن تلك فكرة بلا هدف ، فقائد الحزب الالماني ، هاينريخ براندلر ، كان وصل لتوه الى موسكو . ولما كان يخشى أن يكون ، هو ورفاقه ، عاجزين عن قيادة انتفاضة سأل بأكبر قدر من الجدية زينوڤييڤ وتروتسكي إذا كان في وسع هذا الاخير ان يأتي سراً الى

(٥٦) ماكس ايستمان ، **Since Lenin died** ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

(٥٧) انظر الفصل الثالث .

برلين أو الساكس ليقود العمليات الثورية(٥٨) . هذا الاقتراح لقي اهتماماً لدى تروتسكي ، فخطر المهمة كان يثير جرأته . فبعد أن خيبه المسار الذي أخذته الاحداث في روسيا ،واشمأزّ من مكيدة المكتب السياسي ، وربما بعد أن تعب منها ، طلب ارساله في مهمة . كانت المشاركة مرة اخرى في انتصار ثورة مقاتلة تناسبه اكثر من تذوّق الثمار الفاسدة لثورة ظافرة .

لم يكن يمكن للمثالثين أن يدعوه يمضي . ففي المانيا ، كان يمكن لتروتسكي أن يصبح خطراً بصورة مضاعفة فإذا مضى ونجح ، وعاد منتصراً ، سيبدون ، هم ، بالغي الصغر إذا قورنوا بالقائد غير المنازع لثورتين ، الروسية والالمانية . لكن إذا حدث له شيء ما مكدِّر ، اذا وقع بين أيدي اعدائه الطبقيين ، أو اذا مات في المعركة ، ألن يفكر الحزب بأن الثالوث أرسله ينجز مهمة يائسة للتخلص منه ؟ فلا ستالين ولا شركاؤه كان يمكنهم السماح لأنفسهم بترك تروتسكي يحصد غار انتصار ثوري جديد أو تاج الاستشهاد . تملصوا من الصعوبة بتحويل الدراما إلى هرجة . أجاب زينوڤييف بأنه ، هو ، رئيس الأممية الشيوعية ، سيذهب الى المانيا عوضاً عن تروتسكي ، كـ « جندي للثورة » . عندئذٍ تدخل ستالين وقال ، وهو مفعم بطيبة القلب وبالرشاد ، ان المكتب السياسي لا يستطيع الاستغناء عن خدمات أي من عضويه المرموقين والمحبوبين أكثر من أي عضو آخر . كما لم يكن يمكن ان يوافق على استقالة تروتسكي من مفوضية الحرب واللجنة المركزية ، إذ قد يسبب ذلك فضيحة من الدرجة الأولى . أما هو ، أي ستالين ، فسيسره ان يبقى خارج اللجنة الثورية العسكرية إذا كان في وسع ذلك ان يعيد الانسجام . وقد وافق المكتب السياسي على حل ستالين ؛ أما تروتسكي ، الذي شعر بما في الوضع من مضحك وبشع ، فغادر القاعة وسط الاجتماع ، « صافقاً » الباب خلفه(٥٩) .

ذلك كان الوضع في المكتب السياسي قبل أن يقدم دزرجنسكي اقتراحه ويوجه تروتسكي ، في رسالته بتاريخ ٨ تشرين الاول / اوكتوبر ، تحدياً جازماً الى المثالثين ، الذين لم يقلقوا كثيراً لأن تروتسكي لم يدفع بالخصومة الى العلن : كانت رسالته موجهة فقط الى اعضاء اللجنة المركزية المخولين معرفة أسرار المكتب السياسي .

---

(٥٨) براندلر هو مصدر هذا التأكيد .

(٥٩) ان السكرتير القديم لستالين يصف هكذا ما في الحادثة من مضحك وساخر : « حدث المشهد في قاعة التاج . باب القاعة ضخم وثقيل . توجه تروتسكي بخطى سريعة اليه ، وجذبه نحوه بكل قوته ، لكن ابطأ كثيراً في فتحه ، فثمة أبواب لا يمكن صفقها أبداً . لكن تروتسكي الغاضب لم يدرك ذلك ، وكان عليه أن يبذل من جديد الكثير من الجهد لاغلاقه . للأسف ! أخذ الباب وقتاً طويلاً أيضاً لإغلاقه . هكذا عوضاً عن ان نشهد بادرة تاريخية ، تسجل قطيعة تاريخية ، رأينا رجلاً بائساً يتصارع بيأس مع باب. . . » باجانوف، ، مع ستالين في الكرملين، ص ٧٦- ٧٧.

إلا أنه بعد ذلك بأسبوع ، أي في ٥ تشرين الاول / اوكتوبر، نشر ٤٦ عضواً مهماً في الحزب اعلاناً رسمياً موجهاً ضد القيادة الرسمية ينتقد سياستها بعبارات مماثلة لعبارات تروتسكي . اعلنوا ان البلاد على حافة الافلاس الاقتصادي لأنه ليس لدى « غالبية المكتب السياسي » سياسة ولا ترى ضرورة قيادة محددة وتخطيط للصناعة . لم يطلبوا تغييراً معيناً في القيادة ، بل كانوا يطالبون فقط بأن يعي المكتب السياسي المهمات التي عليه انجازها . احتجوا ايضاً ضد طغيان هرم الامناء ، وضد خنق كل نقاش ، مؤكدين ان الجمعيات والمؤتمرات ، النظامية الحزبية ، المزدحمة بمرشحين رسميين ، توقفت عن ان تكون ذات صفة تمثيلية . وذهب الـ ٤٦ أبعد مما ذهب اليه تروتسكي ، فطالبوا بإلغاء حظر التكتلات داخل الحزب أو بتلطيفه ، لأنه كان يلعب في الواقع دور ستار لديكتاتورية تكتل على الحزب ، ويدفع الأعضاء المستائين الى تشكيل مجموعات سرية ، ويعرّض استقامتهم حيال الحزب لامتحان قاسٍ . « إن الصراع داخل الحزب يصبح أكثر وحشية بمقدار ما يخاض في الصمت وفي السر » . وفي الأخير كان موقعو الاعلان يطلبون الى اللجنة المركزية الدعوة لانعقاد جمعية استثنائية لدراسة الوضع[٦٠] .

كانت انتقادات الـ ٤٦ تتطابق مع انتقادات تروتسكي الى حد أنه لم يكن يمكن الثالوث إلا أن يشتبه بكون تروتسكي ملهمهم ، إذا لم يكن منظم احتجاجهم[٦١]. اعتقد المثالثون أن الـ ٤٦ تجمعوا لتشكيل تكتل متماسك . وفي الواقع ان تروتسكي بدا اكثر تحفظاً مما اعتقد المثالثون . من المؤكد أنه كان بين الـ ٤٦ عدد من أصدقائه السياسيين . يوري بياتاكوف ، الأقدر والأكثر استنارة بين مديري الصناعة ؛ ايفغيني پريو براجنسكي ، الاقتصادي ، وسكرتير اللجنة المركزية سابقاً ؛ ليڤ سوسنوڤسكي ، المتعاون الموهوب مع البراڤدا ، ؛ ايڤان سميرنوڤ ، هازم كولتشاك ؛ انطونوڤ ـ اوڤسينكو ، احد ابطال ثورة اوكتوبر ، مفوض الجيش الأحمر السياسي الرئيسي حالياً ؛ مورالوڤ ، قائد حامية موسكو ، وآخرون . كان تروتسكي أسرّ لكل هؤلاء الرجال بأفكاره ودواعي قلقه ؛ لا بل روى لبعضهم محادثاته الخاصة مع لينين[٦٢] . وقد شكلوا الحلقة القيادية لما دعي معارضة عام ١٩٢٣ ، التي مثلوا عنصرها التروتسكي . لكن الـ ٤٦ لم يكونوا يشكلون مجموعة متجانسة . كان بينهم ايضاً اعضاء في المعارضة العمالية

---

(٦٠) مخطوطات تروتسكي .

(٦١) كانت مسؤولية تروتسكي في عمل الـ ٤٦ في قلب مناقشات المؤتمر التداولي الثالث عشر للحزب ، في كانون الثاني / يناير ١٩٢٤ .

(٦٢) حياتي ، ص ٤٨٤ .

وديسيميون من امثال ڤ . سميرنوف ، سابرونوف ، كوسيور ، بوبنوف ، وأوسينسكي ، الذين كانت تختلف آراؤ هم عن آراء التروتسكيين . وقد أضاف عدد من الموقعين في أسفل الاعلان المشترك بضعة اسطر عبروا فيها عن تحفظاتهم الصريحة حول نقاط خاصة ، أو عن خلافهم الواضح . كان الاعلان يشدد بالالحاح ذاته على نقطتين : التخطيط والديمقراطية داخل الحزب. لكن كان بعض الموقعين يهتمون بالنقطة الأولى بوجه خاص، وآخرون بالنقطة الثانية. وكان البعض، كبريوبراجنسكي وبياتاكوف، يطالبون بحرية النقد والنقاش، بصورة رئيسية لأنهم كانوا يعارضون تدابير اقتصادية خاصة، ويأملون أن يكسبوا الآخرين إلى وجهات نظرهم عبر النقاش؛ أما آخرون، كسابرونوف وسوسنوفسكي، فإذا كانوا في المعارضة فلأنهم كانوا، بصورة رئيسية، يعشقون الحرية داخل الحزب لذاتها. كان الأولون يعبرون عن تطلعات النخبة التقدمية والمثقفة من البيروقراطية السوفياتية، بينما كان الآخرون يتصرفون من ضمن رد فعل ضد البيروقراطية بمجملها. وبعيداً عن ان يشكل الـ٤٦ تكتلاً متماسكاً، كانوا لا اكثر من تكتيل لمجموعة وأفراد لا يجمعهم غير استيائهم وبعض تطلعاتهم.

هل يمكننا اعتبار تروتسكي الملهم المباشر لهذا التحالف ، وإلى أي حد ؟ يصعب الجواب . أما هو فنفى ذلك ، لكن خصومه زعموا أن إنكاره لم يكن غير حيلة حربية لجأ اليها لتحاشي اتهامه بتنظيم تكتل(٦٣) .

بيد أنهم لم يقدموا أي برهان ملموس ؛ ولم يكن في الـ ٤٦ شيء من تكتل متماسك ، ومنضبط ، وفاعل تبعاً لخط سلوك محدد . بعد سنوات طويلة من موت تروتسكي ، أكد اولئك الذين عايشوه عن كثب انه كان يحترم انضباط الحزب عادة بصورة بالغة الدقة بحيث يستحيل ان يكون نظم تلك التظاهرة الخاصة للمعارضة . وعلى ضوء كل ما نعرفه عن سلوك تروتسكي في هذا الصدد ، يمكننا الاعتقاد بأن هذا صحيح . ومع ذلك ، فمن المشكوك فيه ألا تكون توفرت لديه أية معرفة بعمل الـ ٤٦ ، أو أن يكون فوجىء به ، حسبما ادعى . لا بد أن بريوبراجنسكي ، أو مورالوف ، أو أنطونوف - أوفسينكو اعلموه بما كانوا يفعلون ، وما كانوا ليفعلوا ذلك لو لم يتلقوا منه بعض التشجيع . هكذا حتى لو لم يكن تروتسكي مسؤولاً صريحاً عن احتجاج الـ ٤٦ ، علينا ان نعتبره كملهمه الفعلي .

وجه الـ ٤٦ احتجاجهم الى اللجنة المركزية طالبين أن تعلم اللجنة الحزب به ، وفقاً

(٦٣) ١٣ كونفرنتسيا ر ك ب (ب)،ص ٤٦ ، ٩٢-١٠٢، ١٠٤ -١١٣ ؛ ١٣ سييزد ر ك ب (ب) ، ص ١٥٦ ومايليها.

للعرف المرسى منذ زمن طويل . وقد رفض الثالوث ، لا بل هدد باتخاذ عقوبات تأديبية إذا تولى الموقعون بأنفسهم توزيع الوثيقة على اعضاء الحزب . في الوقت ذاته ، جرى إرسال عملاء اللجنة المركزية الى الخلايا للوشاية بأصحاب الاحتجاج غير المنشور . ثم عقدت اللجنة المركزية جلسة خاصة موسعة لدراسة الوضع الذي خلقه إعلان الـ ٤٦ ورسالة تروتسكي المؤرخة في ٨ تشرين الاول / اوكتوبر(٦٤) . وكرد على تروتسكي ، كرر المثالثون الاتهامات التي وجهها اليه ستالين في اجتماعات المكتب السياسي في كانون الثاني / يناير وشباط / فبراير . زعموا أن تروتسكي ، الذي تحركه - برأيهم - شهوة السلطة ، ويتشبث بمبدأ « كل شيء أو لا شيء » ، لم يرفض فقط ان يكون نائباً للينين ، بل حتى أن يقوم بواجباته العادية . ثم عددوا كل المشكلات التي كان على خلاف بصددها ، في السنوات الاخيرة ، مع لينين ؛ لكنهم لم يقولوا ان لينين عاد في النهاية فوجد نفسه متفقاً مع تروتسكي بصدد كل تلك المشكلات تقريباً . وقد وافقت اللجنة المركزية على الاتهامات وأدانت تروتسكي . وجهت اللوم أيضاً إلى الـ ٤٦ ، وصوّرت احتجاجهم المشترك كانتهاك لحظر التكتلات المتخذ عام ١٩٢١ . أما تروتسكي ، فلم تتهمه اللجنة المركزية مباشرة بأنه نظم تكتلاً ، بل اعتبرته مسؤولاً معنوياً عن الخطأ الذي أذنب به الـ ٤٦ .

كشفت الادانة الحلقة المفرغة ، التي كانت توجد فيها كل معارضة مبتدئة ، بفعل القواعد التنظيمية لعام ١٩٢١ . كان الـ ٤٦ عبروا عن أنفسهم بالتحديد ليطلبوا الغاء تلك القواعد أو تلطيفها ، لكن كان يكفيهم أن يطالبوا باعادة النظر بتلك القواعد لتعريض انفسهم للاتهام بأنهم انتهكوها . كان حظر التكتلات داخل الحزب يتواصل بفعل منطقه الداخلي الخاص به ، كان لا يُعكس : كل حركة لإعادة النظر في ذلك الحظر كانت تقع بالضرورة تحت شفرة ذلك الحظر . كان يؤسّس داخل الحزب انضباط ثكنة ، ربما كان حيوياً بالنسبة لجيش ، لكنه مشؤوم بالنسبة لمنظمة سياسية ، انضباطاً يخوّل إنساناً معزولاً أن يصوغ شكوى لكنه يعامل التعبير الجماعي عن الشكوى ذاتها كعصيان .

لم يكن في وسع الثالوث ان يقمع بسهولة ذلك « العصيان » الخاص ، فالعصاة لم يكونوا محض جنود ، بل ٤٦ جنرالاً للثورة . كل واحد منهم كان قد شغل مناصب مهمة في الحكومة وفي الحزب ، وكان معظمهم من أبطال الحرب الاهلية . كان كثيرون منهم أعضاء في اللجنة المركزية . بعضهم انضم الى البلاشفة عام ١٩١٧ ، في الوقت ذاته الذي انضم فيه تروتسكي ، وآخرون كانوا بلاشفة منذ عام ١٩٠٤ . لم يكن بالإمكان إخفاء

---

(٦٤) ك ب س س ف ريز ولوتسياخ ، ج ١ ، ص ٧٦٦ - ٧٦٨ .

احتجاجهم . إن الثالوث الذي فضح في الخلايا النص المدان ، طالباً إليها التنديد به بدورها ، في حين كان يرفض إبرازه لها ، أثار حذراً بالغ الشدة ، وهزت الحزب اشاعات مثيرة للذعر . لذا اضطر الثالوث لفتح صمّام أمان ، فوعد زينوفييف في ٧ تشرين الثاني / نوفمبر ، العيد السادس للثورة ، في إعلان احتفالي ، بإعادة الديمقراطية الى داخل الحزب . وكعلامة تغيير ، فتحت البرافدا وصحف اخرى اعمدتها للنقاشات ، ودعت أعضاء الحزب ليطرحوا صراحة كل المسائل التي كانت تقلقهم .

كان فتح النقاش بعد « ثلاث سنوات من الصمت » مبادرة تنطوي على مخاطرة[٦٥] . وكان الثالوث يعرف ذلك ، وقد فتح النقاش في موسكو وأجّله في المقاطعات . لكن ما أن فتح صمّام الأمان حتى خضع لضغط قوة غير منتظرة . كانت خلايا الحزب في موسكو في حالة تمرد ، ولقد استقبلت القادة الرسميين بعداء وهتفت للناطقين بلسان المعارضة . وخلال بعض الاجتماعات ، في مصانع كبرى ، وجد الثالوث نفسه وقد هزأته أغلبيات ساحقة وأدانته[٦٦] . تركزت المناقشة فوراً على إعلان الـ ٤٦ ، الذين كانوا الآن احراراً بعرض وجهة نظرهم على مناضلي القاعدة . وكان بياتاكوف الناطق بلسانهم الأكثر عدوانية والأشد فعالية . الى اي مكان ذهب ، حصل على اكثريات واسعة الى جانب اقتراحاته الفظة . وتوجه انطونوف ـ أوفسينكو إلى منظمات الحزب في الحامية ، وبعد قليل من افتتاح النقاش ، اصطف ثلث تلك المنظمات ، على الأقل ، الى جانب المعارضة . وفعلت الشيء ذاته اللجنة المركزية للشبيبة الشيوعية ، ومعظم خلايا كومسومول موسكو . كانت الجامعات فريسة اضطراب شديد وقد قدمت اغلبية واسعة لخلايا الطلاب دعمها الحماسي للـ ٤٦ . كان قادة المعارضة متفائلين، لا بل قيل انهم كانوا متأكدين من النجاح لدرجة انهم تناقشوا فيما بينهم لتحديد أية نسبة يقبلون على اساسها بأن يقاسموا الثالوث الاشراف على جهاز الحزب .

جزع المثالثون ؛ وحين فهموا في أي اتجاه ستصوت خلايا الحامية قرروا أنه لن تخوَّل تلك الخلايا حق التصويت . وأقالوا فوراً أنطونوف ـ أوفسينكو من منصبه كمفوض سياسي رئيسي للجيش الأحمر ، بحجة انه وجه الى اللجنة المركزية ذلك التحذير المفعم بالتهديدات ، الذي يقول بأن القوات المسلحة ستقف « كرجل واحد إلى جانب تروتسكي ،

(٦٥) تكلم رادك في المؤتمر التداولي الثالث عشر للحزب على « سنوات الصمت الثلاث » التي سبقت النقاش . ١٣ كونفرنتسيا ر ك ب (ب) ، ص ١٣٥ ـ ١٣٧ .

(٦٦) اعترف بذلك ريكوف . المرجع ذاته ، ص ٨٣ ـ ٩١ ، انظر ايضاً وصفاً لأزمة الحزب بقلم بريو براجنسكي . المرجع ذاته ، ص . ١٠٤ ـ ١١٣ .

قائد الثورة ، ومنظمها وروح انتصاراتها »[٦٧] . وفي الواقع ان انطونوف ـ أوفسينكو لم يشهر أبداً التهديد بتمرد عسكري . ما أراد أن يقوله وقاله ، هو أن الخلايا العسكرية للحزب كانت « كرجل واحد » خلف تروتسكي . كانت تلك مبالغة بالتأكيد ، لكنها لم تكن بعيدة جداً عن الحقيقة . وانطونوف ـ أوفسينكو لم يتصرف أبداً بصورة غير شرعية حين نقل النقاش الى خلايا الجيش . فهذه الخلايا كان لها ، مثلها مثل الخلايا المدنية ، ملء الحق في المشاركة بنقاش وتصويت حول مشكلة سياسية ، وحتى ذلك الحين لم يكن تم حرمانها من ذلك الحق . لكن أكان سلوك انطونوف لا غبار عليه ، أو لم يكن ـ رأى تروتسكي انه كان بإمكانه أن يتصرف بحذر أكبر في ذلك الوضع الدقيق ـ فقد قرر الثالوث انه لا يمكن إبقاؤه على رأس الفرع السياسي في الجيش . وأعقبت ذلك إقالات اخرى لمعارضين . وقد انتهكت الامانة العامة الانظمة حين أصدرت قراراً بحل اللجنة المركزية للكومسومولات ، التي استبدلت بلجنة أخرى تضم مرشحين اختارتهم بنفسها[٦٨] . وجرى اتخاذ عقوبات تأديبية بحق انصار آخرين للمعارضة ، واستخدمت كل الأساليب التي يمكن تخيلها لمنع أي استمرار للنقاش .

لكن التوتر لم يخف مع ذلك ، فقرر الثالوث عندئذٍ ، بهدف إرباك المعارضة ، ان ينتزع منها ما هي أحق به ، قام باصطناع اقتراح خاص يفضح بشكل جازم « النظام البيروقراطي داخل الحزب » ، بتعابير تبدو مستعارة مباشرة من تروتسكي والـ ٤٦ ، ونادى بقيام توجه جديد سيضمن الحرية الكاملة للتعبير والنقد لأعضاء الحزب .

طوال شهر تشرين الثاني / نوفمبر ، وفيها كانت موسكو في قمة الهياج ، لم يشارك تروتسكي في المساجلة العلنية . كان وضعه الصحي الرديء يجبره على الصمت . فحوالي نهاية تشرين الاول / اوكتوبر ، خلال رحلة صيد في منطقة مستنقعات ، قريباً من موسكو ، أصيب بوافدة خبيثة ، فألزمته الحمّى الفراش في تلك الاشهر الحاسمة . ومن الغريب أن عوارض من هذا النوع ـ أولاً مرض لينين ، ثم مرض تروتسكي ـ وجهت مجرى الاحداث التي كانت أسبابها الأعمق هي بالطبع عناصر الوضع بالذات .

يقول تروتسكي في حياتي : « يمكن توقع ثورة ، لكن يستحيل توقع نتائج صيد للبط البري في الخريف »[٦٩] . من المؤكد أنه لم يكن عائقاً خفيفاً بالنسبة لتروتسكي ان يعجز في

---

(٦٧) ١٣ كونفرنتسيا ر ك ب (ب) ، ص ١٢٤ .

(٦٨) ١٤ سييزد ف ك ب (ب) ، ص ٤٥٩ .

(٦٩) حياتي ، ص ٥٠٤ .

تلك الفترة الحاسمة عن التدخل شخصياً ، ومشافهة ، في المساجلة .

لقد كتبت امرأته : « كانت تلك أياماً قاسية أيام صراع مستبسل لليف داڤيد وڤيتش في المكتب السياسي ضد الأعضاء الآخرين . كان وحيداً ومريضاً ، وكان عليه ان يصارعهم كلهم . وبسبب وضعه الصحي ، كان المكتب السياسي يجتمع في شقتنا . كنت أجلس في غرفة النوم المجاورة وأسمع ما يقول : كان يتكلم بكل جوارحه ؛ كان يبدو أنه يفقد إلى حد ما قواه في كل مداخلة ، لشدة ما كان يضع فيها « من دمه » . وكنت أسمع الأجوبة الباردة ، واللامبالية التي كان يجاب بها . . . بعد كل جلسة ، كان ليڤ داڤيدوڤيتش يصاب بارتفاع الحرارة . كان يخرج من مكتبه مبللاً حتى العظام ، فينزع ثيابه وينام . كان ينبغي تجفيف ثيابه الداخلية وألبسته كما لو كانت تعرضت لوابل من المطر[٧٠] » .

حين قرر المثالثون إرباك المعارضة بالاعلان المدوّي للتوجه الجديد ، كانوا يريدون ان يقدم لهم تروتسكي كل دعمه . طلبوا اليه اضافة توقيعه إلى تواقيعهم ، في أسفل النص الذي كان يبدو غير متمايز عن نصه . ولم يكن باستطاعته أن يرفض دون ان يعطي الحزب انطباعاً بأنه هو الذي يشكل عائقاً في وجه الحرية . كان يأمل بأن يسمح له الافتتاح الرسمي لنقاش عام بأن يعرض علناً ، على الأقل ، المشكلات التي اصطدم بصددها مع الثلاثة في سرية المكتب السياسي . إلا أنه لم يستطع الامتناع عن التفكير بأنهم كانوا يطلبون اليه ان يكفل وعداً فارغاً . ولم تمر اكثر من عدة أسابيع حتى قارن احد قادة المعارضة هذا الاعلان ببيان تشرين الأول / اوكتوبر ١٩٠٥ ، ذلك الوعد بالحرية الدستورية الذي أطلقه القيصر الاخير في لحظة ضعف ثم سحبه ما أن احس بنفسه أقوى[٧١] . في تشرين الاول / اوكتوبر ١٩٠٥ ، تكلم تروتسكي الشاب للمرة الاولى أمام الجماهير الثورية في سان بطرسبورغ فدعك بيديه بيان القيصر قائلاً : « أهدوه الينا اليوم ، وسوف يسترجعونه منا غداً ليمزقوه ، وستطير حريتكم كمزق الورق هذه »[٧٢] . لكن لم يكن يمكنه اليوم ، في عام ١٩٢٣ ، ان يذهب الى الجماهير ليمزق أمام أعينها « بيان اوكتوبر الجديد » الذي جرى الاعلان عنه باسم ذلك المكتب السياسي الذي كان عضواً فيه . سوف يتمسك باصلاح الحكومة القائمة لا بقلبها . لذا حين حمل اليه المكتب السياسي ، وهو على سريره ، إعلان التوجه الجديد ، لم يسعه إلا محاولة ادخال تعديلات

(٧٠) المرجع المذكور ، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ .

(٧١)ـ انظر خطاب سابرونوف في ١٣ كونفرنتسيارك ب (ب) ص ١٣١ ـ ١٣٣ .

(٧٢) النبي المسلح ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

تهدف لجعل الوعد بالحرية داخل الحزب حازماً واحتفالياً قدر الامكان ، وتقييد يد الثالوث عن طريق ذلك بالذات . وقد وافق المكتب السياسي على كل تعديلاته ، وجرى التصويت في الخامس من كانون الاول / ديسمبر ، على الاعلان بالإجماع[٧٣] . لكن بعد ان صوّت عليه تروتسكي ، لم يسعه إلا أن يكرر بهذا القدر او ذاك الحركة التي قام بها عام ١٩٠٥ .

فعل ذلك في بعض المقالات القصيرة المكتوبة للبرافدا ، والتي ظهرت فيما بعد في أهجوّته ، التوجه الجديد[٧٤] . تلك المقالات هي مكثّف لمعظم الافكار التي اصبحت للحال علامة « التروتسكية » . وقد ظهر المقال الأول في ٤ كانون الأول / ديسمبر ، اي عشية اليوم الذي صوّت فيه المكتب السياسي على التوجه الجديد . كان انتقاداً مموّهاً قليلاً لـ « بيروقراطية » في قطاعه الخاص به ، اي الجيش ، و « في امكنة اخرى » . كتب يقول إن مساوىء البيروقراطية تظهر حين يتوقف الناس « عن التفكير في جوهر الاشياء ، حين يستخدمون من قبيل الادعاء صيغة اصطلاحية دون ان يفكروا بما تعنيه ، حين يعطون الأوامر المعتادة دون أن يتساءلوا اذا كانت عقلانية ، حين يجزعون من كل كلمة جديدة ، وكل نقد ، وكل مبادرة ، وكل إبداء للاستقلال[٧٥] . . . » ، قال إن الكذب « البنّاء » هو الخبز اليومي للبيروقراطية. ويمكن أن نجد من هذا الكذب في تاريخ الجيش الأحمر، وفي تاريخ الحرب الاهلية، حيث يضحّى بالحقيقة لصالح الاسطورة البيروقراطية: «عند قراءتها، يخيل للمرء أنه ليس هناك سوى أبطال في صفوفنا، وأن كل جندي متحرق بالرغبة في القتال، وأنْ العدو يفوقنا دائمًا من حيث العدد، وان كل الأوامر سليمة ومتوافقة مع الظروف، وأن تنفيذها رائع على الدوام» الخ. إن التأثير البناء لهكذا خرافات هو ذاته خرافة. سوف يستمع اليها الجندي الأحمر كما «كان والده يستمع الى قصص حياة القديسين: انها بالروعة ذاتها وبالأخلاقية ذاتها، لكنها بعيدة جداً عن الحياة الحقيقية».

« البطولة العليا ، في الفن العسكري كما في الثورة ، مصنوعة من حب الحقيقة وحس المسؤولية . إني أدافع عن الحقيقة ، لا من وجهة نظر الواعظ الاخلاقي المجرد الذي يعلّم بأن على المرء ألا يكذب أبداً أو يخدع قريبه . إن حديثاً مثالياً من هذا النوع هو رياء صرف ، في مجتمع طبقي توجد فيه مصالح متعارضة ، وصراع وحرب . إن الفن

---

(٧٣) ظهر النص في البرافدا في ٧ كانون الاول / ديسمبر ١٩٢٣ .

(٧٤) جرى اقتطاف الاستشهادات في الصفحات اللاحقة من الطبعة الاميركية للأهجوة ، لكن جرى تعديل نص الترجمة عند الاقتضاء بعد مقارنته بالنص الأصلي .

(٧٥) تروتسكي ، التوجه الجديد ، ص ٩٩ ـ ١٠٥ .

العسكري بوجه خاص ينطوي ـ كما تستدعي الحاجة ـ على الحيلة والتمويه ، والمفاجأة والخداع . لكن هناك فرقاً بين أن تخدع العدو بوعي وبتروّ ، أن تفعل ذلك باسم قضية يبذل المرء لأجلها حياته ، وأن تنشر انباء كاذبة خبيثة وتؤكد ان « كل شيء على ما يرام » . . . بروح تزلّف محض » .

ثم يجري تروتسكي مقارنة بين الجيش والحزب ، وخصوصاً بين موقفيهما حيال التراث . يقيم الشيوعي الشاب مع الحرس القديم العلاقات ذاتها التي يقيمها الجندي مع رؤسائه . في الحزب كما في الجيش ، يجد الشاب منظمة جاهزة بناها سابقوه انطلاقاً من لا شيء . للتقاليد بالتالي فيهما « أهمية مرموقة » ، لأنه بدونها لا يمكن أن يكون ثمة تقدم متواصل .

« لكن ليس التراث قانوناً جامداً أو وجيزاً رسمياً ؛ لا يمكن حفظه غيباً ولا قبوله كإنجيل ؛ لا يمكن الايمان بكل ما قاله الجيل القديم بناء على « كلمة الشرف » التي تصدر عنه وحسب . على العكس ، ينبغي إعادة كسب التراث بعمل داخلي ، ينبغي درسه وتعميقه بروح نقدية ، وأن يتم بهذه الطريقة تمثّله . بدون ذلك ، يكون كل البناء قد أرسي على الرمل . كنت قد تكلمت على ممثلي « الحرس القديم » . . . الذين ينقلون التراث الى الشباب على طريقة فاموزوف (شخصية كلاسيكية من الكوميديا الروسية) : « تعلموا بالنظر إلى الأكبر منكم ، الينا نحن مثلاً أو الى المرحوم عمنا . » لكن ليس من شيء قيّم يتعلمه المرء ، سواء من العم أو من ابناء الأخ .

« لا جدال في ان كادراتنا القديمة التي قدمت خدمات خالدة للثورة تتمتع بسلطة عظيمة في أعين الجنود الشباب . وهذا ممتاز لأنه يخلق روابط لا يمكن حلها بين الكادرات العليا والدنيا ، بين القيادة والفرقة . لكن بشرط واحد : ألا تمحو سلطة القدامى شخصية الشباب ، وبصورة اكيدة اكثر ، ألا تُرهِبهم . . كل امرىء يجري تعويده على ان يجيب فقط بـ « نعم » هو عدم . كان الكاتب الهجائي القديم سالتيكوف يقول عن هؤلاء الناس : «لا يعرفون أن يقولوا إلا نعم، نعم، الى ان يوقعوك في الورطة»[٧٦] .

كان ذلك هجوم تروتسكي الاول على الحرس القديم . لكنه عبر عنه بتعابير عامة وتلميحية الى حد أن القليلين فهموا معناها . لم يكن الحزب والبلد يشتبهان بعد ولو قليلاً بالخلافات بين تروتسكي والمكتب السياسي ، وكانا ينظران اليه كمسؤول عن السياسة

(٧٦) تروتسكي ، التوجه الجديد ، ص ١٠٤ .

الرسمية . وكان ذلك حقيقياً لدرجة انه حين توجه الـ ٤٦ الى الخلايا فأعلنوا أنهم يحظون بدعم تروتسكي ، تمكن ستالين من اجابتهم بأنه لا يحق لهم ان يقولوا ذلك ، لأن تروتسكي بعيد عن ان يكون متفقاً مع المعارضة ، هو بين القادة واحد من أشد انصار الانضباط صرامة(٧٧) . ويبدو ان تلك كانت النقطة الاخيرة التي جعلت صبر تروتسكي ينفد . ففي ٨ كانون الاول / ديسمبر كتب رسالة جديدة الى جمعيات الحزب يوضح فيها موقفه(٧٨) . وصف فيها التوجه الجديد كانعطافة تاريخية ، لكنه حذر القاعدة من ان لبعض القادة نوايا مضمرة وهم يحاولون ان يلغوا في الممارسة آثار التوجه الجديد . قال ان مهمة الحزب وواجبه يتمثلان في التحرر من طغيان جهازه الخاص به . على مناضلي القاعدة ان يعتمدوا على انفسهم كلياً ، على فهمهم الخاص بهم ، على روح المبادرة لديهم ، وعلى شجاعتهم . لا شك ان الحزب لا يستطيع الاستغناء عن جهازه ، وأنه كان من الضروري مركزة هذا الجهاز . لكن كان يجب أن يكون أداة الحزب لا سيده . وكان يجب توائق ضرورات المركزية مع متطلبات الديمقراطية ، والموازنة بين هذه وتلك . « لقد فقد التوازن خلال هذه الفترة الاخيرة » .

« إن الفكرة ـ أو الانطباع على الأقل ـ بأن النزعة البيروقراطية تهدد الآن بإدخال الحزب في ورطة اصبحت شبه معممة ، ولقد ارتفعت أصوات للاشارة الى الخطر . إن القرار حول التوجه الجديد هو أول صياغة رسمية للتبدل الذي تم في الحزب ، ولن يصبح فعلياً إلا بمقدار ما يريد الحزب ، أي اعضاؤه الأربعمائة ألف ، ان يكون كذلك ، وما يتصرف بحيث يكون كذلك » . كان بعض القادة بدأوا ، بدافع الخوف ، يزعمون أن جمهور الاعضاء لم يكن يتمتع بالنضج الكافي للسماح للحزب بحكم نفسه بنفسه ديمقراطياً . لكن ما كان يمنع هذا الجمهور من ان يغدو ناضجاً سياسياً إنما هو بالضبط الوصاية البيروقراطية . كان سلبياً « تطلُّب الكثير من اولئك الذين يريدون دخول الحزب والبقاء فيه » ، لكن ما أن يتم قبول الجدد حتى يغدو ضرورياً ان يكونوا احراراً بالممارسة الكلية للحقوق المحفوظة للأعضاء . بعد ذلك دعا تروتسكي الشباب جهاراً لتأكيد أنفسهم ولعدم اعتبار سلطة الحرس القديم سلطة مطلقة . « لن يمكن للحرس القديم ان ينقذ الحرس القديم بما هو خميرة ثورية إلا عبر تعاون نشط مع الشباب في إطار الديمقراطية » . بغير ذلك ، يتحجر وينحط الى بيروقراطية .

---

(٧٧) ستالين ، سوش . ، ج ٥ ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .

(٧٨) التوجه الجديد ، ص ٨٩ ـ ٩٨ .

كانت تلك هي المرة الاولى التي يتهم تروتسكي فيها الحرس القديم ، بصورة عنيفة ، بـ « الانحطاط البيروقراطي » . وقد اسند اتهامه الى مماثلة : ذكّر بالسيرورة التي تحولت بها الأممية الثانية ، التي كانت ثورية في البدء ، إلى قوة اصلاحية ، وتخلت عن عظمتها وعن رسالتها التاريخية، بالاستسلام أمام اجهزة أحزابها. لكن لم تكن البلشفية مهددة فقط بطلاق بين الأجيال، فالطلاق بين الحزب والطبقة العاملة كان اكثر خطورة بكثير. كان ١٥٪ أو ١٦٪ فقط من اعضاء الحزب عمال مصانع، وكان تروتسكي يطالب بـ «الدخول المتزايد كثافة لعناصر من الطبقة العاملة إلى الحزب». وقد أنهى رسالته بصيحة الحرب المدوّية هذه:

« فلتنته الطاعة العمياء ، وليوضع حد للتسوية الميكانيكية من جانب السلطات ، لينته سحق الشخصية ، لينته الخنوع والوصولية . ليس البلشفي امـرأ منضبطاً وحسب ، إنه إنسان يصنع بنفسه رأيه الخاص به ، في كل حالة وحول كل مشكلة ، ويدافع عنه بجرأة وبكل استقلال ، لا فقط في وجه اعدائه بل كذلك داخل حزبه . ربما سيكون اليوم في وضع الاقلية . . سوف يخضع . . . لكن ذلك لا يعني دائماً انه مخطىء . ربما رأى ، وفهم ، قبل غيره مهمة جديدة أو ضرورة القيام بانعطاف . سيطرح المشكلة بلا ملل ، مرة ثانية ، وثالثة ، وعاشرة إذا دعت الحاجة . بذلك يخدم حزبه ، ويكون ساعده على اعداد نفسه تماماً للمهمة الجديدة ، وعلى إحداث الانعطافة الضرورية ، دون هزة عضوية ولا تشنجات تكتلية[٧٩] » .

كان ذلك جوهر المشكلة ، وقد اطلق تروتسكي فكرة حزب يسمح بحرية التعبير عن شتى الاتجاهات الفكرية طالما تكون تلك الاتجاهات متوافقة مع برنامجه . كانت فكرة تروتسكي تتعارض مع مفهوم حزب وحيد الاتجاه كان الثالوث قد أكد أنه من جوهر البلشفية . وبالطبع ، لم يكن ينبغي للحزب أن يكون «مجزّأ إلى تكتلات » ، لكن لم تكن التكتلية إلا رد فعل أقصى ومرضيّاً ضد المركزية المبالغ بها وطغيان البيروقراطية . لن يمكن اقتلاع جذور التكتلية طالما لم يتم القضاء على أسبابها . لذا كان من الضروري « تجديد جهاز الحزب » ، و « استبدال البيروقراطيين المتحجرين بعناصر جديدة ، احتفظت باتصال وثيق بحياة مجمل الحزب » ، وفوق كل شيء أن يُعزل من المناصب القيادية « اولئك الذين يشهرون صواعق العقوبات ، لدى أول كلمة انتقاد أو اعتراض او احتجاج . . . ينبغي للتوجه الجديد أن يبدأ باعطاء كل مناضل الشعور بأنه لن يتجرأ أحد بعد الآن على إرهاب الحزب » .

---

(٧٩) المرجع ذاته ، ص ٩٤ .

هكذا ، بعد ما يقارب تسعة أشهر من التأخر ، القى تروتسكي اخيراً ، لكن وحده ، القنبلة التي كان يأمل أن يفجرها هو ولينين في المؤتمر الثاني عشر . وقد كان ذلك التأخر مشؤوماً . كان توفر لستالين الوقت ليسيطر على جهاز الحزب ، فقد وضع أنصاره ، وبمقدار أقل انصار زينوفييف ، في النقاط الأكثر حساسية ، في كل فروع المنظمة . وكان هيأهم تماماً للصراع المتوقع مع تروتسكي ، عن طريق التعرض والافتراء والمحادثات السرية . وها هو الآن يطلق كتيبة أمنائه في العمل .

حين قرئت رسالة تروتسكي في اجتماعات الحزب أثارت فيها ارتباكاً لا يوصف . استقبلها الكثيرون كالرسالة التي كانوا ينتظرونها منذ زمن بعيد ، كالنداء الذي لايُقاوَم للثوري العظيم الذي يحيد أخيراً عن الفريسيين ويقود مجدداً المتواضعين والمهانين . حتى اعضاء مجموعات المعارضة ، الذين وقف في وجههم منذ زمن قريب جداً ، ردوا بحماس واعترفوا بأن صرامته حيالهم لم تملها غير أسباب نقية وسامية . كتب احدهم : « إننا نتوجه اليك ايها الرفيق تروتسكي كما إلى قائد الحزب الشيوعي الروسي والأممية الشيوعية ، إلى القائد الذي بقي فكره الثوري خالصاً من كل تشيّع مغلق ومن كل وضاعة » . وكتب آخر : « أمضي إليك ايها الرفيق تروتسكي كما إلى واحد من قادة روسيا السوفياتية منزَّه عن كل روح انتقام سياسي »[٨٠] . لكن العديد من البلاشفة اثقلتهم الصورة القاتمة التي اعطاها تروتسكي عن الحزب وقساوة لهجته ؛ واستشاط البعض غيظاً مما اعتبروه كإهانة مجانية للحزب ، إن لم يكن كطعنة خنجر في الظهر . في كل مكان ، وجّه الأمناء ذلك الجزء من الرأي العام البلشفي الذي كان ملائماً لهم ونظموه ، حرضوه ، أثاروا سخطه ، وأعطوه دوياً لا يتناسب مع أهميته الحقيقية ، إذ وضعوا تحت تصرفه كل وسائل التعبير المحفوظة عموماً للمساجلات الكبرى ، والجزء الأكبر من الأعمدة المخصصة للنقاشات في الصحف الكبرى والنشرات والمنشورات المحلية التي كانت تلعب دوراً مهماً في تكوين الرأي في المقاطعات .

في الاجتماعات ، غالباً ما كان أنصار المعارضة يطغون على جهاز الحزب بعددهم وتماسكهم . لكن بعد الاجتماعات ، حين يكون اضمحل الضجيج والهيجان ، كان الامناء هم الذين تكلموا باسم الفروع والاتحادات ، واهتموا بالقرارات المتبناة ، وقرروا إذا كان يجب دفنها أو لا ، وفي الحالة الأخيرة أي إعلام يجب توفيره لها . وحين كان يواجَه

(٨٠) استشهد بياروسلافسكي ، بتلك الرسائل في المؤتمر التداولي الثالث عشر للحزب بنيّة التشهير بتروتسكي . ١٣ كونفرنتسيا ر ك ب (ب) ، ص ١٢٥ .

أحد الأمناء بجمعية لا تقبل المهادنة ، كان يعد الاجتماع اللاحق بعناية ، وينظم انصاره وينجح إما في فرض نفسه أو في فرض الصمت على المعارضة .

كان سينتهي الجدال بجلسات المؤتمر التداولي الثالث عشر للحزب . وكان إعداد المؤتمر ايضاً موجلاً إلى الأمناء . أما انتخاب المندوبين فكان غير مباشر ، يتم على درجات متعددة متتالية ؛ وعند كل درجة ، كان الامناء يسجلون كم من المتعاطفين مع المعارضة تم انتخابهم ويعملون على تصفيتهم في الدرجة اللاحقة . لم يتم أبداً كشف عدد الذين صوتوا للمعارضة في انتخابات الخلايا . وقد ادعى الستة والأربعون ، دون ان يكذبهم أحد ، انهم حصلوا في مؤتمر المناطق ، الدرجة التي فوق الخلايا ، على لا أقل من ٣٦٪ من الاصوات ، بينما نزلت هذه النسبة في الدرجة اللاحقة الى ١٨٪ . واستنتجت المعارضة انه إذا كان تمثيلها تعرض للطمس بالنسبة ذاتها في كل الدرجات الانتخابية ، فقد كانت وراءها إذاً الأغلبية الساحقة لمنظمة موسكو[٨١]. كانت تلك هي الحقيقة بصورة شبه مؤكدة، لكن الأمناء هم الذين كانت لهم الغلبة.

كان الثلاثة راغبين في اقفال النزاع سريعاً ، وقد ردوا على رسالة تروتسكي بعاصفة هوجاء من الاتهامات المضادة . قالوا إنه غير مشروع من جانب تروتسكي أن يصوّت مع مجموع اعضاء المكتب السياسي لصالح التوجه الجديد ، ليفتري بعد ذلك على نوايا المكتب . ومن الجريمة إثارة الشباب ضد الحرس القديم ، حارس الفضيلة والتراث الثوريين . ومن الفساد محاولة إثارة جمهور مناضلي الحزب ضد جهاز الحزب ، لأن أي بلشفي جيد يعرف أي أهمية علق الحزب دائماً على جهازه ، وبأي عناية وأي وفاء كان يحيطه . لقد كان تروتسكي ملتبساً بصدد حظر التكتلات : كان يعرف ان ذلك الحظر شرط ضروري لوحدة الحزب ولم يكن يجرؤ على المطالبة جهاراً بإلغائه ، لكنه سعى لتهديمه خفية . كان من قبيل الرياء وصف نظام الحزب بأنه بيروقراطي . لقد لعب تروتسكي بالنار إذ أثار في الجماهير شهية خطرة ومبالغاً بها الى الديمقراطية . كان يزعم التكلم الى العمال ، لكنه كان يدغدغ مشاعر الطلاب والإنتليجنسيا ، أي البورجوازية الصغيرة . كان يتحدث عن حقوق القاعدة ومسؤوليتها بهدف واحد هو تمويه لا مسؤوليته الخاصة به ، وجنون العظمة لديه وطموحه غير المشبع ليكون ديكتاتوراً . ألم يكن كرهه لجهاز الحزب ، وازدراؤه الوقح للحرس القديم ، وفرديته المغامرة، وعدم احترامه للتراث البلشفي و « بخسه تقدير » الفلاحين المعروف جيداً ، ألم يكن كل ذلك يشير بوضوح إلى

---

(٨١) ١٣ . كونفرنتسيا ، ر ك ب (ب) ، ص ١٣١ - ١٣٣ .

أنه بقي في اعماقه غريباً عن الحزب ، خصماً للينينية ، ونصف منشفي سيىء التوبة . وبقبوله ان يغدو الناطق بلسان مجموعات المعارضة المتنوعة ، أعلن عن نفسه كوكيل رئيسي -حتى لو لم يكن يعي ذلك - لكل العناصر البورجوازية الصغيرة التي كانت تضغط على الحزب من كل الجهات ، وتحاول أن تشدخ وحدته وتنفخ فيه اهواءها واحكامها المسبقة وادعاءاتها [٨٢].

في التاريخ الطويل للمعارضة داخل الحزب ، لم يرزح تحت ثقل الاتهامات أحد كمعارضة عام ١٩٢٣ ، ولم يضايق جهاز الحزب أحداً كما ضايق تلك المعارضة . ولدى المقارنة ، نرى أن المعارضة العمالية عوملت بشكل سليم ، وبشهامة تقريباً . وعموماً ، تمتعت المعارضات قبل عام ١٩٢١ بحرية غير محدودة على صعيدي التعبير والتنظيم . ما السبب إذاً وراء الحدة والجنون اللذين كان جهاز الحزب يتكالب بهما الآن على معارضه الرئيسي ؟ .

لم يكن المثالثون قادرين على ملاقاة تروتسكي في ساحته الخاصة به ، ساحة المناقشة المستقيمة . كان هجوم تروتسكي بالغ الخطورة : دوّت رسالته المفتوحة ومقالاته حول التوجه الجديد كناقوس الخطر ، وكانت اشارة الانذار ، وقد اثارت الغضب وايقظت روح القتال . حينذاك لم يلجأ الثلاثة إلى التزوير والقمع وحسب ، بل نددوا بنقاط الضعف وانعدام التماسك ، الحقيقية أو الظاهرة ، في موقف تروتسكي وألحوا كثيراً عليها . ظل تروتسكي يستند الى الاحتكار البلشفي للسلطة ، وكان يدعو الحزب الى الاحتفاظ به كالضمان الوحيد للفتوحات الثورية ، بصورة اكثر إقناعاً بكثير من الثالوث ؛ وكان يعيد تأكيد إرادته هو بالدفاع عن ذلك الاحتكار وتعزيزه . أما تحفظه الوحيد فكان يتعلق باحتكار السلطة ، داخل الحزب ، من جانب الحرس القديم ، ذلك الاحتكار الذي كانت تتم ممارسته بواسطة الجهاز . لم يكن صعباً بالنسبة لخصومه البرهان على أن احتكار الحرس القديم لم يكن غير النتيجة الضرورية للاحتكار البلشفي ، على اساس انه لا يمكن للحزب الحفاظ على ذلك الاحتكار إلا بتفويضه للحرس القديم . كان تروتسكي يوضح بأن من الضروري إيلاء الثقة للـ ٤٠٠ الف عضو في الحزب ، وتركهم يمارسون احكامهم ويشاركون كلياً في تكوين الخط السياسي . وقد تساءل خصومه بعدئذٍ : لماذا رفض الحزب ، بإيحاء من لينين وموافقة من تروتسكي ، إيلاء الثقة في السنوات الاخيرة لجمهور الاعضاء ؟ ألم يكن ذلك لأن عناصر غريبة ، منشفية سابقة ، وانتهازية لا بل من

(٨٢) انظر مثلاً اجوبة ستالين في سوش ، ج ٥ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٧ ، وج ٦ ، ص ٥ - ٤٠ .

النيبمان ، تسللت الى الحزب ؟ ألم ينفصل حتى بلاشفة أصيلون عن رفاقهم وتركوا السلطة والامتيازات تفسدهم ؟ كان تروتسكي يؤكد ان التطهيرات التي اقصت مئات الآلاف من الأعضاء طهرت الحزب بما يكفي وأعادت إليه نزاهته . لكن ألم يرد لينين واللجنة المركزية مراراً بأن ذلك لم يكن كافياً ؟ ألم يتطلعا الى تطهيرات دورية جديدة ؟ ألم يعترفا مع زينوفييف بأنه لا مفر من أن يضم الحزب ـ لأنه كان يتمتع بالضبط باحتكار السلطة ـ « مناشفة غير واعين » وحتى « اشتراكيين ثوريين غير واعين » ؟ لم يكن يمكن لتطهير واحد أن يقصي كل تلك العناصر الغريبة ، هذا عدا اولئك المفتقرين الى النضج السياسي . ومع إقصائهم ، كان لا بد ان يعودوا الى الظهور . وإذا كان ارتئي أن من الضروري طرد ثلث الأعضاء في سنة واحدة ، فكيف يمكن « الحزب » الثقة بحكم الجماهير والسماح لها بممارسة « حقوقها » كلياً ؟ .

احتج تروتسكي على القمع الذاتي المجنون للبلشفية ، الذي لم يكن مع ذلك غير النتيجة المحتومة لتصفية البلاشفة لكل أعدائهم . فإذا جرى التسامح داخل الحزب مع التنافس الحر لكل الاتجاهات ، الم يكن يتم السماح بذلك بالذات للـ « مناشفة غير الواعين » بأن يغدوا واعين ، وبأن يشكلوا تياراً متمايزاً ومحدداً من تيارات الرأي ، ألم يكن يهيىء ذلك انفجار الحزب ؟ كانت وحدانية الاتجاه تمنع الجمهور غير المتماسك من وعي انعدام تماسكه ، ومن التعبير عنه ، وتضمن بذلك الوحدة بصورة آلية . لقد فهم انصار الثالوث الأكثر تجربة بأن الاخطار التي اشار اليها تروتسكي كانت حقيقية بالفعل : كان يمكن للحرس القديم أن ينحط ، وكانت أحادية الاتجاه تهدد بتنمية الاستياء والتسبب بعصيانات متفرقة يمكن ان تؤدي كذلك الى انشقاقات . لكن ما من واحدة من الطرقات التي كان يمكن ان يختارها الحزب كانت معصومة من الاخطار . وفي حزب احادي الاتجاه ، لم تكن حركة انشقاق تصادف السهولات ذاتها التي تنطوي عليها منظمة خاضعة للقواعد الديمقراطية ، إذ يمكن لجهاز الحزب ان يكتشفها في الوقت المناسب ، ويسحقها وهي بعد في البيضة ، وأن يحمي هكذا الحزب من العدوى ، الى هذا الحد أو ذاك .

بتعابير اخرى ، كان يتعرض الحزب لخطر فقدان وجهه الاشتراكي ـ البروليتاري ، خطر « الانحطاط » ، وذلك سواء سلم مصيره لجمهور الاعضاء الواسع أو للحرس القديم . كان الأمر كذلك لأن أغلبية الأمة لم تكن مقتنعة بالاشتراكية ، لأن الطبقة العاملة كانت لا تزال مشتتة ولأنه لما لم تكن الثورة غزت الغرب ، فعلى روسيا ان تعتمد على مواردها المادية والروحية الخاصة بها وحسب . إن الوضع بالذات هو الذي كان ينطوي على إمكانية «انحطاط» ما: كان يبقى تحديد ما إذا كان يكمن خطر ذلك في

جمهور الاعضاء غير المتماسك داخل الحزب أو في الحرس القديم. وكان طبيعياً أن يثق الحرس القديم، أو أكثريته، بتراثه وبأصالته الاشتراكية اكثر بكثير مما بردود الفعل السياسية لـ ٤٠٠ ألف شخص يحملون بطاقة الحزب. وفي الحقيقة، لم يكن تروتسكي يطلب الى الحرس القديم ان يّمحي، بل كان يطالبه فقط بالحفاظ على سلطته بطرائق ديمقراطية. لكن الحرس القديم لم يكن يصدق بأن هذا ممكن، وكان محقاً في ذلك على الأرجح. كان يخشى القيام بهكذا مخاطرة، وكان من مصلحته الطبيعية الاحتفاظ بالامتيازات السياسية التي حصل عليها.

إن إصلاح الحزب الذي كان تروتسكي يجعل من نفسه محاميه كان يمكن ان يجري تصويره كالخطوة الأولى نحو إعادة تلك المؤسسات السوفياتية الحرة التي سعى الحزب لإرسائها في عام ١٩١٧ ، كبداية عودة للديمقراطية العمالية ، وتفكيك تدريجي لنظام الحزب الواحد . كانت تلك تقريباً فكرة تروتسكي[٨٣] . لكنه لم يعبر عنها ، إما لأنه كان يعتبرها بديهية ، لكن دون الاعتقاد بأن الوقت وقت توجيه الاتهام لنظام الحزب الواحد وإضعافه ، أو لأنه لم يكن يريد فسح المجال أمام اتهامات جديدة ومضرة ولا تعقيد المساجلة من دون سبب . ومن المرجّح أن السببين لعبا دوريهما في آن معاً . وفي الواقع أنه كان يطالب للبلاشفة بامتياز مزدوج : احتكار الحرية بقدر ما احتكار السلطة . إلا أن هذين الامتيازين لم يكونا يتفقان ، فلم يكن يمكن للبلاشفة ان يحتفظوا بسلطتهم دون التضحية بحريتهم .

كانت هنالك نقطة ضعف أخرى في موقف تروتسكي . فقد كان يريد أن يحتفظ الحزب بوجهه الاشتراكي ـ البروليتاري ، وفي الوقت ذاته كان يبيّن أن عمال المصانع لا يشكلون غير أقلية صغيرة ، سدس اعضاء الحزب وحسب . كانت تضم الاغلبية مدراء صناعيين ، وموظفين ، ومفوضين ، ومتفرغين حزبيين ، الخ . (بين هؤلاء الاخيرين ، كان البعض من أصل بروليتاري ، لكنهم كانوا يندمجون اكثر فأكثر في البيروقراطية المهنية الموروثة من القيصرية) . هكذا سيتجه تأثير العمال إلى أن يكون بالغ الضآلة وتأثير العناصر البيروقراطية لفرض نفسه ، وذلك بالتحديد إذا كانت الديمقراطية سائدة داخل الحزب . كان تروتسكي يطالب بالتالي الحزب بتنسيب المزيد من العمال و « تقوية خلاياه البروليتارية » . لكنه كان يلح كذلك على أن يتصرف الحزب بحذر وينظم بعنايةٍ قبول اعضاء عمال جدد مخافة أن يغمره جمهور أمي وعديم التجربة السياسية[٨٤] . كان هذا

(٨٣) انظر ملاحظات تروتسكي حول التصويت السري في الاتحاد السوفياتي في « رسالة الى الاصدقاء » ، بتاريخ ٢١ تشرين الاول / اوكتوبر ١٩٢٨ . المحفوظات .

(٨٤) التوجه الجديد ، ص ٢٠ ـ ٢١ .

الوضع يبدو غريباً في تناقضه الى حد بعيد ، من أي زاوية يتم النظر اليه . لم يكن يمكن تطبيق القواعد الديمقراطية ان يجعل الحزب ديمقراطياً وذلك لأنه لم يكن يمكنه إلا أن يقوّي بيروقراطيته ، ولن يصبح الحزب اكثر استنارة ولا اكثر اشتراكية بفتح ابوابه على مصراعيها للطبقة العاملة .

اين كان يكمن إذاً الوجه البروليتاري للحزب ؟ قد يسهل القول ان القادة البلاشفة ، ومن بينهم تروتسكي ، كانوا يستسلمون لميثولوجيا لم يكن لها أية علاقة بالتركيب الاجتماعي للحزب وبموقفه الحقيقي تجاه الطبقة العاملة . وفي الحقيقة ، كانت المساجلة بين البلاشفة تساق إلى حد ما بتعابير شبه ميثولوجية تعكس تلك « الاستبدالية » التي قادت الحزب (ثم الحرس القديم) إلى اعتبار نفسه كوكيل الطبقة العاملة . ما كان أي من الفريقين المتواجهين يستطيع التسليم بذلك الاستبدال بصراحة وبصورة كلية . ما كان يمكن لأي منهما أن يقول إنه مَقضيٌّ بملاحقة المثل الأعلى البروليتاري للاشتراكية من دون مساندة البروليتاريا ، فاعتراف من هذا النوع لا يتوافق مع كل تراث الماركسية والبلشفية . لقد لزم تدبير محاجة معقدة ، واصطناع لغة خاصة وملتبسة لحجب ذلك الوضع البائس وتفسيره في الوقت ذاته بصورة مُرضِية . ومن هذه الناحية تقع التبعة الكبرى على الثالوث ، فلقد تجمدت ميثولوجيا الاستبدالية ، في نهاية المطاف ، في العبادات الصارمة للستالينية . لكن حتى تروتسكي الذي كان يسعى ، مع ذلك ، لأن يقلب جزئياً سيرورة الاستبدال ويناضل لهدم البنية الاكثر فأكثر سماكة للميثولوجيا الجديدة ، لم يسعه إلا أن يرزح تحتها(٨٥) .

وفي الحقيقة أن البيروقراطية البلشفية كانت قد غدت القوة الوحيدة المنظمة والناشطة سياسياً في المجتمع كما في الدولة . كانت احتكرت السلطة السياسية التي انزلقت من بين يدي الطبقة العاملة ، وتقف فوق كل الطبقات الاجتماعية التي كانت مستقلة سياسياً عنها . ومع ذلك لم يكن الوجه الاشتراكي للحزب محض اسطورة ، فلا يكفي القول إن البيروقراطية البلشفية تعتبر نفسها ، ذاتياً ، كلسان حال الاشتراكية ، وإنها كانت تعنى على طريقتها ، بتراث الثورة البروليتارية . ومن الناحية الموضوعية أيضاً ، وتحت ضغط

(٨٥) هكذا إذ اعتبر تروتسكي المقارنات التي أقامها المناشفة والليبراليون بين البلشفية واليعقوبية ، « سطحية وغير متماسكة » ، كتب ان هزيمة اليعقوبيين نتجت عن نقص النضج السياسي لدى انصارهم وان وضع البلاشفة « أفضل بما لا يقاس » من هذه الناحية . « تشكل البروليتاريا نواة الثورة الروسية وجناحها اليساري . . والبروليتاريا بالغة القوة سياسياً بحيث في حين تسمح ، ضمن بعض الحدود ، بتكوّن بورجوازية جديدة . . تسمح للفلاحين بالمشاركة . . مباشرة . . في ممارسة السلطة . » المرجع ذاته ، ص ٤٠ . (التشديد من المؤلف) .

الظروف ، اضطرت لتجعل من نفسها الفاعل الرئيسي ، والمحرك الرئيسي ، لمسيرة البلاد نحو الجماعية . إن ما حكم ، في نهاية المطاف ، سلوك البيروقراطية وسياستها ، نجم عن انها كانت تحمل مسؤولية الموارد الصناعية ، تلك الموارد التي كانت تملكها دولة الاتحاد السوفياتي . كانت تمثل مصالح « القطاع الاشتراكي » في الاقتصاد بمواجهة مصالح « القطاع الخاص » اكثر مما المصالح الخاصة لطبقة اجتماعية . ولم يكن بإمكان البيروقراطية البلشفية الادعاء بأنها تعمل باسم الطبقة العاملة إلا بمقدار ما تتطابق المصلحة العامة للـ « قطاع الاشتراكي » مع المصلحة العامة أو « التاريخية » لتلك الطبقة .

كان للـ « قطاع الاشتراكي » متطلباته الخاصة به وقانون تطوره الخاص به . وكان يحتاج بادىء ذي بدء للحماية في وجه إعادة إجمالية للرأسمالية ، وحتى في وجه انبعاث جزئي لكن كثيف للمنشأة الخاصة . كان قانون تطوره يتطلب تخطيط كل قطاعات اقتصاد الدولة والتنسيق فيما بينها وتوسعها السريع ، وإلا سيحل الاضمحلال والخراب . كان ينبغي أن يتم التوسع ، جزئياً على الأقل ، على حساب « القطاع الخاص » ، عن طريق امتصاص موارده ؛ وهو ما كان سيولد نزاعاً بين الدولة والملكية الخاصة ، نزاعاً لم يكن يمكن للبيروقراطية البلشفية إلا أن تصطف فيه ، في النهاية ، بجانب « القطاع الاشتراكي » . ولن يمكنها ، بالتأكيد وحتى آنذاك ، ان تحقق الاشتراكية ، التي تفترض مسبقاً الوفرة الاقتصادية ، ومستويات عالية جداً من المعيشة والتربية ، وبصورة أعم من الحضارة ، وتفترض زوال التناقضات الاجتماعية ونهاية سيطرة الانسان على الانسان ، وفي الاخير مناخاً روحياً يتناسب مع ذلك التحول العام للمجتمع . لكن الاقتصاد المؤمم هو بالنسبة للماركسية الشرط المسبق الاساسي للاشتراكية ، وركيزتها الطبيعية . كان يمكن التصور تماماً بأنه لا يمكن التوصل لبناء الاشتراكية ، حتى مع توفر هذه الركيزة ، لكنه لم يكن يمكن ان نتصور إمكانية بنائها من دونها . ذلك الاساس لقيام الاشتراكية هو ما لم يكن يمكن للبيروقراطية البلشفية إلا أن تدافع عنه .

في التاريخ الذي نحن بصدده ، اي في ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ، لم تكن البيروقراطية البلشفية واعية ، إلا بشكل غامض ، طبيعة المصالح التي كانت مرتبطة بها . كانت مربكة وشبه مبلبلة بنتيجة سلطتها التي لا مثيل لها على الموارد الصناعية للأمة ، ولم تكن تعرف بصورة جيدة كيف تستخدمها . كانت تنظر الى الطبقة الفلاحية المتعلقة بالملكية ، وهي تشعر بالضيق ، لا بل بالخوف تقريباً ، وكانت حتى تميل مؤقتاً لايلاء مطالبها أهمية اكبر من تلك التي كانت توليها لمصالح « القطاع الاشتراكي » . وسوف ننتظر سلسلة من الصدامات والصراعات قبل أن تنساق البيروقراطية البلشفية الى التماثل بشكل حصري

وبصورة لا رجعة فيها مع « القطاع الاشتراكي » ، والى خدمة مصالحه .

كان ذلك قدر تروتسكي الخاص أنه في الوقت ذاته الذي كان يبدأ فيه صراعه ضد ادعاء البيروقراطية وصلفها السياسي ، حاول أن يجعلها تعي « رسالتها التاريخية » ؛ ولم تكن مرافعته لصالح التراكم البدائي الاشتراكي تستهدف شيئاً آخر . بيد ان ذلك التراكم ، منظوراً اليه ضمن الظروف التي كان سيتم فيها ، كان يتوافق بصعوبة مع الديمقراطية العمالية . كيف يمكن التفكير بأن يتخلى العمال طوعاً عن « نصف اجرهم » لصالح الدولة، وفق ما كان يطلب تروتسكي اليهم، من اجل تشجيع التثمير القومي؟ يمكن للدولة أن تنتزع منهم نصف اجرهم عن طريق القوة وحسب. ولبلوغ ذلك، ينبغي حرمانهم مسبقاً من كل وسيلة احتجاج وتدمير آخر آثار الديمقراطية العمالية. سوف يظهر وجها البرنامج الذي عرضه تروتسكي عام ١٩٢٣، في مستقبل وشيك، متعارضين، وهنا كان يكمن الضعف الاساسي لموقفه. كانت البيروقراطية تستشيط غيظاً ضد جزء من ذلك البرنامج، الجزء الذي يطالب بالديمقراطية العمالية؛ إلا أنها بعد ان قاومت كثيراً وترددت وسوّفت، سوف تطبق الجزء الثاني، ذلك المتعلق بالتراكم البدائي الاشتراكي.

في نهاية العام ، وفي حين كانت الاستعدادات للمؤتمر التداولي الثالث عشر على قدم وساق ، في ذروة الصراع ضد المعارضة ، ساءت صحة تروتسكي . فالحمى كانت تلازمه ، وكان مرهقاً بدنياً ومكتئباً . كان قد بدأ يحس بأن الشعور بالهزيمة القريبة يكتسحه ، فالحملة التي كانت تشن ضده ، مفعمةً باتهامات لا تنقطع وأكاذيب ومناورات خفية ، كانت لا تزال تبدو له شبه وهمية ، لكنها كانت تسبب لديه مع ذلك إحساساً بالعجز . لم يكن يمكنه إلا أن يدافع عن قضيته ، لكن دفاعه كان يغرق في الضوضاء العامة . (رفضت مطابع الدولة حتى أن تنشر كراسه ، التوجه الجديد ، بحيث لم يمكن ايصاله الى الخلايا قبل افتتاح المؤتمر التداولي الثالث عشر) . كانت معنوياته تتأرجح بين الحماس الشديد والفتور . هكذا حين أمره أطباؤه بمغادرة موسكو ، حيث كان البرد قارساً ـ كان الشتاء قاسياً في ذلك العام بشكل استثنائي ـ وبالمضي للمعالجة على الساحل القوقازي للبحر الاسود ، استنح فرصة الافلات من جو العاصمة الخانق[٨٦] .

(٨٦) كانت نشرة عن صحة تروتسكي ، وقعها سيماشكو مفوض الصحة العامة وخمسة من اطباء الكرملين تتحدث عن انفلونزا والتهابات في المجاري التنفسية العليا ، وعن توسع للشُعب الرئوية وحرارة متواصلة (لا تتجاوز ٣٨°) ، وفقدان في الوزن والشهية ، وانخفاض القدرة على العمل . رأى الاطباء من الضروري تحرير المريض من كل مهامه ونصحوه بمغادرة موسكو والمضي للخضوع « لمعالجة مناخية تدوم شهرين على الاقل » . اما النشرة الموقعة في ٢١ كانون الاول / ديسمبر ١٩٢٣ ، فقد ظهرت في البرافدا في ٨ كانون الثاني / يناير ١٩٢٤ .

كان يتهيأ للقيام بتلك الرحلة حين افتُتح المؤتمر التداولي الثالث عشر في ١٦ كانون الثاني / يناير ١٩٢٤ . وضع الثالوث مشروع قرار يندد تنديداً عنيفاً بتروتسكي والـ ٤٦ ، متهماً إياهم بـ « انحراف بورجوازي صغير » . وقد تمحورت النقاشات بصورة شبه كاملة حول هذا الموضوع . ولما كان تروتسكي غائباً ، فقد عرض وجهة نظر المعارضة كل من بياتاكوف ، وبريوبراجنسكي ، وڤ . سميرنوف ، ورادك . رد المثالثون وانصارهم بهجوم مضاد مسموم وملأت اجوبتهم اعمدة الصحف . كانت القرارات متخذة سلفاً . كانت الأمانة العامة سيطرت بقوة على المصوّتين بحيث لم يعارض مشروع القرار الذي يدين تروتسكي غير ثلاثة أصوات . وحتى إذا اخذنا بالحسبان التوضيحات حول نفوذ المعارضة ، التي قدمها أنصار ستالين وزينوڤييف خلال المؤتمر التداولي، فقد كان بديهياً أن ذلك التصويت تعرض لتزوير مضحك وبشع ؛ لم يمكن أن يبدو إلا كمزحة ثقيلة[٨٧]. لكن لم يهتم الثالوث ، بسابق تصور وتصميم ، بالحفاظ على مظاهر سلوك سياسي طبيعي ، وكان اطرافه يريدون بذلك أن يفهم الحزب بأنهم لن يدعوا شيئاً يقف في وجههم ، وبأن كل مقاومة عديمة الجدوى . كانت الخلايا تفهم مذاك أنْ باستطاعتها الاحتجاج، والصياح ، لكن أن كل الضجيج الذي قد تحدثه لن تكون له أدنى فرصة للتأثير ولو قليلاً على القرارات الرسمية . كان ذلك كافياً للبرهان على عجز المعارضة ، ولتعميم الاحباط في صفوفها .

في ١٨ كانون الثاني / يناير ، بدأ تروتسكي رحلته البطيئة الى الجنوب ، دون ان ينتظر إصدار الحكم . بعد ذلك بثلاثة أيام ، كان قطاره في محطة تفليس ، فجاءته برقية منّ ستالين تعلمه بوفاة لينين . وقد صدمت تلك النائبة تروتسكي كما لو كانت غير متوقعة ؛ فحتى النهاية ، اعتقد أطباء لينين ـ وتروتسكي اكثر منهم ـ بأن لينين يمكن ان يشفى . وقد حرر للصحف ، بصعوبة ، رسالة حداد قصيرة تقول : « لينين لم يعد حياً . هذا الخبر ينهال علينا كصخرة ضخمة في البحر[٨٨] . » . فقد تروتسكي آخر وميض أمل : لن يعود لينين ليتلف عمل المثالثين ويمزق قراراتهم الاتهامية .

وفي لحظة ما ، تساءل تروتسكي إذا لم يكن عليه ان يعود إلى موسكو[٨٩] . وقد

---

(٨٧) وفقاً لريكوف ، نال بياتاكوف اغلبية لصالح اقتراحات المعارضة في كل خلايا موسكو التي تكلم فيها (١٣ كونفرنتسيا ر ك ب (ب) ، ص ٨٣ ـ ٩١) . واكد ياروسلافسكي ان ثلث الخلايا العسكرية في موسكو صوتت للمعارضة قبل وقف النقاش في الحامية ، وان غالبية خلايا الطلاب فعلت الشيء نفسه . المرجع ذاته ، ص ١٢٣ ـ ١٢٦ .

(٨٨) تروتسكي ، أو لينين ، ص ١٦٦ ـ ١٦٨ .

(٨٩) حياتي ، ص ٥١٤ .

اتصل بستالين وطلب نصيحته ، فأجابه هذا بأن المأتم سيتم في الغد ، وبأنه لن يستطيع العودة في الوقت المناسب لحضوره ، وبأن من الأفضل بالتالي أن يبقى هناك ليبدأ علاجه . وفي الواقع أن مأتم لينين تم بعد ايام عديدة ، في ٢٧ كانون الثاني / يناير . وبالطبع كانت لدى ستالين أسبابه لإبقاء تروتسكي بعيداً عن موسكو خلال المراسم المعقدة التي قدم الثالوث نفسه للعالم أثناءها كخليفة لينين . ومن تفليس بلغ تروتسكي محطة حمامات سوكوم ، نصف هاذٍ من الحمّى ، وهناك تحت شمس نصف مدارية ، وسط النخيل والميموزا المزهرة والكاميليا ، أمضى أياماً طويلة ممدداً على شرفة مصح ؛ وقد تسنى له الوقت الكامل ليتذكر في وحدته الاقدار الغريبة لتعاونه مع لينين ، الصداقة التي أبداها له حين استقبله للمرة الأولى في لندن ، عام ١٩٠٢ ، ثم خلافاتهما العنيفة ، فمصالحتهما النهائية وكل السنوات العاصفة والظافرة التي أمسكا فيها ، جنباً الى جنب ، بدفة الثورة . كما لو كان الشطر الظافر من حياته قد نزل مع لينين الى القبر .

ذكريات أيضاً ، وحمّى ، وحزن ووحشة . لكن رسالة حارة من أرملة لينين ، المضعفة واليائسة ، حملت إذاك قليلاً من التعزية للرجل الذي ادهش العالم بفتوحاته وبمقدرته . كتبت كروبسكايا انه قبل وفاة لينين بوقت قصير اعاد لينين قراءة الصورة التي رسمها تروتسكي عنه ، وتأثر تأثراً واضحاً ، لا سيما لدى قراءته المقارنة بين ماركس وبينه : كانت تريد ان يعلم تروتسكي جيداً ان لينين احتفظ له حتى النهاية بالصداقة ذاتها التي محضه إياها أثناء لقائهما الأول في لندن[٩٠] .

ثم عاد الاكتئاب مجدداً . كان ذهن المريض لا يزال يتغذى بالذكريات حين أعادته رسالة من ولده ليوفا الى الهموم الراهنة ، بصورة فظة . وصف له ليوفا الاخراج الضخم الذي تم لمأتم لينين في موسكو والطواف الشعبي الهائل حول النعش ، وأبدى لوالده دهشته وقلقه إزاء غيابه . إذاك فقط ، فيما يقرأ تروتسكي رسالة ولده اليافع المحبطة ، فهم - كما يبدو - انه ربما اقترف خطأ حين لم يعد الى موسكو . فالجماهير التي مرت أمام نعش لينين لاحظت بقوة أعضاء المكتب السياسي الذين كانوا يشكلون حرس الشرف ، كما لاحظت غياب تروتسكي . الهبت خيالها أبّهة المراسم ، وتساءلت وهي في هذه الحالة النفسية لماذا لم يكن تروتسكي هناك . ألم يكن ذلك بسبب الخلافات التي وضعته ، حسب رواية

---

(٩٠) بعد سنوات طويلة ، وفي حين كان تروتسكي في المنفى ، أسرّت كروبسكايا للكونت م . كارولي ولامرأته : كان (تروتسكي) يحب فلاديمير ايليتش كثيراً ؛ حين علم بموته ، غاب عن الوعي ما يقرب من ساعتين » . مذكرات ميكايل كارولي ، ص ٢٦٥ ، (الطبعة الانكليزية) .

الثالوث ، بمواجهة القائد الراحل ، ألم يكن ذلك بسبب « انحرافه البورجوازي الصغير » ؟ .

غذى غياب تروتسكي الاشاعات والأقاويل ، في موسكو ، وكان يترك الميدان فارغاً لخصومه . كانت تلك فترة نشاط كثيف في الكرملين ، فترة قرارات مهمة . تمت تسوية خلافة لينين في الحكومة كما في الحزب بالصورة الأكثر رسمية . خلف ريكوف لينين في رئاسة مجلس مفوضي الشعب ، وحل دزرجنسكي محل ريكوف في المجلس الاعلى للاقتصاد القومي (تم تعيين ريكوف رئيساً لأنه كان نائب لينين ، ولو قبل تروتسكي ، هو الآخر ، ان يكون نائباً للرئيس ، لكان صعباً تخطيه لتعيين ريكوف) . وقد تحرك المثالثون من جديد ، وهذه المرة بفظاظة اكبر ، للحصول على الاشراف على مفوضية الحرب . ازاحوا من المفوضية سكليانسكي ، المساعد المخلص لتروتسكي ، وأرسلوا وفداً خاصاً الى سوكوم ليعلموا تروتسكي باستبدال سكليانسكي بفرونزي ، وكان من أنصار زينوفييف. ولم يمر عام حتى حل فرونزي محل تروتسكي في مفوضية الحرب . وكان المكتب السياسي واللجنة المركزية يقومان أيضاً بتطبيق قرار المؤتمر التداولي الثالث عشر المتعلق بكمّ فم المعارضة : جرى إقصاء معارضين جدد أو فصلهم أو إنزال العقاب بهم . وبذلت مصالح الدعاوة كل جهدها لإرساء عبادة لينين ، التي كانت ستستخدم بموجبها كتابات لينين ، كإنجيل للرد على كل اعتراض وكل نقد ، عبادة معدة في الأصل لتقديم « سلاح ايديولوجي » ضد التروتسكية .

أخيراً وبوجه خاص ، سرق الثالوث من تروتسكي بعض اسلحته الأخرى . كان تروتسكي قد أعلن ان ضعف « الخلايا البروليتارية » هو السبب الرئيسي للتشويه البيروقراطي للحزب ، وطلب فتح صفوف الحزب بشكل اوسع لأعضاء الطبقة العاملة . ولا شك أن ذلك عاد عليه بتعاطف العمال . وقد قرر الثالوث تدشين سياسة تنسيب ضخمة في المصانع ، لكن في حين أوصى تروتسكي بالقيام باختيار صارم ، قرر الثلاثة إتمام تنسيبات حاشدة ، والقبول بكل عامل يقدم طلب انتساب والغاء كل الاختبارات وشروط القبول . أوصوا في المؤتمر التداولي الثالث عشر بتنسيب مئة ألف عامل دفعة واحدة . وبعد وفاة لينين ، فتحوا أبواب الحزب بصورة أوسع ايضاً ، ففي شباط / فبراير وأيار / مايو ١٩٢٤ ، تم قبول ٢٤٠ ألف عامل[٩١] . وكان ذلك تحقيراً للمبدأ البلشفي في التنظيم الذي كان يشترط على الحزب ، بما هو نخبة وطليعة للبروليتاريا ، ألا يقبل غير

---

(٩١) انظر تقرير مولوتوف حول « فوج لينين » ، في ١٣ سييزد ر ك ب (ب) ، ص ٥١٦ .

العناصر المتقدمة سياسياً والمختبرة في النضال . وبين جمهور المسجلين الجدد ، كانت نسبة العناصر المفتقرة الى النضج السياسي ، والحمقى ، والبليدين ، والمنقادين ، والوصوليين وهواة المناصب المربحة ، نسبة عالية . وقد تلقى المثالثون القادمين الجدد بحماس ، وتملقوهم ، وتزلفوا لهم ، ممجدين الفطرة والوعي الطبقي الدقيقين والمعصومين اللذين دفعاهم الى صفوف الحزب .

هذا التطويع ، الذي أعطي تسمية « فوج لينين » ، جرى تصويره على أنه الاجلال العفوي من جانب الطبقة العاملة للينين وتجديد لشباب الحزب . بدا كما لو أن المثالثين يقولون لتروتسكي : « كنت تظن أنك ستحظى بالشعبية في صفوف العمال بلعبك ورقتهم ضد البيروقراطيين وبتوضيحك ضرورة تقوية العنصر البروليتاري في الحزب . لقد قوّيناه وذلك من دون أي من هواجسك : اجتذبنا الى الحزب ربع مليون عامل . فماذا كانت النتيجة ؟ هل اصبح الحزب أنبل واكثر ديمقراطية ، واشتراكياً ـ بروليتارياً اكثر ؟ هل أضعف ذلك البيروقراطية ؟ » لقد شكل « فوج لينين » في الواقع أنصاراً مخلصين للمثالثين سرعان ما دعوهم للنضال ضد المعارضة . وقد فهم تروتسكي ما كان يعني الاستغلال الديماغوجي لفكرته ، لكنه لم يتمكن من اصدار احتجاج واحد ضد « فوج لينين » ، فلو فعل ذلك لطورد بالصياح كعدو للعمال وكالمرائي الذي زعم في البدء أنه يرغب في رؤ ية عدد اكبر من البروليتاريين في الحزب ، ولكنه لم يكن يستطيع الآن اخفاء خوفه من ذلك وطبيعته الحقيقية كبورجوازي صغير . تحمل المصيبة ، وتضامن حتى مع الإطراءات الرسمية لـ « فوج لينين »(٩٢) .

إن تحفظ تروتسكي في لحظة بتلك الحراجة بالنسبة لمصيره ومصير حزبه قد نتج ، طبعاً ، عن مرضه ، جزئياً . لكن ما كان يتآكله أكثر ايضاً ، فقد كان الشعور بأن التيار ضده ، تيار مجهول حاول تقديره وقياسه بتعابير ماركسية . كان يقول لنفسه إن الثورة في حالة جزر ، وانه ، هو وأصدقاءه ، كانوا ضحايا موجة قعر رجعية . كانت طبيعة تلك الردة كدِرة ومثيرة للكدر : كانت تبدو ـ لا بل كانت إلى حد ما ـ امتداداً للثورة . وكان

---

(٩٢) في خطاب له في تفليس (١١ نيسان / أبريل ١٩٢٤) قال : « إن العامل السياسي الأهم في الأشهر الاخيرة . . كان دخول، عمال المصانع الى الحزب . هذه هي الطريقة الفضلى لدى (الطبقة العاملة) . . . للتعبير عن إرادتها . . . وإثبات ثقتها بالحزب الشيوعي الروسي . . . إنها علامة صادقة ، وأكيدة ، ولا تخطىء . . . اكثر إقناعاً بكثير من أي انتخاب برلماني » (كلام لتروتسكي مستشهد به ، زاياد اي ڤوستوك ، ص ٢٧) . ولقد تأمل تروتسكي هذه « العلامة » بعد اثنتي عشرة سنة فكتب : « استغل الفريق الحاكم وفاة لينين فأعلن تنسيب « فوج لينين » . . وقد تحقق الهدف السياسي من وراء تلك المناورة . . . فـ « فوج لينين » وجه ضربة مميتة لحزب لينين ! » الثورة المغدورة ، ص ٩٧ ـ ٩٨ (الطبعة الانكليزية .

تروتسكي مقتنعاً بأن عليه مقاومتها ، لكن لم يكن يرى بوضوح بأية وسائل ، وما هي المنظورات المستقبلية . كان ذلك تيار وحل وطين لم يكن في وسعه التخلص منه . كان يستحيل إبراز أي من المشكلات التي كان أعضاء المكتب السياسي يتخاصمون بشأنها بكل ما فيها من الوضوح . كان كل شيء مبلبلاً ، وكان يجري النزول بأعظم المسائل إلى مستوى المكيدة الخسيسة . ولو أن تروتسكي سعى وراء السلطة الشخصية ، كما كان يزعم خصومه ، لكان تصرف بالتأكيد بشكل مختلف . لكنه كان يرفض ، بكل كيانه ، أن ينخرط في المعترك ، وكان سعيداً ، ربما بصورة نصف واعية ، بالهرب إلى وحدة القفقاز الكئيبة .

في الربيع ، عاد الى موسكو بعد أن تحسنت صحته . كان الحزب يضع اللمسات الاخيرة على الاعدادات للمؤتمر الثالث عشر الذي تمت الدعوة لانعقاده في شهر أيار / مايو . اجتمعت اللجنة المركزية والمندوبون السابقون في ٢٢ أيار / مايو للاطلاع على وصية لينين التي احتفظت بها كروبسكايا الى ذلك الحين . وقد كان لتلاوة الوصية تأثير القنبلة ، فالحاضرون ارتبكوا ارتباكاً شديداً وهم يصغون الى ذلك المقطع الذي يندد فيه لينين بفظاظة ستالين وخساسته ويطلب الى الحزب ان يسحب منه منصب الامانة العامة . بدا ستالين مسحوقاً . ومرة اخرى كان مصيره في الميزان ، ففي حين كانت ذكرى لينين موضع الاجلال في كل مكان ، وفي حين كان الناس يقسمون ساجدين في كل آنٍ بأن يبقوا أوفياء لـ « كلام لينين المقدس » ، بدا أمراً لا يقبل التصور ألا يأخذ الحزب بالحسبان نصيحته الاخيرة .

إلا أنه تم إنقاذ ستالين مرة أخرى بفضل إخلاص ضحاياه اللاحقين . لقد هرع لنجدته كل من زينوڤييڤ وكامينيف ، اللذين كانا يمسكان بمصيره بين يديهما . رَجَوَا رفاقهما بأن يتركوه في منصبه ، أبديا كل الحماس الذي كانا قادرين عليه واستخدما مواهبهما المسرحية لاقناعهم بأن الأخطاء التي اقترفها ستالين لم تكن خطيرة ، وبأن هذا الاخير اعترف بها إلى حد بعيد، وذلك رغم أن لينين اعتبره مذنباً. اعلن زينوڤييڤ ان كلام لينين مقدس، وأنه لو أمكن لينين ان يلاحظ، مثلنا جميعاً، جهود ستالين الصادقة لاصلاح أساليبه لما كان طلب الى الحزب أن يطرده من منصبه. (في الواقع، كان الوضع المربك الذي وجد ستالين نفسه فيه يناسب زينوفييف، الذي كان بدأ يخافه لكنه لم يكن يجرؤ على وضع حد للشركة القائمة. كان زينوفييف يأمل الحصول على عرفان ستالين بالجميل واستعادة موقعه كالمثالث الأول).

كل الأعين كانت موجهة الآن الى تروتسكي . هل ينهض لفضح الدجل والمطالبة

بأن يتم إحترام إرادة لينين ؟ لم يتلفظ بكلمة واحدة . اكتفى بتقطيب الوجه وهز الكتفين كتعبير عن احتقاره لمشهد من هذا النوع واشمئزازه منه . ما كان يستطيع توطيد العزم على التدخل في قضية كانت تضع بذلك الوضوح وضعه الخاص به في الميزان . لقد تقرر تجاوز توصيات لينين المتعلقة بستالين . لكن هكذا لم يكن يمكن نشر وصية لينين ، لأنه سيفقأ الأعين إذاك الدجل والسخرية في كل الإخراج المسرحي لعبادة لينين . ورغم احتجاجات كروبسكايا ، قررت اللجنة المركزية بأكثرية ساحقة إبقاء الوصية طي الكتمان . وقد احتفظ تروتسكي بالصمت حتى النهاية ، كما لو كان يخدره اشمئزاز عصيّ ويجمّده[٩٣] .

عقد المؤتمر الثالث عشر جلساته خلال الاسبوع الاخير من أيار / مايو . طلب المثالثون إلى المؤتمرين أن يتلفظوا من جديد ، مع كل العلنية والاحتفالية المشتهاتين ، باللعنة ضد تروتسكي التي كان مؤتمر كانون الثاني / يناير التداولي سبق أن صاغها ، لكن بسلطة أقل . غرقت النقاشات في فيض من التشهيرات . ارغى زينوفييف وأزبد قائلاً : « إن حزباً وحيد الاتجاه هو اليوم اشد ضرورة من أي يوم مضى »[٩٤] . وقبل اشهر ، كان حث شريكيه على طرد تروتسكي من الحزب ، وحتى على توقيفه . لكن ستالين ، الذي احتفظ ببرودة أعصابه ، رفض وسارع الى الاعلان على صفحات البرافدا أنه ليس في البال اي عمل ضد تروتسكي ، وان قيادة للحزب من دون تروتسكي « امر لا يمكن تصوره »[٩٥] . وفي المؤتمر ، عاد زينوفييف الى الهجوم ، وفي لحظة جسارة مشؤومة اشترط على تروتسكي لا أن « يلقي بأسلحته » وحسب ، بل كذلك أن يأتي أمام المؤتمر ليجحد اخطاءه . قال زينوفييف إنه لن يكون هنالك سلام في الحزب طالما لم يجحد تروتسكي تلك الأخطاء[٩٦] . كانت تلك هي المرة الاولى في تاريخ الحزب التي يرى فيها عضو نفسه مطالباً بالاعتراف بأخطائه . والمؤتمر الثالث عشر ، مهما كان حماسه لادانة تروتسكي ، صدمه ذلك . وقد نهض جمهور المندوبين مهللاً لكروبسكايا حين احتجت ، دون ان تساند تروتسكي ، بصوت جهوري ، وبكرامة ضد طلب زينوفييف « المستحيل سيكولوجياً »[٩٧] .

(٩٣) إن باجانوف ، الذي كان يعمل كسكرتير ، لذلك الاجتماع ، ترك لنا شهادة عيانية للمشهد (المرجع المذكور ، ص ٤٣ - ٤٧) . وقد اعترف تروتسكي ضمنياً بصحة رواية باجانوف . (تروتسكي ، ستالين ، ص ٣٧٦ - الطبعة الانكليزية . . .) ويضيف تروتسكي في وصية لينين المخفيّة ، هذا التفصيل : « مال نحوي رادك . . . الذي كان جالساً بجانبي خلال تلاوة الوصية . . وقال: «لن يجرؤوا الآن على المضي في مواجهتك». فأجبت: «على العكس، سيكون عليهم ان يمضوا حتى نهاية الشوط، لا بل بأسرع ما يمكن»، ص ١٧.

(٩٤) ١٣ سييزد ر ك ب (ب)، ص ١١٢.

(٩٥) البرافدا ، ١٨ كانون الاول / ديسمبر ١٩٢٣ .

(٩٦) ١٣ سييزد ر ك ب (ب) ، ص ١٣٦ .

(٩٧) المرجع ذاته ، ص ٢٣٥ - ٢٣٧ .

لم يدافع تروتسكي عن نفسه إلا مرة واحدة[٩٨] ، تكلم بهدوء وبإقناع ، بلهجة كانت تنم عن القبول الراضخ بالهزيمة . لكنه رفض رفضاً قاطعاً سحب أي من انتقاداته . لم يكن يرغب في صب الزيت على النار ولا في حرق مراكبه . أوضح انه صاغ كل انتقاداته بالتعابير ذاتها لقرار المكتب السياسي حول التوجه الجديد ، وأنه لم يكن ثمة شيء في ما قاله أو كتبه لم يسبق ان قاله كذلك خصومه أو كتبوه بشكل أو بآخر . وقد ميّز نفسه عن بعض اعضاء مجموعة الـ ٤٦ الذين طالبوا بحرية تشكيل مجموعات داخل الحزب . قال : « ليس صحيحاً التأكيد بأني أؤيد تكوين مجموعات . وفي الحقيقة اني اقترفت خطأ الوقوع مريضاً في اللحظة الحرجة ، وهو ما استتبع كوني لم اجد المناسبة . . . لتكذيب هذا التأكيد ، وتأكيدات اخرى كثيرة . . يستحيل إقامة اي تمييز بين تكتل ومجموعة » . إلا أن تروتسكي كرر بأن أخطاء سياسية علاوة على النظام الداخلي الرديء للحزب هي التي جعلت تلك الخلافات في الرأي ، التي كان يمكن ان تكون عابرة ، تتصلب وتتبلور وتؤدي إلى « التكتلية » . وحيال طلب زينوفييف بأن يجحد اخطاءه ، أجاب :

« لا شيء يمكن أن يكون أبسط وأسهل ، أخلاقياً وسياسياً ، من اعتراف المرء أمام حزبه بأنه اخطأ . . . لا حاجة إطلاقاً لأجل هذا إلى بطولة ادبية عظيمة . . ما أحد منا ، أيها الرفاق ، يرغب في ان يكون على حق ـ أو يمكن ان يكون على حق ـ ضد حزبه . والحزب محق دائماً ، في الدرجة الأخيرة ، لأنه الأداة التاريخية الوحيدة التي تملكها الطبقة العاملة من اجل حل مشكلاتها الأساسية . لقد سبق ان قلت ان لا شيء اسهل من ان يقول المرء امام الحزب إن كل هذه الانتقادات وكل هذه التصريحات ، كل تلك التحذيرات وكل تلك الاحتجاجات كانت خاطئة ، من البداية الى النهاية . ومع ذلك ، لا يسعني ان اقول ذلك ، ايها الرفاق ، لأنني لا اعتقده . أعرف أنه لا يجب ان يكون المرء على حق ضد الحزب ؛ لا يمكن ان يكون المرء على حق إلا مع الحزب وعبر الحزب ، لأن التاريخ لم يخلق طرقاً أخرى لإنجاز حقه الخاص به . يقول الانكليز : « إنها بلادي ، عادلة كانت أو جائرة » . ويمكننا ان نقول بصورة اكثر شرعية بكثير : إنه حزبي ، محقاً كان أو مخطئاً: مخطئاً حول بعض المشكلات المحدودة، الخاصة أو في بعض اللحظات. . . ربما سيكون ' مضحكاً، شبه عديم اللياقة الادلاء بتصريحات شخصية، لكني أجرؤ على الأمل بأني، عند الاقتضاء، لن أكون آخر الجنود، على آخر متراس بلشفي»[٩٩].

---

(٩٨) المرجع ذاته ، ص ١٥٣ ـ ١٦٨ .

(٩٩) ١٣ سييزد ر ك ب (ب) ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

وأنهى مداخلته قائلاً إنه سيقبل حكم الحزب حتى لو كان غير محق . لكن القبول به كان يعني بالنسبة إليه الخضوع له على صعيد العمل لا على صعيد الفكر . « لا يمكنني ان اقول ذلك ، ايها الرفاق ، لأنني لا أعتقده » . هذه الكلمات برزت بكل عريها وصلابتها وسط كل الاستدلالات الدقيقة وكل المحاجّات القاطعة ، وكل البلاغة المزوقة التي كان خطابه يفيض بها . إن هدوءه وتحفظه جعلا امناء الحزب اكثر سعاراً . فلما كان منحنياً لكن غير محطَّم ، منضبطاً لكن غير نادم ، بدا لهم مستفزاً من باب أولى . رن صوته في آذانهم كصرخة ضميرهم المعذَّب بالذات وحاولوا خنقه بالسباب ، لكنهم لم ينتزعوا منه أي جواب . في نهاية المؤتمر فقط ، خرج الى الساحة الحمراء للكلام أمام تجمع للأولاد الشيوعيين ، « الرواد » . حيّا فيهم « الفريق الجديد » الذي سيأتي يوماً إلى مشغل الثورة ليحل محل اولئك الذين شاخوا ، واستُلهكوا وأُفسدوا[100] .

كانت الأممية الشيوعية بأسرها منخرطة الآن في المساجلة . اضطر المثالثون لأن يوضحوا موقفهم ويبرروه أمام الشيوعيين الاجانب الذين كانوا يريدون أن يحصلوا منهم على تأييد واضح وجلي لادانة تروتسكي ، كي يتمكنوا من إبرازه أمام الحزب الروسي . بيد أن الشيوعيين الأوروبيين (كان تأثير الأممية في تلك الحقبة لا يزال يقتصر عملياً على أوروبا) كانوا يبدون قلقهم إزاء ما يحدث في موسكو ؛ لقد صدمهم عنف الهجمات ضد تروتسكي . كان تروتسكي بالنسبة اليهم تجسيداً للثورة الروسية ، لأسطورتها البطولية ، للشيوعية الأممية . ولأنه كانت لتروتسكي طريقة اوروبية في التعبير عن افكاره ، أثر فيهم اكثر من أي قيادي روسي آخر . كان كاتب البيانات المدوّية للأممية ، التي كانت افكارها ولغتها وبريقها تذكرّ بالبيان الشيوعي لماركس وانجلز . كان واضع استراتيجية الأممية وتكتيكاتها ، بمقدار ما كان كذلك ملهمها . لم يكن الشيوعيون الاوروبيون يتوصلون الى فهم ما جعل زينوفييف ، رئيس الأممية ، والقادة الروس الأخرين ، يهيجون ضد تروتسكي ، وكانوا يخشون عواقب النزاع ، سواء بالنسبة لروسيا أو بالنسبة للشيوعية العالمية . وقد كان رد فعلهم الأول ، بالتالي ، الدفاع عن تروتسكي .

قبل نهاية عام ١٩٢٣ ، احتجت اللجنتان المركزيتان لحزبين شيوعيين كبيرين ، هما الفرنسي والبولوني ، في موسكو ضد التشهير الذي كان تروتسكي ضحيته وطلبتا إلى

(١٠٠) الخطاب ملحق بمحضر المؤتمر - ١٣ سييزد ر ك ب (ب) - ويروي ماكس ايستمان الذي كان يحضره أنه حث تروتسكي على ان يبدو اكثر كفاحية وأن يصعد الى المنبر ويقرأ وصية لينين من هناك . لكن تروتسكي لم يعره سمعاً . وقد أكد تروتسكي ذاته رواية ايستمان في رسالة منه الى مورالوف كتبها من آلماآتا عام ١٩٢٨ . المحفوظات .

المتنازعين حل خلافاتهم بروح رفاقية[١٠١] . وقد حدث ذلك بعد قليل من طلب براندلر ، باسم حزبه ، أن يقود تروتسكي الانتفاضة الشيوعية المزمع قيامها في المانيا . وكان المثالثون قد غضبوا من الاحتجاجات وخشوا ان يؤلب تروتسكي الأممية عليهم ، بعد هزيمته في الحزب الروسي . ورأى زينوفييف في عمل الاحزاب الثلاثة تحدياً لسلطته كرئيس .

في تلك الفترة ، كانت الهزيمة التي تعرضت لها الأممية في المانيا قد بلبلتها . إن المشكلات المرتبطة بالهزيمة ، والأزمة التي سببتها ، وسياسة الحزب الالماني ، وكلها قضايا كانت تنطوي بحد ذاتها على مادة ضخمة للمساجلة ، تداخلت للحال مع النزاع داخل الحزب الروسي[١٠٢] .

بدت الأزمة الالمانية حين احتل الفرنسيون الروهر في بداية عام ١٩٢٣ . وقد احرقت المقاومة الالمانية كل الروهر ، وسرعان ما شهد الرايخ بأسره ردة فعل قومية قوية ضد معاهدة فرساي وعواقبها . في البداية ، كانت الاحزاب البورجوازية هي التي قادت الحركة ، إذ تُرك الشيوعيون جانباً . لكن تلك الاحزاب ، التي كانت غير متأكدة من النتيجة ، بدأت تتردد فيما بعد وتتراجع ، ولا سيما حين هدد التوتر الاجتماعي بمفاقمة الاضطراب السياسي . كان الاقتصاد الالماني في حالة افلاس كامل ، فالعملة تفقد قيمتها بسرعة كارثية ، والشغيلة الذين خفض التضخم اجورهم الى لا شيء ، كانوا غاضبين ونافدي الصبر للانتقال الى الفعل . أما الشيوعيون الذين بقوا في الظل منذ انتفاضة آذار / مارس ١٩٢١ ، فأحسوا بأن ريحاً عاتية تدفع بهم . وفي تموز / يوليو ، طلبت لجنتهم المركزية الى الطبقة العاملة إعداد نفسها لعمل ثوري . إلا أن ثقتها بقوتها وامكانات العمل الثوري لديها لم تكن تذهب بعيداً ولم يكن يشارك فيها الجميع . ورادك ، الذي كان ممثلاً للهيئة التنفيذية للأممية في المانيا ، حذر موسكو بأنه كانت لدى الحزب الالماني رؤية للوضع متفائلة جداً وبأنه كان يخاطر بالانخراط في انتفاضة اخرى لا أمل فيها ، وقد شجع

---

(١٠١) تكلم سوقارين على الاحتجاج الفرنسي في المؤتمر الثالث عشر للحزب الروسي (١٣ - سييزد ر ك ب (ب) ، ص ٣٧١ - ٣٧٣) . ويوجد الاحتجاج البولوني في محفوظات الحزب الشيوعي البولوني (دويشتر ، « مأساة الحزب الشيوعي البولوني بين الحربين » في الأزمنة الحديثة ، آذار / مارس ١٩٥٨) .

(١٠٢) إن المصادر التي استفدنا منها بصدد الازمة الالمانية هي : عدة ابحاث لتروتسكي ؛ مذكرات براندلر وتوضيحاته للمؤلف ؛ روث فيشر ، ستالين والشيوعية الالمانية ؛ تالهايمر ١٩٣٥ Eine verpasste Revolution تحليلات رادك ، وزينوفييف ، وبوخارين ، دراسة كوزنين ، في زالينينيزم ، دروس احداث المانيا (محضر جلسة يناير ١٩٢٤ للهيئة التنفيذية للكومنترن ، المخصصة للنقاش حول المانيا) . محاضر المؤتمرات التداولية والمؤتمرات الخاصة بالكومنترن والحزبين الشيوعيين السوفياتي والالماني التي نوقش خلالها الموضوع ؛ وأخيراً النقاش الذي شغل الصحافة الاممية خلال اكثر من عشرة أعوام بعد عام ١٩٢٤ .

زينوفييف وبوخارين الالمان دون ان يقترحا مع ذلك خطة عمل محددة . في ذلك الحين ، في تموز / يوليو ، اجاب تروتسكي بأنه لم يكن على اطلاع كافٍ على الوضع في المانيا كي يدلي برأيه .

في الحالة الحاضرة ، توصل تروتسكي الى استنتاج أن المانيا كانت حقاً على حافة وضع ثوري جداً ، وأنه لا ينبغي فقط تشجيع الحزب الالماني على اتخاذ قرار جريء ، بل يجب كذلك مساعدته على وضع خطّة محددة للعمل الثوري تؤدي الى انتفاضة مسلحة . كان ينبغي تحديد تاريخ الانتفاضة مسبقاً ، بحيث يتمكن الحزب الالماني من قيادة النضال خلال المراحل التمهيدية ، واعداد الطبقة العاملة وبذل قواه على طريق الحل . وترددت الهيئة التنفيذية . وليس رادك وحده ، بل كذلك ستالين ، كانا يشكان بحقيقة « الوضع الثوري » ويعتقدان أنه ينبغي كبح جماح الالمان[١٠٣] . بينما ظل زينوفييف يحرضهم لكنه تملص حين تعلق الأمر بوضع خطة للانتفاضة . أما المكتب السياسي ، المنشغل كلياً بالاهتمامات المحلية فدرس القضية بنوع من الاهمال ونقل زينوفييف الاستنتاجات لقادة الأممية . وقد تقرر ، على مضض بعض الشيء ، المساعدة في الاستعدادات العسكرية ، وحتى في تحديد تاريخ للانتفاضة . كان مقرراً أن يكون ذلك التاريخ أقرب ما يمكن من الذكرى السنوية للثورة البلشفية ، بحيث تكون الانتفاضة المزمع القيام بها هي « الأوكتوبر الالمانية » .

في أيلول ، جاء هاينريخ براندلر ، قائد الحزب الالماني ، الى موسكو ليستشير الهيئة التنفيذية . كان هذا البنّاء القديم ، تلميذ روزا لوكسمبورغ ، مخططاً مجرباً وحذراً ، ومنظماً ممتازاً ؛ لم يكن مقتنعاً بأن الظروف مناسبة لثورة . وحين أبلغ زينوفييف بشكوكه ، وهي شكوك شبيهة جداً بتلك التي عرفها زينوفييف عشية الأوكتوبر الروسية ، حاول هذا الاخير ، الممزق بين التردد والرغبة في التصرف بحزم ، ان يزيل اعتراضات براندلر بمحاجة محمومة وبالضرب على الطاولة ، فرضخ براندلر . كان نفاد الصبر لبدء النضال والثقة بالنصر في أوجهما داخل حزبه ، وخصوصاً في الفرع البرليني بقيادة روث فيشر وآركادي ماسلوف . وقد اعتقد براندلر أنه وجد في موسكو الثقة ذاتها ، لأنه اعتبر أن زينوفييف تكلم باسم المكتب السياسي بكامله . وقد استنتج بتواضع أنه إذا كان قادة الحزب الشيوعي الظافر الوحيد يعتقدون ، تماماً كما البرلينيون ، ان ساعة المعركة قد أزفت ، فلم يعد له إذاً إلا أن يسحب اعتراضاته .

---

(١٠٣) انظر كتابي ، ستالين ، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ (الطبعة الانكليزية) .

ولما كان براندلر رأى ـ كما قال هو ذاته ـ انه ليس « لينين المانياً » ، فقد طلب آنذاك الى المكتب السياسي إرسال تروتسكي لتولي قيادة الانتفاضة ، لكن المكتب عيّن بدلاً من تروتسكي كلًّا من رادك وبياتاكوف . وكانت خطة العمل الموضوعة تحدد الساكس كمركز للحركة ، الساكس ، وطن براندلر ، حيث كان النفوذ الشيوعي قوياً وحيث كان الاشتراكيون ـ الديمقراطيونَ قد شكلوا الحكومة الاقليمية وكوّنوا جبهة موحدة مع الشيوعيين . كان على براندلر وبعض رفاقه أن يدخلوا حكومة الساكس ، ويستخدموا نفوذهم لتسليح العمال . ومن الساكس كان ينبغي مد الحركة الى برلين وهامبورغ ، ووسط المانيا والروهر . ووفقاً لبراندلر ـ وقد أثبتت شهادته بهذا الصدد ، مصادر أخرى ـ كان زينوفييف وتروتسكي فارضي تلك الخطة(١٠٤) . علاوة على ذلك ، استعجل زينوفييف سير الأمور ، بواسطة معتمديه في المانيا ، بحيث تشكلت الحكومة الائتلافية في الساكس فور وصول أوامر مرسلة برقياً من موسكو . ولقد تلقى براندلر نبأ تعيينه وزيراً ، خلال رحلة العودة ، فيما كان يشتري صحيفة في محطة بفارصوفيا(١٠٥) .

حتى لو كان الوضع في المانيا ملائماً لقيام ثورة ، فالطابع المصطنع للخطة المتبناة ورعونتها ، وبعد قيادة الحركة والاشراف عليها ، كانت كافية لتؤدي بالقضية الى الاخفاق : كانت الشروط أقل ملاءمة على الأرجح مما كان معتقداً وكانت الأزمة الاجتماعية في المانيا أقل خطورة . فمنذ الصيف ، كان الاقتصاد الالماني بدأ ينهض من عثرته ، واستقر المارك ولُطِف المناخ السياسي . ولم تتمكن اللجنة المركزية من جذب جمهور العمال واعدادهم للانتفاضة ، كما أُجهضت السيرورة المتوقعة لتسليح العمال . وجد الشيوعيون ترسانات الساكس فارغة . أرسلت الحكومة المركزية من برلين حملة عسكرية لقمع المقاطعة الحمراء . لذا حين ازفت لحظة الانتفاضة ، ألغى براندلر ، يدعمه رادك وبياتاكوف ، أوامر القتال . ولم ينتقل متمردو هامبورغ الى العمل إلا بنتيجة عيب في الاتصالات ، قاتلوا وحدهم ، وبعد عدة أيام من النضال اليائس، تم سحقهم.

كان لهذه الاحداث انعكاسات واسعة في الاتحاد السوفياتي . قضت على اي حظ للثورة في المانيا وأوروبا لسنوات عديدة . ثبطت همة الحزب الالماني وقسمته ؛ وإذا أضيفت الى إخفاقين مماثلين في بولندا وبلغاريا ، كان لها التأثير ذاته على مجمل الأممية . نقلت الى الشيوعية الروسية شعوراً بالعزلة التامة ، وشكاً بصدد القدرات الثورية للطبقات العاملة

---

(١٠٤) روث فيشر ، مرجع مذكور ، ص ٣١١ ـ ٣١٨ : خطاب زينوڤييف في دروس احداث المانيا ، ص ٣٦ ـ ٣٧ ؛ ١٣ كونفرنتسيا ر ك ب (ب)، ص ١٥٨ـ ١٧٨؛ تروتسكي، اوروكي او كتيابريا.

(١٠٥) روى براندلر بذاته ذلك للمؤلف .

الاوروبية ، لا بل نوعاً من الاحتقار حيالها . هكذا بالذات نما،شيئاً فشيئاً،في روسيا ذلك الادعاء وتلك الانانية الثورية اللذان سيجدان التعبير عنهما في مذهب الاشتراكية في بلد واحد . وللحال اصبحت الكارثة الالمانية ذريعة في الصراع على السلطة في روسيا . سعى الشيوعيون ، في المانيا كما في روسيا ، لتحديد أسباب الهزيمة وأرادوا ايجاد مسؤ ولين . وقد تبادل تروتسكي والمثالثون الاتهام داخل المكتب السياسي .

كان واضحاً أنه لم يكن هنالك أية علاقة بين الفشل الالماني والمنازعة الروسية . كانت خطوط الانفلاق مختلفة لا بل كانت تتقاطع . فرادك وبياتاكوف ، « التروتسكيان » كلاهما ، كانا متشككين منذ البدء ، على الأقل بمقدار ما كان ستالين متشككاً ، بصدد حظوظ الثورة الالمانية ؛ زد على ذلك أنهما ساندا براندلر حين ألغى الأوامر بالانتفاضة . من جهة أخرى ، بعد أن تردد زينوفييف عاد فأيد خطة الانتفاضة التي كان تروتسكي ملهمها ؛ لكنه أيد كذلك الغاء الأوامر ببدء القتال . كان تروتسكي مقتنعاً ان الحزب الالماني والأممية فوّتا على نفسيهما فرصة فريدة ، وكان يعتقد أن زينوفييف وستالين ، يتحملان في القضية القدر ذاته من المسؤ ولية الذي يتحمله براندلر . وقد اجاب المثالثون بأن التروتسكيّين خرّبا الانتفاضة في ساحتها ، وفضحا « انتهازية » براندلر وطالبا بإقالته .

كان لتحرك المثالثين تجاه براندلر حوافز معقدة. انقلبت قاعدة الحزب الالماني ضده بمرارة وطلبت منظمة برلين إقصاءه. وكان زينوفييف مستعداً تماماً للقبول ولحفظ هيبته وهيبة الأممية باستخدام براندلر كبش محرقة. وبإقالته وإحلال فيشر وماسلوف محله على رأس الحزب الالماني، كان زينوفييف يجعل من ذلك الحزب إقطاعة له. وكان لديه سبب أيضاً للمطالبة بعقوبة نموذجية ضد براندلر: كان يشتبه بتعاطف هذا الاخير وأصدقائه في اللجنة المركزية الالمانية مع تروتسكي. وبالتنديد ببراندلر كنصير لتروتسكي، كان زينوفييف يسعى كذلك لجعل اللوم الذي ارتبط بانهزام براندلر يثقل كاهل تروتسكي. وفي الاخير، فإن براندلر العاجز عن الاهتداء الى طريقه في الخصومات الشخصية، والراغب في تخليص المشكلة الالمانية من الأمور الروسية، وفي إنقاذ وضعه، قدّم دعمه للقيادة الروسية الرسمية، أي للمثالثين. لكن ذلك لم ينقذه.

هذا هو الوضع كما كان في كانون الثاني / يناير ١٩٢٤، حين اجتمعت الهيئة التنفيذية للأممية للقيام بدراسة رسمية للقضية الالمانية. قبل الاجتماع، جرى التأثير على اللجان المركزية للأحزاب الأجنبية، واستُخدمت الدسائس معها؛ تم تعديل

تركيبها، لضمان دعم الهيئة التنفيذية سلفاً لزينوفييف. وحين اجتمعت هذه، كان تروتسكي، المريض، يرتاح في قرية غير بعيدة عن موسكو. لم يدل بتصريحات، لكنه طلب الى رادك أن يعبر باسمهما، كليهما، عن احتجاجهما معاً على فصل براندلر والتبديلات في اللجنة المركزية الالمانية. وقد عبر رادك عن الاحتجاج، لكن لما كان يسعى قبل كل شيء للدفاع عن سياسته وسياسة براندلر، ترك انطباعاً لدى الهيئة التنفيذية بأن تروتسكي كان متضامناً مع تلك السياسة؛ وهو ما سمح للمثالثين بالخلط مرة اخرى بين تروتسكي و «الجناح اليميني» في الحزب الالماني(١٠٦). وفي الحقيقة أن تروتسكي لم يتوقف يوماً عن نقد سلوك براندلر. زد على ذلك أن الدعم الذي قدمه المذكور للثالوث ما كان بإمكانه أن يعود عليه بعطف تروتسكي. بيد أن تروتسكي احتج ضد نصب «مقصلة» في موسكو للقادة الشيوعيين الاجانب. قال إن على الاحزاب الاجنبية ان تتمكن من التعلم بنفسها من خلال التجربة وحتى عن طريق دفع ثمن اخطائها؛ ينبغي ان تدير بنفسها امورها وتنتخب قادتها. لقد خلقت إقالة براندلر سابقة مزعجة للغاية.

طلب تروتسكي إذاً للأممية الحرية ذاتها التي طلبها للحزب الروسي ، محققاً القدر ذاته من الفشل ، كان زينوفييف يشرف الآن كلياً على الأممية ، وكان قد صفّى العديد من القادة الاجانب الذين طلبوا الى المكتب السياسي التخفيف من حدته بوجه تروتسكي ، بينما خضع آخرون للتخويف واعتذروا عن رعونتهم . نتج عن ذلك أنه مع كون الهيئة التنفيذية لم تتوصل لاستخلاص نتيجة محددة من تحقيقها حول المانيا أبقت سمعة زينوفييف غير ملطخة وصادقت على الإقالات والترقيات التي أمر بها . وسمح له ذلك فوراً بالحصول من الأممية على دعم لعمل الثالوث ضد تروتسكي والـ ٤٦ .

وفي أيار / مايو ، خلال المؤتمر الثالث عشر ، صعد القادة القدامى والجدد لكل الاحزاب الاوروبية الى المنبر ليعلنوا تبنيهم اللعنة الموجهة ضد تروتسكي . ولم يكن هنالك غير مندوب اجنبي واحد ، هو بوريس سوفارين ، المحرر في جريدة لومانيتيه ، نصف الفرنسي نصف الروسي ، احتج قائلاً إن اللجنة المركزية الفرنسية قررت باثنين وعشرين صوتاً ضد صوتين إدانة الهجمات ضد تروتسكي ، دون ان تعلن مع ذلك تضامنها مع المعارضة . وأضاف انه ، هو شخصياً يشارك تروتسكي وجهات نظره وليس

---

(١٠٦) دروس احداث المانيا ، ص ٢٤ . انظر كذلك رسائل تروتسكي إلى أ . ترينت و أ . نورات ، المكتوبة عام ١٩٣١ وعام ١٩٣٢ ، والمنشورة في الأممية الجديدة ، شباط ١٩٣٨ .

مستعداً للتخلي عن ذلك الموقف . لكن الصوت الوحيد لسوفارين لم يفعل غير إبراز هزيمة تروتسكي(١٠٧) .

بعد ذلك بشهر واحد ، اجتمع المؤتمر الخامس للأممية ، الذي دعي « مؤتمر البلشفة » ، في موسكو ليصادق على الحُرم الملقى على تروتسكي ، ذلك الحُرم الذي أضيف إليه تنديد برادك وبراندلر . إن خطاب روث فيشر ، الزعيمة الجديدة للحزب الالماني ، يعطي فكرة عن روح المؤتمر . كانت روث فيشر شابة ذات صوت فولاذي ، تفتقد الجدارة والتجربة الثوريتين ، وإن كانت معبودة شيوعيي برلين ، وقد انهالت بالشتائم ضد تروتسكي ، ورادك ، وبراندلر ، اولئك المناشفة الانتهازيين ، « مصفيّ المبدأ الثوري » هؤلاء الذين « فقدوا إيمانهم بالثورة الالمانية والاوروبية » . وطالبت بأممية وحيدة الاتجاه ، تحذو حذو الحزب الروسي ، وتستبعد منها كل معارضة ، كل تباين في الرأي : « لن يدع هذا المؤتمر العالمي الاممية تتحول إلى قضّة من الاتجاهات غير المتجانسة ؛ ستضع نفسها بحزم على الطريق التي تؤدي إلى حزب بلشفي عالمي وحيد »(١٠٨) . وفعل المندوبون الفرنسيون والانكليز والاميركيون الشيء ذاته ، وفي حين استفاضوا بالشتائم والإهانات تحدّوا تروتسكي ان يأتي أمام المؤتمر ويعرض أفكاره(١٠٩) . وقد رفض تروتسكي الاستجابة للتحدي . أولاً لأنه فهم أن كل مجادلة لا جدوى الآن منها ؛ ثم لأنه ، مثلما هُدّد بطرده من الحزب إذا أعاد اطلاق النقاش ، كان عليه ان يفكر بأن التحدي ليس اكثر من فخ . لذا اعلن انه قبل حكم الحزب ولا ينوي الاستئناف ضده أمام الأممية . لكن جرى اعتبار صمته بالذات برهاناً على سوء صنيعه : حذا بعض المندوبين حذو زينوفييف، فاشترطوا عليه ليس أقل من ادانة لأخطائه(١١٠)، أما تروتسكي فلم يعرهم سمعه . وخلال ثلاثة أسابيع بكاملها ، لم يستمع المؤتمر إلا إلى اتهامات مبتذلة ضد الرجل الذي أصغت إليه المؤتمرات الاربعة السابقة باحترام وافتتان . في هذه المرة ، لم يرتفع صوت واحد للدفاع عنه (كان سوفارين قد أقصي من الحزب الفرنسي لأنه ترجم التوجه الجديد لتروتسكي ونشره)(١١١) . مع ذلك ، كتب تروتسكي لهذا المؤتمر آخر بياناته العظيمة الصادرة عن « الكومنترن » . لكنه لم تتم إعادة انتخابه عضواً في الهيئة التنفيذية . لقد حل محله ستالين .

---

(١٠٧) ١٣ سييزد ر ك ب (ب) ، ص ٣٧١ - ٣٧٣
(١٠٨) فسيميرني كونغرس كومنترنا ، ج ٢ ، ص ١٧٥ - ١٩٢ .
(١٠٩) المرجع ذاته ، ص ١٨١ .
(١١٠) فسيميرني كونغرس كومنترنا ، ج ٢ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .
(١١١) المرجع ذاته ، ص ١٨١ .

كيف يمكن تفسير التبدل الطارىء في الأممية ؟ فقبل أشهر فقط ، كان لدى الاحزاب الثلاثة الكبرى في الأممية الشجاعة والكرامة لادانة الثالوث ، بينما كانت تظهر الآن بمظهر الخضوع والذل . نحن نعرف ان زينوفييڤ قلب في غضون ذلك اللجان المركزية للأحزاب الالماني والفرنسي والبولندي رأساً على عقب ، أو عدّلها أو حطمها وفقاً للمُراد . لكن لماذا رضخت تلك اللجان والاحزاب التي كانت تمثلها أمام تلك الاشتراطات ؟ فمعظم القادة المقالين كانوا قد قادوا حزبهم منذ ولادته وكانوا يتمتعون بنفوذ ادبي كبير . ومع ذلك ، لم تتحرك القاعدة في أي مكان للدفاع عنهم ، والاعتراض على أوامر الهيئة التنفيذية للأممية ، ورفض الاعتراف بمرشحي زينوفييڤ كقادة جدد . لم يلزم زينوفييف إلا عدة أسابيع ، أو على الأكثر عدة اشهر، لإنجاز ما ظهر كهزة كاملة في مجمل الحركة الشيوعية. لكن السهولة التي تصرف بها كشفت ضعفاً عميقاً جداً في داخل الأممية. فما كان يمكن لغير جهاز مريض أن يدع نفسه يُزعزَع هكذا دون إبداء أي رد فعل.

كان لينين وتروتسكي قد أسسا الأممية بأمل أن تكسب الى صفوفها سريعاً غالبية الحركة العمالية الاوروبية على الأقل(١١٢) . كانا يأملان أن تفي بوعود اسمها ، وتصبح حزباً عالمياً ، يرتفع فوق الحدود والمصالح القومية ، لا تجميعاً زخرفياً وأفلاطونياً لاحزاب قومية على غرار الاممية الثانية . كانا يؤمنان بالوحدة الجوهرية للسيرورات الثورية في العالم ، وكانت تلك الوحدة تجعل من الجوهري ، في نظرهما ، تجهيز المنظمة الجديدة بقيادة اممية قديرة وخضوعها لنظام دقيق جداً . كانت شروط الانتساب الواحد والعشرون ، المتبناة في المؤتمر الثاني عام ١٩٢٠ ، معدة لاعطاء الأممية دستوراً منسجماً مع ذلك الهدف ، ولإرساء قيادة ممركزة وقوية داخل الهيئة التنفيذية ، علاوة على امور أخرى ؛ وكان تروتسكي دعم بلا تحفظ ذلك الدستور(١١٣) . لم يكن محسوباً في ذاته لضمان رجحان وزن الحزب الروسي في الأممية . كل الأحزاب كانت ممثلة في الهيئة التنفيذية بصورة ديمقراطية ، ولم يكن اعضاؤها الروس القليلون يتمتعون مبدئياً بأية امتيازات . كانت النزعة الاممية تستتبع إخضاع وجهات النظر القومية للصالح العام للحركة بمجملها ، لكن ليس بالتأكيد لأية وجهة نظر قومية روسية . لو كانت الثورة انتصرت في احد البلدان الأوروبية ، أو لو تعززت على الأقل قوة احد الاحزاب الشيوعية فيها وثقته بنفسه ، لكان أمكن ان يصبح انضباط وقيادة امميان حقاً أمرين حقيقيين . لكن انحسار الثورة في اوروبا حوَّل الأممية شيئاً فشيئاً إلى ملحق للحزب الروسي ؛ ومن عام لعام فقدت فروعها الاوروبية القليل من الثقة

(١١٢) النبي المسلح .

(١١٣) المرجع ذاته .

بنفسها الذي كانت تتمتع به من قبل . شعرت الاحزاب المهزومة بعقدة نقص ، وبدأت تتطلع الى البلاشفة ، الممارسين الوحيدين الظافرين للثورة ، طالبة إليهم دراسة مشكلاتها وحل مآزقها واتخاذ القرارات عوضاً عنها . وهو ما فعله البلاشفة ، من قبيل التضامن في البدء ، ثم بفعل العادة ، ثم على اساس المصلحة : مع الوقت اصبحوا جد مغتبطين بتحريك الخيوط التي وضعتها الأحزاب الاجنبية بصورة جد عفوية بين ايديهم . اصبحت القيادة والانضباط الأمميان في الواقع القيادة والانضباط الروسيين ، وانتقلت بصورة شبه غير محسوسة إلى الأعضاء الروس في الهيئة التنفيذية للأممية كلُّ الصلاحيات الواسعة التي منحتها الشروط الـ ٢١ لتلك الهيئة .

هذا الوضع أقلق لينين ، فذكَّر بتحذيرات انجلز المغتمة بصدد رجحان وزن الحزب الالماني في الاممية الثانية وأكد أن رجحان الحزب الروسي يمكن ألا يكون أقل خطراً(١١٤) . اجتهد في ان يعطي الشيوعيين الاجانب ثقة أكبر في انفسهم ، لا بل اقترح نقل مركز الهيئة التنفيذية من موسكو الى برلين أو أي عاصمة اوروبية اخرى ، بغية تحريرها من الضغط الثابت للمصالح والاهتمامات الروسية . لكن معظم الشيوعيين الاجانب فضلوا رؤ ية قلب الاممية يبقى آمناً في موسكو الحمراء وعدم تعريضه الى ملاحقات الشرطة في العواصم البورجوازية ومباغتاتها.

كان لمخاوف لينين ما يبررها ، وقد أثبت الزمن اللاحق ذلك . فكلما مرت السنون كلما كان يزيد تدخل الاعضاء الروس في الهيئة التنفيذية في شؤ ون الحركة الشيوعية في الخارج . قاد زينوفييف الأممية بسلطة راضية ومصمِّمة ، لا ذوق لديها ولا ذمة ايضاً . لكن تروتسكي ذاته ، بوصفه عضواً في الهيئة التنفيذية انطلق في ممارسة وصاية ملازمة للوضع . فبوصفه رئيساً للجنة الفرنسية للكومنترن ، أشرف على العمل اليومي للشيوعيين الفرنسيين ، بصلاحيات مطلقة . التمست الاحـزاب الالماني والايـطالي والاسباني والانكليزي رأيه بلهفة ، بصدد كل المشكلات الكبرى ، وحتى حول تفاصيل نشاطاتها ، ولم يبخل تروتسكي برأيه .

قاده ذلك إلى الادلاء بتصريحات ، وكتابة عدد ضخم من الرسائل ، تشكل تفسيراً كاملاً لتاريخ تلك السنوات الحاسمة ، تفسيراً غنياً بالتأملات ، يلتمع بالنباهة ، ويتميز في الغالب ببعد نظر مذهل(١١٥) . لكن المراسلات تعكس الوصاية في العديد من

---

(١١٤) لينين ، سوش . ، ج ٣٣ ، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤ . ونجد ملاحظات اكثر وضوحاً بصدد هذه النقطة في تصريحات لم تنشر بعد قدمها لينين أمام الهيئة التنفيذية للأممية .

(١١٥) انظر كذلك بيات لت كومنترنا ، المنشور ايضاً بالانكليزية ، بعنوان : السنوات الخمس الأولى من حياة الأممية الشيوعية ، الجزآن ، ١ و ٢ .

الاماكن . هكذا نجده مثلاً يخطر بشكل حاسم القيادي الفرنسي فروسار بأن يرد على اتهامات خطيرة ، لكن ليست دون تبرير ، في جلسات الأممية في موسكو . ونراه يفرض الرقابة على المحررين الشيوعيين ، ويفرض عليهم خطاً تكتيكياً وحتى موضوعات صحفهم وأسلوبها . يلوم الاومانيتيه لنشرها مؤلفات متعاونين مشتبه بأمرهم . ويحدد التاريخ الذي على الحزب الفرنسي أن يطرد فيه ، كما تعهد بأن يفعل ، كل الماسونيين ، وكل « الوصوليين » . وفي العديد من المناسبات ، يلعب دور الحكم بين مجموعات متنافسة ، ويفرض عليها شريعته(١١٦) . وفي الحقيقة ان الأمر يتعلق بحالات قصوى واستثنائية . لم يحاول تروتسكي تخويف مرؤوسيه في الكومنترن أو تملقهم ، كما فعل ستالين ثم زينوفييف ؛ لقد طلب اليهم دوماً ، على العكس ، بأن يدلوا كذلك برأيهم في أمور الحزب الروسي بالحرية التي كان يدلي فيها برأيه بصدد سلوك أحزابهم، ولم يكن الخطأ خطأه إذا ندر أن كان للشيوعيين الأجانب ما يكفي من رباطة الجأش لصياغة رأي والتعبير عنه. وقد عامل تروتسكي الهيئة التنفيذية كجهاز اممي حقيقي، وكان يتصرف باسمها مستلهمًا المبادىء العامة للشيوعية، وليس من ضمن منظور روسي بشكل خاص. بهذه الروح-استخدم تروتسكي السلطات الواسعة التي منحتها الشروط الـ ٢١ للهيئة التنفيذية.

لكن الرجحان الفعلي لوزن الحزب الروسي جعل من السهولة بمكان استخدام الشروط الـ ٢١ كإطار مؤسسي لإرساء ديكتاتورية فعلية لروسيا . هذا ما فعله زينوفييف حتى قبل عام ١٩٢٣ ، يوم كان لا يزال يكبّحه لينين وتروتسكي . فيما بعد ، تمكن من العمل من دون أي كابح . من جهة اخرى ، لم يكن يمكن الديمقراطية الداخلية أن تستمر داخل الأممية بعد أن زالت من داخل الحزب الروسي . انتقلت عادات « الاستبدالية » الى الحركة بمجملها، وتوصل قادة الحرس القديم البلشفي الى النظر لأنفسهم ليس فقط كوكلاء للطبقة العاملة الروسية، بل كذلك للطبقات العاملة في العالم اجمع.

في ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ، شرع زينوفييف وستالين يعيدان تكييف الحركة الاوروبية على صورة روسيا الجديدة ؛ لم يكن في وسعهما ان يتحملا داخل الاممية المعارضة التي كانا يسعيان لقمعها داخل حزبهما الخاص بهما . ومثلما استخدما حظر التكتلات ، عام ١٩٢١ ، ليقضيا لديهما على نفوذ تروتسكي ، استخدما السلطات الواسعة التي كانت

---

(١١٦) المرجع ذاته ، ج ٢ ، ص ١٢٤ - ١٨٤ ؛ روسمر : موسكو في ظل لينين ، ص ٢٣٦ - ٢٦٠ ، فروسار ، من جوريس الى لينين .

الشروط الـ ٢١ تمنحها إياها للقضاء عليه ، في الخارج . وكان تروتسكي ساند حظر عام ١٩٢١ والشروط الـ ٢١ . وقد تصرف خصومه بحيث بدوا دائماً كما لو كانوا يعملون بموجب المبادىء والسابقات التي تم إرساؤ ها بموافقة تروتسكي ، إذا لم يكن بمبادرة منه . جندلوه مستخدمين ضده اسلحته الخاصة به ، مع هذا الفرق تقريباً الكامن في ان تروتسكي لم يستخدمها لهكذا اهداف، ولا بهكذا فظاظة . كان قد هدد في بعض المناسبات الشيوعيين الاجانب بعقوبات تأديبية ، بينما بادر خصومه لإرجاعهم الى القاعدة ، وطردهم ، والتشهير بهم . كان قد طلب ألا تتسامح الأممية الثالثة ، بناء على بنود برنامجها ، مع النزعة المسالمة البورجوازية ولا مع الماسونية ، ولا مع الاشتراكية - الوطنية » داخل الاحزاب ، بينما طهر خصومه تلك الاحزاب من « التروتسكية » التي كانت حتى ذلك الحين مرادفاً للشيوعية تقريباً .

في أيار / مايو ، أنهى المؤتمر الثالث عشر للحزب الروسي النقاش الذي بدأ مع إعلان التوجه الجديد . لم يكن في وسع تروتسكي أن يعيد إطلاق المساجلة دون التعرض لاتهامه بعدم الانضباط ، لذا لم يقم بأية محاولة في هذا السبيل . كان سبق أن عبر عن إعجابه بحس الانضباط الذي جعل جوريس « يضع عنق الثور الذي كان عنقه تحت نير الانضباط الحزبي » ، حين يكون ذلك ضرورياً . كان تروتسكي يضع الآن عنقه الخاص به تحت نير أكثر فظاظة بكثير ، ويمنع نفسه من ان يناقش علناً سياسة الحزب الاقتصادية والنظام الداخلي اللذين تم إعلانهما من المقدسات . لكنه لم يكن قادراً على الاعتياد على فكرة معاملته كنصف منشفي مدان بـ « الانحرافية البورجوازية الصغيرة » . لما كان قد مُنع من نقاش المشكلات الاساسية في السياسة الراهنة ، فقد مضى يسأل التاريخ أن يثأر له . سنحت له الفرصة حين بدأت دور نشر الدولة تطبق القرار الذي اتخذته اللجنة المركزية سابقاً بنشر طبعة في عدة اجزاء لمؤلفات تروتسكي ، فوضعت في المطباعة المجلد الذي كان يضم خطبه وكتاباته لعام ١٩١٧ . كتب تروتسكي مقدمة طويلة بعنوان **دروس اوكتوبر** ؛ وقد صدر المجلد في خريف عام ١٩٢٤ ، وأثار للحال عاصفة جامحة .

جاءت خطب تروتسكي وكتاباته لعام ١٩١٧ تقدم له جواباً مهماً عن الافتراءات التي كانت تصوّره كمنشفي غير تائب ، بتذكيرها الحزب بالدور الذي لعبه في الثورة وبالكفاحية التي لا تكل ، التي ابداها في النضال ضد المناشفة . وكان تذكير من هذا النوع ضرورياً ، فالذاكرة التاريخية لدى الأمم والطبقات الاجتماعية والاحزاب قصيرة ، لاسيما في فترات الانقلاب العام ، حين تتعاقب الأحداث بوتيرة لاهثة ، وتطرد احداث السنة الجارية من ذاكرة الشعوب احداث السنة المنصرمة ، حين تتعاقب الاجيال في الحياة السياسية بسرعة

مجنونة ، وسرعان ما يصبح ابطال المعارك القديمة نادرين ، يتبددون ، يغزوهم التعب والانهاك ، حين ينخرط الشباب في المعارك الجديدة دون ان يعرفوا كثيراً حول ما حدث في السابق . في عام ١٩٢٤ ، كان البلاشفة الاعضاء في الحزب منذ بداية عام ١٩١٧ ، قد غدوا يمثلون اقل من واحد بالمئة من المنتسبين ؛ وبالنسبة للجمهور الواسع من الشباب اعضاء الحزب ، كانت الثورة قد اصبحت اسطورة غامضة بقدر ما هي بطولية . وكانت المعارك السياسية السابقة ، بجبهاتها المشوشة ، تبدو اكثر بعداً واكثر وهمية . كان الشيوعيون الشباب يعتقدون بشكل طبيعي للغاية ، مثلاً ، ان البلاشفة والمناشفة كانوا دوماً أعداء ألداء ، مثلما كانوا في ذكرياتهم . كان أمراً لا يقبل التصور تقريباً أن يكونَ أمكن البلاشفة والمناشفة ان يشكلوا ، طوال سنوات عديدة ، جناحين في حزب واحد ، جناحين ينادیان بمبادیء مشتركة ، ويتخاصمان ويقطعان العلاقة فيما بينهما ، ولكنهما حاولا مراراً تجاوز خلافاتهما ، وكان أمراً أكثر استحالة ايضاً تصور ان يكون امكن العديد من القادة البلاشفة السعي ، حتى عام ١٩١٧ ، للتصالح مع المناشفة .

كان الشباب، بالتالي ، مصدومين حين علموا ان مفوض الحرب كان في زمن سابق منشفياً أو نصف منشفي ، والكثيرون مالوا لتصديق المثالثين حين يقولون إن رجلاً كان يوماً ما منشفياً سيبقى منشفياً على الدوام . لا شيء كان يمكنه زعزعة اعتقادهم اكثر من قراءة خطب تروتسكي وكتاباته في عام ١٩١٧ ، لأنها كانت تبيّن بشكل بديهي الطابع الماكر الخداع في الحملة المعادية للتروتسكية . هكذا كان تروتسكي يستفز خصومه بمجرد نشره نصوصه القديمة . وفي دروس اوكتوبر ، كان يتحداهم مباشرة .

عرض تروتسكي في ذلك النص تفسيره للتاريخ ولتراث الحزب ، تفسيراً لم يكن ينتقم له وحسب بل يتعرض لوضع الخدمة الخاص بمعظم خصومه . لقد كتب ان تاريخ الحزب يضم ثلاث حقب متمايزة : سنوات الاعداد لثورة ١٩١٧ ، الامتحان الحاسم لعام ١٩١٧ ، والحقبة اللاحقة للثورة . لكل حقبة مشكلاتها ، وخصوصياتها ، وأهميتها الخاصة بها . لكن البلشفية لم تصل إلى ذروتها إلا خلال الحقبة الثانية . إن حزباً ثورياً يمتحن نفسه في ثورة ، مثلما الجيش في معركة . يتم الحكم على اعضائه وقادته ، في الدرجة الاخيرة ، على أساس سلوكهم خلال ذلك الامتحان ؛ ليس لسلوكهم خلال الحقبة الاعدادية ، عند المقارنة ، غير اهمية ضئيلة . لا ينبغي الحكم على بلشفي بناء على ما قاله أو فعله قبل عام ١٩١٧ ، خلال « مناورات مهاجرين سياسيين » مشوشة ، وأحياناً « متناقضة » ، بل انطلاقاً مما قاله وفعله عام ١٩١٧ بالذات . ومع ان تروتسكي أضفى

على مقدمته طابعاً غير شخصي لسرد تاريخي ، إلا أنها بالطبع مرافعة pro domo*: كان تروتسكي يبغي جعل القارىء يفهم أن تعاونه قبل الثورة مع المناشفة كان جزءاً من « مناورات المهاجرين السياسية المتناقضة » ، بينما كان موقفه كقائد لثورة اوكتوبر منيعاً لا يُنال . ووفقاً للمقياس ذاته ، ينقلب ماضي خصومه عليهم ، فربما كانوا « لينينيين » جيدين خلال سنوات التهيئة ، لكنهم بدوا خائرين في عام ١٩١٧ .

روى تروتسكي الأزمتين الكبيريين اللتين عاشهما الحزب في عام ١٩١٧ ؛ في نيسان / أبريل حين كان على لينين أن يهزم مقاومة الجناح اليميني في الحزب ، « البلاشفة القدامى » كما كان يسميهم لينين ذاته ، قبل التمكن من إقناع الحزب بسلوك طريق الثورة الاشتراكية ؛ وعشية ثورة أوكتوبر ، حين تهرب الجناح اليميني ذاته إزاء الانتفاضة . اوضح تروتسكي ان تردد بعض القادة واخطاءهم لم تحدّ من الفتح البلشفي قيد أنملة . كان الحزب جهازاً حياً ، بخلافاته والاختلافات في الرأي داخله . لكان كان على البلاشفة ان يعرفوا الوقائع ؛ فحتى حزب ثوري يضم حتماً عناصر محافظة تكبح مسيرته الى الامام ، لا سيما حين يواجه الحزب وضعاً حرجاً ويضطر لاتخاذ قرارات جريئة . كانت الحجة موجهة في المقام الأول ضد زينوفييف وكامينيف ، « كاسري إضراب الثورة » ، لكن كذلك ضد ريكوف وكالينين وقادة الحرس القديم الآخرين ، الذين عارضوا سياسة لينين عام ١٩١٧ . في الواقع ، كان تروتسكي يضع موضع الشك حق المثالثين في تصوير أنفسهم كالناطقين الشرعيين الوحيدين بلسان المذهب البلشفي ، وبصورة اكثر عمومية ادعاء الحرس القديم تجسيد التراث اللينيني بكل نقاوته . وكان الاستنتاج الضمني ، لكن البديهي ، للتاريخ هو أن ذلك التراث لم يكن بأي شكل من الاشكال بالبساطة والثبات اللذين كان يريد البعض تصوره بهما : كان الحرس القديم يمثل تلك « البلشفية القديمة » التي نبذها لينين لأنها كانت مؤلفة من شعارات بالية وذكريات ميتة ، بينما كان موقف تروتسكي منسجماً تماماً مع بلشفية عام ١٩١٧ ، التي حقق الحزب النصر تحت رايتها .

بعد ذلك ، ينتقل تروتسكي من التاريخ ومن الاشارات الى الاحداث الراهنة إلى آخر فصل حرج ، ذلك المتمثل بإخفاق الشيوعية في المانيا . كانت الموضوعات الكبرى لـ دروس اوكتوبر هي دور القيادة ، في وضع ثوري ، استراتيجية الانتفاضة وتكتيكها . قال إنه ما من حزب ثوري يستطيع ان يخلق حسب مشيئته مناسبات ثورية ، فهذه المناسبات هي حصراً ناتج تفكك بطيء نسبياً للنظام الاجتماعي . لكن في غياب قيادة حازمة يمكن

(*) معناها : الحرفي : لأجل بيته . أما معناها الفعلي فبصدد الشخص الذي يجعل من نفسه محامياً لقضيته الخاصة به (م) .

أن يترك حزب مناسبة ثورية تفلت من يده . وفي أمور الثورة ايضاً ، ينبغي معرفة استناح الفرصة المناسبة ، إذ ربما لن تسنح تلك الفرصة مجدداً قبل عشرات السنين . لا يمكن لأي من المجتمعات أن يعيش طويلاً في التوتر الذي تخلقه ازمة اجتماعية حادة ، فإذا لم يؤد التوتر الى الثورة فسيؤدي الى الثورة المضادة . وربما تقررت وجهة الأمور في اسابيع أوحتى في ايام ، فاذا تهرب الشيوعيون من الانتفاضة خلال تلك الاسابيع أو الايام وأجّلوا كل عمل ، معتقدين ان الوضع الثوري سيمتد ويقدم لهم مناسبات جديدة ، عندئذٍ « لا تكون رحلة حياتهم بكاملها غير عثرات وبؤس » . ذلك ما كانت ستؤول اليه حالة البلاشفة لو تغلب من عارضوا انتفاضة ١٩١٧ ، وتلك كانت حال الشيوعية الالمانية في عام ١٩٢٣ . كانت روسيا قدمت البرهان الايجابي على الدور الحاسم للقيادة الثورية ، بينما قدمت المانيا البرهان السلبي . كان الموقف المحافظ ذاته الذي ابداه الجناح اليميني البلشفي عام ١٩١٧ ، هو المسؤول عن الهزيمة الالمانية . ولم تكن ثمة حاجة للبحث طويلاً إلى من كان يوجه تروتسكي هذا السهم : فالرجل الذي كان الناطق بلسان الجناح اليميني في اوكتوبر ١٩١٧ ، كان الآن رئيس الأممية الشيوعية .

أجاب المثالثون بهجوم مضاد كثيف . جنّدوا حشداً من الدعاويين والمؤرخين وحتى الكتّاب الأجانب(١١٧) . طوال الخريف والشتاء ، سيطرت على حياة البلد السياسية بكاملها تلك المساجلة التي دخلت في الحوليات البلشفية تحت الاسم الغريب : « النقاش الأدبي » . ولما كان يستحيل التكذيب الصريح لتأكيدات تروتسكي بصدد موقف زينوفييف وكامينيف عام ١٩١٧ ، أجاب المدافعون عنهما بأنه بالغ كثيراً في تضخيم اخطائهما ، وبأنه لم تحدث بينهما وبين لينين غير خلافات عارضة وسطحية وبأنه لم يوجد يوماً في الحزب جناح يميني أو أي تيار محافظ . قالوا إن تروتسكي اخترع تلك الأكاذيب ، لا ليُفقد الحرس القديم وحده حظوته ، بل كذلك مجمل التراث اللينيني وليتمكن من أن ينسب الى نفسه والى التروتسكية مزايا محض وهمية .

لكن للبرهان على ذلك ، اضطر المثالثون ومؤرخوهم لمواجهة تروتسكي بروايتهم الخاصة بهم لأحداث ١٩١٧ ، وهي رواية معدة لإعلاء هيبتهم والانتقاص من الدور الذي لعبه تروتسكي في تلك الاحداث . وهو ما تم فعله بحياء في البدء ثم بجسارة واحتقار للحقيقة متزايدين . هكذا لم ينكروا في البدء الدور الخارق الذي لعبه تروتسكي ، لكنهم

---

(١١٧) جرى جمع أهم الردود على تروتسكي في مجلد ضخم ساهم فيه كل من ستالين وزينوفييف وكامينيف وبوخارين وريكوف وسوكولنيكوف وكروبسكايا ومولوتوف وبوبنوف واندرييف وكفيرنغ وستيفانوف وكنوزونين وكولاروف وغوزيف وملنيشانسكي .

أكدوا أنه لم يكن يفوق دور خصومه الحاليين . ثم تدخل ستالين شخصياً متقدماً برواية من بنات افكاره، فأعلن أن اللجنة الثورية العسكرية لسوفييت بتروغراد ، التي كان يرأسها تروتسكي ، لم تكن على الاطلاق مركز القيادة العامة لانتفاضة اوكتوبر ، كما اكدت حتى ذلك الحين كل الروايات التاريخية بلا استثناء . أكد أن « مركزاً » وهمياً الى هذا الحد أو ذاك ، لم يكن تروتسكي عضواً فيه لكن كان ستالين جزءاً منه ، هو الذي قاد الانتفاضة(١١٨) . وكانت تلك الرواية مختلقة بشكل فظ لدرجة ان الستالينيين ذاتهم استقبلوها في البدء بسخرية مرتبكة . لكن بعد إطلاق تلك الرواية ، بدأت تنغرس بعناد في العروض التاريخية الجديدة ، وانتهت لشق طريقها الى الموجزات ، حيث ستبقى النسخة الوحيدة المسموح بها خلال ما يقرب من ثلاثين عاماً . تلك كانت بداية ذلك التزوير الفظيع للتاريخ الذي سينهال سريعاً كضباب مدمِّر على آفاق روسيا الفكرية : إذا كان معداً في البدء لتبييض صفحتي زينوفييف وكامينيف ، فقد انتهى الى اظهارهما ، هما علاوة على بوخارين وريكوف وتومسكي والكثير الكثير من القادة البلاشفة الآخرين ، كمخربي ثورة اوكتوبر وخونتها وكجواسيس أجانب. في عام ١٩٢٤ ، كان معظم الضحايا اللاحقين للتزوير يحاولون معاً بجنون أن يدفعوا بتروتسكي الى الظل .

ومع ذلك ، طالما بقي تروتسكي على ارضية أحداث ١٩١٧ ، كان وضعه بالغ القوة ، لذا بذل المثالثون كل ما في وسعهم لاعادة تروتسكي إلى ميدان الحقبة ما قبل الثورية ، الحقبة التي عارض تروتسكي فيها البلشفية . نادوا بعقيدة الاستمرارية الصلبة والجامدة لسياسة الحزب ، وعقيدة عصمة الحزب الافتراضية . قالوا إن أي شخص يكون عارض البلشفية بحزم مثلما فعل تروتسكي خلال حقبة طويلة هو مخطىء بشكل جوهري ، وسيقترف حتمًا فيها بعد أخطاء اخرى. وإذ استلهم صانعو العقائد الجامدة كاريكاتوراً للحتمية فقد طبعوا في اذهان اعضاء الحزب الفكرة القائلة بأن كل خطأ ، كل انحراف ، أكان جماعياً أو فردياً ، لا يمكن اعتباره أمراً عارضاً (وبالطبع لم تكن هذه الصيغة تطبَّق على اخطاء المثالثين) . كان لكل خطأ اسبابه العميقة أو « جذور » ه في الطبع الخاص ، البورجوازي الصغير أو غير ذلك ، للفرد أو الجماعة المعنيين . كان خطأ عظيم يثقل كاهل من اقترفه ، له الخطورة المشؤومة التي للخطيئة الاصلية . إن سقوط تروتسكي يعود الى أيامه الأولى في صفوف المنشفية ؛ وهو لا يفسَّر بـ « مناورات المهاجرين السياسيين » بل بموقفه الاساسي إزاء مشكلات العصر الكبرى . خلال واقعة اوكتوبر ، صارعت روح تروتسكي البورجوازية الصغيرة للحصول على غفران خطاياها ، وقد

(١١٨) ستالين ، سوش . ، ج ٦ ، ص ٣٢٤ - ٣٣١ .

ساعدها الحزب ، آملاً « هضمها » . ولكن طبيعة تروتسكي المنشقية العنيدة كانت تعود الى الظهور باستمرار .

على ضوء هذا التحليل ، اتخذت الخلافات بين تروتسكي ولينين منذ الثورة معنى مشؤوماً ، لم يتم الاشتباه به حتى ذلك الحين . كان السببان الأكبران للخلاف صلح بريست ـ ليتوفسك والسياسة تجاه النقابات (أما الخلافات الأخرى التي اعترف لينين بخطئه بصددها فأبقيت طيَّ التناسي والاهمال) . وقد عالج العديد من الاهجوّات والمقالات هاتين القضيتين واعطى عنهما روايات تثبت أنه في كل مرة ظهرت الى العلن لا لينينية تروتسكي المتأصلة ، وتقيم رابطاً مباشراً بين معارضته للينين وعدائه حيال خلفائه . أما سياق المجادلات القديمة ، والمواقع الحقيقية لمن شارك فيها ، واسبابهم وتردداتهم وتناقضاتهم ، وصفاتهم الشخصية ومعايبهم ، فقد جرى تجاهلها كلياً ، وفي الاحوال كافة . قُدِّمت للحزب صورة عن ذاته ، وعن قادته تشبه تلك الرسوم الجدارية القروسطية المتناولة يوم الدينونة ، حيث الصالحون ، الذين تستنشق وجوههم الورع حتى الاختناق ، يصعدون الى السماء مباشرة ، بينما يلقى بالخطأة ، البشعين ككل الشرور ، إلى نار الدينونة .

وإذ كانت المساجلة تصعد سلَّم السنوات السابقة وتهبطه وتتوقف عند عامي ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ ، ، تم اخيراً اكتشاف اصل كل اخطاء تروتسكي وانحرافاته : نظريته عن الثورة الدائمة التي نودي بها على أنها الهرطقة الأم . ومع ذلك ، لم يحدث للحزب قبل عام ١٩١٧ ، أن تخاصم بصدد هذه النظرية . لقد جرت اعادة نشر دراسات تروتسكي الأولى حول الموضوع في نسختها الأصلية ، وتُرجمت ترجمات عديدة ، وتم اعتبارها مساهمات في النظرية الشيوعية تشكل مرجعاً في هذا المجال . وحتى ذلك الحين كانت موضوعتاها الرئيسيتان تنتميان الى ايديولوجية الحزب الشائعة ، تانك الموضوعتان القائلتان بأن على الثورة الروسية الانتقال من الطور البورجوازي الى الطور الاشتراكي ، وبأن الثورة الروسية ستكون فاتحة الثورة العالمية . لم يكن يمكن دحض تينك الفكرتين جهاراً ، لكن المساجلين اخرجوا من المخبأ بعض الملاحظات الخشنة ، العائدة الى عام ١٩٠٦ ، التي كان يؤكد لينين فيها ان الثورة الروسية لن تكون غير ثورة بورجوازية ؛ كان لينين يقول بعد ذلك انه إذا كان تروتسكي يتحدث عن حل اشتراكي فلأنه « يقفز » فوق الطور البورجوازي ، و « يبخس تقدير » أهميـة الفلاحيـن وإذا اخذنا بالاعتبار ما جرى عام ١٩١٧ ، فإن هذه الملاحظات فقدت كل أهميتها . وهو ما لم يمنع المساجلين من أن يرددوا في أوساطهم أنه كان لدى تروتسكي ميل خاص للـ « قفز فوق المراحل الوسيطة » و

« بخس تقدير » الفلاحين . وثمة شك في انه كان سهلاً جمع هذه الاتهامات مع الاتهام الآخر الذي كان يجعل منه منشفياً غير تائب (لم يكن المناشفة بعيدين فقط عن القفز فوق طور الثورة البورجوازي ، بل كانوا يرفضون كذلك المضي ابعد من ذلك الطور) ، وقد لزم الاستعانة بكنوز السفسطة للتغلب على ذلك التناقض المنطقي . لكن كما الحال في كل الخصومات من هذا النوع ، لم تكن الحقيقة المنطقية أو التاريخية للحجة هي التي تهم ، بل مستتبعاتها وتأثيرها على المشكلات السياسية الراهنة ، والدمغة التي تدمغ بها منتهك الحرمات .

كان لإقحام ميل تروتسكي الى « بخس تقدير الفلاحين » انعكاس واضح على السياسة الراهنة : كان المثالثون وريكوف بدأوا يصفون تروتسكي منذ السنة السابقة بعدو الموجيك ، وقد غدوا يضفون الآن على هذا الاتهام سريان مفعول ينسحب الى الماضي وتلويناً تاريخياً. أما ما كانت تضمره بصورة أعمّ محاجّة الثالوث فكان أهم ايضاً. فـ «الثورة الدائمة» كانت تعني بالنسبة للخيال الشعبي اضطراباً مستمراً وصراعاً دائمًا، واستحالة أن تستقر الثورة الروسية وتصل الى درجة معينة من الثبات. وبفضح المثالثين «الثورة الدائمة» كانوا يؤثرون على رغبة الشعب في السلام والاستقرار.

وفي الحقيقة ان نظرية تروتسكي كانت تزعم فعلاً أن مستقبل البلشفية الروسية يتوقف في الدرجة الأخيرة على امتداد الثورة الى الخارج . لكن الآمال بامتداد الثورة احبطت في العديد من المرار وتلقت لتوها في المانيا التكذيب الأكثر جزماً . كان البلاشفة يحسون بأنفسهم اكثر عزلة من أي يوم مضى؛ وقد وجدوا تعويضاً نفسياً في الاعتقاد، بنوع من العُجْب والمراعاة للذات، بأنه يمكن لروسيا الثورية ان تكفي نفسها بنفسها. وكانت نظرية تروتسكي-تؤذي هذا الاعتقاد وتصدمه، لذا فإن مجرد ذكر «الثورة الدائمة» بدأ يثير غيظاً شديداً في أوساط الكادرات البلشفية. شعروا بحاجة عاطفية عنيفة لأن ينتزعوا من نظرية تروتسكي كل قابلية احترام ايديولوجية. وليس صدفة أن يكون ستالين صاغ خلال خريف ١٩٢٤، في معرض مراجعته لمواقفه السابقة، مذهب «الاشتراكية في بلد واحد» الذي اصبح الرد على «الثورة الدائمة» والند لها. تمجد ستالين غرور روسيا الثورية واكتفاءها بذاتها، مقدماً بذلك للحزب تعزية ايديولوجية بصدد آماله الأممية المحبطة(١١٩).

ومن السهل أن نفهم كيف ولماذا أضعف « النقاش الأدبي » موقف تروتسكي أكثر

---

(١١٩) انظر ستالين ، سيرة سياسية ، اسحق دويتشر ، ص ٢٨١ - ٢٩٣ (الطبعة الانكليزية) .

فأكثر . لقد ثبّت في أذهان الجمهور صورة تروتسكي كان من جهة نصف منشفي متأصلاً ، وهو من جهة اخرى « يساري متطرف » متأصل أيضاً ، يسعى لجر الحزب الى مغامرات خطيرة في روسيا والخارج . ففي روسيا ، زعموا أنه كان يبذل أقصى جهد لخلف البلاشفة مع الفلاحين الذين لم يفهمهم في يوم من الأيام ؛ وفي الخارج ، كان يرى دائماً مناسبات ثورية حيث هي معدومة إطلاقاً . والزيغ ذاته قاده لمعارضة صلح بريست ـ ليتوفسك ولوم زينوفييف على هزيمة الثورة في المانيا . لكن كانت هنالك وقائع كثيرة لا تتفق مع صورة تروتسكي مغامر يساري متطرف ، ومن بينها كونه اخذ كذلك على زينوفييف تشجيعه لانتفاضات اجنبية خاسرة سلفاً ، وعارض الزحف على فارصوفيا في عام ١٩٢٠ ، وسعى دائماً لتطبيع علاقات روسيا مع البلدان الرأسمالية ، وكان الأول الذي اقترح سياسة النيب لأجل تهدئة الفلاحين . بيد أن تلك الوقائع لم تعد في الحسبان ، وقد تمازجت الحقيقة والوهم والجدل الفارغ السكولاستيكي بشكل عميق بحيث اصبح تروتسكي دون كيشوت الشيوعية ، دون كيشوت مثيراً للشفقة ربما ، لكن خطراً ايضاً ، لا يمكن أن يكبح جماحه ويجعله عاجزاً عن الإيذاء غير حذر المثالثين وميزاتهم كرجال دولة .

إن العديد من اعضاء الحزب ، وحتى بعض أنصار تروتسكي ، قالوا إنه وضع نفسه في دروس اوكتوبر في موضع سيىء(١٢٠) . أكدوا أنه كان عليه الاقتصار على المشكلات المهمة وعدم التطرق الى اخطاء زينوفييف وكامينيف التي تعود الى عام ١٩١٧ . وإذا كان فعل ذلك ، فللدفاع عن نفسه ، ولأن المثالثين كانوا قد اخرجوا من الجعبة كل التفاصيل المنسيّة منذ زمن طويل ، الخاصة بخلافاته مع لينين ، ولأنهم منعوه من نقاش المشكلات الراهنة . لكن معظم الناس نسوا من « كان البادىء » وأخذوا على تروتسكي كونه لم يرد دفن الماضي . وقد استشهد الكتّاب الرسميون ، بغية إدانة تروتسكي ، بالمقطع من وصية لينين المكتومة ، حيث يطالب الحزب بعدم الاضطغان على زينوفييف وكامينيف بسبب « أخطائهما التاريخية » . حتى كروبسكايا التي كانت تحترم وصية لينين ، تركت نفسها تقتنع بلوم تروتسكي : قالت إنه يولي الكثير من الأهمية للخلافات بين لينين وتلامذته ، وبأن مصير الثورة يتوقف على موقف الحزب والطبقة العاملة بمجملها ، على الخلافات التي يمكن أن تطرأ ضمن حلقة القادة الضيقة(١٢١) . كانت تلك صدمة رهيبة موجهة الى محامي الديمقراطية داخل الحزب . لقد جرح تروتسكي حب الذات البلشفي بأية حال ، تروتسكي الذي بدا الحزب في ذكرياته كمجموعة من الناس البلداء ، البطيئين ،

---

(١٢٠) تروتسكي ، المدرسة الستالينية في التزوير ، ص ٩٠ .

(١٢١) كروبسكايا ، ك فويروزو أوب أوروكاخ أوكتيابريا ، في زالينينيزم ، ص ١٥٢ ـ ١٥٦ .

المترددين ، الذين ما كانوا أدوا يوماً واجبهم لو لم يهمزهم لينين ويدفع بهم .

نتج عن النقاش أثر آخر أزعج تروتسكي كثيراً . فبعض عناصر المعارضة القديمة المناهضة للبلشفية ، المشتتة ، الذين حقدوا عليه حتى ذلك الحين كما لو كان الطاعون ، بدأوا يعلقون آمالهم عليه(١٢٢) . كان ذلك محتوماً ؛ ففي ظل نظام الحزب الواحد ، يستمتع بعض اعداء الحكومة ، الملزمين بالصمت والذين لم يعودوا قادرين على القتال تحت راياتهم الخاصة بهم ، يستمتعون دائماً بأي خلاف مهم داخل الحزب الحاكم ، وذلك مهما تكن دواعي الخلاف . يميلون الى اعتبار كل امرىء تندد به الجماعة القيادية كخصمها الخطر ، كما لو كان بطلهم . وواقع ان تروتسكي طالب بحرية التعبير ، حتى ولو داخل الحزب وحسب ، كان يزكيه على الأقل لدى بعض المعادين للبلشفية الذين لم يكن يمكن أن يفتح لهم طريق المستقبل غير حرية التعبير . ولم يكن ذلك ، في اي من الأحوال ، الموقف الأكثر شيوعاً بين المعادين للبلشفية . فالكثير منهم ، وربما معظمهم ، هللوا فرحاً حين رأوا الرجل ، الذي كانوا يعتبرونه الصانع الأول لهزيمتهم في الحرب الاهلية ، ينهار . لكن المثالثين استخدموا الى ابعد الحدود كل علامات التعاطف ، الصحيح أو المزيف ، حيال تروتسكي ، المنبثقة من خارج الحزب ، في حين كان تروتسكي يهتم أكبر الاهتمام بألا يقول ، أو يفعل ، شيئاً قد يشجع ذلك التعاطف . وهذا ما يوضح ، الى حد بعيد ، تحفظه وسكتاته الطويلة ، علاوة على إعادات تأكيد تضامنه ، المتواصلة والعلنية ، مع المثالثين في وجه الاعداء المشتركين .

وأخيراً كان « للنقاش الأدبي » انعكاس مهم على الثالوث . كان من نتائجه أنه افقد جميع الذين خاضوا في المساجلة حظوتهم ، باستثناء ستالين الذي خرج منها على العكس وقد زادت حظوته . كان تروتسكي قد ركز هجومه على زينوفييف وكامينيف اللذين كانا قد عبرا بوضوح عن اعتراضاتهما على انتفاضة اوكتوبر وطلبا تسجيل تلك الاعتراضات . أما ستالين الذي كان أقل وضوحاً وأكثر غموضاً بكثير في عام ١٩١٧ ، فكان الآن أقل قابلية للعطب بكثير ، لا بل كان زينوفييف وكامينيف يحتاجان الآن الى دعمه الأدبي ، وأسعدهما أن يرياه يشهد بأنهما كانا بلشفيين جيدين(١٢٣) . وقد سمح ذلك لستالين بأن يحتل نهائياً مقام المثالث الأول . هكذا ساعد ستالين ، بغير إرادته ، على هزيمة حليفيه المقبلين ، وعلى

---

(١٢٢) م . ايستمان ، **Since Lenin Died** ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ باجانوف ، مع ستالين في الكرملين ، ص ٨٦ .

(١٢٣) ستالين ، سوش . ، ج ٦ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ . إن نص التصريح الذي يدافع فيه ستالين عن زينوفييف وكامينيف مؤكداً انهما « بلشفيان جيدان » مخفف قليلاً في مؤلفاته ، إذا قورن بالنص الأصلي المنشور في زالينينيزم ، ص ٨٨ - ٨٩ ، لكنه واضح بما فيه الكفاية .

ارتقاء خصمه الرئيسي ، والاخطر بين خصومه .

جعلت العاصفة التي أثارتها دروس اوكتوبر ، وضع تروتسكي في مفوضية الحرب وضعاً مزعزعاً. كان المثالثون قد نددوا به بتعابير أصبحوا معها عاجزين عن ترك عبء الأمور العسكرية له . كانوا لا يزالون يرتعبون ، قبل عام واحد ، لدى فكرة قبول استقالته ، أما الآن ، فكانوا يعملون جهاراً لإزاحته من المفوضية .

لم يقم تروتسكي ، في أي لحظة من لحظات الصراع ، بأدنى محاولة للاستعانة بالجيش ضد الثالوث . وقد كبح بعض أنصاره ، كأنطونوف ـ اوفسينكو ، الذين خضعوا لتجربة اشراك الخلايا العسكرية في المجادلة ، تلك الخلايا التي كان يحق لها إبداء رأيها ، وفقاً لنظام الحزب . فلنضف ان الناطقين الرسميين لم يأخذوا يوماً على انطونوف ـ اوفسينكو خطأ أخطر من هذا الخطأ . لم يجر الحديث ابداً عن مؤامرة أو عن الاعداد لانقلاب . وهؤلاء الناطقون ذاتهم اعترفوا مراراً بالتأثير المهدىء لتروتسكي(١٢٤) . لم تتخط التعريضات المتعلقة بطموحاته البونابرتية مستوى الاحاديث الخاصة . لم يتم اتهام تروتسكي بالقيام بأدنى محاولة لاستخدام وظائفه في مفوضية الحرب لخدمة مصالحه السياسية . لم يتبادر لذهن تروتسكي الاعتراض على سلطة المكتب السياسي على الجيش . لذا قبل ـ ليس من دون الاحتجاج في الواقع ـ إقصاء أنصاره من المراكز الأهم في مفوضيته واستبدالهم بأشخاص مخلصين لخصومه(١٢٥) .

قد يكون من غير المجدي التساؤل إذا كان أمكن تروتسكي أن يقوم بانقلاب عسكري ناجح . ففي بداية الصراع ، حين لم تكن الامانة العامة بدأت بعد تقوم بالتبديلات وتعين وفقاً لمصلحتها الملاك الحزبي في الجيش ، كان يمكن ان تكون حظوظ نجاحه كبيرة ، إلا أنها تناقصت فيما بعد . في كل حال ، لم يحاول تروتسكي أبداً أن يجرب حظه ، فقد كان مقتنعاً بأن عصياناً عسكرياً سيكون تقهقراً للثورة لا يمكن إصلاحه ، حتى لو اضطر لأن يكون على علاقة به . كان قد أعلن في المؤتمر الثالث عشر أن الحزب هو « الأداة التاريخية الوحيدة التي تملكها الطبقة العاملة لحل مشكلاتها الاساسية » . ما كان بإمكانه إذاً ان يحطم تلك الأداة بواسطة الجيش . وكان يقول انه في كل صراع مع الحزب قد يستند الجيش الى قوى مضادة للثورة ، وهو ما سيحكم عليه بأن يلعب دوراً رجعياً .

---

(١٢٤) في المؤتمر التداولي الثالث عشر ، تحدث حتى الخطباء الرسميون عن تأثير تروتسكي المهدىء : انظر مثلاً خطاب لومينادزي في ١٣ كونفرنتسيا ر ك ب (ب) ص ١١٣ .

(١٢٥) حياتي ، ص ٥١٧ ـ ٥١٩ .

وكان اعلن في المؤتمر الثالث عشر أن الحزب في أشد « انحطاطه » . لكن هذا الانحطاط ناتج عن القطيعة بين القادة والقاعدة وعن زوال القاعدة الديمقراطية للحزب . كانت المشكلة بالنسبة لتروتسكي تكمن في اعادة تكوين تلك القاعدة ومصالحة القادة معها . كان خلاص الثورة يتوقف في الدرجة الأخيرة على انبعاث سياسي « انطلاقاً من القاعدة » ، انطلاقاً من اعماق المجتمع . ربما لا يمكن لعمل عسكري « من فوق » ان يؤدي إلا الى نظام اكثر ابتعاداً عن الديمقراطية العمالية من الحكومة الحالية . ذلك كان « منطق الاشياء » ، ولم يكن تروتسكي يعتقد بإمكانية السير ضده . كان يحدد موقع عمله وشخصه في سياق القوى الاجتماعية التي كانت تحدد مسار الاحداث ؛ وكان دوره الخاص به يبدو له خاضعاً لتلك القوى ، وكان هدفه ـ أي انبعاث الديمقراطية البروليتارية ـ يملي عليه اختيار وسائله .

خلال عام ١٩٢٤ ، أفلتت من يده قيادة مفوضية الحرب . فبواسطة فرونزي وأونشليشت ، مد المثالثون رقابتهم تدريجياً على كل سلك المفوضين السياسيين للجيش ، ولم يردعهم إذاك أي شيء عن جر الجيش إلى الصراع . عرضوا على خلايا الحزب قرارات تدين نشر تروتسكي دروس اوكتوبر . دعوا لعقد مؤتمر قومي للمفوضين السياسيين عُرِض عليه مشروع قرار يطالب باستقالة تروتسكي من مفوضية الحرب . في تلك الفترة ، وقع تروتسكي مرة اخرى ضحية نوبة مالاريا ، ولا يبدو أنه حتى عرض وجهة نظره أمام المفوضين . وقد صوّت المؤتمر على الاقتراح المطالب باستقالته . ثم تعرض للهزيمة ذاتها في الخلية الشيوعية للجنة الثورية العسكرية التي ترأسها منذ تأسيسها . وتتويجاً لكل ذلك ، دعيت دورة بكامل الأعضاء للجنة المركزية الى الانعقاد في ١٧ كانون الثاني / يناير ١٩٢٥ في اعلى جدول اعمالها « قضية تروتسكي » .

في ١٥ كانون الثاني / يناير ، وجّه تروتسكي الى اللجنة المركزية رسالة يعتذر فيها عن عدم القدرة على حضور الجلسة الوشيكة لأنه كان مريضاً . لكنه اكد انه أجل رحيله الى القفقاز بغية الاجابة عن الاسئلة التي يمكن ان تطرح عليه ، وتقديم الشروح التي يمكن أن يطالب بها . وباختصار ، وبغيظ مكظوم ، أجاب عن الاتهامات الرئيسية الموجهة إليه ؛ كان ذلك هو رده الوحيد على الانتقادات التي أثارتها دروس اوكتوبر . ثم طلب إعفاءه فوراً من منصبه كرئيس للجنة الثورية العسكرية وأعلن : « أنا مستعد لإنجاز أية مهمة تكلفني بها اللجنة المركزية ، في أي منصب وحتى من دون أي منصب ، وهذا طبعاً تحت إشراف الحزب ، مهما يكن »(١٢٦) .

---

(١٢٦) النص الكامل لهذه الرسالة موجود في م . ايستمان Since Lenin died ، ص ١٥٥ ـ ١٥٨ .

في المكتب السياسي ، اقترح زينوڤييڤ وكامينيڤ الطلب الى اللجنة المركزية إقصاء تروتسكي من المكتب السياسي واللجنة. ومرة اخرى، رفض ستالين مثيراً بذلك غضبهما الشديد. تساءل زينوڤييڤ وكامينيڤ، اذا لم يكن ستالين سيتصالح مع تروتسكي على حسابهما. قررت اللجنة المركزية بقاء تروتسكي في اللجنة والمكتب السياسي، لكنها هددته مرة اخرى بالطرد اذا انخرط في مساجلة جديدة[١٢٧]. اعلنت اللجنة المركزية، عندئذٍ، بصورة رسمية اختتام «النقاش الأدبي». لكنها طلبت الى كل فروع الدعاوة مواصلة الحملة «التي ستنير الحزب بكامله... حول الطابع المعادي للبلشفية الذي تتسم به التروتسكية، التي تعود أصولها الى عام ١٩٠٣، وتنتهي مع دروس اوكتوبر». كان على حملة أخرى ان تنير مجمل البلاد، لا اعضاء الحزب وحسب، حول الخطر الذي كانت التروتسكية تعرّض له «التحالف بين العمال والفلاحين». ولما لم يكن تروتسكي مخوّلاً الرد، تحولت تلك الحملة الجديدة الى «نقاش من طرف واحد». وفي الأخير، اعلنت اللجنة المركزية «انه يستحيل استمرار تروتسكي في العمل داخل اللجنة الثورية العسكرية».

وهكذا ، مدموغاً بعلامات عار تكسف ألقاب مجده وسط صيحات التنديد التي ترن في أذنيه ، مكمّماً ، ممنوعاً حتى من الدفاع عن نفسه ، غادر المفوضية والجيش اللذين قادهما خلال سبع سنوات طوال .

---

(١٢٧) بوبوف ، تاريخ مختصر للحزب الشيوعي السوفياتي ، ج ٢، ص ٢١٦ ؛ Kpss u ResOlutsyakh. vol. i. pp. 913-21

الفصل الثالث

ليس بالسياسة وحدها يحيا الانسان

« ليس بالسياسة وحدها يحيا الانسان . . . » ذلكم كان العنوان الذي أعطاه تروتسكي لإحدى دراساته الصغيرة التي ظهرت في البرافدا في صيف ١٩٢٣[١] . كان تروتسكي أقل قدرة من أي شخص آخر على الحياة بالسياسة وحسب . حتى في الفترات الأكثر حرجاً من صراعه لأجل السلطة ، امتصت نشاطاته الأدبية والثقافية جزءاً كبيراً من طاقته ، وقد كرس نفسه لها بصورة أكمل ايضاً بعد تركه لفوضية الحرب، حين هدأ النزاع مؤقتاً داخل الحزب . وهذا لا يعني أن تروتسكي أراد الهرب من السياسة ، فاهتمامه بالفن والأدب والتربية بقي سياسياً إلى حد بعيد . لكن تروتسكي كان يرفض البقاء على سطح الأمور العامة . لقد حول النضال من اجل السلطة الى نضال لأجل « روح » الثورة ، معطياً بذلك بعداً جديداً ، وعمقاً جديداً ، للصراع الذي وجد نفسه داخله .

ستكفي بعض الوقائع لتبيان أية مكانة أولاها تروتسكي للعمل الأدبي خلال أهم المعارك داخل المكتب السياسي . حين رفض في صيف ١٩٢٢ منصب نائب الرئيس ، ومضى في عطلة مخاطراً بأن يلومه المكتب السياسي ، كرس القسم الأكبر من عطلته للنقد الأدبي . كانت دار نشر الدولة جمعت دراساته الأدبية لما قبل الثورة لإعادة نشرها في مجلد خاص من مؤلفاته . كان تروتسكي عزم كتابة مقدمة تدرس حالة الأدب الروسي منذ الثورة . وقد تضخمت « المقدمة » . وأصبحت كتاباً مستقلاً . خصص لها تروتسكي كل أوقات فراغه لكنه لم يتمكن من إنجازها . واستأنف العمل خلال العطلة اللاحقة صيف ١٩٢٣ ، حين كان نزاعه مع الثالوث ، الذي عقّده انتظار الثورة في المانيا ، يصل الى طوره الأكثر حدة . وفي هذه المرة ، عاد الى موسكو حاملاً المخطوطة الكاملة لكتاب جديد ، **الأدب والثورة** .

---

(١) البرافدا ، ١٠ تموز / يوليو ١٩٢٣ ؛ سوش ، ج ٢١ ، ص ٣ - ١٢ .

خلال الصيف ذاته ، كتب سلسلة من المقالات حول عادات روسيا ما قبل الثورة وتقاليدها ، جمعت فيها بعد في مشكلات الحياة اليومية . كانت الموضوعات المطروقة تضم ما يلي : الحياة العائلية في ظل النظام الجديد ، البيروقراطية « المستنيرة » و « غير المستنيرة » ، « اللياقة والتهذيب » ، « الڤودكا والكنيسة والسينما » ، « الفظاظة في اللغة الروسية » ، الخ . تكلم أمام حضور من المربّين ، والمهتمين بالمكتبات ، والمحرضين ، والصحفيين ، و « المراسلين من جبهة العمل » ، وكان يلح دوماً على الحزن والفقر والسطحية الكئيبة التي غرقت فيها الصحافة . طالب بإعادة النقاء والقوة الى اللغة الروسية ، التي كانت تربكها آنذاك رطانة الحزب ومفرداته المصطنعة . وخلال الصيف ذاته والخريف اللاحق ، كرس نفسه لمهمات متنوعة من مثل تحليل مقارن للأزمات الاقتصادية في القرنين التاسع عشر والعشرين (نشر بهذا الخصوص دراسة قصيرة ، لكن مكثفة ، في ڤستنيك الاكاديمية الاشتراكية[٢]) ، ودراسة حول نزاع مدارس علم النفس ، كمدرسة فرويد ومدرسة بافلوڤ . كان يعرف من زمن طويل النظريات الفرويدية : ودرس أعمال بافلوڤ . وقد استعد للتدخل في الجدال مدافعاً عن حرية البحث والاختبار وداعياً الى التسامح حيال المدرسة الفرويدية . وفي عام ١٩٢٤ ، كتب أيضاً لوحات سيرية للينين يصوّر فيها مؤسس البلشفية بكل حقيقته الانسانية ، منتقداً ضمناً « أيقونة » لينين الرسمية والعبادة التي بدأت تتناوله .

كان تروتسكي يسعى ، في كل كتاباته ، إلى مهاجمة أصل الأمراض التي كانت تثقل كاهل الثورة ، لا علاماتها فقط ، أي تخلف روسيا الفكري الذي لم يكن أقل أهمية من بؤسها الاقتصادي . قال إن الحاجة إلى « تراكم ثقافي بدائي » لم تكن أقل الحاحاً من الحاجة الى تراكم صناعي . عرّى الأرض التي بدأت الستالينية تنمو فيها ؛ أراد تغيير ذلك المناخ الذي سيشجع ازدهارها . هكذا يمكن تفسير الأهمية التي علقها تروتسكي على العادات والتقاليد و « الأشياء الصغيرة » في الحياة اليومية : بيّن كيف كانت تؤثر على أمور الدولة . وسوف تظهر طريقته في معالجة هكذا موضوعات ، بوضوح كامل ، من خلال النص التالي الذي يتناول عادة التجديف الروسية :

إن بذاءة اللغة والتجديفات إرث من العبودية والإذلال واحتقار كرامة الإنسان ، كرامة ذلك الذي يتكلم وكرامة الآخرين . . . كنت أود لو قال لنا فقهاؤنا ولغويونا واختصاصيو الفولكلور عندنا إذا كانت توجد في لغة اخرى كل تلك التعابير المبتذلة ،

(٢) سوش . ، ج ١٢ ، ص ٣٥٧ - ٣٦٣ .

والغليظة ، والبذيئة التي نعرفها في روسيا . لا يوجد شيء ، في علمي ، أو نادراً ما يوجد شيء مماثل في غير لغتنا . كان الكلام البذيء لدى الطبقات الروسية الدنيا ناجماً عن اليأس والضغينة ، ولا سيما عن العبودية التي لا أمل فيها ولا علاج . أما الكلام القذر لدى طبقاتنا العليا ، ذلك الذي كان يخرج من فم الارستقراطية والموظفين ، فكان نتيجة السيطرة الطبقية ، وكبرياء مالكي العبيد ، وسلطة لا تتزعزع . . نوعان من البذاءة ، بذاءة السادة ، والموظفين ، والشرطة ، الثقيلة ، والسافلة ، وبذاءة الجوع واليأس والبؤس لدى الجماهير ، لوّنـا كل الحياة الروسية بصورة مثيرة للاحتقار .

إلا أن الثورة هي قبل كل شيء يقظة الشخصية الانسانية في الجماهير ، في تلك الجماهير التي كان مفترضاً أنها لا تملك أية شخصية رغم قساوة الثورة العارضة والصلابة الدموية لطرائقها . . فهي تتصف باحترام متنامٍ لكرامة الفرد وبانتباه اكثر فأكثر توسوساً حيال الضعفاء . لا تستحق ثورة اسمها إذا لم تساعد المرأة ، التي كانت في الماضي عبدة مرتين ، وثلاثاً ، على الانخراط في طريق التقدم الاجتماعي والفردي ، وذلك بكل سلطتها وبكل الوسائل التي بحوزتها . لا تستحق ثورة اسمها إذا لم تول أعظم العناية للطفولة . . . التي أنجزت لمنفعتها . لكن كيف يمكن خلق . . . حياة جديدة قائمة على الاحترام المتبادل ، واحترام الذات ، وعلى المساواة الحقيقية للنساء . . . والعناية الفعالة بالطفولة ، في جو سممته الغلظة الصاخبة والعاصفة والمصِمَّة ، الخاصة بالسادة وبالعبيد ، غِلظة لا توفر أحداً ولا تتراجع أمام أي شيء ؟ إن النضال ضد « اللغة القذرة » شرط اساسي من شروط الصحة الذهنية ، مثلما النضال ضد القذارة والحشرات الطفيلية شرط من شروط الصحة البدنية . . .

ثمة عادات سيكولوجية ، متناقلة من جيل لجيل ، وطابعة كل المناخ الحياتي بطابعها ، تصمد بقوة خارقة . . . فكم من المرار ضغطنا قوانا وقمنا بقفزة عنيفة الى الامام ، لنترك بعد ذلك الأمور تنحرف كما من قبل ؟ . . . وهذا لا ينطبق فقط على الجماهير غير المتمدنة ، بل كذلك على العناصر المزعوم أنها مسؤولة ومتقدمة في نظامنا الاجتماعي الحالي . علينا الاعتراف بأن الأشكال ما قبل الثورية من اللغة البذيئة لا تزال تستخدم ، بعد اوكتوبر بست سنوات ، وبأنها رائجة حتى في قمة الهرم . . . إن حياتنا مصنوعة من مفارقات عنيفة »(٣) .

في ذلك الصراع ضد التقاليد الراسخة والمنبعثة لنمط حياة يمد جذوره في القنانة ،

(٣) البرافدا ، ١٦ ، أيار / مايو ١٩٢٣ ؛ سوش . ، ج ٢١ ، ص ٢٦ - ٣١ .

مني تروتسكي بهزيمة لا تقل قساوة عنها في الميدان السياسي ، لكنه ميّز ، ببعد نظر تاريخي عظيم ، طبيعة القوى التي سوف تسحقه . كان « النوعان من البذاءة الروسية » سيمتزجان في الستالينية ويفرضان « علاماتها الكريهة » على الثورة بالذات . بعد ذلك التاريخ بـ ١٥ عاماً ، خلال التطهيرات الكبرى ، تضخم التياران وصنعا نهراً : آنذاك بالذات ، أمكن رؤ ية مدّع عام يصف متهمين شغلوا أعلى المناصب في الدولة وفي الحزب بـ « أولاد البقر والخنازير » ؛ وكان أرفع القضاة ينهون كلامهم المهووس صائحين : « اذبحوا هذه الكلاب الكَلِبة» . وقد انتقلت الشتيمة من قاعات المحاكمة الى المصانع والمزارع وقاعات التحرير ومدرّجات الجامعات ، وأصمّ صداها روسيا بأسرها طوال سنوات ، كان ذلك كما لو أن قروناً من البذاءة ، تكثفت في لحظة واحدة ، وتجسدت في الستالينية وتدفقت على العالم .

كانت ثورة أوكتوبر قد أعطت دفعاً جديداً للحياة الثقافية ، لكنها زعزعتها كذلك كلياً ؛ وخلقت فيها صعوبات جمّة . كذا يكون تأثير أي ثورة ، حتى في أفضل الظروف وحتى لو وجدت العناصر المثقفة في الأمة الى جانبها . وقدتفاقم التأثير بصورة مخيفة لأن القوة الكبرى المحركة للثورة كانت طبقة مضطَهَدة ، لا تملك شيئاً ومحرومة بالضرورة من العلم . لا شك أن القادة البلاشفة كانوا من الانتليجنسيا ؛ لا بل كان بعضهم يمتلكون ثقافة واسعة وعميقة . لكنهم كانوا حفنة ضئيلة . كان « الكوادر » بمعظمهم عمالاً عصاميين وأناساً نصف متعلمين ، من أصل بورجوازي صغير ، اعطاهم الحزب تكويناً سياسياً وعلمهم التنظيم ، وفي بعض الاحيان الخطوط العريضة للفلسفة الماركسية . لكن كان فهمهم للمشكلات الثقافية يثبت فقط ، في أغلب الاحيان ، أنه يمكن ان يكون الجهل الكامل أفضل من ثقافة جزئية .

كانت غالبية أعضاء الانتليجنسيا استقبلت ثورة اوكتوبر بعداء . بعضهم قتلوا خلال الحرب الاهلية وهاجر الكثيرون . ومن بين الذين بقوا أحياء ، ولم يغادروا روسيا خدم الكثيرون النظام الجديد بصفة « اختصاصيين » . لا بل اهتدى بعضهم بحماس الى الثورة وفعلوا ما في وسعهم لرفع مستوى الامة الثقافي . لكن عانى معظمهم من صعوبات كثيرة للتخلص من عاداتهم الذهنية المحافظة ، او كانوا جد وجلين ، أو جد رديئين ، وجد خانعين بحيث لا يستطيعون ممارسة تأثير فكري واسع وخصيب . تحملوا بصعوبة أن يتلقوا الأوامر من مفوضين نصف متعلمين أو متعلمين على ذاتهم . من جهة اخرى ، غالباً ما كان المفوضون يفتقرون الى الثقة بذاتهم ، كانوا حذرين ويميلون الى اخفاء نقاط ضعفهم بالحيلة والغطرسة . كانوا فوق ذلك متزمتين في اقتناعهم بصواب قضيتهم ، ومتأكدين من أنهم وجدوا في الماركسية ، التي لم يكونوا يعرفونها إلا نصفياً ، مفتاح كل المشكلات

الاجتماعية ، وحتى العلمية والفنية . وذلك كان يثبت اعضاء الانتليجنسيا اكثر فأكثر في آرائهم المسبقة المميزة لهم وفي اعتقادهم المتعالي بأنه لا يمكن للماركسية أن تعلمهم شيئاً ، وبأن الـ Weltanschauung (*) الخاصة بها ليست سوى « ركام غير متمثّل من انصاف الحقائق » . هكذا كانت هنالك فجوة بين اعضاء الانتليجنسيا القديمة والجماعات القائدة الجديدة .

فعل تروتسكي ـ مثل لينين وبوخارين ولوناتشارسكي وكراسين وآخرين ايضاً ـ المستحيل ليردم تلك الفجوة . أوصى المفوضين وأمناء الحزب بمعاملة الانتليجنسيا باعتبار واحترام ، وطلب الى الانتليجنسيا ان تبرهن على تفهم اكبر لحاجات الحقبة وللماركسية . هذه النصائح لم تبق كلها من دون تأثير ؛ وقد ضاقت الفجوة ، إلا أنها لم تزل . ثم عادت تتسع ، ذلك أن مراتب الحزب ، إذ تحررت من كل شكل من الرقابة العامة واعتادت على الحكم بصورة اعتباطية ، اعتادت اكثر فأكثر على فرض ارادتها على العلماء والأدباء والفنانين . شرعت كذلك تطلق العنان لطموحها وتشجع التطلعات « الثقافية » التي تتملق غرور محدث النعمة وتدغدغه ، في الوقت الذي تبدو فيه متزينة بمزايا التجديد الثوري . في ذلك الحين بالذات ظهرت شعارات « الثقافة البروليتارية » ، و « الفن البروليتاري » و « الأدب البروليتاري » التي سرعان ما استفادت من نوع الشعبية ذاته الذي استفاد منه في الجيش « المذهب الاستراتيجي البروليتاري » قبل ذلك بسنوات[٤] .

رأى تروتسكي ضرورة كبح جماح تعصب الشعارات حول الثقافة والفن البروليتاريين ، وفضح تفاهتها . ولم يكن ذلك سهلاً ، ففكرة ثقافة بروليتارية كان يهتز لها بعض المثقفين البلاشفة والعمال الشباب ، الذين ايقظت الثورة لديهم الشغف بالتعلم ، لكنها حفزت كذلك ميولاً معادية للتراث . في خلفية ذلك ، كان عداء الفلاحين الفوضوي لكل ما كان يرتبط في نظرهم بنمط حياة الارستقراطية ، بما في ذلك « قيمها الثقافية » . (حين كان الموجيك يحرق مسكن السيد ، كان غالباً ما يترك الكتب واللوحات تشتعل ، ذلك أنها لم تكن بالنسبة اليه غير جزء من املاك السيد) . وقد أراد بعض البلاشفة تبرير ذلك المزاج المعادي للتراث بتصويره كرفض « للثقافة الطبقية » القديمة ، التي ينبغي تكنيسها . نادت البروليتكولت بالعلم والفن البروليتاريين ، وشرح منظّرو تلك الجماعة من الكتّاب والفنانين ـ ليس من دون ظاهر حق ـ أنه كما كانت هنالك عصور اقطاعية

(*) طريقة النظر الى العالم (م) .

(٤) النبي المسلح .

وبورجوازية في تاريخ الحضارة ، فسوف تولّد الديكتاتورية البروليتارية بدورها ثقافتها الخاصة بها ، التي ستتسم بالوعي الطبقي الماركسي ، والنزعة الأممية المناضلة ، والمادية ، والإلحاد ، الخ . وأكد البعض بأن الماركسية بحد ذاتها تشكل ثقافة جديدة . لقد اجتهد مخترعو هذا المذهب وأنصاره في الحصول له على كفالة الحزب ودعمه ، لا بل في ان يجعلوا منه المبدأ الموجِّه للسياسة التربوية .

أدان لينين وتروتسكي ، كلاهما ، نظرية **البروليتكولت** . لكن لينين اقتصر على الادلاء ببعض التصريحات الواضحة والمختصرة وترك المجال واسعاً لتروتسكي ، فقد كانت القضية ، طبعاً ، من اختصاصه . وسوف نرى فيما بعد كيف هاجم **البروليتكولت** . لم تكن ادعاءات **البروليتكولت** مع ذلك إلا التعبير الاقصى عن الاتجاه الذي كان شائعاً جداً ما وراء حلقات **البروليتكولت** بكثير ، ولا سيما بين اعضاء الحزب الذين كانوا مسؤولين عن قضايا الثقافة والتربية ؛ كان ذلك الاتجاه يكمن في تدبّر تلك القضايا عن طريق الشعارات والأوامر ، وفي تخويف الناس المثقفين جداً ، أو بالغي الذكاء أو بالغي الاستقلالية الفكرية بحيث يصعب فرض الطاعة عليهم . كان ذلك الاتجاه في أصل السياسة الثقافية للستالينية ، التي كافحها تروتسكي بلا ملل . لقد قال في حديث الى المربين : « إن الدولة جهاز إكراه ، لذا يمكن للماركسيين في السلطة ان يخضعوا لاغراء تأسيس عملهم الثقافي والتربوي وسط الجماهير العاملة ، على المبدأ التالي : « هي ذي الحقيقة الموحى بها اليكم ، اسجدوا أمامها » . لا شك ان حكومتنا قاسية ، ومن حق دولة الشغيلة وواجبها استخدام الاكراه . اننا نبدو عديمي الرحمة حيال اعداء الطبقة العاملة . لكن في تربية الطبقة العاملة ، تتناقض الطريقة التي تستوحي صيغة : « هي ذي الحقيقة ، اسجدوا » تناقضاً قاطعاً مع روح الماركسية بالذات »[(٥)] .

إن التحذيرات من هذا النوع تملأ عدداً كبيراً من صفحات الجزء ٢١ من مؤلفات تروتسكي ، الذي بعنوان : **ثقافة حقبة انتقالية** . إن الأوامر المرسلة الى العلماء ، وحظر نظرياتهم « لا يمكن أن تجلب لنا إلا العار والكارثة » . ؛ هذا ما أكده منذداً هكذا سلفاً بالعار والكارثة اللذين جلبتهما رسائل ستالين البابوية حول الهرطقات اللغوية والبيولوجية وحتى السوسيولوجية . يجب التشديد على ان تروتسكي لم ينتظر ، للاستدلال بهذه الطريقة ، مرحلة حشره في موقع المعارضة . فمنذ كانون الثاني / يناير ١٩١٩ ، مثلاً ، كتب :

---

(٥) القى هذا الخطاب في حزيران / يونيو ١٩٢٤ ، فوراً بعد أن ندد المؤتمر الثالث عشر بـ « انحرافه عن اللينينية » . سوش . ، ج ٢١ ، ص ١٣٣ - ١٦٣ .

« لم يكن حزبنا يوماً متملقاً للطبقة العاملة ولن يمكن أن يغدو كذلك . . . إن الاستيلاء على السلطة لا يحوّل الطبقة العاملة بصورة سحرية ، كما لا يملؤها بكل الفضائل : إنه يمنحها فقط كل التسهيلات اللازمة للتعلم ولتطوير ذهنها والتخلص من تقصيراته . لقد انجزت المجموعات القائدة للطبقة العاملة الروسية عملاً ذا أهمية تاريخية عظيمة ، وذلك بعد بذلها جهوداً جبارة . لكن حتى داخل تلك المجموعات ، لا تزال المعارف والكفاءات محدودة للغاية »(٦) .

عاود تروتسكي الحديث مراراً وتكراراً عن تلك المعارف ، والكفاءات المحدودة . وفيما كان لينين ، يقدم النيب ، قال للبلاشفة إن عليهم « تعلم التجارة » . وأضاف تروتسكي انه ليس أقل أهمية أن « يتعلموا التعلم »(٧) .

وقد أعاد التأكيد انه من المؤذي النظر بازدراء عدمي الى « الارث الثقافي » للماضي . على الطبقة العاملة ان تتملك هذا الأرث وتحفظه . لكن على الماركسي ألا يقبله من دون تمييز ، وان ينظر إليه ديالكتيكياً ليميز فيه تناقضاته التاريخية . كان للحضارة حتى الآن هدف مزدوج : لقد ساعدت الانسان على تنمية معارفه وتطوير قدراته ؛ لكنها خدمت أيضاً في تأبيد قسمة المجتمع الى طبقات واستغلال الانسان للإنسان . ينتج عن ذلك ان بعض عناصر الارث الثقافي ذات اهمية وقيمة شاملتين ، بينما ترتبط عناصر اخرى بأنظمة اجتماعية زائلة أو منحطة(٨) . ينبغي إذا أن يكون الموقف الشيوعي حيال الارث الثقافي انتقائياً . وكقاعدة عامة ، فإن مجمل الفكر العلمي بحصر المعنى ، العائد للماضي ، لم يتأثر كثيراً ، بوجه عام ، لكونه تطور في مجتمع طبقي . وإذا كانت سيطرة الانسان على الانسان برزت بالشكل الاكثر مباشرة ، فقد تم ذلك في الخلق الايديولوجي ، وبصورة خاصة في النظريات حول المجتمع بالذات . لكن حتى في هذا الحقل ، نجد العناصر التي تعكس الاضطهاد الطبقي والتي عملت على تأبيد ذلك الاضطهاد ، مختلطة بشكل وثيق بعناصر اخرى سمحت للانسان بالتعرف إلى ذاته ، وبشحذ ذهنه ، وبسط ذكائه ، ودخول ميدان انفعالاته ، وتعلم التحكم بذاته ، وبالتالي ان يتخطى إلى حد ما تقييدات شروطه الاجتماعية . لذا فإن أعمالاً فنية ، تم إبداعها منذ مئات السنين ، ، لا بل آلاف

(٦) سوش . ، ج ٢١ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٧) المرجع ذاته ، ص ٢٦٠ .

(٨) تكلم تروتسكي على الدور المزدوج للآلة التي ضاعفت من جهة ، قدرة العامل الانتاجية ، لكنها خدمت ، من جهة اخرى ، في ظل الرأسمالية ، كأداة استغلال . لكن الاشتراكية لا تتخلى عن استخدام الآلة ، ولا يسعها ذلك . هذا بديهي للجميع ، لكن الاستدلال ذاته ينطبق على معظم منجزات الحضارة .

السنين ، لا تزال تفتن الانسان المعاصر وتجعله يهتز حتى حين يكون منخرطاً في ثورة بروليتارية أو في بناء الاشتراكية . ولا شك ان على باني الاشتراكية ان ينظر بعين ناقدة ، على ضوء المادية الديالكتيكية ، إلى كل القيم الموروثة . لكن لا علاقة لهذا التفحص النقدي بالادانة الكلية والنهائية التي يطلع بها المشعوذون الماركسيون المزيفون . ينبغي لقيم الماضي الثقافية أن تُهضَم تماماً قبل إخضاعها للنقد ، وعلى الماركسي ، قبل أن يفحص من وجهة نظره هذا الحقل من حقول المعرفة أو ذاك ، أن يعرفه معرفة عميقة و « من الداخل » .

واستخدم تروتسكي مع الانتليجنسيا القديمة الاستدلال التكميلي : حاول إقناعها بأنه لا يمكنها الاكتفاء بإرث الماضي الثقافي وحده ، وبأن عليها إعادة تثقيف نفسها ، وإيجاد موقع لها في المجتمع السوفياتي . اهتم بوجه خاص بالعلماء والتقنيين الذين عرض لهم مراراً العلاقات بين الماركسية والعلم . وكرس نفسه بصورة اكثر نشاطاً لهذا الموضوع بعد خروجه من مفوضية الحرب ، حين تم تعيينه رئيساً للادارة الكهربائية ـ التقنية وللادارة العلمية والتقنية للصناعة . انفتح أمامه حقل دراسات جديدة ، حقل كان قد اجتذبه في شبابه ، ثم تخلى عنه للانخراط في العمل الثوري . جعل نفسه ، « نصف ـ مدير ، نصف ـ طالب » . وقد كتب[٩] : إن أكثر ما كان يهمني ، إنما هي المعاهد العلمية والتقنية التي توسعت توسعاً مرموقاً بفضل مركزة الصناعة السوفياتية . كنت افتش المختبرات التي لا تحصى بدأب ومثابرة ، وأحضر التجارب . . . كنت أصغي الى شروح علماء من النخبة . وفي ساعات فراغي ، كنت أدرس مؤلفات في الكيمياء والديناميكا المائية . . . » وينعكس اهتمام تروتسكي بالعلم انعكاساً قوياً في كتاباته عامي ١٩٢٥ ، و١٩٢٦ . واذا كان تتلمذ على العلماء فقد جعل من نفسه كذلك دليلهم في حقل علم الاجتماع وفلسفة العلم الماركسية ، تأثر على الأرجح بمؤلَّف انجلز **ديالكتيك الطبيعة** ، الذي ظهرت أولى طبعاته الروسية والالمانية في موسكو عام ١٩٢٥. وهو لا يستشهد بوضوح ابداً بهذا المؤلَّف، لكن من غير المرجح ألا يكون قرأه ؛ ففي بعض النقاط ، نراه يتبع بشكل دقيق مسار فكر انجلز .

ثلاثة على الأقل من انجازاته في حقل فلسفة العلوم تستحق ذكرها هنا : حديث حول مندلييف ، القاه امام مؤتمر العلماء الروسي الكبير ، في ايلول / سبتمبر ١٩٢٥ ، بمناسبة الذكرى السنوية لميلاد الكيميائي الكبير ؛ محاضرة حول « الثقافة والاشتراكية »

---

(٩) تروتسكي ، حياتي ، ص ٥٢٤ (الطبعة الفرنسية) .

القاها في نادي الساحة الحمراء ، في شباط / فبراير ١٩٢٦ ؛ حديث حول « الراديو ، والعلم ، والتقنية والمجتمع » ، القاه امام المؤتمر لأجل الارتقاء بالراديو ، الذي انعقد في شهر آذار / مارس من العام ذاته .

ليس هناك شيء من الفيلسوف المحترف لدى تروتسكي ، فهو لم ينطلق ابداً في خفايا نظرية المعرفة ، كما فعل لينين في المادية والنقد التجريبي . لم يحاول ان يعرض بشكل منهجي مبادىء الديالكتيك ، بل كان يفضل تطبيقها في تحليلات سياسية وتاريخية . إلا أنه تصعب قراءة مؤلفات تروتسكي من دون ان يذهلنا وضوح الفكر الفلسفي الذي يلفّها ، والانتباه الواعي المولى للمشكلات المنهجية ، والمعرفة الواسعة ، إذا لم نقل المنظمة ، التي تبرهن عنها . كان تروتسكي يعرف كيف يكون علاّمةً بيسر ؛ وكان بعيداً عن الحِكَم الثقيلة الجديرة بأستاذ ، ويتكلم بتأنٍّ لغة الهاوي ، إذا صح التعبير . رغم ذلك ، أو بسبب ذلك ، تُعدُّ دراساته القليلة حول ديالكتيك العلم بين الدراسات الأكثر إضاءة والأكثر صفاء في هذا الموضوع .

لم يكن شيء أبعد عن تروتسكي من فكرة وضع العلم تحت أوامر السياسة . لقد أكد أن من حق العالم ـ لا بل من واجبه ـ البقاء غير عابىء بالسياسة أثناء بحثه وعمله . وهو أمر لا ينبغي مع ذلك أن يمنع العالم من تحديد مقام العالم داخل المجتمع . لم يكن هنالك أدنى تناقض بين تجرد العالم بصفته فرداً وانعكاسات العلم العميقة عموماً على نزاعات العصر الاجتماعية . على غرار ذلك ، يمكن لجندي أو مناضل ثوري محدد أن يقاتل ويبذل حياته بأقصى درجات التجرد ، لكن ينبغي لجيش أو حزب أن تكون لهما مصالح وتطلعات محددة يدافعان عنها .

إن التجرد والموضوعية الصارمة ضروريان في البحث العلمي ، لكنهما لا يكفيان . ومن مصلحة العلم الحيوية ان يكون للعالم نوع من الثقافة الفلسفية الحديثة . وهي تنقصه بوجه عام ، لذا نلاحظ انغلاقاً مميّزاً في ذهن العالم . فهو يتصرف في حقله الخاص ، أو في مختبره ، كمادي بصورة ضمنية . لكن فكره ، خارج مختبره ، مشوش في أغلب الاحيان ، لا علمي ، مدموغ بالمثالية أو حتى رجعي بجلاء . ولا يذهل هذا الانغلاق الفكري لدى اي عالم اكثر مما يذهل في حالة مندلييف . فبصفته عالماً ، هو احد اكبر ماديي كل الأزمان ، لكن الانسان سقط في كل الايمانات والأفكار المسبقة الرجعية في عصره واخلص للقيصرية الآفلة . وحين صاغ « قانونه الدوري » ، برهن عن صحة هذا المبدأ من مبادىء الديالكتيك ، مركز الفكر الماركسي ، الذي يؤكد أن التبدلات الكمية في السيرورات الاجتماعية أو الطبيعية تولّد في لحظة ما تبدلات نوعية . ووفقاً لِـ « قانون الدوري » ،

تتسبب تعديلات كمية في الأوزان الذرية باختلافات نوعية بين العناصر الكيميائية . ومع ذلك لم يتمكن مندلييف من توقع اقتراب ذلك التبدل النوعي العظيم في المجتمع الروسي الذي مثلته الثورة .

« المعرفة لأجل التوقع والفعل » ، تلك كانت حكمة العالم الكبير الذي كان يقارن الخلق العلمي بإرساء جسر حديدي فوق هاوية : ليس ضرورياً ـ كان يقول مندلييف ـ ان ننزل الى قعر الهاوية للبحث هناك عن نقاط ارتكاز للجسر ؛ يكفي ايجاد نقطة ارتكاز على إحدى الحافتين ثم رمي عقد جسر بعد ذلك ، محسوب بدقة ، يرتكز بكل أمان على الحافة الأخرى .

« الأمر ذاته يقال بصدد كل فكر علمي . عليه ان يستند إلى صوّان التجربة ؛ لكن التعميم ، مثله مثل عقد الجسر ، ينفصل عن عالم الوقائع ، ليمضي فيلتقي عالم وقائع آخر عند النقطة التي تم توقعها بدقة . . .

« هذه اللحظة من لحظات الخلق العلمي . . . حيث يتحول التعميم إلى توقع وتتأكد صحة التوقع في التجربة ، تعطي الفكر الانساني الرضى الأكثر حقيقية ، والأكثر نبلاً[١٠] .

لكن المواطن مندلييف كان يهرب من كل تعميم سوسيولوجي وكل توقع سياسي ، وقد برهن عن عدم الفهم المطلق حين ظهرت في روسيا مدرسة الفكر الماركسي التي تكوّنت أثناء المساجلة مع النارودنيين ، بصدد مستقبل المجتمع الروسي والأشكال التي سيتخذها .

وحالة مندلييف تكشف لنا بصورة نموذجية المأزق الذي يجد العالم الحديث نفسه فيه : تنقصه رؤيا متكاملة وشاملة للعالم وحتى للعلم . إن العمل العلمي هو بالضرورة تجريبي ، يترافق تقدمه مع التخصص ، وتشذير المعرفة . لكن كلما كان التخصص وتشذير المعرفة اكثر حدة كلما برزت الحاجة لمفهوم موحِّد للعالم . بغير ذلك يتقوقع العالم في تخصصه ، ويتعثر بذلك تقدمه ، حتى في حقله الخاص به . إن غياب التكوين الفلسفي وازدراء التعميم يفسران الكثير من التشوشات العلمية والتخبطات التي كان أمكن تجنبها لولا ذلك . تقدم الماركسية للعالم فهماً متكاملاً للطبيعة والمجتمع الانسانيين ، فهماً لا هو

(١٠) سوش ؛ ج ٢١ ، ص ٢٧٦ .

نظرية اعتباطية، ولا نزوة ماورائية، وهو يتفق بشكل وثيق مع المعطى التجريبي والمتعدد الخاص بالعلم[1].

كانت وحدة الفكر الانساني وتنوعه الموضوعة الكبرى لدى تروتسكي ، إذ انطلق مرة أخرى من عمل مندلييف ؛ تفحص بنية العلم الحديث . كان مندلييف قد اكتشف أن أساس الكيمياء موجود في الفيزياء وأن التفاعلات الكيميائية ناتجة عن خصائص الجزيئات الفيزيائية والميكانيكية . وتابع تروتسكي قائلاً إن الفيزيولوجيا(*) تقيم مع الكيمياء العلاقات ذاتها التي تقيمها هذه مع الفيزياء ، وليس جزافاً تحديدها بأنها « الكيمياء التطبيقية للأجهزة الحية » . « لا علاقة للفيزيولوجيا العلمية ، أي المادية ، بقوة حيوية فو- كيميائية مزعومة - كما يتصورها الحيويون والحيويون الجدد - لتفسير السيرورات التي تهتم بها . ويستند علم النفس بدوره الى اسس الفيزيولوجيا . وكما أن الفيزيولوجي لا حاجة به ، في حقله الخاص ، الى « قوة حيوية » ، كذلك فعالم النفس لا يصادف في دراسة أي من مشكلاته واقعاً كالـ « روح » . عليه ان يربط التجارب النفسية إلى ظاهرات الوجود الفيزيولوجي » . هذا ما تفعله المدرسة الفرويدية حيث تثبت أن غرائز الانسان الجنسية تحدد عدداً من مواقفه الذهنية . وهذا بالأحرى ما تفعله المدرسة البافلوفية حين تعامل الروح البشرية كنظام معقد من الارتكاسات المشروطة الفيزيولوجية . وأخيراً ، لا ينفصل العلم الاجتماعي الحديث عن المعرفة التي كوّنها الانسان عن القوانين التي تحكم الطبيعة ؛ إنه يعتبر المجتمع كقطاع خاص من الطبيعة .

هكذا ، يقوم على الاسس التي وضعتها الميكانيكا والفيزياء بناء العلم المعاصر الفسيح ، الذي تترابط اقسامه المختلفة فيما بينها وتشكل كلاً واحداً . لكن الوحدة ليست التماثل ، ولا يمكن لقوانين علم محدد أن تحل محل قوانين علم آخر . لقد برهن مندلييف أن السيرورات الكيميائية تفسرها في الدرجة الاخيرة الميكانيكا والفيزياء ، لكن لا يمكن

(١١) لاحظ انجلز في ديالكتيك الطبيعة أن ديكارت استبق بمئتي عام اكتشافات العلم بصدد حفظ الطاقة ، حين أكد أن كمية الحركة في الكون لا تتبدل. لو كان العلماء فهموا بعمق فكر ديكارت لأمكنهم الوصول الى اكتشافهم أبكر بكثير . وهذا يصح بالأولى على « الفرضية السديمية » الخاصة بكانط . « لو كانت الغالبية الساحقة من دارسي الطبيعة أقل كرهاً للفكر (الفلسفي) . - ذلك الكره الذي كان يعبر عنه نيوتن في تحذيره : ايتها الفيزياء ، احذري الميتافيزياء - لاستخلصت بالضرورة من اكتشاف كانط استنتاجات كانت جنّبتها عطفات لا تنتهي . . . كان اكتشاف كانط نقطة انطلاق كل التقدم اللاحق (تخطي وجهة النظر الجامدة حول الطبيعة وتبني وجهة النظر الحركية) . لو أن البحث تقدم فوراً في هذا الاتجاه ، لكان علم الطبيعة اليوم اكثر تطوراً مما هو في الواقع . لكن ماذا يمكن ان يصدر من جيد عن الفلسفة ؟ لم يكن لعمل كانط أي تأثير فوري وسننتظر سنوات طويلة قبل أن ينتقم له . . . لابلاس وهيرشل » . ديالكتيك الطبيعة ، ص ١٤ - ٦٢ .

(*) علم وظائف الأعضاء (م).

للكيمياء أن تُختزَل مباشرة الى الفيزياء ؛ ودون هذه الامكانية ايضاً إمكانية اختزال الفيزيولوجيا الى الكيمياء ، أو علم النفس والبيولوجيا الى الفيزيولوجيا . وعلى غرار ذلك ، فالقوانين التي تتحكم بتطور المجتمع البشري لا يمكن أن تُستنتج بكل بساطة من القوانين التي تحكم الطبيعة . بمعنى ما ، يمكن ان يكون الهدف النهائي للعلم تفسيرُ التنوع اللامتناهي للظاهرات الطبيعية والاجتماعية عن طريق بعض القوانين العامة والاولية(١٢) . لكن الفكر العلمي يتقدم نحو هذا الهدف بصورة تبدو اكثر فأكثر كما لو كانت تبعده عنه ، بواسطة قسمة المعرفة وتخصصها ، وصياغة قوانين جديدة باستمرار ، خاصة ومفصلة ، وإعدادها . هكذا فإن اكتشاف كون التفاعلات الكيميائية إنما تحددها في الدرجة الاخيرة الخصائص الفيزيائية للجزيئات ، كان بداية كل معرفة كيميائية ؛ لكن هذا الاكتشاف بحد ذاته ، لا يقدم مفتاحاً لتفاعل كيميائي واحد . « تعمل الكيمياء بمفاتيحها الخاصة بها ؛ وهي لا تجد هذه المفاتيح إلا في مختبراتها الخاصة بها ، بواسطة تجارب وتعميمات ، فرضيات ونظريات » . واذا كانت الفيزيولوجيا مشدودة الى الكيمياء العامة بالوشائج الصلبة الخاصة بالكيمياء العضوية والفيزيولوجيا ، إلا أن لها مع ذلك طرائقها وقوانينها الخاصة بها . والأمر ذاته يقال عن البيولوجيا وعلم النفس . لا يبحث علم أبداً عن أساسه في قوانين علم آخر إلا « في الدرجة الاخيرة » ؛ كل علم ينطبق على حقل خاص جداً من حقول الواقع ، وتبدو الظاهرات الأولية فيه بأشكال معقدة جداً ، بحيث يلزم ، للدخول الى هذا الحقل ، وفهم ظاهراته ، موقف ، وطرائق تنقيب ونماذج فرضيات بالغة الخصوصية . إن وحدة العلم إنما تتأكد في التنوع وبالتنوع .

إن الاستقلال الذاتي لمختلف قطاعات البحث ، في دراسة الطبيعة ، أمر لا يشكك أحد فيه ؛ ما من باحث جدي يسمح لنفسه بأن يخلط القوانين التي تصلح في قطاع ما بالقوانين التي تصلح في قطاع آخر . ولا يستمر تشوش كهذا ، ونزقٌ منهجي كهذا ، يعيث فساداً إلا في الابحاث حول المجتمع والتاريخ والاقتصاد والسياسة . هنا ، إما يجري اعتبار الاعتراف بقوانين أمراً غير مُجدٍ ، أو يتم الاسقاط الفظ لقوانين علوم الطبيعة على حقل العلوم الاجتماعية كما يفعل ، على سبيل المثال ، الداروينيون ، الذين يهتمون بعض الشيء بعلم الاجتماع ، والمالتوسيون الجدد(١٣) .

---

(١٢) يصوغ انجلز في المرجع المذكور سابقاً فكرة انه لا يمكن ، على الأقل « في الوضع الراهن للمعرفة » ، أن تصاغ هذه القوانين العامة والاولية إلا بتعابير فلسفية ، أي بلغة ديالكتيكية ، لا بلغة علوم الطبيعة .

(١٣) يستشهد تروتسكي في هذا الصدد بكاينز الذي زار موسكو عام ١٩٢٥ ، والذي عزا الاستخدام المحدود لليد العاملة في بريطانيا الى تزايد عدد السكان الانكليز ، وذلك في محاضرة القاها في المجلس الاعلى للاقتصاد القومي ، ووفقاً للتقرير الذي=

يدرس تروتسكي بعد ذلك تقدم العلم والتقنية ، بخطوطه العريضة ، « خلال العقود الاخيرة » ، ومستتبعاته الفلسفية . يقول إن هذا التقدم يشبه بياناً شبه متواصل بأنتصار المادية الديالكتيكية ، انتصار من الغريب أن فلاسفة وحتى علماء يرفضون الاعتراف به . « تترافق ، على العكس نجاحات العلم في السيطرة على المادة مع صراع فلسفي ضد المادية » . إن اكتشاف النشاط الاشعاعي ، بوجه خاص ، قد شجع الفلاسفة على استخلاص استنتاجات مناهضة للمادية . لكن تلك الاستنتاجات لا تصلح إلا ضد الفيزياء القديمة والنوع الإوالي mécaniste من المادية الفلسفية الذي يرتبط بها . إن المادية الديالكتيكية لم ترتبط في يوم من الايام بالفيزياء القديمة ، لا بل تخطتها على المستوى الفلسفي ، في أواسط القرن التاسع عشر ، قبل العلماء بزمن طويل . لما كانت المادية الديالكتيكية تؤكد فقط أولوية الكائن ، أي المادة ، على الفكر ، فهي لا تتماثل مع أي فهم خاص لبنية المادة ، ولا تعطي كل فهم خاص إلا قيمة نسبية ، قيمة طور من أطوار تقدم المعرفة الاختبارية . ويصعب على العلماء ، من جهتهم ، التوصل إلى فصل المادية الفلسفية عن هذا الطور أو ذاك من استقصائهم حول طبيعة المادة . لو كانوا فقط يتعلمون النظر الى المشكلات بروح أوسع ، واكثر حرية ، لو كانوا يتعلمون دمج الاستدلال الاستقرائي والاستدلال الاستنتاجي ، الفكر التجريبي والفكر المجرد ، لكانوا يواجهون اكتشافاتهم من ضمن منظور أفضل ويتجنبون نسبة معنى فلسفي مطلق اليها ، لا بل كانوا يتوقعون بصورة اوضح حالات الانتقال من طور للعلم إلى طور آخر . إن العديد من العلماء ، الذين أصروا على مستتبعات النشاط الاشعاعي المزعوم أنها مناهضة للمادية ، عجزوا عن أن يروا الى أين يقودهم اكتشافه ، وبدوا متشككين بصدد إمكانية انشطار الذرة . كان تروتسكي ينتقد موقف اولئك العلماء حين قام بهذه النبوءة :

« تقودنا ظاهرات النشاط الاشعاعي بشكل مستقيم إلى مشكلة تحرير الطاقة الداخلية للذرة . . . إن المهمة الكبرى للفيزياء المعاصرة هي أن تستخرج من الذرة طاقتها الكامنة ، وتنزع سدادة الذرة ، بحيث تنبجس الطاقة منها بكل قوتها . حينئذٍ يغدو ممكناً

= ظهر في ايكونوميشسكايا جيزن ، في ١٥ ايلول / سبتمبر ١٩٢٥ ، قال كاينز بعد ذلك : « اعتقد ان الفقر في روسيا ، ما قبل الحرب ، كان ناجماً الى حد بعيد عن النمو المفرط في عدد السكان . ولا نزال نلاحظ الى اليوم وجود فائض ضخم من الولادات . هذا هو الخطر الأكبر بالنسبة لمستقبل روسيا الاقتصادي » . كانت لا تزال هنالك بطالة في روسيا في تلك الحقبة ، لكن لم تنقض ثلاث سنوات حتى اصبح احد « اكبر الاخطار » هو نقص اليد العاملة والنمو البطيء للسكان ، وذلك ، بعد أن بدأت سياسة التخطيط الاقتصادي ؛ وهو أمر استمر قائماً في العقود التي تلت . وهذا يثبت بوضوح عدم صحة النظرية المالتوسية أو المالتوسية الجديدة القائلة بـ« ضغط عدد السكان على وسائل البقاء » ، مطبّقة على اقتصاد مجتمع صناعي في حالة التوسع .

استبدال الفحم والنفط بالطاقة الذرية التي ستصبح وقودنا الأول وقوتنا المحركة الأولى » .

وفي رده على المتشككين صاح :

« ليست هذه مهمة غير قابلة للتحقيق ، ويائسة ، بأي حال من الأحوال ؛ وأية منظورات رائعة سوف تفتحها لنا . . . إن الفكر العلمي والتقني على عتبة انقلاب عظيم . . . هكذا تتطابق الثورة الاجتماعية في عصرنا مع ثورة في دراسة طبيعة المادة وفي تحكم الانسان بالمادة »(١٤) .

تنبأ تروتسكي بهذا في أول آذار / مارس ١٩٢٦ ، وهو لن يعيش كفاية ليرى نبوءته تتحقق . توفي عشية تحققها .

ومن بين انجازات تروتسكي في حقل فلسفة العلوم ، يستحق احدها تنويهاً خاصاً : إنها المرافعة لصالح التحليل النفسي الفرويدي . فمنذ بداية العشرينات ، تعرضت المدرسة الفرويدية لهجوم شرس سيكون من نتائجه إبعادها عن روسيا طوال عقود عديدة . فبالنسبة للأعضاء النافذين في الحزب الذين نادراً ما كان لديهم معرفة صحيحة بالفكر الفرويدي ، كانت نظرية التحليل النفسي ، بما تولي من أهمية للحياة الجنسية ، شيئاً مشبوهاً ، وبدت متعارضة مع الماركسية . لكن الصرامة حيال الفرويدية لم تكن مقتصرة على البلاشفة وحدهم ، إذ كانت تتأكد بالقوة ذاتها في الاوساط الاكاديمية المحافظة سياسياً ، وبين تلامذة بافلوف الذين كانوا يميلون إلى إرساء احتكار لتعليمهم الخاص بهم . كانوا يمتازون عن الفرويديين بأن المدرسة البافلوفية ولدت على الأرض الروسية وكانت تجتذب المثقفين الماركسيين اكثر لأنها بدت لهم مادية بشكل اوضح . هكذا كان اعضاء الحزب والاكاديميون يشكلون تحالفاً غريباً ضد التحليل النفسي .

أما تروتسكي فنحن نعرف ان هذا الوضع قد اقلقه منذ عام ١٩٢٢ . في ذلك العام كتب رسالة الى بافلوف(١٥) حاول ان يبرر فيها الفرويدية أو يدافع عنها وأن يدفع بافلوف بلطف الى استخدام نفوذه لتغليب التسامح وحرية البحث . ونحن لا نعرف إذا كان تروتسكي بعث بتلك الرسالة ، لكنه ادخلها في الجزء الـ ٢١ من مؤلفاته . لكن يبدو أن

---

(١٤) سوش . ، ج ٢١ ، ص ٤١٥ .

(١٥) في رسالة تروتسكي الى بافلوف ، يشرح تروتسكي كما يلي التشابه بين المدرستين : « يبدو لي أن تعليمك حول الارتكاسات المشروطة يحتضن نظرية فرويد كحالة خاصة . ليس تصعيد الطاقة الجنسية . . . غير التكوّن على قاعدة جنسية للارتكاسات المشروطة ع + ١ ، ع + ٢ ، ولارتكاسات الدرجات اللاحقة » . سوش . ، ج ٢١ ، ص ٢٦٠ .

باڤلوف تجاهل الدفاع ، ووسط احتدام الأزمة السياسية التي تلت لم يستطع تروتسكي أن يلاحق عمله . إلا أنه استأنفه عام ١٩٢٦ ، وقد احتج في هذه المرة علناً ضد التملق الذي كان بدأ يحيط بمدرسة باڤلوف . تكلم بإعجاب واحترام حقيقيين على تعليم باڤلوف ذاته ، قائلاً : « إنه ينسجم تماماً مع المادية الديالكتيكية » ، وإنه « يهدم الحائط بين الفيزيولوجيا وعلم النفس » . بالنسبة لباڤلوف ، تكون « الارتكاسات الاساسية فيزيولوجيّة وينتج نظام الارتكاسات الوعي » ؛ وبالنسبة اليه ايضاً ، « ينتج تراكم كميات فيزيولوجية نوعية جديدة ذات طبيعة نفسية » . لكن تروتسكي فضح بسخريةٍ الادعاءات المفرطة للمدرسة الباڤلوفية : أما كانت ستتوصل الى التبجح بقدرتها على تفسير الحركة الأكثر رهافة للذهن الانساني وحتى أوالية الابداع الشعري ، بجعلها نتيجة الارتكاسات المشروطة بوجه الحصر . لا شك ، في رأي تروتسكي ، أن طريقة باڤلوف « اختبارية وحذرة » : لا تبادر الى تعميمات إلا خطوة خطوة ؛ تنطلق من لعاب الكلب وتتقدم نحو الشعر ؛ لكن « لم نر بعد الطريق الذي يقود إلى الشعر » .

احتج ضد التشهير المنظم بالفرويدية ، بحدة تتناسب مع اعتباره أن تعليم فرويد ، مثله مثل تعليم باڤلوف ، هو مادي بشكل جوهري . قال إن النظريتين تختلفان على صعيد طرائق البحث ، لكنهما تتفقان على المستوى الفلسفي . يفترض فرويد مسبقاً وجود المحرض الفيزيولوجي تحت السيرورات النفسية وطريقته أقل اهتماماً بالنظرية . يمكن التساؤ ل اذا لم يكن الفرويديون يعطون اهمية قصوى للحياة الجنسية على حساب عوامل أخرى : لكن يمكن نقاش ذلك دون الخروج من إطار الفلسفة المادية . إن التحليل النفسي « لا ينطلق من الظاهرات الدنيا (الفيزيولوجية) للارتفاع الى الظاهرات العليا (السيكولوجية) ، ومن الارتكاسات الاساسية للارتفاع إلى التوفيقات المعقّدة من الارتكاسات . عوضاً عن ذلك ، يحاول ان يجتاز بقفزة واحدة كل المستويات الوسيطة ، قفزة تنطلق من الأعلى وتؤدي الى الاسفل ، تنطلق من الاسطورة الدينية ، من القصيدة الغنائية أو الحلم للوصول مباشرة الى الاساس الفيزيولوجي للنفس البشرية » ، يستخدم تروتسكي صورة مدهشة لابراز الفروق المنهجية بين المدرستين :

« تقول لنا المثالية . . ان « الروح » بئر لا قاع لها ، ويعتقد باڤلوف وفرويد ، كلاهما ، أن الفيزيولوجيا تشكل قعرها . إن باڤلوف يغوص ويمضي حتى قاع البئر التي ينقّبها بدقة بالغة صاعداً إلى السطح . أما فرويد فيبقى على حافة البئر ويحاول أن يَنْفذ بنظرة ثاقبة إلى سر مياهها العكرة والمتبدلة دائماً ، وأن يميز ـ أو يحزر ـ شكل الاشياء الموجودة في القاع » .

لطريقة بافلوف الاختبارية طبعاً ميزة ما بالنسبة لطريقة فرويد النظرية جزئياً التي تقود المحلل النفسي أحياناً إلى تخيّل فرضيات عجيبة .

«لكن سيكون ساذجاً جداً وفظاً جداً إعلان أن التحليل النفسي لا يتفق مع الماركسية ، وينحرف عنها . من جهة اخرى ، لسنا مضطرين بأية صورة من الصور لتبني الفرويدية . فهي ليست غير فرضية للعمل ، يمكن أن تنتج ـ وهي تنتج ـ خلاصات وفرضيات تستتبع علم نفس مادياً . والاختبار يخضعها ، في اللحظة المطلوبة ، للامتحان . وبانتظار ذلك ، لسنا مخوّلين ، لا من ناحية المنطق العقلي ولا من ناحية الحق ، إدانة طريقة ، مع أنها موثوقة أقل ، إلا أنها تحاول استباق نتائج لا تصل اليها الطريقة الاختبارية إلا ببطء شديد »[١٦] .

لم يتجاوب أحد مع محاجّة تروتسكي ، وسرعان ما جرى ابعاد نظرية التحليل النفسي عن الجامعات . وبصورة اكثر عمومية ، لكن كذلك اكثر جزماً ، دافع تروتسكي عن نظرية آينشتاين عن النسبية[١٧] ؛ لكن سوف تلقي « المادية » الكهنوتية الخاصة بالعصر الستاليني الحرم على هذه النظرية أيضاً . ولن « يعاد الاعتبار » لها إلا بعد وفاة ستالين .

مهما يكن تروتسكي جيد الاطلاع ، وأحياناً ملهماً بشكل رائع ، فهو يبدو في دراساته حول فلسفة العلوم هاوياً الى حد ما . لكن ليس الأمر على غرار ذلك في عمله كناقد أدبي . لقد كان لمؤلّفه ، الأدب والثورة ، تأثير كبير على فريق كراسنايانوف ، ، أول صحيفة فكرية في تلك الحقبة ، وخصوصاً على مديرها ، أ . ڤورونسكي ، الذي كان تروتسكياً مجاهراً وكاتب مقالات موهوباً . واليوم ، إذ ستكون مرت ، بعد قليل ، أربعون سنة على صدور هذا المؤلّف، يبدو أنه باقٍ لا مثيل له: إنه قبل كل شيء دراسة عن الـSturm und Drang(*) الثورية في الأدب الروسي وفضح مسبّق لخنق الستالينية الخلق الفني، وهو بصورة اعم كتاب نقد أدبي ماركسي. يشهد الكتاب على فهم

---

(١٦) سوش . ، ج ٢١ ، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ . ويرجع للاختصاصيين ان يقولوا إذا كان تروتسكي محقاً حين أكد ان طريقة بافلوف تحصل على نتائج اكثر بطئاً من طريقة فرويد . وقد كرر تروتسكي بالحاح أن دفاعه عن الفرويدية لا ينبغي ان يؤخذ على انه من قبيل الرأفة بـ « الفرويدية المزيفة المبتذلة » ، التي كانت رائجة لدى الجمهور البورجوازي .

(١٧) پود زناميليم ماركسيزما ، العدد ١ .

(*) عاصفة وانطلاقة : حركة ادبية مارست تأثيراً قوياً على الأدب الالماني بين ١٧٧٠ و١٧٩٠ وكانت رد فعل ضد العقلانية وتأثرت كثيراً بجان جاك روسو (م) .

وثيق للفن والأدب، ذي فرادة ثاقبة، وقريحة وبراعة فاتنتين، وفي الصفحات الأخيرة على قوة خيال تصل إلى أعلى ذرى الشعر.

في الأدب أيضاً ، مضى تروتسكي يحارب أعداء التراث ، والعجرفة والغرورَ الثوريين المزيفين . طالب بحرية التعبير لكل المدارس الفنية والأدبية ، طالما لا تسيء استخدام تلك الحرية لخدمة مصالح معادية للثورة بصورة واضحة ومن دون جدال . وهنا أيضاً ، لم يكن اعداء التراث والمتزمتون يوجدون ، فقط ، وحتى بصورة رئيسية ، بين اعضاء الحزب . كان هنالك منهم حتى في مختلف مجموعات الكتّاب والفنانين الشباب. كانت المدارس الثورية الجديدة تتكاثر على صعيدي الفن والادب . كان يمكن في ظروف طبيعية ان تثير تلك المدارس الفضول ، بتجديداتها وهجماتها على القيم الفنية المعترف بها ، وأن تسبب الانفعال ، وذلك في دوائر ضيقة نسبياً ؛ كان امكنها أن تشق طريقها شيئاً فشيئاً ، مثل الكثير من المدارس السابقة ، من العتمة إلى الشهرة ، دون ان ترفع في الغالب رايات سياسية . لكن المخاصمات والمجادلات في المنتديات الفنية تخطت الحدود العادية ضمن الظروف التي نعرفها . اكدت المدارس الجديدة أن لبرامجها أهمية سياسية استثنائية ، وصورت نفسها كطلائع للثورة ، وفعلت ما في وسعها لافقاد المدارس القديمة حظوتها ، زاعمة أنها رجعية اجتماعياً بمقدار ما هي بالية من الناحية الجمالية .

لقد رأينا أن البرولتكولت طالبت بأعلى صوتها بالدعم الرسمي والاحتكار الثقافي لمدرستها الفكرية . وجد كتّابها، ليبدنسكي ، ويليتنيف ، وتريتياكوف ، وآخرون ، منبراً لهم في مجلتين ، هما كوزنيتسا ، و أوكتيابر ؛ ثم خلقوا بعدذلك مجلتهم الخاصة بهم ، نابوستو . ولما كان بوخارين ، رئيس تحرير البرافدا ، ولوناتشارسكي ، مفوض التربية ، قدما دعمهما للبرولتكولت ، توجّب تدخل لينين لوضع حد لتبجحاتها . وحين طلب كتّاب البرولتكولت ، الذين خيّبهم صد لينين ، حماية تروتسكي ، أجاب هذا بأنه سيدافع ، في كل حال ، عن حقهم في التعبير عن أفكارهم بحرية ، لكنه على اتفاق تام مع لينين بصدد مَضَرَّة كل الشعارات حول الأدب والفن البروليتاريين وبطلانها . حتى الصيغ الأكثر تواضعاً التي تتكلم على « حقبة جديدة اشتراكية للفن » أو « انبعاث ثوري جديد في الأدب » كانت أموراً ينبغي نبذها : « إن الفن يشهد ضعفاً مريعاً ، كما يحدث دوماً في فجر حقبة عظيمة . . . مثلما الحال مع البومة الصمعاء ، طائر الحكمة ، لا يرتفع غناء عصفور الشعر إلا بعد مغيب الشمس ، ففي النهار يكون العمل ، ولا يبدأ التأمل في ما جرى والانفعال حياله إلا عند الغسق » .

ليست الثورة مسؤولة عن الوضع الراهن للفن .و «عصفورالشعر المغني » مسموع أقل في معسكر الثورة المضادة . وقد تفحص أدب المهاجرين بقسوة جارحة ، فلفت الانتباه الى ان معظم الكتّاب الروس الأكثر شهرة رحلوا الى الخارج ، لكنهم لم ينتجوا أدنى عمل يستحق الاهتمام . أما « مهاجرو الداخل » ـ الكتّاب الباقون في روسيا ، الذين كانوا يفكرون ويشعرون مثل المهاجرين ـ فلم يكن لديهم ما يعتزون به ، أدُعوا زينايدا جيبيوس ، أو إفغيني زامياتين[١٨] ، أو حتى اندريه بيلبي . هؤلاء الكتّاب ، المتورطون في أنانية لا ترحم ، كانوا عاجزين عن الاهتمام بدراما عصرهم ، رغم موهبتهم الاكيدة . في افضل الأحوال ، لجأوا إلى الصوفية . هكذا نرى أنه حتى بيلبي ، الأبرز بينهم ، « يهتم دائماً بأناه ، يروي قصصاً عن أناه ، يدور حول أناه ، يستنشق أناه ، ويلعق أناه »[١٩] . وتعتني جيبيوس بمسيحية من العالم الآخر ، سامية وصوفية وشهوانية ؛ مع ذلك ، « كان كافياً وضع حارس أحمر حذاءه المسمّر على أصابع قدمها الغنائية حتى تنفجر للحال بالعواء ، عواء الساحرة المهووسة بالملكية القُدُّوس » . (لكن لما لم تكن جيبيوس عديمة الموهبة ، فلعواء الساحرة هذا قيمة شعرية حقيقية) . كان اولئك الكتّاب منفرّين ومضحكين ، بالنسبة لتروتسكي ، بسبب تعلقهم بالقيم المسحوبة من التداول الخاصة بنظام اجتماعي منهار ، وبسبب تخلفهم عن مسايرة حركة التاريخ واستلابهم . كانوا يمثلون بالنسبة اليه كل ما كان مغلوطاً وباطلاً في الانتليجنسيا القديمة . وقد رسم صورة صغيرة لأحد نماذج المثقف تلك ، « أحد مهاجري الداخل » بامتياز :

« حين يقص عليك متذوق للفن ديمقراطي ـ دستوري ، وهو عائد من رحلة طويلة في حافلة بضائع ، يدفئها موقد ، حين يقص عليك ، مهمهماً ، كيف انه ، هو الاوروبي ، بالغ الرهافة ، المجهز بطاقم أسنان فخم ، بأجمل أسنان مزيفة في العالم ، والذي لا يجهل شيئاً من أسرار الباليه المصرية ، وجد نفسه وقد انحدرت به هذه الثورة الفظة الى درجة السفر بصحبة متشردين أنذال مقملين ، حينذاك تشعر بغثيان حقيقي : فطاقم الاسنان ، والباليه المصرية ، وكل هذه « الثقافة » المسروقة من حوانيت أوروبا تعطيك رغبة جسدية بالتقيؤ . ونقتنع حينئذٍ بأن آخر قملة في اكثر مشردينا توحشاً أهم في أوالية التاريخ وضرورية اكثر من هذه النرجسية « المثقفة » الى تلك الدرجة من الكمال والعقيمة الى هذا الحد من كل النواحي »[٢٠] .

---

(١٨) هاجر بعض هؤلاء الكتّاب فيما بعد . لقد استوحى جورج أورول موضوع روايته ١٩٨٤ ، من قصة زامياتين ، «ي» ، التي كتبها في المهجر .

(١٩) الأدب والثورة ، ص ٣٦ .

(٢٠) تدل كلمة « متشرد » هنا على الناس الذين كانوا يجوبون البلاد ، خلال الحرب الاهلية ، حاملين بقجتهم ومفتشين عن =

بعد أن « أعدم » تروتسكي « مهاجري الداخل » بصورة مختصرة تقريباً ، تفحص التيارات الأدبية الأكثر خصباً . انتقد الپاپوتشيكي أو « رفاق الطريق » و دافع عنهم . صنع هذه العبارة للدلالة على كتّاب ، في حين لم يعتنقوا الشيوعية ، « كانوا يقطعون قسماً من الطريق مع الثورة » ، لكنهم كانوا قادرين على الانفصال عنها لمتابعة طريقهم الخاصة بهم[٢١] . ويدخل في هذا الاطار ، مثلاً ، « التصويريون » الذين كانوا يشكلون مدرسة ادبية أبرز شعرائها ياسينين وكلوييف . كانوا قد أدخلوا شخصية الموجيك وخياله في الشعر، وأظهر تروتسكي أن صورهم الشعرية ، المثيرة والمكثفة ، كانت تذكّر بالطريقة التي طالما أحب الموجيك أن يزيّن بها إسبته[*] . وكان المرء يشعر في قصائدهم بالجاذبية والتنفير اللذين كانت تمارسهما الثورة على الفلاحين . كان التباس موقفهم يمنح نتاجهم توتراً فنياً وأهمية اجتماعية . كان « التصويريون » الشعراء « النارودنيين لفترة ثورة اوكتوبر » . وأن يكون أمكن وضعهم الذهني ان يجد تعبيراً أدبياً مؤلماً ، إنماكان أمراً طبيعياً للغاية في أمة فلاحية بشكل جوهري . ولم يكن « التصويريون » وحدهم ، فبوريس بيلنياك ، الذي كان يقدر تروتسكي موهبته كثيراً ، كان شديد التعلقّ ، مثلهم ، بالبدائية الاساسية لروسيا ، التي دمرتها الثورة . كان « يقبل » ، بالتالي ، البلشفية و « يرفض » الشيوعية ، على أساس ان الأولى هي العنصر « الروسي بشكل خاص » ، والأسيوي ، جزئياً ، من عناصر الثورة ، بينما الثانية هي العنصر الحديث ، المديني ، البروليتاري ، ولا سيما الاوروبي . و كان تروتسكي اكثر صرامة حيال ماريتا شاجينيان التي لم « تتصالح » مع الثورة إلا تحت تأثير مسيحية جبرية ولا مبالاة فنية عميقة حيال كل ما كان ، على سبيل الاستعارة ، « خارج صالونها الخاص بها » . (كانت شاجينيان احد « الكتّاب النادرين من تلك المجموعة الذين نجوا من التطهيرات الستالينية وحصلوا على « جائزة ستالين ») .

ويصف تروتسكي الكسندر بلوك ايضاً بالپاپوتشيك ، لكنه يصنفه في فئة خاصة . كان شعر بلوك وجد ينبوعه الأول ، وهو ينبوع خصب ، في ثورة ١٩٠٥ . وكانت مأساة بلوك تتمثل في أن افضل سنوات إبداعه توافقت مع السنوات الكئيبة التي فصلت الثورتين ، من عام ١٩٠٧ ، الى عام ١٩١٧ ؛ لم يتمكن يوماً من التعزي عن فراغ تلك

= الطعام . كما دعي كذلك مهربون صغار في السوق السوداء « متشردين » . وبسبب تدمير أدوات النقل ، كان الناس يسافرون خصوصاً في حافلات البضائع . ، ليتراتورا أي ريڤولوتسيا ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢١) يجري استخدام عبارة « Fellow traveller »، في هذا الفصل، بمعناها الأصلي لا بالمعنى الذي اخذته منذ ذلك الحين في الانكليزية الدارجة.

(*) الإسبة كوخ خشبي كان يسكنه الفلاح الروسي (م).

السنوات . كان شعره فيها بعد « رومانسياً ، رمزياً ، غامضاً ، غير واقعي ؛ لكن كان ثمة تحته تأكيد نمط حياة حقيقي جداً . . . ليست الرمزية الرومانسية هرباً خارج الواقع إلا بمقدار ما تنحرف عن طابعها الملموس ؛ لكن الرمزية هي ، بصورة جوهرية ، نمط تحويل للحياة وسموّ بها . . إن غنائية بلوك المنجّمة ، والمثلجة ، والشوهاء ، تعكس وسطاً وحقبة . . . فاذا فصلت عنها ، تغدو كغيمة ضخمة ، معلقة في الفراغ ، لن تعيش بعد انقضاء زمنها وموت مؤلفها » .

لكن عام ١٩١٧ ، اعطى بلوك انطلاقة جديدة ، « حس الحركة ، والهدف المنشود ، وأهمية الاشياء » . «لم يكن شاعر الثورة . لكن لما كان قد جف في المأزق الكئيب للحياة والفن ما قبل الثوريين ، تلقف عندئذٍ دولاب الثورة . من هذا الالتزام الجديد ، خرجت القصيدة الأهم بين قصائده ، الإثنا عشر ، الوحيدة التي ستتذكّرها القرون القادمة » . وعلى نقيض معظم النقاد الادبيين ، لا يعتبر تروتسكي الاثنا عشر كتمجيد للثورة ، بل كـ « النشيد الأخير لذلك الفن الفردي الذي كان يحاول الانضمام الى الثورة » . كانت تلك القصيدة « صيحة يأس قبل كل شيء أمام إعدام الماضي ، لكن الصيحة كانت بالغة القوة واليأس بالغ الشدة ، بحيث أضحت تقريباً صيحة أمل لأجل المستقبل » .

كان المستقبليون يشكلون الجماعة الأدبية الأقوى والأكثر صخباً في تلك السنوات . كانوا يطالبون بقطيعة مع كل ما ينتسب الى الماضي ، زاعمين أن ثمة علاقة اساسية بين الفن والتقنية ، ومدخلين تعابير تقنية وصناعية في اللغة الشعرية ومؤكدين أنهم يتماثلون مع البلشفية والأممية[٢٢] . وقد كرس تروتسكي دراسة دقيقة وثاقبة لتلك المدرسة الفنية . اذان الانخطافات التقنية لدى المستقبليين ، التي بدت له تجليات ارتكاسية للتخلف الروسي :

« باستثناء حالة الفن المعماري ، لا يقوم الفن على التقنية . . . إلا بمقدار ما تشكل هذه الأخيرة قاعدة النشاط المتمدن عموماً . وعلى الصعيد العملي ، تعد تبعية الفن ، وبوجه خاص الفن الشفهي ، حيال التقنية تبعية طفيفة للغاية . يمكن كتابة قصيدة حول ناطحات السحاب والمناطيد والغواصات حتى لو كان كاتبها يعيش في أعماق غابات مقاطعة ريازان ؛ ويمكن كتابتها بقلم رصاص على ورقة رزم خشنة . إن واقع وجود ناطحات

(٢٢) كتب ن. التمان، «منظرّ» المجموعةفي إسكوستفو كوموني، عام ١٩١٨: «ليس ثمة فن يبنى على الجماعية غير «الفن المستقبلي». الفن المستقبلي وحده يمثل عمل البروليتاريا، في عصرنا.

سحاب ومناطيد وغواصات في اميركا يكفي ليلهب خيال ريازان الخصيب : فاللغة الشعرية هي الأقل إرباكاً بين كل مواد البناء . . » .

ويرى تروتسكي كذلك أن مماثلة المستقبلية مع الثورة البروليتارية أمر لا يمكن الركون اليه . وليس محض صدفة ان تكون هذه المدرسة ذاتها سمحت بأن تمتصها الفاشية في ايطاليا[٢٣] . ففي البلدين ، كان المستقبليون متمردين في الفن ، لدى بداياتهم ، لكن لم يكن لهم أي لون سياسي محدد . كان أمكن أن يتبعوا طريق أية بدعة أدبية ، أن يصارعوا ويفرضوا الاعتراف بهم ويصبحوا مدرسة جديرة بالاحترام ، لو لم تأخذهم في عنفها هزات سياسية حادة قبل أن يتسنى لهم الاعتدال . بعد ذلك فقط أعطت الهزة العامة لتمردهم الأدبي لوناً سياسياً ، فاشياً في ايطاليا وبلشفياً في روسيا . وإنه لطبيعي هكذا أن تكون الفاشية والبلشفية تأخذان ، كلاهما ، على البورجوازية ماضويتها السياسية ، من وجهتي نظريهما المتعارضتين . لا ادنى شك في ان المستقبليين الروس جذبتهم حقاً دينامية ثورة اوكتوبر ، إلا أنهم أخطأوا في اعتبار تمردهم البوهيمي كما لو كان المقابل الفني الأصيل للثورة . فلأنهم قطعوا ، من جانبهم ، علاقتهم ببعض التقاليد الفنية ، أعلنوا احتقارهم للماضي ، وتخيلوا أن الثورة ، والطبقة العاملة والحزب ، تؤيد ، مثلهم تماماً ، القطيعة في كل الحقول مع « قرون التقاليد » . قال تروتسكي انهم « باعوا القرون بثمن بخس للغاية » . كان هنالك مبرر لسخطهم على التراث طالما استهدف جمهوراً أدبياً معيناً وجمود الاساليب والأشكال القائمة والمعترف بها . لكنه بدأ يرن في الفراغ حين « انقلب ضد الطبقة العاملة التي لا حاجة بها مطلقاً إلى القطع مع تراث أدبي ما ، ولا يمكنها أن تقطع معه ، لكونها ليست تحت سيطرة اي تراث » . كانت الحرب الصليبية المعمّمة ضد الماضوية عاصفة في قدح ماء الانتليجنسيا ، انفجاراً عدمياً لبوهيميين . « نحن ، الماركسيين ، عشنا دائماً في التراث ومع ذلك ما توقفنا لحظة عن أن نكون ثوريين » .

كان المستقبليون يزعمون علاوة على ذلك أن فنهم جماعي ، وعدواني ، وملحد ، وبالتالي بروليتاري . اجاب تروتسكي بأن « محاولة استنتاج اسلوب فني من طبيعة البروليتاريا ، من جماعيتها ، وديناميتها والحادها ، الخ ، هي محاولة مثالية لا يمكن أن تنتج

---

(٢٣) نشر تروتسكي في ملحق ليتيراتورا إي ريفولوتسيا مذكرة حول أصول المستقبلية الايطالية وعلاقاتها مع الفاشية، بطلب من انطونيو غرامشي، المنظّر الشيوعي الايطالي ومؤسس Ordine Nuovo (النظام الجديد). بعد فترة قصيرة، عاد غرامشي الى ايطاليا وأمضى بقية حياته في سجون موسوليني وكان غرامشي حاز خلال اقامته في موسكو ثقة تروتسكي . .

غير يخنات فلسفية كثيرة التوابل ، ورموز اعتباطية و . . . هِوائية dilettantisme ريفية » .

« يقال لنا إن الفن ليس مرآة ، بل مطرقة : انه لا يعكس الاشياء بل يحوّلها . لكن في أيامنا هذه ، يتم تعليم استخدام المطرقة ، بواسطة أساليب « المرآة » ، أي فيلم حساس يلتقط كل أطوار الحركة . . . كيف يمكننا تحويل أنفسنا ، ووجودنا دون النظر في « مرآة » الأدب ؟ .

لم يمنع نقد المستقبليين هذا تروتسكي من الاعتراف بمزاياهم الادبية ؛ وقد اعترف بتلك المزايا بشهامة لا سيما إذا اخذنا بالاعتبار ان اعضاء نافذين في الحزب كانوا يستقبحون انعدام الخبرة العملية لدى المستقبليين وغرابتهم. لقد حذر تروتسكي الشيوعيين من «عدم التسامح المتسرع» الذي كان يجعلهم يعتبرون الفن الاختباري خدعة او نزوة لانتليجنسيا آخذة في الانحطاط.

« كان النضال ضد المعجم الشعري القديم والنحو القديم ، رغم كل مبالغاته الشاذة ، تمرداً تقدمياً ضد المصطلحات اللغوية المغلقة ، . . . ضد انطباعية تشرب الحياة بواسطة قشة وضد رمزية تضيع . . . في فراغ سماوي . . . كان عمل المستقبليين من هذه الناحية خصباً وتقدمياً . . . ، لقد أقصى عن الشعر الكثير من الكلمات والتعابير التي غدت فارغة ؛ وأعاد نبض الحياة إلى كلمات اخرى وتعابير أخرى ، ، ونجح في بعض الحالات في خلق كلمات جديدة وتعابير جديدة . . . وهذا لا ينطبق على الكلمات ، فقط ، بل كذلك على مكان كل كلمة ، على النحو » .

وفي الحقيقة ان المستقبليين وقعوا ضحايا تجديداتهم الخاصة بهم ؛ لكن « تلك كانت حال ثورتنا أيضاً » ؛ تلك هي « خطيئة » كل حركة حية . يجري تنحية المبالغات وسيجري ذلك ، لكن التنقية الجوهرية والتجديد الأكيد اللذين احدثهما المستقبليون في اللغة الشعرية ستكون لهما آثار مديدة . ويمكن ان نقول الشيء ذاته عن التجديدات بصدد الايقاع والقافية . لا ينبغي الحكم عليها ضمن منظور عقلاني ضيق ، فالحاجة الى الايقاع والقافية لدى الانسان حاجة غير عقلانية ، وصوتية Sonorité الكلمة هي المصاحب السمعي لمعناها » . « لا شك ان الغالبية العظمى من الطبقة العاملة لا يمكنها إلى الآن أن تهتم بهكذا مشكلات ، وحتى طليعتها لا وقت لديها الى الآن للاهتمام بها : فهي منهمكة كلياً بمهام اكثر إلحاحاً . لذا علينا تبني موقف اكثر يقظة وأكثر عناية ، موقف صانع وفنان حيال اللغة ، التي هي الأداة الاساسية للثقافة في الشعر ، وأكثر أيضاً في النثر » . إن

التصرف بالكلمات ، بما تقوله وتخفيه ، بصوتيتها ، وتثمين تلك الكلمات ، يتطلبان « أدوات ميكرومترية » . عوضاً عن ذلك ، نلاحظ أن الابتذال التافه والرعاعية هما المقياس الشائع . « إن المستقبلية ، بأحد وجوهها ، وهو الأفضل ، هي رد فعل ضد الاهمال ، ولمدرسة الاهمال الأدبية بالغة القوة ممثلوها المرموقون جداً في كل الحقول » . من وجهة النظر هذه ، وجد تروتسكي ما يقوله حتى لصالح المدرسة « الشكلية » ومنظّرها الرئيسي فيكتور شكلوفسكي ، لكنه انتقد مع ذلك الأهمية الحصرية ، التي كان هذا يوليها للشكل : إذا كان الشكليون يعتقدون أنه في البدء كانت الكلمة ، فالماركسيون يعتقدون ، من جهتهم ، أنه في البدء كان الفعل : « تتبع الكلمة الفعل كظله الصوتي » .

يتناول فصل خاص من الأدب والثورة ماياكوفسكي ، المستقبلي الأبرز ، الذي سوف يُكرَّس فيها بعد كشاعر الشيوعية البطولي . يؤكد تروتسكي أن ماياكوفسكي كريه كفنان وممتاز كشيوعي . ولا شيء يدهش في ذلك : لقد بذل ماياكوفسكي كل جهد ليكون شيوعياً ؛ لكن الشاعر ليس فقط ما يفكر به في وعيه وما يريد أن يكون ؛ إنه كذلك شاعر مع كل مُدرَكاته نصف الواعية ، وعواطفه شبه الواعية ؛ مع ترسانة الصور والانطباعات ، التي تعود الى طفولته . كانت الثورة بالنسبة لماياكوفسكي « تجربة أصيلة وعميقة » لأنها فجرت رعده وبرقه ضد بلاهة المجتمع القديم وجموده ، ذلك المجتمع الذي كان يكرهه ماياكوفسكي على طريقته والذي لم يستطع أن يتصالح معه يوماً . لقد انضم بحماس الى الثورة، لكنه لم يتطابق معها ولم يكن يسعه ذلك. يشهد على ذلك اسلوبه الشعري:

« إن الانطلاقة القوية للثورة وشجاعتها الصارمة أثرتا في نفس ماياكوفسكي اكثر بكثير مما فعلت بطولتها الجماهيرية وجماعية قضاياها وتجاربها . وكما أن التجسيمي(*) الإغريقي كان يماثل بسذاجةٍ قوى الطبيعة مع ذاته ، كذلك فإن شاعرنا ، المياكومورفي(**) ، يجعل ذاته الخاصة به تسكن ساحات الثورة وشوارعها وحقولها . . . غالباً ما يعرف انفعاله الدرامي توتراً خارقاً ، لكن ليس ثمة دائماً قوة فعلية وراء هذا التوتر . إن الشاعر مربك للغاية ، يترك القليل القليل من الاستقلال الذاتي للأحداث والوقائع . ليست الثورة هي التي تتشابك مع الصعوبات ، لكن ماياكوفسكي هو الذي يبرهن عن صفاته كمصارع في حلبة اللغة ، منجزاً أحياناً معجزات حقيقية ، لكن رافعاً أحياناً أيضاً ، بجهود بطولية ، ثُقالات جوفاء بوضوح . . . يتكلم ماياكوفسكي على نفسه

(*) الذي يخلع الصفات البشرية على الله ، الانتروبومورفي (م) .

(**) اي الذي يخلع صفاته الشخصية ، أي صفات ماياكوفسكي، على قوى الطبيعة (م) .

طيلة الوقت بصيغة المتكلم وصيغة الغائب . . . وليرفع الإنسان ، يعلو به إلى مستوى مایاكوفسكي . يستخدم لهجة الدالّة والألفة للكلام على الظاهرات التاريخية الأكثر عظمة . يضع قدماً على الجبل الأبيض وقدماً على الألبورز(***) . يرعد صوته أقوى من الرعد . ما المدهش في أن . . . تزول نُسب الأشياء الأرضية ، وتختفي الفروق بين الكبير والصغير ؟ يتكلم على الحب ، اكثر العواطف حميمية ، كما لو كان الأمر يتعلق بحركات الشعوب . . . لا ادنى شك في أن هذا الأسلوب المبالغ يعكس ، إلى حد ما ، جنون زمننا. لكن لا يمكن أن يكون هذا مبرراً فنياً كاملاً له. تستحيل السيطرة على جلبة الحرب والثورة، ولكن من السهولة بمكان أن يصاب المرء بانطفاء صوته وهو يحاول ذلك. . . إن مایاكوفسكي غالباً ما يصيح في حين ينبغي الكلام، لذا لا تفعل صيحاته فعلها حين ينبغي الصياح.

« إن صور مایاكوفسكي المُبهظَة ، الرائعة بحد ذاتها في الغالب ، تدمر في الغالب ايضاً وحدة المجموع وتشل الحركة .

« إن الافراط في الصور الدينامية ينتج الجمود . . . كل جملة ، كل تعبير ، كل استعارة يجري حسابها لإنتاج الحد الاقصى وبلوغ الذرى . لذا ليس للمجموع حد أقصى . . وليس للقصيدة ذرى . . . » .

إن دحض نظرية «الثقافة البروليتارية » يشكل الجزء المركزي ، والاغنى بالنقاشات ، في الأدب والثورة . يقدم تروتسكي في مدخل الكتاب ملخصاً مقتضباً لمحاجّته :

« من الخطأ الجوهري معارضة الثقافة والفن البورجوازيين بالثقافة والفن البروليتاريين ، فالثقافة والفن البروليتاريان لن يوجدا يوماً ، إذ النظام البروليتاري مؤقت وانتقالي . إن ثورتنا تستمد معناها التاريخي وعظمتها الاخلاقية من كونها الحجر الأول في مجتمعات بلا طبقات ومن الثقافة الشاملة الحقيقية الأولى » .

لذا لا ينبغي التصرف على أساس القياس والاستنتاج بأنه لما كانت البورجوازية قد خلقت فنها وثقافتها الخاصين بها ، فستفعل البروليتاريا الشيء ذاته . وليس « هدف » الثورة البروليتارية وحده ـ حضارة بلا طبقات ـ هو الذي يدين هذا القياس التاريخي(٢٤) ،

(***) ـ اعلى قمة في جبال القفقاز في روسيا . بركان منطفىء (م) .

(٢٤) « استولت البروليتاريا على السلطة بالضبط لوضع حد نهائي للثقافة الطبقية ولفتح الطريق لثقافة انسانية شاملة . يبدو أننا ننسى ذلك في أغلب الاحيان » .

بل ان ما يناضل بصورة اكثر حسماً أيضاً ضده ، إنما هو الفرق الاساسي بين مصائر الطبقتين التاريخية . إن نمط الحياة البورجوازي نما عضوياً خلال قرون عديدة ، بينما قد تدوم ديكتاتورية البروليتاريا سنوات أو عقوداً ، لكن لا اكثر من ذلك . وتشغل كل وجودها ، وستشغله صراعات طبقية وحشية لا تسمح بالتطور العضوي لثقافة جديدة ، أو أنها لا تسمح إلا بالقليل القليل من ذلك .

« لا نزال جنوداً زاحفين ، لدينا يوم من الراحة . علينا ان نغسل قمصاننا ونقصّ شعرنا وننظفه بالفرشاة ، وقبل كل شيء أن ننظف بنادقنا ونشحمها . كل نشاطنا الاقتصادي والثقافي الراهن يقتصر على ما يلي : ترتيب امورنا قليلاً بين معركتين ومسيرتين . . . ليس عصرنا عصر ثقافة جديدة . تستطيع فقط أن نخلع الباب الذي يقود اليه . علينا قبل كل شيء أن نكتسب أهم عناصر الحضارة القديمة . . . » .

لقد أمكن البورجوازية أن تخلق ثقافتها الخاصة بها ، لأنها ، حتى في ظل الاقطاع والحكم الاستبدادي ، حتى قبل أن تستولي على السلطة السياسية ، كانت تمتلك الثروات ، والقوة الاجتماعية والعلم ، وكانت حاضرة في كل حقول النشاط الثقافي تقريباً . إن الطبقة العاملة لا تستطيع ان تكسب في المجتمع الرأسمالي اكثر من القدرة على قلب هذا المجتمع . لكن لما كانت طبقة لا تملك شيئاً ، طبقة مستغَلة ، ومفتقرة الى العلم ، فهي تخرج من تحت السيطرة البورجوازية ، في حالة فقر ثقافي : لذا لا يمكنها أن تدشن طوراً جديداً ومهماً من تطور الفكر الانساني(٢٥) .

من جهة اخرى ، ليست الطبقة العاملة ، بل مجموعات صغيرة صغيرة من اعضاء الحزب ومن المثقفين (« تحل محل » الطبقة العاملة في هذا الحقل ايضاً) ، هي التي تبغي خلق ثقافة بروليتارية . لكن « ما من ثقافة طبقية يمكنها أن تُبنى من وراء ظهر هذه الطبقة » ، ولا مجال أكبر لصنعها في المختبرات الشيوعية . إن أولئك الذين يزعمون أنهم وجدوا الثقافة البروليتارية في الماركسية يبرهنون عن جهلهم : فالماركسية هي ناتج الفكر البورجوازي بمقدار ما هي نفيه ؛ لقد طبقت الى الآن الديالكتيك بصورة رئيسية على دراسة الاقتصاد والسياسة ؛ لكن الثقافة « هي المجموع الكلي للمعرفة والتقنية الذي يميز مجتمعاً بمجمله ، أو علىَ الأقل طبقته القائدة » .

إن مساهمة الطبقة العاملة في الأدب والفن مساهمة لا يُعتَدّ بها . ومن العبث القول

---

(٢٥) استولت البورجوازية على السلطة حين امتلكت ثقافة عصرها كلياً . أما البروليتاريا فتأخذ السلطة في حين ليست مسلحة تماماً إلا بحاجتها الشديدة لأن تغدو الثقافة في متناولها » .

بوجود شعر بروليتاري بحجة ان بعض الشعراء العمال الموهوبين طلعوا بنتاج جيد . إن المنجزات الفنية التي يمكن لهؤلاء الشعراء أن يدّعوها ، إنما يدينون بها لتمرنهم على شعراء « بورجوازيين » أو حتى قبـ ـ بورجوازيين . حتى لو كانت مؤلفاتهم من نوعية أدنى ، فهي تبقى مهمة كوثائق اجتماعية وانسانية . لكن من قبيل اهانة البروليتايا ، « من قبيل الديماغوجية الشعبوية » ، اعتبار تلك المؤلفات كتعبيرات عن جمالية جديدة ، كمؤلفات يبقى ذكرها على مدى الأزمان . « لا يمكن لفن البروليتاريا أن يكون من الطراز الثاني . إن كتّاب البرولتكولت يلقون خطباً كبيرة حول الادب والرسم » الجديدين ، المدهشين ، الديناميين » .

« لكن ، يا رفاق ، أين هو هذا الفن ، فن « اللوحات العظيمة والاسلوب العظيم » ، اين هو هذا الفن العجيب » ؟ اين هو ؟ أين ؟ .

« لم يتم إلى الآن غير الثرثرة ، والتبجح ، وإزعاج اولئك الذين يعارضون البرولتكولت ، من تصويريين ومستقبليين ، وشكليين ، وپاپوتشيكي ، لكن إذا ألغيت مؤلفات هؤلاء ، ما الذي يبقى من الأدب السوفياتي ؟ « الوعود بالدفع » غير المؤكدة ، التي تقدمها البرولتكولت » .

وكما كان يمكن أن يتوقع المرء ، فقد جرى اتهام تروتسكي بالانتقائية ، وبالعبودية تجاه الثقافة البورجوازية ؛ اتهم بتشجيع الفردية البورجوازية وبانكار حق الحزب ، وواجبه ، في لعب « دوره القيادي » في الفن والأدب . فأجاب تروتسكي :

« على الفن أن يجد طريقه الخاصة به . . . فطرائق الماركسية ليست طرائقه . إن الحزب يؤمّن قيادة الطبقة العاملة ، ولكن ليس قيادة (كل) السيرورة التاريخية . ثمة حقول يدير فيها الحزب مباشرة وبسطوة وأخرى يراقب فيها . . . وثمة أخرى ايضاً يكتفي فيها بعرض تعاونه . ثمة أخيراً حقول يمكن فقط أن يستطلع فيها ويتابع ما يجري ضمنها . ليس حقل الفن واحداً من تلك الحقول التي يدعى فيها الحزب للقيادة » .

ويتابع تروتسكي قائلاً : « إن الهجمات المبالغ بها ضد الفردية هجمات فاشلة ، فالفردية لعبت دوراً مزدوجاً : كانت لها نتائج رجعية ، لكن كانت لها كذلك نتائج تقدمية ، وثورية . لم تعان الطبقة العاملة من مبالغة في الفردية بل من ضمور في الفردية . فشخصية العامل لم تحصل الى الآن على تكوين صلب ومتمايز ، إن تكوينها وتنميتها بمقدار أهمية تعليم العامل التقنيات الصناعية . من العبث الخشية من أن يضعف فن الفردية البورجوازية حس التضامن الطبقي لديه . « ما سيحفظه العامل من شكسبير وبوشكين

وغوته ودوستويوفسكي إنما هو . . . معرفة اغنى وأعقد بالشخصية الانسانية وأهوائها وعواطفها »[٢٦] .

تساءل تروتسكي في الفصل الأخير من كتابه حول « الأمور الأكيدة والفرضيات » للمستقبل . لم تكن « الأمور الاكيدة » تتعلق إلا بـ « فن الثورة » ؛ لم يكن يمكن الخروج إلا بتكهنات بصدد « الفن الاشتراكي » الذي لن يولد إلا في مجتمع لا طبقي . إن فن الثورة ، الذي ينبض على إيقاع كل النزاعات الطبقية ، وكل الاهواء السياسية في العصر ، ينتمي الى فترة انتقال ، إلى « مملكة الضرورة » لا إلى « مملكة الحرية » . لا يمكن للتضامن الانساني ان يتفتح بالكامل إلا في مجتمع بلا طبقات . حينذاك فقط ، ستتصادى بقوة ، في الشعر الاشتراكي ، تلك العواطف التي نخشى ، نحن الثوريين ، أن نسميها بأسمائها ، لأن المنافقين والرعاع ابتذلوا الكلمات لفرط ما عهّروها ، ستتصادى فقط في مجتمع بلا طبقات ، عواطف الصداقة المنزّهة ، ومحبة القريب والرأفة الصادقة »[٢٧] .

لا يزال أدب الثورةيتلمس طريقه بحثاً عن نمط تعبير . يزعمون أن عليه ان يكون واقعياً . وهذا صحيح ، بالمعنى الفلسفي الواسع للكلمة هذه : لا يمكن لفن عصرنا أن يبلغ العظمة إلا اذا كان لديه حس عميق بالواقع الاجتماعي . لكن من العبث ، في رأي تروتسكي ، أن يراد تبني واقعية ، بالمعنى الضيق للعبارة ، أي الواقعية بما هي علم جمال أدبي محدد . ليس صحيحاً أن علم الجمال الواقعي هو « تقدمي » من حيث الجوهر ؛ فالواقعية ، بحد ذاتها ، ليست ثورية ولا رجعية . لقد كان العصر الذهبي للواقعية الروسية العصر الذهبي للأدب الارستقراطي ايضاً . وكرد فعل ضد هذا الأدب ظهر الاسلوب المغرِض للكتّاب الشعبويين ، الذي أولد فيها بعد الرمزية المتشائمة ، التي رد عليها المستقبليون بدورهم . تم تبديل الأساليب في سياق اجتماعي محدد وعكس تبدلات المناخ السياسي ؛ لكنه تبع كذلك منطقه الفني الخاص به وقوانينه الخاصة به . كل اسلوب جديد يولد من القديم كنفيه الديالكتيكي : يدمج بعض العناصر من الأسلوب القديم ويطورها ، ويتخلى عن عناصر اخرى .

« « كل مدرسة أدبية موجودة بالقوة في المدرسة التي سبقتها ، لكنها تظهر وتتجلى كقطيعة عدوانية مع الماضي . تتحدد العلاقة بين الشكل والمضمون . . . بواقع ان الشكل الجديد يتم اكتشافه ، والمناداة به ، وإنشاؤه تحت ضغط حاجة داخلية ، تطلّبٍ سيكولوجي

---

(٢٦) ليتيراتورا إي ريفولوتسيا ، ص ١٦٦ .

(٢٧) المرجع ذاته ، ص ١٧٠ .

جماعي ، له ، ككل شيء ، جذوره الاجتماعية . لذا يتخذ كل تيار ادبي وجهين : فمن جهة ، يأتي بتجديد لتقنيات الخلق الفني ، . . . . ومن جهة اخرى ، يجيب عن تطلّبات اجتماعية محددة . . . هذه الأخيرة تضم التطلبات الفردية ـ لأن الطبقة الاجتماعية تتكلم بلسان الفرد ـ والتطلبات القومية ـ لأن الروح القومي يتبع روح الطبقة المسيطرة ، التي تسيطر ايضاً في الأدب »(٢٨) .

إذا كان لا شك في أن الأدب يلعب دور ناقل للتطلعات الاجتماعية ، فهذا لا يخوّل أحداً إهمال منطقه الفني أو تزييفه ، تكريس أسلوب أو استبعاده ، مهما يكن . كان رد فعل البعض في وجه الرمزية فظاً ؛ « ليست الرمزية الروسية هي التي اخترعت الرمز . لقد دمجته فقط في اللغة الروسية المحدَّثة . وفن الغد لن يتخلى بالتأكيد عن النجاحات الشكلية للرمزية » . لن يتخلى أكثر ايضاً عن الأنواع والأشكال التقليدية ، حتى إذا كان بعض النقاد حكموا ببطلانها ، حتى لو اعتقدوا أن زمن الهجاء والكوميديا قد ولى ، وأن التراجيديا قد انقضت لعدم انسجامها مع فلسفة ملحدة ومادية . إن دفن الأنواع القديمة لا يزال مبكراً على الأقل . لا يزال هنالك مكان لـ « غوغول سوفياتي » أو « غونتشاروف سوفياتي » ، ربما يمكنها فضح « الفساد القديم والجديد» ، الشرور القديمة والجديدة ، والبلاهة التي تعيث فساداً في المجتمع السوفياتي(٢٩) .

إن من كانوا يزعمون أن التراجيديا قد ماتت كانوا يوضحون أن الدين والقدر والخطيئة والعقاب هي محاور العالم التراجيدي. أجاب تروتسكي بأن جوهر التراجيديا يكمن في النزاع العام حيث يتواجه الانسان الواعي تماماً والوسط الذي يخنقه ، وهو نزاع لا ينفصل عن الوجود الانساني ويتجلى ، بأشكال شتى ، في مختلف الفترات التاريخية . لم تخلق الاسطورة الدينية التراجيديا . لم تفعل غير التعبير عنها بـ « اللغة المصوَّرة للبشرية في طفولتها » . والقدر ، كما كان يفهمه القدامى والآلام المسيحية في العصر الوسيط ، لا يوجد في مسرحيات شكسبير الدرامية ، التي هي الناتج الفني للإصلاح الديني . مع ذلك يسجل شكسبير تقدماً مهماً بالنسبة للتراجيديا الاغريقية : « فنه اكثر انسانية » : يُظهر الاهواء الأرضية للانسان التي تسمو بالانسان بالذات وتصبح هكذا ما يشبه قدره . ويمكن أن نقول الشيء ذاته بما يخص مسرحيات غوته ؛ لكن يمكن ان ترتفع التراجيديا أعلى

(٢٨) لينيراتورا إي ريفولوتسيا ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٢٩) على الهجّاء الجديد أن يناضل ضد الرقابة السوفياتية . وعد تروتسكي بمساعدته طالما يهاجم الهجاء الشرور الاجتماعية لصالح الثورة .

فأعلى . يمكن ان يصبح بطلها الانسان المهزوم ، لا بواسطة الـ **Hubris** ، ولا بيد الآلهة ، أو حتى بواسطة اهوائه ، بل بفعل المجتمع :

« طالما ليس الانسان سيد تنظيمه الاجتماعي ، يفرض هذا نفسه عليه كقدر . . . إن النضال لأجل الشيوعية ، الذي خاضه بابوف مبكراً جداً في مجتمع لم يكن ناضجاً ، كان كنضال البطل الكلاسيكي في وجه القدر . . . إن تراجيديا الهوى الفردي المكبوح تافهة جداً بالنسبة لعصرنا ، الذي هو عصر الهوى الاجتماعي . إن مادة التراجيديا المعاصرة هي تصادم الفرد والجماعة ، أو تصادم جماعات متعادية يجسدها أفراد . مرة اخرى ، عصرنا عصر مشروع عظيم . . . يحاول الانسان التخلص من كل الضباب الصوفي والايديولوجي ، اعادة بناء نفسه ، وإعادة بناء المجتمع . . . هذا شيء أعظم من لعب القدامى الصبياني ؛ أو الهذيان الرهباني في العصر الوسيط ، أو زهو فردية تقتلع الانسان من وسطه الاجتماعي ، وتفرغه من جوهره حتى النقطة الأخيرة وتدفع به فيما بعد إلى اوقيانوس من التشاؤم[٣٠] . . . »

لا شك ان كل استباقات الفن الاشتراكي بقيت محض تخمينات ، لكن تروتسكي كان يعتقد مع ذلك بالقدرة على تمييز بعض الاتجاهات ، بعض التوجهات ، في التجديدات المشوشة ، لا بل العبثية أحياناً ، التي كان يمتلىء بها الفن السوفياتي في تلك السنين . ففي المسرح ، كان مايرهولد يبحث عن تأليف « بيوميكانيكي » جديد للدراما ، والايقاع ، والنغم واللون ؛ وكان تايروف يحاول « إلغاء الحاجز » بين المسرح والجمهور ، بين المسرح والحياة . كان الرسم والحفر يحاولان الخروج من المأزق الذي وجدا فيه بعد انحطاط الاساليب التمثيلية représentatifs . وفي فن العمارة ، كانت مدرسة تاتلين « البنيانية » تنبذ الأسلوب الديكوري ، وتنادي بـ « الوظيفية » وتضع مشاريع طموحاً لمدن ـ جنينات ومبانٍ عامة لائقة بمجتمع اشتراكي . للأسف ، لم تكن تلك المشاريع تأخذ ابداً بالحسبان الامكانات المادية ؛ لكنها كانت تنطوي ، في نظر تروتسكي ، على عناصر عقلانية وحدوس مثيرة للاهتمام :

« لا يمكننا إلى الآن السماح لأنفسنا بالتفكير في فن العمارة ، الأكثر فخامة من بين كل الفنون . . . ينبغي تأجيل البناء الكبير حتى اشعار آخر . لأصحاب هذه المشاريع العملاقة . . . مهلة لاعادة التفكير في المشكلات . لكن لا شك أن تاتلين على حق حين ينبذ الاسلوب القومي الضيق ، الحفر الرمزي ، صب الجص في القوالب ، الأرابسك ،

---

(٣٠) ليتيراتورا إي ريفولوتسيا ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

الحلى المبهرجة والبريق الخادع ، حين يريد إخضاع الكل للاستخدام الوظيفي لمواد البناء . . . هو على حق أيضاً ، حين ينادي - ويبدو أن هذه فكرته الراسخة - باستخدام المكعب الدائر والهرم والاسطوانة الزجاجية ، يبقى ان يبرهن على ذلك . . . إن مشاريع بعظمة انشاء مدن - جنينات ، وكتل مساكن نموذجية ، وسكك حديد ومرافىء ، لن تصيب في الصميم المهندسين المعماريين وحسب ، في المستقبل . . . بل الجمهور الواسع من الناس . ان المراكمة الصبور ، وغير المرئية ، والمرتبكة ، قرميدة فوق قرميدة ، التي تتولى بواسطتها الأجيال إنجاز مناطق مدينية وشوارع ، سوف تزول لصالح البناء الجبار . . . مع الاستعانة بالخرائط والبركار .

« إن الجدار الفاصل بين الفن والصناعة سينهار . سوف يهدف الأسلوب الفخم الخاص بالمستقبل الى خلق اشكال لا إلى الزخرفة . . . لكن من الخطأ ان نرى في ذلك امحاء للفن أمام التقنية . . يمكن توقع رؤية زوال الفجوة بين الفن والطبيعة ، لكن إذا كان الأمر كذلك ، فلن يكون ذلك لأن الفن تقهقر الى مستوى الانسان في حالة الطبيعة ، بالمعنى الذي يعطيه روسو للعبارة ، بل لأنه يكون قد جعل الطبيعة أقرب اليه . لا يجب اعتبار الموقع الحالي للجبال والانهار ، للمروج والحقول والسهوب ، والغابات والسواحل ، كما لو كان ثابتاً ونهائياً . لقد ادخل الانسان على هيئة الطبيعة تعديلات لا يمكن الاستخفاف بها ، لكن ما ادخله الى الآن ليس سوى محاولات صبيانية إذا قورنت بما سيحدث في الآتي . إذا لم يفعل الايمان غير الوعد بتحريك الجبال ، فالتقنية التي لا تستعير من الايمان شيئاً سوف تقلبها حقاً وتبدل مكانها . حتى الآن ، لم تفعل التقنية ذلك إلا تحقيقاً لمصالح تجارية وصناعية (مناجم وأنفاق) . أما في المستقبل ، فسوف تقوم به على مستوى أوسع بما لا يقاس ، وذلك تنفيذاً لخطط تخدم مصالح الانتاج والفن بلا انفكاك . سيضع الانسان جردة جديدة بالانهار والجبال ، ويبدل الطبيعة بعمق ، وأكثر من مرة واحدة . وسينتهي الى إعادة صياغة الأرض ، وفقاً لذوقه . . . وليس لدينا أي مبرر للخوف بأن يكون ذوقه كريهاً . » .

يبسط تروتسكي في الأخير رؤ ياه للإنسان في مملكة الحرية ، وهي نسخة ماركسية محدثة عن الأبيات التالية :

« القناع الكريه سقط ، يبقى الإنسان
من دون صولجان ، حراً ، غير محدود ، لكنه إنسان

(٣١) المرجع ذاته ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

متساوٍ ، بلا طبقة ، بلا قبيلة ، دون أمة ،
متحرراً من الخوف ، من العبادة ، من الولادة ، ملكاً
على ذاته . عادلاً ، لطيفاً ، حكيماً ؛ لكنه إنسان
من دون هوى ؟ كلا . لكنه خالص من الخطيئة ومن
الألم . » . . . .

كان هنالك من يزعمون مع نيتشه أن مجتمعاً غير طبقي ، إذا قيّض له أن يبصر النور ، سيعاني من إفراط في التضامن ويولّد وجوداً سلبّياً ، سِرْبيّاً ، وان الانسان سينحط بسبب ضمور غرائز التنافس والصراع لديه . لكن الاشتراكية لن تلغي حس التنافس لدى الانسان ، بل ستهيجه مطبقة إياه على مُثُل اكثر سمواً . ففي مجتمع متحرر من صراع الطبقات ، لن يكون هناك سباق الى الربح ، أو صراع للاستيلاء على السلطة السياسية . عندئذٍ سيمكن طاقات الانسان وأهواءه أن تنصرف الى تنافس خلاق في حقول التقنية والعلم والفن . تولد « احزاب » جديدة تنخرط في شتى المساجلات ، حول تخطيط الانشاءات البشرية ، وحول النظريات التعليمية ، والأساليب الدرامية ، والموسيقية ، والرياضية ، وحول خطط قنوات جبارة ، واخصاب الصحاري ، وتنظيم المناخات ، والفرضيات الكيميائية الجديدة ، الخ . سوف تتولى نقاشات مختلجة ، ودرامية ، ومثيرة للحماس » هز المجتمع بمجمله ، لا جوقات من الخبراء والمطّلعين وحسب . «لن يحرم الفن إذاً من تلك التنويعات من الطاقة العصبية والمحفزات النفسية الجماعية » ، التي تنتج أفكاراً وصوراً جديدة . سوف يتجمع الناس في « احزاب » فنية متنافسة ، تجيب عن مزاجهم وذوقهم . تنمو الشخصية البشرية ، وترهف ، وتغدو لديها تلك « الميزة التي لا تقدر بثمن ، التي تخصها والتي تجعل المرء لا يكتفي أبداً بما أنجزه » .

كانت تلك ، بالطبع ، منظورات بعيدة . فالفترة التي كانت تنفتح على الفور كانت حقبة صراع طبقات وحروب أهلية شرسة ستخرج البشرية منها مفقرة ومنهكة . فيما بعد ، سيستغرق إلغاء الفقر والبؤس بكل انواعهما عشرات السنين ، يدفع المجتمع الاشتراكي الوليد خلالها « شغفٌ بما يشكل اليوم افضل جوانب الاستمراك américanisme » ، بالتوسع الصناعي ، والأرقام القياسية في الانتاجية والرفاه المادي . لكن هذه الحقبة ستنتهي هي الأخرى ، فتنفتح إذاك منظورات يعجز الخيال الى الآن عن الاحاطة بها :

« إن الاحلام الحالية لبعض المتحمسين . . . الذين يودون إضفاء صفة مسرحية

(*) اي الانسان العاقل والعالم (م) .

وانسجام إيقاعي على وجود الانسان ، تندمج بصورة متماسكة تماماً في هذا المنظور . . . تحرر المبادرة الاجتماعية العائلة الفردية من عبء تغذية الأطفال وتربيتهم . . . وتخرج المرأة اخيراً من عبوديتها النصفية . . . سوف تتطور التجارب الاجتماعية ـ التربوية بسرعة ودينامية لا يمكن تصورهما اليوم . لن يتطور نمط الحياة الشيوعي خبط عشواء مثلما الصخور المرجانيّة في البحر ، بل سيجري بناؤه بوعي تام . يكون قد مر في منخل الفكر النقدي . يجري توجيهه وإصلاحه . . . سوف يتعلم الانسان كيف ينقل الانهار والجبال ، ويبني قصوراً شعبية على ذرى الجبل الأبيض ، وفي عمق المحيطات . لن يعطي لوجوده الغنى واللون والتوتر الدرامي وحسب ، بل كذلك دينامية لا تقاوَم ، لا يكاد الوجود الانساني يكون تبلرَّ حتى . . . تفجر الاختراعات والانجازات الجديدة قشرته .

«أخيراً يبدأ الإنسان يُدخل الانسجام جدياً إلى كيانه الخاص به . يسعى ليحمل الى حركات جسده العامل ، والسائر واللاعب ، دقة وغائية واقتصاداً ، وبالتالي جمالاً أكبر . سيرغب في أن يتحكم بالسيرورات شبه الواعية ، واللاواعية الخاصة بمجموع اعضائه : التنفس ، الدورة الدموية ، الهضم التناسل ؛ وسيسعى ، ضمن بعض الحدود المحتومة ، لاخضاعها لرقابة العقل والارادة . . . إن الـ Homo Sapiens(*) . . الذي يحيا اليوم حياة خاملة . . . سيجعل من نفسه موضوع الطرائق الأكثر تعقيداً للاصطفاء الاصطناعي والتمرين النفسي ـ البدني .

كذا ستكون نتيجة التطور الكلي للانسان . يبدأ الانسان يبدد الظلمات التي ولّدها الانتاج والايديولوجيا ؛ تجعله التقنية يتخلى عن طرائق العمل الروتينية والهمجية ، ويسمح له العلم بنقض الدين . . . وبفضل التنظيم الاشتراكي ، يزيل من العلاقات الاقتصادية العفوية العمياء ، الأولية . . . وأخيراً ، إنما في ثنايا الوعي الأكثر عمقاً والأكثر ظلمة . . . تختبىء طبيعة الانسان بالذات . على هذه الطبيعة ، سيركز الجهود العليا لفكره ومبادرته الخلاقة . لم تنفك البشرية تزحف أمام الله والقيصر ورأس المال ، بهدف واحد هو الخضوع باتضاع لقوانين الوراثة الداجية ، والاصطفاء الطبيعي الأعمى . سوف يجتهد الانسان في مراقبة عواطفه والسمو بغرائزه إلى مستوى فكره الواعي ، وإدخال الوضوح اليها ، وتقنية إرادة القوة لديه حتى في اعماقه غير الواعية . بهذه الطريقة يرتقي الإنسان إلى ارتفاع جديد ، يصل الى نموذج بيولوجي واجتماعي اعلى ، ويغدو ، إذا شئتم ، إنساناً أمثل(**) .

إن القول سلفاً أية حدود يمكن ان يبلغها الانسان في التحكم بالذات أمر بصعوبة

(*) ـ الانسان العاقل والعالم (م).

(**) ـ المرادف العربي للسوبرمان (م).

توقع إلى اين سيصل تحكمه التقني بالطبيعة . سوف يغدو البناء الاجتماعي والتربية الذاتية النفسية والبدنية وجهي سيرورة واحدة . كل الفنون ، من أدب ومسرح ورسم وحفر وموسيقى وفن عمارة ، ستعطي لهذه السيرورة شكلاً اسمى . يصبح الانسان أقوى بما لا يقاس ، وأحكم وأرهف ؛ يغدو جسده اكثر انسجاماً ، وحركاته اكثر إيقاعية ، وصوته اكثر موسيقية . تكتسب اشكال وجوده ميزة مسرحية وديناميه . يبلغ الانسان المتوسط مستوى ارسطو وغوته وماركس . وسيسمح بلوغ هذه الذرى باقتحام ذرى جديدة » .

يمكن التساؤ ل إذا كان تروتسكي عرف أن جفرسون توقع مثله « التقدم » البدني والفكري ، وأعلن أن الانسان سيغدو يوماً ، بالقوة ، ذا قامة مصارع على الصعيد البدني ، وكأرسطو على الصعيد الفكري . والأرجح أن تروتسكي تأثر بالطوباويين الفرنسيين ، من كوندورسيه الى سان سيمون . مثل كوندورسيه ، وجد في تأمل المستقبل « ملجأ لا يعود يلاحقه فيه فكر مضطهديه ، وحيث يعيش بالروح مع الانسان المعادة إليه حقوقه وكرامته ، وحيث ينسى الانسان الذي يعذبه الجوع والخوف والغيرة وتفسده » . كانت رؤ ياه للمجتمع اللاطبقي موجودة بالتأكيد ضمناً في كل الفكر الماركسي ، وإن كانت متأثرة بالاشتراكية الطوباوية الفرنسية . لكن ما من كاتب ماركسي ، قبل تروتسكي أو بعده ، حزر المنظورات المستقبلية العظيمة ، بعين بتلك الواقعية وخيال بذلك الاضطرام .

سرعان ما هوجم كل مفهوم تروتسكي حول الثقافة والفن . كان يؤذي ، باتساعه وتعقيده بالذات ، الانسان الحزبي نصف المتعلم . وكان يهين البيروقراطي الذي ينكر عليه حق الاشراف على الحياة الثقافية ، وتنظيمها . وقد أثار ايضاً عداوة الشلل الادبية الثورية المتطرفة التي كان يفحم ادعاءاتها . هكذا تكوّنت في الميدان الثقافي « جبهة » بالغة الاتساع معادية للتروتسكية ، غذتها الجبهة السياسية وقوّتها وفي الاخير امتصتها . اصبح الصراع ضد نفوذ تروتسكي بصفته ناقداً أدبياً جزءاً من الصراع ضد سلطته السياسية . أعلن خصومه أن نظرياته الجمالية لم تكن غير فصل من الهرطقة التروتسكية بوجه عام[٣٢] . هاجموا بشكل رئيسي تأكيده استحالة قيام ثقافة بروليتارية ، لأن تروتسكي كان قد حدد ،

(٣٢) لا يزال الصراع ضد النفوذ التروتسكي في الأدب يتواصل الى الآن ، بعد ٣٥ عاماً على نشر الأدب والثورة . خلال نزع الستالينية بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٦ ، اعيد اعتبار العديد من الكتّاب الذين اتهموا بالتروتسكية وماتوا خلال التطهيرات الكبرى قبل الحرب . لكن سرعان ما لاحظ حرّاس الأورثوذكسية انبعاثاً للتأثير التروتسكي في الأدب . وفي أيار / مايو ١٩٥٨ ، أمكن قراءة الكلام التالي في زناميا : « إن أ . فورونسكي ، الناقد في كراسنايانوف ، والمتعاون معها ، الذي كان مشهوراً في تلك السنوات (١٩٢٠ ـ ٣٠) تأثر بوضوح بالنظريات الأدبية التروتسكية ، ونعرف الآن انه لم يكن يقيم اية علاقة =

بصدد هذه النقطة ، وبالصورة الأكثر إثارة ، بعض المصالح التي كانت بدأت تتجسد . تم اتهام تروتسكي بأنه اقترح نوعاً من الليبرالية البورجوازية . ولا يستمر في إثارة الاهتمام اليوم غير جزء ضئيل فقط من كتلة الحجج الدوغمائية المقدمة في هذا السبيل . من جهة اخرى ، لقد أدانها تقريباً حتى ملهموها ، لا سيما ستالين الذي استنكر بعد سنوات كل مطالب الكتّاب والفنانين « البروليتاريين » ، وشتّت منظماتهم واضطهدهم بدون هوادة . لكن حوالي ١٩٢٥ ، كان ستالين يتملق كل طموح ثقافي أو أدبي من الطراز الثاني ، بغية ان « يعبىء » الى جانبه الانتليجنسيا وشبه الانتليجنسيا .

علينا مع ذلك أن نشير الى حجة أو اثنتين من الحجج المقدمة ضد تروتسكي . هكذا انتقد لوناتشارسكي تروتسكي بقوله إنه إذ لا يعترف إلا بالثقافتين الكبريين البورجوازية والاقطاعية الخاصتين بالماضي ، من جهة ، وبالثقافة الاشتراكية التي ستنمو فيما بعد ، في المستقبل ، من جهة اخرى ، يجعل من الديكتاتورية البروليتارية فراغاً ثقافياً ويعتبر الحقبة الراهنة نوعاً من الفجوة العقيمة بين ماضٍ خلاق ومستقبل سيكون خلاقاً ايضاً . كان هذا ايضاً هو جوهر الانتقاد الأكثر خصوصية الذي وجهه بوخارين لتروتسكي اثناء مؤتمر تداولي حول السياسة الادبية كانت اللجنة المركزية نظمته في شباط / فبراير ١٩٢٥[٣٣] . في حين اعترف بوخارين بأن تروتسكي دافع عن اطروحته بكفاءة عظيمة ، وبأن لينين انتقد ايضاً ، وبلا تحفظ ، مفهوم « الثقافة البروليتارية » ، وبأن طبقة عاملة ثورية يمكن ان تمارس قيادة سياسية ، لكن ليس ثقافية ، أكد أن البروليتاريا ستستحوذ مع الوقت على التفوق الثقافي وتطبع بطابعها الابداع الذهني للحقبة الاخيرة من المجتمع الطبقي . قال بوخارين ان خطأ تروتسكي يكمن في الاعتقاد بأن ديكتاتورية البروليتاريا والفترة الانتقالية نحو الاشتراكية ستكونان قصيرتين للغاية بحيث لا تسمحان لثقافة طبقية ، بروليتارية ، بأن تتجسد وتتبلور . لم يأخذ بالحسبان « الوتيرة اللامتساوية » للتطور الاجتماعي والسياسي في شتى البلدان ، التي كانت تجعل من المرجح لا بل المؤكد انشطار سيرورة الثورة العالمية إلى العديد من الاطوار المنفصلة انشطاراً سيطيل كثيراً ديكتاتورية البروليتاريا ويسمح بالتالي بتكوّن ثقافة وفن خاصين .

كان هناك ما هو صحيح في محاجّة بوخارين (التي لم تكن غير جزء من النظرية

= مع الحركة التروتسكية السرية . لقد اعيد اعتباره بهذا الخصوص ، كغيره من الذين اتهموا ظلماً . الا انه مع ذلك فـ . . . . مبادئه النظرية مستعارة من علم الجمال البورجوازي المثالي وتتمازج مع النظريات التروتسكية » . لقد خصص كاتب المقال العديد من الصفحات للنظريات الادبية ، التي عرضها تروتسكي ، وذلك ليدحضها من جديد ، دون أن يسقط مع ذلك في مبالغات التزوير الستاليني .

(٣٣) كراسنايا نوف ، أيار / مايو ١٩٢٥ .

الستالينية ـ البوخارينية حول الاشتراكية في بلد واحد) . حين كان تروتسكي يعلن : « نحن جنود زاحفون . لدينا نهار استراحة . . إن عملنا الثقافي . . . الراهن . . . يكمن في ان نرتب صفوفنا قليلاً ، بين معركتين ومسيرتين » ، كان يتصور تعاقباً سريعاً « للمعارك » الرئيسية للثورة العالمية ، كان أمكن أن يقصر الى حد بعيد حقبة ديكتاتورية البروليتاريا والانتقال الى الاشتراكية . كان هذا الاعتبار دائم الوجود في توقعاته السياسية ، وكان قائماً ايضاًبشكل ضمني في اللهجة التي عرض بها نظريته حول الثورة الدائمة ، مع أنه لم يكن عنصراً رئيسياً فيها . إلا أن « نهار الاستراحة » بين الهجوم البلشفي لأعوام ١٩١٧ ـ ١٩٢٠ ، والمعركة الكبرى اللاحقة للثورة دام لا أقل من ربع قرن . ويمكن للماركسيين أن يتساءلوا كم من الوقت سيطول « نهار الاستراحة » الذي بدأ غداة انتصار الثورة الصينية . لقد بخس تروتسكي بوضوح تقدير مدة ديكتاتورية البروليتاريا ولازمتها المحتومة، اهمية الطابع البيروقراطي الذي ستتخذه تلك الديكتاتورية .

لكن الخطأ الواضح الذي ارتكبه تروتسكي بهذا الصدد لا يلغي مع ذلك دحضه « للثقافة البروليتارية » . لا بل هو يعطي هذا الدحض المزيد من القوة . فإذا كانت حقبة ديكتاتورية البروليتارية والانتقال الى الاشتراكية اطول مما توقع ، فذلك لا يجعل تلك الحقبة أكثر خصباً وإبداعاً في الميدان الثقافي . لا بل العكس هو الصحيح ، فالستالينية لم تعط الحياة لأية ثقافة بروليتارية . لقد انطلقت في « التراكم البدائي الثقافي » ، أي في المنشر السريع والمعمم لتربية الجماهير وفي استيعاب العلوم الغربية . وأن يكون هذا التراكم الثقافي قد تم في اطار العلاقات الاجتماعية التي أسستها الثورة ، يفسر سرعته وكثافته ويعطيه أهمية تاريخية كبرى . رغم كل شيء ، فهذا التراكم تمثل بصورة شبه كلية في استيعاب الاتحاد السوفياتي للارث الثقافي البورجوازي وما قبل البورجوازي ، لا في خلق ثقافة جديدة . زد على ذلك أنه أعاقته عبادة الفرد الستالينية ، واستبدادها الدوغمائي ، وبُدّيتها Fétichisme ، واستهوالها للتأثير الاجنبي ، وخوفها من كل مبادرة مستقلة . كان « التراكم الثقافي بدائياً » لأكثر من سبب : ترافق مع الغاء ـ أو تشويه ـ تلك القيم الثقافية الأرهف والأكثر تعقيداً التي كان يريد تروتسكي الاحتفاظ بها وتطويرها في ظل ديكتاتورية البروليتاريا . وحين كان يؤكد : « ليس عصرنا عصر ثقافة جديدة . نستطيع فقط أن نخلع الباب الذي يقود اليها » ، كان يلخص سلفاً ، من دون أن يعرف ، كل التاريخ الثقافي للفترة الستالينية ، وحتى لعواقبها . طوال تلك الفترة ، لم يكن الاتحاد السوفياتي ، الملطخة يداه ورأسه بالدم ، قادراً إلا على أن يقرع باب الثقافة الجديدة بعنف . والباب اليوم نصف مخلوع .

الفصـــل الـــرابع

فـاصل صغـير

عرف نضال تروتسكي داخل الحزب فترة انقطاع بعد خروجه من مفوضية الحرب ، فترة دامت طيلة عام ١٩٢٥ وتواصلت حتى صيف ١٩٢٦ . خلال تلك الفترة ، لم يناقش تروتسكي في العلن المشكلات التي كانت في قلب مساجلات عامي ٢٣ و ٢٤ . لم يحاول حتى في الجو السري لاجتماعات اللجنة المركزية والمكتب السياسي أن يطلق النقاش من جديد . لقد اعترف بهزيمته وخضع للمقتضيات التي فرضتها عليه اللجنة المركزية .

طيلة تلك الفترة ، لم يكن لـ « معارضة عام ١٩٢٣ » وجود منظّم ، فتروتسكي حلّها عملياً . قال لأنصاره المشوشين والمدهوشين : « علينا ألا نفعل شيئاً في هذه الفترة ، ألا نظهر علانية بأي شكل من الأشكال . علينا الاكتفاء بالبقاء على اتصال ، والاحتفاظ بكادرات معارضة ١٩٢٣ بانتظار أن يكون زينوفييف استنفد نفسه[1] . » لو أنه تصرف على غير تلك الصورة ، لو انطلق في احتجاجات جديدة ، وتظاهرات معارضة جديدة ، لوجد نفسه مهدداً على الفور ، هو وأنصاره ، بالطرد من الحزب أو على الأقل من أجهزته القيادية . كان لدى تروتسكي ملء الحق بالاعتقاد أن المثالثين قد يمضون في عملياتهم الانتقامية حتى النهاية .

سوف تُظهر الطُرفة التالية إلى أي حد كان تروتسكي وأنصاره يشددون على تحاشي استئناف الصراع . ففي عام ١٩٢٥ ، نشر الكاتب الأميركي ، ماكس ايستمان ، كتابه Since Lenin Died (منذ توفي لينين) ، حيث قدّم سرداً موضوعياً ، هو الاول الذي يرى النور ، حول الصراع على خلافة لينين واورد جوهر وصية لينين . إن إيستمان الذي كان

---

(١) ـ فيكتور سرج ، المنعطف القاتم ، ص ٩٧ ؛ مذكرات ثوري ، ص ٢٢٩ . وينسب سرج هذا «التوجيه» ، مرة لتروتسكي ومرة اخرى لفيكتور إيلزين ، أحد مساعديه . مهما يكن ، فإيلزين كان يعبر بالتأكيد عن رأي تروتسكي .

كتب كذلك وصفاً لتروتسكي ، The Portrait of a Youth (صورةشاب) كان قد أقام في موسكو ردحاً من الزمن وغدا عضواً في المعارضة ، وحصل من تروتسكي بالذات على معلومات حول وصية لينين والصراع على خلافته . لا بل كان رجا تروتسكي أن يبدي المزيد من القتالية ويتلو الوصية في المؤتمر الثالث عشر . كان قد عرض مخطوطة Since Lenin Died في باريس ، على راكوفسكي ، الذي عبر له بصورة غير مباشرة عن موافقته التامة . كان ايستمان محقاً إذاً في الاعتقاد أن كتابه سيحظى بمباركة تروتسكي أيضاً[٢] . وقد شعر تروتسكي بالكثير من العرفان بالجميل حيال ايستمان ، الذي ابقى على علاقات ودية معه طوال عشر سنوات ، أي حتى التحول المعادي للشيوعية لدى ايستمان . إلا أن تروتسكي وجد في خدمة ايستمان الودية مجالاً للكثير من الازعاج مع ذلك : اتهم المثالثون تروتسكي باقتراف عدم احتراس خطير وطلبوا إليه تكذيب إفشاآت ايستمان ، مهددين إياه باتخاذ تدابير تأديبية ضده إذا رفض . وحين استشير رفاق تروتسكي الاقربون بدوا قليلي الرغبة في الانجرار الى مساجلة بصدد كتاب ايستمان بحيث شجعوا تروتسكي على التملص علانية من مسؤ وليته عن كامل القضية . إلا أن المكتب السياسي اعتبر ذلك غير كاف ، واشترط تكذيباً جازماً لتصريحات ايستمان بصدد الوصية ، لا بل أملى على تروتسكي نص التكذيب . ومرة أخرى طلبت « المجموعة القيادية في المعارضة إلى تروتسكي ـ كما يقول هو ذاته ـ أن يرضخ لصالح السلام[٣] . وهكذا ظهر في اول ايلول/سبتمبر ١٩٢٥ ، في البلشفي ، بيان وقعه تروتسكي يؤكد أن « كل الأقاويل المتعلقة بـ «وصية» للينين ، جرى ادّعاء طمسها أو انتهاكها ، هي اختلاقات شريرة ، موجهة كلها ضد ارادة لينين الحقيقية ومصالح الحزب الذي أسسه » . وقد تم نشر التصريح عبر الصحافة الشيوعية الاجنبية بمجملها وتهافت ستالين فيما بعد على الاستشهاد به[٤] . إن تكذيبات من هذا النوع ، تخضع لاعتبارات تكتيكية ، ليست نادرة في الميدان السياسي ، لكن التكذيب الذي نحن بصدده كان مهيناً بشكل خاص لتروتسكي . فبعد أن شهد دونما رد فعل إخفاء الوصية التي كانت تشكل سنده الفعلي بشأن خلافة لينين ، كان عليه الآن أن يشهد علانية ، ويشهد زوراً ضد نفسه ولصالح ستالين ، وكل ذلك لتأجيل العودة الى الصراع

---

٢ ـ كتب ايستمان في رسالة الى المؤلف : « عرضت المخطوطة على راكوفسكي . . . وقلت له اني لن انشرها الا بموافقته . وقد اعادت السيدة راكوفسكي المخطوطة إليّ مرفقة اياها بمديح حماسي ، ففكرت ان ذلك أفضل «ترخيص» يمكن الحصول عليه ، نظراً للظروف . »

٣ ـ شرح تروتسكي هذه التفاصيل في رسالة إلى مورالوف ، كتبها خلال نفيه في ألماآتا في ١١ ايلول/سبتمبر١٩٢٨ . المحفوظات .

٤ ـ ستالين ، سوش . ، ج ١٠ ، ص ١٧٥ .

داخل الحزب .

لم يكن سهلاً في وضع من هذا النوع « البقاء على صلة بكادرات معارضة ١٩٢٣ ، والاحتفاظ بهم » . فبالنسبة لمجموعة سياسية ، يكون الامتناع عن العمل ، مهما بررته اعتبارات تكتيكية ، تجربة ممضة للغاية . يمكن لفريق صغير من المثقفين والعمال المتقدمين جداً أن يمضي الوقت في استقصاآت ونقاشات . لكن بالنسبة لمجموعة أضخم وأهم ، لا سيما إذا كانت تضم عمالاً صناعيين ، تعادل البطالة السياسية في معظم الاحيان انتحاراً سياسياً . فهي تضعف ايمانها بالقضية ، وتخنق حماسها ، وتولد اللامبالاة واليأس . تلك كانت نتائج الانتظار على صعيد معظم مجموعات المعارضة :لقد تفتتت وتفككت . هكذا لم يكن في لينينغراد ، في بداية ١٩٢٦ ، اكثر من ثلاثين تروتسكياً كانوا يتجمعون حول الكسندرا برونشتاين ـ سوكولوفسكايا ، زوج تروتسكي الاولى ، بقوا على اتصال وثيق بعضهم بالبعض الآخر وظلوا يجتمعون بانتظام . إن المئات من المعارضين ، الذين كانوا منتظمين في الماضي ، اختفوا في أرض حرام(*)سياسية . أما في موسكو فكان « الكوادر » التروتسكيون أضخم عدداً بكثير ، وأشد نشاطاً بكثير ، لكن قوى المعارضة في مدن المقاطعات الكبرى كخاركوف وكييف و أوذيسا ، و مناطق أخرى ، تقهقرت كما في لينينغراد .

إن قادة المعارضة ، المرتبطين بصداقات سياسية وشخصية ، كانوا يشكلون حول تروتسكي حلقة ضيقة غالباً ما كانت تجتمع وتناقش . كانت تضم العديد من الادمغة والشخصيات الاقوى في الحزب البلشفي . فإذا نظرنا إلى هذه الحلقة على اساس الكفاءة والتجربة السياسية والماضي الثوري ، نجدها بالتأكيد متفوقة كثيراً على الفريق الذي كان يقود تكتل ستالين والحزب . فراكوفسكي ، ورادك ، وبريوبراجنسكي ، ويوفي ، وانطونوف ـ اوفسينكو ، وبياتاكوف ، وسيريبرياكوف ، وكريستنسكي ، وايفان سميرنوف ، وموارلوف ، ومراشكوفسكي وسوسنوفسكي ، لعبوا كلهم أدواراً اساسية في السنوات الاولى للثورة والحرب الاهلية ، واضطلعوا جميعاً بمسؤوليات رفيعة جداً(٥) . وكماركسيين ذوي تفكير نيّر ، ورؤية أصيلة ، مفعمين ذكاء وقريحة ، كانوا يمثلون العقول الاكثر استنارة والاكثر توجهاً اممياً في الحزب .

(*) ـ ترجمة no man's land ، والمقصود وقوف موقف الحياد السياسي (م) .

(٥) في ذلك الحين ، كان راكوفسكي ويوفي وكريستنسكي سفراء في لندن وباريس وطوكيو وبرلين ، لكنهم بقوا على اتصال وثيق بتروتسكي .

من بينهم جميعاً ، كان رادك أكثرهم شهرة إلى حد بعيد ، لكنه لم يكن أهمهم . فبعد تروتسكي ، كان الهجّاء الألمع والأكثر قرصاً . إن رادك المتقلب ، والملاحظ الثاقب والواقعي للناس والسياسة ، والحساس بشكل خارق حيال امزجة الأوساط الاجتماعية الأكثر تنوعاً ، كان قد أوحى الى لينين بالعديد من مبادراته الأكثر اهمية في حقلي الدبلوماسية والسياسة الخاصين بالكومنترن .لقد كان اوروبياً ، ومثل دزرجنسكي ، قبل ان يصبح بلشفياً كان عضواً في الحزب الاشتراكي - الديمقراطي لبولونيا وليتوانيا ، حزب روزا لوكسمبورغ الذي تأثر عميقاً بآراء تروتسكي[٦] . وطوال سنوات عديدة أيضاً ، كان قد قام بنشاط محموم في اقصى يسار الاشتراكية الالمانية ، كان أحد رواد الاممية الشيوعية ومؤسسيها . حين وصل الى روسيا ، بعد قليل من قيام ثورة اوكتوبر ، جرى قبوله في الحال في دائرة القادة ، وقد رافق تروتسكي الى بريست ليتوفسك ، وكان مع بوخارين ودزرجنسكي زعيم الشيوعيين اليساريين في معارضتهم للصلح . وبعد انهيار سلالة هوهنزلرن ، ارسله لينين سراً الى المانيا بمهمة مساعدة الحزب الشيوعي ، المكوّن حديثاً ، في خطواته الاولى . وقد وصل الى برلين متخفياً ، إثر رحلة خطرة ومغامرة عبر « النطاق الصحي » الذي كان يحيط بروسيا ، وقبل اغتيال كارل ليبكنخت وروزالوكسمبورغ بوقت قصير ، فألقت الشرطة القبض عليه واودع في السجن . وهناك في سجنه ، وفيما كانت برلين فريسة إرهاب رجعي وحياته في مهب الرياح ، نجح في القيام بفتح دبلوماسي حقيقي : توصل للاحتكاك بقادة المان ، من دبلوماسيين وصناعيين وجنرالات . وفي زنزانته بالذات ، خاض معهم ، ولا سيما مع والتر راتينو ، وزير الخارجية في فترة رابالو ، محادثات للحصول على فتح ثغرة اولى في « النطاق الصحي »[٧] . وفي زنزانته ايضاً بقي على اتصال سري بالحزب الشيوعي الالماني وساعده على تحديد سياسته .

إن رادك الرائد في الاشتراكية الثورية ، كان يجمع في شخصه كذلك شيئاً من اللاعب . كان يرتاح لعمل الدبلوماسي الذي يحبك أحبولة ، مثلما لعمل الخلد الثوري الذي يحفر تحت الارض . ولما كان ذا عين ثاقبة وعقل حر ، فقد فهم قبل غيره من القادة البلاشفة ان ساعة الانحسار قد أزفت في اوروبا بالنسبة للثورة ، ودعا الى الجبهة الموحدة . وحين عاد إلى المانيا عام ١٩٢٣ ، لم يَبْدُ لهُ ان الوضع تبدل ، وقد منع براندلر

---

(٦) الا ان رادك ودزرجنسكي كانا في ذلك الحزب خصمي روزا لوكسمبورغ : كان داخل حزبها اقرب الناس الى البلاشفة .

(٧) - انظر ذكريات رادك في كرسناياڤوف عدد ١٠ ، أوكتوبر ١٩٢٦ . ر . فيشر ، ستالين والشيوعية الالمانية ، ص ٢٠٣ - ٢١١ (الطبعة الانكليزية) .

من الاندفاع في ما كان يعتبره محاولة ثورية يائسة . لكنه ترك تذوقه للعب يضيّعه ، واطلق في « خطاب شلاغتر » نداء ملتبساً الى متطر في النزعة القومية الالمانية اليائسين . وحين عاد الى موسكو ، جرى تحميله مسؤولية الهزيمة الالمانية وتعاونه مع تروتسكي . وقد تم اقصاؤه من فروع الكومنترن الاوروبية وتعيينه عام ١٩٢٥ رئيساً لجامعة صن يات ـ صن في موسكو ، في الوقت بالذات الذي كان هدير الثورة الصينية يُسمع فيه : كانت مهمته تكوين دعاويين ومحرّضين لمنظمات الشبيبة الشيوعية في الصين[٨] . ولما كان دائم الحركة ، ذا هيئة بوهيمية ، ولسان حاد ، عدواً للنفاق ، يتخذ طوعاً مواقف وقحة ، فقد اعتبره الكثيرون شخصاً عجيباً لا بل مريباً . لكن غالباً ما كان يفتري عليه خصومه الذين كانوا يخشون نظرته الوقحة التي لا يوقفها شيء ، وسخريته وتهكماته القاسية . لا بد أن قماشة الرجل كانت أصلبِ مما يبدو ، لكن تحت ضغط الارهاب الستاليني ، فيما بعد ، انعطب بشكل مخيف . كانت هيئته البوهيمية ومواقفه الوقحة تخبيء ايماناً وقاداً ينفر من إبدائه ، وكانت تهكماته وسخريته اللاذعة تتوهج أيضاً شغفاً ثورياً .

كان رادك يفرغ طفاح ذكائه وعقله في الدائرة القائدة للمعارضة . لقد كان متعلقاً بتروتسكي الذي كان يشترك معه في تجربة اممية واسعة . إن تعلقه يظهر بوضوح في دراسته ، تروتسكي ، منظم النصر ، التي كتبها في عام ١٩٢٣[٩] . اما تروتسكي الذي كان يحذر قليلاً نزق رادك ، وارتجالاته السياسية ، فقد كان يشعر مع ذلك بمودة حارة تجاه الرجل وباعجاب شديد بموهبته[١٠] فإذا كان يحذر اللاعب في شخص رادك ، فهو كان يتأثر بملاحظاته وافكاره ، ويقدر فيه الساخر والهجّاء .

إن شخص بريوبراجنسكي يشكل النقيض الكلي لشخص رادك . لقد كان منظّراً ، وكان على الأرجح عالم الاقتصاد البلشفي الأكثر فرادة . كان لينينياً منذ عام ١٩٠٤ ، وقد كتب مع بوخارين ألفباء الشيوعية ، وهو ملخص مشهور للمذهب الشيوعي . كما كان سكرتير اللجنة المركزية اللينينية، إلا أنه تخلى عن هذا المنصب وأفسح في المجال لمولوتوف حين غدا انضباط الحزب شديد الصرامة بالنسبة اليه . كان قد انتقد هذا الانضباط قبل تروتسكي ، لا بل انتقد موقف تروتسكي الداعي الى الانضباط في المؤتمر الحادي عشر ،

---

(٨) ـ قبل عام ١٩١٤ ، كان رادك قد وضع تحليلاً للتطورات الثورية في الشرق الكولونيالي وشبه الكولونيالي ، ظهر في الصحيفة البولونية برزغلاد سوسيال ـ ديموكراتيكزني ، جريدة روزا لوكسمبورغ النظرية .

(٩) ـ ك . رادك ، بورتريتي أي بامفيلتي ، ص ٢٩ ـ ٣٤ .

(١٠) ـ أنظر مراسلة تروتسكي مع رادك ، في المحفوظات ، و «رادك والمعارضة» ، في كتابات ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

منذ عام ١٩٢٢ . لكن قبل نهاية العام ذاته تقارب الرجلان . كان بريوبراجنسكي واحداً من الاشخاص النادرين الذين أسرّ تروتسكي لهم بخططه ، وروى أمامهم محادثاته الخاصة مع لينين ، وتكلم على « الكتلة » التي كان سيشكلها هو ولينين ضد ستالين . إن بريوبراجنسكي كاتب المؤلفات المهمة في التاريخ الاقتصادي ، والرجل المستحوذ على سعة معارف وذهن تحليلي نادرين للغاية ، كان قبل كل شيء بحّاثة يلاحق استدلاله دون أن يقلق لمعرفة إذا كان قد يقوده إلى استنتاجات غير شعبية إو إذا كان قد يسيء إلى موقعه في الحزب . كان فكره يعبر عن نفسه بشكل نظريات théorèmes دقيقة ومكثفة . إن كتابه **الاقتصاد الجديد** يشكل اول محاولة جدية ، لم يحدث ان تم تجاوزها ، لتطبيق « مقولات » رأس المال لماركس على الاقتصاد السوفياتي . في كل حال ، لم يُسمح لغير الجزء الذي يضم المقدمة بالصدور ، وهذا الجزء بالذات جرى حظره بعد وقت قصير والحكم عليه بالنسيان . الا ان **الاقتصاد الجديد**يبقى محطة في تاريخ الفكر الماركسي . فتحليله الحدسي لسيرورات التراكم البدائي الاشتراكي سوف يظل راهناً طالما ستبقى في العالم بلدان متخلفة تسعى للتصنيع على أساس اشتراكي . وكان الكثيرون يعتقدون ان بريوبراجنسكي ، لا تروتسكي ، هو واضع برنامج المعارضة الاقتصادي : أمّا ما هو مؤكد فهو أن بريوبراجنسكي قدم لذلك البرنامج أسسه النظرية . إلا أنه إذا كان ثمة تباينات ضمنية بين أفكاره وأفكار تروتسكي ، فهي لم تظهر ولم تحدث أي نزاع سياسي جدي قبل عام ١٩٢٨ ، اي العام الذي نفي فيه الرجلان من موسكو .

كان بياتاكوف مدير الصناعة الأكثر لفتاً للنظر في الفريق البلشفي . وإذا كان بريوبراجنسكي يقدم للمعارضة نظريات ، فقد كان بياتاكوف يضع تلك النظريات على الارض الصلبة للتجربة العملية . أما لينين فيعتبر في وصيته بياتاكوف أحد قائدَيْ الجيل الجديد الأرفع شأناً (على أساس أن الثاني هو بوخارين) ، ويرى فيه إدارياً ذا كفاءة استثنائية ، لكن كذلك رجلاً ينقصه الحكم السياسي . زد على ذلك أن هذا الضعف كان موجوداً لدى رجل المعارضة : كان بياتاكوف يشاطر المعارضة أفكارها حول السياسة الاقتصادية ، لكنه كان يبقى على الحياد بخصوص « المعارك الفكرية » ويتملص حين يتعلق الأمر بمهاجمة قيادة الحزب . مع ذلك لم يكن رجلاً جباناً ، وقبل سنوات فقط قاد مع اخيه البلاشفة في اوكرانيا حين كان يحتلها دنيكين . نظم آنذاك عمليات تخريب في مؤخرة العدو ، وخلق مجموعات أنصار ووجَّه النضال . وذات يوم ، ألقى الحراس البيض القبض على الأخوين وارسلوهما بصحبة شيوعيين آخرين إلى مفرزة الاعدام . كان الأعدام قيد التنفيذ وقد سقط شقيق بياتاكوف مجندلاً بالرصاص حين اضطر الجلادون الى الهرب امام

الحمر الذين استولوا على المدينة وكانوا في طريقهم الى مكان الاعدام . وللحال ترك بياتاكوف جثث اخيه ورفاقه الاقربين وتولى قيادة الحراس الحمر . هذا كان ماضي الرجل الذي بقي طيلة خمسة عشر عاماً لولب الجهد السوفياتي للتصنيع ومنظمه الرئيسي ، سواء داخل المعارضة أو خارجها . هكذا كان الرجل الذي سوف ينتهي الى قفص الاتهام ، « معترفاً » بأنه كان مخرّباً وخائناً وجاسوساً أجنبياً .

ومعظم قادة المعارضة الآخرين كانوا من طينة الأبطال . فبريوبراجنسكي خضع للتعذيب بالماء والنار حين قاد الحركة البلشفية السرية في الاورال خلال سنوات الثورة المضادة . وإذ أوقفته الشرطة القيصرية يوماً ، تولى كيرنسكي الدفاع عنه كمحام ، ولما كان يتوخى إنقاذ موكله ، أعلن للمحكمة أن بريوبراجنسكي لم يكن ينتسب الى اية حركة ثورية . فنهض المتهم داخل قفصه ، وشجب محاميه ونادى بقناعاته الثورية . كان على رأس البلاشفة في الأورال في عام ١٩١٧ وخلال القسم الاول من الحرب الأهلية . أمّا راكوفسكي الذي جاء ذكر نضاله الطويل والشجاع حتى عام ١٩١٤ في النبي المسلح[١١] ، فقد قاد القوات الشيوعية في بيسارابيا حيث جعل الحراس البيض ثمناً لرأسه . وعاد الى روسيا واصبح رئيس مجلس مفوضي الشعب في اوكرانيا . وليس من حاجة للتذكير هنا بدور انطونوف ـ اوفسينكو في انتفاضة أوكتوبر وفي الحرب الأهلية[١٢] . وكان مورالوف ، مثله مثل انطونوف ، واحداً من ابطال ثورة ١٩٠٥ الأسطوريين ، وفي أوكتوبر ١٩١٧ ، كان هو الذي قاد في موسكو هجوم الحراس الحمر على الكرملين . وقد تم تعيينه فيها بعد قائداً لمنطقة موسكو العسكرية ومفتشاً للجيش . ويصفه تروتسكي كـ « عملاق رائع ، مقدام بقدر ما هو طيب » . لما كان مهندساً زراعياً من حيث تكوينه ، كان يقدم بين معركة ومعركة نصائح للفلاحين ، « يجعل من نفسه معالجاً للناس وطبيباً بيطرياً للبهائم » . أما ايفان سميرنوف فقاد الجيش الذي هزم كولتشاك في سيبيريا . وكان سيريبرياكوف أحد المفوضين السياسيين الاشد نشاطاً على جبهات الحرب الاهلية . وبالنسبة لسوسنوفسكي فقد أثبت كفاءاته كمحرض في الجبهة ، وبوصفه راصداً للعادات والتقاليد وناقداً نبيهاً لها ، كان واحداً من أفضل اقلام الصحافة البلشفية .

هؤلاء الرجال ، لم يكونوا يتوصلون مؤقتاً ليميزوا بوضوح الطريق التي ينبغي ان يسلكوها ، رغم كل شجاعتهم وكل ذكائهم . وفوق كل شيء ، كانوا راغبين في البقاء

---

(١١) ـ النبي المسلح ، الفصل السابع .

(١٢) ـ انظر المرجع المذكور ، الفصول الثامن وما بعده .

داخل الحزب ، وهو ما لم يكن ممكناً إلا إذا ظلوا مخلدين الى الهدوء . كانوا يراقبون الاحداث وحركات خصومهم منتظرين الحدث الذي قد يسمح لهم بالعودة إلى مقدمة المسرح .

إذا كان تروتسكي بقي ساكناً ، إلا أنه لم يلق السلاح . وقد واصل نقده للنظام الرسمي ولسياسته عبر التعريضات والتلميحات . إن أدنى كلمة ، حتى حين كان يقولها طوعاً بطريقة غير مؤذية ، كانت تأملاً حول ما يفعله خصومه ، واكثر ايضاً حول ما يفكرون به ، وكان الأمر كذلك سواء تكلّم على فظاظة البيروقراطي الروسي ، أو على أسلوب الصحف المنحط ، أو تكلم على انطلاقة الحزب الرديئة في الميدان الثقافي . ولم يحرف انتباهه أبداً عن هذه المشكلات الكبرى للسياسة الخارجية او الداخلية ، التي كانت تقدم له مخزوناً كثيفاً من المواد للسجالات اللاحقة .

في أيار/مايو ١٩٢٥ ، بعد ما يقرب من خمسة اشهر تلت خروجه من مفوضية الحرب ، جرى تعيينه عضواً في المجلس الأعلى للاقتصاد القومي الذي كان يرأسه دزرجنسكي . كان ذلك التعيين ينطوي على شيء من السخرية الثقيلة ، فدزرجنسكي لم يكن اقتصادياً ، كما لم يكن «سياسياً » أيضاً ، والمثالثون لم يعينوا تروتسكي في منصب يكون فيه تابعاً لدزرجنسكي إلا لإذلاله . وهم حتى لم يستشيروا تروتسكي ، لكنه لم يكن يستطيع أن يرفض ، إذ حين استقال من مفوضية الحرب أعلن أنه « مستعد لتنفيذ أية مهمة يُعهد بها اليه ، تحت إشراف الحزب ، مهما تكن تلك المهمة » ، ولم يكن يسعه الإخلال بهذا التعهد . كانت اصبحت بعيدة جداً تلك الحقبة التي كان قادراً خلالها على رفض منصب نائب لينين .

في المجلس الأعلى للاقتصاد القومي ، غدا تروتسكي رئيساً لثلاث هيئات : لجنة الامتيازات ، والادارة الكهربائية ـ التقنية ، والادارة العلمية والتقنية للصناعة . كانت لجنة الامتيازات قد انشئت في أيام النيب الاولى ، حين كان لينين يأمل إعادة اجتذاب الملتزمين القدامى ومستثمرين أجانب آخرين لتسهيل الانبعاث الاقتصادي في روسيا . كانت تلك الآمال غير مجدية ، فالبلاشفة كانوا شديدي الخوف من رأس المال الاجنبي فما كان بوسعهم ان يجتذبوه ، وكان الرأسماليون الاجانب مرعوبين من البلاشفة فلم يكن بمقدورهم التعاون معهم . وهكذا كانت لجنة الامتيازات دون عمل . كان تروتسكي يستقبل احياناً ، في مكتبه القائم في فندق صغير من طابق واحد خارج الكرملين ، زائراً أجنبياً جاء يسأله إذا كان ممكناً المضي للبحث عن الذهب في سيبيريا ، أو بناء مصنع للأقلام

في روسيا .

إلّا أن تروتسكي جعل من القفص الذي أدخلوه فيه حصناً حصيناً .فبمساعدة الأمناء الذين عملوا في قطاره العسكري خلال الحرب الأهلية ، فتح تحقيقاً حول وضع الامتيازات وتجارة روسيا الخارجية ، وهو ما دفعه الى دراسة أكلاف الانتاج الصناعي في روسيا وفي الخارج وإلى وضع دراسات مقارنة لانتاجية العمل في روسيا وفي الغرب . وقد أبرز التحقيق بصورة فجة تخلف البلاد الصناعي ، أظهر أن انتاجية العمل في روسيا لم تكن تصل إلى ابعد من عشر انتاجية العمل في اميركا . سلط الأضواء ، بواسطة خرائط توضيحية ورسوم بيانية ، على فقر التجهيز الصناعي الروسي . ففي حين كانت الولايات المتحدة تمتلك ١٤ مليون هاتف وبريطانيا العظمى مليوناً ، لم يكن في الاتحاد السوفيات اكثر من ١٩٠ الفاً . كانت شبكة السكك الحديدية تغطي فيه ٦٩ الف كم . بينما تغطي في الولايات المتحدة ٤٠٥ آلاف من الكيلومترات . كان استهلاك الفرد للكهرباء يعادل ٢٠ كيلووات ، بينما يبلغ في الولايات المتحدة ٥٠٠ كيلووات(١٣) .

كانت تلك وقائع لا جدال فيها ، إلا أن نشرها أحدث نوعاً من الصدمة . شدّد ناطقون رسميون ، بغرور ، على تقدم الصناعة الروسية منذ الحرب الأهلية ، أي الحقبة التي كان الانتاج يقارب فيها الصفر . او كانوا يقارنون الانتاج الحالي بانتاج عام ١٩١٣ ويهنئون أنفسهم على النتائج المسجلة . اجاب تروتسكي بأن مقاييس المقارنة تلك أصبحت لاغية ، وبأن ثمة حاجة الى مقاييس أخرى ، وبأنه ينبغي تقدير تطورات السنوات الاخيرة على اساس مستوى الغرب الصناعي لا بالنسبة للتخلف القومي(١٤) . لن يمكن الامة أن تنهض إلا إذا كانت لديها معرفة واضحة تماماً للمستوى المنخفض الذي تنطلق منه . « غالباً ما يقال إننا نعمل«تقريباً » كالالمان ، أو « تقريباً » كالفرنسيين . لديّ استعداد لإعلان حرب مقدسة على هذه الكلمة « تقريباً » . تقريباً لا تعني شيئاً . . علينا أن نقارن تكاليف الانتاج ، علينا تحديد ما يكلفه زوج احذية هنا وفي الخارج ، علينا مقارنة نوعية المنتجات ، والوقت الذي يتطلبه الانتاج ، عند ذلك فقط سيكون بإمكاننا القيام بمقارنات مع البلدان الاجنبية » .(١٥) « ينبغي ألا نكون متأخرين بالنسبة للآخرين . . شعارنا

---

(١٣) - سوش ، ج ٢١ ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(١٤) - المرجع ذاته ، ج ٢١ ، ص ٤٤ - ٤٥ . انظر خطاب تروتسكي في ٧ كانون الاول/ديسمبر ١٩٢٥ . طيلة الجزء الاكبر من الحقبة الستالينية ، تجنب الدعاويون الرسميون القيام بمقارنات بين روسيا والغرب .

(١٥) - المرجع ذاته ، ص ٣٩٧ - ٤٠٥ .

الاول والأساسي . . . هو ألا نكون متأخرين . نعم ، نحن في غاية التأخر عن البلدان الرأسمالية المتقدمة . . . » .

حين أطلق تروتسكي هذا الشعار ـ « علينا ألا نكون متأخرين » ـ كان يتقدم ستالين بعدة سنوات . لكن خلافاً لهذا الأخير ، كان يبذل جهده لفتح اعين روسيا على التأخر الشاسع الذي ينبغي تجاوزه . لقد فهم أن ذلك مستحيل من دون مخاطر سياسية : يمكن معرفةً واقعية بفقر روسيا ، وتقديراً لكامل بؤسها ، أن يحدثا الاستخفاف واليأس . وحين انخرط ستالين في عملية التصنيع فضل ان يخفي عن اعين الجماهير القفزة المخيفة والجهود الخارقة التي كانت مطالبة بها . أما تروتسكي فكان يثق بشجاعة الشعب ونضجه . « لا نخدعنّ انفسنا ، ولا يأخذنا الخوف أيضاً . لكن فلنحفر هذه الارقام في ذاكرتنا : علينا ان نقوم بهذه القياسات وتلك المقارنات للحاق بالغرب مهما كان الثمن ولتخطيه(١٦) . » هكذا برز تروتسكي فوق التفاصيل التقنية الصغيرة التي اراد المثالثون ان يدفنوه تحتها ، عرف انطلاقاً من تلك التفاصيل أن يعثر من جديد على الطريق التي تؤدي الى المشكلة الاساسية الخاصة بالسياسة ، واستعاد النداء الى التصنيع الذي كان اطلقه في عامي ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ .

وكرئيس للادارة الكهربائية ـ التقنية ، انخرط تروتسكي عميقاً في مشكلات الكهربة . جاب البلاد في جميع الاتجاهات ودرس الموارد ، وتفحص خططاً لمصانع كهربائية ، بحث لها عن مواقع وحرر تقارير . وبعد عودته من احدى الجولات ، طلب الى المكتب السياسي تبني مشروع لاستخدام شلالات الدنيبير ، وهو مشروع سوف يشتهر باسم دنيبرو ستروي ، وكان أحد فتوحات البناء الصناعي السوفياتي في العقد التالي . حين عرض تروتسكي المشروع للمرة الاولى على المكتب السياسي ، في بداية عام ١٩٢٦ ، لم يعره هذا الاخير اي اهتمام . لاحظ ستالين انه ليس لمصنع كهربائي فائدة لروسيا تفوق فائدة حاكٍ لفلاح لا يمتلك حتى بقرة(١٧) . عندئذ طرح تروتسكي الصوت على حماس الشبيبة وخيالها . هوذا مقطع من خطاب موجه الى الكومسومولات .

« لقد دشنّا قبل قليل معمل شاتورا الكهربائي ، إحدى أفضل منشآتنا الصناعية ، المنية على خُثّة . ولا تبعد شاتودا عن موسكو إلا أكثر بقليل من مئة

---

(١٦) ـ سوش ، ج ٢١ ، ص ٤١٩ .

(١٧) ـ اورد تروتسكي تصريح ستالين كلمة كلمة ، هذا التصريح الموجود في محضر جلسة نيسان/ابريل ١٩٢٦ للجنة المركزية . انظر « تصريح تروتسكي الشخصي » في ١٤ نيسان/ابريل ١٩٢٧ ، في المحفوظات .

كيلومتر . على مرمى حجر ـ إذا شئتم ـ ومع ذلك ثمة هوة بينهما . موسكو هي عاصمة الامية الشيوعية . ابتعدوا عنها عشرات الكيلومترات ، فإذا أنتم أمام الطبيعة البرية ، والثلج والصنوبر والوحل المتجمد والحيوانات المفترسة قرى من الاكواخ الخشبية ، ترقد تحت الثلوج ، يمكن أن يلاحظ المرء من القطار آثار خطى الذئاب على الثلج ، وحيث تقوم اليوم محطة شاتورا لتوليد الكهرباء ، كانت حيوانات العلند تشرد قبل سنوات . أما اليوم فثمة أعمدة معدنية أنيقة على طول الطريق الى موسكو . . وتحت تلك الاعمدة ، سوف تقود بنات آوى وإناث الذئاب صغارها الى الربيع القادم . تلك هي كل حضارتنا ، المصنوعة من الأطراف والتناقضات : نجاحات قصوى للتقنية ، استدلال معمّم ، توحش سيبيريا البدائي .

« تقوم شاتورا على مستنقعات : لدينا الكثير من المستنقعات ، اكثر بكثير مما هنالك من محطات توليد الكهرباء . لدينا الكثير من المصادر الاخرى للمحروقات التي تنتظر تحويلها الى طاقة . في الجنوب ، يجتاز الدنيبير أغنى منطقة صناعية ، ويبذر قدرته الهائلة باللعب على منحدرات ألفية . إنه لا ينتظر غير أن نتحكم بجريانه وندجنه بواسطة سدود ونجبره على تقديم نوره للمدن ، وتغذية المصانع بالتيار الكهربائي ، واغناء الزرع . سوف نتمكن من إجباره على ذلك »(١٨) .

بالطبع لم يكن التصنيع هدفاً بحد ذاته ، لم يكن غير جزء من « النضال لأجل الاشتراكية التي يرتبط بها كل مستقبل حضارتنا بشكل وثيق » . ومن جديد ، ردد تروتسكي ، على نقيض ستالين السنوات اللاحقة ، أنه إذا كان الاتحاد السوفياتي سيحاول اللحاق بالغرب ، سيكون عليه ألّا ينعزل عنه . كان تروتسكي قد دافع بحزم عن احتكار التجارة الخارجية وأطلق فكرة « حمائية اشتراكية » ، لكن لم يكن من الواجب أن تستهدف تلك الحمائية قطع الصناعة الاشتراكية عن الاقتصاد العالمي وأن ينتج عنها ذلك . بل كان يجب على العكس ان تسمح لها بأن تنسج معه روابط وثيقة ومتعددة . لا شك ان « السوق العالمية » قد تضغط على الاقتصاد الاشتراكي الروسي وتخضعه لامتحانات قاسية لا بل خطيرة ، إلا أن تلك الامتحانات كانت محتومة ، وكان ينبغي

---

(١٨) ـ سوش . ، ج ٢١ ، ص ٤٣٧ .

مواجهتها بجسارة . إن الأخطار التي قد تترتب بالنسبة للاقتصاد الاشتراكي نتيجة للاحتكاك بالاقتصاد الرأسمالي الاكثر تقدماً يمكن أن تعوضها المنافع الحاسمة التي قد يستحصل عليها من القسمة العالمية للعمل ومن استيعاب آخر تطورات التقنية الغربية . ولو حصل تطور روسيا الاقتصادي في الانعزال ، فقد يفقد توازنه ويتأخر . وإذ كان تروتسكي يتكلم هكذا كان يضع نفسه مرة اخرى في صراع ضمني مع الفكر الاقتصادي الرسمي الذي كان قد بدأ يعلن ان الأمة تكفي نفسها بنفسها : كانت الاشتراكية في بلد واحد تفترض مسبقاً اقتصاداً سوفياتياً مغلقاً . كان تروتسكي يهاجم هكذا المقدمات الجوهرية للمذهب الستاليني حتى قبل أن تُفتتح المساجلة بشأنه .

بعد هزيمة عام ١٩٢٣ في المانيا ، اجتهد تروتسكي لكي يستدرك الوضع العالمي ومنظورات الشيوعية . أما الكومنترن ، المهتمة بإنقاذ ماء الوجه ، فقد بشرت بوضع ثوري جديد في المانيا وشجعت السياسات « اليسارية المتطرفة »[١٩] . وحين شكل رامسي ماكدونالد في بداية عام ١٩٢٤ حكومة العمال الأولى في انكلترا ، وحين اصبح هيريو ، قائد « كارتل اليسار » ، رئيساً للمجلس ، رأى بعض القادة الشيوعيين في تلك الحكومات « انظمة على طريقه كيرنسكي » ستفتح الطريق الى الثورة . لكن تروتسكي ، الذي هاجم ما في تلك الاستنتاجات من تزوير وبطلان، اجاب بضرورة «تمييز مد الثورة من جزرها» ، وبأن الطبقة العاملة الالمانية ستحتاج لوقت طويل كي تنهض من كبوتها ، وبأنه لا ينبغي انتظار تطورات ثورية سريعة في فرنسا وبريطانيا .

لكنه أكد مع ذلك بأن العالم الرأسمالي كان عاجزاً عن استعادة استقرار قابل للدوام . قال تروتسكي إن العامل الوحيد والحاسم في عدم استقراره والمشكلة الأساسية للسياسة العالمية ، يكمنان في صعود الولايات المتحدة . لم يتوقف في عامي ١٩٢٤ و١٩٢٥ عن تحليل توسع الولايات المتحدة الاقتصادي وانعكاساته العالمية . اكد جازماً ان الولايات المتحدة قد تصبح في القريب القوة العالمية الأولى ، وأنها ربما تدخلت في شؤون القارات كافة ، وقد تركز شبكات قواعدها البحرية والعسكرية في كل المحيطات . صاغ استنتاجاته بشدة وثقة بحيث بدت مغالى بها في تلك الفترة (العشرينات) . كانت تلك فترة « خطة داوس Dawes » ، والتدخل الخجول نسبياً والاختباري حتى ذلك الحين من جانب اميركا في الشؤون الاوروبية ، الذي تبعه السقوط مجدداً بعد عام ١٩٢٩ في الانعزالية طيلة عشر

(١٩) ـ انظر خطاب زينوفييف في المؤتمر الخامس للكومنترن (بياتي فسيميرني كونغرس كوم . انترناتسيونالا) ، ص ٦٤ وما بعدها ، انظر تصريحات فيشر ، المرجع ذاته ، ص ١٧٥ ـ ١٩٢ .

سنوات . ان توسع القدرة الاميركية في العالم اجمع ، الذي تنبأ به تروتسكي ، كان لا يزال في طوره الجنيني . لكن تروتسكي استشف الكائن الراشد في الجنين ، كما فعل غالباً . كانت هنالك اسس التوسع الاميركي ، فدخل الولايات المتحدة القومي كان اكبر من دخل بريطانيا وفرنسا والمانيا واليابان مجتمعة مرتين ونصف مرة . كان صعود الولايات المتحدة يترافق مع افتقار اوروبا و «بلقنتها» وافولها . لذا استنتج تروتسكي : «إن التفوق الذي حازته بريطانيا تجاه اوروبا ، في ذروة قوتها ، تافه إذا قيس بالتفوق الذي حازته اميركا تجاه العالم بأكمله ، بما فيه بريطانيا العظمى[٢٠] » .

لا شك أن الطبقات الحاكمة في اوروبا واميركا أبطأت في ادراك كل الاهمية التي كان ينطوي عليها هذا التبدل : كان وعيها متأخراً بالنسبة للأحداث . « إن اميركا تبدأ فقط في إدراك اهميتها العالمية . . . لم تتعلم اميركا بعد أن تجعل سيطرتها فعلية . لكنها سوف تتعلم الآن ان تفعل ذلك ، وستفعله على لحم اوروبا وعظامها[٢١] » . إن انعزاليي اميركا وذوي النزعة السلمية فيها ، الذين يمدون جذورهم في الجغرافيا والتاريخ ، يكبحون التوسع ، لكنهم سيخضعون بالضرورة أمام دينامية الوقائع الجديدة . ستجد الولايات المتحدة نفسها مدفوعة لتضطلع بقيادة العالم الرأسمالي . إن الحاجة إلى التوسع ملازمة لاقتصادها وكون مستقبل الرأسمالية الاوروبية يتوقف على المساعدة الاميركية يزيد من حدة ذلك . ثم قام تروتسكي عندئذ بذلك التوقع المشهور والمتنازع فيه بحرارة الذي كان يرى ان الولايات المتحدة « ستجعل من اوروبا عالة على اميركا » ثم تخضعها فيما بعد لارادتها . وبعد أن اخذت الولايات المتحدة مكانة انكلترا كمصر في العالم وصناعيّة، تقوم كذلك بالتفوق عليها كقوة بحرية واستعمارية اولى في العالم[٢٢] . لهذا السبب ، لا ادنى حاجة لاميركا لإرباك نفسها بالمستعمرات التي غالباً ما كانت بالنسبة للامبريالية البريطانية ثقلاً على كاهلها بقدر ما شكلت مصدر ثروات بالنسبة لها . « ستجد اميركا دائماً ما يكفي من الحلفاء والداعمين لها في العالم (تجد الأمة الأقوى دائماً منهم) ، وبفضل هؤلاء الحلفاء ستحصل على القواعد البحرية الضرورية[٢٣]». ينتج عن ذلك « أننا ندخل في حقبة توسع عدواني للعسكرية الاميركية[٢٤] » .

---

(٢٠) - اوروبا واميركا ، ص ٢٢ .

٢١ - المرجع ذاته ، ص ٣٦ .

(٢٢) - في مؤتمر واشنطن البحري عام ١٩٢٢ ، كانت بريطانيا تخلت عن الاشكال التقليدية للهيمنة البحرية البريطانية .

(٢٣) - اوروبا واميركا ، ص ٤٢ .

(٢٤) - انظر خطاب تروتسكي في ٢٥ تشرين الاول/ اوكتوبر١٩٢٥، المنشور في البرافدا في ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٥ .

كان تروتسكي يجيب اولئك الذين كانوا لا يزالون يعتقدون بقوة الانعزالية والنزعة السلمية الاميركيتين فبقوا متشككين حيال هذه الصورة ، أجاب بأن الولايات المتحدة تتقفى أثر المانيا . فأميركا ، مثل المانيا - لكن أقوى منها بما لا يقاس - هي صغيرة اسرة الامم الصناعية الكبرى . « أمن زمن طويل كنا نعتبر الالمان اناساً يحلمون بالنجوم والمانيا «امة شعراء ومفكرين » ؟ مع ذلك عدة عقود من التطور الرأسمالي كفت لتجعل من البورجوازية الالمانية » تجسيداً لأكثر الامبرياليات فظاظة . ستكون ثمة حاجة لوقت اقل بكثير لتقوم الولايات المتحدة بتحول مماثل . عبثاً يعزي سادة انكلترا انفسهم بقولهم إنهم سيغدون الاوصياء الدبلوماسيين والسياسيين على الاميركيين غير المجربين . ربما سيكون ذلك دورهم ، إلا انه لن يمتد اكثر من فترة قصيرة ، إلى ان يكون الاميركيون تعلموا فنون الامبريالية واكتسبوا ثقة بالذات . ستكون الكلمة الاخيرة لوزن القوة الاميركية . ومنذ اليوم ، يتفوق « اليانكي المفتقر الى الخبرة » تفوقاً واضحاً على الامبريالي الانكليزي الدقيق والمتصنع : يمكنه السماح لنفسه بالتشبه بمحرر الشعوب المستعمرة في آسيا وأفريقيا ، عن طريق مساعدة الهنود والمصريين والعرب على التحرر من الاضطهاد الانكليزي . والعالم يعتقد هكذا بنزعته السلمية وبشهامته .

لكن ليس في استطاعة اميركا وقف انحدار اوروبا البورجوازية ، فالرجحان الاميركي هو بحد ذاته مصدر انعدام استقرار بالنسبة لألمانيا وفرنسا وانكلترا ، لأن القوة الاميركية تتزايد بشكل اساسي على حساب هذه البلدان . إن انعدام التوازن الاقتصادي بين اوروبا واميركا سيعكس نفسه في تجارتها وميزانيها التجاري ، في الأزمات المالية وتشنجات كامل النظام الرأسمالي . وليست الولايات المتحدة بمنجى من ذلك : كلما زادت تبعية العالم لأميركا كلما زادت تبعية اميركا للعالم ووجدت نفسها معنية بالخواء الذي يهدد العالم .

والخلاصة ؟ « ليس للبلشفية عدو أكبر وألد من الرأسمالية الاميركية .(٢٥) » «إنهما القوتان الاساسيتان والمتضادتان في عصرنا » . في أي مكان تتقدم الشيوعية ، ستصطدم بالحواجز التي تنصبها الرأسمالية الأميركية ؛ وفي كل اجزاء العالم التي تسعى الولايات المتحدة للانغراس فيها ، سيكون عليها أن تواجه تهديد الثورة البروليتارية : « . . . إذا دخل رأس المال الأميركي إلى الصين ، حين سيدخل اليها . . . سيلاحظ ان الجماهير

(٢٥) - أوروبا واميركا ، ص ٤٧ . يروي تروتسكي انه بعد ثورة اوكتوبر بقليل قال للينين ، نصف مازح ، إن اسمين هما « النقيضان الرؤ يويّان في عصرنا » ، اسمي لينين وويلسون » .

الصينية قد تبنت ، لا ديانة الولاء لأميركا ، بل البرنامج السياسي للبلشفية مترجماً الى الصينية » .

في هذه المبارزة بين العمالقة ، تستحوذ الرأسمالية الأميركية على كل الامتيازات المادية ، لكن البلشفية ستدخل مدرسة اميركا وتستوعب تقنيتها الراقية . سيجد البلاشفة للوصول الى ذلك صعوبات اقل من تلك التي سيواجهها الاميركيون وهم يحاولون جعل العالم اسير الحاجة الى اميركا . « سوف تنتصر البلشفية المتأمركة وتهزم الأميركانية الإمبريالية »[٢٦] . ستتمكن الولايات المتحدة من التشبه بمحرر الشعوب المستعمرة ومن المساهمة بذلك في تفكيك الامبراطورية البريطانية ، لكنها لن تنجح في إرساء هيمنتها على الشعوب الملونة . كما لن تنجح في أن تطرد الشيوعية نهائياً من اوروبا .

« علينا ألا نبخس ، بأي شكل من الاشكال ، تقدير قوة الولايات المتحدة . إذ ندرس منظورات الثورة ننطلق من فهم واضح للوقائع . . . مع ذلك ، نرى أن القدرة الاميركية هي ذاتها . . . اكبر رافعة للثورة الاوروبية . علينا ألا نهمل واقع ان هذه الرافعة ستتحرك ، سياسياً وعسكرياً ، بقوة رهيبة ضد الثورة الاوروبية . . . نعرف أن رأس المال الأميركي سوف يبدي نشاطاً لا مثيل له للدفاع عن نفسه، ما أن يصبح وجوده في الميزان. إن كل ما علمنا إياه التاريخ وتجربتنا بصدد صراع الطبقات صاحبة الامتيازات من أجل سيطرتها يمكن ان يبدو تافهاً إذا قيس بالعنف الذي سيطلقه رأس المال الاميركي ضد اوروبا الثورية »[٢٧] .

يقول تروتسكي : كيف ستتمكن الشيوعية إذاً من المقاومة ؟ لا ينبغي انتظار أن يحدث صدام « القوتين الاساسيتين والمتضادتين » طالما لا تقوم الشيوعية إلا على الحدود الشرقية لاوروبا وفي بعض مناطق آسيا . لقد كان تروتسكي ينتظر الثورة ، كما دائماً ، من اوروبا الغربية ؛ وكان مقتنعاً بأن شعوب القارة ستضطر لتشكيل « الولايات المتحدة الاوروبية » كي تقاوم هجمات اميركا وحصارها .

«نحن ، شعوب روسيا القيصرية ، قاومنا الحصار والحرب الاهلية طوال سنوات . كان علينا أن نتحمل البؤس والحرمانات والفقر والأوبئة . . . إن تأخرنا ذاته هو الذي غدا ميزتنا الاولى . لقد تمكنت الثورة من الصمود لأنها

(٢٦) ـ اوروبا واميركا ، ص ٤٩ .
(٢٧) ـ المرجع ذاته ، ص ٩١ .

استندت إلى مؤخرتنا الريفية الشاسعة . . . أما بالنسبة لأوروبا المصنعة ، فسوف تختلف الامور كثيراً . إن اوروبا منقسمة لن تكون قادرة على الصمود ، والثورة البروليتارية تتطلب توحيد اوروبا . إن الاقتصاديين البورجوازيين ، وذوي النزعة السلمية ، والمستفيدين ، والنزقين واصحاب الاوهام يحبون ان يثرثروا بشأن الولايات المتحدة الاوروبية ، لكن البورجوازية المنقسمة على نفسها عاجزة عن خلقها . والطبقة العاملة الظافرة ، وحدها ، ستكون قادرة على توحيد اوروبا . . . وفي اوروبا الاشتراكية ، سنلعب دور جسر يصلنا بآسيا . . إن الولايات المتحدة لأوروبا الاشتراكية واتحادنا السوفياتي سيمارسان جاذبية خارقة على شعوب آسيا . . والكتلة العملاقة لأمم اوروبا وآسيا ، المبنية على اسس لا تتزعزع ، سوف تجابه عند ذلك الولايات المتحدة(٢٨) . »

لقد تعرض منظور صراع طبقات عام وشامل لنقد قاس وجرى النظر اليه كنزق صرف(٢٩) . لا شك ان تروتسكي كان يولي اهمية مبالغاً بها لما لم يكن غير احد اتجاهات السياسة العالمية . فخلال العقدين اللاحقين ، انتصرت اتجاهات اخرى : من جديد عرفت الولايات المتحدة وروسيا حقبة انعزال نسبي ؛ غدت اوروبا ، والرايخ الثالث في القلب منها ، مركز الهياج العالمي مرة اخرى . جعلت فتوحات هتلر واخطار السيطرة النازية من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي حليفين مؤقتين . لكن علينا تذكر أن تروتسكي قدم هذا التحليل غداة معاهدة فرساي ، في حقبة كانت المانيا لا تزال فيها منهمكة خائرة القوى ، وكان هتلر لا يزال خلالها مغامراً ريفياً مغموراً والقوة العسكرية الالمانية عاجزة عن فرض نفسها . لم تحصل غير مقدمة خجول للصراع بين الكتلتين الذي لن يخرج الى النور الا بعد الحرب العالمية الثانية . لكن تلك المقدمة كانت كافية ليستشف تروتسكي مسار الدراما الحقيقية وحبكتها وموضوعها . وقد سبق عصره لدرجة ان توقعاته لا تزال تنتظر في جزء كبير منها ، بعد مرور ثلاثين عاماً ، مصادقة الاحداث . لكن الكثير منها تبيَّنت صحته ، بحيث من العنت رفضها بشكل اجمالي كما لو كانت أوهاماً صرفة .

---

(٢٨) - اوروبا واميركا ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٢٩) - ينبغي ان نتذكر ان تروتسكي ولينين ، كليهما ، تكلما لصالح الولايات المتحدة لاوروبا الاشتراكية منذ بداية الحرب العالمية الاولى (انظر النبي المسلح) . كان هذا الشعار لا يزال يظهر في بيان المؤتمر الخامس للكومنترن ، هذا البيان الذي كتبه تروتسكي عام ١٩٢٤ . إلا انه بعد ذلك بقليل ، نبذت الكومنترن شعار الولايات المتحدة لأوروبا الاشتراكية وحتى فكرتها على أساس أن تلك نزوة تروتسكية .

على الخلفية العامة للعلاقات الجديدة بين اوروبا وأميركا ، رسم تروتسكي لوحة اكثر تفصيلاً للآفاق المستقبلية لبلد محدد في إلى أين تمضي انكلترا ؟ كتب هذا المؤلف في بداية عام ١٩٢٥ في الفترة بالذات التي بدأت تعلق فيها موسكو اهمية كبرى على الرابط الجديد الذي كان ينشأ بين النقابات الانكليزية والسوفياتية . في شهر تشرين الثاني / نوفمبر السابق ، كانت بعثة يقودها أ . أ . بورسل ، سكرتير كونفدرالية النقابات الانكليزية ، أعلنت بصورة احتفالية ، خلال زيارة قامت بها الى العاصمة السوفياتية ، صداقتها وتضامنها حيال الثورة الروسية . وقد سارع القادة السوفياتيون الى إجابته ، آملين أن يكونوا وجدوا حلفاء أقوياء في بورسل وكوك وقادة يساريين آخرين انتخبتهم النقابات الانكليزية حديثاً . كانوا عاقدين العزم على تنمية تلك «الصداقة» الجديدة لا سيما أن الحزب الشيوعي الانكليزي كان ضعيفاً وهزيلاً . كانت سياسة الكومنترن اليسارية المتطرفة في مأزق ، وكان ينبغي استبدالها بسياسة أكثر اعتدالاً واشد مرانة . جرى التساؤ ل إذا لم يكن على الثورة أن «تدخل إلى بريطانيا من باب النقابات» بدل ان تدخل عبر «المعبر الضيق للحزب الشيوعي» . في أيار/مايو ـ كان تروتسكي أنجز للتوّ كتابه ـ ، قاد تومسكي البعثة السوفياتية الى المؤتمر السنوي للنقابات الانكليزية ، وأنشأ ، بمباركة من المكتب السياسي ، المجلس النقابي الانكليزي ـ السوفياتي الذي سيلعب في السنة اللاحقة دوراً مهماً في المساجلة داخل الحزب .

يقول تروتسكي في كتابه إن بريطانيا تتجه نحو أزمة اجتماعية عظيمة الاتساع . إن التفوق الاميركي ، وقدم التجهيز الصناعي الانكليزي ، والتوترات والصعوبات داخل الامبراطورية البريطانية ، كل شيء كان يتوحد في الاخير لتهيئة تلك الأزمة . كانت بريطانيا خرجت من الحرب العالمية الاولى منتصرة ، لكن مدمّاة ومنهكة . كان انتصارها يخفي ضعفها ، لكن ليس لزمن طويل .وكانت الحكومات الانكليزية تعلن عن نوايا تعاون مع الولايات المتحدة ، لكن الحقيقي كان التنازع العنيد بين البلدين . كان الانكليز يرون سيطرتهم المالية وامتيازاتهم التجارية وتفوقهم البحري تنتزع منهم «سلمياً» ؛ لكن ما كان بإمكانهم الاستمرار إلى لا انتهاء على تلك الطريق التي ، وفقاً لتروتسكي ، ما كان يمكن أن تنفذ إلا الى صراع مسلح . وإن تفكك الامبراطورية البريطانية ، الذي كانت خسارة السيادة على البحار ويقظة الشعوب المستعمرة تجعلانه امراً محتوماً ، قد لا يبقى كامناً لزمن طويل . كانت انكلترا قد خسرت ميزاتها الاستراتيجية كجزيرة في البحر فمنذ عام ١٩١٨ كان نظام معاهدة فرساي وتقطيع اوصال الاقتصاد الالماني قد أخفيا الدونية الصناعية لانكلترا حيال المانيا . إلا أن المانيا ، تدعمها الولايات المتحدة ، كانت تستعيد قواها بسرعة . كانت قد عادت فظهرت كالمنافسة الأكثر مباشرة والأكثر خطورة بالنسبة

لانكلترا ، مزعزعة ميزانها التجاري وتوازنها المالي ، ومفاقمة كل عناصر ضعفها . وقد استنتج تروتسكي إن كل ذلك يسمح بتوقع تواترات خطيرة انكليزية ـ اميركية ، وتهديدات بالحرب ، وبانفجار عنيف لصراع الطبقات ، لا بل بإرساء وضع ثوري في الجزر البريطانية .

إن صحة تحليل تروتسكي ، مثلها مثل أخطائه في المنظورات ، تبدو لنا في نظرة الى الوراء بوضوح شديد . لم يكن تروتسكي يتصور أن بإمكان انكلترا أن تتجنب نزاعاً مسلحاً مع الولايات المتحدة ، مع أنه برهن ، من جانبه ، بصورة مقنعة على ان نزاعاً كهذا قد يكون بالنسبة للبورجوازية الانكليزية جنوناً مدمراً للذات . ربما كان تروتسكي اول من فهم كل نتائج تفوق اميركا الجديد إلا أنه كان لا يزال في تصوره للامبراطورية الانكليزية شيء ما شبه فيكتوري او شبه ادواردي(*) : ما كان بإمكانه ان يتصوّر ان الانكليز سيسمحون بأن تنتزع الولايات المتحدة منهم تفوقهم « سلمياً » و « كلياً » . كان يرى أن أفول المقدرة الانكليزية ربما سيصاحبه انهيار كارثي ؛ لم يكن يتخيل أنه يمكن أن يكون تلك السيرورة البطيئة والطويلة ، ذلك المرض المزمن كما حصل بالفعل .

رغم أخطاء إلى أين تمضي انكلترا على صعيد التشخيصات يبقى التحليل النقدي الاول ، أو بالأحرى الوحيد لصالح الثورة البروليتارية والشيوعية في انكلترا الذي تم وضعه في يوم من الايام . يهاجم تروتسكي فيه الاشتراكية الفابيانية ومذهبها القائل بـ « حتمية التطور التدريجي » ، وهو هجوم لم تستطع الفابيانية أن تنهض إثره على المستوى النظري لزمن طويل(٣٠) . فبضربات سريعة وعنيفة ، جردها من ادعاآتها الاشتراكية وعرّى خضوعها للتقاليد الليبرالية والمحافظة ،وتعفناتها ، وتزمتها ، وغرابتها المحلية ، وتجريبيتها الضيقة ، ونفاقها السلموي ، وعجرفتها القومية ، وتنفجها وخنوعها تجاه الرأي المسيطر ، وبُدّيّتها fétichisme حيال الدين والملكية والامبراطورية ، وباختصار ، كل الصفات التي كانت تجعل ماكدونالد وتوماس وآل سناودن وكل القادة العماليين الآخرين في ذلك الحين عاجزين عن ترؤس حركة اشتراكية مناضلة حقاً ، والتي كانت تجعل منهم خصوماً للثورة ، مغتبطين بالانتفاع من ثمرة النضالات الماضية لكن مرتجفين هلعاً وجبناء إزاء كل نزاع وكل هزة جديدين . كان تروتسكي يعلن عن قناعته بأنهم ، في الأزمة

(*) ـ نسبة إلى مرحلة الملكة فيكتوريا ومرحلة الملك ادوارد (م) .

(٣٠) ـ كتب ناقد اميركي في الـ بالتيمور صن في ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ ان العالم لم يسمع بشيء يماثل شتائم تروتسكي الكاوية منذ لوثر .

القادمة ، يعتبرون ان واجبهم الأول هو إبقاء الطبقة العاملة مكبلة فكرياً ، ومنزوعة السلاح معنوياً وعاجزة عن العمل .

إن قساوة تحليله التي لا هوادة فيها كانت تدخل المرح اليها الدعابةُ التي جبلت بها ، لكن ذلك لم يكن ليلطفها كثيراً :

« إن محبي الحمائم الانكليز قد استحصلوا بواسطة الاصطفاء الاصطناعي على انواع خاصة من الحمائم لها منقار لا ينفك ينحف . لكن تأتي اللحظة التي يغدو فيها منقار سلالة جديدة من الصغر لدرجة أن المخلوق البائس لا يعود قادراً على كسر قشرة البيضة ، وتموت الحمامة الصغيرة ضحية رفض النشاطات الثورية القسري . عندئذ يوضع حد لكل تطور لاحق للأنواع ذات المناقير القصيرة . وإذا كانت ذاكرتنا لا تخوننا فسيجد ماكدونالد هذا لدى داروين . وإذا تم تبني نوع القياس الذي يفضله ماكدونالد ، او المماثلات مع العالم العضوي ، يمكن القول إن فن البورجوازية الانكليزية السياسي يكمن في تقصير منقار البروليتاريا الثوري ، وبذلك منعها من كسر قشرة الدولة الرأسمالية . إن منقار البروليتاريا هو حزبها ، وإذا تأملنا ماكدونالد وتوماس والسيد والسيدة سناودن علينا الاعتراف بأن جهود البورجوازية من اجل انتاج مناقير قصيرة مناقير رخوة قد تتوجت بنجاحات باهرة[٣١] . . . »

كانت المدرسة الفابيانية تعتز بتقاليدها الانكليزية الأصيلة ، التي كانت ترفض تزويرها عن طريق مزجها بالماركسية الغربية . اجاب تروتسكي بأن الفابيانيين لم يكونوا يُعنون من التقاليد القومية إلا بالعناصر المحافظة ، وبأنهم كانوا يهملون اتجاهاتها التقدمية أو يقمعونها .

« لم يرث آل ماكدونالد من البوريتانية قوتها الثورية بل مسبقاتها الدينية . ومن الآونيين ، لم يتبنوا الحميّة الشيوعية بل العداء الطوباوي حيال صراع الطبقات . ولم يستعر الفابيانيون من تاريخ انكلترا الا التبعية الثقافية للبروليتاريا حيال البورجوازية . لقد ابدى التاريخ قفاه لهؤلاء السادة والذي قرأوه فيه غدا برنامجهم[٣٢] . »

استعرض تروتسكي ، متوجهاً نحو الشبيبة الماركسية ، التراثين الثوريين

(٣١) - الى أين تمضي انكلترا ، ص ٦٧ .

(٣٢) - المرجع ذاته ، ص ٤٧ .

الانكليزيين العظيمين ، الكرومويلي والشارتي. بالنسبة لتروتسكي ، فالبوريتانيون ، بثيابهم التوراتية الرثة ، كانوا في الجوهر مجددين ، على الصعيد السياسي ، مكافحين ، كانوا المدافعين عن مصالح طبقية خاصة ، عند منتصف الطريق بين الإصلاح الالماني بفلسفته الدينية والثورة الفرنسية بإيديولوجيتها العلمانية . كان لوثرورو بسبير يلتقيان في كرومويل[٣٣] . لا شك أن شخصية كرومويل قد تكون اليوم في غير زمنها بجزء كبير منها ، لا سيما بتزمتها ، إلا أنه يبقى الى الآن معلماً كبيراً للثورة يمكن للشيوعيين الانكليز أن يحصلوا لديه على تمرين مفيد . ففي حكم تروتسكي على آمر الرؤ وس المستديرة نستشف نوعاً من التعاطف الثوري : « . . . يستحيل ألا تصدم المرء بعض الملامح التي تشد جيش كرومويل بروابط القربى الى الجيش الاحمر . . . كان محاربو كرومويل يعتبرون انفسهم اولاً كبوريتانيين ، ثم فيما بعد فقط كجنود ، مثلما يعتبر مقاتلونا انفسهم ثوريين وشيوعيين قبل ان يكونوا جنوداً . »[٣٤]مهما يكن كرومويل قليل الاحترام للبرلمان ، إلا أنه فتح الطريق الى البرلمانية والى الديمقراطية الانكليزية . هذا « الأسد الميت من القرن السابع عشر » ، هذا الباني مجتمعاً جديداً ـ يقول تروتسكي ـ هو اليوم اكثر راهنية ، سياسياً ، من عدد كبير من الكلاب الحية في الوجار الفابياني . كان يمكن ان يقال الشيء ذاته بصدد الشارتية : ربما تعود الحركة العمالية الانكليزية الى ميراثها مذ تكون فقدت ايمانها بسحر « التقدم التدريجي » . كانت الشعارات ومناهج العمل الشارتية تبقى مفضلة تماماً « على انتقائية ماكدونالد المحلاّة وبلاهة الزوجين ويب كاقتصاديين » . لقد انهزمت الحركة الشارتية لأنها كانت متقدمة عصرها ، لأنها كانت تمثل « نافذة تاريخية » ؛ لكنها كانت « ستنبعث على قاعدة تاريخية جديدة وأوسع بما لا يقاس[٣٥] » .

كان تروتسكي يجد في الحزب الشيوعي الانكليزي ، مهما يكن ضعيفاً ، الوريث الشرعي الوحيد لتلك التقاليد . كان يرى انه من قبيل « الوهم المريع » الأمل بأن يتمكن القادة النقابيون او الفابيانيون من اعطاء العمال الانكليز قيادة ثورية . لا شك ان الحزب الشيوعي الانكليزي كان آنذاك هزيلاً للغاية وكانت تبدو الفابيانية الانكليزية هائلة ومنيعة . لكن الم تكن الليبرالية الانكليزية تبدو كذلك قوية ولا تقهر قبل أن تنهار مباشرة بما هي حزب ؟ حين أخذ الحزب العمالي المكان الذي أخلاه الحزب الليبرالي ، كان على رأسه

---

(٣٣) ـ المرجع ذاته ، ص ١٢٧ .

(٣٤) ـ المرجع المذكور ، ص ١٢٦ .

(٣٥) ـ المرجع المذكور ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

اعضاء من الحزب العمالي المستقل الذي لم يكن غير مجموعة صغيرة . تحت صدمة الاحداث العظام ، تنهار البنى السياسية القديمة الصلبة في الظاهر وتنتصب بنى جديدة . هذا ما حدث بعد الحرب العالمية الأولى وهذا ما قد يحدث من جديد . لم يكن صعود الفابيانية « غير طور قصير في تاريخ الطبقة العاملة الثوري » ؛ « إن مقعد ماكدونالد اكثر اهتزازاً من مقعد لويد جورج » .

كان تروتسكي يتساءل بقلق مكتوم إذا كانت الشيوعية الانكليزية ستكون على مستوى مهمتها . لكن مرة اخرى ، أعمى تروتسكي تفاؤله الثوري ، مثلما حدث لماركس احياناً . كتب تروتسكي : « لا نريد التنبؤ ، والقول ما ستكون وتيرة هذه السيرورة (الخاصة بالثورة) في انكلترا ، لكن من المؤكد أنها ستقاس بالسنوات ، خمس سنوات على الاكثر ، لكن ليس بالعقود ، بالتأكيد[٣٦] . » فيما بعد ، أوضح تروتسكي أنه حين أزفت اللحظة الحاسمة ، في عام ١٩٢٦ ، شلت التعليمات التكتيكية الصادرة عن ستالين وبوخارين الشيوعية الانكليزية . ويمكن للمؤرخ أن يتساءل إذا كانت تلك التعليمات ، مهما اتسمت بالحماقة ، السبب الأساسي للعجز طويل الأمد الذي برهنت عنه الشيوعية الانكليزية ، التي لم تكن تشكل بعد مرور ٣٠ عاماً على ذلك التاريخ ، غير شلة صغيرة مستنقعة على هامش الحياة السياسية الانكليزية . إلا أن الأزمة الاجتماعية الكبرى التي تكهن بها تروتسكي كانت حقاً على وشك ان تبدأ مع اضراب عمال المناجم الانكليز ، وهو الاضراب الاطول والاشرس في تاريخ الصناعة . وقد اقتربت انكلترا خلال الاضراب العام من حافة الثورة .

أثار مؤلّف تروتسكي مساجلات عديدة في انكلترا . وقد أطلق هـ . ن . برايلسفورد النقاش في مقدمة الطبعة الانكليزية . فبعد أن اعترف برايلسفورد بصفات تروتسكي الخارقة كمحلل وكاتب ، وبمعرفته الوثيقة بالتاريخ والسياسة الانكليزيين ، قال إن تروتسكي لم يتوصل مع ذلك الى فهم التقاليد الديمقراطية والدينية غير الامتثالية للحركة العمالية الانكليزية و « غريزة الانصياع للأكثرية المحفورة في الروح الانكليزية » . أما رامسي ماكدونالد[٣٧] ، وجورج لانسبوري[٣٨] وآخرون فرفضوا وجهات نظر تروتسكي على اساس انها اخطاء أناس غرباء . بالمقابل ، اكد برتراند راسل أن « تروتسكي على اطلاع

---

(٣٦) - المرجع المذكور ، ص ١٤ . اضاف تروتسكي : « إن خلية الثورة في غاية النشاط هذه الايام ! » ، ص ٥٢ .

(٣٧) - ذو نايشن ، ١٠ آذار/مارس ١٩٢٦ .

(٣٨) - لابور ويكلي ، للانسبوري ، ٢٧ شباط/فبراير ١٩٢٦ .

تام على الخصوصيات السياسية للحركة العمالية الانكليزية » ، واعترف ايضاً بأن الاشتراكية لا تتفق مع الكنيسة والعرش . لكن كان راسل يعتبر أنه ينبغي للمرء ان يكون حتماً عدواً للشعب الانكليزي ليدفعه الى الثورة ، التي قد تكون عاقبتها حصاراً اميركياً ، او حتى حرباً لا بد أن تنهزم فيها بريطانيا[39] . وهاجم كتّاب آخرون عدم الاحترام والسخرية من جانب تروتسكي تجاه ماكدونالد ، وهو ما لم يمنع معظم اولئك الناقدين ، بعد سنوات من ذلك الحين ، وبعد أن قطع ماكدونالد علاقته بحزب العمال ، من تمزيق سمعة « الخائن » وثلم شرفه .

رد تروتسكي عدة مرار على الانتقادات[40] . وفي رد على راسل ، أنكر ان يكون اراد دفع العمال الانكليز الى الثورة لصالح الاتحاد السوفياتي . كتب يقول إنه ليس على العمال في اي من البلدان ان يبادروا ، لمصلحة الاتحاد السوفياتي ، إلى أعمال لا تحكمها مصالحهم الخاصة بهم . إلا أن نزعة راسل السلمية العقلانية لم تهزه ابداً :

« عموماً ، لا تتم الثورات اعتباطاً . ولو كان ممكناً رسم طريق الثورة سلفاً وبصورة عقلانية ، فقد يصبح على الأرجح ممكناً ايضاً تجنب الثورة تماماً . لا تفعل الثورة غير التعبير عن استحالة إعادة بناء مجتمع طبقي بطرائق عقلانية . إن الحجج المنطقية عاجزة في مواجهة المصالح المادية ، حتى لو حوّلها راسل الى صيغ رياضية . إن الطبقات الحاكمة ستترك الحضارة تهلك هي والرياضيات ولن تتخلى عن امتيازاتها . . . لا يمكن الإفلات من هذه العوامل غير العقلانية . في الرياضيات ، يجري الاستعانة بمقادير غير عقلانية للوصول الى استنتاجات واقعية كلياً ، والامر ذاته يتم في السياسة الثورية . . . : لا يمكن إرساء ترتيب عقلاني في نظام اجتماعي إلا اذا تم أخذ التناقضات الملازمة للمجتمع صراحة بالحسبان ، بحيث يمكن تجاوز تلك التناقضات عن طريق الثورة[41] . . »

استقبل الشيوعيون الانكليز في البدء كتاب تروتسكي بفرح وحماس : كان قد أتى العملاق يدعّم صفوفهم المبعثرة[42] ، لكنهم عادوا عن موقفهم ، في وقت لاحق من السنة ، تحت وصاية المجلس الانكليزي ـ السوفياتي ، وبدأوا يشعرون بأنفسهم متضايقين من هجمات تروتسكي ضد قادة نقابات اليسار . (قبل ذلك ، في تشرين الثاني/نوفمبر

---

(٣٩) ـ نيو ليدر ، ٢٦ شباط/فبراير ١٩٢٦ .

(٤٠) ـ برافدا ، ١١ فبراير و ١٤ مارس ١٩٢٦ .

(٤١) ـ كودا ايديت انجلييا؟ (فتورو ي فيوسك) ، ص ٥٩ .

(٤٢) ـ انظر مثلاً مقال ر . بالم دوت في لابور مونثلي ، نيسان/ابريل ١٩٢٦ .

١٩٢٥ ، كان تعرض تروتسكي بهذا الصدد لانتقاد الشيوعي الروسي ـ الاميركي أوجين ، الذي كان حتى ذلك الحين شديد الاعجاب بتروتسكي.[٤٣]) في ربيع عام ١٩٢٦ تذمر الحزب الشيوعي الانكليزي لدى المكتب السياسي الروسي من «عداء» تروتسكي حياله . وكان على تروتسكي أن يدحض هذا الاتهام[٤٤] .

خلال تلك الاستراحة في الصراع بين تروتسكي وخصومه ، حدثت في داخل الحزب البلشفي إعادة تجميع للرجال والأفكار وظهر انقسام جديد وأساسي بين قادته وفي صفوفه ، انقسام يشكل جوهر التاريخ السياسي للخمس عشرة سنة التالية .

يجري في الغالب تصوير اواسط العشرينات كالحقبة السعيدة من النيب ، الحقبة الوحيدة بين ١٩١٧ واواسط القرن ، التي أمكن الشعب السوفياتي فيها أن يستريح ويستمتع بالسلام ويتذوق الرخاء . وهي صورة لا يمكن القبول بها بحالتها هذه . إن ما يعطي هذه الحقبة مظهرها شبه المثالي يكمن في المفارقة التي تشكلها سواء بالنسبة للحقبة التي سبقتها او لتلك التي أعقبتها . إن منتصف العشرينات لم يعرف أيّاً من الصراعات والهزات الدامية ، اياً من المجاعات الخاصة بأوائل العشرينات والثلاثينات . كان الزمن يلأم جراح الأمة . فالناس يشعرون بالنهضة الاقتصادية ، ويحرث الفلاحون حقولهم ويحصدون مواسمهم . كانت الصناعة خرجت من ركودها ، واعيد بناء الجسور وسكك الحديد المدمرة ، والمنازل المحروقة والمدارس المقصوفة . وأصلحت مناجم الفحم التي غمرتها المياه ، كما اعيدت الروابط بين المدن والارياف . ازدهرت التجارة الخاصة ولم يعد يحتاج الشارون الى حمل حقائب تمتلىء اوراقاً نقدية منقوصة القيمة : فمع ان الروبل كان لا يزال مهتزاً بعض الشيء إلا أنه استعاد الاحترام الغامض الذي تتمتع به العملة . لا بل كان ثمة في وسط المدن ، في الساحات وفي الشرايين الكبرى، الحركة المنشغلة والصاخبة التي ترافق الازدهار .

إلا أن تلك الحركة كانت خادعة جداً . فالجمهورية السوفياتية ، الشاسعة والموحدة الآن ، التي كانت تغطي ، انطلاقاً من التخوم البولندية والبلطيقية ، كل مساحة الامبراطورية القديمة ، كانت لا تزال مدفونة في فاقة لا ترحم ، وتمزقها التوترات الاجتماعية . سدس سكانها فقط كان يعيش في المدن ، وكان اقل من عشر اليد العاملة

---

(٤٣) ـ داي فرايهايت ، ١٥ نوفمبر ١٩٢٦ .

(٤٤) ـ محفوظات تروتسكي ، عدا ما يخص دورات المكتب السياسي في اوائل ايام حزيران/يونيو ١٩٢٦ .

يعمل في الصناعة . كان الانبعاث بطيئاً بصورة مؤلمة . لم تكن المناجم والمصانع تبلغ بعد ثلاثة أرباع انتاجها لما قبل الحرب . لم تكن تنتج ماكينات ، ولا معدات آلية ، ولا سيارات ولا مواد كيميائية ، ولا أسمدة ولا أية أداة زراعية حديثة . كانت التجارة الخاصةالمزدهرة ، البدائية بصورة مخيفة والقائمة على الغش في الجزء الأكبر منها ، تخفي البؤس القومي في زبدها الطافح .

صحيح أن الفلاحين كانوا يستهلكون منتجات حقولهم التي غدت أكبر ، ويأكلون للمرة الأولى منذ قرون كل ما يحتاجون اليه من الخبز . لكن كان ذلك « ازدهاراً » عند المستوى الأدنى للحضارة . كان يتم الاستمتاع به في غياب حاجات ومتع أرفع ، وفي قذارة الارياف وظلامها وخبلها المتوحش . كما ان حوالى ثلث سكاف الريف ، الذين لم يكونوا يزرعون ما يقوم بأودهم ، ما كانوا يستفيدون حتى من ذلك النوع من الرخاء . ولأن الفلاحين كانوا يأكلون اكثر من قبل ، كان يتوفر للمدينيين قدر أقل يأكلونه : لم يكونوا يستهلكون إلا ثلثي الغذاء الذي كانوا يحصلون عليه في أيام القيصرية ، وما لا يزيد عن نصف ما كانوا يأكلونه من اللحم . ويعني قدر اقل من الانتاج أيضاً قدراً أقل من التصدير : لم تكن تبيع روسيا الآن للخارج إلا ربع الحبوب التي كانت تصدرها فيما مضى . وكما في الماضي ، كان القسم الاكبر من السكان يسيرون حفاة وبالأسمال البالية . ولم يكن هنالك تقدم ملحوظ الا في ميدانين فقط : ميدان الوقاية الصحية وميدان التربية . كان الروس يستهلكون قدراً أكبر من الصابون ، وقد غدا لديهم عدد من المدارس اكبر مما في اي وقت مضى .

من بين التوترات الاجتماعية ، كان التضاد المزمن بين المدينة والريف الخطر الأكبر . كان لدى ابن المدينة الشعور بأنه ضحية الفلاح ، الذي لا جدال في انه كان المستفيد الرئيسي من الثورة . وكان الموجيك ، بالمقابل ، يعتقد أن سكان المدن يجردونه مما لديه . وفي الجانبين ، لم يكن ما يعتقدانه دون اساس . كان عمال المدن يكسبون اقل بكثير مما قبل الثورة ؛ كان هناك مليونا عاطل عن العمل ، اي ما يقارب عدد العمال المستخدمين في الصناعة الكبرى . وكان العمال يقارنون بؤسهم الخاص بهم بوفرة المنتجات الغذائية في البلاد . اما الفلاحون فكانوا ساخطين لأن عليهم أن يدفعوا ثمناً للمنتجات الصناعية يزيد مرتين عما كانت الحال قبل عام ١٩١٤ ، بينما لم يكونوا يتوصلون لبيع منتجاتهم بسعر اغلى بشكل محسوس مما قبل الحرب . كل من الطبقتين كانت تعتقد أن الأخرى تستغلها ، والحقيقة أن فقر الامة هو الذي كان يجعلها « عرضة للاستغلال » .

لكن لا المدينة و لا الريف كانا يمثلان مصالح متجانسة . كل منهما كانت تمزقه

تناقضاته الخاصة به . كان عامل المدينة يعرف أن النيمان والوسيط والبيروقراطي كانوا يسرقون ثمار عمله . كان يشتري بسعر غال جداً منتجات غذائية لم يكن الفلاح يحصل لقاءها إلا على سعر بخس : كان الوسيط ، الذي يشرف على تسعة اعشار تجارة المفرق ، يضع الفرق في جيبه .

في المعمل ، كان العامل يواجه المدير ، الذي إذ يتصرف باسم الدولة ـ المستخدمة ، كان يحرمه من المشاركة في إدارة المنشأة ، ويخفض الاجور ، ويتطلب المزيد من العمل ، ومن العمل الاكثر قساوة(٤٥) . وكان يقف الى جانب المدير المندوب النقابي وأمين سر الخلية الحزبية ، اللذان كانا أقل فأقل استعداداً لدعم العمال وكانا يتصرفان في أغلب الاحيان كحَكَمَين في نزاعات العمل . وفي الواقع ان الدولة ـ المستخدمة نادراً ما كانت قادرةً على إرضاء مطالب العمال . كانَ الدخل القومي ضعيفاً ، والانتاجية متدنية ، والحاجة للتثمير ملحة بشكل يائس . وحين كان المدير ، وأمين السر الحزبي والمندوب النقابي يطالبون العامل بانتاج متزايد ، كان العامل يلعن « أرباب عمله » الجدد ، لكنه لم يكن يجرؤ على الانطلاق في نضال مطلبي والقيام بالاضراب . كان على أبواب المصانع أرتال من العاطلين عن العمل منتظرين أن يُعرض عمل عليهم . ومرة اخرى ، تماماً كما في ظل الرأسمالية ، « كان جيش الاحتياط الذي يضم العاطلين عن العمل » يساعد في خفض الأجور وهبوط شروط العمل .

كان الفلاحون منقسمين بصورة ربما اقل وضوحاً ، لكن بصورة فعلية بالقدر ذاته . لقد كسب الموجيك بصورة متفاوتة من التغييرات الزراعية الجادة ومن النيب . تدعمت الشريحة الوسطى من الفلاحين . كان هنالك الآن عدد اكبر بكثير من المالكين الصغار ، من السيريدنياك ، الذين يعيشون على مدخول أرضهم ، دون ان يكون عليهم ان يعملوا في أراضي فلاحين اكثر غنى ، ودون استخدام اليد العاملة الزراعية . كان ثلاثة او اربعة من اصل عشرة فلاحين ينتمون لهذه الفئة ؛ وكان واحد ، وربما اثنان ، على عشرة ، من الكولاك : كانوا يستأجرون اليد العاملة ، ويوسعون استثماراتهم ويتاجرون مع المدينة ؛ وكان ٥ على ١٠ من الفقراء ، أو البدنياك ، الذين اقتطعوا بضعة أكرات(*) من الأرض في الملكيات الاقطاعية ، لكن الذين نادراً ما كانوا يمتلكون حصاناً أو معدات زراعية . كانوا يستأجرون الحصان والمعدات من فلاح غني ، يشترون ايضاً منه البذار والغذاء ويقترضون

---

(٤٥) ـ من اصل ستة عمال ، كان يستخدم عامل واحد في الصناعة الخاصة .

(*) ـ الأكر يساوي اربعة آلاف متر مربع (م) .

المال . ولكي يدفع البدنياك ديونهم ، كانوا يعملون في حقول الكولاكي او يتخلون له عن قسم من أرضهم بالغة الصغر .

في كل حين ، كانت حقائق الحياة الريفية تتنازع مع السياسة البلشفية . فحكومة لينين كانت قررت تأميم الارض ومصادرة الملكيات . وكان الفلاحون ، نظرياً وقانونياً ، يتمتعون بالأرض دون ان يملكوها . كان محظراً عليهم بيعها واستئجارها . وقد أمل البلاشفة ان يضعوا بهذه الطريقة حداً للامساواة ويحولوا دون تطور الرأسمالية الريفية . لكن الحياة كانت تتخطى تلك الحواجز من جديد ، ببطء لكن بشكل اكيد . ففي ما لا يحصى من المعاملات اليومية ، التي ما كان يمكن لأية ادارة أن تتابعها ، كانت الارض تنتقل من يد ليد ، وهو ما كان يولد علاقات رأسمالية : كان الاغنياء يغتنون والفقراء يزدادون فقراً . طبعاً ، لم يكن الامر يتعلق إلا بشكل بدائي جداً من الرأسمالية الريفية : وفقاً لمقاييس كل مجتمع بورجوازي متقدم ، كان الكولاك فلاحاً فقيراً ؛ لكن لم يكن لتلك التعابير اي معنى في روسيا تلك الايام . وفقط لأن تفرع الفلاحين تم عند مستوى اقتصادي بالغ الانخفاض أمكن تلطيف نتائجه ، على العكس تماماً . إن امتلاك بعض الاحصنة وعدة سكك فلاحة ومخزون حبوب والقليل من السيولة المالية كان يعطي الفلاح سلطة مباشرة على فلاح آخر اكثر مما يمكن امتلاك راس مال اكبر بكثير أن يعطي لأي كان في مجتمع بورجوازي غني. بعد عشر سنوات على الثورة ، كانت أجور العمال الزراعيين الذين لا يملكون أرضاً (ولا يجب خلطهم مع الفلاحين الفقراء) أدنى بحوالي ٤٠٪ مما كانت تدفع الارستقراطية الارضية سابقاً . وكان يوم العمل أطول بكثير بينها تكاد تكون شروط العمل افضل من شروط عمل الأقنان . كان المالك العقاري القديم يستخدم الكثير من اليد العاملة في أراضيه بينما لا يستخدم الكولاك إلا القليل : لذا كان العمال الزراعيون يجدون سهولة في تنظيم انفسهم للدفاع عن انفسهم ضده أقل من تلك التي كانوا يجدونها سابقاً بمواجهة السيد . لا بل كان البدنياك احياناً اكثر تعرضاً للاستغلال وأكثر عجزاً من العامل الزراعي .

كان وضع كهذا ينطوي على عناصر نزاع اجتماعي عنيف ، لكن لم يكن يمكن النزاع أن يعلن عن نفسه وينفجر في وضح النهار . مهما كان يستطيع فقراء القرى ان يشعروا بجشع الكولاك ، فقد كانوا تحت سيطرته الى حد أنهم لا يسمحون لأنفسهم بمقاومته ، إلا بصورة استثنائية . في اغلب الاحيان كان الفلاح الغني يقود قرية خاضعة ، يحرف حقدها موجهاً إياه ضد المدينة والعمال ومحرضي الحزب والمفوضين .

كل تلك التوترات داخل المدن والارياف وفيما بينها ، كانت تبطِّن الخلافات بين القوميات المتعددة في الاتحاد السوفياتي . ونحن نعرف ماكانت اهمية تلك الخلافات اثناء الانتقال من شيوعية الحرب الى النيب ، ونعرف كيف ندّد لينين بالدزرجيموردا ، البيروقراطي الروسي الفظ ، الذي كان يرى فيه المذنب الرئيسي . ومع توالي السنين ، تفاقمت الأمور . كانت مركزة الحكومة الأكثر فأكثر حدة وعنفاً تحابي الروسي آلياً على حساب الاوكراني والبيلوروسي والجيورجي ، واكثر ايضاً على حساب الشعوب والقبائل الاشد بدائية في آسيا السوفياتية . كانت الشوفينية الروسية الكبرى المنبعثة من موسكو تثير القوميات المحلية الخاصة بالجمهوريات البعيدة وتهيّجها ؛ كان الكولاك والنيبمان قوميين بالفطرة . وفي روسيا بوجه الحصر ، كان الشوفينيون الروس يعيثون فساداً ، بينما كان في الجمهوريات الاخرى القوميون المعادون للروس . وكانت الانتليجنسيا بالغة الحساسية حيال أمزجة الرأي ، بينما كانت النزعة الأممية تميل الى الأفول في اوساط البروليتاريا الصناعية. كانت الطبقة العاملة تتكون من جديد وتتضخم ممتصة عناصر جديدة قادمة من الريف ، عناصر تحمل معها الى المصانع كل الاتجاهات السياسية داخل طبقة الفلاحين ، وحذرها من كل ما هو غريب ، وولاءها الشديد أو شوفينيتها الاقليميين .

بين الحين والحين ، كانت التوترات تثير انفجارات . ففي خريف ١٩٢٤ ، خضّت انتفاضة فلاحية كل جيورجيا ، وقد تم إغراقها في الدم . ظهرت في كل مكان علامات ، ربما كانت اقل عنفاً لكنها اشد صلابة ، تنم عن عداء الفلاحين للحكومة. وخلال الانتخابات الى السوفييتات التي تمت في آذار/مارس ١٩٢٥ ، امتنع عن المشاركة في الاقتراع اكثر من ثلثي الناخبين في العديد من المحافظات الريفية ؛ لذا اضطرت الحكومة لاجراء انتخابات جديدة . كان هنالك تحرك متفرق لصالح سوفييتات فلاحية مستقلة . هنا وهناك ، عرف كولاك نشيطون وماهرون كيف يجعلون السوفييتات القائمة وحتى خلايا الحزب الريفية تخدم مصالحهم وطموحاتهم . وفي كل مكان تقريباً ، في القرى ، كان الارهاب لا يتوقف . كان محرضو الحزب ، القادمون من المدينة ، يتعرضون للضرب حتى الموت ، و « المراسلون العمال » الذين كانوا يبعثون للصحف رسائل حول استغلال العمال الزراعيين كانوا يعدمون من دون محاكمة . إن المزارع الكبير الذي كان قد استخدم الامكانات التي قدمتها النيب استخداما كاملاً ، كان يشعر الآن بالضيق من الحدود الموضوعة أمامه ، ويحاول إلغاءها بصورة مكشوفة أو غير مكشوفة . كان يطالب بأسعار مبيع أعلى لمنتجاته ، ويريد حرية البيع واستئجار الارض ، والحق غير المحدود بتشغيل اليد العاملة ، وباختصار كان يسعى وراء « نيب جديدة » .

كان ذلك كله ينذر بأزمة قومية ما كان يمكن تأجيلها سنتين من دون ان تغدو أشد خطراً بكثير . كان من مهمات الحزب الحاكم ايجاد حل ؛ لكن الحزب ذاته كان اكثر فأكثر تأثراً بالمشكلات التي تقسم الأمة . تكونت تيارات ثلاثة كبرى في الرأي البلشفي في عام ١٩٢٥ . انفجر الحزب وحرسه القديم الى يمين ويسار ووسط ، وكان هذا الانفلاق جديداً من نواح عديدة ؛ لم يكن حدث اي شيء مماثل من قبل في الصراعات التكتلية الكثيرة التي سبق أن عرفها الحزب . وما كانت خطوط الانفلاق يوماً بذلك الوضوح وتلك الديمومة . ان التكتلات والمجموعات التي نشأت حتى ذلك الحين كانت تولد من تباينات في الرأي بصدد مشكلة خاصة ثم تزول ما أن تزول المشكلة . وكـان تركيب التكتلات يتبدل حسب الخلافات ؛ فالخصوم في خلاف ما كانوا يتواجدون في معسكر واحد في الخلاف اللاحق ، والعكس بالعكس . ما حاولت التكتلات والمجموعات يوماً أن تتواصل ، وما كان لها تنظيم صارم ولا انضباط خاص . إلا ان الامور بدأت تتبدل منذ انتفاضة كرونشتادت ، لكن لم يتجذر هذا التحول ولم يتعمم الا عام ١٩٢٥ . كان الحزب ممزقاً ، من المكتب السياسي واللجنة المركزية وصولاً الى الخلايا القاعدية ؛ وبالتأكيد ، كلما كان يجري الاقتراب من القاعدة ، كلما كانت التباينات تبقى غير معبّر عنها . ان المشكلات في اصل الانقسام كانت بالتأكيد جديدة في قسم كبير منها ، لكن الانقسام ، في هذه المرة بوجه خاص ، كان جديداً ولا علاج له .

ما كان مدهشاً أحياناً هو الطريقة التي تجمّع الناس بها واتخذوا مواقف جديدة . كان في الحزب البلشفي ، مثلما في كل حركة سياسية ، اناس يميلون للاعتدال ؛ وكان آخرون يميلون الى المواقف الجذرية بينما كان غيرهم انتهازيين على الدوام . وفي اعادة التجمع الحالية، بقي الكثيرون أمناء لشخصهم . فريكوف وتومسكي ، مثلاً ، اللذان كانا بعيدين دائماً عن الشيوعيين اليساريين ، وجد ا نفسيهما في موقعهما على رأس اليمين الجديد . ومعظم الانتهازيين ، ولا سيما القادة المحترفين لآلة الحزب ، اتخذوا موقعهم في الوسط . وبين الجذريين الصلبين ، كان البعض قد انضموا الى المعارضة العمالية أو الدسيميين أو التروتسكيين ؛ وبالنسبة لآخرين ، كان الخيار لا يزال ينتظر . لكن حدثت كذلك تحولات غريبة وغير متوقعة . فتحت ضغط الظروف والصعوبات الجديدة ، وبعد مراجعات داخلية كبرى ، تخلى بعض البلاشفة ، وبينهم أرفع القادة شأناً ، عن مواقفهم ومواقعهم المعتادة ليتخذوا اخرى بدا أنها تجحد كل ما سبق أن دافعوا عنه حتى ذلك الحين . حرقوا ما سبق أن عبدوه ، وعبدوا ما سبق أن حرقوه .

كانت التباينات الجديدة ناجمة جزئياً عن ان بعض الجماعات أو بعض الأشخاص

كانوا يمارسون السلطة، بينما لا يمارسها آخرون. العديد من الشيوعيين اليساريين الذين كانوا يشغلون مناصب منذ سبع سنوات أو ثمان، ويمتلكون نفوذاً كبيراً ويتمتعون بامتيازات السلطة ، بدأوا ينظرون الى القضايا العامة من وجهة نظر الحاكم لا من وجهة نظر المحكوم . زد على ذلك أن بلشفياً «معتدلاً» عاش خلال كل تلك السنوات وسط الجماهير وشارك في تجاربها ، كان يعبر شاء أو أبى عن استيائها ويتكلم كـ «يساري متطرف» . لكن كان لتبديل المواقع اسباب أخرى أيضاً . ففي ظل نظام الحزب الواحد ، لم يكن يمكن التضادات الطبقية الكبرى ، التي لم تتناولها إلا باقتضاب ، ان تجد اي تعبير سياسي شرعي ، لذا فقد وجدت تعبيراً ، غير شرعي وغير مباشر ، داخل الحزب الواحد . لم يكن يستطيع الفلاحون الأغنياء ارسال نواب الى موسكو يدافعون عن مطالبهم واشتراطاتهم امام جمعية قومية ما ، او لعب دور مجموعات ضاغطة . وما كان بمقدور الشغيلة الأمل بأن يتولى اولئك الذين كانوا يحملون صفة نوابهم التعبير بحرية وبصورة كاملة عن شكاواهم . إلا أن كل طبقة اجتماعية ، كل فئة اجتماعية ، كانت تمارس ضغطها ، لكن بأشكال غير سياسية . كان الفلاحون الأغنياء يشرفون على مخازن الحبوب التي كـان يتوقف عليها تموين السكان المدنيين ؛ كان من بين ٦ و ١٠ ٪ من الفلاحين ينتجون اكثر من نصف فوائض الحبوب القابلة للتسويق . وكان ذلك يقدم لهم سلاحاً قوياً : فحين كانوا يوقفون التموين بالحبوب كانوا يحدثون دورياً حالات مجاعة خطيرة في المدن . أو انهم كانوا يرفضون شراء المنتجات الصناعية بالاسعار الباهظة المفروضة : كانت مخزونات السلع تتراكم عند ذلك في ساحات المصانع والمستودعات . وهكذا ظهرت دلائل فيض الانتاج في بلد كان يعاني من انخفاض الانتاج. كان العمال ساخطين وعديمي الفعالية، وكانوا يسعون الى اغراق يأسهم بالفودكا . إن إدماناً فظاً ومعمّماً على الخمر أدى إلى كوارث مخيفة جسدية وأخلاقية في اوساط الشعب . وقد بذل الحزب كل جهده لتحييد الضغوطات الاجتماعية المعاكسة وليبقى خارج دائرةعملها ، لكنه تأثر بنتائجها . ان المجاعات ومخزونات المنتجات الصناعية غير المصرَّفة جعلت أعضاءه يفطنون بشدة لحقائق الساعة . كان بعض البلاشفة اكثر تحسساً بالمطالب العمالية ، بينما كان آخرون اكثر تأثراً بضغوطات الفلاحين . كان الانقسام الكبير بين المدينة والريف يميل الى إعادة إنتاج نفسه داخل الحزب ، لا بل داخل الفريق القائد فيه .

منذ سنوات ، كان زينوفييف تكلم على «مناشفة غير واعين» داخل الحزب الى جانب اللينينيين «الأصليين» ، يشكلون حزباً بالقوة . كان يبدو الآن ان الحزب بالقوة الخاص بـ «الاشتراكيين الثوريين غير الواعين» أكبر اهمية ايضاً . كان الاشتراكيون الثوريون

الاصليون ، مثلهم مثل النارودنيين ، اجدادهم السياسيين ، تميزوا بميلهم الى الفلاحين ، وبرفضهم القيام بأي تمييز طبقي فيما بينهم : لم يكونوا يرون فيهم كولاكاً ولا بدنياكاً ، وكانوا يمجدونهم عموماً كشغيلة الأرض ، ويرفضون اخضاع مصالحهم لمصالح الشغيلة الصناعيين ولا يرون في شغفهم بالملكية الخاصة ما يتنافى مع الاشتراكية . ان الاشتراكيين الثوريين ، المفتقدين التماسك على الصعيد الايديولوجي والغارقين طوعاً في العموميات العاطفية ، كانوا قد مثلوا النقيض الزراعي لجماعية البروليتاريا المدينية ، تنويعاً شبه فيزيوقراطي للاشتراكية . في بلد كان أربعة اخماس سكانه يعيشون من الأرض وبواسطتها ، كان طبيعياً تماماً أن تكتسب ايديولوجية كهذه نفوذاً كبيراً . كان البلاشفة أزالوا الحزب الذي نشر هذه الايديولوجية ، لكنهم لم يلغوا بذلك المصالح والاهواء والذهنية التي ألهمته . تلك الأهواء وتلك الذهنية كان تنفذ الآن إلى صفوفهم الخاصة بهم . لكن في الحزب ، أي في بيئة معادية تقليدياً للأفكار النارودنية ، لم يكن يمكن هذه الذهنية أن تعبر عن نفسها بتعابير معتادة . كانت تتكسر عبر موشورة التراث الماركسي وتصوغ نفسها أخيراً بتعابير بلشفية . كان هذا التيار الزراعي قد تلقى دفعاً قوياً من الحملة المعادية للتروتسكية ، التي حاول المثالثون أثناءها أن يُفقدوا تروتسكي حظوته عبر تصويره كعدو للموجيك . كان الاتهام يستند في قسم منه الى كذبة متعمدة ، لكنه كان يلخص كذلك شعوراً حقيقياً . نتج عن ذلك أن الاتجاه النارودني الجديد تقوى إلى أن توصل ، خلال الهدنة الحالية في الصراع ضد التروتسكية ، الى تكوين جناح يميني جديد في الحزب .

إن الرجل الذي ظهر كملهم اليمين ومنظِّره وايديولوجيه ، كان بوخارين . ثمة في ذلك شيء ما مخيّب للآمال . فمنذ صلح بريست ـ ليتوفسك ، كان دائماً الناطق بلسان الشيوعية اليسارية ، الرجل الذي كان يقف دائماً بصلابة عند وجهة النظر «البروليتارية الدقيقة» . كان قد أدان بصورة عدوانية «انتهازية» لينين ، وعارض الانضباط الذي أرساه تروتسكي في الجيش ودافع عن القوميات غير الروسية ضد ستالين . ثم أغرته منذ بداية عام ١٩٢٣ أفكار تروتسكي الجذرية . لكن اسمه غدا في عامي ٢٤ ـ ١٩٢٥ رمز الاعتدال ، و «الانتهازية» والدفاع عن الفلاح الموسر . ولم يكن ذلك التحول عارضاً أبداً ، فيسارية بوخارين كانت تستند الى الأمل بثورة وشيكة في اوروبا ، وإلى انتظار تلك الثورة ؛ كل القادة البلاشفة اتكلوا كثيراً عليها ، لكن ربما بوخارين اكثر من أي شخص آخر . كلهم كانوا قد رأوا في الثورة الاوروبية امكانية خروج روسيا من فقرها وتخلفها . كانوا كلهم قد فكروا بأنه مع طبقة عاملة صغيرة محاطة بملايين الفلاحين المتعلقين بالملكية قد لا يكون ممكناً المضي بعيداً جداً في طريق الاشتراكية . وبوخارين ، اكثر من اي

شخص آخر ، لم يكن يعتقد بأن ذلك ممكن . كان قدّر بالكثير من الشغف والحماس أن عمال الغرب سينتفضون ويطيحون بورجوازيتهم ويمدون لروسيا يد العون . كان قد احاط اولئك العمال الغربيين بهالة ثورية ، وأضفى تصوراً مثالياً ومبالغاً جدا به على وعيهم الطبقي وكفاحيتهم . كان رفض صلح بريست ـ ليتوفسك بسخط ما بعده سخط ، لأنه كان يخشى أن يحبط مشهد روسيا البلشفية الحانية الرأس امام آل هوهنزلرن الطبقات العاملة الاوروبية ويفقدها معنوياتها ، وأن تجد البلشفية ، المقطوعة عن تلك الطبقات والمتروكة لوحدها مع الفلاحين الروس ، أن تجد نفسها في مأزق كارثي .

كان بوخارين يلاحظ الآن أن البلشفية غدت حقاً وحيدة حيال الفلاحين الروس . لم يعد يعتمد على الثورة في الغرب ، لذا نادى مع ستالين بـ «الاشتراكية في بلد واحد» . وبالثقة نفسها التي بشر بها حتى ذلك الحين بالانهيار الوشيك للرأسمالية العالمية ، كان يشخِّص الآن «استقرارها» . ومن وجهة النظر الجديدة هذه كان يلقي نظرة جديدة على المسرح المحلي . ما كان يمكنه إنسانياً أن يقبل الخلاصة التي كانت تؤدي اليها كل استدلالاته السابقة : أي أن الثورة الروسية كانت في مأزق . على عكس ذلك ، كان يخلص الى القول إنه لما كان عمال الغرب قد تواروا عن الساحة بوصفهم حلفاء ، فعلى البلشفية أن تعترف بأن الموجيك هم اصدقاؤ هـا الحقيقيون الوحيدون . تحول نحو هؤلاء بالحمية ذاتها ، والأمل ذاته وقدرة التجميل ذاتها التي نظر بها حتى ذلك الحين إلى البروليتاريا الاوروبية . ومن المؤكد أن الحزب ، تحت تأثير لينين ، كان قد عني دائماً بـ «تحالف العمال والفلاحين» . لكن منذ عام ١٩١٧ ، لم يعرض البلاشفة يوماً صداقتهم على الفلاح الغني ؛ وكان لينين عامل الفلاحين المتوسطين ، وحتى الفلاحين الفقراء ، دائماً كـ «حلفاء متذبذبين» ، يمكن أن يحولهم جاذب الملكية الى اعداء . لم يكن تحالف ممتلىء الى ذلك الحد بالعثرات والشك يكفي الآن لطمأنة بوخارين . كان يريد ان يرسي التحالف على ما كان يبدو له أنه اساس أوسع وأصلب . وكان يأمل أن يُفهم رفاقه بأن عليهم الاعتماد على الفلاحين بمجملهم والتوقف عن لعب ورقة الفلاح الفقير ضد الغني ، لا بل ان عليهم لعب ورقة «الفلاحين الاغنياء» . وكان ذلك يعني التخلي عن صراع الطبقات في روسيا الريفية . إن بوخارين ذاته ، الذي كانت تكبحه عاداته الفكرية القديمة أو اعتباراته التكتيكية ، لم يذهب الى حد استخلاص كل تلك النتائج ، بل أوضحها تلميذاه ماريتسكي وستيتسكي وغيرهما من « الاساتذة الحمر » الذين كانوا يفصلون النظريات النارودنية الجديدة والشعبوية الجديدة في الجامعات ومصالح الدعاوة والصحافة .

كان بوخارين يستمد التوجيه كذلك من اعتبارات اكثر عملية . إن « تحالف »

البلاشفة مع الفلاحين الفقراء ضد الاغنياء ، في اطار النيب ، لم يقدم الا القليل من النتائج الايجابية ، إذا لم نقل لا شيء . فالفلاحون الفقراء ، وحتى المتوسطون ، لم يكونوا قادرين على تأمين الغذاء للمدن . كانوا ينتجون في أفضل الاحوال ما يكفيهم فقط لتغذية أنفسهم . إن رفاه عمال المدن ، لا بل مجرد وجودهم ، كان يتوقف على اقلية صغيرة من الفلاحين الاغنياء. بالطبع ، كان هؤلاء يرغبون في بيع منتجاتهم، لكنهم كانوا يبيعونها بهدف الإثراء ، لا فقط لتأمين استمرارهم . كان وضعهم بالغ القوة ، وفي الحقيقة أن تبعية المدينة للريف لم تكن في اي فترة سابقة صارخة وفجة وكلية الى ذلك الحد ، وما كان في وسع الحكومة والحزب أن يحسّنا الأمور عن طريق معاكسة الكولاك وتنغيص عيشهم وإثارة الفلاحين الفقراء ضدهم . إن الكولاك الذي كانت تزعجه المصادرات والرقابة على الاسعار ، وتغيظه التضييقات المفروضة على بيع الأرض واستئجارها وعلى استخدام اليد العاملة ، كان يفلح أقل ، ويحصد اقل ويبيع أقل . كان على الحكومة إما أن تحطم مقدرته أو أن تسمح له بالاثراء . لم يكن ثمة مجموعة واحدة داخل الحزب تقترح مصادرة أملاك الكولاك . بالنسبة لكل المجموعات ، لم يكن نزع ملكيات ملايين الفلاحين قد اصبح أمراً ممكن التصور ، ولم يكن مقبولاً من وجهة نظر ماركسية(٤٦) .

من نتائج ذلك أن بوخارين كان يبرهن على واقعية ومنطق لا جدال فيهما حين خلص إلى أن على الحزب ان يترك الفلاحين يثرون . أوضح أن هدف النيب كان استخدام المنشأة الخاصة في إعادة بناء روسيا ؛ لكن لم يكن يمكن الأمل بأن تلعب المنشأة الخاصة دورها دون الحصول على مقابل . كانت المصلحة العليا للاشتراكية تقضي بتنمية الثروة القومية ؛ وما كانت تضررت تلك المصلحة لو أن جماعات او افراداً اغتنوا في الوقت ذاته الذي تغتني فيه الأمة : العكس هو الصحيح ، فبملء صناديقهم يحملون الثراء أيضاً إلى الامة بأسرها . ذلك كان الاستدلال الذي دفع بوخارين الى إطلاق ندائه المشهور الى الفلاحين : « اغتنوا ! » .

ما كان يفوت بوخارين هو أن الفلاح الغني كان يسعى للاغتناء على حساب الطبقات الأخرى : كان يدفع أجوراً متدنية للعمال الزراعيين ، ويخنق الفلاحين الفقراء . يعيد شراء أرضهم ويطلب منهم ومن عمال المدن أسعاراً باهظة لمنتجاته الغذائية . كان يتهرب

٤٦ ـ كان أصاب نزع الملكية ما بين مليونين وثلاثة ملايين مالك، حتى لو تم استثناء الفلاحين المتوسطين ، لأن ١٠٪ على الاقل من الـ ٢٢ مليون مزرعة كانت للكولاك . كان يستحيل في الغالب التمييز بين الشريحة العليا من الفلاحين المتوسطين والكولاك وهذا هو السبب في ان عدد المالكين المتضررين كان يمكن ان يكون أكبر بكثير .

من الضريبة ويحاول تحميل الفقراء كل عبئها[٤٧] . وكان يسعى لمراكمة الرساميل على حساب الدولة ويبطىء بذلك وتيرة التراكم في القطاع الاشتراكي من الاقتصاد . وفي الحقيقة أن بوخارين لم يكن يهتم إلا بهذا الجانب من الصورة الاجتماعية حيث كانت مصالح مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية ، وشتى « قطاعات » الاقتصاد ، تبدو متكاملة ومنسجمة بعضها مع بعض ، بحيث كان يبدو له ان الكولاك ، والبدنياك ، والعامل ، ومدير المصنع وحتى النيبمان ، يشكلون عصبة فرحة من الأصدقاء . كان هذا الجانب من الصورة قائماً فعلاً ، لكنه لم يكن غير جانب منها ، وكان بوخارين يهمل الجانب الآخر حيث ليس هنالك غير الخلاف والتنازع ، وحيث كان الاشخاص ذاتهم يبدون كأعداء مهتمين قبل كل شيء بقطع بعضهم اعناق بعض . إن بوخارين الذي غدا باستيا (Bastiat) بلشفياً كان يمتدح التناغم الاقتصادي في المجتمع السوفياتي في ظل النيب ، ويصلي كي لا يعكر شيء ما ذلك التناغم . كان يصلي من اعماق قلبه ، لأنه كان يتوجس كثيراً من الشرور التي قد تمطر الأرض فيها لو جرى اللجوء إلى « تصفية الكولاك بما هم طبقة » .

في المساجلة الكبيرة الاولى التي فصل بوخارين خلالها افكاره ، كان يقف في وجهه بريوبراجنسكي التروتسكي . إن التروتسكية ، بتشد يدها الماركسي الصرف على التنازع الطبقي والتضاد بين الطبقات ، وتأكيدها على اولوية المصلحة الخاصة ، كانت النقيض البديهي للمواقف الشعبوية الجديدة ؛ والمؤلفان المتشاركان لألفباء الشيوعية ، كانا يمثلان ، كل داخل مجموعته ، قطبي الفكر الشيوعي . تمت المساجلة قبل نهاية عام ١٩٢٤ حين نشر بريوبراجنسكي مقتطفات من كتابه الاقتصاد الجديد .

كان بريوجنسكي يرسي كل اطروحته على الحاجة الماسة لتصنيع سريع ؛ لأن كل مستقبل النظام الاشتراكي في روسيا كان يتوقف ، حسبما قال ، على ذلك التصنيع . ولأن الاتحاد السوفياتي كان متخلفاً ، لم يكن يمكن أن يقوم بذلك التصنيع الا عبر التراكم البدائي الاشتراكي . هذا التراكم يتعارض ، تحديداً ، مع التراكم الخاص ، بعكس ما كان يؤكده بوخارين . إن مصير الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية ، على المستوى

---

٤٧ - إن الضريبة على الزراعة ، مأخوذة لوحدها ، كانت تحابي الكولاك . إن البدنياك الذي كان يتخلى للكولاك عن جزء من ملكيته لكي يحصل على الحصان والمعدات الضرورية لاستثمار الجزء الثاني ، كان يدفع عموماً الضريبة العقارية عن القطعة التي تخلى عنها . وكانت الضريبة غير المباشرة تغدو اعظم فأعظم اهمية في موازنة السوفيتات ، وكان ثقلها ، كما العادة ، أبهظ على الفقير مما على الغني .

العالمي ، سيتوقف على ثروة كل من النظامين وفعاليته ومقدرته الثقافية . لقد دخلت روسيا الحلبة ببنى بالية ، ما قبل صناعية بشكل أساسي ، لا يمكنها ان تسمح لنفسها بـ « منافسة حرة » مع « رأسمالية الاحتكارات » الغربية . عليها ان تتبنى «شكلاً اشتراكياً من الاحتكار » وتحتفظ به حتى تكون قواها الانتاجية بلغت مستوى الأمة الرأسمالية الاقوى ، اي الولايات المتحدة[٤٨] . (كان يزعم بريوبراجنسكي انه ، حتى لو لم تكن روسيا معزولة ولو اطاحت اوروبا بأسرها السيطرة الرأسمالية ،كان سيتوجب على اوروبا بأسرها ، هي ايضاً ، ان تنخرط في طريق التراكم البدائي الاشتراكي ، وان بصورة أقل تسلطية بكثير، ولوقت أقصر بكثير ، لأن مواردها الانتاجية كانت ادنى من موارد الرأسمالية الاميركية .)

كان يتساءل : ما جوهر التراكم الأولي الاشتراكي ؟ لا يمكن الصناعة في بلد متخلف أن تنتج لوحدها ما يمكن تسميته أعصاب تصنيع سريع تعجز أرباحها وفوائضها أن تقدم إلا جزءاً ، لا بل جزءاً صغيراً ، من تراكم رأس المال الضروري لانتاجها . أما الباقي فيجب البحث عنه في ما كان ربما يشكل، بخلاف ذلك، مجموع الأجور ، بالاضافة الى ارباح القطاع الخاص في الاقتصاد ومداخيله . (بتعابير كينزية ، إن توفير الصناعة المؤممة أضعف بكثير إذا قورن بالتثميرات الضرورية ؛ لذا على التوفير الخاص أن يقدم الجزء الأكبر من رساميل التثميرات .) تعين حاجات تراكم القطاع الاشتراكي إذاً حدوداً ضيقة للتراكم الخاص ، وعلى الحكومة ان تفرض هذه الحدود . إن دولة العمال مضطرة إذاً لاستغلال الفلاحين خلال هذه الفترة الانتقالية . لا يمكنها أن تشجع الاستهلاك ، وعليها أن تتصدى في المقام الأول لتطور الصناعة الثقيلة . إن الشح النسبي الذي ينتج عن ذلك على صعيد المواد الاستهلاكية سيؤدي الى تفاوتات في القدرة على الاستهلاك لدى مختلف المجموعات الاجتماعية . إن المدراء والتقنيين والعلماء والعمال المتخصصين وغيرهم سيكونون ذوي امتيازات مادية . ومهما يكن هذا التفاوت جائراً إلا أنه لن يؤدي لتضادات طبقية جديدة . لا تشكل البيروقراطية المتميزة طبقة اجتماعية جديدة ، وليست الفروقات بين اجور البيروقراطيين واجور العمال من طبيعة واهمية اجتماعية تختلفان عن تلك القائمة في العادة بين اجور العمال المتخصصين والعمال غير المتخصصين . لا تمثل في نهاية المطاف اكثر من لا مساواة داخل طبقة واحدة ، لا تضاداً بين طبقات متصارعة . لا يمكن لهكذا لا مساواة ـ ولا ينبغي لها ـ ان تختفي إلا مع تنامي الثروة الاجتماعية وتعميم التعليم اللذين سيخففان التمييز بين العمل المتخصص والعمل غير

---

٤٨ ـ إ . أ . بريوبراجنسكي ، نوفايا إيكونوميكا ، ج ١ ، القسم ١ ، ص ١٠١ ـ ١٤٠ .

المتخصص ، بين العمل اليدوي والعمل الذهني ، وينتهيان الى إلغائه . بانتظار ذلك ، « علينا التفكير كمنتجين لا كمستهلكين . . . إلى الآن لم نتوصل للعيش في مجتمع اشتراكي سيتولى الانتاج للاستهلاك . ما زلنا في حقبة التراكم الاولي الاشتراكي ؛ نحن نحيا في ظل القانون الحديدي لهذا التراكم[٤٩] » .

خلال هذه الحقبة الانتقالية ، تكون دولة العمال تخلت عن المنافع الملازمة للرأسمالية لكنها لم تصبح بعد قادرة على الاستمتاع بمنافع الاشتراكية . « هذه هي الحقبة الاكثر حرجاً في حياة دولة اشتراكية . بالنسبة إلينا مسألة حياة أو موت هي مسألة اجتياز حقبة الانتقال هذه ، بأسرع ما يمكن ، لبلوغ اللحظة التي سيعطي النظام الاشتراكي فيها كل ثماره[٥٠] . . . » لم يكن بريوبراجنسكي يريد القول إن اجور الصناعة ومداخيل الفلاحين ، في هذه الحقبة الانتقالية ، سوف تنقص بصورة فعلية (كما حدث في الواقع في ظل حكم ستالين) . ما كان يريد قوله وما قاله فعلاً هو أن نتيجة التراكم المكثف لرأس المال قد تكون تنامياً سريعاً للدخل القومي يؤدي الى زيادة مكاسب العمال والفلاحين ، لكن تلك المكاسب ستزداد بصورة أبطأ بمقدار ما يجري الاحتفاظ بنسبة كبرى من الدخل القومي لهدف التثمير .

كان يؤكد أن «قانون » التراكم يفرض نفسه كـ « قوة موضوعية » ، شبيهة من بعض النواحي بـ « قوانين » الرأسمالية التي تحدد سلوك الناس الاقتصادي ، اكان هؤلاء يعون تلك القوانين أو لا يعونها ، وبغض النظر عن افكارهم ونواياهم . إن قانون التراكم الاولي الاشتراكي قد يجبر في الاخير قادة الصناعة المؤممة ، أي قادة الحزب ، على الانخراط في التصنيع المكثف ، وذلك مهما يكن مدى نفورهم من هذا الانخراط . كان الكثيرون منهم ، في ذلك الحين ، يستقبلون بوجل ، لا بل بكراهية ، فكرة ان على صناعة الدولة ، إذا توخت النمو ، أن تمتص موارد القطاع الخاص ، وتشرّكه شيئاً فشيئاً وتحشد ملايين المستثمرين المتفرقين ، الصغار وغير المنتجين ، في تعاونيات واسعة لمنتجين ممكننين . إلا أن « وجهات النظر الذاتية » لأولئك الذين كانوا مسؤولين عن ادارة الشؤون الاقتصادية ، لم يكن لها بالضرورة أهمية حاسمة : « إن البنية الحالية لقطاعنا الاقتصادي المؤمم غالباً ما تبدو اكثر تقدمية من كل جهازنا للادارة الاقتصادية[٥١] . » يمكن البيرقراطية الجديدة أن

---

٤٩ ـ المرجع ذاته ، ص ٢٤٠ .

٥٠ ـ المرجع ذاته ، ص ٦٣ .

٥١ ـ بريوبراجنسكي ، نوفايا ايكونوميكا ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

تقاوم منطق حقبة الانتقال ، لكن عليها في النهاية أن تنسجم معه تماماً . كان بريوبراجنسكي يؤكد أيضاً أن الثورة ستمتد الى أوروبا الغربية في مستقبل قريب ، لكن مشكلة التراكم الأولي قد تبقى « مشكلتنا الكبرى خلال عقدين ، على الاقل[٥٢] » لقد بقيت المشكلة الكبرى خلال حوالى اربعة عقود ، ولا تزال .

لم يكن تروتسكي يشارك بريوبراجنسكي نظراته كلياً ، لكن الاثنين كانا يتشاركان في الفكرة الاساسية ذاتها . امتنع تروتسكي مع ذلك عن الانخراط في اي مساجلة علنية بصدد هذه التباينات الضئيلة . لم يكن يريد إرباك بريوبراجنسكي الذي هوجم بقساوة بعد ذلك بقليل . ولم يكن لتبايناتهما آنذاك أية نتيجة سياسية ، وهي لم تكسب اهمية وتساهم في قطيعة مؤلمة ، إلا بعد أربع سنوات ، حين نفيا كلاهما من موسكو .

إن الطريقة المجردة للغاية التي عرض بها بريوبراجنسكي اطروحته لم تكن معدة للتأثير على تروتسكي . لقد درس هذا المشكلة ذاتها بصورة اكثر تجريبية ، لكن كذلك اقل منهجية . حين كان بريوبراجنسكي يلح ، بلا مبالاة الباحث المطلقة حيال المشكلات التكتيكية ، على ضرورة أن تعمد الدولة العمالية المتخلفة الى «استغلال الفلاحين » ، كان يقدم سلاحاً للدعاوة المعادية للتروتسكية . وفي الحقيقة انه ، حين كان يتكلم على الاستغلال ، كان ذلك بالمعنى الضيق الذي تعطيه الماركسية لهذا التعبير ، حين تقول إن الرأسمالية تستغل حتى العمال ، الذين يتلقون أفضل الاجور ، لسبب وحيد هو أن هؤلاء ينتجون قيمة تزيد عما تمثله اجورهم . كان يوضح أنه في اطار التبادلات بين قطاعي الاقتصاد ، قد يأخذ القطاع الاشتراكي من القطاع الخاص قيمة تزيد عن تلك التي يقدمها له ، علماً ان القيمة الاجمالية ستزداد ايضاً في القطاع الخاص مع حصول الازدياد في الدخل القومي . لكن الانتقادات الرسمية قفزت على الصيغة المثيرة المتعلقة بالاستغلال ، واعطتها معناها الواسع ، الشعبي ، وشوهتها بحيث جرى تقويل بريوبراجنسكي إن افقار الفلاحين والحط من شأنهم هما الامران اللذان يلازمان التراكم بالضرورة . وقد حاول أن يصحح ما قاله و« سحب » صيغته البائسة . إلا أن ذلك زاد الطين بلة : ترك ذلك المجال للاعتقاد بأن الانتقادات لم تكن خاطئة كلياً .

يجب أن نتذكر أنه في المؤتمر الثاني عشر ، حين تكلم تروتسكي على التراكم الاولي الاشتراكي ، سأله كراسين إذا كان هذا التراكم لا يستتبع استغلال الفلاحين . يومذاك

---

٥٢ ـ المرجع ذاته ، ص ٢٥٤ .

قفز تروتسكي لتكذيبه[٥٣] . كان بريوبراجنسكي يطرح الان السؤال ذاته ، ويجيب بالايجاب . كان الجواب واضحاً تماماً ، وفظاً للغاية بالنسبة لتروتسكي . في مطلق الاحوال ، كان تروتسكي يرفض المجازفة بالقول إن قدر الفلاحين أن يتحملوا عبء التراكم الأولي من البداية الى النهاية[٥٤] . ولم يكن تروتسكي يقبل كذلك بوتيرة تصنيع بحدة تلك التي دعا اليها بريوبراجنسكي . لا بل كان بينهما تباينات اكثر خطورة . فرغم كل إحالات بريوبراجنسكي الى الثورة العالمية ، كان قد بنى استدلاله بحيث ينتج عنه أن التراكم الأولي الاشتراكي سيصل به إلى النجاح الاتحاد السوفياتي لوحده ، او ربما الاتحاد السوفياتي المتعاون مع بلدان أخرى متخلفة . كان هذا المنظور يفتقر الى الواقعية ، بنظر تروتسكي : لم يكن يرى ، في الواقع ، كيف يمكن الاتحاد السوفياتي ، لوحده ، ان يبلغ مستوى التطور الاقتصادي في الغرب . وكان ذلك منظوراً يفتح الباب امام مصالحة ذهنية مع اطروحة « الاشتراكية في بلد واحد » . كما لم يكن يمكن تروتسكي ان يقبل ايضاً تصريحات بريوبراجنسكي حول « القوة الموضوعية » للتراكم الأولي ، أو منطق هذا التراكم ، الذي قد يفرض نفسه على قادة الحزب ، ويجعلهم ادواته ، مهما تكن افكارهم ونواياهم . كانت تلك نظرية لا بد انها بدت لتروتسكي شديدة الحتمية ، لا بل قدرية ؛ كانت تستند الى تطور الاشتراكية الآلي ، وقليلاً جداً الى وعي الناس المنخرطين في الصراع وارادتهم وعملهم .

تلك التباينات ، مهما تكن شكلية حتى ذلك الحين ، كانت تنطوي مع ذلك على بذرة خلاف سياسي . ربما كان تروتسكي يفكر بأن بريوبراجنسكي قام بمرافعة مغالى بها لصالح التصنيع ، لكن ذلك لم يكن يمنع من ان يكون الاثنان يدافعان عن الهدف ذاته . لا شك انه كان يعتبر ان بريوبراجنسكي افتقد كثيراً الرهافة السياسية في كلامه على الفلاحين ، لكنه لم يكن اقل صرامة في حكمه على سياسة الدعم الحكومية للفلاحين الاغنياء . اذا نظرنا بصورة مجردة ، يمكن القول إن الاقتصاد الجديد درس الانتقال الى الاشتراكية داخل بلد واحد متخلف . مع ذلك ، لم يكن بريوبراجنسكي يجعل من نفسه ابداً ، على الصعيد السياسي ، محامي « الاشتراكية في بلد واحد » . وفي الاخير ، إذا كان يعتمد على قوانين التراكم ليهز بعنف نزعة قادة الحزب الاقتصادية المحافظة ، فهو لم يكن

٥٣ ـ انظر اعلاه ، الفصل الأول .

٥٤ ـ خلال النقاش ، أشار بوخارين الى هذا الخلاف بين تروتسكي وبريوبراجنسكي . بوخارين ، كريتيكا ايكونوميشسكري بلاتفورمي اوبوزيتسيي ، ص ٥٦ .

يعتمد فقط على تلك القوانين . لقد كان مناضلاً أيضاً ، يطالب البلاشفة بتأدية واجبهم ، دون انتظار أن تدفعهم الى ذلك الضرورات . وهذا ما يوضح كون تروتسكي تابع مساجلات بريوبراجنسكي ربما بتحفظ ، لكن كذلك باهتمام وتعاطف .

أما بوخارين فهاجم اطروحة بريوبراجنسكي بمجملها : وصفها بأنها «مخيفة»[٥٥]. انقض على الصيغة التي تشير الى استغلال الفلاحين . قال إنه إذا كان على البلاشفة أن يعملوا وفقاً لأطروحات بريوبراجنسكي ، فقد يقضون على التحالف بين العمال والفلاحين ويظهرون أن البروليتاريا (ومن يحكمون باسمها) اصبحت طبقة مستغلة جديدة تسعى لتأبيد ديكتاتوريتها . لا يمكن صناعة الدولة ـ ولا يجب ـ أن تنمو عن طريق « التهام » القطاع الخاص في الاقتصاد . على العكس تماماً ، لن يمكنها أن تحقق تقدماً مهماً الا بالاستناد إليه[٥٦] . إن السوق الريفية لا تلعب ، في اطروحة بريوبراجنسكي ، إلا دوراً ثانوياً : بالنسبة اليه ، تكمن سوق تصريف صناعة الدولة في الصناعة بالذات ، بطلبها المتزايد دوماً على المنتجات . اجاب بوخارين قائلاً إن السوق الريفية هي التي يجب ان تشكل ، في بلد كروسيا ، قاعدة التصنيع . إن حاجات المجتمع الريفي هي التي يجب ان تتحكم بوتيرة التوسع الصناعي . عبر عن رعبه وذعره حيال « الاتجاهات الى النزعة الاحتكارية الطفيلية » لاقتصاد الدولة ، وكان يرى أن نشاط الفلاحين الاقتصادي الحر هو الذي يشكل المقابل الرئيسي ، إذا لم يكن الوحيد ، لاتجاهات من هذا النوع .

لكن بوخارين كان يجد نفسه ، هنا ، امام مأزق حاسم ، لأن محاججته كانت تتصدى لجوهر الاشتراكية بالذات . كان يتساءل أين ستجد صناعة الدولة ، إذا لم يكن في السوق الريفية ، « المحرضات التي ستجبرنا على التقدم الى الامام ، والتي ستضمن تقدمنا وتحل محل حافز الاقتصاد الخاص ، المتمثل بالريع[٥٧] ؟ » لما كانت الملكية الفلاحية غير متوافقة ، وفقاً للنظرية الماركسية ، مع الاشتراكية الناجزة ، فقد كان بوخارين يضع في الواقع موضع الجدل الاشتراكي بمجملها . كان يؤكد ضمناً ان القطاع الاشتراكي قد لا يجد في ذاته ما يمكن ان يحل بشكل فعال محل حافز الربح ، وان عليه ، في التحليل الاخير ،

---

٥٥ ـ بوخارين ، المرجع المذكور سابقاً، ص ٢١ .

٥٦ ـ بوخارين ، المرجع ذاته ، ص ١٦ .

٥٧ ـ اجاب بريوبراجنسكي بأن الضغط الذي قد يمارسه العمال المدافعون عن مصالحهم كمستهلكين قد يقدم مقابلاً حاسماً للطفيلية التي ربما ظهرت في اقتصاد موجه بيروقراطياً . والحالة هذه ، لا يمكن لهذا الضغط أن يكون ملموساً الا اذا كان العمال احراراً في الدفاع عن مصالحهم بوجه الدولة ، اي لو كانت متوفرة كل شروط ديمقراطية عمالية .

ان يبحث عن مصدر تطوره في الربح ، اي في القطاع الخاص [٥٨] . كان بوخارين يعتمد ، مثل نارودني ، او ما يشبه ذلك ، على الفلاحين لإنقاذ الأمة من الوطأة الاحتكارية لاقتصاد الدولة . لم يكن يجزم فقط بأنه ينبغي ترك الفلاح يؤمن الازدهار لمزرعته ، بل كذلك انه ينبغي لحاجات الفلاحين ان تحدد وتيرة تقدم الامة نحو الاشتراكية.في مثل تلك الظروف ، قد يكون التقدم بطيئاً ، لا بل بالغ البطء ، لكن ليس من سبيل آخر : « . . . سوف نتقدم بخطى ضئيلة ، خطى بالغة الضآلة ، جارّين خلفنا عربة الفلاحين الضخمة[٥٩] » . هذه الرؤ يا لسير الامة الروسية الى الامام ، ربما كانت تولستوية اكثر منها ماركسية ؛ كانت في كل حال متناقضة بصورة جازمة مع مفهوم بريوبراجنسكي : « علينا أن نجتاز حقبة الانتقال هذه بأسرع ما يمكن . . . نحن خاضعون للقانون الحديدي للتراكم الأولي . » كان البرنامجان هذان برنامجين متعارضين تماماً .

إن منظّرين يتحادثان بلغة باطنية إلى هذا الحد أو ذاك لا يطلقان العنان للأهواء خارج بعض الحلقات الضيقة. لكن كان محتوماً أن تجري استعادة المشكلات بشكل اكثر شعبية وأن تصبح مجالاً لنقاش سياسي واسع . لم تكن المعارضة التروتسكية ، المضطرة للصمت والمتفرقة ، هي التي بادرت قبل غيرها إلى النقاش . إن اقوى رد فعل ضد الشعبوية الجديدة لدى بوخارين ،و« تملقـ » ـه للفلاح الغني وتصالحه العملي مع تخلف روسيا الصناعي ، جاء من لينينغراد . ففي المنظمة الحزبية لتلك المدينة بوجه خاص ، بقيادة زينوفييف ، كان يتكون يسار جديد يرد على اليمين الجديد. كانت لينينغراد قد بقيت المدينة الأكثر بروليتارية بين المدن السوفياتية ، المدينة التي كانت التقاليد الماركسية واللينينية هي الأقوى فيها . كان عمالها يشعرون بصورة أشد مما في أي مكان آخر بالحاجة الى سياسة صناعية جريئة . كانت مؤسساتها الصناعية وورش الانشاآت البحرية فيها ، المفتقرة الى الحديد والفولاذ ، تسير ببطء. وكان مناضلو لينينغراد أقل الناس قدرة على القبول بأن يملي الموجيك وتيرة إعادة البناء الصناعي . كانوا أقل الناس قدرة على الاعتياد على فكرة التقدم ببطء ، جارّين خطى مسترخية خلف عربة الفلاحين الضخمة والثقيلة . كان كل عداء روسيا المدينية للنزعة المحافظة الخاملة الخاصة بروسيا الريفية يتركز في العاصمة القديمة . ورغم تبقرط منظمة

---

٥٨ ـ كان الحزب بمجمله ، ومعه بوخارين ، لا يزال اميناً للنظرية التي ارساها لينين حول تطور التعاونيات في الزراعة ، إلا انه لم يكن لذلك انعكاس عملي على المستوى السياسي . كان بريوبراجنسكي يوضح ان نظرية لينين غير ملائمة لأنها لا تشدد بصورة رئيسية على تعاونيات انتاج ، بل على اشكال اقل اهمية من التعاون .

٥٩ ـ بوخارين ، المرجع المذكور سابقاً ، ص ٩ .

الحزب ، ومع أنها توقفت منذ زمن بعيد عن تمثيل العمال ، فقد كانت تعكس مع ذلك ، والى حد ما ، موضوعات الاستياء الرئيسية . كان كوادرها ومحرضوها يتأثرون بالمشاعر السلبية وانعدام الصبر لدى جمهور العاطلين عن العمل الذين كان عليهم ان يواجهوهم . لقد وصل المزاج الشعبي الى مختلف درجات الهرم المحلي للحزب ودفعها إلى الوقوف بوجه اليمين الجديد . كان زينوفييف هو الذي قاد طيلة الجزء الأكبر من عام ١٩٢٥ الهجوم ضد مدرسة بوخارين ؛ كل كومونة الشمال انخرطت في العمل ، واندفع الكومسومولیون إلى النضال بحماس ، بينما أصلت صحافة لينينغراد اليمين بنارها .

في تلك الفترة ، ظهر انشقاق جديد داخل المكتب السياسي . فبعد أن هزم المثالثون تروتسكي وطردوه من مفوضية الحرب ، انهار تضامنهم بعد أن فقد مبررات وجوده . وقد روى مولوتوف فيما بعد أن الخصومة بدأت في كانون الثاني/يناير ١٩٢٥ ، حين اقترح كامينيف أن يحل ستالين محل تروتسكي في مفوضية الحرب . وفي رأي مولوتوف ، أن زينوفييف وكامنييف كانا يأملان بذلك إبعاد ستالين عن الأمانة العامة[٦٠] . (كانت راودت زينوفييف وكامنييف تلك الفكرة في وقت أبكر بكثير ، منذ تشرين الأول/اوكتوبر ١٩٢٣ ، وذهبا حتى إلى حد جس نبض تروتسكي . لكن هذا الأخير لم يجد آنذاك أي فائدة من التحالف مع زينوفييف ، الذي كان يعتبره أخطر خصومه[٦١] .) أما ستالين فيرجع بالنزاع الى بداية عام ١٩٢٤ ، حين طلب زينوفييف طرد تروتسكي من الحزب : كان ستالين قد أجاب بأنه لا يوافق على « قطع الرؤوس وإهراق الدم[٦٢] » . وحين غادر تروتسكي مفوضية الحرب ، اقترح زينوفييف بأن يعهد اليه بمركز صغير في ادارة صناعة الجلد ؛ اما ستالين فأقنع المكتب السياسي بتعيين تروتسكي في منصب أقل إذلالاً لتروتسكي . وفي نوبة غضب ، طرح زينوفييف الصوت على منظمة لينينغراد ، متهماً ستالين واعضاء آخرين في المكتب السياسي بالتعاطف مع تروتسكي وبانهم هم بالذات « نصف ـ تروتسكيين » .

لكن تلك المكائد الصغيرة لم تكن تكشف حتى ذلك الحين اي خلاف ذي طبيعة

---

٦٠ ـ انظر ١٤ سبيزد ف . ك . ب (ب) ، ص ٤٠٤ .

٦١ ـ ان افشاآت فوروشيلوف بهذا الصدد ، بحضور تروتسكي ، لا تتفق مع تكذيب تروتسكي . المرجع ذاته ، ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ . وقد أكد زينوفييف صحتها بكاملها . المرجع ذاته ، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٦ .

٦٢ ـ « اليوم يُسقطون رأساً ، وغداً آخر ، وبعد غد غيره . ـ من سيبقى معنا ، في النهاية ، داخل الحزب ؟ » ستالين ، سوشينينيا ، جزء ٧ ، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .

سياسية صرفة . ولم يلاحظ اعضاء اللجنة المركزية علامات شقاق سياسي بين المثالثين إلا في الاسبوع الاخير من نيسان/ابريل ١٩٢٥ . ففي نـص قرار معد لمؤتمر الحزب التداولي الوشيك ، كان ينوي ستالين المناداة بنظرية الاشتراكية في بلد واحد . كان قد صاغ الفكرة قبل اشهر عديدة ، لكنه انتظر الى الآن كي يحاول للمرة الأولى الحصول على التأييد الرسمي لنظريته وإدخالها الى مذهب الحزب . وقد عارضه زينوفييف وكامينيف . ومع ذلك ، لا أحد بين المثالثين كان يرغب في تشكيك الحزب بكشف انقسامهم بعد وقت بالغ القصر من نزاعهم ضد تروتسكي . خنقوا النقاش ، واتفقوا على مشروع قرار غامض جاء يذكّر الحزب في سطوره الأولى بان لينين لم يكن يوماً مؤيداً لنظرية الاشتراكية في بلد واحد ، بينما يأخذ في نهايته على تروتسكي معارضته لهذه النظرية ذاتها[٦٣] . مستقوين بهذا النص ، الذي كان غريباً في كل حال ، ظهر المثالثون في المؤتمر التداولي في جبهة موحدة . وظلوا كذلك موحدين بشأن مشكلات ذات أهمية عملية فورية . وصوت المؤتمر الى جانب تدابير اكثر ليبرالية بالنسبة للاستثمارات الزراعية والتجارة الخاصة ، وأيد خفضاً للضرائب على المنتجات الزراعية . وكانت تلك القرارات متأثرة بوضوح بالمدرسة البوخارينية . ولم يعترض اي من القادة عليها . وذلك يعود جزئياً لأنهم ذعروا من الموسم الرديء في ذلك العام ، ولأنهم كانوا يعترفون جميعاً بالحاجة لتقديم تشجيعات جديدة للمستثمرين الزراعيين ، وجزئياً أيضاً لأن تلك القرارات صيغت بعبارات ملتبسة للغاية بحيث يمكن لأي كان ان يستخلص منها أي شيء .

ولم ينفجر علناً انقسام المثالثين إلا بعد أربعة اشهر او خمسة ، اي في نهاية الصيف . فزينوفييف وجماعة لينينغراد لم يشنوا هجومهم إلا على بوخارين وريكوف ، وعلى « الأساتذة الحمر » الشعبويين الجدد . وبذلك ساعدوا ستالين على تثبيت وضعه . كان المكتب السياسي لا يزال يتألف من الاشخاص السبعة التالين : ستالـين ، تروتسكي ، زينوفييف ، كامينيف ، بوخارين ، ريكوف ، تومسكي . وقد تحالف قادة اليمين الجديد ، بوخارين وريكوف وتومسكي مع ستالين وشكلوا معه الأكثرية . إن حساب التصويت داخل المكتب السياسي كان يفرض ، في حال سعى زينوفييف وكامينيف الى إزاحة ستالين ، ان يحاولا التحالف مع بوخارين بدلاً من مهاجمته . وهما لم يفعلا ذلك لأنه في هكذا حالة ، كانت القناعات الشخصية والتباينات السياسية تبدو لهما أهم من المنافع الشخصية .

---

٦٣ ـ ك ب س س ف «ريزولوتسياخ» ، ج ٢ ، ص ٤٥ ـ ٦٠ ؛ بوبوف ، المرجع المذكور ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ .

في غضون ذلك ، تفاقمت الازمة في البلاد . لم تكف التنازلات المقدمة للفلاحين الاغنياء لتهدئتهم . وفي الصيف ، كانت كميات القمح المسلّمة أدنى بكثير من التوقعات وجدت الحكومة نفسها مجبرة فجأة على وقف تصدير الحبوب والغاء الطلبات على الآلات والمواد الأولية الأجنبية التي كان سيتم دفع ثمنها عن طريق تلك الصادرات . عرف الانبعاث الصناعي تراجعاً ربما كان مؤقتاً إلا أنه كارثي . واصبحت المنتجات الغذائية نادرة في المدن وازداد سعر الخبز . وقد اضطر قادة الحزب لاعادة درس التدابير الواجب اتخاذها لتهدئة التوتر بين المدينة والريف . طلب بوخارين الى المكتب السياسي أن يقدم تنازلات جديدة للمزارعين ، وتسهيلات جديدة . وفي تلك الفترة بالذات أطلق نداءه المشهور للفلاحين : « اغتنوا ! » أكد أنه من الضروري الاجهاز نهائياً على القوانين التي تحول دون تراكم رأس المال على صعيد الزراعة . أجاب أولئك الذين أغضبهم اقتراحه والذين كانوا يخشون الكولاك : « طالما بقينا في أسمالنا . . . يمكن أن يهزمنا الكولاك اقتصادياً . لكنه لن يفعل ذلك إذا سمحنا له بإيداع توفيراته في مصارفنا . سوف نساعده ، لكنه سيساعدنا أيضاً . وفي النهاية ، سيعترف حفيد الكولاك بجميلنا لأننا عاملنا جده بهذه الطريقة[٦٤] . » وقد وضع تلامذة بوخارين النقاط على الحروف ، متكلمين على نيب جديدة ، وصاغوا الفكرة القائلة بأنه قد يكون ممكناً دمج الفلاح الموسر دمجاً سلمياً في الاشتراكية . اكد أحدهم ، المدعو بوغوشيفسكي ، في البلشفي ، الصحيفة السياسية الخاصة باللجنة المركزية ، ان الكولاك لم يعد قوة اجتماعية ينبغي أن يحسب لها حساب ؛ قال إن الكولاك لم يعد اكثر من بعبع ، أوشبح ، أونموذج اجتماعي فان لم يبق منه غير عدة عيّنات[٦٥] » .

أجابت لينينغراد بانفجار غضب . كان عمالها يعانون يومياً من قوة الكولاك ومقدرته ، حين يقفون أمام الخبّاز . وفي لجنة موسكو ، استند كامينيف الى احصاآت حديثة ليظهر الى اي حد كانت المدن تخضع ، بما يخص الضرورات الأولية لاستمرارها ، لأقلية صغيرة من الفلاحين . أبدى ذعره وهو يلاحظ أن اللجنة المركزية توافق على هذا الوضع لا بل تميل إلى الاستجابة للمطالبة بنيب جديدة . طلبت منظمّة لينينغراد ان يؤلب الحزب الفلاحين الفقراء من جديد ضد الفلاحين الاغنياء . واوضحت انه إذا حاول الحزب استدرار مودة الكولاك وحظوتهم ، خاصم بذلك الجمهرة الكبرى من الفلاحين وسمح للكولاك بأن يصبحوا أسياد روسيا الريفية الحقيقيين . ولا

٦٤ - بولشيفيك ، عدد ٨ ، ١٩٢٥ .

٦٥ - البلشفي ، عدد ٩ - ١٠ ، ١٩٢٥ .

جدال في ان ذلك كان صحيحاً[٦٦] . لكن كانت هنالك نقطة ضعف في هذا الانتقاد : ذلك أن الفلاحين الفقراء والمتوسطين لم يكونوا ينتجون الفوائض الزراعية التي كانت المدينة بحاجة اليها . لذا كانت مراتب الحزب تخشى اكثر من اي وقت آخر « مفاقمة الصراع الطبقي في المجتمع الريفي » واجتذاب عداء الكولاك . اصبحت اللجان الريفية أكثر فأكثر حذراً في تنظيم العمال الزراعيين وفي دعم مطالبهم . جرى الاكثار من الكلام على عودة وشيكة للاراضي المؤممة الى ايدي المالكين الفرديين . نشر مفوض الزراعة في جيورجيا « اطروحات » ، اي مشروع مرسوم بهذا المعنى ؛ وانطرحت مسألة إصدار مراسيم مماثلة في سائر أنحاء القوقاز وفي سيبيريا . ستالين ذاته لم يكن يرى لماذا لا تعاد سندات الملكية للفلاحين « حتى لمدة اربعين سنة » . هو ايضاً عارض بحزم كل ما يمكن ان « يؤجج صراع الطبقات في الارياف »[٦٧] .

تجاوزت المساجلة إذاك إطار السياسة الجارية وتناولت المشكلات الاكثر عمومية التي كانت تميل اليها . تساءل مناضلو لينينغراد : هل قمنا بثورة بروليتارية ، نعم أو لا ؟ هل سنضحي بمصالح الشغيلة الحيوية على مذبح مصالح الفلاحين الاغنياء ؟ ما الذي يحدث إذاً لحزبنا فيتخلى عن الصراع الطبقي في الريف ويتحول الى مشجع للرأسمالية الريفية ؟ ما الذي يدفع منظّرنا الرئيسي للصياح بملء فيه : اغتنوا ! ؟ لماذا يرضخ كل هذا الحشد من قادتنا ويبدون استعدادهم للتصالح مع تخلف روسيا ؟ ما الذي حل بالحماس الثوري للأيام الأولى ؟ ووصل مناضلو لينينغراد إلى استنتاج أن كل ما ناضلوا لأجله كان في خطر مبين ، وان مثل الحزب العليا تم تزييفها ، وجرى التخلي عن المبادىء اللينينية . تساءلوا إذا كانت الثورة تستنفد قواها كما جرى لثورات اخرى ، لا سيما الثورة الفرنسية . لم يكن زينوفييف او تروتسكي ، او اي مفكر مجيد آخر ، بل عامل عصامي يشغل منصب سكرتير منظمة الحزب في لينينغراد ، هو الذي اجرى قبل غيره في خطاب علني ، مقارنة معبرة بين وضع البلشفية الحالي ووضع اليعقوبية في فترة أفولها . كان بيير زالوتسكي أول من لفت الانتباه إلى الخطر « الترميدوري » الذي كان يهدد الثورة الروسية . هذه الفكرة ذاتها سنجدها بعد قليل في كل الكتابات التي يفضح تروتسكي فيها الستالينية[٦٨] .

---

٦٦ ـ فيما بعد ، في وقت لاحق من العام ، وبالتحديد في المؤتمر الرابع عشر ، اعترف الناطقون بلسان الستالينية بالوقائع . اعلن ميكويان مثلاً : « إننا نبذل جهوداً كبرى لاعادة كسب الفلاح المتوسط الذي اصبح السجين السياسي للكولاك . » ١٤ سييزد ف ك ب (ب) ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ . وكان مولوتوف يعلن بصورة اكثر تغليفاً : «لا نكسب الى جانبنا في الوقت الراهن الفلاح المتوسط ، في الواقع .» المرجع ذاته ، ص ٤٧٦ .

٦٧ ـ ستالين ، سوش . ، ج ٧ ، ص ١٧٣ ـ ١٨١ ، وغيرها .

٦٨ ـ ١٤ سييزد ف ك ب (ب) ، ص ١٥٠ ـ ١٥٢ .

قال زالوتسكي إن البلشفية قد تستنفد نفسها ، الى حد إفساد نفسها بنفسها . قد يأتي حفارو قبرها من صفوفها بالذات ، وقد يكون هؤلاء من بين أولئك القادة الذين يسقطون امام الاغراءات الرجعية . كانت تلك صيحة لاعادة إرساء المثل الاعلى الثوري انطلقت من لينينغراد . فليبق قادتنا مخلصين للطبقة العاملة والمثل الاعلى الاشتراكي ! فلتبق المساواة مثلنا الأعلى ! ربما دولة العمال فقيرة جداً بحيث لا يمكن هذا الحلم بالمساواة أن يتحقق ، لكن عسى ألا يجري تحويل هذا الحلم إلى مسخرة ، على الأقل !

كان زينوفييف هو من جعل نفسه ناطقاً بلسان هذا الاتجاه في بداية ايلول/سبتمبر ، كتب دراسة بعنوان **فلسفة الفترة الراهنة** ، سمح له المكتب السياسي بنشرها بعد أن بتر المقاطع الأكثر إثارة . كان أحد المقاطع التي تعرضت لمقص الرقابة يقول : هل تودون ان تعرفوا بم يحلم الشعب في أيامنا هذه ؟ إنه يحلم بالمساواة . . . إذا أردنا أن نكون الناطقين الأصيلين بلسان الشعب ، علينا ان نكون في طليعة نضاله لأجل المساواة . . . باسم ماذا انتفضت الطبقة العاملة ، وخلفها الجمهور الشعبي الاوسع ، إبان ايام أوكتوبر الكبرى ؟ باسم ماذا تبعت لينين الى المعركة ؟ باسم ماذا . . . تبعت رايته خلال سنوات الثورة القاسية الاولى ؟ . . . كان ذلك باسم المساواة(٦٩) . . . » .

في الفترة ذاتها تقريباً نشر زينوفييف كذلك كتابه ، **اللينينية** ، الذي كان في الوقت ذاته شرحاً لمذهب الحزب وتفحصاً نقدياً للمجتمع السوفياتي . كان يحلل النزاعات والتوترات بين القطاعين الخاص والاشتراكي في الاقتصادي ويبرهن على أنه كان ثمة عناصر قوية عائدة لـ «رأسمالية الدولة » حتى في القطاع الاشتراكي . كانت الملكية القومية للصناعة تمثل العنصر الاشتراكي في القطاع العام ، لكن العلاقات بين الدولة ـ المستخدمة والعمال ، والقيادة البيروقراطية ، وسلّم الأجور ، كانت تحمل سمات الرأسمالية . للمرة الأولى ، كان زينوفييف ينتقد نظرية الاشتراكية في بلد واحد بصورة مكشوفة . الاّ أنه إذا كان على الاتحاد السوفياتي أن يبقى معزولاً خلال فترة غير محدودة، يمكنه أن ينجز تقدماً كبيراً في بناء الاشتراكية ، لكن ليس في وسعه الأمل بتحقيق الاشتراكية الكاملة في وضعه كبلد فقير ومتخلف ومعرض للتهديدات الداخلية والخارجية . لن يمكن الاتحاد السوفياتي ان يتخطى الغرب الرأسمالي اقتصادياً وثقافياً ، وأن يلغي الفروق الطبقية وينجز اضمحلال الدولة . ينتج عن ذلك أن نظرية الاشتراكية في بلد واحد طوباوية إلى أبعد

---

٦٩ ـ اورد المقاطع المراقبة اولانوف في المؤتمر الرابع عشر . المرجع ذاته ، ص ١٩٥ .

الحدود . ولم يكن لدى البلاشفة حاجة أبداً لإيهام الشعب بسراب من هذا النوع ، لا سيما إذا كان ذلك يستتبع التخلي عن كل أمل بالثورة في الخارج وقطيعة كاملة مع الأممية اللينينية . ذلك كان في الواقع السبب الاساسي للشقاق الجديد . كان اليمين الجديد يحدد منظوراته السياسية بتعابير قومية وانعزالية ضيقة ، بينما كان اليسار ينادي بالتراث الأممي للحزب ، رغم كل الهزائم التي أحاقت بالشيوعية العالمية .

في تلك الفترة بالذات ، أي في صيف ١٩٢٥ ، حدد ستالين وتلامذته موقفهم الوسطي . دعم ستالين السياسة الممالئة للموجيك، عن قناعة ومن قبيل الانتهازية أيضاً ، لأنه كان بحاجة لدعم بوخارين وريكوف . لكنه كبح حلفاءه في اليمين وأنكر تصريحاتهم الأكثر صخباً ، من مثل شعار بوخارين : « اغتنوا ! »[٧٠] . فلما كان ستالين حذراً وحاذقاً وغير مهتم اطلاقاً بالدقائق المذهبية والمنطقية ، استعار افكاراً وشعارات من اليمين كما من اليسار ، وغالباً ما دمجها بطريقة غير لائقة إطلاقاً . لكن هنا كان يكمن جزء كبير من قوته . كان يتوصل إلى تشويش كل المشكلات وبث الفوضى في كل النقاشات . وحين كان يؤخذ عليه واحد من تصريحاته ، كان قادراً دوماً على إطلاق آخر يقول العكس تماماً . هذه الصيغ الانتقائية والغامضة تستحق أن تظهر في دستور البيروقراطي المكتمل والانتهازي الحذر . لكنها كانت تفتن كذلك الكثير من الناس الشرفاء، لكن الخجولين ومشوشي التفكير . وكما في كل مجموعة « وسيطة » ، كان بعض الستالينيين يميلون الى اليسار وآخرون الى اليمين . كان كالينين وفوروشيلوف قريبين إلى بوخارين وريكوف ، بينما مولوتوف وأندرييف وكاغا نوفيتش «ستالينيون يساريون» . إن التباينات بين أنصار ستالين دفعته أيضاً إلى التمايز عن اليمين . ولم يكن تضامنه كاملاً مع بوخارين إلا على صعيد مشكلة واحدة ، هي مشكلة الاشتراكية في بلد واحد .

في بداية تشرين الأول/اوكتوبر ، اجتمعت اللجنة المركزية لتهيئة المؤتمر الرابع عشر ، الذي كان سينعقد في نهاية العام . قدم أربعة من اعضاء اللجنة المركزية ، هم زينوفييف وكامينيف وسوكولنيكوف وكروبسكايا ، اقتراحاً مشتركاً يطالب بنقاش حر يمكن لأعضاء الحزب أن يعطوا خلاله رأيهم بصدد كل النقاط التي كانت موضوع سجالات . علاوة على ذلك ،أعلم المثالثان اللجنة بأنهما ينويان الرجوع الى القاعدة بوجه ستالين وبوخارين .

٧٠ـ ستالين ، المرجع المذكور ، ص ١٥٩ .

لم يكن سوكو لنيكوف يشارك زينوفييف وكامينيف كل أفكارهما. فكمفوض للمال، كان قد فعل أقصى ما يمكن في السنوات الأخيرة لتشجيع المنشأة الخاصة ، وكان يعتبره الكثيرون كركن من اركان اليمين . لكنه هو الآخر كان بدأ ايضاً يطرح على نفسه أسئلة حول توجه سياسة ستالين وقدرته المتعاظمة . لذا دعم مشروع القرار المطالب بنقاش عام . واصطفت كروبسكايا بلا تحفظ إلى جانب زينوفييف وكامينيف وشجعتهما على أن يكشفا للحزب بكامله المشكلات التي كانت تقسم المكتب السياسي ، وذلك دون تخفيف حدة تلك المشكلات . لم تكن رضخت بعد لرؤ ية ستالين يبقى في الامانة العامة رغم إرادة زوجها الجازمة . كانت تنظر بعداء الى نفوذ المدرسة البوخارينية المتعاظم . حاولت أن تأخذ موقفاً علنياً ضد تلك المدرسة ، لكن المكتب السياسي لم يسمح لها بذلك . كان لرأيها وزن كبير لدى أعضاء الحزب الذين يعرفون أنها كانت أقرب وأقدم رفيق للينين ، وانها لم تكن امرأته وحسب ، بل أمينة سره ومعاونته أيضاً . كانت كروبسكايا عازمة الآن على اتخاذ موقف لصالح تفسير زينوفييف للينينية وضد نظرية الاشتراكية في بلد واحد .

إذ طالب اعضاء اللجنة المركزية الأربعة بنقاش علني ، كانوا يتصرفون وفقاً للقانون والعرف : لم يكن الحزب عقد حتى ذلك الحين مؤتمراً من دون نقاش تمهيدي . إلا أن اللجنة المركزية رفضت وحظرت على زينوفييف وكامينيف أن ينصرفا علناً لأي نقد للسياسة الرسمية . هكذا وجد المثالثان نفسيهما في الارباك نفسه الذي وضعا تروتسكي فيه سابقاً . كان الكلام علانية بالنسبة إليهما يعني المس بمبدأ التضامن الوزاري الذي يربطهما كعضوين في اللجنة المركزية والمكتب السياسي . لكن الامتناع عن الكلام يعني العمل ضد ضميرهما وضد مصلحتهما . في حين كانا يصمتان ولا يهاجم انصارهما غير البوخارينيين ، كان ستالين يعمل بلا كلل لاقصائهما من السلطة ، كان كامينيف مارس حتى ذلك الحين نفوذاً راجحاً على لجنة موسكو . إلا أن الأمين العام عزل سراً ، في الصيف ، كل مساعدي كامينيف من وظائفهم ، واستبدلهم بعناصر تدعم الاكثرية الجديدة بإخلاص . لكن في لينينغراد ، كان زينوفييف وانصاره في مواقع صلبة ، فلم يستطع ستالين ان يفعل شيئاً ضدهم مؤقتاً . وإذا كان تذرع زينوفييف ، لأجل السكوت ، بإجماع اللجنة المركزية ، فقد كان انصاره أحراراً في الكلام . ولما كانوا ثائرين غضباً وحماساً ، فقد استعدوا للهجوم إبان المؤتمر على السياسة الرسمية .

بين تشرين الاول/اوكتوبر وكانون الاول/ديسمبر ، انخرطت موسكو ولينينغراد عميقاً ، وبحدة ، في امتحان قوة يكاد يمكن اخفاؤه . في العاصمتين ، جرى تلفيق

انتخابات المندوبين الى المؤتمر : لم تنتخب موسكو إلا مرشحي ستالين وبوخارين ، بينما لم تنتدب لينينغراد إلا أنصار زينوفييف . وحين اجتمعت اللجنة المركزية من جديد ، قبل ثلاثة أيام من افتتاح المؤتمر ، كان واضحاً انه لا شيء يمكن ان يحول دون نزاع مكشوف . كان زينوفييف وكامينيف قررا الاعتراض علناً على التقرير بشأن السياسة الرسمية وتقديم تقريرهما المعاكس . وفي ١٨ كانون الأول/ديسمبر ، تاريخ افتتاح المؤتمر ، فجر زينوفييف الخصومة وفضح خصومه على صفحات لينينغراد سكايا برافدا بالتعابير التالية :

« إنهم يتبادلون إعلانات صاخبة حول الثورة العالمية ، لكنهم يصورون لينين كملهم ثورة اشتراكية على المستوى القومي . يناضلون ضد الكولاك ، لكنهم يطلقون شعار : اغتنوا ! يتكلمون بقوة بالغةٍ على الاشتراكية ، لكنهم ينادون بروسيا النيب بلداً اشتراكياً . « يؤمنون » بالطبقة العاملة ، لكنهم يطلبون الى الفلاحين الاغنياء أن يهرعوا لنجدتهم . »

كان الصراع بين البوخارينيين والزينوفييفيين يدور منذ عدة اشهر ، بينما نار النزاع بين المثالثين كامنة منذ ما يقارب العام . وربما يمكن التفكير بأن تروتسكي كان يرى في ذلك التبدلَ في المواقع السياسية الذي انتظره وفرصة العمل. رغم ذلك ، بقي على الحياد طيلة تلك الفترة ولم يقل كلمة واحدة حول المشكلات التي كانت تقسم الحزب ، كما لو كان يجهلها . بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً ، اعترف في مكسيكو ، حين مثل أمام لجنة ديوي ، بأنه ذهل خلال المؤتمر الرابع عشر ، حين رأى زينوفييف وكامينوف وستالين يتواجهون كأعداء . قال : « لم أكن أتوقع ابداً ذلك الانفجار . انتظرت اثناء المؤتمر في حالة من الحيرة والشك ، لأن الوضع كان بكامله يتطور . كانت الأمور تبدو لي مشوشة للغاية[٧١] . »

هذه الرواية ، بعد الحدث بسنوات طويلة ، يمكن ان تبدو لنا غير قابلة للتصديق بتاتاً . لكن الملاحظات غير المنشورة التي دونها تروتسكي ذاته اثناء المؤتمر تثبت ذلك كلياً[٧٢] . شرح أمام لجنة ديوي مدى دهشته قائلاً إنه كان في تلك الفترة، بالتأكيد، عضواً في المكتب السياسي ، لكن المثالثين اخفوا خلافاتهم بعناية ولم يتناقشوا بصددها إلا في غيابه ، في خلوات اللجنة المصغرة التي كانت تلعب دور مكتب سياسي حقيقي . ومع ان

---

٧١ ـ حالة ليون تروتسكي ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .

٧٢ ـ انظر مختصر ملاحظاته . النص مقتطف من المحفوظات .

التوضيح ينطوي على صحة لا جدال فيها ، إلا أنه لا يفسر غير اشياء قليلة جداً . بادىء ذي بدء ، كان النقاش الاساسي حول اطروحة الاشتراكية في بلد واحد قد تم علانية ، ولو أن تروتسكي تابعه ، لما كان أمكن إلا أن يفهم كل اهميته ومداه . وهذا ما لم يفعله ، حسبما يبدو . ثم إن زينوفييف وكامينيف وكروبسكايا وسوكولنيكوف كانوا طلبوا افتتاح نقاش علني ، لا في خلوة اللجنة المصغرة ، بلا خلال جلسة بكامل الاعضاء للجنة المركزية في تشرين الاول/اوكتوبر . لكن حتى لو لم يتصرف هؤلاء الاخيرون هكذا ، وحتى لو لم يمكن النقاش العلني حول اطروحة الاشتراكية في بلد واحد ان يقدم إشارة إلى الاصطفاف السياسي الجديد ، ثمة حاجة لتفسير كيف أن مراقباً بموقع تروتسكي الممتاز وله اهتمامه بالموضوع ويتمتع بفطنته ونفاذ بصره ، أمكن ان يبقى جاهلاً للتطور السياسي وعامياً عن الدلائل العديدة التي كانت تكشفه . كيف أمكنه أن يبقى أصم إزاء الهدير الذي يجيء من لينينغراد منذ أشهر ؟

نستنتج من ذلك أن دهشته كانت نتيجة خطأ في المراقبة والحدس والتحليل. علاوة على ذلك ، من غير الممكن التصديق أن رادك وبريوبراجنسكي وسميرنوف وأصدقاء تروتسكي الآخرون لم يعلموه بما كان يجري ، وأنه ما من أحد بينهم حاول لفت انتباهه إلى هذا الموضوع . من الواضح أن تروتسكي أغلق عينيه واذنيه . عاش كما في عالم آخر ، منطوياً على ذاته ، وغارقاً في أفكاره . شغلته كليا اهتماماته العلمية أو الصناعية ، وأعماله الأدبية ، التي كانت تحميه الى حد ما من الشعور بالاحباط الذي كان يمكن ان يحس به . كان يهرب من كل الأمور الداخلية للحزب . لما كان متيقناً من تفوقه ، وممتلئاً بالاحتقار حيال خصومه ، وقرفاً من طرقهم في المجادلة ومن نفاقهم ، رد باللامبالاة إزاء أعمالهم وحركاتهم . خضع للانضباط الذي قيده به خصومه ، لكنه سار رافع الرأس وتجاهلهم . بعد ذلك بسنوات ، سمع مؤلف هذا الكتاب من يروي في موسكو أن تروتسكي كان يأتي في تلك الفترة فيحضر جلسات اللجنة المركزية بدقة ؛ كان يجلس في مكانه ، ويفتح كتاباً هو في الغالب رواية فرنسية يغوص فيها دون أن يعير المناقشات أدنى انتباه. وحتى لو كانت هذه القصة من نسيج الخيال فهي معبرة كفاية عن موقف تروتسكي . كان في وسعه أن يشيح بنظره عن خصومه ، لكنه لم يكن ينظر اليهم بتجرد . فكان قريباً جداً اليهم ، يراهم كأناس وضيعين ، وأنذال ، وغشاشين ، وهو ما يصح عليهم احياناً . وكان ينسى نصفياً أن هؤلاء الرجال بالذات كانوا كذلك قادة بلد كبير وحزب كبير وأن ما كانوا يقولونه كان ذا أهمية تاريخية عظيمة .

زد على ذلك أنه لو أصغى تروتسكي الى ما كان يقوله مناضلو لينينغراد ، لفهم فورا

أنهم كانوا يدافعون عن القضية التي دافع عنها بذاته ، ويهاجمون المواقف التي هاجمها هو ذاته . فكمعارضين ، كانوا ينطلقون من النقطة بالذات التي انسحب منها . كانوا يستندون إلى مقدماته ويستعيدون انتقاداته مندفعين بها بعيداً . كان أخذ على المكتب السياسي افتقاده المبادرة ، وإهماله الصناعة ، وإبداءه الكثير الكثير من المراعاة للقطاع الخاص . وهو ما كان يفعله معارضو لينينغراد . كان قد عبر عن قلقه وهو يلاحظ النزعة القومية ضيقة الافق التي كانت تدفع قيادة الحزب الى تحديد سياسة روسيا والتفكير بمستقبلها كما لو كان يمكنها الاستغناء عن بقية العالم . إن زينوفييف وكامينيف ، اللذين كانا يكنّان النفور ذاته من « النزعة القومية ضيقة الافق » ، كانا أول من انتقد علانية اطروحة الاشتراكية في بلد واحد . لا بد أن تروتسكي نظر في البدء الى افكار بوخارين وستالين حول الموضوع كما لو كانت النواتج المثابرة لفلسفة كلامية نكدة لا تستأهل أن يعيرها انتباهه . هكذا مر ما يقرب من عام ونصف لم يعبر خلاله عن اي رأي حول تلك الأطروحة عن الاشتراكية في بلد واحد التي كانت تتحول الى المذهب البلشفي الرسمي الجديد ، المذهب الذي سيناضل ضده حتى نهاية حياته . لقد رد زينوفييف وكامينيف بشدة بمواجهة بعض ما كان يستتبعه المذهب الجديد ، وما كان يمكن تروتسكي إلا أن يوافق على الانتقادات التي كان يوجهها الاثنان بهذا الصدد ، لأنها كانت تخرج من ترسانة الاممية الماركسية التقليدية . كما أن مطالب المساواة التي كانت صادرة عن لينينغراد ما كان يمكن إلا أن تضرب ، هي الأخرى ، على وتر حساس من أوتاره . لم يفعل زينوفييف وكامينيف وسوكولنيكوف وكروبسكايا غير ترداد كلام تروتسكي حين احتجوا ضد خنق حرية التعبير عن الرأي داخل الحزب . مثله قالوا إن التحالف مع النيبمان والكولاك والبيروقراطي أمر فظيع ، وكانوا يطالبون ، مثله ، بإعادة الديمقراطية البروليتارية . كان تروتسكي قد حذر الحزب من « الانحطاط » على صعيد قيادته ، وكان هذا الخطر بالذات ، « الخطر الترميدوري » هو الذي يدفع لينينغراد الى اطلاق صيحة إنذارها الدرامية . كانت تلك هي الافكار والشعارات التي سيعود اليها تروتسكي بعد قليل ويعرضها خلال السنوات اللاحقة . ومع ذلك ، حين سمعها من فم خصوم الأمس ، « انتظر في حالة من الحيرة » خلال شهور عديدة حاسمة وانتظر أنصاره معه .

إن ما يمكن أن يفسر حيرة تروتسكي وتلامذته ، ربما كان اعتيادهم على النظر الى زينوفييف وكامينيف كقائدي الجناح الأيمن في الحزب . ولم يشجع احد اكثر من تروتسكي هذه العادة . كان قد ذكر الحزب في دروس اوكتوبر بأن زينوفييف وكامينيف عارضا ثورة اوكتوبر . أوضح أن زينوفييف دفع الشيوعيين الالمان في عام ١٩٢٣ إلى « الاستسلام » لأن

موقفه آنذاك كان مماثلاً لموقفه في عام ١٩١٧ . وحين حذر الحزب من أن حرسه القديم يمكن أن ينحط ويتحول الى « جهاز محافظ وبيروقراطي»، تماماً كما حصل مع قادة الاممية الثانية ، كان يوجه ، تقريباً ، إلى زينوفييف وكامينيف ، إصبع الاتهام . هكذا يمكن أن نفهم بشكل أفضل تحفظه وعدم تصديقه حين ظهر هذان كناطقين بلسان اليسار الجديد . اشتبه بأنهما يمارسان الديماغوجية ، وقد حال ذلك الاشتباه ، الذي لم يكن في كل حال بلا أساس ، دون أن يفهم أن الممثلين غيّروا حقاً دورهم وأن ذلك التبدل يأتي من ضمن التحول في موقف الرجال وفي الافكار الذي أدى اليه وضع البلاد بالغ الحرج . لم يكن تحول زينوفييف وكامينيف أقل شرعية او أقل إثارة لـلبلبلة من تحول بوخارين ، قائد الشيوعيين اليساريين سابقاً الذي أصبح منظِّر اليمين الجديد . وفي الحقيقة أن ذينك النوعين من التحول كانا يكملان واحدهما الآخر . كانت السياسة البلشفية الرسمية تميل الآن بقوة الى اليمين ، إلى درجة ان بعض القادة القدامى للجناح الأيمن ارتعبوا من نتائج التوجه الجديد ووجدوا انفسهم يقومون بانعطاف جذري الى اليسار .

لا شك أن الطموحات ومشاعر الغيرة الشخصية لعبت دورها : كان زينوفييف وكامينيف يسعيان لتجريد ستالين من قوته . لكن ربما كان حالفهما الحظ اكثر لو اختارا أن يركبا مع بوخارين موجة الانعزالية والشعبوية الجديدة . عوضاً عن ذلك ، اعتمدا على التقاليد الاممية والبروليتارية الخاصة باللينينية ، التي كانت قد غدت غير شعبية لدى الاناس في جهاز الحزب ، الذين كانت تتوقف عليهم نتيجة الصراع في الحالة الحاضرة . إن افكار زينوفييف وكامينيف وعاداتهما الذهنية ، مثلها مثل ذهنية أنصارهما لم تكن تفسح إلا القليل من المجال لحسابات المصلحة الخاصة . لقد امكن أن يبديا الجبن أو الانتهازية في هذه اللحظة الحرجة أو تلك ، إلا أنهما يبقيان مع ذلك أقرب تلامذة لينين اليه ولم يكن في امكانهما أن يتملصا من التأثير الذي جبلهما . كان في وسع غيرهما أن يشيحوا بوجههم عن الطبقة العاملة الاوروبية ويمتدحوا الموجيك ، صادقين ، أما هما فما كانا يستطيعان ذلك . كان في وسع غيرهما أن يمجدوا فكرة البناء الاشتراكي داخل روسيا بوجه الحصر ، لكن بالنسبة اليهما ، كان ذلك منظوراً عبثياً ومقرفاً . ومع ذلك ، كانت تتحدد مختلف تيارات البلشفية الآن وتتعارض وهي تتصدى لتلك المشكلات بالذات .

كان لا يزال لهذا القلب للأدوار معنى آخر . كان زينوفييف وكامينيف اليوم ، مثلما كان تروتسكي ولينين قبلهما ، في مأزق السلطة والحرية ، الانضباط الحزبي والديمقراطية البروليتارية . هما أيضاً لاحظا التناقضات بين الحلم الثوري وممارسة السلطة . كانا من قبل

من أنصار الانضباط الشرسين ، أما الآن فكانا متعبين ، وقرفين من الانضباط الآلي والصارم الذي أرسياه . منذ سنوات كان زينوفييف يعسكر على المسرح السياسي ، ويصرخ بالأوامر ، ويحبك الدسائس ويتآمر ! ويعين ويقصي ، وفي الأخير يبني السلطة لأجل الثورة ولنفسه . لقد كان مصاباً بهاجس السلطة ، مخدراً بها . أما الآن فقد استيقظ وعلى لسانه طعم المرارة ، وغدا متحرقاً لاستعادة نقاء ربيع الثورة المضاع . والعديد من أعضاء الحرس القديم عرفوا الطريق ذاتها التي سار عليها والقلق ذاته ومشاعر الكمد والاستياء ذاتها ، لينتهوا إلى ان يتبنوا ، دون ان يعوا ، مواقف مشابهة لمواقف التروتسكيين ، الذين ساعدوا على هزيمتهم قبل وقت قصير . كل شيء كان يدفعهم إلى السير يداً بيد مع رجال معارضة ١٩٢٣ .

إذا كان من مجال ليتحالف تروتسكي مع زينوفييف وكامينيف ، فتلك كانت الفرصة المؤاتية الوحيدة . حتى بداية عام ١٩٢٦ ، كانت القاعدة التي يعمل انطلاقاً منها مناضلو لينينغراد لا تزال سليمة . كان جهاز المدينة والمقاطعة الاداري بين يدي زينوفييف . وكان يتبعه حشد كبير من الانصار المتحمسين ، ويسيطر على صحف ذات نفوذ كبير ، ويملك الوسائل المادية لخوض صراع سياسي طويل ومتواصل . باختصار ، كان لا يزال سيد قلعة حصينة في كومونته الشمالية . كان كذلك رئيس الأممية الشيوعية ، لكن ستالين كان قد بدأ يعمل لضرب نفوذه فيها . ومن بعض النواحي ، كان وضع زينوفييف حين واجه ستالين أقوى بكثير مما كان وضع تروتسكي في أي من الأوقات . فتروتسكي لم يهتم يوماً بانتزاع أدوات سلطان شخصي ، وذلك كان السبب في أنه خاض الصراع ضد المثالثين صفر اليدين تقريباً ، بعد صعوده الخاطف على المسرح العالمي . كان هؤلاء تمكنوا بسهولة من اتهامه بأنه عنصر « غريب » عن البلشفية . لكن كان يختلف الأمر تماماً بالنسبة لاتهام ستالين وبوخارين وزينوفييف وكامينيف وكروبسكايا بأنهم مناشفة متأصلون. فالنزاع كان ينفجر اليوم بين جناحين داخل الحرس البلشفي القديم ،وبشكل واضح. ولو تم تحالف بين تروتسكي وزينوفييف قبل هزيمة زينوفييف لكانت له قوة مرهوبة . لكن لا هما ولا أنصارهما كانوا قد غدوا مستعدين للاتحاد . كانت لا تزال اعتراضاتها ومشاعرهما السلبية المتبادلة ، وذكريات الضربات والاهانات المتبادلة لا تزال حارقة جداً بحيث لم يكن التقارب ممكناً .

إذاك قدمت الأيام الأكثر غرابة في حياة تروتسكي السياسية . ففي ١٨ كانون الأول/ديسمبر ، جرى افتتاح المؤتمر الرابع عشر ، وكان آخر مؤتمر يحضره . ولم يكن ذلك

المؤتمر ، من بدايته حتى نهايته ، غير عاصفة سياسية ، عاصفة لم يشهدها الحزب من قبل ، طيلة تاريخه العاصف . فأمام أعين البلاد بأسرها ، كان الخصوم الجدد يشتبكون ويوجهون بعضهم للبعض الآخر ضربات رهيبة . كان مصير الحزب والثورة هو الذي على المحك . عُرضت ونوقشت كل المشكلات الكبرى تقريباً ، التي ستشغل تروتسكي في ما تبقى من حياته . كانت أعين كل من المعسكرين مثبتة على تروتسكي ، وكل منهما يتساءل إلى أي جهة سينضم وينتظر مقطوع الأنفاس أن يتخذ موقفاً . لكن تروتسكي بقي صامتاً طيلة الاسابيع التي دام خلالها المؤتمر . لم يجد شيئاً يقوله حين أعاد زينوفييف الى الذاكرة ، خلال جلسة درامية بشكل خاص ، وصية لينين ولا سيما المقطع الذي كان يحذر فيه هذا الأخير الحزب من إساءات ستالين استعمال السلطة ، او حين ألح زينوفييف ذاته على المخاطر التي تتعرض لها الاشتراكية على يد الكولاك والنيبمان والبيروقراطيين . وبقي تروتسكي بارد الأعصاب ، حين مر أمام عينيه المشهد الأساسي في ذلك المؤتمر : كان كامينيف قد احتج ، بالعنف الأشد ، ضد الأوتقراطية التي كانت ترسي قواعدها في الحزب ، عند ذلك بالذات هتفت الأكثرية ، المعدَّة بعناية والمزبدة غضباً والمنهالة شتائم على الخطيب ، منادية للمرة الاولى بستالين على أنه القائد « الذي تتوحد حوله اللجنة المركزية اللينينية » .

كما لم ينهض تروتسكي لتأكيد تضامنه مع كروبسكايا حين فضحت الآثار المختلّة لعبادة لينين ، ولا حين دعت المندوبين لمناقشة المشكلات في العمق ، بدل إغراق المناقشات في استشهادات لا طائل تحتها مأخوذة من مؤلفات زوجها ، ولا حتى حين ذكَّرت اخيراً ، بشكل تحذير ، كيف غرقت الحملة ضد تروتسكي في التشنيع والاضطهاد . أصغى تروتسكي ، كما لو لم يكن الأمر يعنيه ، الى المساجلة حول الاشتراكية في بلد واحد ، إحدى اكبر مساجلات القرن . لم تند عنه أية بادرة احتجاج حين تذرع بوخارين ، للدفاع عن اطروحة الاشتراكية في بلد واحد ، بادانة الحزب القديمة لاطروحة تروتسكي حول الثورة الدائمة ، ولا حين عاد بوخارين يقول إن الاشتراكية ستتم بـ « خطى الحلزون » . كشف المثالثون التاريخ السري لخصوماتهم التي كان لشخصية تروتسكي فيها ذلك القدر من الأهمية : روى ستالين كيف طالب زينوفييف وكامينيف برأس تروتسكي وكيف قاومهم هو ، أي ستالين . وروى زينوفييف كيف بادر هو وستالين الى انتهاك الانظمة وحل اللجنة المركزية لمنظمة الشبيبة الشيوعية حين أعلنت هذه تأييدها لتروتسكي بأغلبية ساحقة . هنأ خطباء من كل المجموعات وكل الكتل تروتسكي وخطبوا وده . وخلال خطاب كروبسكايا ، صاح أحدهم : « لقد وجدت متعاونين جداً يا ليف دافيد وفيتش ! » واعترف لاشيفيتش ، الذي كان حتى ذلك الحين أحد أعدى أعداء تروتسكي ، بأن هذا

الاخير لم يكن مخطئاً تماماً عام ١٩٢٣ . إنهال الستالينيون والبوخارينيون عليه بالمدائح : أجاب ميكويان المعارضة الجديدة بتمجيد مثال تروتسكي الوضاء الذي حافظ بعد هزيمته على الانضباط الحزبي الصارم . وأخذ ياروسلافسكي على جماعة لينينغراد عداءهم الشديد ، والمحتفظ بقوته دائماً ، حيال التروتسكية . وعارض تومسكي تشوش زينوفييف وكامينيف الذهني وتحايلاتهما بـ «الوضوح الصافي لفكر تروتسكي » وبنزاهة سلوكه . وعبر كالينين عن كل الغضب والقرف اللذين أثارتهما في نفسه مناوراتهما لإطاحة تروتسكي . وحين أكد زينوفييف أن من حقه مناقشة السياسة الرسمية ولفت الانتباه إلى أنه ما من معارضة عوملت بتلك القساوة ، سخر منه الستالينيون والبوخارينيون مذكّرينه بكل ما أنزله بتروتسكي . حينئذ انطلق زينوفييف في كلمة ختامية طويلة فحث المؤتمر على نسيان الماضي وإعادة تنظيم قيادة الحزب بحيث يمكن أن تتعاون كل اتجاهات الرأي البلشفي وتتوحد . عندئذ حدقت الاعين كلها بتروتسكي : ألم يكن لدى الرجل الكبير ، والخطيب المهيب ، أي شيء يقوله إذاً ؟ لم ينبس ببنت شفة ، ولم يقل اي شيء حتى حين طالب أندرييف بأن تمنح سلطات جديدة للجنة المركزية للسماح لها بأن تهتم بالمعارضين بصورة فعالة ، اي للسماح لها بتحطيم المعارضة الجديدة كلياً . لقد اتخذت اكثرية كبيرة جداً موقفاً ضدها ، لكن قبل أن يرفضَ المؤتمر ، انفجر غضباً حين علم أن قراراته تثير في لينينغراد مظاهرات صاخبة : كان اللينينغراديون يناضلون من داخل قلعتهم . لكن لم تخرج ، حتى النهاية ، كلمة واحدة من فم تروتسكي(٧٣) .

إن أوراق تروتسكي الشخصية تلقي بعض الضوء على موقفه هذا . ففي ملاحظة مدونة في ٢٢ كانون الاول/ديسمبر ، اي في اليوم الرابع من المؤتمر ، لاحظ أن ثمة « بعض الحقيقة » ، لكن لا اكثر من ذلك ، في الرأي الذي عبر عنه أحدهم والقائل إن

---

٧٣ ـ لم يتفوه إلا بكلمة واحدة اثناء المناقشة . فحين أوضح زينوفييف أنه طالب في السنة السابقة بطرد تروتسكي من المكتب السياسي ، لا سيما بسبب الاتهامات التي وجهوها ضد تروتسكي ، ولأنه كان من غير الملائم إعادة انتخابه للمكتب السياسي ، حينئذ قال تروتسكي : «صحيح » .

إن روث فيشر ، التي كانت في موسكو اثناء المؤتمر ، لكنها لم تحضره ، كانت تتلقى مع ذلك تقارير يومية من بوغريبينسكي ، وكان تلميذاً لستالين و « رسولاً للغيبيو » . كتبت فيشر : « كان بوغريبينسكي يهتم بتروتسكي بوجه خاص . . . كانت المجموعتان تخشيانه . . . وكانت كل منهما تأمل كسبه الآن الى جانبها ؛ كان يمكن موقف تروتسكي أن يكون حاسماً بالنسبة لمندوبي المقاطعات المترددين . كان بوغريبينسكي يسجل يوماً فيوماً موقف تروتسكي ؛ يسجل أنه تكلم مع ذلك الشخص او ذاك . « رأيت تروتسكي اليوم في المماشي . تكلم مع بعض المندوبين وتمكنت من سماع جزء من محادثاتهم . لم يقل شيئاً بصدد الأمور الهامة . إنه لا يدعم المعارضة ، لا علناً ولا بصورة مداورة . هذا رائع . سوف يتلقى كلاب لينينغراد هؤلاء تأديباً صارماً . » د . فيشر ، ستالين والشيوعية الالمانية ، ص ٤٩٤ .

اللينينغراديين كانوا يواصلون عمل المعارضة التروتسكية . لقد فتحت موجة السخط ، التي انفجرت عام ١٩٢٣ في وجه موقف التروتسكية إزاء الفلاحين ، الطريق إلى الشعبوية الجديدة التي كانت الآن رائجة والتي كان اللينينغراديون يتحركون ضدها . كان طبيعيا أن يردوا هكذا ، مع أنهم كانوا على رأس الصراع ضد التروتسكية . كان عداء المؤتمر الشديد حيال تكتل زينوفييف يعكس في الواقع عداء الريف للمدينة . وقد يمكن التفكير بأنه كان في وسع هذه الملاحظة أن تدفع تروتسكي للتحالف فوراً مع اللينينغراديين . إلا أن اسباب الخلافات وتبديل المواقف لم تظهر له بالوضوح ذاته الذي بدا في تحليله الخاص به للوضع . لقد كان يدغدغ بعض الآمال التي دفعته إلى الانتظار .

تساءل لماذا يتحالف سوكولنيكوف ، من بين الجميع ، مع اللينينغراديين ، هو المغالي في الاعتدال الذي كان يجب أن يكون إلى جانب بوخارين . كان يبلبله واقع أن الخلاف كان بين موسكو ولينينغراد . لقد كتب أن تناقضهما ، المحدث بصورة مصطنعة ، كان يحيل إلى نزاع خفي أشد خطورة . كان يأمل أن تتصالح منظمات العاصمتين للدفاع معاً عن مصالح الاشتراكية البروليتارية في وجه التطلعات المناصرة للموجيك . كان يعتقد كذلك أن كل «البلاشفة الحقيقيين» قد ينتفضون ضد البيروقراطية ، وكان ذلك ، على الأقل ، ضرورياً لكي تتخلص منظمة موسكو الحزبية من قبضة ستالين الخانقة . كان الوضع لا يزال يتطور ، وكان تروتسكي يعوّل على انهيار سياسي عام ، لم يكن حل الثالوث إلا الاشارة الأولى إلى حدوثه ، انهيار قد يهز الحزب بكامله ويؤدي إلى اعادة تجميع نهائي للقوى ، أكثر اتساعاً واكثر حسماً بكثير . قد تغدو خطوط الانفلاق حينذاك أقل عرضية بكثير ، وتتناسب الى حد بعيد مع التناقضات الاساسية بين المدينة والريف ، بين العامل والفلاح ، بين الاشتراكية والملكية . لذا لم يكن تروتسكي مستعجلاً لربط مصيره ، على الفور ، بمصير قادة المعارضة في لينتغراد «الصيّاحين ، والمبتذلين وفاقدي الاعتبار كلياً » . ثمة الكثير من الـ Schaden Freude (الفرح الرديء) في تلك الملاحظات المأخوذة اثناء المؤتمر الذي شهد هزيمة زينوفييف وكامينيف . بدا تروتسكي كما لو كان يقول : Vous l'avez(*) voulu ! Vous l'avez voulu ! (بالفرنسية في النص) .

لكنه لم يكن يستطيع الاستسلام طويلاً لذلك الـ Schaden freude ، فذلك لم يكن من طبيعته . كان عليه ، شاء أو أبى ، أن يهرع لنجدة المهزومين . منذ نهاية المؤتمر ، اجتمعت

(*) ـ أنتم أردتم ذلك ! (المعرب) .

اللجنة المركزية لدراسة التدابير الواجب اتخاذها بغية إعادة النظام الى لينينغراد . اقترح ستالين أن يتم فوراً عزل لجنة تحرير لينينغراد سكايا برافدا وجعل هذه الصحيفة ناطقة بلسان السياسة الرسمية . كان سيتم بعد ذلك إقصاء زينوفييف واستبداله بكيروف على رأس كومونة الشمال . وكان السوط سينهال كذلك على اللينينغراديين . عند ذلك قطع تروتسكي الصمت ليعلن معاداته لتلك التدابير الانتقامية[٧٤] . لم يكن يتصور التحالف مع زينوفييف وكامينيف ، لكن ، إذ حاول حمايتهما ، كان يوجه صفعة لستالين الذي خطب وده بوضوح وحاول تليينه .

حصل مشهد طريف خلال جلسة اللجنة المركزية تلك . فقد دعم بوخارين التدابير التي اقترحها ستالين ، وهو ما أثار احتجاج كامينيف الذي قال إن من الغريب رؤية بوخارين ، وهو من عارض دائماً تدابير الانتقام ضد التروتسكيين ، يطالب الآن باستخدام السوط . فهتف تروتسكي : « آه ، لكن السبب هو في أنه غدا يحب السوط » . فأجاب بوخارين ، كما لو أصيب في نقطة الضعف لديه : « أنت تعتقد أني استذقته ، لكن هذا المذاق يجعلني أرتعش من أخمصيَّ حتى رأسي[٧٥] . » إن هذا الاعتراف القلق كان يكشف بفظاظة بأي تحفظات وأي توجسات كان بوخارين يدعم ستالين . بعد هذه الحادثة بالذات أعاد تروتسكي « صلات خاصة » ببوخارين ، وهو ما لم يكن حدث منذ أمد بعيد : كانت علاقاتهما ، التي نجد آثاراً لها في مراسلاتهما ، ودية للغاية ، لكن عقيمة سياسياً وعابرة[٧٦] . إن بوخارين الذي كان لا يزال يرتعش من أعلى رأسه إلى أخمصي قدميه » بذل كل ما وسعه لاقناع تروتسكي بعدم إنجاد زينوفييف. حاول إقناعه بأن الحرية داخل الحزب لم تكن على المحك في تلك القضية ، وبأن زينوفييف ، الذي لم يكن يسمح من جانبه بأية معارضة ، لم يكن مدافعاً عن الديمقراطية . وقد وافق تروتسكي على ذلك لكنه أوضح أن ستالين لم يكن بالتأكيد أفضل ، وأن من الواجب البحث عن أصل الشر في الانضباط المتراص ومبدأ الاجماع اللذين كان ستالين ، مثله مثل زينوفييف ، يفرضهما بالقوة ، واللذين سمحا ، عشية المؤتمر ، لمنظمتي الحزب الكبريين ، منظمة موسكو ومنظمة لينينغراد ، بأن تحصل كل منهما على «إجماع بنسبة مئة بالمئة » وهي تتخذ قرارها . لم يكن يريد أن يجعل من نفسه محامي لينينغراد ، لكنه لم يكن يستطيع إلا أن يعارض الانضباط الزائف . طلب الى بوخارين

---

٧٤ ـ ن . بوبوف ، تاريخ مختصر للحزب الشيوعي السوفياتي ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

٧٥ ـ تروتسكي ، المحفوظات .

٧٦ ـ المرجع ذاته .

توحيد الجهود معاً لاعادة إرساء « نظام سليم داخل الحزب » . إلا أن بوخارين كان يخشى أن تؤدي المطالبة بقدر اكبر من الحرية إلى الحصول على قدر أدنى ؛ وكان يستنتج أن المطالبين بالحرية داخل الحزب كانوا أعدى أعداء تلك الديمقراطية ، وأن أفضل وسيلة لإنقاذ ما بقي منها هي في عدم استخدامها .

في حين كانت تحدث تلك المُسارّات الدرامية ، فقد ستالين الأمل باستخدام تروتسكي ضد زينوفييف وكامينيف . لقد فهم ستالين ، ربما أسرع من تروتسكي ، أن المعارضتين ستنتهيان إلى الاتحاد . لذا أعطى الإشارة لحملة جديدة ضد تروتسكي . كان يريد منعه من الكلام في اجتماعات شيوعية للمناطق العمالية . وقد حرض أوغلانوف الذي حل محل كامينيف في قيادة منظمة موسكو على تنفيذ ذلك بدقة . هكذا وجد تروتسكي نفسه ممنوعاً من الوصول إلى الخلايا ، وذلك بمختلف الذرائع . لم يستطع أن يتكلم إذاً إلا أمام جمعيات علماء أو مثقفين ، جرى عندئذ إعطاء تفسير لأعضاء الخلايا العمالية مفاده أن تروتسكي يفضل التكلم إلى البورجوازية على التحدث للطبقةالعاملة. لم يعد المحرضون الرسميون يميزون إطلاقاً بين التروتسكيين والزينوفييفيين ، وقد أثاروا مناضلي القاعدة ضد تروتسكي كما ضد زينوفييف ، وأوحوا إلى هذا الحد أو ذاك بأنه ليس صدفة أن قائدي المعارضتين كانا يهوديين : أدخلوا في روع الناس أن الأمر يتعلق بصراع بين الاشتراكية الروسية الأصلية وغرباء يسعون لإفسادها .

في رسالة أخرى إلى بوخارين ، مؤرخة في ٤ آذار/مارس ، روى تروتسكي المضايقات والافتراآت التي تعرض لها من جديد . قال إنه يضطر لإكراه نفسه على الاشارة إلى تعريضات المحرضين المعادية للسامية . كتب آملاً هز بوخارين : « أعتقد أن ما يربطنا نحن الاثنين ، عضوي المكتب السياسي ، لا يزال من الصلابة بحيث نحاول التحقق من الوقائع بهدوء ووجدان : هل هو صحيح ، هل هو ممكن أن يكون ثمة في حزبنا ، في موسكو ، في خلايا عمالية من يستطيع القيام دون عقاب بتحريض معاد للسامية ؟[٧٧]» وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً ، طرح السؤال نفسه بالذهول نفسه والاشمئزاز ذاته في احدى جلسات المكتب السياسي ، فهز اعضاء المكتب أكتافهم وقالوا إنهم لم يكونوا على علم بالأمر وقزموا المسألة . أما بوخارين المربك والمصاب بالخجل فقد احمر وجهه ؛ لم يكن يستطيع الانقلاب ضد شركائه وحلفائه . في كل حال ،توقفت عندئذ نهائياً « صلاته الخاصة » بتروتسكي .

٧٧ ـ تروتسكي ، المحفوظات .

لم يكن صدفة أن ينطلق المحرضون في حملة معادية للسامية . فلقد علّمهم أوغلانوف ، وكان اوغلانوف يستقي التعليمات من ستالين الذي لم يكن شديد الحساسية بما يخص اختيار الوسائل . لكن كان ثمة وسائل ما كان يمكن أن يلجأ إليها قبل عام أو عامين من ذلك الحين . وكان لعب ورقة العداء للسامية إحدى تلك الوسائل . لقد كان الاهتمام المفضل لدى أسوأ الرجعيين القيصريين ، وحتى في عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٤ ، كان الحزب وحرسه القديم لا يزالان شديدي الانطباع بالروح الاممية بحيث لا يمكن ان يشجعا رأياً مسبّقاً عنصرياً ، وأقلّ أيضاً أن يستخدماه . لكن الوضع كان يتبدل ، واليمين الجديد كان يحرك إلى هذا الحد أو ذاك الشعور القومي ، الذي انتشر ونما ، فيما كان المناخ السياسي يفيد إلى حد أنه حتى الشيوعيون لم ينتبهوا إلى التعريضات والتلميحات المعادية للسامية التي تجري في أوساطهم . لم يكن الحذر من «الغريب» ، بعد كل شيء ، إلا انعكاساً لتلك الأنانية الروسية التي شكلت أطروحة الاشتراكية في بلد واحد تعبيرها الايديولوجي .

لا شك أنه كان ثمة الكثير من اليهود بين المعارضين ، لكن كانوا بينهم مع نخبة العمال الانتليجنسيا غير اليهود . كان تروتسكي وزينوفييف وكامينيف ورادك جميعهم يهوداً[٧٨] (بالمقابل كان هنالك القليل القليل من اليهود بين الستالينيين ، وأقل أيضاً بين البوخارينيين .) كانوا «مندمجين ومتروسين(*)» كلياً ، معادين للدين الموسوي كما لكل دين آخر ، معادين للصهيونية أيضا ، إلا انهم كانوا مطبوعين بتلك « الروح اليهودية » التي تشبه خلاصة نمط الحياة الريفي ، وحداثته وتقدميته وتوقده ونفاد صبره الأعمى . من المؤكد أنه كان من الخطأ الادعاء بأن اليهود كانوا أعداء للموجيك من الناحية السياسية ، وكان ذلك في فم ستالين ، إذا لم يكن في فم بوخارين ، اتهاماً ممتلئاً بسوء النية . إلا أن البلاشفة من أصل يهودي كانوا بالتأكيد أقل الناس ميلاً لإضفاء طابع مثالي على روسيا

(*) نسبة لروسيا (م) .

٧٨ ـ عام ١٩١٨ ، حين كانت تحتل اوكرانيا القوات الالمانية ويحكمها سوكوروبادسكي ، أطلق حاخامو اوذيسا لعنتهم ضد تروتسكي وزينوفييف . (زينوفييف ، سوش . ، ج ١٦ ، ص ٢٢٤ .) من جهة اخرى ، كان الحراس البيض يلحون كثيراً على واقع ان تروتسكي كان يهودياً ، ويروون حتى ان لينين أيضاً كان كذلك ويمكن العثور على أثر لتلك الاشاعات في الفولكلور السوفياتي في السنوات الأولى من العشرينات . في احدى روايات سايفولينا يقول موجيك : « تروتسكي واحد منا ، إنه روسي وبلشفي . لينين يهودي وشيوعي . » وفي أقصوصة لبابل ، تتكلم سيل ، الفلاحة ، فتقول لجندي من الجيش الاحمر : «انتم لا تهتمون بروسيا ، لا تفكرون إلا بإنقاذ هذين اليهوديين القذرين لينين وتروتسكي . » ويجيب الجندي في الجيش الاحمر : لا نتكلم اليوم على اليهود ، ايتها المواطنة الرديئة . لا علاقة لليهود بكل هذا . وفي الواقع ، لن اقول شيئاً بشأن لينين ، إلا أن تروتسكي كان الابن المتمرد لحاكم من تومبوف وقد جاء إلى الطبقة العاملة . . . لقد كدحا كزنجيين ، أجل ، لينين وتروتسكي ، ليضعانا على طريق الحرية . . .» .

الريفية في تحجرها وهمجيتها ، ولإرادة جر القدمين بـ « خطى الحلزون » خلف « عربة الفلاحين » . كانوا إلى حد ما ، وبمعنى ما ، اولئك « الكوسموبوليتيين بلا جذور » الذين سيفجر ستالين في سنواته الأخيرة غضبه ضدهم بشكل مكشوف . لم يكن مثال الاشتراكية في بلد واحد مثالهم . وعموماً ، فإن اليهودي التقدمي او الثوري ، المترعرع على حدود أديان وثقافات قومية متنوعة ، أكان اسمه سبينوزا أو ماركس ، هاينه أو فرويد ، روزا لوكسمبورغ أو تروتسكي ، كان مؤهلاً بشكل خاص لأن يتجاوز من الناحية الفكرية التقييدات الدينية والقومية ويتبنى في الحال نوعاً من الأَنَسية الكونية . كان إذاً قابلاً لأن تعطبه أيضاً بشكل خاص كل انفجارات العصبية الدينية أو الشعور القومي . إن سبينوزا وماركس ، هاينه وفرويد ، روزا لوكسمبورغ وتروتسكي ، عرفوا جميعاً الحُرْم والنفي والاغتيال الجسدي أو الأدبي ، وأرسلت مؤلفاتهم إلى المحرقة .

خلال الاسابيع الأولى من عام ١٩٢٦ بالذات جرى القضاء على معارضة[٧٩]لينينغراد . لم يكن في وسع اللينينغراديين إلا أن يخضعوا لأوامر ستالين . فلو عصوا لكان ذلك يعني الاعتراض على سلطة اللجنة المركزية التي كانت تدعم ستالين وعلى شرعية المؤتمر الذي انتخب تلك اللجنة . وهو ما لم يكن زينوفييف وكامينيف ـ اللذان كانا لا يزالان كتروتسكي من أعضاء اللجنة ـ مستعدين للاقدام عليه . كانا أعلنا جهاراً أن ستالين زوّر الانتخابات إلى المؤتمر وأن اللجنة المركزية لم تكن تمثل الحزب بل جهاز الحزب . لقد قالا ذلك حقاً ، إلا أنه كان شيئاً آخر الإعلان بأن قرارات المؤتمر واللجنة المركزية غير شرعية ورفض الانصياع اليها . وبالنسبة لزينوفييف وكامينيف ، بوجه خاص ، كان من الخطير اتهام شرعية المؤتمر الاخير ، إذ الـم يزوّرا ، هما وستالين ، الانتخابات للمؤتمر الثالث عشر تماماً كما زور ستالين المؤتمر الرابع عشر ؟ ولو اعترض اللينينغراديون على سلطة اللجنة المركزية لكانوا جعلوا من أنفسهم ، عملياً ، حزباً آخر ، منافساً للحزب الشيوعي الرسمي في الاتحاد السوفياتي . وكان من غير المتصور ان يصلوا الى هذا الحد . لقد وافقوا جميعهم على نظام الحزب الواحد كشرط لا بد منه . ولم يبد أحد حماساً أشد من حماس زينوفييف للدفاع عن هذا النظام ولدفعه حتى نتائجه الأبعد والأكثر عبثية . لو رفضت

---

٧٩ ـ بعد المؤتمر الرابع عشر ، غدا البوخارينيون والستالينيون يتمتعون بأكثرية أقوى في اللجنة المركزية . وكان المكتب السياسي الجديد يضم ٩ أعضاء بدل ٧ : ستالين ، تروتسكي ، زينوفييف ، بوخارين ، ريكوف ، تومسكي ، كالينين ، مولوتوف ، وفوروشيلوف . علاوة على كالينين وفوروشيلوف المتأرجحين بين اليمين والوسط ، كانت مجموعة ستالين أضعف قليلاً من حيث العدد من مجموعة بوخارين . أما كامينيف فلم يعد غير عضو احتياطي في المكتب السياسي . وكان الاحتياطيون الآخرون هم اوغلانوف ، ورودزوتاك ، ودزرجنسكي ، وبتروفسكي .

لينينغراد الانصياع لموسكو لكان ذلك ، تقريباً ، إعلاناً للحرب الأهلية .

لذا حين أتى كيروف ،مرسَل ستالين ، إلى لينينغراد ، بسلطات مطلقة ، ليتولى قيادة كومونة الشمال ، لم يعد لدى زينوفييف غير شيء واحد يفعله ، هو الخضوع . ولم يأت الليل أو يقترب حتى كان كل الجهاز المحلي الخاص بالحزب ، مكاتب تحريره ، ومنظماته المتعددة ، وكل الوسائل التي استخدمتها المعارضة حتى ذلك الحين انتقلت إلى أيدي رجال ستالين وكيروف . كان اثنان من مساعدي زينوفييف قد أشرفا على القوات المسلحة في لينينغراد : لاشيفيتش ، الذي كان مفوضاً سياسياً للحامية وللمنطقة العسكرية ، وباكاييف الذي كان قائداً للغيبيو . وقد استقال الاثنان من مناصبهما ، إلا أن لاشيفيتش الذي كان كذلك نائباً لمفوض الدفاع بقي عضواً في الحكومة المركزية . إذاك حدث الانهيار المعنوي . فطالما كان القادة يمسكون بكل أدوات السلطة ، اعتقدوا أن كل لينينغراد تؤازرهم . أما اليوم فبدا أن المدينة البروليتارية الكبرى لا تأبه لمصيرهم ، وكان عمال فيبور ، هذا الحصن القديم للبلشفية ، أوائل من تخلى عنهم . فمنذ سنوات ، كان زينوفييف قد هددهم وقمعهم ؛ لذا لم تهزهم خطاباته الأخيرة أبداً ، تلك الخطابات التي صوّر نفسه فيها كالمدافع عن العمال وبطل المساواة . لكن لا شك أنهم تذكروا خطبه بحنين ، بعد سنوات من ذلك التاريخ ، بعد أن سبق السيف العذل واصبح الوقت متأخراً جداً . رأى المتواضعون في تلك القضية خلافاً بين شخصيات رفيعة لا يعنيهم في شيء . أما أولئك الذين كانوا أقل تشككاً والذين كانوا يميلون إلى المعارضة ، فقد احتفظوا بمشاعرهم لأنفسهم في أغلب الأحيان : فالبطالة كانت مستشرية وكان يمكن أن تكون عقوبة « عدم الولاء » خسارة الوظيفة ، والجوع ، والبؤس . وهكذا انخفض الجمهور النشيط لمعارضة لينينغراد إلى عدة مئات من محاربي الثورة القدامى ، مجموعة صغيرة من الرجال متراصي الصفوف ، المخلصين لمثلهم العليا وقادتهم ، والذين رأوا كل الابواب تنغلق شيئاً فشيئاً أمامهم .

إن السهولة والسرعة اللذين قمع ستالين بهما لينينغراد أظهرتا لتروتسكي أن الآمال التي عقدها خلال المؤتمر الرابع عشر كانت من دون أساس . لم يكن شيء يسمح بتوقع ذلك التجمع الجديد أو ذلك الاحتشاد للعمال الشيوعيين ضد البيروقراطيين الذي كان ينتظره . لم يستثر نضال اللينينغراديين أية حركة تضامن ، ولا حتى وشوشات في خلايا موسكو . كان جهاز الحزب يعمل بفعالية رهيبة ، محطماً كل مقاومة في أي مكان ظهرت ، وساحقاً إياها حتى وقائياً قبل أن يتوفر لها الوقت لكي تظهر . لكن هذا وحده أيضاً يبيّن إلى

أي حد كانت المقاومة ضعيفة . لم تكن الطبقة العاملة مذاك مشتتة ومتفككة كما كانت قبل سنوات ، لكنها كانت تفتقد الوعي السياسي والطاقة ، لم تكن غدت قادرة على تأكيد نفسها . إلا أن تروتسكي كان قد عوّل على انبعاث سياسي للطبقة العاملة حين اعتقد أن موسكو ولينينغراد ستنتهيان إلى الاتحاد . وكان زينوفييف وكامينيف عقدا الآمال على ذلك ، هما أيضاً . كانا طالبا في المؤتمر الرابع عشر بإعادة إرساء للديمقراطية البروليتارية ، موضحين أن الطبقة العاملة لم تعد مخلّعة الأوصال ومحبطة كما كانت في بداية العشرينات ، في فترة لم يكن قادة الحزب قادرين على التعويل فيها على صلابة ردود فعلها وحكمها السياسي . وقد اجاب بوخارين عن ذلك بأن زينوفييف وكامينيف كانا واهمين ، وأن من أتوا يضخمون عدد أفراد الطبقة العاملة كانوا ريفيين أغراراً أميين ، وبالتالي لم تكن تلك الطبقة قد غدت ناضجة سياسياً وكانت إعادة إرساء الديمقراطية البروليتارية لا تزال مبكرة . كان الانعزال الذي تجد معارضة لينينغراد نفسها فيه الآن يُظهر أن بوخارين أقرب إلى الحقيقة من زينوفييف وكامينيف . كانت الطبقة العاملة عديمة الشكل ولا مبالية ؛ إلا أنه ينبغي التوضيح أن خمولها لم يكن ناجماً عن قلة نضجها وحسب ، بل كذلك عن المقدرة الفائقة المهدِّدة المتوفرة للبيروقراطية ، تلك المقدرة التي كان بوخارين يسعى لتبريرها . مهما يكن ، كان على تروتسكي أن يفهم أنه ، منذ ذلك الحين ، لم يعد ينفعه الانتظار أبداً . مع ذلك ، مرت ثلاثة أشهر بعد المؤتمر لم يقم فيها التروتسكيون والزينوفييفيون بأية خطوة بعضهم تجاه البعض الآخر . لم يكن تروتسكي ، وزينوفييف وكامينيف تبادلوا الكلام عملياً منذ عام ١٩٢٣ ، وقد بقي الجانبان معتصمين بالصمت .

لم ينكسر الجليد إلا في نيسان/أبريل ١٩٢٦ . فخلال جلسة للجنة المركزية ، قدم ريكوف تقريراً حول السياسة الاقتصادية ، فاقترح كامينيف تعديلاً يطلب الى اللجنة المركزية ملاحظة « التمايز الاجتماعي بين الفلاحين » الذي كان يتفاقم ، والحد من تطور الزراعة الرأسمالية . أما تروتسكي فاقترح تعديلاً مختلفاً : لقد وافق على تحليل كامينيف للوضع الريفي ، لكنه أضاف أن بطء التطور الصناعي كان يحرم الحكومة من الوسائل الضرورية لممارسة تأثير قوي كفاية على الزراعة . وخلال النقاش ، حصل أن كامينيف الذي كان في السابق رئيساً لمجلس العمل والدفاع ، والذي كان يشعر بنفسه بالتالي مسؤولاً عن السياسة الصناعية التي انتقدها تروتسكي ، وجه له ملاحظات لاذعة . وقد أسقطت اللجنة المركزية تعديل تروتسكي . ويبدو أن كامينيف وزينوفييف رفضا المشاركة في التصويت . وحين طرح تعديل كامينيف على التصويت ، دعمه تروتسكي . وكانت تلك اللحظة الحاسمة . وفيما تبقى من الجلسة ، وجد كامينيف وتروتسكي نفسيهما في جهة

واحدة أيضاً . سهل كلاهما التقارب الذي كان يتم بحيث أنهما كانا يتصرفان عملياً في نهاية الدورة كحليفين سياسيين .

حينذاك ، وحينذاك فقط ، التقى الرجال الثلاثة على حدة للمرة الأولى منذ اعوام . وقد كانت مقابلة غريبة : محاسبات للنفس ، اعترافات خارقة ، تنهدات أسف وعزاء ، حدوس تحذيرات مشجية ومشاريع مستقبلية . أراد زينوفييف وكامينيف الاعتراف بكل سلوكهما السابق . أبديا أسفهما لما اعتراهما من عمى جعلهما ينددان بتروتسكي كعدو اللينينية المتأصل في العداء . اعترفا بأنهما اختلقا الجرائم التي جرى اتهامه بها ، بهدف واحد هو إقصاؤه عن القيادة . لكن ألم يقترف تروتسكي ، من جانبه ، خطأ أيضاً حين هاجمهما ، مذكرًا الحزب بنزاعهما مع لينين في عام ١٩١٧ ، وساعياً لإفقادهما اعتبارهما ، هما ، عوضاً عن ستالين ؟ لقد أراح نفسيهما أخيراً انهما تخلصا من سلاسل ذلك التواطؤ المنحرف السلاسل التي صنعاها بنفسيهما ، أراح نفسيهما أنهما تمكنا أخيراً من العودة إلى نشاط سياسي جدي وشريف .

وفيما كان يرويان شتى تقلبات المؤامرة سخرا من ستالين ، وتوصلا إلى تقليد حركات ستالين ونبرته ، وهو ما أزعج تروتسكي قليلاً . لكن حين سردا بعد ذلك ، بالتفصيل ، كل المكائد التي اشتركا معه في حبكها ، كان ذلك متلازماً مع رعشة القلق العميق لمن يروون كوابيسهم . وصفا مكر ستالين وفساده وقسوته . أسرّا لتروتسكي أنهما ، كليهما ، كتبا رسائل يشرحان فيها للعالم بأسره أنه إذا حدث ان اختفيا بصورة فظة وغير قابلة للتفسير لا ينبغي البحث عن مسؤول غير ستالين ، وأنهما أودعا تلك الرسائل في مكان أمين . وقد نصحا تروتسكي بأن يحذو حذوهما[٨٠] . أكدا أنه إذا كان ستالين لم يقض على تروتسكي في عامي ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ فلأنه كان يخشى أن ينبري نصير لتروتسكي شاب ومتحمس فينتقم له . ولا شك أن زينوفييف وكامينيف حاولا تسويد صفحة ستالين وأن يبيّنا التأثير الملطّف الذي مارساه عليه لتروتسكي . لكن تروتسكي لم يأخذ إفشاءاتهما على محمل الجد إلا بعد مرور سنوات طويلة ، حين أعادتها التطهيرات الكبرى الى ذاكرته . كان من الصعب الاعتقاد بأن هذه المكيدة الدامية والجديرة بالكرملين في أيام القياصرة الأولين قد حدثت في كرملين الاممية الثالثة ، المقام السامي للسجالات الايديولوجية وللفكر الماركسي . ألا يمكن ان تكون قلعة القياصرة القديمة مارست تأثيرها السحري المؤذي على تلامذة لينين ؟ وتابع زينوفييف وكامينيف الكلام فقالا إن ستالين لم يكن يهتم بالنقاشات والافكار ؛ كل ما

---

٨٠ ـ تروتسكي ، ستالين ، ص ٤١٧ .

كان يريده كان يتلخص بالسلطة . ولكن ما لم يشرحاه ، بالتأكيد ، فهو كيف أمكنهما ، إذا صح قولهما ، أن يبقيا طيلة تلك المدة شريكي رجل من هذا النوع .

بعد أن سرد الرجلان ما سردا من اخبار مرعبة وبعدما أوصيا به من أمور مشؤ ومة ، وصلا إلى مشروعهما للمستقبل ، فاستسلما لأكثر الآمال جنونا . ما كان يتباد ر الى ذهنهما الشك في امكان إنقاذ كل شيء بضربة ساحر . قالا بأنه يكفي أن يظهر الثلاثة معاً علانية ، متصالحين وموحدين حتى يثير ذلك حماس البلاشفة ويعيد الحزب إلى الصراط المستقيم . ونادراً ما أثارت لوحة بتلك القتامة تفاؤلاً ساذجاً إلى ذلك الحد .

لكن كيف يمكن تفسير تفاؤلهما ؟ فقبل شهور قليلة كان زينوفييف وكامينيف بكامل سلطتهما ، ولم تمر اكثر من اسابيع على فقدان زينوفييف إقطاعته في لينينغراد ؛ اكثر من ذلك ، كان لا يزال رئيساً للاممية الشيوعية . كان سقوطهما سريعاً ومفاجئاً بحيث رفضا تصديقه . لقد اعتادا السلطة ، فبإشارة منهما كانت آلات الحزب والدولة الضخمة تأخذ طريقها . وكان ضجيج الهتافات الشعبية لا يزال يدوي في مسمعيهما ؛ وفي الحقيقة ان تلك كانت هتافات زائفة لا تعبر عن العواطف الشعبية ، ولم تكن غير النتاج الاصطناعي لجهاز الحزب . فجأة أحاط بهما صمت عميق . ما كان يمكن ان يكون ذلك غير غلط ، سوء فهم ، حدث عابر . هذا الحدث كان نتيجة قطيعتهما مع ستالين ، الرجل الذي توليا بنفسيهما ـ او هذا ما اعتقداه على الاقل ـ وضعه في مركز قيادة الحزب . لكن من كان ستالين ؟ كان مناوراً مرتبكاً ، قليل الثقافة ، فظاً وعاجزاً انقذاه مراراً وتكراراً من الكارثة ، لأنهما اعتقدا بأنه يمكن ان يفيدهما في معركتهما ضد تروتسكي . لقد فكرا على الدوام ، بدون ادنى تحفظ ، أن ستالين ، بما هو إنسان وزعيم وبلشفي ، لا يبلغ كاحل تروتسكي . والآن وقد دخلا في حلف مع تروتسكي ، فقد اعتقدا أنه ربما لا يكون ثمة أمر أسهل من إزاحة ستالين نهائياً وإمساك الثلاثة معاً ، من جديد ، بأعنّة الحزب[81] .

أما تروتسكي فهزّ رأسه ، إذ لم يكن يشاطرهما تفاؤلهما . كان يعرف أفضل منهما

---

٨١ ـ روت روث فيشر كيف ان زينوفييف « فاتحها بحياء تقريباً » ، اثناء جدال معها ، بأمر تحالفه مع تروتسكي . قال لها إن « الامر يتعلق باستعادة السلطة . اننا بحاجة لتروتسكي ، لا فقط لأنه من دون ذكائه الخارق ومن دون الدعم العظيم الذي يمكن أن يقدمه لنا ، لن يمكننا بلوغ ذلك ، بل كذلك لأنه بعد النصر ، سنحتاج ليد حازمة تعيد روسيا والاممية إلى طريق الاشتراكية . علاوة على ذلك ، لا احد غيره يمكن ان ينظم الجيش . إن ستالين لم يهزمنا بواسطة البيانات ، بل لأنه كان يحوز السلطة ، وليست البيانات هي ما ينبغي مواجهته بها بل سلطة أعظم . ان لاشيفيتش معنا ، واذا انضم تروتسكي الينا ، ستكون لنا الغلبة . » روث فيشر ، المرجع المذكور ، ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨ .

بكثير طعم الهزيمة . فمنذ سنوات وهو يشعر بالفعالية الشديدة لجهاز الحزب الذي اندفع في حربه ضده فأقصاه الى صحراء حقيقية . كان يفهم بصورة أفضل بكثير السيرورة التي شوهت الحزب ، ذلك « الانحطاط البيروقراطي » الذي تتبع تقدمه منذ عام ١٩٢٢ وهو يشعر بالعجز إزاء ذلك . أبعد من جهاز الحزب ، كان يلاحظ بوضوح اكثر بكثير تلك الهمجية التي لا يسبر غورها ، همجية روسيا القديمة التي لن يمكن الغاؤها بضربات عصا سحرية . وأخيراً ، كانت ميوعة حليفيه الجديدين وعدم ثباتهما - يجعلانه حذراً . الا انه إذا لم يستطع نسيان كل ما جرى بينهما وبينه ، فقد سامحهما بدون تحفظ . سعى لتثبيت عزمهما ولاعدادهما لنضال طويل وقاس .

ولكن تروتسكي ذاته لم يكن فاقداً كل أمل . هو أيضاً كان يعتقد أن الحزب قد تهزه مصالحتهم هزاً عميقاً . وقد عرض زينوفييف وكامينيف الاعتراف علانية ان تروتسكي كان على حق حين فضح امام الحزب الخطر البيروقراطي . بالمقابل ، كان تروتسكي مستعداً للقول إنه أخطأ بأن رأى في زينوفييف وكامينيف فشل تلك البيروقراطية وإنه كان عليه تركيز كل هجماته على ستالين . وكان تروتسكي يأمل ايضاً ألا يؤدي تحالف المعارضتين إلى جمع قواهما وحسب بل إلى مضاعفتها كذلك . فالحرس القديم كان يكن احتراماً كبيراً لزينوفييف وكامينيف . وكان معروفاً ان ارملة لينين تميل لصالحهما . كان الفريق القيادي لمعارضة لينينغراد أقل شأناً ، بالتأكيد ، من المجموعة التروتسكية ، لكنه كان يضم مع ذلك اناساً بأهمية لاشيفيتش ، الذي كان لا يزال يحتفظ بمنصب نائب مفوض الدفاع ، وسميلغا احد اقدر المفوضين السياسيين في الحرب الأهلية والاقتصادي المهم ، وسوكولنيكوف وباكاييف وايفد وكيموف وآخرين . إن المعارضة الموحدة التي كانت تضم هؤلاء الرجال ، وتروتسكيين كبريو براجنسكي ، ورادك ، ورراكوفسكي ، وانطونوف اوفسينكو ، وسميرنوف ، وموررالوف ، وكريستنسكي وسيريبرياكوف ويوفي ، وغيرهم وغيرهم ، كانت ستجد بين صفوفها عدداً من ذوي المواهب والهيبة يفوق بما لا يقاس ما كان يمكن لمجموعتي ستالين وبوخارين ان تحشداه في يوم من الايام . ورغم كل شيء ، فإن هذا الانبعاث السياسي للطبقة العاملة ، الذي طالما تم انتظاره ، قد يحدث اخيراً ويساعد المعارضة على الاقلاع .

لم يتوفر للحلفاء الجدد الوقت لوضع مخططات محددة ، ولا حتى لتعيين نقاط الاتفاق بوضوح . فبعد يوم او يومين من اجتماعهم الخاص ، اضطر تروتسكي لمغادرة روسيا بهدف متابعة علاج صحي في الخارج . ذلك أن الحمى التي عانى منها خلال تلك السنوات

الاخيرة ظهرت ايضاً ، وبلغت احياناً ٤٠ درجة تقريباً . هكذا في اكثر لحظات الصراع حسماً ، اضطر تروتسكي لملازمة السرير او لقضاء اشهر طويلة من النقاهة في القفقاز (أمضى هناك شتاءي ٢٤ و ٢٥ والاشهر الاولى من الربيع) . فلما لم يتوصل الاطباء الروس لتشخيص واضح نصحوه بالسفر الى المانيا واستشارة اختصاصيين هناك . ولم يعارض المكتب السياسي سفره إطلاقاً لكنه أوضح ان تروتسكي يقوم بذلك على مسؤوليته ؛ هكذا ، حوالى اواسط نيسان/ابريل ، وصل الى برلين متخفياً حليقاً ، على اساس انه استاذ اوكراني باسم كوزميينكو ترافقه امرأته وحاشية صغيرة . وقد أمضى القسم الاكبر من وقته في عيادة حيث خضع لعملية طفيفة ولعلاج صحي . لكن خلال أوقات حريته ، تنزه كما يشاء فلاحظ برلين المنهكة ، والمكمودة ، في تلك الايام ، المختلفة بذلك إلى حد بعيد عن العاصمة الامبراطورية التي عرفها فيما مضى ؛ حضر استعراض اول أيار ، وشاهد عيداً للخمر في الضاحية ، الخ . كان يستمتع ، للمرة الأولى منذ عام ١٩١٧ ، بالقدرة « على التنزه وسط الجمهـور دون ان يلفت انتباه الآخرين إليه ، شاعراً بأنه جزء من مجموع غُفْل ، مستمعاً ومراقباً[٨٢] » . لكن ما لبث تنكره ان انكشف وجاءت الشرطة الالمانية تحذر مدير العيادة من ان مهاجرين روساً بيضاً يعدون العدة للاعتداء على حياة مريضه . حينئذ انتقل تروتسكي إلى سفارة الاتحاد السوفياتي ، بحماية قوات غفيرة من الشرطة ، ولم يلبث أن غادر المانيا دون أن يعرف أدنى قدر من التحسن . ولم يمكن التوصل أبداً لمعرفة ما إذا كان هنالك حقاً إعداد لاعتداء على شخص تروتسكي[٨٣] .

خلال إقامة تروتسكي في برلين التي دامت ستة أسابيع تقريباً ، اهتم بحدثين سياسيين متفاوتي الاهمية . ففي بولندا ، أقدم المارشال بيلسودسكي ، يدعمه الحزب الشيوعي ، على انقلاب جعل منه ديكتاتوراً للبلاد . وفي انكلترا ، تحول إضراب مناجم الفحم الحجري طويل الامد إلى إضراب عام ضخم . لا شك ان السلوك العبثي

٨٢ - «مرة واحدة (خلال استعراض اول ايار) ، قال لي المساعد الذي كان يرافقنا بطريقة لبقة : «هاك ، انهم يبيعون صورك» . لكن ما كان يمكن لأحد ان يتعرف في تلك الصور على . . . كوزميينكو، العضو في مفوضية التعليم العام» . حياتي ، الطبعة الفرنسية ، ترجمة باريجانين ، ص ٥٣٠ .

٨٣ - خلال مرور تروتسكي بالسفارة السوفياتية في برلين ، ناقش طوال ساعات مع كريستنسكي ، السفيروا . فارغا ، اقتصادي الكومنترن الكبير ، بشأن موضوع الاشتراكية في بلد واحد . اعترف فارغا بأن مذهب ستالين لا يساوي شيئاً على الصعيد الاقتصادي ، وبأن نظرية الاشتراكية في بلد واحد لا اكثر من هراء . لكنه اعتبر انها مفيدة مع ذلك على المستوى السياسي لأنه بوسعها ان تستخدم كشعار يدفع الجماهير المتأخرة إلى المسير . وفي اوراق تروتسكي الخاصة ، التي سرد فيها حيثيات النقاش ، قال عن فارغا إنه «بولونيوس» الكومنترن . المحفوظات .

للشيوعيين البولنديين كان نتيجة الارتباك السائد آنذاك في بلادهم ، لكن كذلك الارتباك الذي ولدته داخل الكومنترن الحملات المعادية للتروتسكية : كان الحزب الشيوعي البولندي يمارس ، على مستوى صغير ، السياسة ذاتها التي كان يمارسها الشيوعيون الصينيون الذين دعموا في الحقبة ذاتها الجنرال تشانغ كي تشيك والكيومنتانغ . جاء الاضراب العام في انكلترا يثبت صحة تحليلات تروتسكي في النص الذي كتبه بعنوان إلى أين تمضي انكلترا ؟(٨٤) وعلى الفور ، شهدت الكومنترن توترات جديدة . بذل القياديون الانكليز للمجلس الانكليزي ـ السوفياتي كل جهدهم من اجل اجهاض الاضراب قبل ان يتحول الى انفجار ثوري . ولما كانوا مهتمين بانقاذ ما يوحـون به من احترام ، فقد رفضوا المساعدة التي عرضتها النقابات السوفياتية على عمال المناجم الانكليز . وهكذا جزى تعريض المجلس الانكليزي ـ السوفياتي للسخرية إلا أن القادة النقابيين الانكليز عرفوا مع ذلك كيف يستفيدون بعض الشيء من وجود المجلس : فخلال الفترة الحرجة من الاضراب العام ، ولما كان الشيوعيون لا يريدون إرباك المجلس فقد امتنعوا عن نقد سلوكه إلا بالكثير من التحفظ . ولكن تروتسكي لم ينتظر عودته الى موسكو ليهاجم في البرافدا سياسة المجلس الانكليزي ـ السوفياتي الذي كان ستالين وبوخارين عقدا عليه آمالاً كباراً(٨٥) .

لم يعمد المتحالفون الثلاثة الجديدون إلى جمع فريقهم جدياً إلا بعد عودة تروتسكي . وهو أمر لم يكن سهلاً ، وذلك لأسباب عديدة . فقبل كل شيء ، كان التروتسكيون قد تشتتوا وكان من الضروري البدء بإعادة تجميعهم . بدا أن قوتهم ضعفت كثيراً عما كانت عليه عام ١٩٢٣ . ثم إن قوات المعسكرين لم تكن مستعدة إطلاقاً للتوحد . فالاحقاد القديمة لم تكن قد هدأت ، وكان الطرفان لا يزالان يشعران بالحذر المتبادل . واذا كان ثمة بين شركاء تروتسكي من هم مؤيدون للتحالف ، فقد كان آخرون ، من أمثال أنطونوف ـ أوفسينكو ورادك ، مستعدين للتحالف مع ستالين اكثر من استعدادهم للتحالف مع زينوفييف . وكان آخرون يرفضون الاثنين . فمراشوفسكي كان يقول : « سوف يخوننا ستالين أما زينوفييف فسيفلت منا » . في البدء رفض مناضلو لينينغراد

---

٨٤ ـ قال تروتسكي في سيرته الذاتية إنه لم يتوقع ابداً تأكيداً بتلك السرعة لصحة توقعاته . حياتي ، المرجع المذكور ، الطبعة الفرنسية ، ص ٥٣٣ .

٨٥ ـ البرافدا ، ٢٦ أيار/مايو ١٩٢٦ . خلال ذلك ، أقصى ستالين انصار زينوفييف من هيئة الكومنترن التنفيذية . فخلال جلسة عقدت في أيار/مايو ، صوتت الهيئة التنفيذية على إقصاء فيشر ، وما سلوف ، وترينت ، ودومسكي وقادة زينوفييفين آخرين للاحزاب الالماني والفرنسي والبولندي .

التروتسكيون تعريف أنفسهم للزينوفييفيين الذين كانوا طاردوهم حتى ذلك الحين، والذين اعتادوا إخفاء تنقلاتهم عنهم ، مثلما كانوا يفعلون تقريباً في السابق حيال الاوخرانا القيصرية . كانوا يقولون : ما الذي سيحدث إذا غيّر الزينوفييفيون رأيهم وصالحوا ستالين ؟ نكون هكذا سلمنا أنفسنا طوعاً لمضطهدينا . وقد اضطر تروتسكي لإرسال بريوبراجنسكي الى لينينغراد لتبديد تلك المخاوف وإقناع أنصاره المعاندين بقبول الحلف . كما أن أنصار زينوفييف لم يكونوا أقل بلبلة ، فما أن بلغت لينينغراد أنباء الحلف المقترح حتى هرع أنصار زينوفييف إلى موسكو ليأخذوا على قادتهم كونهم «يستسلمون للتروتسكيين » . وكان على زينوفييف ولاشيفيتش أن يشرحا للأنصار كيف أن التروتسكية لم تكن غير فزّاعة لفقاها بنفسيهما ، وهذه الفزاعة لم تعد تفيد الآن . هذا الاعتراف صدم مساكين لينينغراد الذين كانوا أخذوا على محمل الجد اتهامات زينوفييف لتروتسكي ورددو ها من ورائه . وحتى حين جرى تخطي النفور المتبادل وبدأت المجموعتان تندمجان ، ظل اعضاء كل منهما يعتقدون بأن ما يجري عقده إنما هو زواج غير متكافىء[٨٦] .

والحماس الذي دب في القادة أيضاً في البدء خمد . بدأ زينوفييف وكامينيف يبرهنان عن حذر يشابه الخوف . لم يكونا ينويان أبداً دفع الأمور إلى حد إحداث قطيعة لا رجعة فيها مع التكتل الحاكم . ولقد شعرا بالإرباك حين تم اتهامهما بـ «الاستسلام للتروتسكية» . لا شك أنهما اعترفا بأنهما ظلما تروتسكي ، لكن كان عليهما أن يدافعا الآن عن هيبتهما . كانا يريدان الاحتفاظ بمجدهما نصف المسروق كـ «لينينيين خالصين ، هذاالمجد الذي كانا يتباهيان به منذ زمن طويل . لذا لم يسعهما الاتفاق مع تروتسكي حين بادر بعد عودته إلى دراسة احداث الاسابيع الاخيرة وتوضيح كيف أن الشيوعيين البولنديين دعموا انقلاب بيلسودسكي لأن الكومنترن علمتهم ان يناضلوا من أجل تلك «الديكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين» التي دافع عنها لينين عام ١٩٠٥ ، لا من أجل ديكتاتورية بروليتارية . تلك «الديكتاتورية الديمقراطية» كانت من مقدسات «البلشفية القديمة» : وإذا لم يكن لهذا الموضوع غير أهمية ضئيلة على صعيد القضية البولندية[٨٧] ، فقد أصبح احدى المسائل الاساسية في المساجلة حول الصين في السنة اللاحقة . لقد هالت زينوفييف وكامينيف أيضاً الفظاظة التي هاجم تروتسكي بها المجلس الانكليزي ـ السوفياتي : فتروتسكي قال إنه لم ينفع في شيء وان من الاجدى حله . اما

---

٨٦ ـ فيكتور سرج ، المنعطف الغامض ، ص ١٠٢ .

٨٧ ـ حتى بوخارين وستالين استنكرا عمل الشيوعيين البولنديين . انظر دويتشر ، « مأساة الشيوعية البولندية » في الأزمنة الحديثة ، آذار/مارس ١٩٥٨ .

زينوفييف فكان مستعدا لأن يأخذ على المكتب السياسي والشيوعيين الانكليز تقاربهم مع القياديّين النقابيين الانكليز ، لكنه لم يكن يريد «إغراق» المجلس الذي لعب دور العراب بالنسبة اليه . وكان يريد قبل كل شيء تحاشي فقدان مودة اعضاء الحرس القديم الذين كانوا يدعمون ستالين بتحفظ أو يترددون ويعظون التكتلات كلها بالاعتدال . باختصار ، كان المثالثان القديمان يودان حقاً مد اليد الى تروتسكي ، لكنهما كانا بدآ يرفضان شن حرب شاملة ضد ستالين وبوخارين . هكذا لم يكد تروتسكي يتحالف معهما حتى اضطر الى تسوية التباينات وتقديم تنازلات . وعد زينوفييف وكامينيف باحترام أقداس «الديكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين» وبالتوقف عن الكلام على حل المجلس الانكليزي ـ السوفياتي . وهو ما سمح له بالاتفاق معهما حول عدد كبير جداً من النقاط الاخرى .

بدأت المعركة ، وكان المبادر ، جزئياً ، اليها هو ستالين ، في اوائل حزيران . فمنذ عودة تروتسكي استقبله باتهامين جديدين ، وقحين كلياً لكنهما شديدا الضرر : فتروتسكي بنظره برهن عن «عداوة حيال الحزب الشيوعي الانكليزي» لا يمكن احتمالها ، وأبدى في الشؤون الروسية الداخلية سوء نية وانهزامية منحرفة حين اعلن انه «يخشى محصولاً جيداً»[88] . وقد دحض تروتسكي هذين الاتهامين بكل قوة ، ثم وجّه في ٦ حزيران/يونيو رسالة تهديد الى المكتب السياسي قال فيها إنه اذا لم يصلح الحزب نفسه كلياً وبصورة شريفة ، فربما استيقظ ذات صباح ليجد نفسه تحت الحكم الصريح لحاكم أوتوقراطي .

وهكذا انخرط في صراع مكشوف ضد ستالين . وهو لم يختر ساعة الصفر لوحده : فالمحاولات والاخفاقات من جانب المعارضة اللينينغرادية دفعته للعودة الى الحلبة في تلك الفترة . إلا أن شيئاً ما يمكن تأكيده هو أن سنوات الانتظار الصامتة والتكتم أصبحت شيئاً من الماضي . لقد فهم تروتسكي أن كل ذلك لم يعد عليه بأي جدوى ، فكل «التسويات المهترئة» مع ستالين التي حذره لينين منها كانت عقيمة ، واذا كان قبل اليوم المساومة مع زينوفييف وكامينف فليتمكن من ابقائهما في المعسكر المعادي لستالين ؛ إلا أنه كان مستعداً ايضاً للقتال من دونهما. لقد قدّر حجم عدوه المنيع وعرف أنه لا مجال للتراجع . فخلال السنوات الاخيرة بكاملها كان ينتظر اليوم المناسب لبدء المعركة ، ولقد أزف ذلك اليوم وقُضي الأمر .

---

٨٨ ـ كان الاتهام الاول يرتكز على شكوى من جانب الحزب الشيوعي الانكليزي : اما الثاني فعلى تصريح قال فيه تروتسكي ان العلاقات بين المدينة والريف لا تزال تطرح مشكلات شائكة ، سواء كان المحصول جيداً أو رديئاً خلال العام . فإذا كان المحصول سيئاً ، سيكون هناك نقص في المنتجات الغذائية واذا كان جيداً فسيصبح الكولاك اقوى واكثر ثقة بنفسه وسيكون أسهل بالنسبة اليه ان يفرض شروطه . المحفوظات .

الفصل الخامس

المعركة الحاسمة ١٩٢٦-١٩٢٧

صارع تحالف المعارضتين الستالينيين والبوخارينيين طيلة حوالى ثمانية عشر شهراً . في غضون كل ذلك الوقت غرق تروتسكي إلى أذنيه في معركة سياسية ضارية إذا قورنت بها كل معاركه السابقة ضد المثالثين لا تبدو اكثر من مناوشات . إن تروتسكي المستبسل والذي لا يكل ، والمشدود حتى أقصى ما لديه من قوة ، والواضع في الميزان كل مقدرته الهائلة على التنظيم والاقناع ، واخيراً الذي يدعمه قسم كبير من الحرس القديم ، إذا لم نقل غالبيته ، بذل جهداً خارقاً ليوقظ الحزب البلشفي من سباته العميق وليوجه المجرى اللاحق للثورة . بالنسبة للاجيال القادمة ، لم يكن مناضل عامي ١٩٢٦ - ١٩٢٧ دون مناضل عام ١٩١٧ في أيٍّ من الجوانب ، بل العكس هو الصحيح ، إذ إن طاقته الفكرية والمعنوية كانت هي ذاتها . كان الشغف الثوري في اعماقه لا يقل استشساداً واحتداماً عما كان في السابق . أبدى آنذاك قوة شكيمة أرقى من تلك التي كانت تلزمه والتي برهن عنها عام ١٩١٧ . كان خصومه الحاليون في معسكر الثورة ، ولم يعودوا اعداء طبقيين ، والشجاعة التي تتطلبها معركة كتلك المعركة كانت أكبر وشديدة الاختلاف في الوقت ذاته . وبعد ذلك التاريخ بسنوات ، حين كان خصومه ذاتهم يتحدثون فيما بينهم عن تفاصيل الصراع وتقلباته ، وعن الضربات الهائلة التي كان يوجهها وعن موقفه حين كان يتلقى مثيلاتها ، كان يبدو أنهم يتكلمون على مارد مهزوم ، واذا كانوا يستمتعون بسقوطه إلا أنهم كانوا لا يزالون يشعرون برعب ملؤه الاحترام وهم يتذكرون الرجل الذي هزموه[١] .

والقادة الآخرون أيضاً حملوا الى ذلك الصراع حماساً منقطع النظير ، واستخدموا كل موارد طاقاتهم الذهنية الاستثنائية التي وسمتها الماركسية بميسمها ، ومهاراتهم التكتيكيه

١ - يستند المؤلف هنا الى سرد تفاصيل الصراع الذي سمعه من عدد من اعضاء الحزب في موسكو في عام ١٩٣١ .

وفي الاخير طاقة وتصميماً يتجاوزان المتوسط، حتى لدى الاضعف بينهم . كان رهان المعركة أحد اهم الرهانات واكثرها درامية التي تصارع من اجلها اناس فيما بينهم على مدى الازمان : مصير ١٦٠ مليون إنسان ومستقبل الشيوعية في أوروبا وآسيا .

ومع ذلك ، دارت تلك المعركة الحاسمة في عزلة مريعة . فمن الجانبين ، لم تنخرط في الصراع الا مجموعات صغيرة ، إذ كانت الأمة صامتة . ما كان أحد يعرف ـ ولا يمكن ان يعرف ـ ما كانت تفكر فيه ؛ لم يكن حتى ممكناً أن يحزر المرء مع من كانت تتعاطف . لا شك ان ذلك الصراع مسألة حياة أو موت بالنسبة اليها ، لكنه كان يجري بعيداً عنها ، وفوقها. وفي الواقع أنه ما كان يمكن لما كانت الأمة تشعر به أو تفكر فيه أن يكون له أدنى تأثير على النتيجة النهائية ؛ ذلك أن غالبية الشعب كانت محرومة من اي وسيلة للتعبير السياسي . ومع ذلك ، لم يفارق العمال والفلاحون في أي من اللحظات مرمى أنظار المتصارعين الاساسيين ، لأنهم وان كانوا صامتين إلا أن موقفهم هو الذي كان سيقرر في نهاية المطاف نتيجة الصراع : فلكي تنتصر الكتل الحاكمة لم تكن تحتاج إلا لسلبية الجماهير ، بينما لم يكن يمكن المعارضة ان تنتصر إلا إذا استيقظت هذه الجماهير ذاتها وبدأت العمل . وبديهي أن مهمة الأولين كانت الاسهل : فإبقاء الشعب في الارتباك والجمود أيسر من أن يُشرح له الرهان الذي يدور حوله الصراع بغية جعله يتخذ موقفاً . علاوة على ذلك ، ومنذ البدء ، لم تتمكن المعارضة من التوجه الى الشعب من دون وساوس وشعور بالضيق . فلما كانت تعتبر نفسها كتلة من الحزب الحاكم وتواصل التفكير بأنه ليس لغير الحزب الصفة التي تخوله قيادة الثورة ، لم يكن في وسعها ، بكل وعي ، ولأجل إفحام خصومها ، التوجه بندائها الى الطبقة العاملة التي كانت غالبيتها العظمى خارج الحزب . إلا أنه بقدر ما كان يتواصل الصراع ويحتدم ، وجدت المعارضة نفسها مضطرة بقوة الاشياء للبحث عن الدعم لدى جمهور العمال . عندئذ بالذات شعرت بمدى ثقل الجمود الشعبي . ولم يعان أحد من ذلك قدر معاناة تروتسكي : فلقد كان دوي صوته يتردد في الصحراء .

لا تظهر نقاط الخلاف للمؤرخ أبداً كما ظهرت للأبطال الرئيسيين . لقد سقطت بعض الموضوعات الأساسية للنزاع في الغموض والنسيان ما أن انتهت المجادلات ؛ وبالصورة نفسها امحت بعض التباينات التي بدت لحين كليةً ولا يمكن تخطيها ، لتنتهي إلى الزوال . هكذا أدان ستالين ، بعنف نادر ، في شخص تروتسكي عدو الفلاح ، في حين ندد تروتسكي في شخص ستالين بصديق الكولاك . وكان صدى تلك الاتهامات لا يزال

يدوي حين بادر ستالين إلى إزالة الكولاك من الوجود . كذلك الأمر ، كان ستالين حذر البلاد من « التصنيع الكثيف » الذي اعتبر تروتسكي من دعاته ، بيد أنه هو ذاته الذي انطلق بأقصى العجلة في ذلك التصنيع الكثيف الذي أعلن قبل قليل مدى شؤمه .

إبان تلك المعركة أيضاً ، كان ما يشبه الضباب يلف معظم الشخصيات . فإذاأبقينا ماثلاً في البال ، على امتداد الرواية ، مصير كل من زينوفييف وكامينيف وبوخارين وتومسكي وكثيرين غيرهم ، يصعقنا تذبذب سلوكهم وانعدام التماسك فيه ، حتى إذا وَسَعنَا فهم ما كان يحفز ذلك السلوك في تلك الفترة . فهؤلاء الرجال جميعاً يشغلهم العمل اليومي أو عمل اللحظة كلياً ، وهم عاجزون عن الرؤية أبعد من ذلك وعن توقع فخاخ الغد وعثراته . فلم يكن ستالين وطبيعة الأحداث وحدهما وراء جرهم الى الهاوية ، بل هرعوا هم بذاتهم اليها ، وفي بعض الاحيان ، كانوا يفعلون ذلك بجنون اناس مسعورين يجعل من غير الممكن التعرف اليهم . إن الوجوه المهيبة لهؤلاء القادة الكبار تتقلص عندئذ وتتغضن ، فهم لم يعودوا غير الدمى العاجزة التي تتلاعب بها الظروف . غدا هؤلاء العمالقة شبيهين بفراشات ليلية تتهافت عمياء على النور ويدفع بعضها بعضاً في اللهيب . شخصان فقط يبدو أنهما يتواجهان ، متجمدين الى النهاية في عداء لا يمكن وضع الحدود له : انهما تروتسكي وستالين .

خلال صيف ١٩٢٦ ، بادرت جبهة المعارضة باندفاع شديد الى تنظيم انصارها . أرسلت رسلاً الى فروع الحزب في موسكو ولينينغراد ليتصلوا بالأعضاء الذين انتقدوا السياسة الرسمية ، ولينظموهم في مجموعات معارضة ويدفعوهم لإسماع صوت المعارضة في خلاياهم . ولما كانت المعارضة تطمح الى توسيع شبكة المجموعات تلك ، فقد ارسلت مبعوثين الى العديد من مدن المقاطعات ، مزودين بتوجيهات ومقالات و « اطروحات » تحدد فيها موقفها .

لكن سرعان ما لفت ذهاب المبعوثين وإيابهم انتباه الامانة العامة التي كانت تراقب حركات اولئك الذين كانت تشتبه بتعاطفهم مع المعارضة . هكذا تم استدعاء تروتسكيين وزينوفييفيين إلى مركز الحزب لتقديم تفسيرات لتحركاتهم . وفي كل مرة كانت تعلم فيها لجان الحزب باجتماع لمعارضين ، كانت ترسل اليه ممثليها المكلفين بفض ذلك الاجتماع غير الشرعي . هكذا اضطرت المعارضة الى تنظيم نفسها بصورة سرية الى هذا الحد أو ذاك . التقى أنصارها سراً لدى عمال متواضعين في مدن الضاحية . لكن المغاوير توصلوا في النهاية الى اكتشافهم وشتتوهم ؛ عندئذ غدوا يلتقون جماعات صغيرة في المقابر وفي

الغابات المحيطة ، الخ . كلفوا من يتولى الرصد وارسلوا دوريات لحماية اجتماعاتهم ، لكن ذراع الامانة العامة القدير وصل اليهم حتى في تلك الامكنة الغريبة . وقد حدثت حالات مضحكة : ففي احد الأيام ، مثلاً ، اكتشف جواسيس لجنة موسكو لقاء سرياً في غابة خارج المدينة . لم يكن رئيس الاجتماع إلا شخصية كبرى من اللجنة التنفيذية للكومنترن ، احد مساعدي زينوفييف ؛ أما من كان يتكلم فلاشيفيتش نائب مفوض الحرب . كان زينوفييف يستخدم التسهيلات التي تمنحها اياها مهامه كرئيس للاممية من أجل نشر وثائق المعارضة والاتصال بالمجموعات . أصبحت مراكز قيادة الاممية هكذا بؤرة المعارضة . وبالطبع ادى ذلك الى لفت انتباه ستالين سريعاً .

في مثل هكذا ظروف توصلت المعارضة الى جمع عدة آلاف من الاشخاص وتنظيمهم . كانت التقديرات حول عدد انصارها تتراوح بين اربعة آلاف وثمانية آلاف ، نصفهم تروتسكيون والنصف الآخر زينوفييفيون[٢] . وقد انضم إليهم من بقي من المعارضة العمالية ، وكانوا يعدون بالمئات على أبعد تقدير . كانت جبهة المعارضة تود استقبال كل من يرغبون في المجيء ، دون حسبان التباينات السالفة . كانت تود أن تغدو التجمع الكبير لكل المنشقين البلاشفة . ويجب الاعتراف ان تلك كانت هزيمة ثقيلة للمعارضة ألا تكون تمكنت من ان تحشد في بداياتها عدداً اكبر من المنضمين اليها . فاذا قورن أولئك الآلاف من المعارضين بمجموع اعضاء الحزب البالغ حوالى ٧٥٠ الفاً ، نجد أنهم لم يكونوا يشكلون غير أقلية هزيلة .

إلا أن قوة الكتل ينبغي ألا يجري تقويمها على أساس هذه الارقام . ذلك أن اغلبية الحزب كانت تشكل في الواقع كتلة بالغة التميع : أعضاء مطواعون ومطيعون ، لكن لا ارادة لهم ولا تفكير خاص بهم . كان قد مر اكثر من أربعة أعوام على إعلان لينين ان الحزب بمجمله لم يكن قادراً على بلورة سياسة ، وأنه لم يكن هنالك غير الحرس القديم ـ أقلية صغيرة لم يعد يزيد تعدادها عن عدة آلاف من الاعضاء ـ يحتفظ بتقاليد البلشفية ومبادئها[٣] . وينبغي النظر الى عدد الانصار الذين انضموا الى المعارضة على ضوء تصريحات لينين هذه . لم تكن المعارضة تستمد مجموعاتها من الجمهور الجامد بل من بين العناصر الفاعلة والنشطة والواعية ، ولا سيما بين اعضاء الحرس القديم وبعض الشباب الشيوعيين . أما الوصوليون والانتهازيون فلم يأت أحد منهم . والجبناء وذوو الحذر كفتهم

---

٢ ـ التقديرات الدنيا تأتي من مصادر ستالينية ، والعليا من مصدر تروتسكي .

٣ ـ انظر الفصل الاول ، للهامش ١٥ .

التهديدات التي كان الستالينيون والبوخارينيون المتعصبون يلقون بثقلها على انصار المعارضة والمصير الذي كانوا يعدونه لاجتماعاتهم كي يشعروا بالرهبة والخوف . إن القليل من الوصوليين ، الذين راهنوا عام ١٩٢٣ على الحصان الخاسر وقدموا أنفسهم كتروتسكيين حصلوا الآن على فرصة إنقاذ سمعتهم عن طريق خدمة الكتل الحاكمة . إن الآلاف القليلة من التروتسكيين والزينوفييفيين كانوا ، على غرار الثوريين المحترفين في الماضي ، رجالاً ونساء ينخرطون بحماس في الصراعات الايديولوجية الكبرى ولا يحسبون حساباً للمخاطر الشخصية الكبرى . معظمهم كانوا كوادر رفيعي القدر في الحزب البلشفي في الفترات الأكثر حرجاً ؛ وكان لمعظمهم علاقات سياسية متعددة تشدهم الى الطبقة العاملة . ومن المرجح ان نواة الكتل الحاكمة لم تكن اكبر حتى على المستوى العددي . وفي الحالة الحاضرة ، كان يبدو ان البوخارينيين أكثر شعبية من الستالينيين . ومع ذلك ، لم يمر عامان حتى كانت هزيمتهم اسهل بكثير من هزيمة جبهة المعارضة ، رغم ان احد قادتهم كان يرأس مجلس مفوضي الشعب ، وآخر يرأس النقابات ، وآخر يرأس الأممية الشيوعية . أما كتلة الستالينيين فلم تكن قوتها ناجمة عن قوتها العددية بل عن سيطرة زعيمها الكلية على جهاز الحزب . كان في وسعه استخدام كل إمكانات الحزب لتزوير الانتخابات ، واختلاق اكثريات زائفة ، ولاسيما لطمس الطابع التكتلي والشخصي لسياسته ، وباختصار لمماثلة تكتله الخاص به بالحزب . واخيرا ، علينا أن نأخذ بالاعتبار أنه لم يكن منخرطاً في هذا النزاع داخل الحزب انخراطاً مباشراً ونشيطاً وطوعياً إلا حوالى ٢٠ ألف شخص .

أعلنت جبهة المعارضة وجودها رسميا خلال اجتماع للجنة المركزية في أواسط شهر تموز/يوليو[٤] . بعد ان افتتح الجلسة بوقت قصير قرأ تروتسكي إعلاناً سياسياً : في هذا الاعلان يأسف زينوفييف ، وكامينيف ، وهو بالذات ، لخصوماتهم الماضية ، ويؤكدون أنهم يعتزمون اليوم العمل معاً لتحرير الحزب من طغيان « جهازه » ولاعادة إرساء الديمقراطية في الحزب . كانت المعارضة تحدد نفسها كيسار بلشفي يدافع عن مصالح الطبقة العاملة في وجه الفلاحين الاغنياء وبورجوازية النيب والبيروقراطية . كان اول مطلب للمعارضة يتعلق برفع الاجور في الصناعة ، في حين كانت الحكومة قررت تجميد الاجور غير سامحة بزيادات الا اذا بررتها زيادة في الانتاجية . وقد ردت المعارضة على ذلك

---

٤ ـ حصل ذلك خلال دورة مشتركة للجنة المركزية ولجنة الرقابة المركزية ، دامت من ١٤ تموز/يوليو إلى ٢٣ منه . محفوظات تروتسكي ، KPSS G Revolutsyakh ، ص ٢٧٤ وما بعدها . تروتسكي ، حياتي ، ج ٢ ص ٢٦٠ ـ ٢٧٥ . أي . ياروسلافسكي ، , Aus der Geschichte der Komm . Partei d . Sowjetu nion ج ٢ ، ص ٣٩٤ وما بعدها .

بأن الطبقة العاملة في حالة مزرية ـ أجورها ادنى مما كان مستوى الاجور قبل الثورة ـ بحيث لا يسعها زيادة الانتاجية إذا لم يتحسن وضعها . ينبغي اعطاء العمال حرية صياغة مطالبهم بانتظام عن طريق النقابات ، والتفاوض مع ادارة الصناعة ، وألا يبقى حقهم الوحيد الخضوع للأوامر ومعاينة نقاباتهم وهي تتحول الى أدوات مطيعة بين يدي الدولة . وكانت المعارضة تطالب أيضاً بإصلاح نظام الضريبة . فالحكومة كانت تستمد مواردها ، اكثر فأكثر ، من الضرائب غير المباشرة التي يتحمل عبئها الأكبر الفقراء ، مثلما الحال على الدوام . قالت المعارضة بضرورة تخفيف ذلك العبء عن طريق إرغام البورجوازية على دفع نسب أعلى من الضرائب على أرباحها(٥) .

بالروح نفسها ، تناولت المعارضة المشكلات الريفية . فبصدد هذه المشكلات أيضاً ، طالبت باصلاح الضريبة ، مؤكدة ان النظام المطبق آنذاك ، المقتصر على الضريبة الزراعية وحدها ، كان يعود بالربح على الاغنياء . كان يجب رفع الضريبة عن كاهل جمهور البدنياك(*)الواسع ، الذي كان يمثل ٣٠ او ٤٠٪ من المالكين الصغار ، وأن يدفع سائر الفلاحين ضريبة تصاعدية تصيب الكولاك بوقع أشد . أضف الى ذلك أن المعارضة كانت تدفع باتجاه الجماعية الزراعية . لم تكن تقترح التجميع الكامل ولا القسري ، كما لم تكن تشترط « تصفية الكولاك كطبقة » ، بل كانت تتصور اصلاحاً طويل الأمد يجري تطبيقه تدريجياً برضى الفلاحين ، وتسهّل الحكومة تطبيقه عبر سياسة تسليف ملائمة وباستخدام الموارد الصناعية . لم تطرح المعارضة يوماً اكثر من زيادة ٥٠٪ من معدل الضريبة التي يدفعها الكولاك وفرض تقديم هؤلاء تسليفات عينية من الحبوب يسمح للحكومة بزيادة صادراتها الزراعية واستيراد آلات صناعية . فرغم التكذيبات الرسمية الأكثر جزماً أكدت المعارضة ان مداخيل الضريبة الجديدة والتسليفات من الحبوب تسمح للحكومة بزيادة التثميرات في الصناعة ، وذلك رغم

(*) ـ اي الفلاحون الفقراء ، بعكس الكولاك ، أي الاغنياء (م)

٥ ـ كانت المعارضة تعتبر أن من المشين حصول الحكومة على دخل مهم من احتكار الدولة للفودكا ، لأن هذا يعني المراهنة ، بالتأكيد ، على سكر الجماهير . فما كانت الحكومة تكسبه كمنتجة للفودكا ، كانت تخسره كقائدة للصناعة ومستخدمة ، لأن الادمان على الكحول كان يضعف من مردود العمال ويزيد عدد حوادث العمل بشكل كبير . لقد بررت الحكومة احتكارها للفودكا بأنه يسمح لها بالنضال بفعالية ضد وباء اجتماعي اكثر خطراً ، هو المتمثل باستهلاك الكحول المصنَّع بيتياً . كان من الضروري الاعتراف بان المشكلة ابعد ما تكون عن البساطة . اقترحت المعارضة ان تتخلى الحكومة ، من قبيل التجربة ، عن احتكارها للفودكا خلال عام او عامين . لكن اكثرية وقفت ضد هذا الاقتراح ويذكر الجميع ان البلاشفة اضطروا في الاسبوع الذي تلا ثورة اوكتوبر لمواجهة موجة واسعة من السكر المعمّم ، كإرث من روسيا القديمة (أنظر النبي المسلح . . .) وبعد مرور عشرة اعوام ، لم يكن ذلك الوباء قد اختفى ، وقد استخدمه القادة لتغذية خزائن الدولة وابقاء الجماهير في حالة الخمول السياسي .

زيادة الاجور في هذا القطاع ، ورفع الضريبة عن كاهل الفلاحين الفقراء .

واخيراً ، كانت النقطة القصوى والحاسمة في برنامج المعارضة مطالبتها بتسريع وتيرة التصنيع . مرة اخرى ، اتهم تروتسكي الحكومة بالعجز عن التوقع والتخطيط ، لكنه كان يدعمه في هذه المرة زينوفييف وكامينيف . كانت السياسة الرسمية بالغة الجبن ، إذ استسلمت للتقدم بـ « خطى الحلزون » ، بحيث كانت وتيرة التقدم الصناعي ، عموماً ، أسرع مما توقعته الحسابات الرسمية . هكذا بلغت الصناعات الحديدية وانتاج وسائل النقل في عام ١٩٢٥ الاهداف التي كان حددها المجلس الاعلى للاقتصاد القومي . . . للعام ١٩٣٠ ! فأي دفع كان يمكن لقيادة اكثر نشاطاً واكثر تبصراً ان تعطيه للاقتصاد . كان المؤتمر الرابع عشر قرر تسريع ايقاع التصنيع وزيادة اهداف الانتاج . لكن بقيت تلك القرارات حبراً على ورق ، اذ تجاهلتها البيروقراطية الروتينية بوضوح . ولا شيء يمكن ان يضع حداً لهذا الجمود سوى خطة حقيقية ، تكون في الوقت ذاته خطة اجمالية وخطة تفصيلية ، تمتد الى خمس سنوات أو عشر . كان شعار المعارضة : « نريد خطة خمسية حقيقية » .

بالقدر من الحزم الذي كانت المعارضة تشترط به تطوير القطاع الاشتراكي في الاقتصاد ، كانت ترفض كذلك اطروحة الاشتراكية في بلد واحد . وهذه النقطة الاخيرة هي التي غدت محور النضال « الايديولوجي » . كانت المعارضة ترفض فكرة اشتراكية قومية مكتفية بذاتها كفكرة لا تتفق مع التراث اللينيني ومبادىء الماركسية . وكانت تؤكد أنه بالرغم من كل التأخير في انتشار الثورة العمالية لم يكن لدى الحزب من مبرر للنظر الى مستقبل الاتحاد السوفياتي في حالة عزلة ولأن يستبعد سلفاً كل منظور لتطورات ثورية في العالم . في كل حال ، لا يتطلب بناء الاشتراكية عدة سنوات وحسب بل عدة عقود ؛ فلماذا التأكيد إذّاك بأن الاتحاد السوفياتي قد يبقى طيلة ذلك الوقت الدولة العمالية الوحيدة . كان ذلك ما افترضه الستالينيون والبوخارينيون ، وإلا لماذا اشترطوا بذلك القدر من العناد أن يقبل الحزب اطروحة الاشتراكية في بلد واحد كفعل ايمان ؟

كان في ذلك وضع كل توجه سياسة الحزب الاممية موضع الاتهام . لأن التسليم سلفاً بأن على الاتحاد السوفياتي التصدي لوحده لمهمة بناء الاشتراكية يعني التخلي عن فكرة الثورة العالمية ، والتخلي عنها يعني رفض الاعداد لها ، وحتى منع قيامها . كانت المعارضة تعتبر أنه بـ « إلغاء » ستالين وبوخارين الثورة العالمية من مفهومها النظري

توصلا لالغائها أيضاً من سياستها الملموسة . وكانت استراتيجية الكومنترن قد اصبحت شديدة الانطباع بأطروحات بوخارين حول « استقرار الرأسمالية » ؛ وقد لفت تروتسكي وزينوفييف الانتباه إلى أن ستالين وبوخارين ، في آن معاً ، كانا يدفعان الشيوعيين الاوروبيين ، إذا لم يكن للتدمير الذاتي فعلى الأقل لتسويات مع احزاب الاممية الثانية والنقابات الإصلاحية . كان ذلك يؤدي إلى جبهة متحدة « انتهازية » تصطف فيها الاحزاب الشيوعية تحت راية الاشتراكية ـ الديمقراطية وتتخذ موقفاً إصلاحياً . كان المثال الأكثر صدماً على هكذا تكتيكات ـ تتعارض كلياً مع قرارات المؤتمرات السابقة للأممية الشيوعية ـ هو المجلس الانكليزي ـ السوفياتي . هذا المجلس نشأ نتيجة معاهدة بين القادة النقابيين في كلا البلدين . وهو لم يسمح ـ ولم يكن يمكن ان يسمح ـ بأي حال من الاحوال ، باحتكاك الشيوعيين بالجماهير الاصلاحية أو بالتأثير عليها . ولذا لم يدفع ، بأية حال ، صراع الطبقات في انكلترا ، ولم يكن بإمكانه أن يدفعه . لا بل حصل العكس تماماً ، حسبما قالت المعارضة . فإذ أعلن الشيوعيون السوفيات انهم اصدقاء القادة النقابيين الانكليز الذين كانوا يكبحون التعبئة العمالية ووصلوا إلى حد إيقاف اضراب عام ، ساهموا في ان يدب الارباك والفوضى في صفوف العمال الانكليز الذين لم يعودوا يعرفون من عدوهم ومن حليفهم . لقد ركّز تروتسكي ، وبدرجة أدنى زينوفييف وكامينيف ، هجماتهم على المجلس الانكليزي ـ السوفياتي ، وكان يجسد في نظرهم هذا التخلي الضمني عن كل هدف ثوري ، الذي كان سبب نظرية الاشتراكية في بلد واحد ونتيجتها في آن معاً .

ولم يكن الاعلان الذي قرأه تروتسكي في دورة تموز/يوليو للجنة المركزية يضم إلا القليل من الاشياء التي لم يقلها هو او حلفاؤه من قبل . لكن كانت تلك هي المرة الاولى التي يجمعون فيها في عرض للسياسة العامة انتقادات واقتراحات مضادة ، ويطلقون في وجه الكتل الحاكمة تحدياً مشتركاً . كان رد الفعل عنيفاً ، وقد احتدمت نبرة النقاشات وغدا الجو أصعب احتمالاً أيضاً بفعل حادثة مشؤومة . فدزرجنسكي ، المريض ، وفي أقصى الانفعال ، ألقى خطاباً طويلاً وعنيفاً ادان فيه قادة المعارضة ولا سيما كامينيف . طوال ساعتين ، دوّى صوته بالغ الحدة والصياح في آذان الحضور ، وفجأة فيما يغادر المنصة أصيب بنوبة قلبية واغمي عليه ومات في البهو أمام اعين اعضاء اللجنة المركزية .

للحال رفضت اللجنة المركزية طلب زيادة الاجور الذي صاغته المعارضة .

أعاد قادة الاكثرية التأكيد بأن السلع نادرة وان كل زيادة للاجور لا تصحبها زيادة في الانتاج قد تؤدي إلى التضخم وتفاقم وضع العمال بدل تحسينه . ورفضت اللجنة المركزية إعفاء الفلاحين الفقراء من الضريبة وزيادة الضريبة التي تدفعها الفئات الاخرى من الفلاحين . كما عارضت كذلك تسريع التصنيع . وفي الاخير ، اعادت تأكيد دعمها لسياسة ستالين وبوخارين ، وايدت بوجه خاص المجلس الانكليزي ـ السوفياتي . لكن في كل تلك الأمور ، وجدت الكتلتان الحاكمتان نفسيهما مربكتين ، وفي موقع الدفاع عن النفس باستمرار . لذا لم يطلق ستالين هجومه المضاد على الصعيد السياسي بل على صعيد الانضباط الحزبي .

اتهم ستالين قادة المعارضة بتشكيل تكتل حقيقي داخل الحزب ، منتهكين بذلك الحظر الذي أعلنه لينين قبل خمس سنوات . هاجم المجموعة الأضعف في المعارضة ، مجموعة زينوفييف . اتهم زينوفييف باستغلال مهامه كرئيس للاممية الشيوعية ، وبأنه حوَّل مقر تلك المنظمة إلى مركز قيادة للمعارضة ؛ ومن جهة اخرى اتهم لاشيفيتش ومجموعة من المعارضين أقل اهمية بعقد اجتماعات « سرية » في الغابات المحيطة بموسكو ؛ وفي الأخير ، ذكر حالة واحد يدعى اوسوفسكي قال إن على المعارضة أن تتشكل كحركة سياسية مستقلة ، وتتوقف عن العمل كمعارضة داخلية لخوض النضال علانية من الخارج ضد حزب ستالين وبوخارين . وقد استنكر تروتسكي هذا الموقف وحال دون تضامن المعارضنة معه . لكنه اضاف انه إذا كان توصل بعض الاعضاء لليأس من الحزب ولم يعودوا يأملون إصلاحه من الداخل ، فالمسؤولية عن ذلك تقع على القادة الذين خنقوا كل محاولة للاصلاح . اما اللجنة المركزية فقررت طرد اوسوفسكي وإقالة لاشيفيتش من مسؤولياته في اللجنة المركزية ومفوضية الحرب ، وفي الأخير حرمان زينوفييف من مقعده في المكتب السياسي[٦] .

هكذا، من أول مواجهة ، منيت جبهة المعارضة بهزيمة جدية . فقد كان طرد أحد أعضاء الحزب ، وإن كان « متطرفاً » مغموراً ، تحذيراً يحفل بالتهديد . وبعد اقصاء لاشيفيتش ، زالت المعارضة من مفوضية الحرب . لكن الضربة الأقسى كانت إقصاء زينوفييف عن المكتب السياسي . ولما لم يعد كامينيف ، منذ المؤتمر الرابع

٦ ـ ن . بوبوف ، التاريخ العام للحزب الشيوعي السوفياتي، ج ٢ ، ص ٢٧٩ ـ ٢٩٢ . أي . ياروسلافسكي ، المرجع المذكور ، ج ٢ ، الفصل العاشر ، المحفوظات ؛ ستالين سوش ج ٨، ص ١٧٦ ـ ٢٠٣ ، Kpssu Revolutsyakh ، ج ٢ ، ص ١٦٠ ـ ١٦٦ .

عشر ، اكثر من عضو احتياطي ، لم يعد للمثالثين السابقين الحق بالتصويت في المكتب السياسي . وهكذا لم يعد بين قادة المعارضة من يحتفظ بمقعده غير تروتسكي وحده . واذا كان زينوفييف ترأس الاممية الشيوعية ، فبسبب دوره في المكتب السياسي ، لذا كان من المتوقع ألا يحتفظ برئاستها . واذا كان ستالين جرؤ على إزاحة ذلك الذي كان الكثيرون يعتبرونه قبل قليل المثالث الأول ، فذلك يشهد على ثقة بالنفس ومقدرة خارقتين . لقد تصرف ستالين عندئذ بسرعة قصوى ، لكن وهو يلتزم بدقة بكل دقائق النظام الداخلي . تم عرض اقتراح إقصاء زينوفييف ، وفقاً للنظام ، على اللجنة المركزية التي كانت تتمتع وحدها بسلطة تعيين اعضاء المكتب السياسي أو إقصائهم . وقد صوتت اكثرية كبرى لصالح ذلك الاقتراح .

منذ ذلك الحين ، لم يعد هنالك ما يمنع ستالين نظرياً من إقصاء تروتسكي ايضاً عن مقعده في المكتب السياسي . إلا انه لم يكن واثقاً ، مع ذلك ، بالحصول على اكثرية بذلك الحجم ، وادرك ان إبداء الاعتدال يقوي موقفه . فبمهاجمة المعارضة تدريجياً ، كان يعد الرأي العام الحزبي بأفضل صورة لتصفيتها النهائية . بانتظار ذلك ، لم يكن عليه ان يخشى الكثير من الاعلانات المبدئية للمعارضة ، أو من احتجاجاتها المعبر عنها في اللجنة المركزية او في المكتب السياسي . فالقليل مما كان يقوله قادة المعارضة كان يصل إلى الخلايا ، وأقل أيضاً كان يَرْشَح إلى الصحافة . وطالما بقي الأمر كذلك، وبقي التحالف القائم في السلطة متماسكاً ،فإن المعارك الخطابية في المكتب السياسي أو في اللجنة المركزية ما كانت لتؤدي بالمعارضة إلى اي شيء .

لهذا السبب بالذات لم يبق أمامها سوى أن تستنفر مناضلي القاعدة ضد المكتب السياسي واللجنة المركزية . فخلال صيف ١٩٢٦ ، أشار تروتسكي وزينوفييف على اتباعهما بأن يكشفوا حقيقة موقفهم لكل أعضاء الحزب ، وبتوزيع إعلانات سياسية ، ومناشير ، وعروض لـ « موضوعاتهم » ، وبالكلام في الخلايا . حتى قادة المعارضة بالذات مضوا الى المصانع والمشاغل ليخطبوا في الشغيلة . ظهر تروتسكي ظهورات مرتجلة في لقاآت كبرى انعقدت في موسكو ، في مصنع السيارات وفي مشاغل سكك الحديد . إلا أن قادة المعارضة لم ينجحوا في أن يوجهوا انطلاقاً من القاعدة رأي الحزب ، مثلما لم ينجحوا في التأثير على سياسته انطلاقاً من القمة . فقد كان جهاز الحزب يسبقهم دوماً . ففي كل مكان ، كان عملاؤه ومسعوروه ومناقضوه يستقبلونهم بالصياح ، ويُغرقون خطبهم في ضجيج جهنمي ، ويرهبون السامعين ، ويفرقون الحاضرين ، وفي كل الأحوال يحولون

دون الخطباء وأي إمكانية لايصال خطبهم الى أسماع الحضور . للمرة الأولى منذ ما يقارب الثلاثين عاماً ، للمرة الأولى في تاريخ تروتسكي كخطيب ثوري ، كان يجد نفسه عاجزاً أمام الجمهور . فبوجه الجلبة المهينة ، والصفير والصياح ، كانت حججه الأكثر إقناعاً ، وموهبة الاقناع لديه ، وصوته القوي والمدوي ، عاجزة عن أي شيء . وكانت الاهانات التي يتلقاها الخطباء الآخرون اكثر عنفاً . ولقد انتهت المحاولة الأولى من جانب المعارضة لطرح الصوت على الرأي العام الحزبي إلى الفشل .

وقد زعق ستالين بأن المناضلين البلاشفة الشجعان والشرفاء هم الذين أنزلوا بالمعارضة هزيمة تستحقها . واجابت المعارضة بأنه استُخدم ضدها أسوأ الأشخاص ، من بروليتاريين رثين وزقاقيين لا يريدون أن يطلع مناضل القاعدة الشريف على أفكار المعارضة . كان ستالين عديم الحشمة حقاً ، لأن الضجيج الذي كان عملاؤه يستقبلون به تروتسكي وزينوفييف وأصدقاءهما ما كان يمكن اعتباره ابداً « صوت الشعب » . لكن لا يكفي هذا لتفسير فشل المعارضة المذل . فإذا كانت عصابات زقاقيين قادرة على أن تثير الاضطراب في جمعيات ضخمة ، فلأن الاكثرية كانت لامبالية ، على الاقل ، إذا لم تكن ممالئة لهم . إن جمهوراً مهتماً ومنضبطاً يعرف في العادة كيف يعيد الهدوء ، او « يُخرج » عند الحاجة بعض الممسوسين الذين يبغون منعه من الاصغاء إلى الخطيب ومن التفكير الجدي . كانت وراء الزقاقيين وصفيرهم جماهير صامتة وخائفة وخاملة بما يكفي لكي لا تعتبر من المفيد فرض الانضباط وتأمين النظام . هذا الخمول ، بوجه خاص ، لدى الجماهير هو الذي أدى إلى هزيمة المعارضة .

ومع ذلك فإن المطالب التي صاغتها المعارضة باسم العمال ، من مثل زيادة الأجور ، كانت تهدف الى التغلب على ذلك الخمول ، فلماذا لم تجد اي صدى ؟ بالنسبة الى الأجور ، بدت لدى الكتل الحاكمة بوادر تراجع . ففي تموز/يوليو كانت قد رفضت بصورة جازمة دراسة هذا المطلب ، بحجة أن أي رفع للاجور قد يوجه ضربات جدية الى الاقتصاد القومي . لكن في ايلول/سبتمبر ، بعد أن رأى ستالين وبوخارين ان خصومهما كانوا على وشك نقل المعركة الى أمام الجماهير ، بادرا الى الوعد بزيادةٍ للعمال ذوي الأجور الدنيا والأكثر استياء . أما التفسير الذي أعطي لهذا الانعطاف فكان أن الوضع الاقتصادي تحسن بشكل ملموس . وفي الواقع لم يكن حدث اي تحسن ، وما كان بإمكانه ان يحدث في فترة شهرين . هكذا سجلت المعارضة نجاحاً جزئياً ، لكنها وجدت نفسها محرومة ايضاً من حجة بين اكثر الحجج فعالية . كما ان ستالين خلط الأوراق حين بدأ يتبنى افكار

تروتسكي على صعيد السياسة الصناعية . لم يكن آنذاك مقتنعاً إطلاقاً بضرورة تصنيع بالغ السرعة ، لكنه استعار في قراراته وتصريحاته العديد من صيغ تروتسكي وحتى مقاطع بكاملها .

كذلك جرى تقديم سياسة الحزب في الميدان الزراعي بصورة خادعة . فقد أكد ستالين ان الخلافات بين التكتلين الحاكمين والمعارضة لم تكن تتناول مصير الكولاك بل مصير الفلاحين المتوسطين . لقد أثمرت الصيحات الغاضبة ضد الكولاك في المؤتمر الرابع عشر إذ أيقظت لدى الكوادر حذراً متكتماً حيال المدرسة الشعبوية الجديدة . لم يعد بإمكان بوخارين أن يسمح لنفسه بالتأكيد علانية أن ثمة ضرورة لتهدئة غضب الفلاحين الاغنياء . تبدل الرأي العام البلشفي : عاد الكولاك عدو الاشتراكية المشار اليه بالبنان . واذا كانت الحكومة لا تزال شديدة الاهتمام بعدم صدمه وترفض تكليفه ضرائب أكبر ، فهي لم تعد تريد مع ذلك تقديم تنازلات جديدة له؛ لم تعد أي نيب جديدة مطروحة . طبعاً لم تكن الحالة تحسنت ، لكن لما كانت السياسة الرسمية خاضعة لضغوط متناقضة فقد تجمدت . وهي لم تستفد إلا مما هو أسوأ ، إذ لم تكن تستطيع الاستناد لا إلى المنافع التي ربما كانت عادت بها تهدئة الكولاك ولا الى تلك التي كان يمكن ان تنتجها تدابير اجتماعية وضريبية صارمة . وهكذا كان لا يزال للمعارضة ملف جيد تدافع به . الا ان ستالين نجح في القيام بهجوم تضليلي عن طريق اتهام تروتسكي وزينوفييف بدفع الحزب الى الدخول في صراع مع ملايين الفلاحين المتوسطين ، أولئك الموجيك بامتياز ، الذين لم يكونوا يستغلون أحداً ، ولم يكن تعلقهم بالملكية الخاصة ينطوي على كبير خطر ، وكان استعدادهم أساسياً بالنسبة لتحالف البروليتاريا والفلاحين .

وفي الواقع ان المعارضة لم تكن تعادي الفلاحين المتوسطين إطلاقاً(٧) . لم تكن تطلب الى الحزب أن يحمّلهم كل ثقل الضريبة . إن الجمهور الواسع من السيريدنياك ، الذين كانوا يكادون يلبون حاجاتهم في ملكياتهم الصغيرة ، كانوا يعجزون عن تقديم حل لمشكلة تغذية الأمة . لكن المعارضة عانت مع ذلك كثيراً من هذا الاتهام . مرة أخرى صورت جيوش من الدعاويين تروتسكي كعدو للفلاحين من النوع الأول ، تماماً كما كان حصل عام ١٩٢٣ و ١٩٢٤ ؛ وقد أضافوا ان العدوى انتقلت الى زينوفييف وكامينيف من

---

٧ ـ ادعت المعارضة مع ذلك ان الستالينيين والبوخاريين كانوا يقزمّون غالباً من قوة الاستثمار الزراعي الرأسمالي عن طريق تصنيف الكولاك بين السيريدنياك .

تروتسكي الذي نقل اليهما حقده على الموجيك . وفي خلايا الحزب ، لم يعد الأعضاء يتعرفون إلى أنفسهم في كل تلك الاتهامات والدفاعات والهجمات المضادة . كانت مرافعات بوخارين لصالح الفلاحين الاغنياء قد أثارت بعض المخاوف ، أما الآن فلم تعد نوايا تروتسكي وزينوفييف توحي بالثقة . إن الصراع مع الفلاحين هو ما كان يخشاه العمال قبل كل شيء ، لاسيما ان معظمهم من أصل ريفي . إن ما كانوا يتمنونه فوق كل شيء إنما هو الأمن . ولما كان هذا ما بدا ستالين يقدمه لهم ، لم يكن لديهم بتاتاً أية رغبة بالمغامرة به إكراماً للمعارضة .

لقد نتجت قوة ستالين من كونه عرف كيف يلعب على تلك الرغبة الملحة في السلام والأمن والاستقرار التي كانت تعمر بها نفس الشعب في تلك الايام . مرة اخرى ظهر تروتسكي كذلك الذي يريد إعادة النظر في هذا السلام ، وذلك الأمن ، وذلك الاستقرار . لقد شكل تعب الجماهير الكبير وخوفها من كل تجربة جديدة ومنطوية على المخاطر خلفية تلك المعركة . وحين أراد ستالين تبرير سياسته الخارجية لعب بالتأكيد على ذينك التعب والخوف . ومرة اخرى أيضاً صوّر تروتسكي كدون كيشوت الشيوعية الذي يريد جرَّ الحزب الى أخطر المغامرات ، فقال في دفاعه عن المجلس الانكليزي ـ السوفياتي :

« إن سياسة تروتسكي هي سياسة حركات مشهدية . . . فهو لا ينطلق من اناس فعليين ، عمال من لحم وعظم . . . بل من مخلوقات مثالية ، من ثوريين كاملين . . . ولقد كنا رأينا أولى تجليات تلك السياسة ، إبان مفاوضات برست ـ ليتوفسك ، حين رفض توقيع الصلح بين روسيا والمانيا . . . كما لو أن في وسع تلك الحركة المشهدية ان تؤلب ضد الأمبريالية عمال كل البلدان » وأنتم تعرفون ، ايها الرفاق ، أي ثمن دفعناه لقاء تلك الحركة ! ومن كان المستفيدون منها ؟ كل اولئك الذين كان جل همهم خنق الجمهورية السوفياتية الشابة . . . كلا ، ايها الرفاق ، ان سياسة الحركات المشهدية هذه لن تكون سياستنا الآن مثلما لم تكن سياستنا ايام بريست ـ ليتوفسك . . . لا نريد أن يصبح حزبنا لعبة بين ايدي اعدائنا[٨] . »

إن المقارنة التي أقامها ستالين بين صلح بريست ـ ليتوفسك والمجلس الانكليزي ـ السوفياتي كانت ، على الاقل ، غير لائقة : ذلك ان قطيعة كلية بين السوفييتات والقادة النقابيين الانكليز ـ وهي قطيعة لم تكن المعارضة تطالب بها ، إذا اخذنا بالاعتبار

---

٨ ـ ستالين ، سوش ، ج ٨ ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

اعتراضات زينوفييف ـ ما كانت لتعرض الاتحاد السوفياتي لأخطار مماثلة ، من اي من النواحي ، لأخطار أزمة بريست ـ ليتوفسك . والاتهام يثير السخرية والضحك حين يأتي من بوخارين ؛ ففي عام ١٩١٨ ، كان هو على رأس حزب الحرب ، الحزب الذي لم يُهزَم إلا حين اختار تروتسكي ، الذي كان صوته حاسماً ، جانب السلام(٩) . لكن من كان يعرف تفاصيل تلك اللحظات الدرامية ، ومن كان ، بوجه خاص ، يتذكرها ؟ لقد كانت ذاكرة الحزب البلشفي ضعيفة ! وما كان أسهل من جعله يشك بـ « المواقف البطولية » لتروتسكي .

بهذه الطريقة أيضاً تابع المناضل البلشفي العادي المجادلة حول الاشتراكية في بلد واحد . كان فهم لب المشكلة من أصعب الامور بالنسبة اليه . فبمقدار ما لم يكن النقاش يغرق في السفسطات والحماقات ، كان يضع مدرستين اقتصاديتين الواحدة في مواجهة الاخرى : واحدة كانت تتصور « بناء الاشتراكية » داخل دولة قومية تكفي نفسها بنفسها ، واخرى تتصور المهمة ذاتها في سياق قسمة عالمية واسعة للعمل . وفقط اعضاء الحزب الذين كانوا يملكون تكويناً نظرياً صلباً للغاية كان بوسعهم ان يتابعوا الخلاف . ففي القاعدة ، ما كان يمكن أن يفهم المناضل لماذا كان زينوفييف وكامينيف يؤ كدان أنه إذا كانت موارد روسيا كافية للسماح بتقدم ذي قيمة ، فهي لا تسمح مع ذلك ببناء اشتراكية كاملة . وكان أقل ايضاً عدد الذين كان في وسعهم أن يتابعوا استدلال تروتسكي ، لأنهم كانوا بحاجة لمعرفة معمقة بالماركسية . كان تروتسكي يجزم أنه قد يمكن الثورة ألا تتجاوز ، لمدة من الزمن ، حدود دولة واحدة ، لكن لا يمكن للاشتراكية ان تبنى في النهاية على مستوى أمة واحدة ، أو دولة واحدة ، حتى لو كانت باتساع الاتحاد السوفياتي أو الولايات المتحدة . كانت الماركسية قد تصورت الاشتراكية دائماً كمجتمع عالمي ، لأنها كانت تعتبر أن المجتمع يتجه تاريخياً نحو دمج الجماعات والامم على قاعدة اكثر فأكثر اتساعاً . فللانتقال من النظام الاقطاعي الى النظام البورجوازي ، تجاوزت أوروبا الخصوصيات القروسطية ؛ خلقت البورجوازية سوقاً قومية ، وانطلاقاً من تلك السوق اتخذت الدولة الحديثة شكلها . إلا أنه ما كان بإمكان قوى الانتاج والطاقات الاقتصادية لدى الأمم المتطورة ان تقوم ضمن الحدود الضيقة للدول القومية . وحتى في ظل النظام الرأسمالي ، جرى تجاوز تلك الحدود عن طريق القسمة العالمية للعمل ، التي كانت تشكل عامل تقدم

---

٩ ـ انظر النبي المسلح ، الفصل التاسع .

حاسماً خلقه الغرب البورجوازي[١٠] . إن ماركس ، الذي ظهر ، بصدد هذه النقطة ، كتلميذ أمين لسميث وريكاردو ، كان قد كتب في البيان :

« لقد خلقت الصناعة الحديثة السوق العالمية . . . التي سرّعت بصورة مذهلة تطور التجارة والملاحة وطرق المواصلات . . . إن البورجوازية ، التي حفزتها الحاجة إلى أسواق جديدة باستمرار ، اكتسحت الكرة الارضية بأسرها . . . اعطت البورجوازية . . . طابعاً كوسموبوليتياً للانتاج والاستهلاك في كل البلدان . **لقد انتزعت من الصناعة قاعدتها القومية ، مثيرة يأس الرجعيين . . . وبدل الانعزال القديم المحلي والقومي والاكتفاء بالذات نجد أنفسنا الآن امام التعامل متعدد الوجوه بين الامم وترابطها الشامل**[١١] . »

كان تروتسكي يتساءل : كيف يمكن تصور الاشتراكية قائمة ضمن إطار قومي ، في بلد معزول ووحيد ؟ إن التطور التقني والانتاجية والوفرة التي تتطلبها الاشتراكية ، وذلك بدرجة أعلى في الرأسمالية ، لا يمكن الحصول عليها ضمن اقتصاد مغلق ومتخلف . سوف تتوقف الاشتراكية ، اكثر بكثير مما تتوقف الرأسمالية ، على تلك « المبادلات الدولية بالغة التعقيد » . سيكون على الاشتراكية أن تدفع بالقسمة العالمية للعمل أبعد بكثير مما حلمت البورجوازية بأن تفعل ؛ وبعكس البورجوازية ، التي لم تفعل ذلك إلا بصورة انتهازية وفوضوية ، سوف تنظم تلك القسمة بصورة منهجية وعقلانية . وهكذا لم تكن اطروحة الاشتراكية في بلد واحد لا عقلانية وحسب ، بل كانت كذلك رجعية : لم تكن تأخذ بالحسبان السير المنطقي للتاريخ ولا بنى العالم الحديث . كان تروتسكي يطرح الولايات المتحدة الاوروبية كأمر سابق لكل مجتمع اشتراكي عالمي ، بصورة اكثر جزماً مما فعل في أي وقت من الاوقات .

إياً تكن قيمة هذا الاستدلال أو بطلانه ، من المؤكد أنه كان بعيداً عن متناول المناضلين البلاشفة الذين كانت المعارضة تسعى آنذاك للحصول على دعمهم . وبعد مرور سنتين على ذلك التاريخ ، فيما كان رادك قد اصبح في المنفى ، تساءل حول اسباب هزيمة المعارضة ، فكتب لتروتسكي مشيراً الى ان المعارضين تصرفوا كدعاويين ، يناقشون نظريات عظيمة لكن مجردة ، لا كمحرضين سياسيين يسعون لاجتذاب الجماهير عن طريق

---

١٠ ـ هذا هو السبب في ان تروتسكي اعتبر ، بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٤٠ ، ان عودة الغرب البورجوازي الى النزعة القومية الاقتصادية (لا سيما إلى اكتفاء الرايخ الثالث الذاتي) هي العلامة الاكثر ثقة لانحطاطه .

١١ ـ التشديد من المؤلف .

طروحات ملموسة وبسيطة[١٢] . ولا شك ان رادك كتب تلك الأسطر في حالة نفسية انهزامية ـ كان آنذاك على وشك الاستسلام لستالين ـ ولم يكن ينصف المعارضة . ذلك انه حتى الافكار الملموسة التي دافعت عنها المعارضة (زيادة الأجور ، السياسة الضريبية ، السياسة الصناعية ، الديمقراطية البروليتارية ، الخ.) لم تتوصل اكثر الى إيقاظ مناضلي القاعدة من سباتهم . إلا أن ثمة شيئاً من الحقيقة في حكم رادك . كانت القاعدة آنذاك بالغة الحذر ، محبطة ، فريسة سهلة للانعزالية ، ولم تكن منظورات تروتسكي التاريخية العظيمة تتلاءم معها . فكما قال فارغا ، كان المناضلون يريدون آنذاك نظرية معزية تعوّضهم من التضحيات الماضية والآتية . والاشتراكية في بلد واحد أحد تجليات تلك الميثولوجيا ـ أو الولع بالأكاذيب ـ التي لم تكن تنفصل عن الستالينية والتي كانت تهدف الى طمس المسافة بين وعود البلشفية وما كانت تفعله . بالنسبة لتروتسكي ، لم تكن تلك الأساطير سوى أفيون جديد للشعب ، على الحزب رفض نشره .

كتب يقول : « في الايام البطولية ، عمل حزبنا للثورة العالمية لا للاشتراكية في بلد واحد . وتحت هذه الراية وباسم هذا البرنامج الذي كان يعلن بوضوح ان روسيا المتخلفة . . . لن تستطيع بلوغ الاشتراكية لوحدها ، عاشت شبيبتنا الشيوعية اكثر ايام الحرب الاهلية إنهاكاً ، وقاست الجوع والبرد والاوبئة ، وفرضت على نفسها طوعاً وتيرة عمل قسرية (سوبو تنيكي) ، ودرست كل خطوة الى الامام ودفعت ثمنها تضحيات لا حصر لها . إن اعضاء حزبنا وشبيبة الكومسومول قد قاتلوا في الجبهة ، وحين كانوا (في ايام العطلة) يتطوعون ليحملوا الى محطات السكك الحديدية قطعاً ضخمة من الخشب ، فذلك لم يكن لأنهم كانوا يأملون أن يبنوا بقطع الخشب اشتراكية قومية ، بل لأنهم كانوا يخدمون قضية الثورة العالمية ، ولأنه كان ينبغي ، لأجل هذه القضية ، أن يقاوم الحصن السوفياتي ؛ كل قطعة من الخشب كانت تعطي الحصن القوة والمتانة . . . أما الآن فقد تغيرت الايام ؛ . . . لكن القضية بقيت هي ذاتها واحتفظت بالسلطان ذاته . لقد اظهر العمال ، والفلاحون الفقراء ، والانصار والشيوعيون الشباب ، اظهروا بسلوكهم ، منذ عام ١٩٢٥ ، أنهم لا يحتاجون إلى الانجيل الجديد . إن البيروقراطي الصغير ، المدير ، الذي يريد ان لا يزعجه أحد ، هو طفيلي جهاز الحزب . إن هذا وأمثاله هم الذين يؤكدون . . . أنه لا ينبغي إعطاء الشعب غير مذاهب معزية . . . لكن العامل الذي يفهم أنه يستحيل بناء جنة اشتراكية كواحة في جحيم العالم الرأسمالي ، العامل الذي يفهم أن

١٢ ـ انظر دفتر مذكرات رادك «Nado dodumat dokontsa» ، المكتوب عام ١٩٢٨ ، والذي يوجد في المحفوظات .

مصير الجمهورية السوفياتية ومصيره الخاص به يرتكزان كلياً على الثورة العالمية ، هذا العامل سيؤدي واجبه تجاه الاتحاد السوفياتي ، افضل بكثير من ذلك الذي يقال له إنه غدت لدينا اشتراكية بنسبة ٩٠٪ ويصدق ذلك[١٣] » .

لكن لسوء حظ المعارضة وتروتسكي ، لم يكن « البيروقراطيون الصغار والطفيليون الصغار » فقط هم الذين يفضلون المذاهب المعزية على الدعوات البطولية الى الثورة الدائمة ، بل كانت معهم ايضاً في هذا التفضيل الجماهير المحبطة والمترددة . هذه الجماهير تركت نفسها تقتنع أن ستالين يقدم لها الطريق الأضمن ، والأسهل والأنعم .

علينا القول كذلك إن نظرية الاشتراكية في بلد واحد كانت تدغدغ كذلك الكبرياء الشعبية القومية ، بينما كان يبدو للبسطاء ان تروتسكي ، بمرافعاته حول الروح الاممية ، يعتبر روسيا ، ضمناً ، عاجزة عن الاعتماد على نفسها ، وأنها لن ترى خلاصها ، في نهاية المطاف ، إلا على يد غرب تنتصر فيه الثورة . لم يكن في وسع ذلك إلا أن يصدم الثقة بالذات لدى شعب انجز كبرى الثورات ـ ثقة بالذات كانت لا تزال ، رغم كل تعاسة الحياة اليومية ، فعلية حتى وإن اقترنت ببلادة سياسية عظيمة . كان تروتسكي يشدد على تخلف روسيا ويبينّ انه عائق مهم جداً دون بناء الاشتراكية . لكن الجماهير التي قادها البلاشفة كانت قد وعت هذا الواقع وكانت ثورة اوكتوبر التعبير عن احتجاجها . بيد أنه لما كان الأفراد والأمم والطبقات والأحزاب لا يستطيعون الحياة الى ما لا نهاية له بوعي حاد لدونيتهم ، فهم يحاولون عاجلاً أو آجلاً أن يخففوا من حدة هذا الوعي . يبدؤون بالشعور بأنهم قد أهينوا حين يجري تذكيرهم بذلك باستمرار ؛ ثم يشتبهون بسوء نيةٍ لدى أولئك الذين يكلمونهم على ذلك بلا انقطاع . اما المدافعون عن الاشتراكية في بلد واحد فكانوا يعيرون القليل من الاهتمام لتأخر روسيا ، ويقدمون لذلك تفسيرات تنطوي على المجاملة والمراعاة ، هذا إذا لم ينكروه[١٤] . كانوا يقولون للشعب ان بامكانه ، من دون مساعدة خارجية ، أن ينجز بناء الاشتراكية ، معجزة التاريخ الكبرى . والطريق التي بدا أن ستالين يقدمها له ، لم تكن الأسهل والأضمن وحسب ، بل كانت تجعل أيضاً من الشعب الروسي شعب الاشتراكية المختار ، كانت

---

١٣ ـ تروتسكي ، الاممية الثالثة بعد لينين ، الطبعة الانكليزية ، ص ٦٧ . إن النسخة الانكليزية ، The Third International after Lenin ، تمت إعادة كتابتها جزئياً .

١٤ ـ يظهر هذه الاتجاه حتى في العلم التاريخي البلشفي ، ولا سيما في نظريات بوكروفسكي حول تطور الاشتراكية والدولة في روسيا . كان بوكروفسكي يمثل في تلك الحقبة التاريخ الاورثوذكسي ، الستاليني .

إنجاز تلك الرسالة التاريخية الخاصة بروسيا ، الذي حلمت به أجيال من النارودنيين . هكذا ، بدت قناعتان متعارضتان وشبه رسوليتين تتصادمان الواحدة مع الأخرى : قناعة تروتسكي المؤمن بالدعوة الثورية للبروليتاريا الغربية ، وقناعة ستالين التي كانت تمجد الرسالة الاشتراكية لروسيا . ولما كان جرى البرهان اكثر من مرة على عجز الشيوعية الغربية ، فقد كان من العبث التساؤل مع من كان يصطف الشعب .

بيد أن رغم قناعة تروتسكي المحمومة بأن الثورة في الغرب وشيكة الحدوث ، فقد كانت لديه ، عموماً ، رؤ ية أصح من رؤ ية خصومه للاحداث العالمية . فمثاليته الثورية لم تكن تمنعه من أنه يلاحظ بواقعية صارمة الأوضاع الخاصة ، سواء على المستوى الديبلوماسي أو بما يخص الحركة الشيوعية . لكن طبيعته الحقيقية ، هذا الوجه من وجوه نشاطه ، والتحليلات والدراسات المتفوقة التي كان يتناول بها الاحداث العالمية ، كل ذلك لم يكن في وسعه ان يؤ ثر كثيراً على مناضلي القاعدة الذين كانوا يدركون ، أو يجري جعلهم يدركون بشتى السبل ، الرومانسية الثورية التي كانت تطوِّق تروتسكي بهالاتها .

يضاف إلى ذلك أن ما لم يكن بإمكانه الا أن يزيد الأشياء تعتيماً ، إنما هو الاسلوب المدرسي والباطني لكل تلك المجادلات . وللمقارنة ، علينا الانكفاء الى العصر الوسيط حيث نرى علماء لاهوت يتناقشون كي يعرفوا كم من الملائكة يمكن أن يجلسوا على رأس إبرة ، والى نقاشات التلموديين حول ما الذي يسبق البيضة أو الدجاجة . وحين كان المناضل البلشفي يصغي إلى تروتسكي يقول إن افضل وسيلة لجعل الاشتراكية تتقدم في روسيا هي العمل لأجل الثورة العالمية ، والى ستالين يرد بأن افضل وسيلة للعمل لاجل الثورة العالمية هي انجاز الاشتراكية في روسيا ، كان هذا المناضل يقف مذهولاً . فمن الجانبين ، كان النقاش يتم انطلاقاً من قوانين الاورثوذكسية اللينينية ، وهي قوانين وضعها المثالثون في البدء كي يثقلوا بها كاهل تروتسكي ، ونجحوا في فرضها عليه . مذّاك ، جرى إرساء تلك الاورثوذكسية بشكل أفضل ، فقد اصبحت اكثر كثافة وأشد تماسكاً . وكالكثير من الاورثوذكسيات ، لم تكن تفيد إلا في تغطية مصلحة الكتلة الحاكمة بالسلطة الادبية لمذهب موروث ، وفي طمس واقع أن ذلك المذهب لم يكن يقدم جواباً واضحاً عن المشكلات الجديدة ، وفي اعادة تفسير مبادئها والادانة المسبقة لكل نقاش وكل شك ، وفي فرض الانضباط على القاعدة . إلا انه كان من غير المجدي البحث في كتابات لينين عن حل المشكلات الحالية . فقبل سنوات ، لم تكن معظم تلك المشكلات تنطرح بعد ، أو على الاقل لم تكن تنطرح بوضوح . وحتى المسائل التي انطرحت على لينين ، كان يمكن أن يجد

لها المرء في كتاباته الاجوبة الاكثر تناقضاً فيما بينها ، لأنه درسها ضمن حالات متغيرة جداً وفي ظروف هي الاكثر تنوعاً . هذا لم يكن يمنع قادة الحزب من استخدام بعض العبارات السياسية الواردة لدى لينين كما لو كانت عقائد لاهوتية . كانوا يذكرون النعوت الحادة التي اعتاد لينين أن يصف بها رفاقه خلال بعض النقاشات ، كما لو كانت لعنات يطلقها البابا . كلما برهن قائد بلشفي على استقلال في التفكير كما في المبادرة ، كلما زادت إمكانية ايجاد نعوت من هذا النوع في كتابات لينين او مراسلاته ؛ ولم يكن يبقى في منجى من ذلك غير الانتهازيين والمتملقين . هكذا كان ظل لينين مدعواً للمشاركة في مذبحة اصدقائه وتلامذته الذين كانوا الآن على رأس المعارضة . ولقد بذلت المعارضة كل امكاناتها لتستدعي هي الاخرى « الظل » الى جانبها في الصراع الذي كان يضعها بمواجهة الكتلة الحاكمة . كانت تؤكد ان خصومها ، لا هي ، هم من كان يمكن اتهامهم بتزوير تعاليم لينين ، بينما كانت تبذل من جانبها كل ما في وسعها لأجل إعادة وضع الحزب على « طريق اللينينية » .

صحيح أنه بما يخص النقطة المركزية في الخلافات المتمثلة بالاشتراكية في بلد واحد ، كان للمعارضة أسباب وجيهة للغاية للادعاء أنها ضمن أطار الاورثوذكسية اللينينية الخالصة ، فلينين طالما توسع في التعبير عن استحالة هكذا اشتراكية ، وهو ما كان يفعله ستالين وبوخارين[15] بالذات حتى عام ١٩٢٤ . ولو كان قيِّض لستالين وبوخارين حرية عرض رأيهما بصراحة ، لأمكنهما أن يقولا ان المشكلة لم تكن تنطرح في عهد لينين كما تنطرح اليوم ، وان عزلة الثورة الروسية غدت اكثر وضوحاً بكثير منذ وفاته ، وان ما كان يقوله لينين حول هذا الموضوع اصبح الآن لاغياً وان من حقهما ان يؤكدا بعْد الان مذهبهما الجديد دون ان يكونا ملزمين باحترام نصوص مقدسة . إلا ان ستالين وبوخارين لم يكونا يتمتعان ، بالضبط ، بهذه الحرية . كانا ، هما أيضاً ، أسيري الاورثوذكسية التي اصطنعاها . ما كان في وسعهما السماح لنفسيهما بالظهور كـ « مراجعَين » للينينية ، مع انهما

---

١٥ ـ يمكن الوقوع على وصف وتحليل مفصل لموقف لينين في كتابي حياة لينين (قيد الاعداد) . اما الآن فتكفي الاستشهادات من لينين : « . . . إننا نراهن على الثورة العالمية ومن حقنا تماماً ان نفعل ذلك . . . لقد ألححنا دائماً على واقع اننا ننظر للأشياء من وجهة أممية ، وانه يستحيل في بلد واحد انجاز عمل في ضخامة ثورة اشتراكية » . لقد تلفظ لينين بهذه الكلمات في الذكرى الثالثة لانتفاضة اوكتوبر . لينين ، سوش . ، ج ٢٥ ، ص ٤٧٤ ، طبعة ١٩٢٨ ، (اختفى المقطع الوارد بحرف بارز في الطبعات اللاحقة) . ومن جديد ، أعلن بعد نهاية الحرب الاهلية : «قلنا دائما وبلا انقطاع للعمال إن . . . الشرط الاساسي لانتصارنا هو ان تنتصر الثورة في عدة بلدان ، على الاقل ، من أكثر البلدان تقدماً .» وقال في المؤتمر السادس للسوفيتات : «لا يمكن تخيّل انتصار كامل للثورة الاشتراكية في بلد واحد ، لأنه يستوجب التعاون الأكثر نشاطاً لعدة بلدان متقدمة ، على الاقل ، لا يمكن تصنيف روسيا من بينها . . .» لينين ، سوش . ، (طبعة ١٩٥٠) ج ٢٨ ، ص ١٣٢ .

كانا كذلك دون أدنى شك . كانا يصوران نظريتهما عن الاشتراكية في بلد واحد كما لو كانت تنبثق بصورة شرعية للغاية من تعاليم لينين ، لا بل كنظرية وضعها لينين بالذات . لكن لما كانت نصوص لينين لا تتناسب إطلاقاً مع هذا التأكيد ، لا بل كانت تدعم بالاحرى موقف المعارضة ، وجد بوخارين وستالين نفسيهما مضطرين لحرف انتباه الحزب عنها ؛ تركا النقاش يغوص في الجدل الفارغ ؛ وفي مبالغات في التدقيق لا تنتهي كانت تترك مناضل القاعدة مضطرباً حائراً ، ومستاء ، وفي النهاية ضجراً بالغ الضجر . ويستحيل بالنسبة للمؤرخ أن يعطي فكرة عن الرتابة التي لا تُصَدَّق لتلك التَّجْليات السكولاستيكية . إلا أنه ، مع ذلك ، فالأسلوب الذي كانت تستخدمه تلك المساجلات ليس عديم الاهمية في تلك الاحداث ، لأن هذه الرتابة وتلك التكرارات المتواصلة كانت لها وظيفة دقيقة في الدراما السياسية . كانت مهمتها تتمثل في أن تلغي لدى البلشفي المتوسط والعامل كل اهتمام بالمشكلات مدار الجدال . كانت تساهم في إعطائه الشعور بأنه لا يمكن تلك المشكلات أن تعني إلا اختصاصيين متمرسين بتلك الرياضة القائمة ، لا رجل الشارع . وقد حرم ذلك كله المعارضة من جمهورها وسمح للكتلة الحاكمة بـ « البرهان على اورثوذكسية مذهبها عن طريق الاكثار من القاء الحِرم ومن الادانات » .

ولم يصغ احد الى شعار المعارضة : « العودة الى لينين ! » ، حيث ارادت تذكير الحزب بالحرية التي كانت تُناقش فيها ، في ايام لينين ، جميع الأمور وتُسَوَّى بها . إلا انها كانت حجة خطيرة لأنه إذا كان صحيحاً ان البلاشفة تمتعوا حتى نهاية عهد لينين بأكبر قدر من حرية التعبير ، فلم يكن اقل صحة ان لينين ذاته ، حوالى نهاية حياته السياسية وجه ضربة جدية لتلك الحرية حين حظر التكتلات والمجموعات . كان ينبغي للمعارضة ـ على ما يبدو ـ ، من ضمن اهتمامها بوجودها الخاص بها ، أن تفضح هذا الحظر على انه مشؤوم او على الأقل جرى تخطيه ، وان تطلب إلغاءه . إلا ان المعارضة كانت عالقة ، الآن ، في فخ الاورثوذكسية بحيث لم تكن تجرؤ أن تقوم ضد حظر يحظى بكل سلطة لينين . حتى تروتسكي امتنع عام ١٩٢٤ عن التضامن مع أصدقائه حين دعوا الى قيام مجموعات داخل الحزب[١٦] . وبعد ذلك بعامين ، كان لا يزال يعترف بصحة الحظر ، حتى لو كان يلاحظ يومذاك ان هذا الحظر قد أُعلن في حزب يتمتع بحرية التعبير ، وأن الاستياء والتباين في الرأي داخل حزب ملجوم اللسان لا بد أن يؤديا الى خلق تكتلات . هكذا لم يكن لدى جبهة المعارضة ، التي شكلت تكتلاً حقيقياً ، شجاعة أن تؤكد نفسها

---

١٦ ـ انظر الفصل الثاني ، حيث ورد ان تروتسكي لم يتضامن مع الـ ٤٦ اللذين طالبوا بحرية تشكيل تكتلات داخل الحزب .

بهذه الصفة ، وقد جعلها ذلك سريعة العطب بصورة مزدوجة . لقد رد ستالين بالقول إن المنافقين وحدهم قادرون على المطالبة بالعودة الى اللينينية في حين يتحدون الحظر الملقى على التكتلات وذلك الانضباط المتراص الذي يعد بين المبادىء الاساسية للينينية . وقد قال أخيراً إنه لا يمكن للجنة المركزية أن تدع نشاطاً تكتلياً دون عقاب : ليس بالامكان افساح مجال في صفوف البلاشفة لاولئك الذين ينبذون الفهم اللينيني للحزب .

ان الفشل الذي منيت به المعارضة في الخلايا والتهديد بالطرد الذي كان يجعلها ستالين تنوء تحته ، سببا اضطرابات داخل هذه المعارضة . فزينوفييف وكامينيف اللذان كانا يغذيان آمالاً بنجاحات سهلة فقدا شجاعتهما . وجاء وخز الضمير ليفاقم شعورهما بالهزيمة . لقد شعرا بالأسف لكونهما حاولا إثارة الخلايا ضد اللجنة المركزية . كانا يريدان الآن ان ينسحبا من المعركة بأسرع ما يمكن ويهدئا غضب خصومهما . وكانت كذلك تضايقهما كثيراً بعض الافكار التي كانت تنتشر اكثر فأكثر في الجناح الجذري من المعارضة . فقد كان الكثيرون ، هنا ، يعتقدون ان الحزب غدا كلياً تحت سيطرة ستالين وبوخارين ، وانه لم يعد يقبل اية وجهة نظر جديدة ، وانه تحجر بشكل كامل ؛ وكانوا يقولون اخيراً ان على المعارضة استخراج دروس هزائمها وأن تتشكل في حزب مستقل . هذه الافكار التي كان يدعمها عموماً الآتون من المعارضة العمالية ومن الديسيميين ، سرعان ما انتشرت ايضاً بين التروتسكيين ، حتى ان رادك ذاته - إذا اخذنا بشهادة تروتسكي - كان ميّالاً للقبول بها[١٧] . كان أنصار « حزب جديد » يقولون أيضاً ان الحزب القديم دخل نهائياً في حقبته « ما بعد الترميدورية ، وخان الثورة » ، وانه لم يعد الناطق بلسان الطبقة العاملة ، بل غدا الناطق باسم البيروقراطية والكولاك وبورجوازية النيب . وكان البعض يؤكدون ان الجمهورية السوفياتية لم تعد دولة عمالية لأن بيروقراطيتها اصبحت طبقة حاكمة جديدة ، طبقة مستغلين جديدة ، سلبت الشغيلة ثمار الثورة وتملكتها كما سبق ان فعلت البورجوازية الفرنسية منذ عام ١٧٩٤ . كان على المعارضة إذاً ان تطيح تلك البيروقراطية مثلما سعى بابوف و « تآمر المتساوين » لاطاحة البورجوازية الترميدورية .

لا زينوفييف ولا كامينيف ولا تروتسكي كانوا يفكرون هذا التفكير . لم يكن « الترميدور السوفياتي » بنظرهم أمراً منجزاً ، بل خطراً ينبغي استبعاده . لم تكن الثورة قد وصلت الى نهايتها ، ولم تكن البيروقراطية ، بنظرهم ، طبقة جديدة حاكمة ومالكة ولا قوة اجتماعية مستقلة ، بل فقط زائدة فطرية على جسم الدولة العمالية . إن البيروقراطية غير المتجانسة اجتماعياً وسياسياً ، والممزقة بين الاشتراكية والملكية ، كان يمكنها الخضوع

---

١٧ - تروتسكي ، كتابات ، ج ١ ، ص ١٦٠ - ١٦٣ .

لبورجوازية النيب والفلاحين الرأسماليين ، وتدمير الملكية الاشتراكية واعادة الرأسمالية بمساعدتهم . لكن طالما لم يحصل ذلك فإن المكاسب الأكثر جوهرية لثورة اوكتوبر بقيت دون مساس بها ، وبقي الاتحاد السوفياتي دولة عمالية والحزب القديم حارس الثورة . وبالتالي ما كان على المعارضة أن تسعى للقطع مع الحزب ، بل ان تواصل اعتبار نفسها منتمية اليه وتدافع دون تحفظ وبكل صدق عن احتكار الحزب البلشفي للسلطة .

كان يترتب على ذلك ألا تسعى المعارضة لكسب الانصار من خارج الحزب . إلا أنه لم يكن مسموحاً لها أيضا ان تكسب داخل الحزب . وهكذا فهي كانت في مأزق لا مخرج منه . وفي كل حال ، كان بديهياً أن على المعارضة أن تتراجع ، للحفاظ على امكانات عمل داخل الحزب، لا سيما منذ لمح ستالين الى انه لن يتوانى عن الطرد . وحول هذه النقطة، لم يكن التروتسكيون والزينوفييفيون متفقين تماماً . فزينوفييف وكامينيف كانا يضعان قبل كل شيء وفوق كل شيء مسألة الاخلاص للحزب . لم يكونا يريان كيف يمكنهما مواصلة النضال طالما بقي جهاز الحزب بين يدي ستالين . كانا يرغبان في هدنة ما ، وكانا مستعدين للاعلان بأنهما سيحترمان بعد الان حظر التكتلات . كانا مستعدين أيضاً لحل المجموعات المنظمة التي خلقاها ، مستعدين بصورة عامة لتسريح المعارضة من حيث هي تكتل . كانا مستعجلين لفك التضامن مع انصار حزب جديد ، فلم يكن هناك ما يجمعهما مع اناس يعيدون النظر في احتكار البلاشفة السياسي . وفي الاخير ، كانا مستعدين لأن يتركا المشكلات الرئيسية ، التي كانا يعارضان بصددها ستالين وبوخارين ، معلقة ولو بعض حين . وكان معظم انصارهم يرغبون في التقهقر . اما التروتسكيون فكانوا يحتفظون بقدر اكبر من الكفاحية ، والاكثر جذرية بينهم كانوا يديرون أذنيهم للحجج لصالح خلق حزب جديد .

حاول تروتسكي ان ينقذ المعارضة . وقد قبل من اجل منع زينوفييف وكامينيف من السجود امام ستالين ان يقوم معهما بعدة خطوات الى الوراء . فاتفقوا ثلاثتهم على اعلان ارادتهم المشتركة حل المعارضة بما هي تكتل وعلى فك تضامنهم مع أنصار حزب جديد . لكن بالمقابل أعادوا تأكيد المبادىء التي اجتمعت حولها المعارضة وأكدوا مواصلة الوقوف في وجه الكتلة الحاكمة داخل اللجنة المركزية وكل الاجهزة الأخرى التي لهم مقاعد فيها .

١٨ ـ ستالين ، سوش . ، ج ٨ ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٣ . جحدا بوجه خاص روث فيشر وأوركادي ماسلوف في المانيا ، وبوريس سوفارين في فرنسا .

في ٤ تشرين الاول/اوكتوبر ، قدم تروتسكي وزينوفييف الى المكتب السياسي عرضاً بالهدنة ، فقبل ستالين العرض واستبعد التهديد بالطرد لكنه فرض شروطه . ولم تتفق مجموعات المعارضة ، إلا بعد نقاشات طويلة ، على نص البيان الذي ينبغي اصداره . ودون التخلي عن اي من الانتقادات ، وعلى العكس بعد صياغتها مجدداً بوضوح شديد ، اعلنت المعارضة انها تعتبر نفسها ملتزمة بقرارات اللجنة المركزية ، وانها توقف كل نشاط تكتلي وتفك تضامنها مع شليا بنيكوف وميدفيديف والقادة القدامى للمعارضة العمالية ، كما مع كل اولئك الذين كانوا يودون بناء « حزب جديد » . وبناء على إلحاح ستالين ، اضطر تروتسكي وزينوفييف إلى جحد الشيوعيين الاجانب الذين اعلنوا عن تضامنهم مجموعات او افراداً مع المعارضة الروسية وطُردوا على هذا الاساس من احزابهم .

لقد قبلت المعارضة شروط الهدنة بالكثير من الغم . لم تكن بعيدة عن الاستسلام . طبعاً ، لقد اعادت المعارضة تأكيد انتقاداتها وحفظت ماء وجهها ، لكنها غدت الان دون منظورات عمل ، دون مستقبل . لقد تراجع تروتسكي وزينوفييف سلفاً عن الاحتكام الى القاعدة ، وأعلنا عن استعدادهما لعدم الدفاع عن وجهة نظرهما الا داخل اجهزة الحزب القيادية ، وهما يعرفان تماماً أنهما سيحشران بانتظام في وضع الاقلية ، وانه لم يكن لمواقفهما اي حظ ـ أو إلا حظ قليل ـ لأن تطّلع عليها الجماهير . كانا في حلقة مفرغة . كانا قد حاولا الاحتكام الى الخلايا ، وذلك بالضبط بعد عجزهما عن زحزحة اللجنة المركزية . ثم لما فشلا ايضاً في إسماع صوتهما للخلايا ، عادا الان الى اللجنة المركزية ليقعا في الفخ . لقد أضعفا المعارضة بفك التضامن مع مجموعة شليا بنيكوف وميدفيديف ، وبجحد بعض انصارهما في الخارج . وبإعلانهما حل منظمتهما ، اعترفا ضمناً بأنه كان لستالين وبوخارين الحق في ادانتهما . زد على ذلك ان الاعلان بأن حظر التكتلات لازال ضرورياً وفي محله ، كان يعادل دغدغة اليد التي تجلدهما .

بعد أن قبلت المعارضة شروطاً بتلك القساوة وقدمت هكذا البرهان على ضعفها ، لم تحصل حتى على احترام الهدنة . ففي ١٦ تشرين الاول/اوكتوبر ، تم نشر اعلانها في البرافدا ؛ ولم يمر اسبوع على ذلك التاريخ ، حتى كانت الهدنة قد أصبحت نسْياً منسيّاً . ففي ٢٣ تشرين الاول/اوكتوبر ، اجتمعت اللجنة المركزية لنقاش جدول اعمال المؤتمر التداولي الخامس عشر للحزب . كان قد تم اعداد جدول اعمال ، إلا أن اللجنة المركزية قررت فجأة ، تحت الحاح ستالين بالتأكيد ، اضافة تقرير خاص حول المعارضة كان

سيقدمه ستالين . ولم يكن يمكن لذلك إلا ان ينكأ الجراح ؛ وقد احتج تروتسكي ووجه النداء الى الأكثرية طالباً احترام شروط الهدنة . إلا أن اللجنة المركزية لم تتراجع قيد انملة عن تكليف ستالين باعداد تقريره .

لماذا قطع ستالين الهدنة ما أن عقدها ؟ ذلك أنه كان في موقع القوة وكان يريد الاستفادة منه لسحق المعارضة . ومن المؤكد ان حادثة وقعت بعد يومين من اعلان الهدنة كانت الى حد ما وراء هذه العودة الى الصراع . ففي ١٨ تشرين الاول/اوكتوبر ، نشر التروتسكي ماكس ايستمان في النيويورك تايمس وصية لينين . كانت تلك اول مرة ينشر فيها النص الكامل والصحيح . قبل ذلك بعام ، كان ايستمان نشر مقاطع منها في كتابه منذ موت لينين . وكان تروتسكي ، حسبما نذكر ، قد جحد ذلك ، وانكر بأمر من المكتب السياسي صحة تلك الوصية . لم يكن يمكن ستالين أن يحلم بالحصول على تكذيب جديد ، لكنه فكر أن ايستمان تصرف بتحريض مباشر أو غير مباشر من تروتسكي . ولم يكن هذا الافتراض في كل حال بلا أساس . فقبل قليل من الوقت خلال ذلك العام ، حمل رسول للمعارضة الى باريس نص وصية لينين وأعطاه لسوفارين الذي حث ايستمان على نشره . وكتب ابستمان : « لا اعتقد أن هذا الايحاء يأتي من سوفارين لوحده ، بل أرى أن المعارضة ، بمجملها ، كانت تتمنى أن انشر انا هذا النص ، من جهة لأني كنت معروفاً كصديق لتروتسكي ، ومن جهة اخرى لأن الكثير من الضمائر في موسكو كدرها جحد تروتسكي لكتابي[19] .

لا شك ان ايستمان لم يكن مخطئاً . وبين « الضمائر المكدرة في موسكو » ، كان الاكثر تكديراً ضمير تروتسكي . كان قد انكر صحة الوصية وجحد ايستمان ، في الحقبة التي لا هو ولا اصدقاؤه كانوا يريدون أن يواصلوا فيها المعركة ، والمخاطرة بأن يتعرضوا للانتقام بصدد تلك النقطة . لكن الان وقد عاد الى الحلبة بعد أن شكل جبهة المعارضة ، لم تكن تنقصه الاسباب لمحاولة إصلاح ذلك الخطأ . وما كان يمكن زينوفييف وكامينيف إلا ان يكونا موافقين حول هذا الموضوع . فهما اللذان اشترطا مرة اخرى ، في المؤتمر الرابع عشر ، نشر تلك الوصية ، وكانا يطالبان بذلك مجدداً في كل مناسبة جديدة . منذ ذلك الحين ، كانا يفضلان بالتأكيد ، مثلهما مثل تروتسكي ، ان يتم هذا النشر في البرافدا ، لكن هذا لم يكن وارداً إطلاقاً . ما كان اي وسواس يوقفهما عن اعداد هذا النشر في صحيفة اجنبية كبرى ، لأن وصية لينين لم تكن سراً من اسرار الدولة ، ولا « وثيقة معادية

---

١٩ ـ استناداً إلى رسالة من ايستمان الى المؤلف .

للسوفييت » . كان عليهما ان يتصرفا طبعاً بحذر ، لأنهما على المستوى الشكلي كانا يجعلان من نفسيهما مذنبين باخلال في الانضباط الحزبي . هكذا جرى ارسال نسخة عن تلك الوثيقة في عز ايام جبهة المعارضة ، حين كان يمكن الأمل بأن يساعد ذلك النشر المعارضة داخل الاحزاب الشيوعية الاجنبية وبأن يكون له انعكاسات ايجابية في الاتحاد السوفياتي . لكن في الوقت الذي جرى فيه النشر عملياً ، كان الوضع قد تغير كثيراً : فالمعارضة منيت بهزائم شديدة ، وطلبت الهدنة وفكت تضامنها مع انصارها في الخارج . وفي ٢٣ تشرين الاول/اوكتوبر ، أثناء انعقاد اللجنة المركزية ، كانت الصحف تنشر في كل أنحاء العالم ذلك الافشاء المثير . ولا شك ان جو اللجنة المركزية قد تسمم بتأثير ذلك ، فقررت الاكثرية قطع الهدنة وإنزال عقاب لا يُنسى بالمعارضة .

بعد يومين من ذلك التاريخ ، حصل مشهد عاصف في المكتب السياسي . كان ستالين قد قدم « موضوعاته » حول المعارضة ، تلك الموضوعات التي سيدافع عنها في المؤتمر التداولي الخامس عشر . وقد صوَّر فيها المعارضة كـ« انحراف اشتراكي ـ ديمقراطي » مشترطاً ان يعترف قادتها بأخطائهم[٢٠] ويستدركوها . ومرة اخرى احتج تروتسكي على هذا القطع للهدنة ، وهاجم غدر ستالين وحذر الاكثرية من كونها تنخرط في طريق خطر . وبصوت يرجفه الغضب ، وصف صراع الإخوة القاتل ، وتدمير الحزب النهائي ، والمخاطر المميتة التي ستنهال على الثورة اذا جرى الاستمرار في هذا الطريق . ثم صرخ وهو يستدير نحو ستالين ويشير اليه بإصبعه : « ان الامين العام الاول يقدم ترشيحه لمنصب حفار قبر الثورة ! »

وشحب ستالين ، ونهض ، وكظم نفسه بصعوبة ، ثم غادر القاعة وهو يصفق الباب . والاجتماع الذي كان يحضره عدد من اعضاء اللجنة المركزية ارفضَّ بجلبة وفوضى . ولم يأت صباح اليوم اللاحق حتى كانت اللجنة المركزية تنتزع من تروتسكي مقعده في المكتب السياسي ، وتعلن ان زينوفييف لم يعد يمثل الحزب الشيوعي السوفياتي في الهيئة التنفيذية للكومنترن ، حارمة إياه هكذا عملياً ، اذا لم يكن إسمياً ، من رئاسة الاممية . هذه الاحداث جعلت جو المؤتمر ، الذي جرى افتتاحه في ذلك اليوم بالذات ، يدلهم ويربدّ .

كانت المعارضة في حالة قصوى من الضيق . لقد تراجعت في العديد من النقاط ، ولم تجن شيئاً بالمقابل . كانت قد تخلت عن أصدقائها وأنصارها ، واعترفت بأنها مذنبة

٢٠ ـ ظهرت «موضوعات» ستالين في البرافدا في ٢٢ تشرين الاول/اكتوبر ، يوم افتتاح المؤتمر التداولي . ستالين ، سوش ، ج ٨ ، ص ٢٣٣ .

لكونها أخلت بحظر عام ١٩٢١ ، وحلت منظمتها ، وكل ذلك لغاية وحيدة هي تجنب مفاقمة للنزاع . فماذا كانت النتيجة ؟ لقد توسع النزاع وتسمّم ، وصارت المعارضة تتلقى الضربات وهي مغلولة اليدين . وفي داخل المعارضة بالذات ، زادت حدة الخلافات ، فلقد أخذ زينوفييف وكامينيف على تروتسكي أنه شتم ستالين مجاناً وأخرج الأكثرية عن طورها في الوقت ذاته الذي كانت تسعى المعارضة فيه لتهدئة النفوس . وبين التروتسكيين ذاتهم ، أذهلت البعض الحدة التي هاجم بها تروتسكي ستالين . فقد كتبت امرأة تروتسكي ما يلي :

« بعد ظهر أحد الأيام ، جاء مورالوف وإيفان سميرنوف وآخرون الى بيتنا في الكرملين، وانتظروا ليف دافيدوفيتش الذي كان على وشك أن يعود من اجتماع للمكتب السياسي . كان بياتاكوف اول الواصلين ، وقد بدا عليه الشحوب وكان يرتجف . فصب قدح ماء وابتلعه دفعة واحدة ، ثم قال : لقد كنت في قلب المعمعة ، لكنني لم أر يوماً شيئاً من هذا القبيل ! كان أسوأ من كل شيء ! لكن لماذا ، لماذا قال ليف دافيدوفيتش ما قاله ؟ لن يغفر له ستالين أبداً حتى الجيل الثالث والجيل الرابع ! » كان بياتاكوف مضطرباً لدرجة انه عجز عن ان يقص علينا بصورة مفهومة ما الذي حدث . وحين دخل ليف دافيدوفيتش القاعة في الاخير ، هرع اليه بياتاكوف قائلاً : « لكن لماذا ، لماذا فعلت ما فعلت ؟ » فنحّى ليف دافيدوفيتش السؤال بحركة من يده . كان منهكاً ، لكن هادئاً . لقد وصف ستالين بحفار قبر الثورة . . . ففهمنا أن القطيعة غدت نهائية[٢١] » .

هذا المشهد ينذر بالأحداث اللاحقة : فبعد عام ،سوف يتخلى بياتاكوف ، مثله مثل زينوفييف وكامينيف ، عن المعارضة . لكن سيدوفا ترى أن بياتاكوف كان مقتنعاً منذ تلك الفترة « بأن حقبة رجعية قد تطول انفتحت » في روسيا كما في الخارج ، وان الطبقة العاملة لم تعد قادرة على التحمل ،وان الحزب كان في قمة الانهاك ،وأن المعارضة خسرت معركتها . واذا لم يكن قد انحاز بعد الى جانب ستالين ، فقد كان ذلك تضامناً مع رفاقه لا نتيجة قناعة .

---

٢١ ـ فيكتور سرج ، حياة تروتسكي ومماته ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ؛ كتبت سيدوفا اجزاء بالغة الاهمية من هذا المؤلف . وقد حددت تاريخ هذا الحدث في نهاية عام ١٩٢٧ ، لكنها خلطت بين التأريخ . ففي المؤتمر التداولي الخامس عشر، في تشرين الاول/اوكتوبر ١٩٢٦ ، اشار بوخارين الى هذا الحادث ، واورد حتى عبارة تروتسكي :«حفار قبر الثورة» ، ٥ اكونفرنتسيا ف ك ب (ب) ، ص ٥٧٨ .

إزاء احباط العديد من أنصار قادة المعارضة ، قرر هؤلاء القادة محاولة إعادة الهدنة : سوف يمتنعون عن شن اي هجوم ، خلال المؤتمر التداولي ، على الكتلتين الحاكمتين ولن يتكلموا الا في معرض الدفاع عن أنفسهم . هكذا خلال سبعة ايام من أصل تسعة استغرقها المؤتمر ، لم يردوا بكلمة واحدة على خصومهم الذين كانوا يستمتعون غاية الاستمتاع بهزيمتهم ، ويسخرون منهم ، ويضاعفون الاستفزازات ضدهم . وأخيراً ، في اليوم السابع ، اندفع ستالين يهاجمهم طيلة ساعات . أعطى صورة عن الصراع كما يراه هو ، واعاد الى الاذهان كل ما سبق أن قاله زينوفييف عن تروتسكي ، هذا العدو رقم واحد للينينية ، وكل التعابير القاسية التي استخدمها تروتسكي في الماضي بحق زينوفييف وكامينيف ، « كاسري اضراب اوكتوبر » ، هازئاً بالهدنة التي أعطاها الطرفان الواحد للآخر . وقد وصف بفرح لا يوصف هزيمة المعارضة ، وهي هزيمة قال إنها دفعتها لطلب هدنة ، كي تكسب الوقت وتؤجل يوم انهيارها المحتوم . لكن على الحزب ، حسبما قال ، أن لا يترك للمعارضة فرصة للراحة : « عليه ان يخوض نضالاً متواصلاً ضد الأفكار الخاطئة الخاصة بالمعارضة » مهما تكن اللفظية « الثورية » التي تغلف نفسها بها ! » واستفاض في التنقيب في حياة تروتسكي ليبرهن ، مرة اخرى ، على العداء المتأصل لدى تروتسكي لأفكار لينين ، وأثقل زينوفييف وكامينيف هزءاً وسخرية لأنهما « انضما الى التروتسكية » . وفي الاخير اتهم المعارضة بتأليب الحزب ضد الفلاحين وبالدفع باتجاه تصنيع مفرط « سيحكم بالبؤس على ملايين العمال والفلاحين » ، تصنيع لن يكون افضل في نهاية المطاف من التصنيع بالطريقة الرأسمالية . وقال انه هو وأصدقاؤه لن يؤيدوا غير أشكال التطور الاقتصادي التي تسهم في التحسين الفوري لرفاه الشعب ، وتوفر على البلاد النزاعات الاجتماعية . هكذا كان يتكلم المسؤول لاحقاً عن التصنيع والجماعية القسريين . وختم ستالين طالباً الى المؤتمر التداولي أن يوجه الى المعارضة « إدانة إجماعية[٢٢] » .

تكلم قادة المعارضة أخيراً ، وقد لاحظ المندوبون الحاضرون اللهجات بالغة الاختلاف التي تبناها كل منهم للرد على ستالين . فكامينيف ، الذي تولى الكلام أولا ، قدم عرضاً رزيناً ، لكن خجولاً ، لمواقفه التي سعى لتلطيفها . أبدى شكواه من غدر ستالين الذي انطلق في هجمات بذلك القدر من العنف بعد اقل من ١٥ يوماً من بدء

٢٢ - ستالين ، سوش . ، ج ٨ ، ص ٤٢١ - ٤٦٣ .

المدنة . وحاول أن يتبرأ ، ويبرّىء زينوفييف ، من الاتهام الموجه ضدهما كليهما . كلا ، لم « ينضما » الى التروتسكية ، قال ، بل تحالفا فقط مع تروتسكي من اجل هدف محدود ومحدّد ، مثلما سبق أن فعل لينين مراراً . وحين اشار مرة اخرى الى وصية لينين وخوفه من انشقاق الحزب ، رد الحاضرون بالصياح . حينئذ هتف كامينيف (هل كان ذلك تحذيراً للحضور أو تعزية للذات ؟) : « ايها الرفاق ، يمكنكم ان توجهوا الاتهامات التي تريدون ، لكننا لم نعد في القرون الوسطى ! لم تعد تُحاكم الساحرات اليوم ! لا يمكنكم اتهامنا . . . بالمطالبة بزيادة في الضرائب على الكولاك ، وبإرادة مساعدة الفلاح الفقير لبناء الاشتراكية معه ! كلا ! لا يسعكم ان تتهمونا بأننا نريد سلخ الفلاحين . لا يمكنكم أن ترسلونا الى المحرقة[٢٣] ! » بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ ، سوف يشهد كامينيف محاكمة بتهمة السحر : سيكون آنذاك في قفص الاتهام .

ثم تكلم تروتسكي ، فألقى أحد أكبر خطبه . ذلك الخطاب المعتدل اللهجة ، لكن العنيف أقصى العنف من حيث مضمونه ، الملتمع سخرية ، كان إحدى روائع المنطق والبلاغة . لكنه يكشف مرة أخرى السبب الرئيسي للضعف العظيم لدى تروتسكي ، المتمثل بثقته التي لا تتزعزع بالثورة الأوروبية . لقد دافع تروتسكي عن المعارضة ككل ، لكنه قدم كذلك دفاعاً Prodomo * كاسحاً ، كما لو بظاهر اليد ، جبال الاكاذيب والافتراآت التي روكمت ضده منذ بداية المؤتمر التداولي . كان جرى اتهامه بإشاعة الذعر ، وبالتشاؤم والانهزامية ، وبـ « الانحراف الاشتراكي ـ الديمقراطي » ! أما هو فتحدث بالوقائع والارقام ، و « الحساب لا يعرف تشاؤماً ولا تفاؤلاً » . يجري اعتبار الكلام على قلة المنتجات الصناعية المفرطة كما لو كان اشاعة للذعر ، لكن أليس ثمة ما يثير القلق حين يلاحظ المرء ان الانتاج الصناعي في السنة الجارية أدنى بـ ٢٥٪ مما كان يجب ان يكون ؟ كان ستالين قد وصفه بالانهزامي وأخذ عليه « خوفه من موسم جيد » ، لكنه أثبت فقط ببساطة انه طالما بقيت البلاد تعاني من شحّ المنتجات الصناعية ستبقى حالة التوتر بين المدينة والريف ، سواء كان الحصاد جيداً أو رديئاً . وللأسف ، كان آخر حصاد اسوأ مما اعتقد الجميع . وكانت حدة التمايز الاجتماعي داخل الفلاحين تزداد بسرعة . وفي الواقع أن أياً من تلك المصاعب لم تكن بلغت حد الكارثة ، لكن كان ينبغي مع ذلك ملاحظتها وفهمها في الوقت المناسب . كانت المعارضة طالبت بزيادة الضريبة على الاغنياء واعفاء

---

٢٣ ـ ١٥ كونفرنتسيا ف ك ب (ب) ، ص ٤٨٦ .

(*) ـ شخصياً ، عن النفس (م) .

الفقراء منها ، وهي قد تكون مخطئة وقد تكون مصيبة ، لكن ـ تساءل تروتسكي ـ « ما الذي ينطوي عليه طلب كهذا من اشتراكي ـ ديمقراطي ؟ » . والمعارضة وقفت ضد سياسة تسليف تحابي الكولاك ، فهل ذلك موقف اشتراكي ـ ديمقراطي ؟ والمعارضة طالبت بزيادة خفيفة في الاجور ، فهل في ذلك ما يمكن وصفه بالاشتراكي ـ الديمقراطي ؟ والمعارضة لم تكن تعتقد ، على طريقة بوخارين ، ان الرأسمالية استعادت استقرارها ، فهل ذلك موقف اشتراكي ـ ديمقراطي ؟ واخيراً ، هل كانت انتقادات المعارضة حيال المجلس الانكليزي ـ السوفياتي « اشتراكية ـ ديمقراطية » ؟

أعاد تروتسكي الى الاذهان نشاطه داخل الكومنترن ، وتعاونه الوثيق مع لينين ، وبخاصة الدعم الذي قدمه له إبان الانتقال من شيوعية الحرب الى النيب ، تلك النيب التي كان يجري اتهامه بأنه ينوي التخلي عنها . جرى اتهامه بـ « عدم الايمان » ببناء الاشتراكية ، وهو الذي كتب : « إن الحصيلة الكلية للامتيازات التي نملكها بالنسبة الى الرأسمالية تعطينا ، فيما لو عرفنا أن نستفيد منها كما يجب ، امكانية ان نضاعف مرتين او ثلاثاً في السنوات القادمة مُعامل التوسع الصناعي لما قبل الحرب (٦٪) ، وربما اكثر من ذلك ايضاً[٢٤] » . صحيح انه لا يؤمن بنظرية الاشتراكية في بلد واحد وانه صاحب نظرية الثورة الدائمة . ومهما يكن ، فلم تكن ثمة علاقة للثورة الدائمة بالنزاع الراهن : فهو وحده المسؤول عن تلك النظرية ، لا المعارضة . وإرضاء لزينوفييف وكامينيف ، أضاف . « وأعتبر ان هذه القضية قد جرى ايقاف البحث فيها منذ زمن طويل ، طويل جداً . » لكن ماذا كان يقول إذاً مهاجموه ؟ انه توقع عام ١٩٠٦ ان تصطدم الجماعية في الريف ، بعد الثورة ، حتماً بالفردية الفلاحية . ألم يتمكنوا جميعاً من ملاحظة أن ذلك هو ما حصل بالفعل ؟ الم ينادوا جميعهم بالنيب ، بهدف تخفيف ذلك التصادم بين المدينة والريف ؟ « ألم يكلم الفلاحون المتوسطون الحكومة السوفياتية بمدافع البحرية » في كرونشتادت وغيرها عام ١٩٢١ ؟ كان يجري اتهامه بأنه توقع نزاعاً بين روسيا الثورية وأوروبا المحافظة ، فهل نسوا إذاً جميعاً سنوات التدخل الاوروبي ؟ « ايها الرفاق ، إذا كنا لا نزال على قيد الحياة ، فلأن اوروبا لم تبق ، بعد كل شيء ، ما كانت عليه سابقاً . »

لكن ليس كون الثورة تمكنت من البقاء سبباً في أن تكون نهائياً بمنجى من كل نزاع

---

٢٤ ـ كانت تلك في الواقع نسبة توسع الصناعة السوفياتية في ظل الخطط الخمسية (يورد تروتسكي هنا مقطعاً من كتيبه نحو الاشتراكية أو نحو الرأسمالية ؟ الذي صدر عام ١٩٢٥ .) عام ١٩٣٠ ، سوف يطالب ستالين بزيادة سنوية بنسبة ٥٠٪ ! انظر كتابي ستالين ، ص ٣٢١ .

جديد مع الفلاحين والغرب الرأسمالي ، أو لكي تظهر صحة أطروحة الاشتراكية في بلد واحد . كلا ! سيكون على روسيا الثورية أن تخوض معارك اخرى وسوف تخوضها ضمن شروط أسوأ بكثير ، إذا لم يقيض لها ان تتطور الا بـ « خطى السلحفاة » ، واذا حُكِم عليها بأن تدير ظهرها للثورة العالمية . كان بوخارين قد كتب : « إن المضمون العميق للمجادلة هو التالي : هل يسعنا بناء الاشتراكية وإنجاز هذا البناء إذا تركنا القضايا العالمية جانباً ؟ » واجاب تروتسكي : « نعم ، بالتأكيد ، نستطيع ذلك ، لكن الازعاج ، الازعاج الكبير يكمن في كوننا لا نستطيع تركها جانباً (ضحك) . يمكنكم ان تتنزهوا عراة في شوارع موسكو ، في شهر كانون الثاني/يناير ، إذا تركتم جانباً الطقس والميليشيا (ضحك) . لكني اخشى ألا يترككم الطقس وألا تترككم الميليشيا جانباً ! منذ متى اكتسبت ثورتنا مقدرة الاكتفاء بذاتها ؟ »

هنا كان تروتسكي يلامس « قلب المشكلة » : ما الذي قد يحدث في اوروبا في حين تبني روسيا الاشتراكية ؟ حتى ذلك الحين كان الجميع متفقين مع لينين على اعتبار ان روسيا تحتاج الى « حد أدنى من ثلاثين الى خمسين عاماً » لانجاز بناء الاشتراكية[٢٥] . لكن أي وجه قد يأخذه العالم طوال تلك السنوات؟ إذا انتصرت الثورة في الغرب خلال تلك الحقبة ، ستختفي المشكلة التي كانوا يناقشونها في ذلك الحين . لكن انصار الاشتراكية في بلد واحد كانوا يفترضون مسبقاً ، بالطبع ، أن شيئاً من ذلك لن يحدث . كانت هنالك ثلاث فرضيات يمكن ان تستند اليها حججهم .

أما الفرضية الاولى فهي أن أوروبا قد تشهد حقبة ركود اقتصادي واجتماعي تكون خلالها موازين القوى بين البورجوازية والبروليتاريا في حالة توازن غير مستقر . لكن لا يمكن هذه الحقبة ان تدوم اربعين أوحتى عشرين عاماً . والفرضية الثانية هي ان الرأسمالية الاوروبية قادرة على اكتساب تفوق جديد . « لكن إذا أمكن اقتصادها وثقافتها أن يبلغا ذروة جديدة ، يكون ذلك دلالة ، إذاً ، على أننا أتينا باكراً جداً » ، وعلى ان الثورة الروسية محكوم عليها . « سيكون لرأسمالية في اوج تطورها الوسائل العسكرية والتقنية وغيرها الكافية لخنقنا وسحقنا . في رأيي إن هذا المنظور المستقبلي القاتم لا يتفق مع الوضع العام للاقتصاد العالمي . » في كل حال ، ما كان بالامكان إرساء مستقبل الاشتراكية في روسيا على فرضية من هذا النوع .

---

٢٥ ـ زعم ستالين ان هذا لم يكن يوماً رأي لينين (سوش . ، ج ٩ ، ص ٣٩) ، لكن لا نرى على ماذا يرتكز تكذيبه هذا .

وفقاً للفرضية الأخيرة ، يمكن افتراض ان تشهد الثلاثون أو الخمسون سنة القادمة انحدار الرأسمالية الأوروبية شيئاً فشيئاً ، لكن ان تبدو الطبقة العاملة عاجزة ، مع ذلك ، عن إطاحتها . « فهل هذا قابل للتصور ؟ » قال تروتسكي .

« لكن أسألكم لماذا علي القبول بهذه الفرضية السوداء بقدر ما هي غير واقعية التي تتناول البروليتاريا الاوروبية ، ولماذا علي في الوقت ذاته إبداء تفاؤل بهذا القدر من السذاجة بما يخص بناء الاشتراكية بالامكانات المعزولة الخاصة ببلدنا ؟ كيف يمكن أن يكون من واجبي كشيوعي افتراض ألا تكون الطبقة العاملة الأوروبية قادرة على انتزاع السلطة خلال الأربعين أو الخمسين سنة القادمة ؟ لاأرى أي سبب نظري أو سياسي يجعل أسهل بالنسبة الينا بناء الاشتراكية مع فلاحينا من أن تنتزع البروليتاريا الاوروبية السلطة ! لا أزال اعتقد حتى اليوم أن انتصار الاشتراكية في بلادنا لن يكون ممكناً حقاً إلا اذا انتصرت الثورة البروليتارية في اوروبا . لكني لا أقول ان ما نفعله وما نبنيه هنا ليس الاشتراكية وانه لا يمكننا او لا ينبغي علينا أن نمضي قُدُماً بكل طاقتنا ! اذا كنا لا نرى في الدولة الروسية دولة عمالية ، مهما تكن تشويهاتها البيروقراطية ، إذا كنا لا نرى ان لدينا ما يكفي من الموارد في بلادنا لحفز اقتصاد اشتراكي ، واخيراً إذا لم نكن مقتنعين بأن في وسعنا تحقيق انتصار كامل وكلي ، من البديهي ألا يكون موقعنا في صفوف الحزب الشيوعي ! »

هل هذا يعني ان المعارضة لن تستطيع إلا ان تؤسس حزباً جديداً وتسعى لتأليب الطبقة العاملة ضد الدولة ؟ كلا ! ما هذا أبداً ما كانت تريده المعارضة ! لكن ـ قال تروتسكي ـ خذوا حذركم جميعاً : إن الطرائق الوقحة والغادرة التي يلجأ اليها ستالين ـ لقد شاهدتم جميعاً كيف يتقن تحويل هدنة الى مجرد خرقة من الورق ـ هي التي قد تحدث انفجاراً للحزب وتؤدي الى قيام حزبين سياسيين متصارعين الواحد مع الآخر[٢٦] .

استقبل الحاضرون كلمات تروتسكي بصمت قلق ومشغوف ، وبعداء ملؤه الاحترام . وقد توقف تروتسكي مراراً في اللحظات الأكثر حرجاً اثناء مداخلته طالباً السماح له بمتابعة الكلام . وقد منحته الجمعية كل التمديدات التي طلبها . كان كلامه بسيطاً وقاطعاً ، وهو لم يُبدِ أي علامة تردد أو ضعف . ولقد لخص لارين ، الذي تكلم

---

٢٦ ـ ١٥ كونفرنتسيا ف ك ب (ب) ، ص ٥٠٥ ـ ٥٣٥ .

مباشرة بعده ، لخص هكذا الحالة الذهنية للأكثرية : « شهدنا أحد المشاهد الاكثر درامية في ثورتنا . . . إن الثورة تتخطى الآن بعض قادتها[٢٧] . »

بروح أخرى تماماً أصغى المندوبون الى زينوفييف الذي استخدم لهجة كلها نواح وشكوى ، محاولاً تبرير نفسه واستماح العذر واستعادة العطف . عاملوه باحتقار وحقد جافيين ، واجبروه على مغادرة المنبر ولم يسمحوا له حتى ان يتكلم على شؤ ون الكومنترن التي كان مع ذلك هو المسؤ ول عنها . وذلك مع انهم كانوا على وشك التصويت على « إزاحته » من الهيئة التنفيذية للكومنترن[٢٨] .

عندما ينظر المرء الى تلك المؤتمرات والمؤتمرات التداولية ويقارن مضامين المناقشات ، لا يمكن الا ان يذهله عنف التكتلين الحاكمين وحدتهما حيال المعارضة . فمن اجتماع لآخر نرى كيف تتضخم وتتفاقم بصورة ملموسة فظاظة الهجمات الى حد بلوغها ضراوة أفلت لها العنان . وانها لمفارقة مأساوية ـ هزلية أن تكون الهجمات الاكثر فظاظة وحقداً ضد المعارضة ، واشكال المديح لستالين الاكثر إثارة للقرف ، انما أتت من اولئك الذين سيشمئزون منه بعد سنوات قليلة ، ويصبحون فيما بعد خصومه ، ليهلكوا في الاخير تحت ضرباته كضحايا عاجزين . وبين من تميزوا بهذه الطريقة خلال المؤتمر التداولي المذكور ، كان هنالك غامارنيك ، المفوض السياسي الرئيسي للجيش الاحمر لاحقاً ، الذي سوف يجري اتهامه بالخيانة والذي انتحر عشية محاكمة توخاتشفسكي ؛ وكان هنالك

---

٢٧ ـ المرجع ذاته ، ص ٥٢٥ . كان لارين قد بقي منشفياً من أقصى اليمين حتى عام ١٩١٤ ، ثم انضم الى الحزب البلشفي عام ١٩١٧ واقام آنذاك علاقات ودية مع تروتسكي . كان موقفه ازاء معارضة عام ١٩٢٣ ملتبساً. وقد انتهى الى الاصطفاف بجانب ستالين .

٢٨ ـ هي ذي وفقاً للمحضر المقتضب خاتمة حديث زينوفييف : «ايها الرفاق ، اود ان اقول لكم بعض الكلمات حول موضوع الكتلة (اي جبهة المعارضة) . كنت اود ان اقول لكم(أصوات تقاطعه : تكلمت بما فيه الكفاية . . . كفى ! ضجيج) . كنت اود ان اقول بعض الكلمات حول موضوع الكتلة والكومنترن . . . (صيحات : كفى ! كفى ! كان يجب الكلام على ذلك من قبل ، بدل الكلام على اشياء اخرى !) آه كلا ! هذا ليس عادلاً ! هل تعتقدون ان موضوع الاشتراكية في بلد واحد (الذي تحدث زينوفييف عنه) هو موضوع لا اهمية له ؟ لماذا تكلم ستالين حوله إذاً خلال ساعات ثلاث ؟ (صيحات ، احتجاجات .) اطلب عشر دقائق أو ١٥ دقيقة اضافية ، اي ما يكفي لأن اقول لكم بعض الاشياء حول الكتلة ومشكلات الكومنترن . (صيحات ، ضجيج ! كفى !) أنتم تعرفون ايها الرفاق ان الحزب يقرر الآن الا اعمل بعد اليوم داخل الكومنترن . (صيحات في القاعة : لقد تقرر ذلك .) ان قراراً كهذا هو قرار حتمي ضمن الظروف الراهنة ، لكن هل هو عدل من جانبكم ألا تمنحوني ٥ دقائق للكلام على مشكلات الكومنترن ؟ (ضجيج ، صيحات ! كفى ! يقرع الرئيس جرسه الصغير .) أرجوكم ايها الرفاق ، امنحوني بين عشر دقائق و ١٥ دقيقة لأحدثكم عن هاتين النقطتين . » (الرئيس يأمر بالانتقال الى التصويت ، فيرفض المجتمعون ، بأكثرية ساحقة ، تمديد الكلام لزينوفييف عشر دقائق اخرى) المرجع ذاته ، ص ٥٧٧ .

سيرتسوف وشوبارن واوغلانوف الـذين حكم عليهم جميعاً بـالموت كـ « مخـربين ومتآمرين » ؛ كان هنالك حتى اوسينسكي ، الديسيمي السابق ، الذي كان قد التحق باطروحة الاشتراكية في بلد واحد والذي سوف يتم إعدامه كـ « نهّاب وعدو للشعب » . لكن لا أحد فاق بوخارين . فقبل اشهر فقط ، كان يبدو أنه لا يزال يقيم علاقات ودية مع تروتسكي . اما الآن فكان يقف الى جانب ستالين ، مثلما كانت حال زينوفييف قبل عامين . وقد اندفع ضد المعارضة بحدة لا هوادة فيها ، منتشياً برؤ يتها مهزومة ؛ بدا صيّاحاً ، متبجحاً ، مهدداً ، سامّاً ، ساخراً ، لاعباً دوماً بأسوأ ما في الحزب من عناصر . ان الاستاذ الودود تحول بغتة ، والمنظرٌ غدا سوقيّاً داعراً ، واصبح الفيلسوف غليظاً لا ذمة لديه ولا تبصر . احرق البخور لستاليـن ، الصديق الحقيقي للفلاح الصغير وحارس اللينينية ؛ وقد تحدى تروتسكي ان يكرر امام المؤتمر التداولي ما فعله امام المكتب السياسي حين قال ان ستالين « حفار قبر الثورة[٢٩] » . وسخر من تحفظ مداخلة تروتسكي ، وهو تحفظ قسري لأن الحزب « أمسك المعارضة بعنقها » . قال إن المعارضة توسلت للمندوبين ان يتجنبوا « المأساة » التي قد تنجم عن انشقاق . أما هو ، بوخارين ، فهذا الرجاء لم يفعل اكثر من تسليته : « ثلاثة رجال ، ثلاثة رجال فقط يغادرون الحزب ، وهذا هو كل الانشقاق ! » ، هكذا صاح مطلقاً ضحكة مدوية . « لكن ستكون تلك هرجـة لا مأساة ! » ثم أجهز هكذا على كامينيف ومرافعته التبريرية :

« عندما يأتي كامينيف إلى هنا ليقول : « . . . انا ، كامينيف ، مددت يدي الى تروتسكي ، تماماً كما كان لينين معتاداً مد اليد الى تروتسكي والاعتماد عليه » كيف نرد عليه إذا لم يكن بالانفجار ضحكاً ! لكن اي لينين هذا هو الذي اكتشفوه إذاً ؟ إننا نرى تماماً ان كامينيف وزينوفييف يستندان الى تروتسكي بصورة بالغة الغرابة . (ضحك وتصفيق طويلان .) إنهما يستندان اليه بحيث . . . هو الذي يسيّرهما (تصفيق وحركات في القاعة) ، ثم يحتج كامينيف ويصيح : « إني استند الى تروتسكي » (ضجة وضحك) . اجل ، هذا تماماً ما كان يفعله لينين ! (ضحك) . »

لم تمر سنتان على ذلك الحين حتى حاول بوخارين « الاستناد » الى كامينيف محطم وخائر القوى ، وقد أسرّ له مرعوباً بأن ستالين هو جنكيز خان جديد[٣٠] .

---

٢٩ ـ ١٥ كونفرنتسيا ف ك ب (ب) ، ص ٥٧٨ ـ ٦٠١ .

٣٠ ـ انظر الفصل السادس .

لكن اليوم ، فيما هو راض ومليء ثقة بالنفس ، يتلاعب كالمشعوذ باستشهادات من لينين ، اندفع ضد الثورة الدائمة ، و « المواقف البطولية » لتروتسكي ، وحقده على الموجيك و « نظريته الضريبية حول بناء الاشتراكية » ؛ وقد مجد عشر مرات ، لا بل مئة مرة الصلابة والصحة والحكمة في سياسته وسياسة ستالين اللتين كانتا تسمحان بالتحالف مع الفلاحين . وحين كانت المعارضة « تصيح » ان الكولاك قدير وأن ثمة خطر اضرابات يقوم بها الفلاحون ومجاعة في المدن ، فهي كانت تحاول إثارة هلع الناس بواسطة فزاعات . اما الحزب فلن يغفر لها ذلك ، مثلما لن يغفر لها « اشاعاتها حول الترميدور السوفياتي » ، إلا إذا أتى اعضاؤ ها منحنين ونادمين ، واعترفوا بأخطائهم متوسلين : « اغفروا لنا خطايانا ضد روح اللينينية وحرفيتها وجوهرها بالذات ! » . ووسط تصفيق مجنون واصل قائلاً :

« قولوا ، قولوا بشرف : كان تروتسكي مخطئاً حين أكد ان دولتنا ليست دولة بروليتارية بالكامل.لماذا لا تجرؤ ون على المجيء لقول ذلك؟ . . قال لنا زينوفييف ان لينين لم يكن يسيء معاملة المعارضات . لم يطرد لينين يوماً اية معارضة ، حتى حين لم يتمكن من الحصول الا على صوتين لصالحه في اللجنة المركزية . . . طبعاً ، كان لينين يتقن مهنته ! من يمكن ان يسعى لطرد معارضة حين يستحيل ان يجمع اكثر من صوتين الى صوته ؟ (ضحك) لكن حين يصوت الجميع معك ، إلا اثنين يحتجان وهما يصيحان ترميدور ، إذاك نعم ، يمكنك أن تتصور تماماً حالة الطرد . »

تلك السخرية الوقحة أمتعت المندوبين الذين تلوّوا من الضحك . وصاح ستالين من القاعة :« تماماً بوخارين ،تماماً ،تماماً !ليس هذا دحضاً ،إنه مجزرة[٣١] »

كيف يمكن تفسير تجلية بوخارين الغريبة وشبه المأتمية ؟ لاشك انه كانت ترعبه حقاً سياسة المعارضة . كان يخشى اكثر من كل شيء ما يمكن ان تؤدي اليه من اصطدام بالفلاحين ؛ وهو لم يكن يرى ان سياسته وسياسة ستالين هما اللتان تؤ ديان بالتأكيد الى ذلك الصدام . إن المعارضة ، الضعيفة جداً ، بالتأكيد ، بحيث لا يمكنها الحلول محل الجماعة الحاكمة ، كانت قوية مع ذلك بما يكفي لاجبار كتلة ستالين على تعديل مواقفها . كل شيء كان يجري في المؤتمر التداولي كما لو كان البوخارينيون اصبحوا العناصر المسيطرة في التحالف الحاكم ؛ فبوخارين وريكوف وتومسكي هم الذين قدموا التقارير الثلاثة الرئيسية باسم اللجنة المركزية . لكن حتى هؤلاء كان عليهم مع ذلك ان يحسبوا حساب

---

٣١ ـ ١٥ كونفرنتسيا ف ك ب (ب) ، ص ٦٠١ .

المعارضة . وحتى بوخارين ذاته لم يكن يستطيع الا ان يتقدم بحذر في ميدان السياسة الريفية ؛ لم يعد ممكناً مذاك بالنسبة اليه ان يحتكم علانية الى الفلاحين الاغنياء . لاحظ ان كتلة ستالين اصبحت حساسة اكثر فأكثر إزاء انتقادات تروتسكي وزينوفييف ، وتميل اكثر فأكثر لتبني برنامجها صفحة فصفحة . فستالين غدا قابلاً بمبدأ تصنيع أسرع : أمكن ادراك ذلك حتى في القرارات التي صوت عليها المؤتمر التداولي . أما بوخارين فكان يفضل لو أن التحالف الحاكم بقي متصلباً وهزم خصومه دون الاضطرار لاستعارة أفكارهم ، إذ إنه ما كان يمكن ذلك إلا أن يثير الارتباك . كان يتساءل الى اي حد سوف تجر المعارضة الحزب ، و« يرتعش من رأسه الى أخمص قدميه » امام فكرة احتمال ان تدفع الحزب الى خوض قتال دام ضد الفلاحين . لذا كان ، مؤقتاً ، اكثر استعجالاً بكثير من ستالين لتحرير سياسة الحكم من تأثير المعارضة غير المباشر . وقد تعلق يائساً بستالين لمنعه من التراجع اكثر . كان يؤيد عنف ستالين ومكره ويغذيها أملاً بأن تغدو هزيمة المعارضة ضماناً للسلم في البلاد . وإذا كان ضحى بالرهافة والذوق وبأبسط متطلبات الاحتشام ، فلأنه كان مستعداً لشراء ذلك السلم بأي ثمن .

كان مصدر شراسة الهجمات يكمن أيضاً في تردد المهاجمين وحيرتهم . وكان تكتل ستالين متردداً أمام ضخامة القرار الذي ينبغي اتخاذه ، والذي سيتخذه بعد ذلك بعامين . لذا اتهم الناطقون بلسانه تروتسكي وزينوفييف بأنهما يدفعان الحزب ليقوم بفرض الجماعية القسرية على الفلاحين . فكاغانوفيتش ، مثلاً ، الذي سيلعب فيها بعد أحد اكبر الادوار في تدمير الملكية الخاصة على صعيد الزراعة ، صرخ قائلاً : « إن طريقهم هي طريق نهب الفلاحين ، طريق الكارثة . يمكن تروتسكي وزينوفييف ان يحتجا ، لكن هذا ما تعنيه شعاراتهما[٣٢] . » مرة اخرى ايضاً ، اصطدمت المعارضة بالنظام الصارم للحزب الواحد . حين طلبت ان تتمتع بالحرية داخل النظام ، جرى اتهامها بتعريض النظام ذاته للخطر . اكد بوخارين وستالين ان المعارضة تميل لتحويل نفسها الى حزب جديد . وتكلم مولوتوف ، ورغم رتابة كلامه أصاب المرمى : لقد اعاد خطباء المعارضة الى الاذهان ، دعماً لاحتجاجاتهم ، انه حتى إبان أزمة بريست ـ ليتوفسك ، سمح لينين للشيوعيين اليساريين باصدار صحيفتهم حيث كانوا يهاجمونه دون خوف ولا تنازلات . وأجاب مولوتوف : « عام ١٩١٨ . . . كان للمناشفة وللاشتراكيين الثوريين صحفهم ايضاً . وحتى الكاديت كانت لهم صحفهم . لكن الوضع اليوم مختلف تماماً[٣٣] . مرة أخرى : لا

٣٢-٣٣- ١٥ كونفرنتسيا ف ك ب (ب) ، ص ٦٣٧ .

يمكن البلاشفة ان يتمتعوا بالحرية التي حرموا الآخرين منها . وقد ذكرٌ كاغا نوفيتش بالكلمات التي قالها تروتسكي في المؤتمر الحادي عشر حين قدم مداخلته ضد المعارضة العمالية . كان تروتسكي قد قال إنه غير مقبول ان يتكلم اعضاء في الحزب على رفاقهم أو قادتهم فيقولوا « نحن » و « هم » ، لأنهم يقفون بذلك ، ومهما تكن نواياهم ، بمواجهة الحزب ، ويسعون لاستغلال صعوباته ، ويقدمون دعماً قوياً لأولئك الذين رفعوا راية كرونشتادت . وتساءل كاغانوفيتش : « كيف كان يحق لك ايها الرفيق تروتسكي ، بأن تستخدم هذه اللغة مع ميدفيديف وشليابنيكوف ، وهما رفيقان كانا من قدامى البلاشفة ، يوم اقترفا خطأ ، ولا يكون لنا الحق بأن نقول لك اليوم انك تسلك أنت أيضا طريق كرونشتادت[٣٤] ؟ . . .

لم يجْرِ فقط استحضار اشباح كرونشتادت والمعارضة العمالية لاستخدامها ضد تروتسكي ، بل انضم شليابنيكوف وميدفيديف شخصياً الى المتهمين . فبعد أن دفع ستالين المعارضة للأعلان بأن ليس ثمة ما يجمعها بهذين الرجلين ، نجح عن طريق التهديد والتملق باقناعهما بالاعتراف بأخطائهما وباعلان ندمهما وفضح المعارضة . ولقد أفرح اللجنة المركزية شديد الفرح ان تنشر اعترافهما وتعلن ان هذا الاعتراف عاد عليهما بالغفران . كان ميدفيديف وشليابنيكوف طلبا الى جبهة المعارضة التخلي عن نظام الحزب الواحد وتشكيل حزب جديد انطلاقاً من كتلة من الحزب القديم . لكن بعد أن جرى تهديدهما بالطرد من الحزب القديم ، وخاصة بعد أن جرحهما ان تجحدهما المعارضة ، استسلما لستالين . وكان ارتدادهما الأول الذي توصل ستالين الى ابتزازه ، وهو الارتداد الاول والنموذج لسلسلة طويلة . وقبل نهاية المؤتمر التداولي ، وجه ستالين ضربة اخرى غير متوقعة للمعارضة : أعلن ان كروبسكايا قطعت كل صلة لها بتروتسكي وزينوفييف[٣٥] . وشاعت ضجة في موسكو ان ستالين مارس عليها نوعاً من التهويل ، حين هددها بكشف اسرار عن حياة لينين . وثمة من يزعم انه قال لها : « يمكنني ان أقدم شخصاً آخر كأرملة للينين » . لكن ما هو اكثر قابلية للتصديق ان كروبسكايا انسحبت من المعارضة لأنها لم تكن قادرة على تحمل فكرة ان الحزب الذي اسسه زوجها يمكن ان ينقسم وينفجر . ولما كانت بين المنتقدين الأكثر علانية لستالين وبوخارين ، فلقد كان ارتدادها ضربة قاسية جداً للمعارضة .

---

٣٤ - المرجع ذاته ، ص ٦٧١ .

٣٥ - المرجع ذاته ، ص ٧٥٤ - ٧٥٥ .

واخيراً أطلق ستالين ضد تروتسكي وزينوفييف قادة الاحزاب الشيوعية الاجنبية . باسمهم تكلمت كلارا زتكين ، المحاربة القديمة في الحزب الشيوعي الالماني . وهي ذاتها التي انبرت في المؤتمر الرابع للكومنترن ، حين كان لينين قد غدا تحت وطأة المرض ، فقدمت باسم الاممية جمعاء تحية إكبار احتفالية لتروتسكي . تكلمت زتكين هذه المرة لتجحد تروتسكي وزينوفييف ، وتتهمهما بإحداث ازمة داخل الاممية وبلعب لعبة اعداء الشيوعية ، وقالت : « . . . وكل المجد الذي يرتبط بأسماء قادة المعارضة لا يمكن أن يكفي لاقتدائهم . . . إن مزايا هؤلاء الرفاق لا يمكن أن تزول ، ولا يستطيع أحد أن ينساها . أعمالهم العظيمة تنتمي لتاريخ الثورة . إني أذكر ذلك وأعرفه . لكن . . . ثمة شيء آخر أهم من المزايا الشخصية والانجازات الفردية[٣٦] . . . »

تعرضت المعارضة هكذا للسحق ؛ صوّت المؤتمر التداولي على طرد قادة المعارضة الثلاثة من المكتب السياسي ، مهدداً اياهم بعقوبات جديدة اذا تجرأوا على اطلاق المساجلة من جديد .

وهكذا وجدت جبهة المعارضة نفسها في وضع مماثل لذلك الذي عرفته معارضة عام ١٩٢٣ بعد هزيمتها . ولما كانت قد تقررت إدانتها ، فقد بقي لها أن تقرر السلوك الذي ستسلكه : إما مواصلة النضال والمخاطرة بالطرد النهائي لكل أعضائها ، أو القبول بالهزيمة ، على الأقل مؤقتاً . ولقد كان رد فعل كل من الاتجاهين في المعارضة مختلفاً . فالزينوفييفيون كانوا يعتقدون بضرورة الانحناء ؛ لكن ذلك لم يكن سهلاً ، لأن الهجمات الرسمية لم تتوقف ، مع أن الجدال أقفل مبدئياً . فالصحف التي لم يكن لها من غرض معلن غير شرح قرارات المؤتمر التداولي ، ملأت صفحاتها بالهجمات الأكثر حدة وشراسة ، دون ان يكون لضحاياها اية إمكانية للرد . دفع مناضلو المعارضة غالياً ثمن التجرؤ على اعلان آرائهم ؛ فقدوا وظائفهم ووضعوا في العزلة الالزامية وعوملوا تقريباً كما يعامل الخارجون على القانون . ولقد اكتفى زينوفييف وكامينيف بالأشكال الاكثر تلطيفاً للمقاومة السلبية . ولحماية أنصارهما ، نصحاهم بعدم الكشف عن آرائهم ، وحتى بإنكار انتمائهم للمعارضة ، عند الحاجة . ان توصيات من هذا النوع ما كان يمكن الا ان تفقد المعارضة حظوتها وتحبط اولئك الذين يتلقونها : هكذا بدأت التخليات والارتدادات .

أما التروتسكيون الذين مروا من قبل بمحنة مشابهة ، فكانوا يعرفون من تجربتهم ان

---

٣٦ ـ ١٥ كونفرنتسيا ف ك ب (ب) ، ص ٦٩٨ ـ ٧٠٧ .

العطالة لن تفيدهم على الاطلاق وأنه ليس لهم ما يتوقعونه من التدابير الوسطية . حلل تروتسكي الوضع في يومياته التي بدأ كتابتها منذ نهاية تشرين الثاني/نوفمبر تقريباً[٣٧] . في تلك الملاحظات ، التي نصها بنفسه ، يتكلم على المأزق الذي تجد المعارضة نفسها فيه بصراحة اكبر بكثير مما كان يمكنه أن يفعل أمام اللجنة المركزية . إنه يعترف بالهزيمة ، ولا يعللها فقط بغدر ستالين والارهاب البيروقراطي ، بل كذلك بتعب الجماهير وخيباتها ، تلك الجماهير التي توقعت الكثير الكثير من الثورة ، ورأت آمالها وهي تخيب بصورة قاسية ، وكانت تتوجه بردود فعلها ضد روح البلشفية البدائية ومبادئها . اما الشباب الذين كانوا يخضعون للوصاية مذ يدخلون الحلبة السياسية ، فما كان بامكانهم أن يكوِّنوا مقدرتهم النقدية ولا حكمهم السياسي . كانت الكتلتان الحاكمتان تلعبان ورقة إنهاك الشعب ورغبته بالأمن ؛ وكانتا تخيفان الشعب بشبح الثورة الدائمة . لقد كان تروتسكي يلح عادة على التضاد بين المجموعة الحاكمة والمناضلين في القاعدة ، حين كان يتحدث الى الجمهور . أما وهو يكلم نفسه ، فهو يعترف بأن افكار الجماعة الحاكمة وشعاراتها تستجيب لحاجات عميقة جداً لدى جمهور المناضلين الواسع ، وبأن لذلك وزناً اكبر بكثير من التضاد بين الطرفين ، وأن المعارضة لم تكن متفقة مع المزاج الشعبي .

ما الذي ينبغي عمله إذاً ؟ كتب تروتسكي يقول إنه ليس من شيم ثوري ماركسي أن يسير خلف مزاج الجماهير الرجعي . ففي بعض الأحيان ، عندما يخف وعيها الطبقي أو يتلبد ، عليه ان يكون مستعداً للانعزال عنها . هذا الانعزال ما كان يمكن أن يطول ، لأن الحقبة الراهنة كانت حقبة انتقال وأزمة ؛ وداخل الاتحاد السوفياتي كما خارجه ، لا زال يمكن قوى الثورة ان تنهض . وفي كل الاحوال ، لم يكن الوقت مناسباً كي تضعف المعارضة أو تنحرف ، حتى لو كان القدر ضدها . على الثوري أن يناضل مهما يكن المصير الذي ينتظره ، مصير لينين الذي امكنه ان يشهد انتصار مثله الاعلى ، أو مصير ليبكنخت الذي مات شهيداً للثورة . لقد أوحى تروتسكي مراراً في ملاحظاته الخاصة ، كما في محادثات مع بعض الاصدقاء ، أن هذا ما سيكون مصيره . واذا لم يمكنه التخلي عن أمل أن « ينتهي كلينين » ، يبدو انه ، في اعماق ذاته ، كان يستسلم اكثر فأكثر لفكرة مقاسمة « ليبكنخت مصيره » .

كتب فيكتور سيرج : « لم اكن مؤمناً بانتصارنا ، وفي عمق اعماقي كنت حتى واثقاً بأننا

٣٧ ـ انظر ملاحظاته العائدة لـ ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٦ ، المحفوظات .

سننهزم . وحين ارسلتني مجموعتنا الى موسكو حاملاً رسائلها الى ليف دافيدوفيتش ، قلت له ذلك . استقبلني في المكتب الواسع للجنة الالتزامات . . . كان مصاباً بنوبة مالاريا ؛ كانت بشرته صفراء وشفتاه شبه بيضاوين . شرحت له اننا كنا بالغي الضعف ، واننا في لينغراد لم نستطع جمع اكثر من عدة مئات من الاعضاء ، وان نقاشاتنا لم تكن تهم جمهور الشغيلة . وفهمت انه كان يعرف كل ذلك أفضل بكثير مما اعرفه . لكنه كقيادي كان عليه أن يقوم بواجبه ؛ ونحن الثوريين كان علينا ان نقوم بواجبنا . فإذا كانت الهزيمة محتومة ، ما الذي يمكننا ان نفعل غير مواجهتها بشجاعة[٣٨] ؟ . . . ».

* * *

كان شتاء ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ هادئاً نسبياً . لقد أضعفت المعارضة خلافاتها الداخلية . بذل تروتسكي ما امكنه من جهد ليصون تحالفه مع زينوفييف ؛ لكن لما كان زينوفييف على حافة الذعر ، لم تصن المعارضة وحدتها الا لقاء التردد وانعدام القرار . مع ذلك احتج قادتها في كانون الاول/ديسمبر لدى ستالين ضد موقف خلايا الحزب في موسكو ، التي حاولت ان تجرهم الى نقاشات جديدة [٣٩] . وفي شهر كانون الاول أيضاً ناقشت الهيئة التنفيذية للكومنترن الوضع داخل الحزب الروسي . وشاءت المعارضة أو أبت ، فقد كان عليها ان تعيد تحديد موقفها . ومرة أخرى ، كان على تروتسكي ان يدافع عن ماضيه . هكذا احتج ضد « الطريقة السيرية » المستخدمة في المساجلات داخل الحزب ؛ اعاد عرض تاريخ علاقاته بلينين لكي يبرهن لحضور مغلقي الذهن ان « التعارض المستعصي بين التروتسكية واللينينية لم يكن غير خرافة[٤٠] » . وقد صادقت الهيئة التنفيذية على طرد التروتسكيين والزينوفييفيين من الاحزاب الشيوعية الاجنبية بحجة أنهم شككوا في الطابع البروليتاري للدولة السوفياتية . اما تروتسكي فأعلن ان المعارضة ستكافح أياً من اولئك الاعضاء الاجانب المزعومين الذين يدافعون عن

---

٣٨ ـ ف . سيرج ، المنعطف المظلم ، ص ١١٦ .

٣٩ ـ رسالة تروتسكي وزينوفييف الى ستالين والمكتب السياسي في ١٣ كانون الاول/١٩٢٦ ، المحفوظات .

٤٠ ـ في تلك المناسبة ، قدم تروتسكي تقريراً مثقفاً جداً عن سلوكه تجاه لينين حتى عام ١٩١٧ . قال إنه اقترب اكثر فاكثر من لينين وهو «يقاوم داخلياً» . وانه كان التحاقه باللينينية ، بالتالي ، اعمق واكثر كلية ، بنتيجة ذلك . قارن تاريخه بتاريخ فرانز مهرينغ الذي لم ينضم الى المواقع الماركسية إلا بعد ان كافحها كقيادي ليبرالي . وربما رغم ذلك ، او بسبب ذلك ، كانت قناعات مهرينغ لا تتزعزع ودفع ثمنها في شيخوخته من حريته وحياته ، بينما خان كاوتسكي وبرنشتاين ، وآخرون ينتمون الى «الحرس القديم» الماركسي ، قضية الاشتراكية واخلوا معسكرها . انظر محفوظات تروتسكي ، تصريح في ٩ كانون الاول . انظر أيضاً مدرسة ستالين في التزوير ، ص ٨٥ .

رأي من هذا النوع . واذا كان استسلم نصفياً إزاء طرد سوفارين ، فقد صمد بما يتعلق بروسمر ومونات اللذين كانا صديقيه السياسيين منذ الحرب العالمية الاولى ، واللذين أسسا الحزب الشيوعي الفرنسي وقاداه ، ليجري اليوم طردهما منه[41] . لكنه ما عدا بعض المداخلات السياسية الضئيلة من هذا النوع ، امضى تروتسكي الشتاء في حالة انتظار ، وقد نشر عدة اجزاء من مؤلفاته و « انصرف لدراسة نظرية اكثر تعمقاً للعديد من المسائل » .

كانت « المشكلة النظرية » التي شغلته اكثر ما شغلته ، بعد دحض اطروحة الاشتراكية في بلد واحد ، هي « الترميدور السوفياتي » . ففي صفوف المعارضة وبين المتعاطفين معه في الخارج ، كان الارتباك بصدد هذه المسألة في أقصى درجاته . كان يزعم البعض ان الثورة الروسية دخلت في طورها الترميدوري . والذين كانوا يؤكدون ذلك ادعوا ايضاً ان البيروقراطية تحولت الى طبقة اجتماعية جديدة واجهزت على ديكتاتورية البروليتاريا ، وانها كانت تستغل الطبقة العاملة وتسيطر عليها . وكان آخرون ، وفي طليعتهم تروتسكي ، يدحضون هذا الرأي بأعلى اصواتهم . وكما يحدث في الغالب حينما تغدو مقارنة تاريخية شعاراً سياسياً ، فلا هذا الطرف ولا ذاك كان يعرف بالضبط طبيعة السابقة التي كان يحيل اليها ؛ وكان تروتسكي يراجع باستمرار تفسيره للترميدور . في الحاضر كان يحدد « الترميدور السوفياتي » كـ « انزلاق حاسم الى اليمين » يمكن ان يتم داخل الحزب البلشفي على ارضية الفتور العام ، وخيبات الامل التي تسببت بها الثورة ، وان يؤدي الى القضاء على البلشفية واعادة الرأسمالية . انطلاقاً من هذا التحديد ، كان تروتسكي يخلص الى القول إنه من المبكر الكلام على ترميدور سوفياتي ، لكن المعارضة محقة تماماً في قرع جرس الانذار . فالوضع الحالي كان قد غدا ينطوي بصورة صارخة على عنصر ترميدوري متمثل بملل الجماهير الشديد وإحباطها . لكن « الانزلاق الحاسم نحو اليمين » الذي سيؤدي الى اعادة الرأسمالية لم يكن قد حصل بعد ، مع أن « القوى الترميدورية » ، التي تعمل لأجل تلك الاعادة ، نمت بشكل خطير . وقد كان يمكن تنحية كل هذه المحاجة المجردة جانباً ، ومن دون أسف ، لو أن تروتسكي لم يَصُغ من ضمنها الاطروحة التي

٤١ . inter alia تدخل تروتسكي لدى المكتب السياسي حين عزم هذا على ارسال بياتاكوف للقيام بمهمة تجارية في كندا . شرح تروتسكي كيف ان وجود العديد من المهاجرين الأوكرانيين في كندا يشكل خطراً جسيماً على حياة بياتاكوف ، الذي قاد البلاشفة في اوكرانيا خلال الحرب الاهلية . كانت الولايات المتحدة رفضت دخول بياتاكوف الاراضي الاميركية ، على اساس انه «الرجل الذي حكم بالموت على مواطنين روس امجاد» . رسالة تروتسكي الى اورجونيكيدزه في ٢١ شباط/فبراير ١٩٢٧ . انظر المحفوظات .

حددت في جزء كبير موقفه ومصير المعارضة في السنوات اللاحقة ، ولو لم تثر المساجلة التي حفزتها عاصفة لا توصف وانفعالاً شديداً على مستوى التكتلات كلها . إننا نضع إصبعنا هنا في الحقيقة على إحدى التجليات الاكثر لا قابلية للفهم والأكثر لاعقلانية في هذا الصراع السياسي . كان يكفي ان يتلفظ معارض في اجتماع للحزب بكلمة ترميدور حتى يلتهب الحضور ويفلتون العنان لانفعالاتهم ، مع ان معظمهم لم تكن لديهم غير فكرة غامضة الى ابعد الحدود عما كان يجري التلميح اليه . كان يكفيهم معرفة ان الترميدوريين كانوا « حفاري قبر اليعقوبية » وأن المعارضة تتهم الجماعة الحاكمة بتدبير مؤامرة غامضة ضد الثورة . ذلك الشعار التاريخي الغريب أثار حتى الستالينيين والبوخارينيين المثقفين ، الذين كانوا يعرفون مع ذلك ان معناه اكثر بساطة بكثير . كانت المعارضة تشرح كيف أن الترميدوريين لم يندفعوا إطلاقاً لمهاجمة اليعقوبية والاجهاز على الجمهورية الأولى ، وانهم فعلوا ذلك دون ان يريدوه ، بفعل التعب وبفعل الارتباك . بالطريقة نفسها ، يمكن الترميدوريين السوفيات ان يفعلوا الشيء نفسه دون أن يعوا ما يفعلون . ان العديد من الستالينيين والبوخارينيين أصابهم هاجس المماثلة تلك وفقدوا كامل ثقتهم بأنفسهم . اجل ، كان هنالك عناصر لا يمكن اخضاعها للرقابة في ثورة من الثورات ، وهم كانوا يعون ذلك تدريجياً لكن بصورة مرتبكة ؛ والكثيرون تساءلوا إذا لم يكونوا اصبحوا ـ أو قد يصبحون ـ الدمى العاجزة لقوى اجتماعية واسعة ، معادية ولا يمكن التحكم بها .

إذا كان الكثيرون من البلاشفة فهموا أن كل ذلك يمكن ان يكون حقيقة فبتضايق وانزعاج . وأياً يكن التكتل الذي كانوا ينتمون إليه ، فقد ارعبتهم الاشباح التي استحضرتها المعارضة . كانت تلك حالة من Le mort saisit le vif * وحين كان البوخارينيون او الستالينيون ينفون أي صلة بالترميدورية ، لم يكونوا يفعلون ذلك بثقة وهدوء ، بل بامتعاض ناجم عن شك عميق عبر عنه بوخارين في المؤتمر التداولي الخامس عشر للحزب حين تحدث عن « الثرثرة التي لا تغتفر للمعارضة بصدد الترميدور[٤٢] » . ولقد ساعده عنفه الشديد ضد المعارضة في خنق مخاوفه الخاصة به . كان المعارض يرى الاشباح سائرة في شوارع موسكو ، مرفرفة فوق الكرملين ، ووسط أعضاء المكتبْ السياسي ، وأمام ضريح لينين في الاحتفالات والاستعراضات القومية . ولا يمكن فهم اندفاع المشاعر والانفعالات الخارق الذي اثارته تلك الذكرى التاريخية الكُتُبية إلا انطلاقاً

(*) مثل فرنسي وارد بالفرنسية في النص الأصلي لدويتشر ، ومعناه أن الوريث يتملك أموال الميت فوراً .
٤٢ ـ أنظر الصفحات ما قبل الاخيرة .

من لا عقلانية المناخ السياسي الذي ولد فيه نظام الحزب الواحد وترعرع . كان البلاشفة يحسون بأنفسهم غرباء عن إنجازهم الخاص بهم ، الثورة . كانت دولتهم وكان حزبهم يسيطران عليهم ككائنين خياليين مزودين بروح وإرادة لا علاقة وثيقة لهما بروحهم هم وارادتهم هم ، لكن ينبغي أن يطيعوهما . كان الحزب والدولة يظهران لهم كقوتين عمياوين ، متشنجتين ولا يمكن التنبؤ بهما . حين أرسى البلاشفة « اجهزة السلطة » السوفياتية ، كانوا مقتنعين ـ وتروتسكي ايضاً ـ أنهم أسسوا « النظام السياسي الأكثر جلاء وشفافية » عبر العصور ، نظاماً يكون القادة والمقودون داخله أقرب بعضهم الى البعض الآخر مما في أي وقت مضى ، ويستطيع فيه الجمهور ، جمهور الشعب الواسع ، ان يعبر عن رأيه ويفرض احترام إرادته بالصورة الاكثر مباشرة مما في اي وقت مضى . ومع ذلك ، لا شيء كان اقل « شفافية » من نظام الحزب الواحد بعد سنوات قليلة . فالمجتمع بكامله هو الذي فقد كل شفافية . ما من طبقة اجتماعية كانت تتمتع بحرية التعبير عن ارادتها ، لذا لم يكن هنالك طبقة واحدة أمكنت معرفة إرادتها . كان على القادة والمنظّرين أن يحزروها وغالباً ما كانت الأحداث تنبئهم بأن افتراضاتهم لم تكن تملك اي اساس من الصحة . وهذا هو السبب في أن الطبقات الاجتماعية كانت تبدو لهم تعمل كقوى بدائية ، غير متوقع عملها ـ وذلك هو ما كان يحصل الى حد ما في الواقع ـ تمارس من كل الجوانب ضغوطاً على الحزب . كانت مجموعات ، وأفراد ، منتمية الى الحزب تبدو مدفوعة من دون علمها في الاتجاهات الأكثر لا توقعاً . كانت هُوىً عميقة تظهر في كل مكان ، او تعود الى الظهور ، بين ما يفكر فيه الناس (عن انفسهم او غيرهم) ، وما يريدونه وما يفعلونه ، هُوىً بين الوجه الموضوعي والوجه الذاتي لعملهم السياسي . ما كان هنالك أصعب ، في الحاضر ، من تحديد من هو عدو الثورة ومن هو صديقها . كانت المجموعة الحاكمة والمعارضة تتقدمان كلتاهما في الظلام ، مصارعتين في آن معاً ضد اخطار حقيقية وضد اشباح ، وكان كلا الطرفين يمضيان في الوقت ذاته لمحاربة الخصم وظله . لم يعودا يريان بعضهما البعض الاخر على حقيقته ، بل كحقائق اجتماعية غامضة مزودة بقدرات خفية ومشؤومة ينبغي فك ألغازها وشل فاعليتها الشريرة . ذلك الانسلاخ عن المجتمع ، من جانب القائمين في السلطة كما من جانب المعارضة ، وانسلاخ الطرفين الواحد عن الآخر ، هما اللذان دفعا الكتلتين الحاكمتين الى الاعلان ان المعارضة عملت كأداة لعناصر اجتماعية غريبة ، والمعارضة للادعاء بأن وراء رجالات الحكم تقبع قوى ترميدورية .

ما كانت إذاً تلك القوى ؟ أجاب تروتسكي قائلاً إنها الفلاحون الاغنياء وبورجوازية النيب وبعض قطاعات البيروقراطية ، كل تلك الطبقات والمجموعات التي

كانت لها مصلحة في إعادة النظام البورجوازي . أما الطبقة العاملة فبقيت حريصة على « منجزات اوكتوبر » وكانت معادية ضمناً للترميدوريين . وبما يخص البيروقراطية ، كان تروتسكي يعتقد أنها ستتمزق إذا بلغت وضعاً حرجاً : ففيها يدعم جزء منها الثورة المضادة يدافع الجزء الآخر عن الثورة . ولم تكن الانقسامات داخل الحزب ، في رأيه ، إلا انعكاساً غير مباشر لذلك الانفلاق . كان الجناح اليميني اقرب الى الترميدوريين ، لكنه لم يكن يتماثل بالضرورة معهم . فمرافعات بوخارين لصالح المالكين كانت لها رائحة ترميدورية واضحة ، لكن ما كان يمكن القول بصورة دقيقة إذا كان البوخارينيون هم الترميدوريون حقاً او فقط مساعدوهم غير الواعين الذين يلتحقون بصفوف الثورة في حالة الخطر . ووفقاً لأطروحة تروتسكي ، فقط اليسار ، اي جبهة المعارضة ، كان يمثل داخل الحزب مصالح الطبقة العاملة ويدافع عن برنامج الاشتراكية الأصلي والخالص . كانت جبهة المعارضة كطليعة للقوى المعادية للترميدوريين ، وكانت تتصرف على هذا الاساس . أما الوسط ، أي تكتل ستالين ، فلم يكن له اي برنامج . لا شك أنه كان يشرف على جهاز الحزب ، لكن لم تكن له قاعدة اجتماعية مهمة . كان يتأرجح بين اليمين واليسار ، ويستخدم برامج هذا وذاك . وطالما كان الوسط سيبقى حليفاً لليمين ، كان سيساعد على الاعداد لصعود الترميدوريين . لكن لم يكن لديه ما يربحه من ترميدور يؤدي الى زواله . لذا إذا كان على الوسط أن يواجه تهديداً بثورة مضادة فهو ـ او جزء كبير منه على الاقل ، كان سيلتحق باليسار بغية الحيلولة معه ، تحت قيادة اليسار ، دون حدوث ترميدور سوفياتي . ولا حاجة إطلاقاً لاستباق مجرى الاحداث لتبيان الى أي حد أكد هذا المجرى تلك الفرضية أو طعن في صحتها[٤٣] . تكفي هنا الاشارة الى الخلاصة العملية المهمة التي استنتجها تروتسكي منها ، وهي تتلخص بما يلي : على تروتسكي واصدقائه ان يتحاشوا في اي من الاحوال التحالف مع تكتل بوخارين ضد ستالين . وشدد تروتسكي على أنه في بعض الظروف ووفقاً لبعض الشروط ، على المعارضة ان تكون مستعدة لتشكيل جبهة موحدة مع ستالين ضد بوخارين . أما شروط ذلك التحالف فكانت شروط كل جبهة موحدة : على المعارضة الا تتخلى عن استقلالها ، وعن حقها في النقد ، وعليها الا تتوقف عن المطالبة بالحرية داخل الحزب . وفقاً للمبادىء التكتيكية المعروفة جيداً ، سيمشـي اليسار والوسط في مثل تلك الحالة منفصلين ويضربان معاً . وفي الحقيقة ان المعارضة لم تكن لديها إطلاقاً ، في تلك الفترة ، فرصة تطبيق ذلك المبدأ : فالستالينيون والبوخارينيون كانوا يتقاسمون

---

٤٣ ـ سنجد تحليلاً اكثر تعميقاً لهذه المشكلة في الفصل السادس من هذا الجزء وفي النبي المنبوذ .

السلطة ولا يزالون موحدين . لكن تروتسكي كان يعبر عن اقتناعه بأن تحالف الطرفين لن يصمد طويلاً . كان تكتيكه يتمثل إذاً بدق إسفين بين الحليفين ، وتسهيل قطيعتهما وإعادة ترتيب للقوى ، بما يسمح للمعارضة بقيادة كل « المناهضين للترميدورية » ، بما فيهم أنصار ستالين . وخلال السنوات اللاحقة القليلة ، كان موقف المعارضة محكوماً بالمبدأ التالي : « مع ستالين ضد بوخارين ؟ نعم . مع بوخارين ضد ستالين ؟ كلا ثم كلا ! »

وإذا نظرنا الى هذا التدبير التكتيكي الذي كان تروتسكي المسؤول الرئيسي عنه ، على الضوء الموحش لصباحات الاعدام التي عرفتها كل الكتل وكل المجموعات المناهضة للستالينية ، يظهر حينئذ كعمل جنون انتحاري . إن الروح الترميدورية التي كانت تتجسد بالنسبة لتروتسكي في بوخارين العاجز ، تبدو ناتج خيال مشبع بمعلوماته التاريخية . وحين نعرف كل تتمة القصة ، ومخاوف تروتسكي الكثيرة وقلقه تجاه « الخطر الذي يمثله اليمين » ، اي كتلة بوخارين ، فإن بخسه الواضح تقدير سلطة ستالين يبدو لنا ، بالمناسبة ، معجزة قصر نظر ، لا بل عمىً من جانب انسان تميز في اغلب الأحيان ببصيرته النبوية . لكن قد لا يكون سلبياً أن نحكم تبعاً للنهاية فقط التي شهدتها الامور ، إذ لا يمكن فهم قرار تروتسكي إلا انطلاقاً من الوضع الذي اتخذه خلاله . كانت النيب في ذروتها ، وكانت القوى ذات المصلحة في اعادة النظام البورجوازي لا تزال شديدة الحيوية والنشاط ، وما كان أحد يتصور بعد تدميراً للرأسمالية التي خلقتها النيب و « تصفية الكولاك كطبقة » . ما كان في وسع تروتسكي أن يعرف بيقين ما قد تكون نهاية النزاع بين القوى المتعارضة في المجتمع السوفياتي . كان شبح الترميدور كما يراه آنذاك لا يزال نصف حقيقي بعد . فبعد عام ١٩١٧ بثماني سنوات أو حتى عشر سنوات ، لم يكن يمكن استبعاد إمكانية عودة للنظام القديم . وكماركسي وبلشفي ، كان تروتسكي يقدر ـ وذلك امر طبيعي جداً ـ أن واجبه الاساسي يكمن في جمع كل القوى وتعبئة كل الطاقات لتحاشي كارثة كتلك الكارثة . وهذا ما حدد تكتيكه السياسي . فإذا كان هنالك حقاً عامل لا زال يمكن ان يخدم إعادة للنظام البورجوازي ، فهذا العامل كان سياسة بوخارين ، اكثر بكثير مما هو سياسة ستالين . ما كان يمكن تحليل هذا الوضع المُعاش الا أن يدفع تروتسكي الى تقرير ضرورة تقديم المعارضة دعماً ، مشروطاً بالتأكيد ، للثانية ضد الاولى . وإن استنتاجاً كهذا كان من ضمن التراث الماركسي الصرف الذي يؤيد تحالفات بين اليسار والوسط ضد اليمين ، لكن الذي يعتبر كل لقاء بين اليمين واليسار موجه ضد الوسط خطأ نظرياً لا يُغتفر . هكذا إذا أعيد وضع موقف تروتسكي في سياقه وجرى تثمينه بتعابير ماركسية ، يستعيد مَنطقه . ولقد كان من سوء حظ تروتسكي أن برهنت الاحداث اللاحقة خطأً

استدلاله : كان منطقه في الواقع منطق التدمير الذاتي للمعارضة . ولقد كمنت مأساة تروتسكي ، في الواقع ، في انه عبر السيرورة التي دافع بها عن الثورة مارس انتحاره السياسي .

* * *

في ربيع عام ١٩٢٧ اشتعلت الخلافات داخل الحزب من جديد بصدد قضية لم تكن لعبت فيها حتى ذلك الحين أي دور ، لكن سوف تبقى في قلب تلك الخلافات حتى انتهائها ، اي حتى التدمير والحل النهائيين لجبهة المعارضة .

تلك القضية كانت الثورة الصينية .

ففي تلك الفترة بالذات عرفت الثورة الصينية أزمة خطيرة كانت اولى علاماتها واولى تجلياتها تعود الى نهاية حكم لينين . فالبلاشفة كانوا التفتوا باكراً جداً الى الحركات المعادية للامبريالية التي كانت تهز الأمم المستعمرة ونصف المستعَمرة ، لأنهم كانوا يعتقدون أن تلك الحركات تشكل « احتياطياً استراتيجياً مهماً » للثورة البروليتارية في أوروبا . ولينين ، مثله مثل تروتسكي ، كان مقتنعاً بأن الرأسمالية الغربية ستضعف بصورة حاسمة إذا فقدت المستعمرات التي كانت تستمد منها اليد العاملة الرخيصة والمواد الاولية ، وحيث كانت إمكانيات لتثميراتها المربحة بشكل خارق . عام ١٩٢٠ ، نادت الكومنترن بالتحالف بين الشيوعية الغربية وحركات تحرر شعوب آسيا . لكن المسألة لم تتجاوز مستوى الاعلانات المبدئية . لم يكن قيل شيء عن الاشكال الملموسة لذلك التحالف ولا عن وسائل حفزه . كان إعلان الكومنترن يعترف بأن نضال شعوب آسيا لأجل استقلالها كان المعادل التاريخي للثورات البورجوازية في اوروبا . واعترف كذلك بأن الفلاحين ـ وحتى البورجوازية الى حد ما ـ المنتمين الى تلك الشعوب هم حلفاء الطبقة العاملة . لكن الكومنترن اللينينية لم تكن حاولت بعد ان تحدد بوضوح ما هي العلاقة بين الحركات المناهضة للامبريالية والنضال لأجل الاشتراكية في آسيا ، او موقف الحزبين الشيوعيين الصيني والهندي حيال بورجوازية كل منهما « المعادية للامبريالية » .

كان لا يزال مبكراً جداً حل تلك المشكلات . فثورة اوكتوبر كانت لا تزال حديثة للغاية بحيث لا يمكن تقدير مدى عمق انعكاساتها في الشرق الاقصى وكثافة تلك الانعكاسات . وفي اكبر بلدان آسيا ، كانت الاحزاب الشيوعية قد بدأت تولد منذ وقت قصير ، وكانت الطبقات العاملة ضعيفة عددياً وتفتقر الى التراث السياسي ؛ وحتى الحركات البورجوازية المعادية للامبريالية كانت لا تزال في طور التكوين . ولم يعقد الحزب

الشيوعي الصيني ، المؤلف من مجموعات صغيرة من الدعاويين ، مؤتمره الاول الا عام ١٩٢١ . لكن ما كاد ينهي هذا المؤتمر ويحدد برنامجه ويبني تنظيمه حتى ضغطت موسكو عليه ليقترب من الكيومنتانغ . والكيومنتانغ ، الذي كانت تغطيه السلطة الادبية لصن يات صن ، كان لا يزال يومذاك في ذروة مجده . وصن يات صن ذاته كان يرغب في ان يعقد مع روسيا اتفاقاً يقوي موقعه في وجه الامبريالية الغربية ؛ ووفاقاً لاشتراكيته الشعبوية الفضفاضة ، و « غير الطبقية » ، كان مستعداً للتعاون مع الشيوعيين الصينيين ، لكن بشرط قبولهم سلطته دون تحفظ ودعمهم للكيومنتانغ . ولقد وقع صن يات صن معاهدة صداقة مع حكومة لينين لكنه صادف الكثير من الصعوبات للحصول من الشيوعيين الصينيين على تعاونهم معه وفقاً لتلك الشروط[٤٤] .

كان يقود الشيوعيين الصينيين تشن توسيو ، احد أوائل منظِّري الماركسية في آسيا ، ودعاويِّها الأول والوجه الاعظم للثورة الصينية حتى بروز ماوتسي تونغ . وهذا الاخير كان تكتيكياً وقيادياً ومنظماً أعظم ، بالتأكيد ، لكنه لم يجاره كمنظِّر وفيلسوف . كان تشن توسيو محرك الحملة الكبرى ضد الامتيازات التي كانت تتمتع بها الدول العظمى الغربية في الصين . إن الحملة التي انطلقت من جامعة بكين ، حيث كان تشن توسيو استاذاً ، بلغت مقداراً من الاهمية بحيث رفضت الحكومة الصينية ، تحت ضغطها ، توقيع معاهدة فرساي التي كانت تعترف بتلك الامتيازات . ويعود الفضل الى حد كبير لتأثير تشن توسيو في ولادة المجموعات من الدعاويين الماركسيين التي شكلت الحزب الشيوعي ، وتطورها . ولقد بقي قائد الحزب وزعيمه المسلَّم به حتى عام ١٩٢٧ ، اي طوال كل الفترات الحرجة من الثورة . ومنذ البدء ، كان ينظر ببعض الخشية الى التوجيهات السياسية التي كان يتلقاها الحزب من موسكو . كان يعترف بأن على الحزب ان يتعاون مع الكيومنتانغ ، لكنه كان ينكر تحالفاً وثيقاً يحول دون تأكيد الشيوعية اصالتها واستقلالها . وقد كان يفضل لو قيض لحزبه أن يقف على رجليه قبل أن يسلك طريقاً مشتركة مع الكيومنتانغ ، لكن موسكو كانت تصر على أن يتناسى تلك الهواجس . ولم يكن تشن توسيو يملك قوة شكيمة ماوتسي تونغ ولا مهارته اللتين كانتا تجعلان هذا الاخير ، في مثل تلك الحالات ، لا يقف أبداً

٤٤ - بين مصادر التحليلات التي تتناول الثورة الصينية : براندت ، وشوارز ، وفيربانك ، تاريخ وثائقي للشيوعية الصينية ، ماوتسي تونغ ، المختارات ، م . ن . روى ، الثورة والثورة المضادة في الصين ؛ تشن توسيو ، «رسالة مفتوحة الى الحزب» (ذي ميليتانت ١٩٢٩) . ستالين ، المؤلفات ؛ تروتسكي ، مشكلات الثورة الصينية ؛ إيزاكس ، مأساة الثورة الصينية ؛ تانغ لينغ لي ، The inner history of the chinese Revolution ، مجموعة اعداد البولشفيك ، والانبريكور ، وريفولوتسيوني فوستوك .

صراحة ضد رأي موسكو ، بل يزعم دائماً السير وفقاً له ، لكنه يتجاهله عملياً ولا يتصرف إلا وفقاً لما يراه مناسباً ، متحاشياً هكذا اي قطيعة مكشوفة . كان تشن توسيو يتميز بصراحة فظة ؛ وكان رجلاً لطيفاً ومفتقراً الى الثقة بالذات ، لذا كان وجهاً مأساوياً من وجوه الثورة الصينية . ففي كل مرة كان يطرح اعتراضاته على سياسة موسكو بصراحة ، لكنه لم يكن يعاند ويصمد . فعندما لم يكن يُعطى الحق ، كان يخضع لقرارات الكومنترن ، وحتى لو كان مقتنعاً بأنه على حق كان يطبق سياسة موسكو .

ومنذ عامي ١٩٢٢ - ١٩٢٣ ، لعب رجلان أصبحا فيما بعد شخصيتين مرموقتين في المعارضة التروتسكية ، هما يوفي ومارينغ - سنيڤليت[٤٥] ، دوراً حاسماً في إرساء التعاون بين الحزب الشيوعي الصيني الشاب والكيومنتانغ، والسياسة التي سيطبقها بوخارين وستالين فيما بعد . فيوفي ، سفير حكومة لينين ، هو الذي تفاوض لأجل وضع معاهدة الصداقة الصينية - السوفياتية . ولتسهيل مهمته ، تخطى التعليمات التي تلقاها الى حد انه اكد لصن يات صن ان البلاشفة لم يكونوا يسعون اطلاقاً لتطوير الحركة الشيوعية الصينية ، وانهم قد يمارسون نفوذهم لجعل الشيوعيين الصينيين يتعاونون مع الكيومنتانغ وفقاً للشروط التي حددها صن يات صن . وقد حضر مارينغ كمندوب للأممية الشيوعية المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي الصيني عام ١٩٢٢ . وبناء على مبادرته ، اتصل الحزب بالكيومنتانغ وبدأ يناقش شروط التعاون معه . لكن شروط صن يات صن كانت قاسية وهكذا جرى قطع المفاوضات .

بعد ذلك بقليل ، وخلال العام نفسه ، عاد مارينغ الى الصين وأعلم تشن توسيو ورفاقه بأن الاممية الشيوعية توعز اليهم بالصورة الاكثر جزماً ان يتحالفوا مع الكيومنتانغ مهما تكن الشروط . فرفض تشن توسيو في البدء الانصياع ، ثم حين أثار مارينغ مسألة مبادىء الانضباط الاممي مع رفاقه أبدى خضوعه . فطلب صن يات صن ، كما فعل تشن كاي تشك فيما بعد ان يمتنع الحزب الشيوعي عن انتقاد سياسة الكيومنتانغ علناً وان يخضع لانضباطه ، وإلا يجد نفسه مضطراً ، كما قال ، لطرد الشيوعيين من الكيومنتانغ واعتبار التحالف مع روسيا باطلاً . وفي بداية عام ١٩٢٤ ، انضم الحزب الشيوعي الى صفوف الكيومنتانغ . وفي اول المطاف ، لم يحترم الحزب الشيوعي شروط صن يات صن حرفياً ،

---

٤٥ - مارينغ - سينفليت مركسي هولندي لعب دوراً وثيقاً في ولادة الشيوعية في اندونيسيا ، وكان يمثل الحزب الهولندي في موسكو . فيما بعد ، لا سيما في الفترة ما بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠ كان من اشد انصار تروتسكي حماساً . وخلال الحرب العالمية الثانية قاد مجموعة من المقاومين في هولندا المحتلة ، واعدمه النازيون .

بل حافظ على استقلاله واستمر في ممارسة سياسة شيوعية مستقلة ، وهو ما أثار استياء زعيم الكيومنتانغ .

سرعان ما تطور نفوذ الشيوعيين . فحين هزت عام ١٩٢٥ « حركة ٣٠ أيار/مايو » جنوبي الصين ، كان الشيوعيون طليعتها ؛ فهم الذين ألهموها وحركوا مقاطعة الامتيازات والمشاريع الغربية ونظموا الاضراب العام في كانتون ، اكبر إضراب عرفه تاريخ الصين حتى ذلك الحين . ولقد أرعبت القوة المتعاظمة للحركة قادة الكيومنتانغ الذين حاولوا تحطيمها وانتهوا الى القطع مع الشيوعيين . وأحس هؤلاء الأخيرون ان الحرب الاهلية تقترب ، فسعوا للتملص من التزاماتهم وأرسلوا وفوداً الى موسكو . وفي تشرين الاول/اوكتوبر ١٩٢٥ ، اقترح تشن توسيو تهيئة انسحاب الحزب الشيوعي الصيني من الكيومنتانغ . الا ان الهيئة التنفيذية للأممية رفضت اقتراحه وأوصت الحزب الصيني بفعل كل ما يلزم لتحاشي الحرب الأهلية . كان المستشارون العسكريون والدبلوماسيون السوفيات ، بورودين ، وبلوشر وآخرون ، يعملون في مركز القيادة العام لتشن كاي تشك ، ويسلحون قواته ويدربونها . ولا بوخارين ولا ستالين ، اللذان كانا في تلك الفترة القائدين الحقيقيين للسياسة السوفياتية اعتقدا بأن للشيوعيين الصينيين بعض الحظ في الاستيلاء على السلطة في مستقبل قريب . وكلا الرجلين لم يسعيا الا للحفاظ على تحالف روسيا السوفياتية والكيومنتانغ . ولما كان النفوذ الشيوعي المتنامي يهدد ذلك التحالف ، فقد قرر الزعيمان السوفياتيان اعادة الحزب الشيوعي الصيني الى حدوده .

حينئذ طلبت موسكو الى تشن توسيو ولجنته المركزية عدم خوض صراع طبقي ضد البورجوازية « الوطنية » او ضد الثوريين الزراعيين ، والامتناع عن كل نقد للصنياتصنية ، التي تكرست منذ موت صن يات صن ايديولوجية للكيومنتانغ . ولتبرير بوخارين وستالين موقفهما من وجهة نظر ماركسية أشارا الى ان للثورة التي بدأت في الصين طابعاً بورجوازياً في الجوهر ، وأنه لا يسعها بالتالي ان تحدد لنفسها اهدافاً اشتراكية ؛ وان البورجوازية المناهضة للامبريالية التي تدعم الكيومنتانغ تلعب الآن دوراً ثورياً ، فمن واجب ح . ش . ص . إذاً ان يبقى متحداً معها وألا يفعل ما يمكن اثارة استيائها . ولكي يوقفا سياستهما على اسس اكثر صلابة واكثر مذهبية ، اعادا الى الاذهان أن لينين اكد عام ١٩٠٥ أنه خلال الثورة الروسية « البورجوازية » الموجهة في الجوهر ضد القيصرية على الحركة الاشتراكية ان تحدد لنفسها هدفاً يتمثل في ارساء « ديكتاتورية ديمقراطية للعمال والفلاحين » ، لا في قيام ديكتاتورية للبروليتاريا إطلاقاً . لكن لم يكن لتلك السابقة اية علاقة ، عملياً ، بالوضع الحالي في الصين : ففي عام ١٩٠٥ ، لم يسع لينين وحزبه أبداً للتحالف مع البورجوازية

الليبرالية ضد القيصرية ، بل العكس هو الذي حصل ، إذ واظب لينين على شرح كيف انه لن يمكن للثورة البورجوازية ان تنتصر في روسيا إلا بقيادة الطبقة العاملة وبالتعارض الجذري والحاسم مع البورجوازية الليبرالية . وحتى المناشفة ، الذين كانوا يسعون حقاً للتحالف مع البورجوازية ، لم يضعوا يوماً نصب أعينهم القبول بالخضوع لسلطة منظمة تسيطر عليها تلك البورجوازية ولنظامها . أما سياسة بوخارين وستالين ، كما شرح تروتسكي فيما بعد ، فكانت تحريفاً ساخراً لا فقط لموقف البلاشفة عام ١٩٠٥ ، بل كذلك لموقف المناشفة .

لكن تلك السفسطة السياسية كانت تخدم مع ذلك شيئاً ما : كانت تضفي حلة ايديولوجية على سياسة موسكو ، وتسمح بذلك للشيوعيين بالتحرر من أزمتهم الضميرية . ولقد ظهرت انتهازية تلك السياسة على الملأ منذ عام ١٩٢٦ حين تم قبول الكيومنتانغ داخل الاممية الشيوعية بصفة حزب مشارك وحين انتخبت الهيئة التنفيذية للأممية ، بالكثير من الاحتفال والصخب ، الجنرال تشانغ كاي تشك عضواً فخرياً فيها . وبإظهار ستالين وبوخارين حسن نواياهما هكذا للكيومنتانغ ، وجّها تحذيراً صارماً للشيوعيين الصينيين . وفي ٢٠ آذار/مارس ، اي بعد اسابيع قليلة من انتخاب تشانغ كاي تشك عضواً فخرياً في الهيئة التنفيذية على يد « هيئة اركان الثورة العالمية » ، وجّه ضربته الاولى للشيوعيين الصينيين . فلقد طردهم من الاجهزة القيادية للكيومنتانغ ، وحظر عليهم ان ينتقدوا فلسفة صن يات صن السياسية في اي من جوانبها ، وطلب الى اللجنة المركزية للحزب أن تسلمه لائحة باسماء كل اعضاء الحزب الذين انضموا الى الكيومنتانغ . وبناء على الحاح المستشارين السوفيات ، انصاع تشن توسيو ورفاقه . لكن لما كانوا مقتنعين بأن تشانغ كاي تشك يعد حرباً أهلية ضدهم ، ارادوا تنظيم القوات المسلحة الشيوعية التي قد تستطيع ، في ساعة الجد ، الرد على قوات الكيومنتانغ ، وطلبوا المساعدة السوفياتية . فوقف المندوبون السوفيات في كانتون جازمين ضد هذا المشروع ورفضوا اية مساعدة . ومرة اخرى انصاع تشن توسيو لقرار الكومنترن[٤٦] . ولم تنشر صحف موسكو أي تعليق على الضربة التي وجهها تشانغ كاي تشك ، لا بل لم تشر اليها بتاتاً . وخوفاً من التعقيدات ، ارسل المكتب السياسي بوبنوف ، الديسيمي السابق ،

٤٦ ـ يروي تشن توسيو ان اللجنة المركزية الصينية طلبت الى المستشارين العسكريين السوفيات في كانتون ان يسحبوا من امدادات الاسلحة الى تشانغ كاي تشك على الاقل ٥٠٠٠ بندقية تسمح للشيوعيين بتسليح الفلاحين المتمردين في كوانتونغ ، إلا أن الطلب ووجه بالرفض .

للاشراف على تطبيق ذلك القرار واقناع الشيوعيين الصينيين بأن من واجبهم كثوريين أن « يجعلوا من انفسهم حمّالين لدى الكيومنتانغ[٤٧] »

حتى ذلك الحين ، لم تدخل المشكلة الصينية في المساجلات ضمن الحزب الروسي . ويهم ان نشير الى ذلك دحضاً لاحدى خرافات التروتسكية المبتذلة ، التي أشاعت ان المعارضة فضحت منذ البدء ، ودون هوادة ، « خيانة الثورة الصينية » على يد ستالين وبوخارين . ولا شك ابداً ان تروتسكي كان بدأ يقلق منذ اوائل عام ١٩٢٤ . انتقد آنذاك امام المكتب السياسي التحاق الشيوعيين الصينيين بالكيومنتانغ ، وخلال العامين اللاحقين اعاد احياناً صياغة انتقاداته . لكن حين فعل ذلك ، فعله بصورة شبه عرضية ، دون الحاح ، ودون ملامسة اعماق المشكلة . وحين لاحظ انه كان الوحيد في المكتب السياسي الذي يحمل ذلك الرأي ـ كل الاعضاء الباقين كانوا يدعمون السياسة الصينية ـ تحاشى تكرار اعتراضاته وانتظر امكانية عرضها أمام اللجنة المركزية وما توفره من عدد أوسع من الحضور . ويبدو أنه لم يتدخل مرة واحدة بين عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٦ بصدد موضوع الصين في الهيئة التنفيذية او امام لجان الكومنترن . وما هو ثابت في كل حال هو أنه لم تندَّ عنه اشارة واحدة امام الجمهور الى الخلافات في الرأي حول هذه المسألة . ويبدو أنه أولاها من الانتباه والوزن اقل بكثير مما أولى سياسات الحزبين الشيوعيين الانكليزي والبولندي . لم تكن تكونت بشكل ظاهر أية فكرة لدى تروتسكي عن قوة العاصفة التي كانت تتقدم نحو الصين ، وعن عِظم الأزمة المقتربة التي ستشهدها السياسة الشيوعية وخطورتها .

وفي بداية عام ١٩٢٦ ، كان موقف الدبلوماسية السوفياتية حيال الصين يهمه اكثر بكثير مما تهمه الوجهة التي تتخذها القضايا الشيوعية هناك . وقد ترأس لجنة خاصة ، كان من اعضائها تشيشرين ودزرجنسكي وفوروشيلوف ، كان عليها أن تعد للمكتب السياسي تقريراً حول الخط الذي ينبغي أن تتبناه الدبلوماسية السوفياتية تجاه الصين . ونحن لا نعلم الكثير عن اعمال تلك اللجنة ، باستثناء التقرير الذي عرضه تروتسكي على المكتب السياسي في ٢٥ آذار / مارس ١٩٢٦[٤٨] . ولما كان تروتسكي لم يُبد موقفاً معارضاً لمضمون ذلك التقرير ، يمكن التفكير بأنه كان يؤيده دون اي تحفظ . فاللجنة قدمت اقتراحات بتعابير دبلوماسية صرفة دون اي تلميح الى اهداف ح . ش . ص . ففي حين كان هذا الاخير يحاول ، بالتعاون مع الكيومنتانغ ، ان يلغي

---

٤٧ ـ مقتطف من «الرسالة المفتوحة» التي كتبها تشن توسيو .

٤٨ ـ المحفوظات .

الوضع القائم في الصين ، جاءت اللجنة تشرح للدوائر الدبلوماسية السوفياتية المواقف التي عليها ان تتخذها داخل ذلك الوضع القائم . كان الحزب الشيوعي ، مثله مثل الكيومنتانغ ، يطالب بتوحيد البلاد سياسياً ، اي بإطاحة حكومة تشانغ تسو ـ لين ، التي كانت تسيطر على شمالي البلاد ، وبمد الثورة من الجنوب الى الشمال . وكانت اللجنة التي يترأسها تروتسكي تعترف بالقسمة القائمة للصين كأمر واقع ، وكل شيء بدا كما لو كانت تسعى بتوصياتها الى استمرار ذلك الواقع . في تلك الفترة ، كان تشانغ كاي تشك يعد حملته العسكرية الكبرى ضد الشمال . ولما كان اقصى الارتباك يسيطر على الحدود الشرق ـ أقصوية للاتحاد السوفياتي سعت اللجنة بوجه خاص لتحاشي كل حركة ثورية ولتوفير اكبر قدر من الميزات الممكنة للحكومة السوفياتية . هكذا اقترحت اللجنة بأن تسعى الدوائر الدبلوماسية السوفياتية وراء تسوية مرضية وتقاسم للمناطق بين حكومة تشانغ كاي تشك في الجنوب وحكومة تشانغ تسو ـ لين في الشمال .

وقد اكد تروتسكي فيما بعد أن ستالين قدم خلال مناقشة المكتب السياسي للتقرير تعديلاً يرى ان على المستشارين العسكريين السوفيات ان يقنعوا تشانغ كاي تشك بالعدول عن حملته . فردت اللجنة ذلك التعديل لكن نصحت ، بتعابير اكثر عمومية ، الدوائر السوفياتية في الصين بأن « توصي بالحاح بالاعتدال » من جانب تشانغ كاي تشك . كان الهم الرئيسي للمكتب السياسي الحفاظ على مواقع روسيا في مانشوريا بوجه التعديات اليابانية . ذلك هو السبب في ان اللجنة طلبت أن يشجع المبعوثون الروس الى الصين الشمالية تشانغ تسو ـ لين على تبني سياسة توازن بين روسيا واليابان . فلما كانت موسكو اضعف بكثير من أن تزيل النفوذ الياباني في منشوريا ، ولما لم تكن تعتقد بأن في مستطاع الكيومنتانغ ان يفعل ذلك ، كانت مستعدة للقبول بغلبة اليابان في منشوريا الجنوبية ، شرط ان تحتفظ روسيا بملكية سكة الحديد في شمال شرق الصين وبالاشراف على الجزء الشمالي من المقاطعة . وقد طلبت اللجنة الى المبعوثين السوفيات أن يهيئوا الرأي العام « بلباقة وعناية » لتلك التسوية التي كان من المرجح ان تصدم الشعور الوطني الصيني . لقد كانت للمكتب السياسي أسبابه المختلفة والمعقدة . فقبل كل شيء كان منشغلاً بقضية منشوريا ، وكان يخاف ألا تدفع حملة تشانغ كاي تشك ضد الشمال الدول العظمى الغربية الى التدخل في الصين بصورة اشد فظاظة بكثير مما في المرار السابقة ؛ وكان يشتبه كذلك بأن تشانغ كاي تشك لا يريد القيام بتلك الحملة الا بهدف امتصاص قوى الجنوب الثورية وتشتيتها ، وكحرف عن طريق الثورة .

في نيسان/ابريل ، وافق المكتب السياسي على تقرير اللجنة التي كان يترأسها تروتسكي . وفي تلك الفترة بالذات أثار تروتسكي قضية السياسة الشيوعية ، بوجه الحصر ، في الصين . قال إن هذه السياسة ينبغي ان يجري تصورها بالاستقلال عن دواعي الدبلوماسية السوفياتية : إن من مهمة الدبلوماسيين أن يتعاملوا مع الحكومات البورجوازية القائمة وحتى مع « أسياد الحرب » القدامى ، لكن مهمة الثوريين إطاحتهم . وقد احتج على قبول الكيومنتانغ في الكومنترن . قال تروتسكي إن « الصنياتصنية » التي تمجد التناغم بين كل الطبقات الاجتماعية لا تتفق مع الماركسية الداعية الى صراع الطبقات . اما انتخاب تشانغ كاي تشك عضواً فخرياً في الهيئة التنفيذية للكومنترن فمزحة مشؤومة . واخيراً كرر تروتسكي لماذا وقف بوجه انتساب الشيوعيين الصينيين الى الكيومنتانغ[49] . ومرة اخرى ، دافع كل اعضاء المكتب السياسي ، بمن فيهم زينوفييف وكامينيف اللذان كانا على وشك الانخراط في جبهة المعارضة ، عن السياسة الرسمية للحكومة تجاه الشيوعيين الصينيين . لكن تلك المساجلة ايضاً كانت عرضية ، وقد تمت وراء الابواب الموصدة للمكتب السياسي ، فلم تكن لها أية مستتبعات .

ثم مر عام تقريباً ، من نيسان/ابريل ١٩٢٦ الى نهاية آذار/مارس ١٩٢٧ ، لم يعد فيه تروتسكي او اي من قادة المعارضة الآخرين الى المشكلة الصينية . (باستثناء رادك ؛ فمنذ ايار/مايو ١٩٢٥ ، كان يدير جامعة صن يات صن في موسكو وكان عليه ان يعرض سياسة الحزب امام الطلبة الصينيين المبلبلين بعض الشيء ؛ وقد امطر المكتب السياسي بطلبات الحصول على توجيهات ، لكن دون طائل ؛ وقد صاغ بعض التعبيرات الغامضة عن القلق .) كانت تلك مع ذلك السنة الأكثر حرجاً والأكثر حسماً في تاريخ الثورة الصينية . ففي ٢٦ تموز/يوليو ، بعد اربعة اشهر من نقاش تقرير لجنة تروتسكي الى المكتب السياسي ، أسقط تشانغ كاي تشك « النصائح بالاعتدال » التي قدمها السوفيات ودفع بقواته في اتجاه الشمال . ولقد تقدمت بسرعة ، وخلافاً لتوقعات موسكو جاء ظهورها في اواسط الصين كحافز عجيب للثورة في البلاد بأسرها . كانت مقاطعات الشمال والوسط مسرحاً لتمردات لا تحصى ضد ادارة تشانغ تسو ـ لين وضد أسياد الحرب الفاسدين الذين كانوا يدعمونها . وكان شغيلة المدن العناصر الاكثر نشاطاً في الحركة السياسية . اما الحزب الشيوعي فكان في اوج صعوده ، فهو الذي قاد الانتفاضات وحركها . وكان أعضاؤه على رأس النقابات التي ولدت في بضع ساعات ولقيت دعماً حماسياً وشاملاً في المدن والقرى

---

٤٩ ـ ستالين ، سوش . ، ج ١٠ ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

المحررة . وعلى امتداد الطريق الظافرة لتشانغ كاي تشك كان يرى الفلاحين يستقبلون قواته بحرارة ويطلبون اليها تقديم يد المساعدة ضد اسياد الحرب والملاكين الكبار والمرابين ، وقد أصبحوا مستعدين لنزع ملكياتهم .

اما تشانغ كاي تشك ، الذي ارعبه ذلك المد الثوري ، فسعى لاحتوائه . هكذا حظر الاضرابات والمظاهرات ، وألغى النقابات ، وارسل حملات تأديبية لسحق الفلاحين ومصادرة المواد الغذائية . فنما حقد شديد بين هيئة اركانه والحزب الشيوعي . ومضى تشن توسيو الى موسكو لشرح الوضع وطلب أن يُسمح أخيراً للحزب الشيوعي بالانسحاب من الكيومنتانغ . كان لا يزال يريد إبقاء الجبهة الموحدة بين الكيومنتانغ والشيوعيين ضد أسياد الحرب في مقاطعات الشمال وضد امتيازات الدول العظمى الغربية ، لكنه أوضح ان من الضروري إطلاقاً ان يتخلص حزبه من نير الكيومنتانغ واستعادة حرية العمل ، ويدعم نضال الفلاحين للاستيلاء على الارض ، ويقف على قدم الاستعداد للرد على أي هجوم معلن من جانب تشانغ كاي تشك . ومرة اخرى ووجه تشن توسيو بالرفض امام الهيئة التنفيذية للكومنترن . رد بوخارين اقتراحاته واصفاً إياها بأنها هرطقة خطرة « يسارية متطرفة » . ولما كان بوخارين وضع تقرير اللجنة المركزية الى المؤتمر التداولي للحزب في تشرين الاول/اوكتوبر ، فقد اعاد تأكيد ضرورة « الحفاظ على جبهة ثورية قومية موحدة » في الصين ، حيث « تلعب البورجوازية الصناعية والتجارية الآن دوراً ثورياً من وجهة نظر موضوعية[٥٠] . . . » وواصل قائلا إن بإمكان الشيوعية ضمن تلك الظروف مصادفة صعوبات كبرى حيال إرضاء مطالب الفلاحين الزراعية . إن على الحزب الصيني أن يحافظ على التوازن الدقيق بين مصالح الفلاحين ومصالح البورجوازية المناهضة للامبريالية التي كانت معارضة لأي ثورة زراعية . كان واجب الشيوعيين الاول والاساسي ـ وفقاً لبوخارين ـ يتمثل في الحفاظ على وحدة القوى المناهضة للامبريالية وادانة كل عمل قد يؤدي الى انفجار الكيومنتانغ[٥١] . يجب ان يكون الشعاران المطروحان هما الصبر والاحتراس ، ولا سيما ان العدوى الثورية كانت تنتقل الى الكيومنتانغ ذاته وتدفعه الى « التجذر » و « تشل جناحه الايمن » .

بعد ذلك بوقت قصير ، مجد ستالين بدوره ، في لجنة الشؤون الصينية في الكومنترن ، « الجيوش الثورية لتشانغ كاي تشك ، وطلب الى الشيوعيين ان يخضعوا كلياً

٥٠ ـ ١٥ كونفرنتسيا ف ك ب (ب) ، ص ٢٧ .   ٥١ ـ المرجع ذاته ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

للكيومنتانغ ولا يسعوا الى وضع سوفييتات على رأس « ثورة بورجوازية »[٥٢] .

بالمقابل ، سرعان ما ظهرت صحة توقعات ستالين وبوخارين حول « تحول الى اليسار في الكيومنتانغ » . ففي تشرين الثاني/نوفمبر ، جرى تعديل حكومة الكيومنتانغ التي اصبحت حكومة تحالف برزت فيها المجموعات اليسارية لوانغ شينغ ـ واي ، منافس تشانغ ، وأعطت حقيبتي الزراعة والعمل لشيوعيين . وقد غادرت الحكومة الجديدة كانتون واستقرت في ووهان . لكن يمين الكيومنتانغ كان مع ذلك بعيداً عن أن « يكون جرى شله » . فتشانغ بقي القائد الاعلى للقوات المسلحة وكان يهيىء لقيام ديكتاتوريته بشكل محموم . أما من جرى شله في الحقيقة داخل الحكومة فهم الشيوعيون . فقد كان على وزير الزراعة ان يبذل جهده لخنق حركة المطالب الزراعية ، بينما كان على وزير العمل ان يتبنى مراسيم تشانغ كاي تشك المعادية للعمال[٥٣] . وكان يصل بلا انقطاع من موسكو مبعوثون جدد حاولوا جهدهم تهدئة الشيوعيين ؛ بعد رحيل بوبنوف ، جاء م . ن . روي القائد الشيوعي الهندي الكبير الى ووهان ، في نهاية عام ١٩٢٦ ، ليواصل عمل التهدئة هذا .

كان المكتب السياسي ينادي كذلك بالوحدة مع الكيومنتانغ ، حين بادر تشانغ كاي تشك في ربيع ١٩٢٧ ، وكان لا يزال عضواً فخرياً في الهيئة التنفيذية للكومنترن ، لضربة جديدة كانت اشارة الى الثورة المضادة المفتوحة . كان مسرح تلك الضربة مدينة شانغهاي ، اكبر مدينة في الصين واكبر مركز تجاري فيها ، كانت تسيطر عليها امتيازات الدول العظمى الغربية وسفنها الحربية الراسية في المرفأ . فقبل وقت قصير من دخول قوات تشانغ المدينة ، انتفض عمال شانغهاي وقلبوا الادارة القديمة واستلموا الاشراف على المدينة . مرة أخرى التفت تشن توسيو المسكين الىالكومنترن ملحاً على الاهمية القصوى للحدث ـ كانت تلك اكبر انتفاضة بروليتارية شهدتها آسيا حتى ذلك الحين ـ وطلب ان يتوقف حزبه عن تعاهده مع الكيومنتانغ . ومرة أخرى طُلب الى تشن توسيو ورفاقه ان يعيدوا تأكيد تضامنهم مع الكيومنتانغ ، لا بل جرى التوسل اليهم ان يتخلوا عن الاشراف على شانغهاي وان يسلموها الى تشانغ كاي تشك . والشيوعيون ،المبلبلون كلياً، لكن المنضبطون والرافضون المساعدة التي كانت تعرضها فصائل في جيش تشانغ ، نفذوا فوراً التعليمات وألقوا سلاحهم واستسلموا . وفي ١٢ نيسان/ابريل التالي ، اي بعد ثلاثة

---

٥٢ ـ ستالين ، سوش . ، ج ٨ ، ص ٣٥٧ ـ ٣٧٤ .

٥٣ ـ م . ن . روي ، الثورة والثورة المضادة في الصين ، ص ٤١٣ وما بعدها هارولد ايزاكس ، مأساة الثورة الصينية ، الفصلان الرابع عشر والخامس عشر .

اسابيع فقط من انتفاضتهم الظافرة ، أمر تشانغ تاي تشك بذبح الشيوعيين والعمال الذين تبعوهم : وكانت حصيلة المجزرة عشرات الالوف من الضحايا .

هكذا دفع الشيوعيين الصينيون ضريبة قسرية للأنانية المقدسة للدولة العمالية الأولى ، انانية رفعها مذهب الاشتراكية في بلد واحد إلى مستوى العقيدة . ولقد ظهرت النتائج الضمنية لهذا المذهب في ذلك اليوم من نيسان/ابريل بوضوح شرس عنيد ، إذ كتبت بالدم على بلاط الشوارع في شانغهاي . كان ستالين وبوخارين يعتبران نفسيهما مخولين حق التضحية بالثورة الصينية على مذبح ما كانا يعتقدانه ضرورياً لتصليب الاتحاد السوفياتي . كانا يريدان مهما يكن الثمن الا يتم القيام بأي عمل ، أو المبادرة لأي مسعى ، يمكن ان يجتذبا غضب الدول العظمى الغربية على الاتحاد السوفياتي، ويهددا سلامه واستقراره اللذين أمكن الحصول عليهما لقاء تضحيات قاسية ، سلامه واستقراره المهتزين . كانت سياستهما الصينية وليدة الاهتمامات نفسها والذهنية نفسها التي ولدت سياستهما الداخلية في روسيا : فأول وصية للحكمة بالنسبة لهما كانت عدم القيام بأية مجازفة ، والتقدم بحذر ، خطوة فخطوة ، في تسيير كل شؤون الدولة . وبموجب المنطق ذاته هَدَّآ في الداخل « الفلاحين الاغنياء » وتملقا الكيومنتانغ بذلك القدر من السفاهة في الصين . ولا شك أنهما فكرا بأن تتقدم الثورة الصينية بخطوة الحلزون التي رأى بوخارين ان تتقدم بها الاشتراكية في روسيا .

وكما يحدث في اغلب الاحيان في التاريخ ، ظهر أن تلك الواقعية العملية المزعومة لم تكن غير وهم ، فمن المستحيل تسيير تنّينات الثورة والثورة المضادة بخطى الحلزون . لقد فعل البلاشفة ، طوال سنوات ، كل شيء ليعرف بلدهم فترة من الراحة . ولما كانوا قد توصلوا إلى تحقيق ما ارادوه ، فقد سعوا لأن يطيلوا تلك الفترة دون حدود وكانوا يصرخون بغيظ شديد إزاء كل ما قد يضع نهاية لتلك الفترة أو يختصرها . ففي روسيا ، كان يمكن سياسة تخاطر بالتسبب بنزاع مع الفلاحين أن تضع تلك النهاية ، أما في الخارج فكان يمكن سياسة شيوعية دينامية ونشطة أن تتولى ذلك . وكان التكتلان الحاكمان مصممين على الحيلولة دون حدوث أمور من هذا النوع . وهكذا قبلا دون الكثير من التأثر أن تفيد اللحظات الاخيرة من حياة الثوريين الصينيين المذبوحين في اطالة فترة الاستراحة للدولة العمالية الأولى(٥٤) .

---

٥٤ ـ حاول ستالين ان يفعل الشيء ذاته مع الثورة الصينية في ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ ، لكن اهمية تلك الثورة الجديدة وانعكاساتها حالت بينه وبين غايته . كما ان ماوتسي تونغ كان قد استخلص درساً من تجربة تشن توسيو .

لم يهاجم تروتسكي سياسة المكتب السياسي الصينية إلا في ٣١ آذار/مارس ١٩٢٧ ، بعد سنة من الصمت ، وقبل ١٥ يوماً من مذبحة شانغهاي(٥٥). وليس ثمة ادنى شك في أن تروتسكي كان معارضا من قبل تلك السياسة ومسلّماتها ، لأنه كان قد احتج على دخول الحزب الصيني في الكيومنتانغ وعلى التكريم الممنوح لتشانغ في الكومنترن. كانت افكاره السياسية التي فصّلها وبلورها منذ اكثر من عشرين عاماً تمنعه من أن يؤيد ، ولو بصورة عابرة ، الذرائع الايديولوجية التي لجأ اليها ستالين وبوخارين لتبرير استراتيجيتهما السياسية ، فكيف كان يمكن منظّر الثورة الدائمة ان يعتقد ، مثل ستالين وبوخارين ، انه لما كان للثورة الصينية طابع بورجوازي ، فإنه يتوجب على الشيوعيين أن يخفوا اهدافهم الاشتراكية بغية التمكن من التحالف مع بورجوازية الكيومنتانغ . كان ضمن منطق الفكر التروتسكي الاعتقاد بأن الطورين البورجوازي والاشتراكي من الثورة الصينية سيتلاحقان بالوتيرة ذاتها التي تمت بها الثورة في روسيا ، وان الطبقة العاملة ستكون من البداية الى النهاية المحرك الرئيسي للثورة ، واخيراً بأن هذه الاخيرة ستنتصر إذا كانت بروليتارية وانتهت الى ديكتاتورية البروليتاريا ، وإلا تعرضت للسحق .

لماذا احتفظ تروتسكي إذاً بصمته طوال تلك السنة الحاسمة ؟ طبعاً لأنه كان مريضاً معظم الوقت ، ولأنه كان منهمكاً كليا بالسياسة الداخلية الروسية ومشكلات الحركة الشيوعية الاوروبية ، واخيراً لأنه كان منخرطاً في صراع غير متكافىء وكان عليه ان يأخذ بالحسبان وضع المعارضة الدقيق جداً . واذا اعتمدنا على اوراقه الشخصية ، فهو لم يبدأ بالاهتمام حقاً بالمشكلة الصينية إلا في بداية عام ١٩٢٧ . كان يجهل الى اين وصلت انتهازية المكتب السياسي ووقاحته ، ولم تبلغه تحفظات الشيوعيين الصينيين ومقاومتهم إزاء تعليمات موسكو ، ولم يعرف بندآت تشن توسيو واحتجاجاته التي خبأها ستالين وبوخارين في ملفات سرية ؛ كما أنه لم يكن على علم بالرسائل السرية بين موسكو وكانتون أو ووهان . واخيراً حين قلق وطرح المشكلة امام قادة المعارضة ، دون ان يكون على علم بغير المعلومات المعمم نشرها ، لاحظ انه حتى بصدد هذا الموضوع لم يكن أحد يتبعه تقريباً .

حتى نهاية عام ١٩٢٦ ، لم يجد زينوفييف وكامينيف الا القليل من الاسباب لمهاجمة السياسة الرسمية للحكومة . فلما كانا وفيين لـ « البلشفية القديمة » لعام ١٩٠٥ ، كانا يعتقدان ، هما أيضاً ، أنه ليس للثورة الصينية ان تتجاوز في اي من الاحوال اهدافها

٥٥ ـ انظر في المحفوظات ، رسالته الى المكتب السياسي واللجنة المركزية .

البورجوازية والمناهضة للامبريالية . كانا قد أيدا دخول الحزب الصيني الى الكيومنتانغ . وحين كان زينوفييف يرأس الكومنترن ، ساهم هو بالذات في تطبيق تلك السياسة رغم اعتراضات تشن توسيو . لكن حتى أفضل الشخصيات التروتسكية ، من مثل بريوبراجنسي ورادك وكذلك - حسبما يبدو - بياتاكوف وراكوفسكي شعروا بالبلبلة التامة حين استخدم تروتسكي نظريته حول الثورة الدائمة لتحليل الوضع في الصين(٥٦) . لم يكونوا يعتقدون بأنه يمكن إرساء ديكتاتورية بروليتارية هناك ، كما لم يكونوا يعتقدون بأن في وسع الحزب الشيوعي الاستيلاء على السلطة في بلد اكثر تخلفاً على الصعيد الاجتماعي من روسيا عام ١٩١٧ . لقد توجب أن يهدد تروتسكي بإثارة المشكلة بذاته وعلى مسؤ وليته الشخصية ، أي عملياً تفجير المعارضة ، وتوجب كذلك ان يظهر بوضوح تام ان العمال كانوا « العنصر المحرك الرئيسي» للثورة الصينية ، وان ستالين وبوخارين اللذين وقفا في وجههم كانا قد تخطيا منذ زمن طويل الحدود التي كان لنظريات « البلشفية القديمة » ومبادئها معنى ما ضمن إطارها ، كي يقرر قادة المعارضة إطلاق نقاش حول الوضع في الصين داخل اللجنة المركزية . لكن حتى ذلك الحين ،لم يكونوا يشككون إطلاقاً بمسلمات السياسة الحكومية ، ولو كانوا مستعدين لمهاجمة تلك السياسة . ما كانوا يريدونه إنما هو تعنيف الحماس المفرط الذي اجبر ستالين وبوخارين به الحزب الصيني على ان يجعل من نفسه شريكاً لتشانغ كاي تشك في قمع الاضرابات ، والمظاهرات والانتفاضات الفلاحية ؛ لكنهم كانوا يعتقدون ايضاً ان على الشيوعيين ان يبقوا داخل الكيومنتانغ وانه لا يمكن تلك الثورة « البورجوازية » ان تؤدي الى ديكتاتورية البروليتاريا في الصين . كان ذلك موقفاً متناقضاً بحد ذاته وموقفاً انهزامياً ، لأنه ما ان يتم التسليم بأن على الشيوعيين البقاءداخل الكيومنتانغ حتى يصبح من غير المنطقي إطلاقاً التفكير بألا يتحملوا عواقب ذلك .

اكتفى تروتسكي باطلاق تلك المساجلة الجديدة على الأرض المحدودة التي كان زينوفييف وكامينيف ورادك وبريوبراجنسكي وبياتاكوف مستعدين لخوضهاعليها . وخلال الشهور الاولى من العام ، حاول قادة المعارضة أيضاً ان يرتبوا التباينات بينهم ، ولم يتوصلوا إلا حوالى نهاية آذار/مارس إلى ايجاد ارضية مشتركة . حينئذ أبحروا في مشروع جديد وخطر ، وكان تروتسكي يعرف أنه يمكن ان تكون له نهاية كارثية . ففي ٢٢ آذار/مارس ، اليوم ذاته الذي حمل عمال شانغهاي فيه السلاح ودخلت قوات تشانغ كاي

---

٥٦ - انظر مراسلة تروتسكي ، عام ١٩٢٨ ، مع رادك ، وبريوبرا براجنسكي ، في المحفوظات .

تشك المدينة ، كتب تروتسكي في يومياته انه يخشى « أن تجعل اللجنة المركزية من المناقشة مكيدة تكتلية بدل نقاش المشكلات المطروحة نقاشاً جدياً » . مهما يكن ، كان يجب طرح المشكلة لأنه ـ كما قال تروتسكي ـ « كيف يمكن الإخلاد الى الصمت حين يكون رأس البروليتاريا الصينية ، لا اقل من ذلك ، هو المعرض للخطر ؟[٥٧] . »

كانت المعارضة قد اهتمت بالصين في وقت متأخر للغاية ، وبالكثير من التحفظ الذهني ، بحيث ما كان يمكن إلا ان تضعف اهمية انتقاداتها منذ البدء بنتيجة ذلك . فالسياسة التي ستؤدي في الاسابيع القليلة اللاحقة إلى كارثة كان يجري تطبيقها منذ ثلاث سنوات . وكان يستحيل عملياً قلبها في مدى اسبوعين او ثلاثة اسابيع . ففي اللحظة ذاتها التي كان يقرر تروتسكي فيها انه لا يمكن السكوت حين يكون رأس البروليتاريا الصينية معرضاً للخطر ، كان ذلك الرأس يسقط تحت ضربات تشانغ كاي تشك . لذا حين فضحت المعارضة ستالين وبوخارين كالمسؤولين الاساسيين عن المجزرة ، سأل هذان المعارضة ، في شكل جواب ، اين كانت ولماذا بقيت صامتة في السنوات الثلاث الطويلة تلك[٥٨] . ولمّحا ، ليس من دون بعض ظاهر الحق ، ان استنكار اولئك الذين كانوا يهاجمونها مصطنع ، وان المعارضة سعت فقط الى خلق سبب للنقاش وتشبثت بالمسألة الصينية « مثلما يتشبث رجل على وشك الغرق بقشة رفيعة» . وما كان يمكن القول إن تلك الاجوبة لم تكن مستحَقّة إطلاقاً . ثم أبرز ستالين تناقضات موقف المعارضة واستغل لمصلحته الخلافات بين تروتسكي ورفاقه . لكن يبقى أن انتقادات المعارضة ، مهما تكن متأخرة وخجولاً ، كان لها ما يبررها . أما تروتسكي فبذل كل ما لديه من شجاعة وطاقة ، خلال تلك الاسابيع الحاسمة ، ويوماً بعد يوم ، لأجل الحصول على مراجعة كلية لتلك السياسة . جاءت تحليلاته للوضع ذات وضوح ما بعده وضوح ، ورنت تشخيصاته التي لا تخطىء وتحذيراته كأجراس الانذار .

لا يمكن للأجيال اللاحقة إلا أن يُذهلها الادعاء والعناد المؤذيان اللذان أصمّت الكتلتان الحاكمتان بهما أذنيهما خلال تلك الاسابيع وفي ما تبقى من العام ، فيما كان الوضع في الصين يتطور بسرعة بالغة وتروتسكي يحاول دون ملل أن يدفعهما لأن تنقذا على الاقل حطام الحركة الشيوعية الصينية . لكنهما صدّتا اقتراحاته في كل المرار ، بناء على حساب سياسي ، من جهة ، ولأنهما كانتا تريدان البرهان على ان تروتسكي مخطىء ، من جهة

---

٥٧ ـ المحفوظات . ٥٨ ـ ستالين ، سوشينيا ، ج ١٠ ، ص ١٧ ، ٢١ ، ٢٥ ، وغيرها .

اخرى . وحين اعطته الحق الاحداث ، المتمثلة بسلسلة من الكوارث اندفعنا بجنون ، ومع ذلك من دون الكثير من الاقتناع ، في الجهة التي كان أوصى بها لكن التي كان فات الاوان كلياً لاعتمادها . وكما لو لم يتغير شيء ، حاولت الكتلتان ان تبررا نفسيهما عن طريق إدانة التروتسكية وتحميلها وزر الاخطاء والتجاوزات .

لن يكون في غير محله ان ندرس هنا ، على الاقل ، بعض مداخلات تروتسكي في تلك الفترة . ففي رسالة الى المكتب السياسي ، يوم ٣١ آذار/مارس ، وبعد الشكوى من انه لم يتمكن من الحصول على تقارير المستشارين السوفيات ومبعوثي الكومنترن ، شرح كيف ان ظهور الحركة العمالية والشيوعية في الصين هو الظاهرة الاساسية في تلك الفترة من الثورة . وسأل : لماذا لم يطلب الحزب الى العمال ان ينتخبوا سوفييتات ، على الاقل في المراكز الصناعية الرئيسية كشانغهاي وهانكاو ؟ لماذا لم يشجع الثورة الزراعية ؟ لماذا لم يسع لإرساء تعاون أوثق بين العمال والفلاحين الثائرين ؟ ذلك أن هذا وحده ـ حسبما قال ـ كان يمكن أن ينقذ الثورة التي كانت قد اصبحت مهددة بانقلاب عسكري مضاد للثورة .

بعد ذلك بثلاثة أيام ، في ٣ نيسان/ابريل ، هاجم افتتاحية لصحيفة الاممية الشيوعية ، التي كانت تقول إن المخرج الحاسم في الصين يتمثل بـ « التطور اللاحق للكيومنتانغ[٥٩] . وقد رد على ذلك بقوله إن ذلك بالضبط هو ما لا يمكن اعتباره المخرج الحاسم . فالكيومنتانغ لم يكن قادراً على قيادة الثورة الى النصر . كان على العمال والفلاحين ان ينتظموا بصورة بالغة الالحاح في مجالسهم . ومن الصباح الى المساء ، كان تروتسكي يحتج على خطب لكالينين وروتزوتاك وآخرين ، كانوا يزعمون ان كل طبقات المجتمع الصيني « تعتبر الكيومنتانغ حزبها وستقدم لحكومة الكيومنتانغ دعمها الكامل » وفي ٥ نيسان / ابريل ، اي قبل اسبوع من مذبحة شانغهاي ، شرح بالصورة الأكثر وضوحاً كيف ان تشانغ كاي تشك في طور الاعداد لانقلاب بونابرتي أو فاشي ، وأن مجالس العمال وحدها هي القادرة على افشال ذلك . إن هكذا مجالس ، أو سوفييتيات ، ستلعب قبل كل شيء دور الموازن لادارة الكيومنتانغ لتصبح ، بعد فترة « ازدواجية سلطة » ، ادوات للانتفاضة والحكومة الثورية . وفي ١٢ نيسان/ ابريل ، اليوم ذاته الذي تمت فيه مجزرة نيسان ، كتب تروتسكي دحضاً قاسياً لمقال يمتدح الكيومنتانغ ظهر في البرافدا ـ إن كاتب ذلك المقال ، مارتينوف ،

---

٥٩ ـ كومونيستيشسكيي انترناشيونال ، ١٨ آذار/مارس ١٩٢٧ .

الذي كان خلال عشرين عاماً منشفياً من اقصى اليمين ولم ينضم الى الحزب الشيوعي الا بعد سنوات من الحرب الأهلية ، كان يبرز الآن كقيادي لامع في الكومنترن . وفي الأيام التالية ، كتب تروتسكي الى ستالين يسأله ، مرة اخرى ودون جدوى ، الاطلاع على التقارير السرية حول المسألة الصينية . ومن قبيل الغرابة البشعة ، ان السكريتاريا الشرقية للكومنترن دعته في ١٨ نيسان/ ابريل ، اي بعد اسبوع من مجزرة شانغهاي ، لكتابة اهداء ، كما فعل قادة سوفيات آخرون ، على صورة مرسلة لتشانغ كي تشك كعربون صداقة . ولقد رفض تروتسكي ولم يُخْفِ احتقاره وغضبه تجاه موظفي الكومنترن والذين اوحوا اليهم بتلك الأفكار[٦٠] .

في تلك الفترة وصلت الانباء الاولى عن مجزرة شانغهاي الى موسكو . كانت مرافعات ستالين وبوخارين لا تزال حاضرة في ذاكرة الجميع . ولحسن حظهما أن انتقادات المعارضة لم يعرف بها الجمهور ؛ لم يكن هنالك غير بعض كادرات الحزب وموظفي الكومنترن والطلاب الصينيين في موسكو على علم بالمساجلة . ولقد بذل ستالين وبوخارين كل ما في وسعهما للتقليل من اهمية الاحداث وتصويرها كوجه عرضي سيء من وجوه الثورة الصينية[٦١] . الا انهما اضطرا مع ذلك لتعديل سياستهما . فلما كان التحالف مع تشانغ كاي تشك قد فشل ، اعطيا تعليمات للشيوعيين الصينيين كي يتقربوا اكثر ما يمكن من «يسار الكيومنتانغ» ، اي من حكومة ووهان بقيادة وانغ شينغ - واي . كان الجناح اليساري في الكيومنتانغ على خلاف آنذاك مع تشانغ كي تشك ، وكان بأمس الحاجة لدعم الشيوعيين . ولقد منحت موسكو ذلك الدعم باندفاع وحماس ووعدت بأن يمتنع تشن توسيو ورفاقه ، كما في السابق ، عن كل « استفزاز » ثوري ويخضعوا لنظام وانغ تشينغ - واي[٦٢] .

اعلن تروتسكي أن السياسة الجديدة لم تكن غير تكرار على مستوى اصغر لاخطاء السياسة القديمة . كان ينبغي تشجيع الشيوعيين على الاقل على تبني سياسة دينامية ، وعلى تشكيل مجالس عمال وفلاحين وان يدعموا بكل قواهم الفلاحين الثائرين في جنوبي الصين ، حيث لم يعد تشانغ كاي تشك قادراً على فرض قوانينه لكن حيث كان لا يزال بامكانهم هم ان يتحركوا ويعملوا . وفي الحقيقة ان تروتسكي كان يعتبر ان إمكانات عمل

---

٦٠ - انظر المحفوظات .

٦١ - ستالين ، سوش . ، ج ٩ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ وغيرهما .

٦٢ - انظر «اطروحات» ستالين في سوش . ، ج ٩ ، ص ٢٢١ . تبنى ح . ش . ص . هذا الموقف رغماً عنه في مؤتمره بنيسان/ابريل . انظر «الرسالة المفتوحة» لتشن توسيو .

ثوري محدودة للغاية ، فالضربة التي وجهها تشانغ كاي تشك لشانغهاي كانت تشكل ، رغم جهود الحكومة لتقليل اهميتها ، « انزلاقاً حاسماً » من الثورة الى الثورة المضادة ، لا سيما ان القوى الثورية للمدن قد تم « سحقها » . لكن تروتسكي كان يعتقد أيضاً ان تشانغ كاي تشك لم ينجح في تحطيم التمردات الزراعية المشتتة وغير الممكن حصرها ، وان صراع الفلاحين للاستيلاء على الاراضي سيتواصل ، وان ذلك الصراع يمكن ان يسمح ، في الوقت المناسب ، بانبعاث للثورة في المدن[٦٣] . كان على الشيوعيين توجيه كل طاقاتهم لدعم الحركات الزراعية ، لكن لأجل ذلك كان يجب ان يقطعوا كل علاقة لهم بالكيومنتانغ ، اليساري كما اليميني ، وان يسعوا لبلوغ أهدافهم الخاصة بهم . حول هذه النقطة ، انفصل الزينوفييفيون من جديد عن تروتسكي . كانوا يفضلون أن يستمر الحزب الصيني كجزء من الكيومنتانغ اليساري ، في الوقت الذي يواصل فيه سياسة مستقلة ، معارضة لسياسة وانغ شينغ - واي . ولقد ناقشت المعارضة هاتين الأطروحتين وجرى شرحهما في إعلانات عديده لم تر النور أبداً .

إن عودة المعارضة الى الهجوم بصدد السياسة الصينية دفعت التكتلين الحاكمين إلى التحرك المحموم ، فلقد كانا في وضع حرج : لم تظهر سياستهما بذلك القدر من البطلان واللا جدوى في يوم من الايام من قبل ، ولم يفقد قادتهما حظوتهم بتلك الدرجة من المهانة والسخرية . وحوالى الفترة ذاتها اصيبت سياستهما بفشل جديد ، اقل اهمية بكثير طبعاً ، لكنه اضاف إلى حرجهما حرجاً . فالمجلس الانكليزي - السوفياتي انهار ، إذ فضحه القادة النقابيون الانكليز ونددوا به . وتوترت العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي توتراً شديداً ، فزال أمل كبير آخر من آمال السياسة السوفياتية وتبدد كلياً . لكن التكتلين الحاكمين استغلا مع ذلك تلك الهزيمة لصالحهما ، إذا انها ساعدتهما في حرف الانتباه عن الصين وايقاف كل نقاش . استحضرا شبح الحرب والتدخل من جديد ، وخلقا نوعاً من العصاب الجماعي ، ومناخاً من الخوف والقلق القوميين بحيث جعل ذلك من اسهل الامور اتهام المعارضة بانعدام الشعور الوطني . شهر ستالين سوطه ، واطلق تهديدات جديدة بالطرد واستخدم كل وسائل الضغط الادبي لإسكات نقاده . وبطلب منه ، رجت كروبسكايا زينوفييف وكامينيف بألا يصنعا « فضيحة بصدد الصين » وبأن يتذكرا بانه يمكنهما ان يجدا نفسيهما « ينتقدان الحزب من الخارج » . أما المعارضة فكانت تريد تحاشي « الفضيحة » ، فاقترح تروتسكي وزينوفييف جمع اللجنة المركزية ، واطلاق

---

٦٣ - انظر «الوضع في الصين بعد ضربة تشانغ كاي تشك وآفاقه» (المكتوب في ١٩ نيسان/ابريل ١٩٢٧) ، المحفوظات .

نقاش سري فيها بصدد الخلافات الحالية ، دون أن يجري نشر مضمون النقاشات ، حتى في النشرة السرية التي كانت اللجنة المركزية توزعها على « النشاطيين » . لكن ستالين لم يكن يريد اي نقاش ، حتى لو كان سرياً ، وقد رفض المكتب السياسي دعوة اللجنة المركزية للانعقاد[٦٤] .

في الاسبوع الاخير من ايار/مايو ، فرض تروتسكي النقاش خلال دورة للهيئة التنفيذية للكومنترن . احتكم للاممية ضد الحزب الروسي ، وهو ما كان له الحق في ان يفعله . فالهيئة التنفيذية للأممية كانت نظرياً محكمة الاستئناف التي يمكن لكل مناضل شيوعي أن يدعي أمامها على حزبه . لكن البرافدا نددت مسبقاً بهذا الاستئناف الذي وصفته بأنه عمل غدر وعدم انضباط . ولقد استنحت المعارضة ذلك فرصةً لتقديم نقد شامل لكل السياسة الروسية ، الداخلية والخارجية ، في آسيا وفي أوروبا ولتقوية موقعها وصون نفسها من هجمات محتملة ، أو كما قال تروتسكي « لتوزيع الضربة المتوقعة على عدد كبير من الأشخاص . نظمت المعارضة مظاهرة سياسية شبيهة بمظاهرة الستة والأربعين عام ١٩٢٣ . عشية افتتاح الدورة، أكدت مجموعة من ٨٤ عضواً مرموقاً في الحزب اتفاقها التام مع اطروحات تروتسكي وزينوفييف[٦٥] . ولم يكن في وسع ستالين ان يتخذ عقوبات فورية ضد تروتسكي وزينوفييف ، دون أن يشمل بها الأربعة والثمانين ، ثم الثلاثمئة الذي وقّعوا بيان التضامن . لكن تلك المبادرة المشتركة والمنظمة سمحت لستالين بالاعلان ان المعارضة نكثت بتعهداتها ونظمت نفسها من جديد في تكتل[٦٦] .

---

٦٤ ـ في ٧ أيار/مايو كتب تروتسكي رسالة الى كروبسكايا . فلما كان جرحه حديثها عن «الفضيحة بصدد الصين» ، سألها ان لا تتملص من مشكلة بتلك الخطورة . من على حق ، ستالين أم نحن؟» . ذكّرها بكل ما فعلته المعارضة للحصول على نقاش سري للشؤون الصينية ، وذكّرها ايضاً بانها وقفت حتى وقت غير بعيد إلى جانب المعارضة لمكافحة فظاظة ستالين وغدره . فهل تحسن نظام ستالين منذ ذلك الحين ؟ لقد توجه الى ارملة لينين ، كرجل مجروح وخائب ، لكن دون أن يفقد شيئاً من حرارته . كانت تلك الرسالة بمعنى ما رسالة الوداع لكروبسكايا؛ ولقد تردد في صوغ نهاية رسالته : «اتمنى لك من كل قلبي صحة جيدة واتمنى أيضاً ان ... تثقي ... بنزاهة هذاالخط الذي ... .» وهنا شطب ، ثم كتب ثانية ، ثم شطب ايضاً السطرين الاخيرين . مسودة الرسالة موجودة في المحفوظات .

٦٥ ـ تجري احيانا تسمية هذه الوثيقة بإعلان الـ ٨٣ ، واحيانا باعلان الـ ٨٤ . جرى تقديمها للجنة المركزية في ٢٣ و ٢٦ ايار/مايو . وفيما بعد وقّعها ٣٠٠ شخص .

٦٦ ـ انظر رسالة تروتسكي في ١٢ تموز/يوليو ١٩٢٧ ، الموجهة الى احد قادة المعارضة الذي كان يشغل منصباً دبلوماسياً في الخارج (كريستنسكي او انطونوف ـ اوفسينكو) . كان المرسلة اليه يعتقد ان بادرة الـ ٨٤ تسمم الصراع دون ادنى ضرورة . وقال تروتسكي انه كان هنالك في موسكو أيضاً معارضون وجهوا انتقادات مماثلة ، لكنهم وقفوا الى جانب البادرة لأنها كانت تشكل تدبيراً من تدابير الحماية . اما تروتسكي فلم يكن يعتقد ان الوضع سيتفاقم لأن المعارضة عبرت عن رأيها . كان يعتقد ان مراسله الذي كان غائباً منذ =

في ٢٤ ايار/مايو تكلم تروتسكي امام الهيئة التنفيذية للكومنترن . ومن سخرية الاقدار أن كلماته الأولى كانت احتجاجاً على الطريقة التي عاملت بها الهيئة زينوفييف ، رئيس الاممية سابقاً ، الذي سبق ان اتهمه ، هو تروتسكي ، امام الهيئة المذكورة قبل وقت غير بعيد . وفي الواقع ان زينوفييف لم يعد مقبولاً الآن حتى أن يشارك في اجتماعات الهيئة التنفيذية . تكلم تروتسكي على « الضعف والبلبلة الادبية » لدى ستالين وبوخارين اللذين لم يكونا يجرؤ ان على ان يكشفا للاممية الحقيقة بصدد المسألة الصينية ولا أن ينددا باستئناف المعارضة كعمل اجرامي . كان على الهيئة التنفيذية ان تنشر مناقشاتها ؛ « لا يمكن أن يغلـق في صندوق محكم على مشكلات الثورة الصينية » . وكان على الهيئة التنفيذية أن تعي الاخطار التي ينطوي عليها « نظام » للأممية منسوخ عن نظام الحزب الروسي . كان بعض القادة الشيوعيين الاجانب يجدون المعارضة غير محتملة ، ويتصورون ان الحزب الروسي والاممية قد يستعيدان حياة طبيعية إذا جرى إقصاء تروتسكي وزينوفييف عنها ، وكانوا يخدعون بذلك أنفسهم . « ان العكس هو الذي سيحصل . . . . فالطريق المسلوكة الآن لا يمكن أن تخبىء إلا صعوبات جديدة وتمزقات اخرى . » لم يكن أحد في الاممية يجرؤ آنذاك على المبادرة الى الكلام ، خوفاً من ان تضر خطبه او انتقاداته بالاتحاد السوفياتي . لكن لا شيء كان اكثر ضرراً من غياب كل نقد . ولقد برهنت كارثة الصين عن ذلك بوضوح تام . كان ستالين وبوخارين يهتمان خصوصاً بتبرير قراراتها وتغطية اخطائها الكارثية . كانا يعلنان انهما توقعا كل شيء ودبرا امر كل شيء . لكن مع ذلك ، قبل اسبوع فقط من قضية شانغهاي ، كان ستالين قد أعلن في اجتماع للحزب بالكثير من الادعاء ؛ « نريد أن نستخدم البورجوازية الصينية ثم رميها فيها بعد كليمونة حامضة معصورة » . لكن ذلك الحديث بقي سرياً لأنه لم تمر ايام قليلة حتى كانت « الليمونة المعصورة» تستولي على السلطة . ولقد قال تروتسكي إن المستشارين السوفيات ومبعوثي الكومنترن ، وبخاصة بورودين ، كانوا يتصرفون « كما لو كانوا يمثلون نوعاً من « الكومنترن » :

« يمنعون البروليتاريا من ممارسة سياسة مستقلة ، ومن ان تكون لها منظماتها المستقلة ، وخصوصاً من ان تتسلح . السماء تمنع العمال ، الذين يحملون سلاحهم بايديهم ، من ان يرهبوا ويلقوا بعيداً بوهم ثورة قومية تجمع كل طبقات المجتمع الصيني . . . ان الحزب

ـ زمن طويل فقد التماسّ مع الحقائق الروسية وقد دعاه للمجيء والقيام بجولة صغيرة في موسكو ليعرف عن كثب حقيقة المناخ هناك . المحفوظات .

الشيوعي الصيني حزب مقيد بالاصفاد . . . لماذا لم يكن له ، ولا يكون له اليوم صحيفته اليومية ؟ لأن الكيومنتانغ لا يريد ذلك . . . لكن بهذه الطريقة بالذات أمكن إبقاء الطبقة العاملة منزوعة السلاح سياسياً(٦٧) . »

خلال دورة الهيئة التنفيذية ، وصل التوتر بين بريطانيا والاتحاد السوفياتي الى نقطة حرجة : اكتسحت الشرطة البريطانية مكاتب البعثة التجارية السوفياتية في لندن وقطعت الحكومة الانكليزية علاقاتها الدبلوماسية مع روسيا . فاستغل ستالين تلك الاحداث ، وقال في نهاية مداخلته امام الهيئة التنفيذية : «أعترف أمامكم ، ايها الرفاق ، ان تروتسكي اختار لمهاجمتنا وقتاً غير مناسب اطلاقاً . فلقد علمت الآن ان الحكومة الانكليزية المحافظة قررت قطع علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي . وما من حاجة اطلاقاً للبحث عن الحجج للبرهان على ان الهدف المقصود إنما هو حرب صليبية معممة ضد الشيوعيين . هذه الحرب الصليبية قد بدأت. البعض يهددون الحزب بالحرب والتدخل، والبعض الآخر بالانشقاق . نرى طلائع جبهة موحدة من شامبرلن الى تروتسكي . . . وباستطاعتكم ان تتأكدوا أننا ستتمكن من تحطيم هذه الجبهة الجديدة»(٦٨) . وكما كان قد راهن كلياً من قبل على الجناح اليميني في الكيومنتانغ ، راهن بالتصميم ذاته على الكيومنتانغ اليساري : « ينبغي ان يكون المرء أعمى لينكر على الكيومنتانغ اليساري دوره كأداة للنضال الثوري ، واداة للثورة على المخلفات الاقطاعية وعلى الامبريالية في الصين(٦٩) . » وطلب ستالين بالتالي الى المعارضة ان تمتنع عن اي انتقاد وإلا ستجد نفسها متهمة بتقديم العون للعدو.

لم تكن تلك هي المرة الاولى التي يلمِّح فيها ستالين إلى «جبهة موحدة من تشامبرلن الى تروتسكي » . فقبل أشهر ، حصل شيء من ذلك في مقال غير موقّع في البرافدا(٧٠) . لكن للمرة الأولى حل محل التلميح الغامض والغُفْل اتهام واضح ومباشر . هوذا رد تروتسكي :

«سيكون طبعاً من العبث الاعتقاد ان تتخلى المعارضة عن افكارها . . . لقد قال ستالين ان المعارضة تنتمي إلى الجبهة ذاتها التي ينتمي اليها تشامبرلن

---

٦٧ ـ تروتسكي ، مشكلات الثورة الصينية ، ص ٩١ ـ ٩٢ .

٦٨ ـ ستالين ، سوش ، . ج ٩ ، ص ٣١١ ـ ٣١٢ .

٦٩ ـ المرجع ذاته ، ص ٣٠٢ .

٧٠ ـ تضم المحفوظات مسودة احتجاج شديد اللهجة وجهه تروتسكي الى المكتب السياسي ، وكان كتبه في ٦ كانون الثاني/يناير ١٩٢٧ . وقد وجده زينوفييف عنيفاً جداً من حيث الشكل واقترح رسالة اخرى ترجو المكتب السياسي ان يدافع عن المعارضة ضد الافتراآت .

وموسوليني . . . ورداً على ذلك اقول : لا شيء سهَّل مهمة تشامبرلن اكثر من سياسة ستالين الضالة ، لا سيما في الصين . . . لن يكون هناك عامل شريف واحد يصدق الاهانة الشائنة والعبثية التي تمثلها قصة الجبهة الموحدة من تشامبرلن إلى تروتسكي . »

ورداً على المديح الستاليني للكيومنتانغ اليساري قال تروتسكي :

«يفترض ستالين ويريد أن تتحمل الاممية مسؤولية سياسة الكيومنتانغ وحكومة ووهان ، كما لم يتوقف عن تحمل مسؤولية سياسة . . . تشانغ كاي تشك . اما نحن فلا شيء يجمعنا بكل ذلك . نرفض ان نتحمل حتى ظلاً من المسؤولية عن سلوك حكومة ووهان وقيادة الكيومنتانغ ، وندعو الكومنترن بإلحاح لرفض هكذا مسؤولية . نقول مباشرة للفلاحين الصينيين : إن قادة الكيومنتانغ اليساري . . . سوف يخونوكم حتماً إذا سرتم خلفهم . . . بدل ان تشكلوا سوفياتـاتكم الخاصة بكم . . . سوف يتوحدون عشر مرات مع تشانغ كاي تشك ضد العمال والفلاحين[71] . »

كانت النقاشات لا تزال تتواصل في الكرملين حين صحت توقعات تروتسكي في اقصى جنوبي الصين . ففي ايار/مايو تم «انقلاب تشان ـ شا » . بدأت حكومة ووهان بدورها ضرب النقابات وارسلت فرقاً تقمع الانتفاضات الفلاحية وتهاجم الشيوعيين . وخلال ما يقارب الشهر لم تذكر الصحف السوفياتية شيئاً عن تلك الاحداث[72] . جاءت قرارات الهيئة التنفيذية ، التي أملاها ستالين وبوخارين ، قديمة بصورة ساخرة ومضحكة حتى قبل ان يجري نشرها . وسارع ستالين الى توجيه تعليمات جديدة الى الحزب الصيني . تلقى هذا ايضاً امراً بالبقاء داخل الجناح اليساري من الكيومنتانغ وبالاستمرار في دعم حكومة ووهان ، لكن كان عليه الاحتجاج على استخدام الجيش لسحق التمردات الفلاحية وإرضاء حكومة ووهان بكبح الحركات الزراعية عن طريق ضمان دعم مجالس الفلاحين بدل اللجوء الى العنف المسلح . ومع ذلك استمر الكيومنتانغ اليساري في طرد الشيوعيين من صفوفه . وخلال شهري حزيران/يونيو وتموز/يوليو ، تعمّقت الهوة بين الطرفين ، في حين كان يجري اعداد مصالحة بين الكيومنتانغ اليساري وتشانغ كاي تشك .

---

٧١ ـ المحفوظات : مشكلات الثورة الصينية ، ص ١٠٢ ـ ١١١ .

٧٢ ـ جرى اعلام قادة المعارضة بذلك بواسطة نشرة سرية لوكالة الصحافة السوفياتية .

وللحال جرى الشعور بانعكاسات ذلك في موسكو . ففي كل يوم تقريباً ، كان تروتسكي يقف بمواجهة الرقابة على الأنباء . وطالب زينوفييف أن تحاكم محكمة حزبية بوخارين ، رئيس تحرير البرافدا والمسؤول إذاً عن تلك الرقابة الكلية . وانضم رادك وزينوفييف أخيراً الى تروتسكي مطالبين بانسحاب الشيوعيين من الكيومنتانغ اليساري . لكن كان ذلك الآن متأخراً ؛ فبما ان هذا الأخير قطع من جانبه علاقته بالشيوعيين ، حتى ستالين ما كان بإمكانه الا ان ينصح هؤلاء بالقطع مع الكيومنتانغ . . .

كان ستالين بدأ يستعد للقيام بأحد انعطافاته السياسية الرئيسية وللاندفاع نحو « تطرف يساري » سيؤدي حوالى نهاية العام ، وفي حين كانت الحركة الثورية الصينية في حالة انحسار قصوى ، إلى تنظيم ح . ش . ص . انتفاضة كانتون الدامية وغير المجدية . ففي تموز/يوليو ، استدعى ستالين بورودين وروي من الصين وأرسل لوميناذزي ، سكرتير الكومسومولات ، وهانز نيومان ، الشيوعي الالماني ، وكان كلاهما جاهلاً بالقضايا الصينية ، وتجتذبه طريقة « الانقلابات » ، وذلك لتنفيذ انقلاب في الحزب الصيني . فوصما تشن تو- سيو ، منفذ أوامر ستالين وبوخارين على مضض ولكن بصدق ، بأنه «الانتهازي » القبيح في القضية والمسؤول عن كل الاخفاقات .

وفي الداخل ، استمر ستالين يلعب على اخطار الحرب والهجمة الصليبية المعادية للشيوعية وكثف صراعه ضد المعارضة . وقد ارسل العديد من قيادييها الى الخارج بذريعة الحاجة اليهم في مهمات دبلوماسية عديدة . فبياتاكوف وبريوبراجنسكي وفلاديمير كاسيور مضوا ينضمون الى راكوفسكي في السفارة بباريس . وعيّـن كامينيف سفيراً في روما موسوليني : ما كان بالامكان تصور تعيين اكثر إذلالاً وإيلاماً بالنسبة لرئيس المكتب السياسي سابقاً . وجرى إرسال انطونوف - اوفسينكو الى براغ ، وسافاروف ، القيادي الزينوفييفي للكومسومولات الى القسطنطينيّة ؛ وأرسل آخرون الى النمسا والمانيا وفارس واميركا اللاتينية . هكذا جرى تشتيت المجموعة القيادية في المعارضة في أطراف العالم . وواحداً بعد الآخر ، تم فصل الـ ٨٤ وانزال العقاب بهم ، وبحجة تنقيلات ادارية تم إرسالهم الى مقاطعات بعيدة . وإذا جرى النزول في الهرم ، فلاحظ ان القمع اتخذ اشكالاً اكثر انكشافاً وأشد فظاظة بكثير : تم طرد المناضلين العاديين وإرسالهم إلى مناطق مجهولة ، من دون أي مبرر .

أثار ذلك سخط المعارضة ، وقد حاولت ان تدافع عن نفسها واحتجت ضد تلك

الاشكال المموّهة من النفي والابعاد ، لكن ذلك كان بلا جدوى .فالكتلتان الحاكمتان كانتا تعتبران كل محاولة للدفاع عن النفس من جانب المعارضة جريمة جديدة تستحق اعمال انتقام جديدة . فأقل احتجاج كان يتم تلقّيه كعصيان شرير ، وأي صرخة او حتى شكوى لطيفة كدعوة الى التمرد . فالستالينيون كما البوخارينيون بذلوا كل ما لديهم من جهد منهجي لتشويه نوايا المعارضة وتصوير مساعيها الأكثر وجلاً كتحديات مسعورة ، بحيث ان الحركات الاشد خجلاً انتهت الى ان تشكل تحديات حقيقية ، واقل المطالبات علامات عنادٍ شرس في العصيان ، ودوت التمتمات في الصمت المعمم كالطبل الداعي إلى الثورة . كان يمكن الآن لأقل حادث ان يثير الانفعالات الاشد غضباً لدى الكتلتين الحاكمتين ، وان يدفع بها الى أوج السخط والغيظ ويهز الحزب والحكومة بكاملها كما قد يفعل الاعصار .

تلك هي النتيجة التي تسببت بها « المظاهرة في محطة ياروسلاف » . ففي منتصف حزيران/يونيو ، تلقى سميلغا الامر بمغادرة موسكو ليمضي فيشغل منصبه الجديد في خاباروفسك ، على حدود منشوريا . وسميلغا الذي كان قائداً لاسطول البلطيق خلال ثورة اوكتوبر ، ومفوضاً سياسياً مرموقاً خلال الحرب الاهلية ، واختصاصياً في القضايا الاقتصادية ، كان احد القادة الأكثر شعبية والاكثر مدعاة للاحترام ضمن كتلة زينوفييف . وفي يوم رحيله انطلق عدة آلاف من المعارضين والمتعاطفين الى محطة ياروسلاف ليتظاهروا ضد النفي المقنّع الذي كان ضحيته . كان الجمهور غاضباً ، وكانت المظاهرة لم يسبق لها مثيل . وقد جرت في مكان عام ، وسط حركة مرور تفرع كبير لسكك الحديد . اندمج مسافرون وعابرون وأناس كثيرون لا ينتمون للحزب مع المتظاهرين ، واصغوا الى الملاحظات القارصة حول قادة الحزب والى هتافاتهم وصيحاتهم ، وأصغوا كذلك الى خطابي زينوفييف وتروتسكي . كل تلك الظروف التي جعلت من وداع سميلغا أول مظاهرة علنية للمعارضة ضد الجماعة الحاكمة ، وان كانت غير ناجمة عن سبق تصور وتصميم إلا بصورة جزئية . وقد فهم تروتسكي ان الوضع شائك فاكتفى بخطاب متحفظ وبقي ضمن العموميات . لم يشر اطلاقاً الى النزاع داخل الحزب ، ولا حتى الى سبب المظاهرة ، بل تحدث برصانة عن التوتر العالمي ، وخطر الحرب ، وعن الاخلاص الذي ينبغي ان يكنه كل بلشفي جيد وكل مواطن جيد للحزب .

ومع ذلك فقد اتهمت الجماعة الحاكمة تروتسكي وزينوفييف بأنهما سعيا لنقل النزاع من داخل الحزب الى خارجه . وهكذا اقدمت الخلايا التي ينتمي اليها المناضلون

القاعديون المعارضون ، الذين شاركوا في المظاهرة في محطة ياروسلاف ، على طردهم منها دون ضجيج . وقد دام الهيجان الذي تسببت به الحادثة طوال الصيف ، في حين كانت حالة ذعر عام تدفع السكان إلى التزاحم أمام مخازن الاغذية .

« إنها أخطر أزمة منذ الثورة » ، هذا ما كتبه تروتسكي الى اللجنة المركزية ، في ٢٧ حزيران/يونيو(٧٣) . فالبلاد ، حسبما قال ، فريسة هُواس حرب ستكون عواقبه خطيرة جداً . فإذا كانت اللجنة المركزية مقتنعة حقاً بأن ثمة خطر حرب وشيكاً بالدرجة التي يحاول المحرضون الحزبيون أن يقنعوا الناس بها ، فذلك سبب اضافي كي تبادر الى مراجعة سياستها ، وتعيد العلاقات العادية إلى حياة الحزب الداخلية ، اي « النظام اللينيني » . وسوف تكون هنالك في أقرب وقت مناسبة للقيام بتلك المراجعة : فاللجنة المركزية تعد حالياً لمؤتمر جديد للحزب ، فلماذا لا تعده بفتح نقاش عام حر حقاً يدعى للمشاركة فيه كل اعضاء المعارضة الذين جرى اقصاؤهم او نفيهم عملياً ؟ لكن لم تكد رسالة تروتسكي تصل الى المرسلة اليها ، حتى عادت الصحافة تهاجم تواطؤ المعارضة مع الامبرياليين الاجانب . غداة ذلك ، توجه تروتسكي بالكلام من جديد الى اللجنة المركزية فقال بين ما قال إن ستالين قرر بوضوح تصفية المعارضة جسدياً : « إن الطريق التي سيتبعها الستالينيون متوقعة بقدر ما هي محتومة . اليوم يزوّرون كلامنا ، وغداً سيزوّرون فعالنا » . « ستجد الجماعة الستالينية نفسها مضطرة ، وفي مهلة قصيرة جداً ، الى ان تستخدم ضد المعارضة الوسائل نفسها التي استخدمها عدونا الطبقي ضد البلاشفة في تموز / يوليو ١٩١٧ . » في تمرز / يوليو ١٩١٧ « شهر النميمة الكبرى . . . » اضطر لينين للهرب من بتروغراد ؛ كان الأمر يتعلق بـ « عربات مختومة » ، و« ذهب اجنبي » ، ومؤامرات ، الخ . « تلك هي الطريق التي ستؤدي اليها الستالينية ، الى طرق من هذا النوع وكل ما يترتب عليها من عواقب . ينبغي ان يكون المرء اعمى كي لا يرى ذلك ، وفريسياً كي لا يعترف بذلك(٧٤) » .

أجاب ستالين بغضب شديد قائلاً إنه لا يسعى إطلاقاً لتصفية معارضيه . لكن لم يمر وقت طويل حتى قرر جلب قادة المعارضة امام اللجنة المركزية ولجنة المراقبة المركزية اللتين كانتا تشكلان مجتمعتين محكمة الحزب العليا . كان أمامهما طلب بطرد زينوفييف

---

٧٣ ـ المحفوظات .

٧٤ ـ المحفوظات . كانت ترعب الزينوفيفيين فكرة ان المقصلة قد تقطع رؤوسهم ، اوانهم كانوا غير مصدقين لدرجة انهم توسلوا الى تروتسكي كي يلطف لهجة انذاره .

وتروتسكي من اللجنة المركزية ؛ وكان الطرد من اللجنة المركزية العقاب ما قبل الاخير ، إذ ان العقاب الاخير كان الطرد من الحزب . من حيث المبدأ ، فقط المؤتمر الذي انتخب اعضاء اللجنة المركزية كان يمكنه ان يسحب منهم مقعدهم، لكن حظر التكتل عام ١٩٢١ اعطى كذلك هذه السلطة الى محكمة الحزب العليا • هذه المحكمة كانت مخولة ، خلال الفترة التي تفصل مؤتمرين ، ان تقصي الاعضاء الذين اخلوا بمبدأ حظر التكتلات . وحوالى نهاية حزيران/يونيو قدم يا روسلافسكي وشكيرياتوف شكوى ضد قائدي المعارضة ، لم تكن تذكر إلا سببين : احتكام المتهمين ضد الحزب الروسي الى الهيئة التنفيذية للاممية ، ومظاهرة محطة ياروسلاف . وقد كانت التهمتان تافهتين لدرجة ان المحكمة المشكلة من ستالينيين وبوخارينيين متحمسين لم تتمكن ، خلال اربعة اشهر ، من ان تجد ارضية كافية لاصدار حكم .

تلك المحاكمة التي طال أمدها جعلت صبر ستالين ينفد . كان يريد مهما يكن الثمن ان ينتزع حكماً بالطرد قبل افتتاح المؤتمر الخامس عشر . فطالما كان قائدا المعارضة لا يزالان يحتفظان بمقعديهما في اللجنة المركزية ، كانا مخولين ، بحكم الوكالة المعطاة لهما ، ان يقدما للمؤتمر نقداً عاماً للسياسة الحكومية ، لا بل أن يطرحا تقارير رسمية مضادة ، كما سبق أن فعل زينوفييف وكامينيف في المؤتمر السابق . كان يمكنهما إذاً كشف كل الحقيقة حول القضية الصينية وأن يجعلا منها الموضوعة المركزية لنقاش عام تستمع اليه البلاد عامة والعالم اجمع . ولم يكن ستالين قادراً على السماح لنفسه بتلك المخاطرة : لذلك السبب ولاسباب اخرى ايضاً ـ اضطر كذلك تحت ضغط الاحداث الى ان يعطي توجهاً جديداً للسياسة الداخلية ، وكان ذلك طريقة ضمنية للاعتراف باخطائه ـ كان مضطراً لمنع تروتسكي وزينوفييف من الصعود الى منبر المؤتمر . لذا كان عليه أن يستحصل على طردهما من اللجنة المركزية . فإذا تم الطرد ، يمكن ان يضمن ستالين تحمس المؤتمر لقضايا الحزب الداخلية اكثر بكثير مما للكارثة الصينية ومشكلات اخرى تتعلق بالسياسة العامة ؛ واذا تمكن قادة المعارضة من الظهور في المؤتمر ، فهم لن يستطيعوا ذلك الا من موقع المدانين المطالبين بمراجعة حكم مشين . كان موعد انعقاد المؤتمر في تشرين الثاني/نوفمبر ، ولم يكن يمكن ستالين ان يضيع دقيقة واحدة .

في ٢٤ تموز/يوليو مثل تروتسكي للمرة الأولى امام بريزيديوم لجنة الرقابة المركزية . قبل ذلك التاريخ بخمسة أعوام ، كان هو ، تروتسكي ، الذي لعب دور المدعي العام ، ضمن المحكمة ذاتها ، في الدعوى ضد المعارضة العمالية . وكان يرئس تلك المحكمة

سولز ، وكان بلشفياً قديماً ، بلشفيا محترماً كان يدعى احياناً ، ايام لينين، « ضمير الحزب » . سولز هذا بالذات كان اليوم احد قضاة تروتسكي الستالينيين . اما الرئيس فكان اورجو نيكيدزه ، ذا المزاج المحتدم ، لكن الشريف والشهم على طريقته ، اورجو نيكيدزه ، مواطن ستالين وصديقه ، الذي كان طرده لينين من الحزب بسبب سلوكه في جيورجيا عام ١٩٢٢ ، لولا تدخل تروتسكي لصالحه[٧٥] . وكان ياروسلافسكي وشكيرياتوف ، موجها الاتهام لتروتسكي ، عضوين في البريزيديوم . كان هنالك ايضا بين القضاة ، واحد يدعى يانسون كانت لجنة الرقابة وجهت اليه في الماضي لوماً بسبب حماسه المتطرف المعادي للتروتسكية . وكان باقي هيئة المحلفين يضم أعمدة آخرين موثوقين للتكتلين الحاكمين . ولم يكن في وسع تروتسكي الاعتماد على دراسة غير متحيزة لقضيته . لذا بدأ بفضح تحيز الهيئة وبالطلب ان يجري استبعاد يانسون على الاقل . ومع ذلك ، حتى اولئك الرجال لم يرتدوا لباس القضاة إلا على مضض ، وبنوع من القرف . مثلهم مثل المتهم ، رجعت بهم افكارهم إلى الثورة الفرنسية ، وكانت تحاصرهم ذكريات التطهيرات اليعقوبية . بعد مئة وثلاثين عاماً ، كانت صيحة دانتون المحكوم بالموت تدوي بصورة مشؤومة في اذنيهم : « بعدي ، سيأتي دورك ياروبسبير ! » .

قبل افتتاح المناقشات بقليل ، ناقش سولز أحد رفاق تروتسكي وحاول إقناعه بدور المعارضة المشؤوم : «إلى أين يؤدي هذا ؟ أنت تعرف تاريخ الثورة الفرنسية : لقد قاد ذلك آنذاك إلى الاعتقالات والمقصلة . فأجاب المعارض : « هل تنوون قطع رؤوسنا على المقصلة ؟ » ، فقال سولز : « هل تعتقد أن روبسبير كان منشرح الصدر حين ارسل دانتون الى المقصلة ؟ ثم جاء دور روبسبير . . . هل تعتقد انه مضى اليها منشرح الصدر ؟ كلا ، ثم كلا ! لكن هذا ما كان ينبغي أن يفعله[٧٦] . . . » كان القضاة والمتهمون يرون معاً الشفرة العظيمة الدامية معلقة فوق رؤوسهم ، لكن لما كانوا في آن معاً أسرى قدر محتوم وتجسداته ، كانوا يشعرون بعجزهم عن تحويل مجراه . وكلهم وكل واحد منهم ، كانوا يواصلون ، مترددين او حتى مرعوبين ، فعل ما ينبغي فعله لتسريع سقوط شفرة المقصلة .

رد تروتسكي باختصار على الاتهامين الرسميين الموجهين ضده . أنكر على المحكمة حق الانعقاد للحكم على خطاب ألقاه امام الهيئة التنفيذية للأممية . وقال إنه كان ينكر ،

---

٧٥ ـ انظر الفصل الثاني .

٧٦ ـ المحفوظات ؛ تروتسكي ، مدرسة ستالين في التزوير ، ص ١٢٦ ـ ١٢٨ .

بالطريقة ذاتها ، على « لجنة مقاطعة » حتى محاكمته بسبب كلام قاله أمام اللجنة المركزية . ألم يكن قضاته ، الممثلون لجهازين قياديين في الحزب ، يعترفون بخضوعهم لسلطة الامية ؟ اما بما يخص الاتهام الثاني المتعلق بالمظاهرة أثناء رحيل سميلغا ، فقد كانت الجماعة الحاكمة تزعم انها لم ترد إنزال العقاب بسميلغا . لكن « إذا لم يكن تعيين سميلغا في خاباروفسك إلا تنقيلاً ادارياً بسيطاً وعادياً ـ قال تروتسكي ـ كيف يمكنهم القول ان الوداع الجماعي لسميلغا كان مظاهرة جماعية ضد اللجنة المركزية ؟ » ثم اضاف تروتسكي : إذا كان نقل سميلغا نفياً مموهاً ، فانتم عندئذ « مدانون بالرياء » . تلك الاتهامات الباطلة التي كانت موجهة اليه لم تكن في الواقع غير ذرائع . لقد قررت الجماعة الحاكمة ان تنطلق في «مطاردة للمعارضين وفي تهيئة التصفية الجسدية للمعارضة » . جرى اختلاق هُواس حرب وتغذية للارهاب واسكات كل نقد . «إننا نعلن اننا سنواصل نقد النظام الستاليني طالما لم تختموا شفاهنا مادياً » ، فهذا النظام يهدد «بالاجهاز على كل مكاسب ثورة اوكتوبر » . ليس هناك ما يجمع بين المعارضين واولئك الوطنيين الذين كانوا يخلطون في الماضي بين القيصر والوطن . لقد جرى اتهامهم بتقديم العون لحزب المحافظين في انكلترا ، وهو اتهام يمكن للمتهمين ان يردّوه إلى نحر متهميهم . فستالين وبوخارين ، اللذان دعما المجلس الانكليزي ـ السوفياتي ، ساعدا تشامبرلن بصورة غير مباشرة . اما حلفاؤهما ، القادة النقابيون الانكليز ، فقد أيدوا في كل النقاط الاساسية سياسة تشامبرلن ، بما فيها قطع العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي . وفي خلايا الحزب ، كان المحرضون الذين ارسلتهم الجماعة الحاكمة يطرحون أسئلة ماكرة «جديرة بالمائة السود» ، حول المصادر التي تسمح للمعارضة بالحصول على الاموال التي تتيح لها خوض نشاطها لو كنتم لجنة رقابة مركزية أصيلة لاعتبرتم من واجبكم وضع حد لهذه الحملة القذرة والخسيسة والمحتقرة ، هذه الحملة الستالينية النموذجية . . . . »لو كانت الجماعة الحاكمة تهتم حقاً بأمن الامة ، لما صرفت افضل الخبراء بالشؤون العسكرية كسميلغا ، ومراشكوفسكي ، ولاشيفيتش ، وباكاييف ومورالوف ، لمجرد انهم ينتسبون الى المعارضة . لقد كان الوضع لحالي يتطلب تهدئة الصراعات الداخلية في الحزب ، لا تسميمها ومفاقمتها . ان الهجوم على المعارضة يجد اصله في مد رجعي صاعد .

وبعد أن استعرض تروتسكي المسائل الرئيسية المعلقة ، أنهى مرافعته بتذكير جبار بالثورة الفرنسية . وإذ لمح الى الحديث المذكور اعلاه ، بين سولز واحد المعارضين وافق سولز على أنهم جميعاً بحاجة الى ان يستشيروا من جديد حوليات الثورة الفرنسية ، لكنه شدد على انه يجب استخدام القياس التاريخي بشكل سليم :

خلال الثورة الفرنسية الكبرى ، قطعت رؤوس كثيرة . ونحن أيضاً ، نرسل الكثير من الناس امام مفارز الاعدام . لكن كان هنالك فصلان كبيران اثناء الثورة الفرنسية : أحدهما هكذا (وأشار باصبعه الى فوق) ، والآخر هكذا (واشار إلى تحت) . . . ففي الفصل الأول ، حين تقدمت الثورة وصعدت ، قطع اليعاقبة ، اي بلاشفة ذلك العصر ، رؤوس الملكيين والجيرونديين. ونحن ايضاً اجتزنا فصلاً عظيماً مماثلاً ، أطلقنا خلاله ، نحن المعارضين وانتم ، النار على الحراس البيض ونفينا الجيرونديين في صفوفنا . لكن فيما بعد انفتحت حقبة جديدة في فرنسا . . . حين بدأ الترميدوريون والبونابرتيون ، المنبثقون من الجناح اليميني لليعاقبة ، ينفون اليعاقبة اليساريين ويصرعونهم . . .كنت اود ان يتأمل الرفيق سولز ملياً في هذه المقارنة ويجيب بذاته قبل كل شيء عن هذا السؤال : في اي فصل يقف سولز وهو يعد العدة لإعدامنا ؟ (هرج في القاعة .) ليس هناك ما يثير الضحك ؛ فالثورة قضية جدية . ما واحد بيننا يخشى مفارز الاعدام فنحن جميعاً ثوريون قدامى . لكن علينا ان نعرف من سوف يتم اطلاق الرصاص عليه ، وأي فصل هو هذا الذي نحن فيه . لكن هل تستطيع ايها الرفيق سولز ، ان ترى بوضوح في اي فصل تعد العدة لاطلاق النار علينا ؟ أخشى . . . ان يكون ما انت مقدم عليه . . . من ضمن الفصل الترميدوري .» .

وواصل كلامه قائلاً إن خصومه يخطئون إذا كانوا يتصورون أنه يهينهم . فالترميدوريون لم يكونوا معادين للثورة عن سابق تصور وتصميم ـ لقد كانوا يعاقبة ، لكن يعاقبة «جنحوا الى اليمين» .

هل تعتقدون أنهم قالوا لأنفسهم غداة ترميدور بالذات : لقد حولنا السلطة الى البورجوازية ؟ كلا ، بالتأكيد ! اقرأوا صحف ذلك العصر ؛ انهم يقولون : لقد اجهزنا على حفنة من الافراد الذين كانوا يعكرون السلام في الحزب ، والآن وقد صرعناهم سيمكن الثورة أن تنتصر بالكامل . إذا كان لدى الرفيق سولز ادنى شك حول ذلك . . .

سولز ـ انت تكرر عملياً كلماتي .

تروتسكي ـ (. . .) سوف أقرأ لك ما قاله بريفال ، وكان يعقوبياً يمينياً وترميدورياً ، حين اعطى تقريراً عن جلسة الكونفسيون حيث تقرر إحالة روبسبيير واصدقائه امام المحكمة الثورية : « . . . بما هم مدبرو مكائد ومناهضون للثورة يرتدون حلل الوطنية ، حاولوا أن يدمروا الجرية ؛ ولقد قررت الكونفنسيون توقيفهم . إنهم : روبسبيير وكوتون وسان جوست وليباس وروبسبيير الابن . وطلب الرئيس رأيي فأجبت : اولئك الذين

صوتوا دائماً وفقاً لمبادىء الجبل . . . صوتوا الى جانب السجن . ولقد فعلت اكثر من ذلك . . . كنت واحداً من الذين اقترحوا ذلك التدبير . فضلاً عن ذلك ، بصفتي سكرتيرا ، سارعت الى التوقيع وتحويل هذا القرار الذي اتخذته الكونفنسيون اليكم . » هذا كان تقرير سولز .·. ذلك الزمان . أما روبسبيير واصدقاؤه فكانوا مناهضين للثورة . «اولئك الذين صوتوا دائماً وفقاً لمبادىء الجبل » ، كانوا من قد نقول اليوم انهم كانوا دائماً بلاشفة » . بريفال ذاته كان يعتبر نفسه بلشفياً قديماً . «بصفتي سكرتيراً ، سارعت الى التوقيع وتحويل هذا القرار الذي اتخذته الكونفنسيون اليكم . » واليوم أيضاً ، ثمة امناء سر يسارعون «الى التوقيع والتحويل» . اليوم أيضاً هنالك امناء سر من هذا النوع . . .[77] » .

وواصل تروتسكي كلامه قائلاً إن الترميدوريين ضربوا اليعاقبة اليساريين ايضاً وهم يصيحون الوطن في خطر ! ولما كانوا مقتنعين بأن روبسبير واصدقاءه لم يكونوا غير «بعض الافراد المعزولين » ، لم يدركوا أنهم يضربون عبرهم «القوى الثورية الأعمق في عصرهم» ، تلك التي كانت تقف في وجه النيب الجديدة اليعقوبية ، والنزعة البونابرتية . وصموا روبسبير واصدقاءه بالارستقراطية . . . ! «أولم نسمع اليوم بالذات يانسون يوجه لي الشتيمة ذاتها : ارستقراطي ؟ » لقد اتهموا اليعاقبة اليساريين بأنهم عملاء پيت ، مثلما يتهم الستالينيون المعارضة بأنها عميلة تشامبرلن «طبعة الجيب الحديثة هذه عن پيت » :

«إن رائحة «الفصل الجديد» تزكم الآن أنوفنا . . . يخنق نظام الحزب كل نضال ضد ترميدور . إن العامل ، الرجل المنتمي الى الجمهور ، قد جرى خنقه داخل حزبنا . ومناضل القاعدة صامت . (حصل الامر ذاته في نوادي اليعاقبة في فترة انحطاطهم .) جرى ارساء حكم إرهاب غُفْل ؛ وكان الصمت قسرياً ؛ كان مطلوباً التصويت بالاجماع والامتناع عن اي نقد ؛ كان يجب التفكير وفقاً للأوامر الآتية من فوق . واجبر الناس على اعتبار الحزب جسماً حياً ومستقلاً وما يشبه آلة للسلطة لا تكفي نفسها بنفسها . . . اصبحت النوادي اليعقوبية ، بؤر الثورة تلك ، حضانات البيروقراطية النابوليونية اللاحقة . علينا استخلاص دروس الثورة الفرنسية . لكن هل ضروري حقاً تكرار ذلك ؟ (صيحات) .

لكن الوضع لم يكن مع ذلك قد أصبح مستحيل المعالجة . فرغم الخلافات العميقة

---

٧٧ ـ استشهاد مذكور .

القائمة ، كان لا يزال بالامكان الحيلولة دون انفجار الحزب . لا يزال «هناك احتياطي ثوري عملاق في حزبنا » ، كنز الافكار والتقاليد التي تركها لينين . «لقد بددتم جزءاً عظيما من رأس المال هذا ، وأحللتم محله في معظم الاحيان سقط متاع حقيقياً . . . لكن لا يزال في متناولنا الكثير من الذهب الخالص . » نحن في عصر هزات هائلة ، وانعطافات حادة ومتسارعة . وما زال يمكن الوضع ان يتغير فجأة . «لكنكم لا تجرؤ ون على إخفاء الحقائق ، لأنها ستُعرف عاجلًا أو آجلًا . لا يسعكم إخفاء انتصارات الطبقة العاملة وهزائمها . » لو انه كان مسموحاً فقط للحزب ان يفكر في الوقائع ، ويكوّن رأيه بحرية ، لكان يمكن تجاوز الازمة الحالية . فلتمتنع الجماعة الحاكمة بالتالي عن كل قرار اعمى ومستحيل العلاج . «احذروا ألا يكون عليكم أن تعترفوا لأنفسكم فيما بعد : لقد انفصلنا عن اولئك الذين كان علينا الاحتفاظ بهم واحتفظنا بمن كان علينا الانفصال عنهم . »

لا يمكن قراءة هذه السطور دون تذكّر «الرعشة الباردة » التي شعر بها تروتسكي الشاب ، عام ١٩٠٤ ، في مستهل حياته السياسية ، حين تصور مستقبل حزب لينين وقارنه بمصير اليعاقبة . إن الرعشة المجلدة ذاتها سرت في ظهره بعد ٢٣ عاماً . فعام ١٩٠٤ ، كان كتب ان «محكمة يعقوبية كان يمكن ان تحكم على كل الحركة العمالية العالمية بتهمة الاعتدال ، وكان رأس الأسد ماركس سقط قبل غيره تحت شفرة المفصلة» . كان هو اليوم من يكافح بشجاعة الأسد لانقاذ رأسه امام محكمة بلشفية . عام ١٩٠٤ كان قد دان لينين الذي يمثل «طبعه الرديء والمتشكك والكريه أخلاقياً الكاركاتور الشاحب لانعدام التسامح المأساوي لدى اليعاقبة » . اما اليوم فكان يسترجع افكار لينين ضد انعدام التسامح ، «الطبع الرديء والمتشكك والقبيح اخلاقياً» لخلفاء لينين . لكن فهمه الحالي لليعقوبية كان مختلفاً كلياً عن ذلك الذي عرضه إبان شبابه . فعام ١٩٠٤ كانت تبدو له اليعقوبية متعارضة مع الاشتراكية الماركسية : كانا «عالمين ، مذهبين ، تكتيكين وذهنيتين متعارضتين . . . » ، لأن اليعقوبية تكمن «في حذر مطلق تجاه الناس الاحياء ، وايمان مطلق بفكرة ما ورائية» ، بينما تحتكم الماركسية في الدرجة الأولى للوعي الطبقي للجماهير العاملة . وفي عام ١٩٠٤ كان طلب أن يتم اختيار واضح وجلي بين الاثنتين ، لأنه إذا جرت استعادة الطريقة اليعقوبية ، فهي قد تعني ان يوضع «فوق البروليتاريا فريق صغير من الناس المختارين بدقة . . . او شخص واحد مخول سلطة التصفية والطرد » . اما اليوم فكان يواجه تلك الزمرة الصغيرة من الناس المختارين بدقة والشخص الذي كان يأخذ وحده سلطة التصفية والطرد. ولكن ما كان يأخذه عليهم اليوم ، لم يكن انهم يعملون وفقاً لروح يعقوبية ، بل على العكس انهم يفعلون كل شيء لتخريب تلك الروح

والقضاء عليها . كان يشدد اليوم على العلاقات الوثيقة بين اليعقوبية والماركسية ، مماثلاً نفسه ، هو تروتسكي ، وانصاره بروبسبير وجماعته ، ورواداً الاتهام بالاعتدال الى نحر ستالين وبوخارين .

هكذا فإن «النزاع بين روحي البلشفية ، الروح اليعقوبية والروح الماركسية » ، ذلك النزاع الذي وقعنا عام ١٩٠٤ على اولى تجلياته[٧٨] ، والذي يبطن كل القضايا البلشفية للسنوات السابقة ، كان يدفع تروتسكي الآن لفهم اليعقوبية من وجهة نظر معاكسة جذرياً لتأملاته الاولى حول الموضوع . ذلك النزاع طبع بدرجات متفاوتة كل الكتل البلشفية . ومن قبيل المفارقة ان تلك الكتل جميعاً كانت تدعي انها تجسيد الوجه ذاته من وجوه اليعقوبية . فتروتسكي يقارن نفسه بروبسبير ويرى في خصومه معتدلين ؛ وبالنسبة لسولز وآخرين ، ستالين هو روبسبير الجديد ، وتروتسكي دانتون الجديد . وفي الواقع ان تتمة القصة قد برهنت على ان هذا المخطط التاريخي لا يسمح بإعطاء فكرة دقيقة عن تعقيد المواقف والمواقف المقابلة السياسية . إن ما كانت تشترك فيه اليعقوبية والبلشفية إنما هو «الاستبدالية » . فهذه وتلك وضعتا نفسيهما على رأس المجتمع ، لكنهما لم تكونا تستطيعان الإعتماد على الدعم الارادي للمجتمع من اجل تحقيق برنامجهما . فمثل اليعاقبة ، كان البلاشفة عاجزين عن الاعتقاد بأن حقيقتهم تكفي لـ «تكسب لهم قلب الشعب وروحه » . هم ايضاً كانوا ينظرون حولهم بـ «حذَر مَرَضي » و «يرون اعداء مختبئين في كل شق» ، وهم ايضا كان عليهم «ان يرسموا حدوداً بينهم وبين باقي العالم» لأن «كل محاولة لمحو تلك الحدود كانت تهدد بإطلاق قوى داخلية نابذة للمركز» . تلك الحدود ، رسموها أيضاً بـ « شفرة المقصلة » . فبعد أن اجهزوا على أعدائهم في الخارج ، بدأوا يكتشفون أعداء في صفوفهم . إلا أن تروتسكي أكد مجدداً ، بصفته ماركسياً ، ما كان أعلنه للمرة الاولى في عام ١٩٠٤ : « ينبغي ان يسعى الحزب لتأسيس استقراره على قاعدته ، ضمن بروليتاريا نشطة وواثقة بنفسها ، لا على زمرة قيادية يمكن الثورة . . . أن تزيحها بغتة . . . » كرر أن « أي جماعة جدنة . . . حين تسأل نفسها إذا كان عليها ان تمّحي وتسكت احتراماً للانضباط ، او على العكس ان تناضل لأجل الآستمرار ، دون اهتمام بالانضباط ، لا بد أن تختار الحل الثاني . . . وتقول : فليسقط هذا «الانضباط» الذي يخنق المصالح الحيوية للحركة » .

قبل نهاية تموز/يوليو بقليل ، تفرقت المحكمة دون أن تكون اصدرت أي حكم ، لا

---

٧٨ ـ النبي المسلح ، الفصل الثالث .

في حالة زينوفييف ولا في حالة تروتسكي . كانت اغلبية القضاة لا تزال تبدو آسفة بالنسبة للمتهمين بقدر ما كان روبسبيير آسفاً بالنسبة لدانتون . لكن ستالين كان يريد قراراً بأسرع ما يمكن ، فكل يوم يمضي كان يكشف نتائج « حماقاته المخيفة » . كان الانهيار النهائي للثورة الصينية يعرضه لخطر فقدان الاعتبار . والمجلس الانكليزي ـ السوفياتي كان قد توقف نهائياً عن الوجود : لم يرفع اعضاؤه الانكليز صوتاً واحداً للاحتجاج ضد قطع العلاقات الانكليزية ـ السوفياتية . وفي الداخل ، كان خطر الحرب ونهب مخازن الاغذية قد احدثا مجاعة جديدة . كان الفلاحون يتحركون ، وكان يُخشى ألا يتمكنوا من تسليم ما يكفي من المنتجات الزراعية ، في الخريف ، لأجل تغذية المدن . وكان ستالين قد توصل حتى ذلك الحين إلى إبقاء قسطه من المسؤولية مجهولاً ، عن طريق ابقاء تحذيرات خصومه وإعلاناتهم طي الكتمان . فأي خطاب تقريباً من خطب تروتسكي الاخيرة كان يمكن ان يدفع الى الانهيار كقصر من الورق السلطة التي اكتسبها بدأب والتي بقيت مع ذلك هزيلة وسريعة العطب . لقد بذل جهده اذاً بحيث لا يجتاز صوت تروتسكي اسوار الكرملين ولا يسمعه احد في الخارج . لكن موعد المؤتمر الخامس عشر كان يقترب ، ذلك المؤتمر الذي قد يكون كذلك بالنسبة لتروتسكي وزينوفييف مناسبة للدفاع عن نفسيهما امام الجميع . سوف يصغي اليهما البلد بأسره ، ولن يكون ممكناً فرض الرقابة على الخطب التي تلقى في المؤتمر مثلما يجري خنق الانتقادات التي توجه امام اللجنة المركزية . كان على ستالين ان يمنع خصومه من الكلام مهما يكن الثمن .

كان هنالك سبب آخر يدفعه الى الاستعجال . فلقد كان عليه ان يأخذ بالحسبان التوتر الذي تعاني منه العلاقات داخل التحالف الحاكم . فالسياسة اليمينية في السنوات الاخيرة على شفير الانهاك التام . وكان يغدو أصعب واصعب الدفاع عن تلك السياسة في الخارج ، داخل الكومنترن . وفي الداخل ، كانت الحاجة إلى توجه سياسي جديد تبرز بقوة على شتى المستويات ؛ وإذا كان من الصعب توقع طبيعته واهميته ، فلقد كان مؤكداً في كل حال ان التوجه الجديد يتطلب من الحزب موقفاً اكثر حزماً تجاه الفلاحين وتصنيعاً أكثر جرأة . وفي كل تلك النقاط ، كان الستالينيون والبوخارينيون تجاوزوا حتى ذلك الحين ، أو تركوا جانباً ، خلافاتهم كي يستطيعوا مواجهة المعارضة في جبهة مشتركة . لكن كان يقترب الوقت الذي يمكن فيه هذا النوع من الاصلاح الرديء ان يغدو مستحيلاً فتتم اذ ذاك القطيعة . والحال أن ستالين لم يكن قادراً على السماح لنفسه بالاندفاع في وجه بوخارين وريكوف وتومسكي قبل أن يكون أنهى حساباته مع تروتسكي وزينوفييف . لم يكن يستطيع أن يكافح في الوقت ذاته ضد معارضتين ، لا سيما ان إعادة توجيه للسياسة قد

تبدو للكثيرين كتبرير لتصورات تروتسكي وزينوفييف . كان عليه ان يسحق جبهة المعارضة لكي تصبح يداه طليقتين في اقرب وقت ممكن .

ولقد هاجم تروتسكي بعنف مضاعف حين أطلق هذا ما تمت تسميته بياني كليمنصو ، الأول في ١١ تموز/يوليو ، في رسالة الى اورجو نيكيدزه ، والثاني في الشهر ذاته ، في مقال طلب نشره في البرافدا . فبصدد خطر الحرب ، كان تروتسكي يقول ويكرر أنه إذا اندلعت الحرب ، فسيبدو قادة الكتلتين الحاكمتين عديمي الكفاءة وعاجزين ، وإنه من ضمن حرص المعارضة على مصلحة الدفاع القومي فستواصل وقوفها في وجههم وتبذل جهدها لتأخذ منهم قيادة الشؤون العسكرية . وللحال جرى اتهام تروتسكي بالغدر والانهزامية . فأجاب ان المعارضة تؤيد « دفاعاً غير مشروط » عن الاتحاد السوفياتي ، وانه في حال قيام الحرب ستحاول الحلول محل الكتلتين الحاكمتين ، وذلك بالضبط لأجل خوض المعارك العسكرية بمنتهى الحزم ومنتهى التبصر ، وهو ما لا يمكن توقعه من اناس يقودون الحزب الآن . وفقط « أناس غاية في الجهل وأنذال » يمكنهم من على « مزبلتهم » ان يصفوا هذا الموقف بالانهزامية . على العكس ، فهذا الموقف يحكمه اهتمام أصيل بالدفاع عن البلاد : « ليس يتم الظفر من على كومة زبل . » وهنا جاء « بيان كليمنصو » الأكثر مدعاة للجدل :

« ثمة العديد من الامثال ، ومن الأكثر تثقيفاً ، في تاريخ الطبقات الاجتماعية الاخرى (رسالة من تروتسكي الى اورجو ـ نيكيدزه) . ولن نذكر الا واحداً منها : في بداية الحرب الإمبريالية (اي الحرب العالمية الاولى) ، كان على رأس البورجوازية الفرنسية حكومة عاجزين ، حكومة من دون رأس ولا قدم . وكان كليمنصو ومجموعته في المعارضة . ورغم الحرب والرقابة العسكرية ، ورغم الالمان الذين كانوا على بعد ثمانين كيلومتراً من باريس . (يقول كليمنصو : «بسبب ذلك بالضبط») ، أطلق هجوماً غاضباً على الرخاوة والتردد البورجوازي الصغير لدى الحكومة ، وذلك لأجل ان تخاض الحرب بكل القساوة والشراسة الامبرياليتين . وبإقدامه على ذلك ، لم يخن كليمنصو طبقته ، البورجوازية ؛ بل على العكس ، لقد خدمها بصورة اكثر صدقاً وحزماً وعزماً وحكمة من فيفياني وبانليفي وشركاهما ، وهو ما اثبتته الاحداث اللاحقة . فلقد اخذت جماعة كليمنصو الحكم ، وبفضل سياسة اكثر تماسكاً ـ سياسة نهب امبريالي ـ حازت النصر . . . هل كان ثمة صحفيون فرنسيون وصفوا جماعة

كليمنصو بالانهزامية ؟ لقد فعل ذلك البعض ، اجل ! فكل طبقة اجتماعية لديها دائماً مجانينها وغّاموها . لكن نادراً جداً ما تكون لهؤلاء الفرصة ذاتها للعب ادوار مهمة[٧٩] . »

هذا هو المثل الذي اعلن تروتسكي آنذاك انه يريد اتباعه ؛ وهذا كان ايضاً ـ يمكن ان نضيف ـ المثل الذي تبعه تشرشل في بداية الحرب العالمية الثانية ضد تشامبرلن . أما الرد فكان سريعاً ، إذ صاح الستالينيون والبوخارينيون قائلين ان تروتسكي يهدد بالقيام بانقلاب عسكري في زمن الحرب ، في حين يكون العدو على اقل من ٨٠ كلم من الكرملين . هل ثمة حاجة لبرهان آخر على الغدر ؟ وفي الفترة ذاتها ، ارسلت مجموعة من القادة العسكريين بياناً سرياً الى المكتب السياسي لتأكيد تضامنها مع المعارضة وانتقاد انعدام الكفاءة العسكرية لدى فوروشيلوف ، مفوض الحرب . وبين الموقعين ، كان هنالك ، بالاضافة الى مورالوف الذي كان قبل قليل مفتشاً عاماً للجيش ، بوتنا وياكير وجنرالات آخرون سيجري اعدامهم بعد عشر سنوات ، في خضم تطهير توخاتشيفسكي[٨٠] . وقد اعتبر التكتلان الحاكمان بادرة المجموعة العسكرية اعترافاً بنوايا المعارضة .

لم يهدأ الغضب والغيظ اللذان أثارهما بيان كليمنصو الا في نهاية العام حين تم نفي تروتسكي . لكن اصداءه ظلت تُسمع طوال سنوات ، وفي كل مرة كان يجب البرهان على خيانة تروتسكي . والقليل القليل من اعضاء الحزب كانوا يعرفون مضمون ذلك البيان . ومعظم الاعضاء فهموا أن تروتسكي كان يهدد بأنه سيستفيد من الحرب القادمة لتفجير حرب اهلية ، او حتى أن البيان كان يشكل تمهيداً لانقلاب . لم يهتم أحد ما لمعرفة ما إذا كان عبر حقاً عن تهديد من هذا النوع ، أو لمعرفة إذا كانت السابقة التي استرجعها تنطوي على مثله . فالقليل القليل جداً من البلاشفة كانت لديهم فكرة عما فعله « النمر » الفرنسي وعن الوسائل التي استخدمها للاستيلاء على السلطة . لقد كان طبيعياً جداً أن يكون تروتسكي استشهد بمثال كليمنصو ، ففي باريس بالذات امكنه قبل عشر سنوات أن يراقب عمل كليمنصو ويتابعه عن كثب . لكن بما أن المثل كان أجنبياً ، وبعيداً ، وغير معروف ، فقد أثار الحذر أو العداء لدى الجمهور ، لدى الغالبية الكبرى من اعضاء اللجنة المركزية وحتى الاعضاء الجدد في المكتب السياسي ، الذين كانوا يجهلون بمجملهم تقريباً ، باستثناء بوخارين ، كل شيء عن الشؤون الفرنسية . وقد سخر تروتسكي ، في ملاحظة شخصية

---

٧٩ ـ اورد هذا النص ستالين ، في سوش ، . ج ١٠ ، ص ٥٢ .

٨٠ ـ لم يوقع توخاتشفسكي الاعلان ابداً ، ولم ينضم يوماً الى جبهة المعارضة .

مدونة في يومياته ، من جهل اللجنة المركزية المذهل :

« عن طريق مقالتي . . . عرف مولوتوف بادىء ذي بدء اشياء كثيرة قدمها فيما بعد الى اللجنة المركزية كبرهان مباشر ومخيف على تلك المخططات الانتفاضية . هكذا علم مولوتوف أنه وجد ، خلال الحرب ، رجل سياسة فرنسي يدعى كليمنصو ، وان رجل السياسة هذا ناضل ضد الحكومة الفرنسية لتلك الفترة بغية فرض سياسة امبريالية اكثر حزماً واكثر قساوة . . .وشرح ستالين لمولوتوف معنى هذه المقارنة التاريخية ، ومولوتوف ، بدوره ، شرحه لنا فيما بعد : فمثل جماعة كليمنصو ، كانت المعارضة تنوي النضال لفرض سياسة دفاع اشتراكي اخرى ، أي لغرض سياسة انتفاضية مشابهة لتلك التي تبناها الاشتراكيون الثوريون اليساريون (عام ١٩١٨)[٨١] . » .

وبالطبع كان سهلاً للغاية ، ارهاب خلايا موسكو في البدء ثم خلايا المقاطعات ، بواسطة ذلك اللغز الغامض . ومن كل الجهات ارتفعت الصيحات بأنه آن الأوان لنزع سلاح المعارضة .

في اول آب/اغسطس ، اعادت لجنة الرقابة المركزية واللجنة المركزية درس الاقتراح القاضي بطرد تروتسكي . ومرة اخرى ، صب ستالين وبوخارين وآخرون سيلاً من الشتائم وانطلقوا في اتهامات لا تنتهي تستعرض ماضي تروتسكي السياسي ، في ادق تفاصيله ، منذ عام ١٩٠٣ ، وذلك لاعطاء لوحة مخيفة عنه . جرى حتى إبراز اتهام عام ١٩١٩ ، الذي تم نسيانه منذ ذلك الحين ، والذي اخذت فيه المعارضة العسكرية على تروتسكي ، إبان الحرب الاهلية ، انه كان عدو الشيوعيين في الجيش وانه تسبب باعدام مفوضين شجعان وناصعي الصفحة[٨٢] . لكن في هذه المرة ، قدم بيان كليمنصو مادة الاتهام العينية : ان المعارضة لن تتصرف ، في زمن الحرب ، بإخلاص وسترفض المساهمة في الدفاع عن الاتحاد السوفياتي .

رداً على ذلك ، أعاد تروتسكي الى الاذهان كيف انه اضطلع طوال سنوات

---

٨١ ـ انظر ملاحظة هامشية لتروتسكي بعنوان «كليمنصو» في ٢ آب/اغسطس ١٩٢٧ ، في المحفوظات .

٨٢ ـ ان ياروسلافسكي هو الذي اطلق تلك التهمة ، لكن حتى الستالينيون اغتاظوا منها ،واوضح اورجونيكيدزه بحزم انه لا يتضامن معها . المحفوظات . كان ياروسلافسكي عضواً في المعارضة العسكرية عام ١٩١٩ . هذه الاتهامات كان قد قدمها آنذاك الى المكتب السياسي سميلغا ولاشيفيتش ، اللذان مثلهما مثل المفوضين المزعوم ان تروتسكي اضطهدهما ، اي زالوتسكي وباكاييف ، كانا الآن اعضاء مهمين في المعارضة انظر النبي المسلح ، الفصل ١٢ .

بالمسؤولية العليا عن سياسة الحزب العسكرية وحدد مواقف الاممية الشيوعية بصدد السلام والحرب . وقد اخذ على ستالين وبوخارين انهما يبنيان سياستهما الدفاعية على رمال متحركة ، ويستخدمان «حبالاً مهترئة» و«دعامات مهترئة» . ألم يحيِّيا المجلس الانكليزي ـ السوفياتي كمتراس ضد التدخل والحرب ؟ «هذا المتراس ألم يتحول الى مجرد دعامة مهترئة ؟ الم يكن التحالف مع الكيومنتانغ «حبلاً مهترئاً » ؟ وألم يضعف ستالين وبوخارين الاتحاد السوفياتي بتخريبهما الثورة الصينية ؟ لقد صرح فوروشيلوف ان «الثورة الزراعية (في الصين) كان يمكن ان تضايق حملة الجنرالات على الشمال ؟ وهذا كان رأي تشانغ كاي تشك . لتسهيل حملة عسكرية ، وضعتم كابحاً في عجلة الثورة . . . كما لو أن الثورة ليست . . . حملة يشنها المضطهدون (بفتح الهاء) على المضطهدين (بكسر الهاء) » . «لقد عارضتم تشكيل السوفييتات «في مؤخرة الجيش» ، كما لو كانت الثورة مؤخرة جيش من الجيوش ! وفعلتم ذلك لكي لا يختل تنظيم مناطق اولئك الجنرالات ذاتهم الذين سيسحقون ، بعد يومين من ذلك التاريخ ، العمال والفلاحين الذين كانـوا في مؤخراتهم . » . فإذا كان أمكن فوروشيلوف ، مفوض الدفاع وعضو المكتب السياسي ، ان يدلي بهكذا تصريحات ، فذلك ، في حد ذاته ، «كارثة بخطورة معركة تتم خسارتها » . ففي زمن الحرب ، تتحول الحبال المهترئة الى رماد بين ايديكم » . لكل هذه الاسباب لن تتوقف المعارضة عن انتقاد القيادة الستالينية .

لكن هل يمكن النقد أن يضعف معنويات الاتحاد السوفياتي ؟ ان سؤالاً كهذا أجدر بالكنيسة البابوية او بالسادة الاقطاعيين . فالكنيسة الكاثوليكية تطلب من المؤمن خضوعاً غير مشروط لسلطتها . اما الثوري فيقدم الدعم في الوقت ذاته الذي يوجه فيه الانتقاد . وبالضبط ، حين يكون حقه بالنقد أكمل ما يكون ، يستطيع في مرحلة النضال ان يكرس نفسه بالصورة الأكثر كلية ايضاً لخلق العالم الذي هو صانعه المباشر . «لسنا بحاجة إلى وحدة مرائية مقدسة بل إلى وحدة ثورية اصيلة » . إن النصر ، في حرب من الحروب ، ليس قبل كل شيء مسألة سلاح : فالناس يشهرون اسلحة لكن يحركهم مثل اعلى . ما كان إذاً المثل الأعلى الذي يحفز سياسة الدفاع البلشفية ؟ كان ثمة طريقتان لضمان النصر : إما شن الحرب بروح اممية ثورية ، كما كانت تطالب المعارضة ، أو الاقدام على تلك الحرب بالاسلوب الترميدوري . لكن ذلك كان يعني إذاك انتصار الكولاك ، والقمع الجديد للعمال ، «والرأسمالية على طريق الارساء » . لم تكن سياسة ستالين تستتبع لا هذه الطريقة ولا تلك : كان ستالين يتردد ويتأرجح بين الطريقتين . لكن حرباً لا تسمح بالتردد والحيرة ، وهي قد تضطر الجماعة الستالينية الى الاقدام على خيار . لكن ، مهما يكن ، بما

أن الجماعة الستالينية لا تدري الى اين تمضي ، فهي لن تستطيع ضمان النصر .

على أصل محضر الجلسة ، جرت الاشارة الى ان زينوفييف عبر في تلك اللحظة عن تأييده الحماسي ، بهتاف إعجاب . فتوقف تروتسكي واستدرك : بدل القول إن «القيادة الستالينية عاجزة عن ضمان النصر» قال إنها «ستجعل النصر اكثر صعوبة» ، فصاح مولوتوف : «لكن أين سيكون الحزب ؟» فزأر تروتسكي : «لقد خنقتم الحزب» . وكرر بهدوء ان النصر سيكون ، تحت قيادة ستالين ، اكثر صعوبة » . هذا هو السبب في أنه لا يمكن المعارضة ان تماثل بين الدفاع عن الستالينية والدفاع عن الاتحاد السوفياتي . «ما من معارض واحد سيتخلى عن حقه وواجبه في النضال عشية حرب أو إبان حرب . . وهذا شرط اول من شروط النصر . باختصار ! من اجل الوطن الاشتراكي ، نعم ! من أجل الخط الستاليني ، كلا !(٨٣) » .

بعد الحرب العالمية الثانية ، ضاعت نبوات تروتسكي في وهج انتصارات ستالين . فرغم كل شيء ، اعطى ستالين النصر لروسيا ، دون أن يظهر بعد ذلك اي شيء شبيه بـ «رأسمالية على طريق الإرساء » . لكن حين تكلم تروتسكي ، كانت النيب في ذروتها ، وكانت روسيا لا تزال احد البلدان الأكثر تخلفاً من الناحية الصناعية ، وكانت الملكية الخاصة متفوقة في الارياف ، وقد اصبح الكولاك اقوى ، ولم يكن الحزب بعد غير زوبعة اتجاهات متعارضة . واخيراً ، كان تروتسكي يتكلم على خطر حرب محتمل بينما كانت الكتلتان الحاكمتان تزعمان ان الحرب وشيكة . ولا يمكن أن نطلق إلا فرضيات حول مسار ونتيجة حرب ربما كانت حدثت في تلك الظروف ، وحول الطريقة التي كان خاضها ستالين على اساسها . ما يمكن تأكيده هو ان تحليلات تروتسكي واستنتاجاته إذا اعيدت الى روسيا عام ١٩٢٧ تبدو اكثر صحة مما بالنسبة لروسيا اعوام ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ . ومع ذلك ، حتى بعد الحرب العالمية الثانية ، بذلت الستالينية جهدها لتجاوز التوترات داخل الاتحاد السوفياتي عن طريق مد سيطرتها بالقوة الى اوروبا الوسطى والشرقية . وقد يمكن الادعاء بأن الخيار كان بالضبط بين التوسع وارساء الرأسمالية داخل الاتحاد السوفياتي الذي كان تكلم عليه تروتسكي . ومع ذلك ، حتى مع اخذ النصر بالحسبان ، لا تبدو الاتهامات بانعدام الكفاءة ، المطلقة ضد ستالين وفوروشيلوف من دون أساس . ففي عام ١٩٤١ ، خلال الاشهر الاولى من الحرب الجرمانية ـ الروسية ، ارتبك فوروشيلوف وأساء التصرف إلى درجة انه ما كان يمكنه ان يرفع رأسه كقائد عسكري مجدداً . اما ستالين ، فيمكن القول

---

٨٣ ـ المحفوظات : مدرسة ستالين في التزوير ، ص ١٦١ ـ ١٧٧ .

بصدده ان الامين العام لسنة ١٩٢٧ لم يكن يملك من تلك التجربة وتلك المعرفة العملية بالامور العسكرية التي اعطتها سنوات طويلة من السلطة المطلقة لديكتاتور سنوات ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠ . وإذا كان دور ستالين خلال الحرب العالمية الثانية موضوع نقاش ، وسيبقى كذلك لمدة طويلة ، فلا شك اطلاقاً في ان النصر بقيادة ستالين كان «أصعب» ، في الواقع ، مما ينبغي ان يكون في ظل قيادة اكثر تبصراً بقليل . فالاتحاد السوفياتي ما كان ليمنى بالهزائم الخطيرة الأولى لعامي ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ ، وما كان ليدفع من اجل النصر النهائي الضريبة الضخمة من الرجال والثروات التي دفعها[٨٤] .

لم يكن نقطة الضعف في موقف تروتسكي ما أخذه على خصومه ، بل برنامج عمل المعارضة في حالة حرب . لم يكن فيه ادنى ظل للانهزامية ، لكن كيف كان يتصور تروتسكي مهمته ككليمنصو سوفياتي ؟ لقد عاد الى هذه النقطة في ٦ آب/اغسطس ، حين واصلت اللجنة المركزية ولجنة الرقابة المركزية مناقشتها للاقتراح القاضي بطرده . قال إنه من قبيل الجنون اتهامه بالتحريض على الانتفاضة : فكليمنصو لم ينظم انتفاضة ولا انقلاباً ، ولا حتى لجأ الى وسائل غير دستورية ؛ لقد قلب الحكومة التي كان يكافحها وحل محلها بالطريقة الاكثر شرعية ، مستعيناً بالوسائل التي ينطوي عليها النظام البرلماني . لكن كان يمكن الرد بأن الاتحاد السوفياتي لا يملك نظاماً برلمانياً ؟ «أجل ـ قال تروتسكي ـ من حسن حظنا اننا لا نملك نظاماً من هذا النوع . » كيف يمكن إذاً أن تقلب المعارضة الحكومة دستورياً ؟ اجاب تروتسكي قائلاً : « لدينا نظام حزبنا. » بتعابير اخرى ، قد يمكن المعارضة ان تطيح ستالين دون خرق انظمة الحزب ، بتصويت اللجنة المركزية اوربما المؤتمر . لكن ألم يكرر تروتسكي ويبرهن ان انظمة الحزب ليس لها غير وجود نظري وأنه ليس للحزب ، من الناحية الملموسة ، قاعدة او قانون غير استبداد ستالين البيروقراطي ؟ ألم تكن الاحداث تقدم البرهان على ذلك يومياً ؟ وذلك بالضبط هو السبب ـ حسب رأي تروتسكي ـ في ان المعارضة تبذل كل ما في وسعها من اجل تعديل النظام الداخلي للحزب . . . « في حالة الحرب ، أيضاً ، على الحزب أن يحتفظ ـ أو بالاحرى ان يخلق من جديد ـ نظاماً داخلياً اكثر مرونة ، واشد صلابة ، واكثر صحة وسلامة ، نظاماً يسمح بالنقد في الوقت المناسب ، وبالتحذير في الوقت المناسب ، وفي تبديل السياسة قبل فوات الاوان . » لكن الكتلتين الحاكمتين لم تكونا تهتمان بذلك إطلاقاً : لن تسمحا بأي إصلاح من هذا النوع ، أي تعديل للفريق الحاكم بالطريق الشرعية والدستورية . وتبعاً لذلك

---

٨٤ ـ انظر الحكم على دور ستالين خلال الحرب في كتابي ، ستالين ، الفصلان الثاني عشر والرابع عشر .

حكمتا على إعلان تروتسكي : بما ان هذا لن تكون له إمكانية إطاحة ستالين بأي اجراء او انتخاب برلماني ، فقد استنتجا بالضرورة أنه سيكون بحاجة لبلوغ ذلك الى القيام بانقلاب . ولم يكن ينقص الكتلتين الحاكمتين ، من وجهة نظرهما ، المنطق حين اعتبرتا أنه عبر بيان ـ كليمنصو كانت المعارضة تنادي بحقها في الانتفاضة . لا شك ان تروتسكي لم يعبر عن ذلك بصراحة ، . . . لكنه فعل ذلك في المنفى بعد ثماني سنوات أو تسع . فهمت الكتلتان الحاكمتان أنه في الوضع الراهن الذي خلقتاه بنفسيهما لم يكن لدى تروتسكي مناص من إعلان ذلك الحق في الانتفاضة .

وبمزيد من المنطق أيضاً اتّهَمُهما تروتسكي بأنهما تريدان تأبيد سيطرتهما على الحزب والبقاء في السلطة حتى وهما تخاطران باستثارة حرب اهلية ، لأنه ـ حسبما قال ـ ذلك ما كانتا تعدان العدة له من أجل سحق المعارضة . وفي الحقيقة ان ستالين حين ندد ببيان كليمنصو بسخط شديد ، كان يسعى ليفرض مداورة ذلك المبدأ الذي لم يكن يتيح له التراث البلشفي المناداة به علانية ، والقائل ان سلطته لا يمكن انتهاكها ولا التصدي لها ، وان كل محاولة لمكافحتها او استبدالها كانت مناهضة للثورة من الناحية العملية . تلك كانت عاقبة المشكلة ، والعاصفة التي اثارها بيان كليمنصو كشفت الهوة الواسعة والعميقة المستحيلة الاجتياز ، التي كانت قائمة بين الزمرة الحاكمة والمعارضة . إن طبيعة الوضع بالذات هي التي كانت تجعلهما تتكلمان تلك اللغة التي غدت بالضبط لغة الحرب الاهلية .

إلا أنه حتى آنذاك ، لم تتمكن محكمة الحزب ، التي كانت قد غدت في شهرها الثاني من الانعقاد ، من حزم امرها لإصدار حكم . في تلك المرة فقط، كان ستالين يتقدم كثيراً أنصاره وحلفاءه ، وهؤلاء لم يكونوا قد غدوا مستعدين تماماً للخضوع لمشيئته . كانوا لا يزالون أسرى ولاءات قديمة ، لذا كانوا ما ينفكون ينظرون الى خصومهم كرفاق قدامى ، وكانت تضايقهم القواعد الدقيقة لأنظمة الحزب ؛ كانوا يريدون إنقاذ مظاهر الاحترام والشرعية البلشفيين . سعوا مرة أخرى لا يجاد تسوية تقبل بها المعارضة ، ولم تستطع هذه الاخيرة إلا أن تستمتع ببرؤ يتهم يقطعون نصف الطريق . لذا اجتهد تروتسكي وزينوفييف في تهدئة الانفعال الذي أثاره بيان كليمنصو ، معلنين على الملأ إخلاص المعارضة للحزب والدولة ومساهمتها غير المشروطة في الدفاع عن الاتحاد السوفياتي في حالة الحرب . جرى عقد «هدنة» جديدة . وفي ٨ آب/اغسطس أنهت اللجنة المركزية ولجنة الرقابة المركزية مداولاتها ، وفي حين أغفلت المحكمة اقتراح الطرد صوتت فقط على لوم وجهته لقادة المعارضة .

بدا عندئذ أن المعارضة ستتمكن من الاشتراك في المؤتمر الخامس عشر والاحتكام مرة ثانيةللحزب .أعد القادة تقريراً سياسياً كاملاً ومنهجياً ، برنامجاً سياسياً Platform ، وهو ما لم يكونوا قادرين يوماً قبل ذلك الحين على تقديمه. جرى نقاش البرنامج في كل حلقات المعارضة ، وتعديله وتكميله بشكل دقيق(٨٥) . لكن كانت الاشياء قد تخطت النقطة الحرجة منذ زمن طويل للغاية ، النقطة التي يكون «التطبيع» ممكناً ما وراءها . كانت تلك هي «الهدنة» الأخيرة ، وكانت أضعف من سابقتها . كانت الكتلتان الحاكمتان قبلتا بها ، ليس من دون تردد ، آملتين ضمناً ان يبقى قادة المعارضة ، الذين أفلتوا من الطرد بفارق قليل ، صامتين وأن يحافظوا على الهدوء . لكن هؤلاء لم يكونوا يرون الامور من المنظار ذاته ، بل كانوا يعتبرون أنفسهم مخولين أن يواصلوا ممارسة ما كان بالنسبة إليهم حقهم الطبيعي في التعبير والنقد ، ولا سيما خلال الاشهر التي تسبق مؤتمراً ، وهي تمثل فترة نقاش عام في كل الحزب . أما ستالين واتباعه فبذلوا كل ما في وسعهم لالغاء الهدنة . أفقدوا المعارضة صبرها متابعين ، بمبرر او غير مبرر ، إنزال العقاب بانصارها ونفيهم . لقد أخذ ستالين عليها انها قطعت الهدنة بإعدادها برنامجها السياسي وبرفض الاشتراك في ادانة أنصارها في المانيا ، الخ . لكن لما كان ستالين قد تحقق من انه لن يصل لاهدافه ضمن المهل المطلوبة أجّل افتتاح المؤتمر الخامس عشر شهراً .

في ٦ ايلول/سبتمبر شرح تروتسكي واصدقاؤه للمكتب السياسي واللجنة المركزية أن الامانة العامة تتابع سياسة شخصية لا تتفق حتى مع سياسة الاكثرية الستالينية ـ البوخارينية ، ثم قدموا تقريراً مفصلاً حول الاضطهادات الجديدة التي كانت المعارضة ضحيتها واحتجوا على تأجيل المؤتمر . طلب تروتسكي مرة أخرى ان يكون اعداد المؤتمر موضوع نقاش مستقيم يشارك فيه المعارضون المنفيون . طلب كذلك ان تنشر اللجنة المركزية ، وفقاً لعرف تكرس مع الوقت ، برنامج المعارضة وتوزعه ، مثله مثل وثائق الحكومة ، على ناخبي الحزب . فتدخل ستالين بشراسة لا تلين وردت اللجنة المركزية شكاوى المعارضة ورفضت نشر البرنامج من ضمن النصوص الخاضعة للنقاش . وحظرت فوق ذلك ان توزع المعارضة البرنامج بوسائلها الخاصة بها .

وبالطبع كان ذلك موضوع نزاع جديداً وبالنسبة للمعارضة كان الانصياع لهذا الحظر الجديد يعني الاستسلام بصورة مذلة ، وربما إلى الأبد . لكن ان يضرب بذلك الحظر

٨٥ ـ عرف البرنامج بعنوان الوضع الحقيقي في روسيا ، وبهذا العنوان نشره تروتسكي بعد أن اصبح في المنفى .

عرض الحائط كان ينطوي على مخاطر ، لأنه ينبغي عند ذلك الخروج ونشر البرنامج بشكل سري او شبه سري . ولقد قررت المعارضة تحمل تلك المخاطرة . ولكي يتفادى تروتسكي وزينوفييف انتقامات جديدة ، ولتوزيع الضربة على عدد أكبر كما في المرار السابقة ، وكذلك للتأثير على المؤتمر ، طلبا الى انصارهما توقيع البرنامج بصورة جماعية ، فعدد التوقيعات قد يكشف اهمية قوى المعارضة . لذا اتخذت حملة التوقيعات على الفور طابع امتحان قوة ، وهو ما لم تكن المعارضة تجرأت عليه حتى ذلك الحين .

لم يكن في وسع ستالين أن يسمح بحصول حملة من هذا النوع . هكذا ، في ليل ١٢ ـ ١٣ أيلول/سبتمبر ، اقتحمت الغيبيو «المطبعة الصغيرة» الخاصة بالمعارضة ، واوقفت عدة اشخاص كانوا يطبعون البرنامج ، وأعلنت بأعلى صوتها انها اكتشفت مؤامرة . أكدت ان المعارضين أخذوا بالجرم المشهود ، وأيديهم مغطاة بالقفازات ، وهم يعملون مع اشخاص معادين للثورة معروفين ، وحتى ان ضابطاً قديماً من الحراس البيض التابعين لرانغل هو الذي أنشأ المطبعة الصغيرة للمعارضة . كان تروتسكي قد مضى الى القوقاز ، يوم الاقتحام الذي قامت به الشرطة ، لكن العديد من قادة المعارضة ، بريوبراجنسكي ومراشكوفسكي وسيريبرياكوف ، حاولوا القيام بهجوم مضاد بأن دحضوا ادعاآت الشرطة واعلنوا تحملهم كامل المسؤولية سواء بالنسبة لقضية المطبعة او بالنسبة لنشر البرنامج ، وللحال جرى طردهم هم الثلاثة من الحزب ، لا بل تم سجن احدهم ، مراشكوفسكي . كانت تلك هي المرة الأولى التي يجري فيها إنزال عقوبات من هذا النوع بأعضاء مهمين في المعارضة .

إن طريقة « الخلط » التي استُخدمت في هذه القضية تنذر بالتطهيرات الكبرى لسنوات ١٩٣٧ ـ ١٩٤٠ التي ستلجأ اليها بصورة منهجية . كانت إعلانات الغيبيو معدة لصدم خيال كل اولئك الذين أصغوا بتشكك الى كلام ستالين بصدد « الجبهة الموحدة من تشامبرلن الى تروتسكي » . فإذا كانوا مبلبلين وحائرين ، إن كانوا قد تساءلوا إذا لم تكن تلك « الجبهة الموحدة » من انتاج خيال ستالين ، فلقد كانت مهمة قصة المؤامرة هي تهدئة شكوكهم . كانت الشخصية الكلاسيكية لـ « ضابط فرانغل » تقدم الصلة بين المعارضة والقوى السوداء للامبريالية العالمية . في ذلك اليوم تلقى المتشككون والقلقون تحذيراً بالغ الوضوح . لقد حُدِّدت لهم الشبكة التي كانوا سيعلقون فيها فيما لو سوّلت لهم أنفسهم ان يبادروا للقيام بأي عمل ضد القادة الرسميين ، مهما بدا هذا العمل للوهلة الأولى بريئاً ، أو أن يجدوا العذر لهذا العمل .

لقد أصابت الضربة الهدف . فالمعارضة لم يتسنَّ لها الوقت كي تبرهن على زيف تأكيدات الغيبيو . كان السيف قد سبق العذل . تدخل زينوفييف وكامينيف وتروتسكي - الذي قطع إقامته في القوقاز وعاد الى موسكو - لدى مينجينسكي ، قائد الغيبيو منذ موت دزرجنسكي ، وجلوا معه الملابسات الهزلية للمؤامرة . كانت الغيبيو قد فاجأت أعضاء في المعارضة يسحبون نسخاً ، مدقوقة بالآلة الكاتبة ، للبرنامج السياسي . لم تكن المعارضة - حسبما عُرف في نهاية المطاف - لم تكن تملك حتى مطبعة سرية مشابهة لتلك التي كانت تستخدمها كل المجموعات السرية في ظل النظام القيصري . وقد تطوع بعض الشباب للقيام بالدق على الآلة الكاتبة وبالنسخ . وبالتأكيد ، كان بينهم من ليسوا اعضاء في الحزب ، لكن كانت تلك جريمتهم الوحيدة . لم يستطع ستالين ان يجد فيها بعد نعتاً اكثر خزياً من وصفهم بـ « المثقفين البورجوازيين » . وبالفعل فإن ضابطاً قديماً في جيش فرانغل شارك في العمل ووعد بالمساعدة في توزيع البرنامج . لكن مينجينسكي اعترف ، في البدء أمام تروتسكي وكامينيف ، ثم امام اللجنة المركزية ، بأن ذلك الضابط كان عميلاً استفزازياً في خدمة الغيبيو التي كانت قد كلفته بالتجسس على المعارضة ، وقد أكد ستالين صحة ذلك واضاف : « لكن اين وجه السوء في أن يساعد ضابط قديم في جيش فرانغل الحكومة السوفياتية على كشف المؤامرات المضادة للثورة ؟ أليس من حق السلطات السوفياتية أن تكسب الى قضيتها ضباطاً قدامى وتستخدمهم لنزع الاقنعة عن منظمات مضادة للثورة[٨٦] ؟ » . هكذا إذاً بعد أن استخدم ستالين الضابط السابق في جيش فرانغل كإثبات للنشاطات ذات الطابع المعادي للثورة ، التي تقوم بها المعارضة ، أكد أنه لا يرى لماذا لا يستخدم هذا الضابط لتقديم الدليل . فهتفت المعارضة : « أنتم اعداؤنا ، ومضطهدونا ، أنتم وشاة أوغاد ! » لكنها لم تَبَلَّ من عواقب الوشاية تلك .

كانت تلك هي القضية الوحيدة التي دفعت تروتسكي للعودة بأسرع ما يكون الى موسكو . خلال اقامته في القوقاز ، كان بريزيديوم الكومنترن قد أعلن بصورة غير متوقعة إطلاقاً انه سيجتمع قبل نهاية ايلول/سبتمبر ، وان على جدول اعماله مسألة طرد تروتسكي من الهيئة التنفيذية للأممية . في ٢٧ ايلول/سبتمبر مثل تروتسكي امام الهيئة التنفيذية وتكلم للمرة الاخيرة فيها . توجه الى مندوبي كل الاحزاب الشيوعية بكلام فيه من الاحتقار قدر ما فيه من الانفعال . ولقد كانت تلك المحكمة تثير السخرية ، فمن كان اولئك الشيوعيون الاجانب الجالسون في المنصة للحكم على احد مؤسسي الاممية ،

---

٨٦ - ستالين ، سوش ، ج ١٠ ، ص ١٨٧ .

ولينكروا عليه كل جدارة ثورية ؟ كانوا المحرضين على انتفاضات جهيض ، محترفين تقريباً للهزيمة الثورية ، أو قادة شلل مجدها الوحيد يكمن في ثورة اوكتوبر ١٩١٧ التي كان المتهم أحد صانعيها الكبار . كان هنالك مارسل كاشين ، الذي أرسلته الحكومة الفرنسية خلال الحرب ، في حين كان تروتسكي قد طُرد من فرنسا ككاتب لبيان زمرفالد ، وذلك لمساندة حملة موسوليني لصالح الحرب ؛ وكان هنالك دوريو ، الفاشيستي لاحقاً ، عميل هتلر[٨٧] ، وتالمان الذي سيقود الشيوعية الالمانية للاستسلام امام هتلر عام ١٩٣٣ ، ثم يموت فيها بعد في معسكر اعتقال هتلري ؛ ورروي الذي كان قد عاد من الصين حيث بذل كل ما في وسعه لجعل الحزب الصيني يلعق حذاء تشانغ كاي تشك . ولقد جرى تكليف مورفي ، المندوب التافه لأحد الاحزاب الشيوعية الأكثر تفاهة ، الحزب الانكليزي ، لتقديم اقتراح الطرد . وكان الاحتقار الذي واجه به تروتسكي تلك المحكمة القراقوزية على مستوى الاهانة التي وجهتها اليه .

قال للهيئة التنفيذية : « إنكم تتهمونني بخرق الانضباط . لكن حتى حكمكم جاهز سلفاً ، وأنا متأكد من ذلك[٨٨] . » ما واحد من اعضاء الهيئة التنفيذية كان يجرؤ على ان يكون له رأي شخصي . كانوا جميعاً لا اكثر من منفذي أوامر . وكان خنوعهم يصل الى حد ان الامين العام للحزب الروسي كان قادراً على أن يسمح لنفسه بوقاحة من مثل إرسال مندوب لحزب شيوعي اجنبي الى مقاطعة ضائعة في مجاهل روسيا كي يشغل منصب موظف صغير . كان تروتسكي يلمّح هنا الى ڤويو ڤيتش ، الممثل اليوغسلافي لدى الكومنترن ـ وكان زينوفييفياً ـ الذي سيطرد منها فيها بعد . وهو ، أي تروتسكي ، جرت دعوته لمحاسبته على احتكامه للاممية ضد الحزب الروسي ؛ « تماماً كما في ظل القياصرة ، يُنزل البريستاف (القاضي) في أيا منا هذه ضرباته بمن يتجاسر على الشكوى ضده لدى من هو أعلى منه » . لم يكن لقادة الشيوعية العالمية المزعومين حتى القدر من الشهامة الذي يدفعهم على الأقل لانقاذ المظاهر : لشدة تزلفهم نسوا ان يطردوا من الهيئة التنفيذية تشانغ كاي تشك ووانغ شينغ ـ واي ؛ وكان الكيومنتانغ لا يزال عضواً في الأممية . لكنهم جلسوا للحكم على اولئك الذين كانوا من لحم الثورة الروسية ودمها[٨٩] . .

وتابع تروتسكي قائلاً إنهم لم يعقدوا طوال اربع سنوات متتالية مؤتمراً واحداً للأممية :

---

٨٧ ـ يبدو أن دوريو لم يكن حاضراً الدورة ؛ لكنه كان عضواً احتياطياً في الهيئة وأحد متَّهمي تروتسكي الاكثر تكالباً وشراسة .

٨٨ ـ المحفوظات .

٨٩ ـ قال تروتسكي ان جريدة لومانيتيه حيّت في تشانغ كاي تشك « بطل كومونة شانغهاي » .

اما في ايام لينين ، فكان ثمة مؤتمر في كل عام ، حتى إبان الحرب الاهلية والحصار . ما من مرة واحدة جرى فيها نقاش المشكلات الخطيرة التي انطرحت ، لأن كل تلك المشكلات كانت محرَّمات ؛ وفي كل حالة كانت حلول ستالين كارثية . « لماذا تحتفظ صحافة الاحزاب الشيوعية بالصمت؟ لماذا تواصل صحافة الاممية الصمت ؟ » إن الهيئة التنفيذية كانت تدوس بالاقدام بصورة شبه يومية انظمة الاممية ، ثم تأتي بعد ذلك لتتهم المعارضة الروسية بخرق الانضباط . « إلا أن المعارضة لم تقترف إلا خطأً واحداً - قال تروتسكي - هو انها خضعت بالكثير من الطاعة لمخططات الامانة العامة الستالينية التي أنزلت الكوارث بالثورة . » « ان الطريقة التي يُعَدُّ بها مؤتمر الحزب الروسي مهزلة . . . سلاح ستالين المفضل النميمة . » « كل من يعرف التاريخ يعرف أيضاً أن طريق المغتصبين مبلطة دائماً بوشايات من هذا النوع . » ما كان في وسع المعارضة ان تتخلى عن حقها بأن تدين علناً نظاماً يمثل خطراً مميتاً للثورة : « عندما تكون يدا جندي مغلولتين ، لا يكون العدو هو الخطر الاكبر بل القيود التي تغل يديه . »

ويروي مورفي ، صاحب اقتراح الطرد ، أنه شن هجومه بأقصى ما لديه من قوة وعزم . هاجمَنا « بصدد كل وجوه المشكلات التي تمت مناقشتها خلال السنوات الثلاث الاخيرة . . . وكان ذلك جهداً بليغاً لا يقوى عليه غيره . » ثم ادار ظهره للهيئة التنفيذية الخاصة بالجسم الذي قد جسد أعظم آماله ، « ومضى مرفوع الرأس الى الخارج[٩٠] » . لكن الهيئة التنفيذية لم تشعر بالبلبلة التي كانت لا تزال تربك اللجنة المركزية الروسية ، وكان حكمها ، في الحقيقة ، جاهزاً سلفاً .

في تلك الفترة بالذات ادى الصراع في موسكو الى حادثة دبلوماسية أثارت رد فعل عالمياً . فمنذ قطع العلاقات الانكليزية - الروسية ، كانت علاقات الحكومة السوفياتية بفرنسا قد توترت . فالصحافة والحكومة الفرنسيتان كانتا قد اثارتا من جديد شكواهما بخصوص الديون غير المدفوعة ، وهي شكوى سُمعت لأول مرة حين الغت حكومة لينين كل الديون القيصرية المتوجبة للدائنين الاجانب . كان المكتب السياسي واللجنة المركزية

---

٩٠ - ج . ن . مورفي ، نيو اوريزون ، ص ٢٧٤ - ٢٧٧ . يروي مورفي أنه التقى قبل الجلسة تروتسكي في الممشى . « كان الكل قد أتوا مرتدين معاطف ضخمة وعلى رؤوسهم قبعات الفرو ولم يعد هنالك مكان شاغر على المشجب . بدا ان تروتسكي يفتش عن شيء ما ، حين سأله (سكريتير مورفي) : « أتريد مساعدة ، ايها الرفيق تروتسكي ؟ » وكان الجواب فورياً ، وسريعاً وحاداً كلسعة سوط : « أخشى أنْ لا ، فأنا أبحث عن شيئين : عن شيوعي حقيقي وعن مكان أعلق عليه معطفي . وكلاهما لا يمكن أن يوجدا هنا . » وقد طال الاجتماع من التاسعة والنصف الى الخامسة صباحاً .

قد ناقشا الموضوع في مناسبات مختلفة . في عام ١٩٢٦ ، كان تروتسكي يؤ يد موقفاً مصالحاً تجاه الفرنسيين . فانكلترا كانت تشهد يومذاك تحركاً عمالياً واسعاً ، وكانت الثورة الصينية في حالة صعود ، بينما كانت تعاني فرنسا من عواقب التضخم . وكان الاتحاد السوفياتي في موقع قوة . وقد اكد تروتسكي انه كان من المناسب تقديم بعض التنازلات للفرنسيين وارضاء مطالب صغار اصحاب الريع : لكن في تلك الفترة ـ حسبما يروي تروتسكي ـ كان ستالين في حالة ثقة بالنفس مفرطة ، فلم يرد الاصغاء الى اي حديث عن أية مساومة . ثم في خريف ١٩٢٧ ، حين عاد الموضوع الى جدول الاعمال ، اراد ستالين أن يفعل شيئاً لتلبية المطالب الفرنسية . وكان تروتسكي واصدقاؤه هم الذين يرفضون آنذاك اي تسوية . أوضح تروتسكي أنه بعد سحق الثورة الصينية ، وانهيار المجلس الانكليزي ـ السوفياتي والقطيعة مع بريطانيا العظمى ، كانت الحكومة السوفياتية في حالة من الضعف لا تسمح لها بالتنازل ، فكل تنازل من جهتها سوف يتم اعتباره علامة ضعف جديدة .

بالنسبة للمعارضة ، تعقد الوضع لأن راكوفسكي ، بوصفه سفيراً هو الذي كان يقود الوضع في باريس ، وقد غدا مرمى الهجمات الفرنسية ، ومنذ آب/اغسطس ، كان الممثل الفرنسي في موسكو قد عبر عن الاستياء الذي تسببه لحكومته صلات راكوفسكي بالمعارضة التروتسكية[٩١] . لكن ستالين حاول فيما بعد ، في اللجنة المركزية ، أن يستخدم راكوفسكي ضد تروتسكي : زعم ان راكوفسكي ، « وهو معارض مخلص وصادق » ، هو الذي كان يدفع موسكو للتنازل للفرنسيين . فكتب تروتسكي لراكوفسكي طالباً اليه ان يفهم ويتذكر ان دوره في باريس اصبح نقطة فاصلة في الصراع داخل الحزب[٩٢] . وما كان يمكن لتعلق راكوفسكي بالمعارضة وشخص تروتسكي بالذات ، واخلاصه لهما ، إلا ان يعطيا للرسالة كل وزنها . لكن حتى قبل أن يتلقاها راكوفسكي ، اتخذ مبادرة اثارت إحدى اكبر العواصف الدبلوماسية في تلك الحقبة ، لقد وقع بياناً يدعو العمال والجنود في البلدان الرأسمالية للدفاع عن الاتحاد السوفياتي في حال نشوب حرب . وفي تلك السنوات من « التوطيد » و « التطبيع » في العلاقات الدبلوماسية مع الحكومات البورجوازية ، كان نادراً ما يطلق سفراء سوفيات نداءات ثورية من هذا النوع . ولقد أفلتت الصحافة الفرنسية العنان لحقدها ، واعلنت الحكومة الفرنسية راكوفسكي شخصاً غير مرغوب فيه . قال أريستيد بريان ، وزير الخارجية ، إنه لا بد أن تقوم الحكومة السوفياتية ، عن طيب

---

٩١ ـ انظر دوغراس (اد .) ، وثائق سوفياتية حول السياسة الخارجية ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ ـ ٢٥٥ .

٩٢ ـ رسالة من تروتسكي الى راكوفسكي في ٣٠ ايلول/سبتمبر ١٩٢٧ ، المحفوظات .

خاطر ، باستدعاء سفيرها غير المنضبط لا سيما أنه ليس مناسباً ان يمثلها في باريس أحد المنتمين الى المعارضة .

كان جواب موسكو ملتبساً . فلقد دافع تشيتشرين ، المفوض في الشؤون الخارجية ، عن سفيره ، لكن الوزير الفرنسي لم يكن مخطئاً حين فكر أن هجماته على راكوفسكي لم تكن لتغيظ اطلاقاً رؤساء تشيتشرين . اتهم تروتسكي ستالين بالقيام بمناورات ليس فيها شيء من الاستقامة بصدد استدعاء راكوفسكي : قال إنه كان على الخارجية السوفياتية أن ترد على بريان بقساوة معلمة اياه بأن عليه الا يتدخل في الشؤون الداخلية للحزب البلشفي . لكن لما كانت الحكومة الفرنسية اعتبرت راكوفسكي شخصاً غير مرغوب فيه ، كانت الحكومة السوفياتية مضطرة لاستدعائه . أما راكوفسكي ، الذي كان دبلوماسياً من الطراز الرفيع ، فقد تحمل مهامه في الخارج بنفاد صبر ، ولم يكن يطلب بعد اربع سنوات من الغياب الا أن يغوص من جديد في الصراع داخل روسيا بالذات . وتروتسكي ايضاً كان مسروراً لرؤية صديقه القديم من جديد . ولقد استفادت المعارضة بعض الشيء من استدعاء راكوفسكي : فأحد قادتها اجتذب ضده صواعق غضب حكومة بورجوازية لأنه دعا العمال والجنود الاجانب للدفاع عن الاتحاد السوفياتي ، وهو ما كان يبيّن مدى بطلان تهمة الانهزامية التي كانت تلصق بالمعارضة وقصة « الجبهة الموحدة من تشامبرلن الى تروتسكي » .

إذ فهم ستالين أنه لا يكفي أن يراكم اتهامات على رأس خصومه ، حاول حينئذ أن يقوي شعبيته بصورة اكثر ايجابية . كانت المعارضة قد جددت ، في برنامجها ، المطالب التي كانت قدمتها في السنة السابقة ، وهي مطالب التزمت الكتلتان الحاكمتان فيما بعد بالاستجابة لها . كانت المعارضة طالبت بزيادات للعمال الذين كانوا يحصلون على أسوأ الاجور وأدناها ، وتطبيقاً دقيقاً ليوم العمل من ثماني ساعات ، وإعفاء من الضرائب للفلاحين الفقراء ، الخ . وكان البرنامج يؤكد أن الكتلتين الحاكمتين لم تفيا بأي من وعودهما ، وان ظروف حياة الجماهير البروليتارية ونصف البروليتارية قد تفاقمت . اما رد ستالين فكان مذهلاً : اعلن أن الحكومة سترسي قريباً يوم العمل من سبع ساعات واسبوع العمل من خمسة أيام ، وان العمال سيحصلون على الاجور ذاتها التي كانوا يحصلون عليها من قبل . وهذا الاصلاح كان سيتم بمناسبة العيد العاشر لثورة اوكتوبر ، الذي كان موعده يقترب . كان المكتب السياسي سيوجه في ذلك التاريخ بياناً الى الامة يمجد فيه يوم العمل من سبع ساعات كأكبر مكاسب الاشتراكية حتى ذلك الحين وكنتيجة للسنوات العشر الاولى

من الثورة .

كانت تلك خدعة كبيرة . فالاتحاد السوفياتي كان افقر بكثير من ان يستطيع توفير ذلك الترف لنفسه ؛ وبعد ثلاثين عاماً من ذلك الحين ، بعد أن اصبح الاتحاد السوفياتي ثاني قوة صناعية في العالم ، كان العمال لا يزالون يشتغلون ثماني ساعات في اليوم وستة ايام في الاسبوع(٩٣) . لكن ستالين لم يهتم اطلاقاً بوجه المسألة الاقتصادي ، وقد قدم تلك القطعة المغرية جداً من تشريع العمل ، دون ان يكون ناقش موضوعها مسبقاً مع النقابات والغوسپلان وحتى مع اللجنة المركزية . أما البوخارينيون فأبدوا حذرهم . لم يُخْفِ تومسكي ، من موقعه في قيادة النقابات ، استهجانه لذلك الاجراء الديماغوجي ، لكن ستالين أبدى عناده وأرغى وأزبد وانتهى الى ما يريد . ففي اواسط اوكتوبر/تشرين الاول اجتمعت اللجنة المركزية التنفيذية للسوفييتات في دورة غير عادية في لينغراد لتوافق بالصورة الاكثر احتفالاً ورسمية على مبادرة ستالين .

في تلك الدورة ، قدم كيروف التقرير الحكومي ، وفي ١٥ تشرين الاول/أوكتوبر انتقل تروتسكي الى الهجوم المضاد مبرهناً على ما كانت تلك القضية تنطوي عليه من نفاق واحتيال.اعاد الى الأذهان أنه حين طلبت المعارضة زيادة متواضعة في الاجور ، أجيبت باستنكار أن في ذلك مخاطرة باستنفاد الموارد الاقتصادية للبلاد . فكيف كان يمكن الآن إذاً أن يتلاءم اقتصاد البلاد مع يوم عمل من سبع ساعات ؟ حتى يوم العمل من ثماني ساعات لم يكن مطبقاً حقاً في صناعة الدولة ، فبأي ضربة عصا سحرية كان يمكن لستالين إذاً أن يقدم على ذلك التعديل ؟ أما كان اكثر شهامة أن تُقدم للعمال بعض المكاسب الأخف اهمية لكن الحقيقية اكثر ؟ كان من العار الاحتفال بذكرى الثورة بمثل ذينك الدجل والتضليل . وقد لفت تروتسكي الانتباه الى أن أياً من مشاريع الخطة الخمسية الاولى ، التي جرى إنجازها بعد سنوات من الاعداد ، لم يكن ينطوي على أدنى تلميح الى خفض يوم العمل . فكيف بالامكان تصور إنقاصه بصدق ، في حين جرى توقع يوم عمل أطول لسنوات عديدة قادمة ؟ وقد خلص تروتسكي الى اعتبار أن كل الاصلاح الملحوظ لا يهدف إلا لأمر واحد : مساعدة الجماعة الحاكمة على سحق المعارضة .

كان الحق والحقيقة والشرف الى جانب تروتسكي : لم تكن تلك المرة الأولى ولا

---

٩٣ ـ هكذا فان يوم العمل من سبع ساعات واسبوع العمل من خمسة ايام كانا ساريي المفعول نظرياً ورسمياً خلال ما يقرب من ١٣ عاماً . وفي بداية الحرب العالمية الثانية ، تقرر الرجوع الى الاسبوع العادي واليوم من ٨ ساعات . وقد دام هذا النظام ٢٠ عاماً تقريباً . ولم تجر إلا عام ١٩٥٨ العودة التدريجية الى اليوم من سبع ساعات (لكن ليس الى الاسبوع من خمسة ايام) .

الأخيرة التي تقوده فيها تلك الصفات الى مصيدة . فما كان شيء يخدم ستالين أكثر من احتجاجات تروتسكي . اندفع الستالينيون بكثافة الى المصانع ليكشفوا للعمال آخر جريمة اقترفها تروتسكي . قالوا لهم إنه يريد ان ينتزع من العمال المكاسب التي كان حزبهم يمنحهم إياها ؛ لقد عارض ذلك الاصلاح التاريخي الذي كان يطبع فجر الاشتراكية . ماذا كانت تفيد إذاً إعلاناته المعبرة عن الاستقامة البلشفية ؟ ما كان ينبغي الاعتقاد بخصوص هذا البطل المزعوم للطبقة العاملة ؟ لقد كان العمال في المعامل يجهلون حجج تروتسكي . لا شك أن عمالاً واعين متقدمين في السن تصوروا تلك الحجج وحكموا على هدية ستالين المسمومة كما ينبغي . لكن الجمهور الواسع ، والساذج ، استقبلها بفرح ولم يتحمل الانتقادات . كانت المعارضة قد عالجت مشكلات تتخطى من بعيد وعي العمال ، من مثل الكيومنتانغ ، والمجلس الانكليزي ـ السوفياتي ، والثورة الدائمة ، وترميدور ، وكليمنصو ، الخ . والنقطة الوحيدة التي أمكنها أن تكون مفهومة تماماً بصددها هي تلك المتعلقة بتحسين شروط المعيشة للعمال . فذلك المطلب عاد عليها بتعاطف ربما كان سلبياً وعابراً إلا انه كان معمماً . ذلك التعاطف اختفى إذاك في الجزء الاكبر منه . وقف حائط من اللامبالاة والعداوة يحاصر المعارضة .

مع ذلك ـ لأن المرء غالباً ما لا يمكنه الامتناع عن تمني ذلك بالذات الذي يصعب عليه كثيراً أن يأمله ـ ففي تلك الفترة بوجه التحديد حملت حادثة غريبة الى قادة المعارضة العزاء والتشجيع . فخلال الدورة التي نوقش فيها يوم العمل من سبع ساعات جرى تنظيم مظاهرات رسمية في لينغراد على شرف ذلك الاصلاح ، بكل الابهة والاحتفال التقليديين ، تضمنت بين ما تضمنت استعراضاً عسكرياً وعرضاً لجمهور كثيف من الناس . لم يكن تروتسكي وزينوفييف على المنصة الكبرى بين القادة . وليس معروفاً إذا كان صدفةً أو نتيجة اختيار ، كما لو للتعبير عن عدم اتفاقهما مع السياسة الحكومية ، كانا على منصة صغيرة على مسافة ما من المنصات الرسمية ، لكن الجمهور كان سيمر كذلك أمامها . كان خلف تروتسكي قصر توريد حيث زمجر ودوّى قبل عشر سنوات ضد كيرنسكي وأثار حماس العمال حين دعاهم الى العمل ، الى الثورة . بعد أن تجاوزت صفوف المتظاهرين المنصات الرسمية اقتربت ، فتعرفت الجموع على قائدي المعارضة ، ووقفت ، ثم تحركت من جديد ، ثم توقفت أيضاً ، ناظرة اليهما بصمت ؛ وارتفعت أيدٍ ، ثم كثيرات غيرها ، وجرى التلويح بقبعات ومناديل ؛ انطلق الجمهور من جديد ثم توقف مرة اخرى . وسرعان ما أحاطت بالمنصة جموع كثيفة وأوقف المسير بالكامل ، في حين كان فراغ كبير ينفتح أمام المنصات الرسمية. هل كان ذلك صدى الصيحات والهتافات

الحماسية لجماهير عام ۱۹۱۷ ؟ في الحقيقة أن الجمهور الذي كان يحيط بتروتسكي وزينوفييف كان مضطرباً اضطراباً عميقاً ، لكنه بقي خجولاً وما يشبه المنسحق . لقد بقي موقفه ملتبساً . وإذا كان ثمة تعبير عن التعاطف والود ، فلقد كان الامر يتعلق بتعبير صامت ، ربما ينم عن الاحترام أو الرثاء حيال المهزومين ، لكنه لم يكن ينم عن إرادة القتال الى جانبهما .

لكن قادة المعارضة أخطأوا في تقدير معنى ذلك التعبير . كتب شاهد عيان : « كان ذلك تهليلاً صامتاً ، مهزوماً ، يهز المشاعر بعمق » . لكن « زينوفييف وتروتسكي قبلاه بفرح لامتناه ، على أنه تظاهرة قوة . وقالا في المساء : « إن الجماهير معنا[٩٤] » . ولقد كان للحادثة نتيجة لا تتناسب اطلاقاً مع اهميتها الحقيقية . فبسببها قرر قادة المعارضة ان يوجهوا مباشرة « نداء الى الجماهير » في ذكرى الثورة ، بعد ثلاثة اسابيع من ذلك الحين ، معتقدين ان الجماهير هي معهم حقاً . أما الكتلتان الحاكمتان فرأتا في الموقف الملتبس للجمهور تحذيراً ، وفهمتا ان عليهما ألا تبادرا لأية مخاطرة إزاء المزاج الشعبي .

عاد ستالين الى الهجوم بعد ذلك . ففي ٢٣ تشرين الاول/اوكتوبر ، طالب مجدداً بطرد تروتسكي وزينوفييف من اللجنة المركزية ، وانتهى بعد أربعة أشهر من التكالب والاصرار الى التغلب على تردد ومقاومة الناس الذين كانوا يؤلفون محكمة الحزب العليا . فهؤلاء كانوا قد غدوا مستعدين للانصياع لارادته ، لكن مخاوفهم وهواجسهم كانت لا تزال تحاصرهم ، وقد ظهر ذلك في العنف والانفعال الاستثنائيين اللذين طبعا المناقشات . سيطر على تلك المناقشات توتر مَرَضي ، كما بمعرض إعدام يشعر الجلاد ومعاونوه خلاله إزاء ضحيتهم بمقدار من الخوف يعادل ما يشعرون به من الحقد ، ويطرحون على أنفسهم أسئلة ممضة حول عدالة عملهم وعواقبه . مهما تفعل الضحية أو تقل ، تتناهبهم فوراً انفعالات متعارضة تولد انفجارات غضب مسعورة . فالجميع مقتنعون انه ينبغي ان تموت الضحية إذا ارادوا الحياة لأنفسهم ، والجميع يرتجفون هلعاً حين يفكرون بالأهوال التي ستنتج عن ذلك . يحاولون أن يخنقوا وساوسهم بحفز الجلاد على السرعة أكثر ، ويصرخون بالشتائم المخجلة والثقيلة ضد المحكوم عليه ، وذلك كي يدفعوا به بشكل أسرع الى عمق الهاوية . ذلك كان سلوك الستالينيين والبوخارينيين ، الذين لم يتوقفوا عن

---

٩٤ ـ فيكتور سرج ، مذكرات ثوري ، ص ٢٣٩ ، انظر وصف تروتسكي للمشهد ذاته في Moya Zhizn (حياتي) ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ، الذي يعكس الامل والتفاؤل اللذين شعر بهما وهو يقوّم للوهلة الاولى تلك المظاهرة .

مقاطعة مرافعات تروتسكي بانفجارات حقد وبأوسخ السباب . رفضوا أن يصغوا الى حججه ، وطلبوا الى الرئيس أن يوقفه عن الكلام . ومن مكتب القضاة انهمرت محابر ومجلدات وقدح ماء على رأس تروتسكي في حين كان يتكلم . وانبرى ياروسلافسكي وشفيرنيك وبتروفسكي ، رئيس جمهورية اوكرانيا ، وآخرون يحفزون ستالين بصيحات عالية كي يختم تلك القضية . هكذا فإن التهديدات والعبارات اللاذعة والشتائم المقذعة التي تتالت بلا انتهاء جعلت تلك المحكمة تشبه جمعية مجانين هائجين[٩٥] .

من الجماعة الحاكمة ، كان ستالين هو الوحيد الذي تكلم بهدوء ، فعبر عن حقد بارد وشرس ، ولم يشعر بأدنى هاجس او شك . اعاد التعداد المعتاد للاتهامات . إن حديثه ، الذي برر خلاله استخدام **العملاء الاستفزازيين** (« ضابط فرانغل ») ضد اعضاء الحزب ، يمكن اعتباره ، حتى من جانبه ، ذروة السخرية والوقاحة[٩٦] . وتكلم تروتسكي ، هو الآخر ، بالقدر ذاته من السيطرة على الذات . علا صوته فوق الجلبة من اجل معركة أخيرة قبل رحيله النهائي . شرح للكتل أنه لم يكن لدى ستالين هدف آخر غير إبادة المعارضة بأسرها . ووسط الهزء والسخرية ، تنبأ بالسلسلة الطويلة من التطهيرات الدامية التي لن يذهب ضحيتها أنصاره وحدهم بل حتى عدد من البوخا رينيين والستالينيين أيضاً . عبر عن ثقته ، المنطوية على تمنٍّ ، بأن انتصار ستالين سيكون هزيلاً وبأن انهيار النظام الستاليني سيتم بغتة كما نتيجة زلزال . قال إن المنتصرين اليوم يعتمدون كثيراً جداً على العنف . ولا شك ان البلاشفة حصلوا على « نتائج عظيمة » حين استخدموا العنف ضد الطبقات الحاكمة القديمة والمناشفة والاشتراكيين الثوريين الذين كانوا يدافعون جميعاً عن قضايا خاسرة او رجعية . لكن لا يمكن أن تدمر بالطريقة ذاتها معارضة تدافع عن التقدم التاريخي . « اطردونا ، فلن تحولوا دون نصرنا » تلك كانت الكلمات الأخيرة التي سمعها المجلس الاعلى للحزب من فم تروتسكي .

* * *

تبعت ذلك اسابيع من النشاط المحموم . كانت المعارضة لا تزال تحصل على تواقيع للبرنامج أملاً بالتأثير على الرأي العام الحزبي بعدد المنتسبين اليها . فزينوفييف كان يتوقع الحصول على عشرين الى ثلاثين الف توقيع . وقد أوضح قائلاً إنه امام البرهان على الدعم

---

٩٥ ـ في رسالة الى الامانة العامة للجنة المركزية ، احتج تروتسكي في اليوم التالي على المحضر غير الكامل عن كلمته ، الذي وضعته الدوائر الرسمية ، والذي اغفل بوجه خاص اية إشارة الى تلك المشاهد . المحفوظات .

٩٦ ـ ستالين ، سوش . ، ج ١٠ ، ص ١٧٢ ـ ٢٠٥ .

الكثيف الذي تحظى به المعارضة ، سيجد ستالين نفسه مضطراً لوقف اية اعمال انتقام جديدة ؛ وقد يمكن المعارضة حتى ان تهيىء عودتها الى مسرح الاحداث . اختار قادتها اليوم الذي يصادف ذكرى الثورة ليطلقوا ذلك « النداء الى الجماهير » الذي كان يدور في خلدهم منذ مظاهرة لينينغراد. لم يكن سهلاً تحديد شكله النهائي : كان الامر يتعلق بجعل الجماهير تعي مطالب المعارضة ، وبتأليبها على قادتها الرسميين ، مع الحرص في الوقت ذاته على منع هؤلاء من استخلاص الذرائع من ذلك النداء لاتهام المعارضة بخرق الانضباط . وقد كان ذانك الشرطان صعبي الجمع . وقد ناقش أعضاء المعارضة ليل نهار لاعداد أنفسهم لامتحان القوة .

أمضى تروتسكي ، مثله مثل رفاقه ، الجزء الاكبر من وقته في الاحياء الفقيرة والعمالية في الضاحية ، مثلما كان يفعل اثناء شبابه كثوري مغمور ، مناقشاً ومفسراً المبادىء ووجهات النظر ، مثقفاً مجموعات صغيرة من الانصار المتحمسين والقلقين . لم يكن يجمعه الا القليل بروبسبيير عشية الترميدور ، الذي قارن نفسه به . كان فيه بالاحرى مزيج معقد من دانتون وبابوف ؛ لكنه كان يشبه في تلك الفترة اكثر ما يشبه هذا الاخير ، القائد المطارَد لمؤامرة المتساوين ، المطالب بأعلى صوته ببعث الروح الثورية ، والمتحدي البناة العنيدين للدولة ـ اللوياثان الجديدة . ومثلما أخذ موج التاريخ الهائج بابوف في طريقه ، أخذ تروتسكي بالقوة والاندفاع نفسيهما . ولقد وصف فيكتور سرج احد تلك الاجتماعات كما يلي :

« كان خمسون شخصاً يملأون غرفة طعام بائسة ، يصغون الى زينوفييف ، الذي بدا سميناً ، شاحباً ، أشعث ، وكان يتكلم بصوت منخفض ؛ كان هنالك حوله شيء ما مترهل لكن كذلك شديد الجاذبية . . . وفي الطرف الثاني من الطاولة جلس تروتسكي . كان يبدو شائخاً بوضوح ، وقد شاب شعره تقريباً ، وانحنت قامته ، وكانت قسماته واضحة المعالم . كان ودياً ويجد دائماً الجواب المناسب . فجأة سألته عاملة جالسة ، مصلبة ساقيها على الارض : « وإذا طردونا من الحزب ؟ » فأوضح تروتسكي انه « لا شيء يمكن في الواقع ان يفصلنا عن حزبنا » . أما زينوفييف ، الذي كان وجهه يرسم نصف ابتسامة ، فشرح كيف أننا ندخل في حقبة من النضالات لا بد أن يكون خلالها حول الحزب مطرودون ، ونصف مطرودين ، أجدر دون ادنى شك باسم البلاشفة من الأمناء الحزبيين . كان بسيطاً ومؤثراً ان ترى أناس ديكتاتورية البروليتاريا ، الذين كانوا الى الأمس ممتلئين قوة وسلطة ، يعودون هكذا الى الاحياء الفقيرة ويتكلمون هنا

كرجال لرجال ، ساعين وراء الدعم ووراء الرفاق . وكان هناك على مقربة من الدرج متطوعون يحرسون ، مراقبين الممرات والطرقات ،خشية ان تأتي الغيبيوفي اية لحظة .

وفي إحدى المرّات كنت ارافق تروتسكي الخارج من احد تلك الاجتماعات، المعقودة في مسكن رث ، موسوم بالبؤس . حين بلغنا الشارع ، رفع ليون دافيدوفيتش طوق معطفه وخفض مُقدَّم قلنسوته لكي لا يعرفه أحد . بدا الآن شبيهاً بمثقف قديم ، لا يزال مستقيماً بعد عشرين عاماً من البلى والتمزق . اقتربنا من صاحب عربة ورحت أساوم بصدد اجرة الانتقال لانه لم يكن معنا غير القليل من المال . أما العربجي ، وكان فلاحاً ملتحياً من النموذج القديم ، فانحنى تجاهه وقال : « منك لا آخذ شيئاً أيها الرفيق ، اصعد ، فأنت تروتسكي ، اليس كذلك ؟ » لم تكن القلنسوة قد اخفت بما فيه الكفاية وجه بطل معارك سفياشسك وقازان وبولكوفو وتزاريتسين . ولقد أضاءت بسمة ضئيلة بهيجة وجه تروتسكي الذي قال له : « لا تخبر احداً بهذا . فالكل يعرفون ان اصحاب العربات ينتمون الى البورجوازية الصغيرة التي يمكن أن يفقدنا حظوتنا مجرَّدُ جميلٍ تقدمه لنا »[٩٧] .

حين أجاب تروتسكي العاملة الجالسة مصلبة ساقيها على الارض ، قائلاً : « لن يستطيع أي شيء أن يفصلنا في الواقع عن حزبنا » لم يكن يقدم لها محض تعزية شكلية . فتروتسكي ، مثله مثل زينوفييف ، كان يتوقع حالات طرد جماعية يأمل ان تشكل صدمة صحية للحزب . فقد يستيقظ وعي الحزب آنذاك ، ويطلب الناس أن يروا ذلك البرنامج كي يفهموا بأنفسهم القضية التي كانت تدافع عنها المعارضة ، والمناقشة الكبرى التي كانت هذه الاخيرة قد طالبت بها غالباً وبلا جدوى قد يمكن افتتاحها في الاخير . وكان يقدّر ان ستالين قد يخفق في تحقيق رغباته لشدة التلهف عليها : فإذا جرى طرد الآلاف من اعضاء الحزب كمعادين للثورة ، فلا بد أن يجري إدخالهم السجون بعد ذلك . وما كان يمكن ذلك الا ان يهز الحزب بعمق ويجعله يعي ان قمعاً بهذا الاتساع قد يعني « نهاية ديكتاتورية البروليتاريا » . وفي الحقيقة ان الكثير من الستالينيين والبوخارينيين كانوا الآن منزعجين لفكرة ان يصبحوا مضطهدي رفاقهم ورفاقهم في السلاح ، وجلاديهم . وقد اضطر ستالين ومولوتوف لتطمينهم بأن الامور لن تصل الى هذا الحد وبأنه لن تكون ثمة حاجة لعمليات طرد واسعة ، لأن المكتب السياسي سيتدبر امر المعارضة بحيث يدفع بها

---

٩٧ ـ فيكتور سرج ، المنعطف القاتم ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

الى التوقف قبل ان يفوت الأوان والى الاستسلام . أما تروتسكي فأبرز في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر تلك التأكيدات ، داعياً المعارضة للابقاء على هجوميتها كما كانت دائماً ؛ فحينئذ فقط ، إذ يرى جمهور الستالينيين والبوخارينيين أن ادعاآت قادتهم مخيبة للآمال ، فسوف يدفعونهم لايقاف اضطهادهم ، ويجبرون المبادرين للاضطهاد بالذات على الترنح والاستسلام[٩٨] . لكن مزاعم ستالين ومولوتوف لم تكن فارغة إطلاقاً ، فلقد قاسا مدى ضعف المعارضة وتوقعا أن يتعثر الزينوفييفيون على الاقل في اللحظة الحرجة ، وينهاروا . بانتظار ذلك هدَّأت التأكيدات بأنه لن تكون ثمة حاجة الى الطرد الجماعي القلق والمخاوف ، دافعة الحزب لأن ينتظر بصورة سلبية تتمة الاحداث ويعتاد سلفاً على ما سيأتي فيما بعد .

من جهة اخرى ، فإن سيل الافتراآت والتهديدات الذي انصب على المعارضة أعاق جهودها كثيراً . فالقليل القليل تجرأوا على وضع توقيعهم في اسفل البرنامج الذي كانت الاجهزة الرسمية تندد به كل يوم كوثيقة تخريبية . وعوض ٢٠ ألف توقيع الى ثلاثين الفاً كان يأمل زينوفييف الحصول عليها ،لم تجمع المعارضة اكثر من خمسة آلاف الى ستة آلاف توقيع[٩٩] . ولقد بلغ الخوف من الانتقام درجة دفعت قادة المعارضة الى أن يتوخوا حماية أنصارهم عن طريق الامتناع عن كشف اكثر من عدة مئات من الاسماء . وهكذا لم تكن الحملة لتوقيع البرنامج غير دليل جديد على ضعف المعارضة .

كتبت سيدوفا أن تروتسكي كان في تلك الفترة « يرزح تحت عبء العمل ، متوتراً وبصحة سيئة . كانت حرارته مرتفعة وقليلاً ما كان يستطيع النوم » . فإذا كان تروتسكي لا يتزعزع ولا يلين في وجه اعدائه ، وكان مثلاً للتحكم بالذات والطاقة والعزم بالنسبة لانصاره ، فلقد كان يستعيد في حياته العائلية الحميمة كل الضعف الانساني . عبثاً قاتل أرقه وسهاده ، فما من علاج أراحه . كان يعاني اكثر فأكثر من اوجاع الرأس والدوار ، وكان كئيباً وقرفاً . وفي بعض الاحيان ، كان يظهر كما لو أن حساسيته يخنقها الحقد والخبث المذهلان اللذان يرزحان فوقه من كل الجهات . كتبت امرأته : « لدى الافطار ، كنا نراه يفتح الصحف ، وينظر اليها نظرة سريعة ، ثم يرمي بها على الطاولة دون ترتيب ، مليئاً

---

٩٨ ـ المحفوظات .

٩٩ ـ هذه هي أرقام المعارضة . ف . سرج ، مذكرات ثوري ، ص ٢٤٣ . اما الستالينيون فأكدوا ان المعارضة لم تجمع اكثر من ٤٠٠٠ توقيع . ووفقاً لبوبوف ، المؤرخ الستاليني ، حصلت المعارضة على ٦٠٠٠ صوت من اصل ٧٥٠ الفاً اثناء انتخابات المؤتمر . (التاريخ العام للحزب الشيوعي السوفياتي ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .)

بالقرف والاشمئزاز . لم يكن فيها غير اكاذيب بلهاء ، وتشويهات لأبسط الوقائع ، وشتائم فظة ، وتهديدات وضيعة وبرقيات من كل انحاء العالم تكرر بخنوع متهافت وبلا حدود الكلام المخزي ذاته . . . « ما الذي فعلوه بالثورة ، وبالحزب ، وبالماركسية ، وبالاممية[١٠٠] ! »

مع تروتسكي ، وفي الوقت ذاته ، شربت عائلته بأسرها كأس الهزيمة المرة : في قلقها ، وتوقعها الأسوأ ، كانت تعاني هي الأخرى من الأرق . كانت تلك ليالي سهاد أمضوها يتخيلون الكارثة الجديدة التي قد يحملها الغد معه . ثم كان يطلع النهار ويصل الاصدقاء ، ويستعيد الجميع قناع الشجاعة والنضال . حتى سيدوفا ، التي لم تكن تستسيغ السياسة كثيراً والتي كانت تشعر بالراحة داخل متحف او في صالة رسم اكثر مما بين اعضاء حزبيين يناقشون وينظمون ويكافحون ، سيدوفا التي كان يحفزها حبها لزوجها وإخلاصها له كانت في القلب بالذات من تلك المأساة . ولما كانت تخلت عن اهتماماتها الشخصية لتضع نفسها في ظل زوجها ، عاشت حياته بكل خلجاتها ، وشاركته افكاره ، واحست بغضبه وتعبه وهمه .

أما ولدهما البكر ليوفا ، الذي كان آنذاك بلغ الواحدة والعشرين ، فقد أمضى طفولته ومراهقته ، تماماً مثلما سيقضي البقية من حياته القصيرة ، تحت سحر العظمة الأبوية . فأن يكون ابناً لتروتسكي ، ويشاركه افكاره ، ويسير على خطاه ، كل ذلك كان بالنسبة للمراهق ثم للشاب ينبوع فرح عظيماً . لقد انضم الى الكومسومول بالحيلة ، قبل أن يبلغ السن المطلوبة ، بأن ادعى بلوغ تلك السن ؛ كان قد حاول ايضاً الانخراط في الجيش الاحمر . غادر منزل والده في الكرملين ليعيش في فندق جماعي وسط عمال وطلاب جائعين وبؤساء . وكان قد انضم الى المعارضة منذ تأسيسها . وكانت تجربة مذلة بالنسبة اليه أن يلاحظ كيف ان الكومسومولات ، التي كان لا يزال والده بالنسبة اليها قبل قليل اسطورة حية ، جرى دفعها لخوض حرب ضد التروتسكية . وبورع بنويٍّ بقدر ما هو ثوري ، حقد على الرجال الذين أدانهم والده كبيروقراطيين أفسدتهم السلطة . خلال سنوات ثقّف مجموعات من المعارضة ونظّمها ، وخطب في خلايا الحزب وتكلّم إلى جانب قياديين في المعارضة بشهرة بياتاكوف وبريوبراجنسكي ضمن لقاآت في المقاطعات وصولاً الى الأورال . كانت طاقة فتوية تدعم تفاؤله وثقته . لكن إبان تلك الاسابيع المشؤومة ،

---

١٠٠ ـ حياة تروتسكي وموته ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

وبقدر ما كانت تنفجر الشراسة والعنف ، بدأ يخاف على حياة والده الذي أصبح مساعده وحارسه الذي لا ينفصل عنه ، مستعداً في كل لحظة لأن يقفز على عنق المهاجم الأول .

وخلافاً لليوفا ، فإن سرجي الاصغر منه بعامين ، كان قد تمرد خلال مراهقته على السلطة الأبوية ، رافضاً الحياة في الظل الكبير لوالده . وقد تجلى تمرده بالحقد على السياسة ، فلم ينضم الى الكومسومول . لم يكن يريد الاصغاء الى قضايا الحزب ولم يرد أن يعمل بأي شكل من الأشكال مع المعارضة . كان قوياً ، وشجاعاً ، ومغامراً ، أو ـ كما كان يعتقد والده وأخوه ـ مستهتراً ، وهكذا كان يحب الألعاب والرياضة والفنون . وقد اجتذبه السيرك (الذي كان يتطلع في روسيا تلك الايام الى مقام فن مستقل) و ـ كما يبدو ـ ممثلة في السيرك ، فغادر البيت في الكرملين وقاسم فرقة من الممثلين حياتها طوال عام أو عامين . وبعد أن غنى الابن الشاطر موّاله عاد الى منزله الوالدي . وفي حين بقي يحس بالغيرة ذاتها على استقلاله وبالتشكك ذاته حيال السياسة ، شغف بالرياضيات والعلوم مبرهناً فيها على القدرات الخارقة ذاتها التي كان يتميز بها والده في عمره . وشيئاً فشيئاً دمّر شعور جديد عداءه لوالده وللسياسة . فلقد هزت الشاب بعمق شجاعة الوالد وبطولته ، وأغضبته الأعمال التي كانت تطوله وتطول من يشاركونه التفكير ، وكانت تشغله وتقلقه الشكوك والاخطار الراهنة .

أما الفرع الآخر من العائلة ، ذلك المنبثق من الزواج الأول لتروتسكي ، فكان معنياً هو الآخر بعمق بالمأساة . فألكسندرا سوكولوفسكايا ، الشائخة ، كانت لا تزال تحمل القناعات التي لا تتزعزع ذاتها ، تلك القناعات التي كانت تعبر عنها من دون ادنى خوف بوجه الجميع بلا استثناء ، مثل الشابة الماركسية المتوحدة في التسعينات في نيكولاييف . كانت محور كل تروتسكيي لينينغراد . اما ابنتاها ، زينا و نينا ، وكان عمر الاولى ٢٤ عاماً والثانية ٢٦ عاماً ، فكانتا تسكنان موسكو . كلتاهما كانتا معارضتين متحمستين، وكلتاهما كانتا فخورتين وفرحتين بأن تكونا ابنتي ذلك الأب ، مثلما كانتا عام ١٩١٧ إبان صعوده المحموم ، وكلاهما كانتا تحملان الآن قلباً محطماً . أما زوجاهما ، وكانا تروتسكيين نشيطين للغاية ، فقد خسرا عملهما ووسائل كسب معيشتهما ، وطُرد احدهما من الحزب بينما لن يتأخر نفي الآخر الى سيبيريا . هكذا بين انياب الفقر والوحدة ، والقلق الدائم على زوجيهما واولادهما وأهلهما ، كانت الاثنتان تعانيان من السّل الذي سيجعل منهما الضحيتين الاوليين لقدر لم يوفر اياً من اولاد تروتسكي .

* * *

عشية ذكرى الثورة ، كانت المعارضة مستعدة لاطلاق « ندائها الى الجماهير » . تلقى مناضلوها التعليمات بالمشاركة في احتفالات ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ، لكن بحيث ينشرون افكار المعارضة ومطالبها بين ملايين الاشخاص الذين سيملأون في تلك المناسبة شوارع المدن السوفياتية وساحاتها . كان ينبغي أن تمر الأمور بحيث لا تُعطى أية فرصة للاتهام بالتحريض على الثورة أو على العصيان. كانت التعليمات الى اعضاء المعارضة بأن يمروا في صفوف متراصة ، لكن متمايزة بوضوح ومنفصلة ، من ضمن الموكب الرسمي ، حاملين راياتهم الخاصة بهم وشعاراتهم . كان ذلك بريئاً للغاية ، من الخارج ـ لأنه لم يكن يستهدف الجماعة الحاكمة إلا بصورة غير مباشرة الى حد بعيد ـ بحيث ان المشاهدين واسعي الاطلاع والوعي السياسيين يستطيعون وحدهم ان يميزوا شعارات المعارضة من شعارات الحكومة .

كانت شعارات المعارضة كالتالي : « فليسقط الكولاك ، والنيبمان والبيروقراطي ! » ، « الموت للانتهازية ! » ، « نريد أن نرى وصية لينين ! » ، « فلنحل دون انفجار الحزب ! » ، « فلننقذ الوحدة البلشفية ! » . كانت معدة بوجه الحصر للحزبيين، كما لبعض العناصر الخارجية التي كانت معنية بصورة حميمة بتوجه السياسة البلشفية ومتعاطفة معه . لذا لا يمكن ان نصف عمل المعارضة جدياً بأنه « نداء الى الجماهير » حقاً ؛ لقد كان أكثر نداءً الى الحزب . لكن لما كانت قد وُضعت المعارضة خارج الحزب ورأت كيف يحال بينها وبين اي اتصال بالجمهور الواسع لمناضلي القاعدة ، فقد اطلقت نداءها من خارج الحزب ، تحت أنظار الامة والعالم . حاولت المعارضة أن تعود الى المسرح السياسي بالاحتجاج ضد الطريقة التي كانت الزمرة الحاكمة تقود بها شؤون الحزب ، وفي الوقت ذاته باعطاء الدليل على انضباطها الداخلي وإخلاصها للحزب . لكن الاحتجاج كما جرى تصوره ما كان يمكن أن يبلغ غايته ويصل الى الاسماع ؛ اما إبداء الانضباط الداخلي فقد بقي فاقداً للفعالية . وإذا جرى الالتزام دوغمائياً وبدقة بحرفية الأنظمة الحزبية ـ وما كان يمكن الامل بأن يفعل ستالين غير ذلك ـ كانت مظاهرة عامة ضد قادة الحزب تشكل بالتأكيد خرقاً للانضباط . وباختصار ، ذهبت المعارضة بعيداً جداً ، أو أنها لم تبتعد كفاية . لكن موقفها والظروف هي التي اجبرتها على فعل ذلك ومنعتها من ان تفعل أكثر .

في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر منيت المعارضة بهزيمة ساحقة . فستالين لم يترك نفسه يؤخذ على حين غرة ، وكان أعطى الأمر بالقمع الفوري وغير المسبوق بأي نقاش لكل محاولة تظاهر مهما تكن بريئة . فمن وجهة نظره ، كانت كل محاولة خطرةً ، لأنه إذا حدث

أن لقي خصومه نجاحاً في هذه المرة ، لا شيء يسمح بالقول إنهم لن يتوصلوا في نهاية المطاف ، اليوم أو غداً ، الى أن يجروا خلفهم الجماهير المستاءة والساخطة ، لكن الخائفة . كان ستالين يعرف تماماً أنه حتى وهو يقترب من أعلى البرج يمكن أن تزل قدمه بصمت ويفقد كل شيء ؛ فرغم الضربات المخيفة التي وجهها لخصومه ، كان لا يزال في وسع هؤلاء أن يكنسوه إذا هو ترك لهم أدنى حرية عمل . لذا انقضت في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر جماعات من رجال الشرطة والنشاطيين على مجموعات المعارضين التي كانت تحاول رفع راية ، أو نشر صورة لتروتسكي او زينوفييف ، او الهتاف بشعار محظور . وهكذا جرى تشتيت المعارضين واساءة معاملتهم وضربهم . وقد دافعوا عن أنفسهم كيفما اتفق وقدر ما سمح لهم وضعهم كأناس عُزَّلٍ من السلاح ، حاولوا ان يعيدوا التجمع ومواصلة التظاهر ، واضطربت الشوارع والساحات بالمشاجرات وهجمات رجال الشرطة ، وبجلبة الجماهير التي تتفرق وتتجمع ، الى أن فهم المشاهدون الأقل معرفة سياسية ان حدثاً خطيراً وحاسماً يجري امام اعينهم ، وان الصراعات التي كانت تمزق الحزب تركت مسرح اجتماعات الخلايا الى مسرح الشارع وان المعارضين يطالبون الجميع بدعمهم . وفي الواقع ان القمع هو الذي حول عمل المعارضة الى شيء يشبه الاحتكام الى الجماهير ، وأحاطه بجو الفضيحة وجعله يظهر كنصف انتفاضة .

ولقد قدم فيكتور سرج وصفاً بالغ الحيوية لتظاهرة ٧ تشرين الثاني/نوفمبر في لينينغراد[١٠١]. فمنذ ١٥ تشرين الاول/اوكتوبر كانت المعارضة تعلق آمالاً كباراً على اهالي لينينغراد. وقد وصل زينوفييف الى المدينة مطمئناً الى ردود فعلهم ، مفعماً بالتفاؤ ل . لكن الجهاز الحزبي المحلي ، الذي حذرته احداث ١٥ تشرين الأول ، كان مستعداً للتحرك السريع . في البدء ، مرت مجموعات المعارضة ، مثلها مثل باقي المتظاهرين ، امام المنصات التي كان القادة الرسميون يتابعون الاستعراض منها . ثم رفعت راياتها وأطلقت شعاراتها ، فمر المشهد كما لو لم يلاحظه أحد . لكن سرعان ما طوقت الشرطة المتظاهرين بهدوء وعزلتهم . ويروي سرج كيف حالت حواجز الشرطة بينه وبين الانضمام مجدداً الى المتظاهرين فتوقف لحظة يتأمل مرور مجموعة من العمال الذين كانوا ينشرون راياتهم الحمراء ويتوجهون الى وسط المدينة . من حين لآخر ، كان بعض النشاطيين يستديرون نحو مجموعات الرجال والنساء التي تمر في العرض ويطلقون شعاراً . حينئذ خطا سرج خطوات نحو الموكب وهتف : « عاش تروتسكي وزينوفييف ! » أو شيئاً من هذا القبيل .

---

١٠١ ـ فيكتور سرج ، مذكرات ثوري ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

فلم يجب المتظاهرون الا بصمت مندهش . ثم رد أحد النشاطيين بعد أن استرد صوابه ، بصوت غاضب ومهدد : « الى صندوق القمامة ، أنت وهما ! » اما العمال السائرون فبقوا صامتين . فشعر سرج بأنه عرض نفسه للخطر و« سوف يمزَّق إرباً » . وفجأة بلغه صوت ؛ كان سرج وحده بمواجهة العرض ، وعلى بعد خطوات خلفه امرأة وطفل فقط . وقد اجتاز أحد الطلاب الفراغ الذي يفصل سرج عن الموكب وهمس في أذنه : « دعنا نبتعد ، فسوف تسوء الأمور . وأنا أرافقك لكي لا ينقض عليك أحد من الخلف » .

وفي حي آخر من احياء المدينة ، على مقربة من الارميتاج ، كان « عدة مئات من المعارضين يشتبكون لكن بلطف مع الميليشيا » . كان رجل طويل في بزة عسكرية ـ كان هذا الرجل باكاييف ، القائد السابق للغيبيو في لينغراد ـ يقود « موجة بشرية » في وجه رجال شرطة على احصنتهم يحاولون ايقافها . وبعد كل مرة كانت تدفع فيها « الموجة » الى الوراء ، كانت تتكون من جديد وتعود الى المواجهة . وفي مكان آخر تبع جمهور من العمال رجلاً قصيراً ممتلىء الجسم في هجوم على الشرطة الراكبة . وقد انتزع الرجل القصير وممتلىء الجسم شرطياً من سرجه وقلبه ، ثم ساعده على النهوض مجدداً ، وبصوت مدوٍّ واثق « معتاد على الأمر » ، صرخ : « كان يجب ان تخجل من نفسك ، كيف لا تخجل من الهجوم على عمال لينغراد ؟ » والرجل الذي كان يستشيط هكذا غضباً رفاقياً ، كان لاشيفيتش ، نائب مفوض الحرب سابقاً ، الذي « قاد جيوشاً » في الماضي . مثل تلك المشاجرات تمت في مختلف انحاء المدينة طوال ساعات . كانت مجموعات من الفضوليين تنظر « خرساء ، مذهولة » . وفي المساء ، خلال اجتماع للمعارضة ، رأى سرج من جديد باكاييف ولاشيفيتش اللذين جاءا بثيابهما الممزقة لنقاش احداث اليوم .

أما في موسكو فلم تكن الاضطرابات والاصطدامات بين رجال الشرطة والمتظاهرين تنطوي على ادنى حد من اللطف والرفاقية . فلقد انقض رجال كوماندوس من النشاطيين والبوليس على مجموعات المعارضة بكل شراسة وفظاظة . والمدينة ، التي هزتها الازمة بعمق ، كانت خائفة . ويروي شاهد عيان كان يهتم ، في كل حال ، بوجه خاص بالاصغاء الى الاشاعات الآتية من المصادر الرسمية ، قائلاً : « سرت اشاعات عشية ذكرى الثورة ، تقول ان الجيش المتجمع في الساحة الحمراء لأجل العرض السنوي قد يتظاهر ضد ستالين . فقد يصرخ جندي او ضابط شجاع : فليسقط ستالين ! ويصرخ الآخرون مرددين الشعار[١٠٢] . » لكن شيئاً من ذلك لم يحدث : هذا ما كتبه شاهد

---

١٠٢ ـ ل . فيشر ، Men and Politics ، ص ٩٢ .

العيان . ففي البدء نجحت بعض مجموعات المعارضين المتوجهة الى ضريح لينين ، في ان تنشر راياتها هنا وهناك ، لكن قبل أن تبلغ الساحة الحمراء ، طوقها رجال الكومندوس الذين مزقوا الرايات واجبروا المعارضين على الانضمام الى الموكب الرسمي . وهكذا فإن المعارضين ، المطوقين بخصومهم ، والمضطرين الى السكوت ، والسير وراء بقية الجموع ، مروا امام القادة الروس ومدعويهم الاجانب ، المتجمعين في الساحة الحمراء . فقط « الطلاب الصينيون في جامعة صن يات صن بموسكو . . . شكلوا كوكبة طويلة ومتعرجة . وحين وصلوا الى منتصف الساحة الحمراء ، رموا في الفضاء منشورات كتبت عليها بيانات تروتسكي » . وخارج الساحة طُرد المعارضون من الصفوف ، وهوجموا بالهراوات وجرى تشتيتهم أو توقيفهم . وفي العديد من الامكنة ، دلىً المعارضون من النوافذ المزينة بالاعلام صور لينين وتروتسكي . وقد جرى تمزيقها في كل الامكنة ، وأسيئت معاملة الذين علقوها . وفي دار السوفييتات ، كان سميلغا الذي عاد من خاباروفسك قد زين شرفته بصور لينين وتروتسكي ، وفوقها شعار : « انشروا وصية لينين ! » فاقتحمت المكان عصابة من الاجلاف ، ومزقت الصور والراية ، وخربت المسكن ، وضربت الرجل الذي اقدم قبل عشر سنوات على ادخال اسطول البلطيق في النيفا ، وصولاً الى بتروغراد ، لاجل إنجاد ثورة اوكتوبر . كانت جريمته اليوم تتمثل بكونه عرض صورة قائد تلك الانتفاضة . اما سيدوفا ، التي كانت ضمن مجموعة من المتظاهرين ، فقد ضربتها الشرطة .

أمضى تروتسكي اليوم بكامله متجولاً في المدينة بواسطة سيارة ، بصحبة كامينيف ومورالوف . توقف في ساحة الثورة وحاول ان يخطب في صف من العمال المتوجهين الى ضريح لينين . وللحال حاصره رجال الشرطة والنشاطيون ، وأطلقت عيارات نارية . وقد سُمعت هتافات من مثل : « فليسقط تروتسكي ، اليهودي ، الخائن ! » وجرى تحطيم زجاج السيارة الامامي . ولا شك ان العمال السائرين تضايقوا للغاية ، لكنهم واصلوا تقدمهم .

بماذا فكرت الجموع التي كانت تملأ شوارع المدينة المختلفة ؟ لم يعرف احد ، ولم يستطع احد أن يحزر . لقد مشت منصاعة على امتداد الطرقات المحددة ، وهتفت بالشعارات المحددة ، والتزمت آلياً بالانضباط المحدد ، من دون ان تكشف حقيقة افكارها ، أو تعبر بحرية عن مشاعرها ، وإنْ من ضمن حركة عفوية تصدر عنها . كانت بذلك تتناقض تماماً مع حشود عام ١٩١٧ الجائعة والخشنة ، والشهمة والودود ،

والمتحمسة والنشوى ! وأي تناقض ايضاً بين الهيئة الحالية للمدن و وجه تلك الثورة التي كان يجري الاحتفال اليوم بذكراها ! واي تناقض اخيراً بين حظوظ القادة ! فقبل عشر سنوات كان عمال العاصمتين مستعدين للتضحية بحياتهم لدى كلمة يتفوه بها تروتسكي ، بينما لا يريدون الآن حتى أن يديروا رؤوسهم للاستماع اليه . قبل عشر سنوات ، حين رأى تروتسكي مارتوف يغادر السوفييتات على رأس مجموعة منشقية ، صاح به صيحة الظفر : « امض ، امض إلى مزبلة التاريخ » ، وقد غطى صوته تصفيق البلاشفة المدوي كالرعد . اما اليوم فأجاب صدى ساخر في ساحة لينغراد ، حين اراد احد المعارضين تمجيد اسم تروتسكي : « إلى المزبلة معه ! » . وتساءل المعارضون : « هل عاد دولاب التاريخ الى الوراء ، أو أنه تطاير شظايا ؟ ربما هذا هو الترميدور الروسي ؟ »

هذه الاسئلة طرحها تروتسكي على نفسه أيضاً . رأى الكثير من الرجال الذين قادوا الثورة البلشفية يصطفون الى جانبه . بدا منافياً للطبيعة والعقل التأكيد بأن هزيمته وهزيمتهم ، إذلاله وإذلالهم ، لم يكن لهما معنى تاريخي عميق ، وبأنهما لم يكونا يشيران الى تلك « الحركة الهابطة » من حركات الثورة ، ذلك « الفصل الثاني » الذي تكلم عليه في اللجنة المركزية قبل اشهر معدودات . وعلاوة على ذلك رأى أيضاً انه إذا كانت هيئة الثورة قد تبدلت ، وتبدل مناخها والوانها ، فإن قسماتها العريضة والواضحة بقيت حادة وقاطعة كما كانت دائماً ، وبقيت غير مهتزة وغير مفسدة . كان لا يزال الحزب الذي يحكم الجمهورية هو الحزب البلشفي ، الحزب الذي كانت المعارضة لا تنفك تضمر له ولاء لا يزول . كان تروتسكي يعتبر انه رغم انحطاط الجمهورية البيروقراطي ، كانت لا تزال تمثل ديكتاتورية البروليتاريا ، وكان لا ينفك يفصل نفسه والمعارضة عن كل اولئك الذين اعتبروها دولة بوليسية جديدة ، تحكمها « طبقة جديدة » قطعت كل صلاتها بالطبقة العاملة وبالاشتراكية . رفض اعتبار البيروقراطية كطبقة مستقلة جديدة ـ نظر اليها « كزائدة فطرية مرضيَّة على جسم الطبقة العاملة » . فالملكية العامة بقيت دون مساس حيثما أرستها البلشفية ، ولم يتوصل الكولاك والنيبمان حتى ذلك الحين الى ربح معركتهما . والتناقض بين دولة العمال الاولى والرأسمالية العالمية بقي في كامل قوته ، وإن كان لم يعد يعبر عن نفسه بنزاعات مسلحة . الكثير من الاشياء تغيرت . . . وعلاوة على ذلك اشياء قليلة . كما لو ان اعصاراً اكتسح المسرح ودفع بالممثلين في اتجاهات متعاكسة ، وزعزع كل ما يمكن زعزعته ، ومال بالمسرح ذات اليمين وذات اليسار ، لكنه لم يضعف بنيته الصلبة ولم يفسدها . بدا مستحيلاً أن تكون تلك هي النهاية . لا شك ان الاعصار كان ينذر بزلزال ؟ لقد استخلص تروتسكي ان ٧ تشرين الثاني/نوفمبر « لم يكن بعد الترميدور

السوفياتي » ، لكنه كان بالتأكيد « عشية الترميدور »(١٠٣) .

يروي سرج انه في مساء ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ، حين اجتمع المعارضون اللينغراديون ، كان يمكن سماع صوتين اثنين . احدهما ردد مهدداً : « لا حيلة لدينا ، وسنواصل القتال » فسأل الصوت الثاني بقلق : « ضد من سنقاتل ؟ ضد شعبنا الخاص بنا؟» والصوتان عيناهما كان يمكن سماعهما حيثما التقى معارضون . كانت القاعدة ان التروتسكيين هم الذين كانوا يتحدثون عن مواصلة القتال ، بينما كان انصار زينوفييف هم الذين يطرحون السؤال المربك . كان زينوفييف قد عاد من لينغراد محبطاً كلياً . بدأ يأسف ، هو وكامينيف ، لتلك المحاولة البائسة للاحتكام الى الجماهير التي انطلقا بها بثقة مفرطة . اما تروتسكي فلم يكن آسفاً لشيء ، فالمعارضة فعلت ما كان عليها ان تفعل ، وما كان في وسعها ألا تفعل ما فعلت . وقد كرر القول : Advienne que pourra* وغداة اليوم المشؤوم طالب بريزيديوم لجنة الرقابة المركزية ، والمكتب السياسي بتعيين لجنة تكلف بالتحقيق في ما جرى . كان تروتسكي لا يزال متفائلاً ، ولقد شرح لأنصاره كيف ان المظاهرة لم تكن كارثية على الاطلاق : لقد كتبت المعارضة على راياتها : « فلننقذ الوحدة البلشفية » ، فهي اظهرت إذاً ما كانت تقاتل من اجله وانتزعت من ستالين شعاراً حاول الاستفادة منه . فاجاب زينوفييف وكامينيف ان المعارضة وصلت في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر الى حافة الانشقاق وانها اذا كانت تريد حقاً انقاذ الوحدة البلشفية عليها التراجع الى الوراء .

طيلة ايام عديدة ، نوقشت الامور التي يجب القيام بها بعد الذي حصل . ولقد تراجع تروتسكي سريعاً عن تقويمه لنتائج ٧ تشرين الثاني/نوفمبر . فبعد خمسة أيام فقط من كتابته أنه استمتع لكون المعارضة « انتزعت من ستالين شعار الوحدة » ، أوضح أنه « فات أوان الكلام على الوحدة » لأن جهاز الحزب غدا « الاداة فاقدة الارادة للقوى الترميدورية » وما عاد في وسعه الامتناع عن تصفية المعارضة لصالح الكولاك والنبمان(١٠٤) . أما زينوفييف وكامينيف فلم يكونا واثقين من ذلك بالمقدار ذاته : استندا الى بعض التغييرات الطفيفة في السياسة الستالينية ليؤكدا أن ستالين كان ينقلب الآن ضد

١٠٣ ـ انظر « كشف حساب الذكرى السنوية » ، المقال الذي كتبه تروتسكي في ٨ نوفمبر ، في المحفوظات .

(*) ـ فليحصل ما سوف يحصل » ، هذا هو معنى الجملة الواردة في النص الاصلي بالفرنسية . (م) .

١٠٤ ـ انظر « زابيسكا » (مذكرة) في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ، المحفوظات .

الكولاك والنبمان . ومهما يكن ، فقد كانا يعتقدان أن الأوان « لم يفت للحديث عن الوحدة » .

في ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر انعقدت اللجنة المركزية ولجنة الرقابة المركزية في دورة استثنائية ، واعتبرتا أن زينوفييف وتروتسكي اقدما على التحريض على مظاهرات معادية للثورة ، والتحريض عملياً على الانتفاضة[١٠٥] ، وطرداهما من الحزب . وتم اقصاء راكوفسكي وكامينيف وسميلغا وايفدوكيموف من اللجنة المركزية ، واقصي باكاييف ومورالوف وآخرون من لجنة الرقابة المركزية . كما جرى طرد مئات مناضلي المعارضة من خلاياهم ، وهكذا بعد اشهر وسنوات ترددت خلالها كل الكتل وناورت وتقدمت وتراجعت لتعود الى القتال فيما بعد ، تم الانشقاق في الحزب .

* * *

في مساء ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ، حين عاد تروتسكي الى بيته ، اعلم عائلته بأن عليهم مغادرة بيتهم في الكرملين . ولقد بادر من ناحيته الى مغادرته في الحال : كان يشعر بأنه اكثر اماناً خارج الكرملين ، ولا سيما خارج مكان اقامة الجماعة الحاكمة . ولقد اقام مؤقتاً في غرفة صغيرة في غرانوفسكي ، الشارع رقم ٣ ، في بيت بيلو بورودوف ، وهو معارض كان لا يزال مفوضاً للشؤون الداخلية في الجمهورية الفدرالية الروسية . كان بيلو بورودوف الرجل الذي اعطى الامر في عام ١٩١٨ بإعدام نقولا الثاني في ايكا تيرنبورغ . وخلال ايام ، بقي الجميع يجهلون كل شيء عن تروتسكي . قلقت الجماعة الحاكمة وخافت وراحت تتساءل : ما الذي يمكن ان يعدّه تروتسكي ، وألا يكون « عاد الى السرية » ؟ والحقيقة ان تروتسكي لم يكن ينوي ذلك على الاطلاق ، عدا أن السرية امر مستحيل بالنسبة لشخص بشهرته . غداة طرده أعلم سكرتير الهيئة التنفيذية المركزية للسوفييتات التي كان لا يزال عضواً فيها من الناحية النظرية بعنوانه الجديد[١٠٦] . وإذ غادر الكرملين هكذا ، تجنب إذلالاً تعرض له قادة المعارضة الآخرون : ففي ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر طردوا جميعاً من مساكنهم ، وقد روى احد اصدقائهم قصة انتقالهم الغريب من الكرملين . فزينوفييف خرج غير حامل تحت إبطه إلا قناع الموت الخاص بلينين ؛ ذلك القناع كان له وجه مخيف بملامحه الحزينة وقد حظرت الرقابة صنع نُسخ عنه ونشرها ، وقد

١٠٥ ـ المحفوظات ؛ الحزب الشيوعي السوفياتي والثورة ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ .

١٠٦ ـ اعلم كذلك الهيئة التنفيذية بأن امرأته واحد ولديه كانا مريضين ولا يستطيعان الانتقال ، لكنهما سيغادران البيت خلال ايام . المحفوظات .

بقي القناع ملكاً لزينوفييف . ثم جاء دور كامينيف ؛ ذلك الرجل الذي لم يتخط الاربعينات الا اخيراً ظهر فجأة وقد ابيض شعره . كان يبدو « شيخاً جميلاً ذا عينين صافيتين للغاية » . أما رادك فكان يرزم كتبه ، تمهيداً لبيعها . قدم لمن كانوا يحيطون به مجلدات من الشعر الالماني على سبيل الذكرى . ثم تمتم بمرارة ساخرة : كم كنا حمقى ! ليس معنا فلس في حين كان أمكننا جمع ثروة حرب . اليوم تقتلنا قلة المال ، وباستقامتنا الثورية المعروفة لم نكن غير مثقفين عاجزين مفعمين بالوساوس . . . »[١٠٧]

في الفترة ذاتها ، خرج رجل آخر بطريقة مختلفة . ففي مساء ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ، دوّى فجأة طلق رصاص في صمت الكرملين . لقد انتحر ادولف أبراموفيتش يوفي . كان قد كتب قبل موته رسالة الى تروتسكي يوضح له فيها ان تلك كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنه الاحتجاج بها على طرد تروتسكي وزينوفييف والتعبير عن كل استهواله للامبالاة التي قابله بها الحزب . لقد كان تلميذ تروتسكي وصديقه منذ عام ١٩١٠ ، يوم كان طالباً مصاباً بالعصاب ، وساعد تروتسكي على إصدار البرافدا الفيينوية . ومع تروتسكي انضم الى الحزب البلشفي عام ١٩١٧ وكان عضواً في اللجنة المركزية اثناء ثورة اوكتوبر . رقيق القلب ، لطيف البسمة ، ودود الكلام ، وبهذه الصفات كان هذا الرجل واحداً من اكثر المدافعين عن الثورة واكثر منظميها اندفاعاً . وقد غدا فيما بعد احد كبار الدبلوماسيين البلاشفة ، فقاد اول وفد سوفياتي الى بريست ـ ليتوفسك وكان اول سفير سوفياتي في برلين . تفاوض بشأن معاهدة الصلح مع بولونيا عام ١٩٢١ ، وبشأن معاهدة الصداقة بين حكومتي لينين وصن يات صن بعد عام من ذلك الحين . ثم عين بعد ذلك سفيراً في فيينا ، ثم في طوكيو . وفي بداية عام ١٩٢٧ ، عاد من طوكيو وكان مصاباً بالسل بشكل خطير ، ويعاني من التهاب الأعصاب ، فعين مساعداً لتروتسكي في ادارة لجنة الامتيازات . وقد يئس الاطباء من حالته في موسكو ونصحوه بأن يستشفي في الخارج . وتدخل تروتسكي لصالحه لدى مفوض الصحة والمكتب السياسي[١٠٨] ، لكن المكتب السياسي رفض ارساله للاستشفاء في الخارج بحجة ان ذلك يكلف غالياً جداً : ١٠٠٠ دولار . وكان ناشر اميركي عرض على يوفي قبل قليل ٢٠ الف دولار لقاء نشر مذكراته ، فطلب السماح له بالسفر والمعالجة على ان يتكفل هو بنفقات ذلك . إلا ان ستالين حظر عليه عندئذ نشر مذكراته ، ورفض اعطاءه رخصة بالسفر ، وحرمه من كل

---

١٠٧ ـ فيكتور سرج ـ المنعطف القاتم ، ص ١٤٠ .

١٠٨ ـ إن رسائل تروتسكي الى سيماشكو ، مفوض الصحة (٢٠ يناير ١٩٢٧) والى المكتب السياسي موجودة في المحفوظات .

عناية صحية ، وانهكه بشتى انواع المضايقات . كان مسمَّراً على سريره ، لا تترك له الآلام لحظة راحة ، خالي الوفاض تماماً ، وفاقد المعنويات إزاء وحشية الاضطهاد الذي تتعرض له المعارضة ، فأطلق النار على رأسه[109] .

ان رسالة يوفي الاخيرة مهمة من اكثر من جانب : فعدا كونها تسلط الضوء على موقفه حيال تروتسكي ، تشكل وثيقة انسانية وسياسية استثنائية . وهي أخيراً فعل إيمان بمناقبية ثورية .

يبدأ يوفي بتبرير انتحاره ، وهو عمل تدينه في العادة الاخلاق الثورية . في صباه كان قد وقف ـ حسبما يذكر ـ ضد بيبل ، مدافعاً عن بول ولورا لافارغ ، صهر ماركس وابنته ، اللذين انتحرا معاً حين لم تعد الشيخوخة والامراض تسمح لهما بأن يكونا مناضلين مفيدين .

« طيلة حياتي ، فكرت بان على رجل السياسة أن يعرف متى ينبغي ان يرحل وان عليه القيام بذلك في اللحظة المناسبة . . . في اللحظة التي يعي فيها أنه لم يعد يمكنه ان يكون مفيداً للقضية التي خدمها . قبل اكثر من ٣٠ عاماً تبينت وجهة النظر التي تقول ان ليس للحياة البشرية من معنى الا بمقدار ما تكون في خدمة اللامتناهي ـ الذي هو بالنسبة الينا الانسانية ؛ وبما ان ما تبقى متناه ، فالعمل من أجله فاقد للمعنى . وإذا كان للانسانية من نهاية بالضرورة ، فهذه النهاية ستأتي في اية حال في عصر بعيد جداً ، بحيث يمكن ان نعتبر الانسانية لا متناهياً مطلقاً . واذا كان المرء مثلي يؤمن بالتقدم ، فيمكنه ان يتخيل انه إذا زال كوكبنا فستجد الانسانية وسيلة للمضي وسكنى كوكب اكثر فتوة . . . هكذا كل ما يكون قد انجز لخيره في عصرنا سيستمر قائماً في القرون اللاحقة . بفضل ذلك يأخذ وجودنا المعنى الوحيد الذي يمكنه ان يكون له .

وبعد ان يعبر يوفي ، بلغة ماركسية وضمن منظور الحادي ، عن التطلع القديم للانسان الى الخلود ، خلود البشرية وعبقريتها ، يتابع فيقول إنه كان لحياته معنى طوال ٢٧ عاماً ، لأنه عاش لأجل الاشتراكية . لم يبذِّر يوماً واحداً ، حتى في السجن لأنه كان يدرس

---

١٠٩ ـ في حين كان يوفي يكتب رسالته الى تروتسكي ، جاءت امرأته تقول له ان المكتب السياسي يرفض السماح له بالسفر الى الخارج خلال شهر او شهرين .

هناك يومياً ويعد نفسه للمعارك الآتية . لكن لم يعد لحياته اليوم معنى . كان عليه ان يمضي ، فذلك واجبه ، ولقد وجّه له طرد تروتسكي وصمت الحزب الضربات الأخيرة ؛ فلو كان بصحة جيدة لكان قاتل في صفوف المعارضة . لكن ربما انتحاره ، « هذا الحدث الصغير مقارناً بطردك » (و « بادرة احتجاج ضد اولئك الذين حولوا الحزب الى حال لم يعد في وسعه معها ان يرد بوجه ذلك العار ») سيوقظ « الحزب ويحول دونه ومواصلة الطريق الى الترميدور » . لكنه كان يخشى ان تكون ساعة اليقظة لم تأزف بالنسبة للحزب . في كل حال ـ قال ـ سيكون مماتي اكثر فائدة من حياتي .

ثم يتذكر يوفي صداقتهما الطويلة والعمل المشترك ، ليعتذر من ثم ، بأقصى ما لديه من التواضع ، لكونه « يستفيد من هذه المناسبة المأساوية » ليقول لصديقه ما بدا له أنه نقطة الضعف الرئيسية لديه . كم من المرار قبل ذلك الحين وقع تحت إغراء قول ذلك له ، لكنه لم يستطع ان يحزم أمره . لم يشكّ يوماً في صحة مواقفه السياسية منذ عام ١٩٠٥ . وهو كان سمع لينين ذاته يؤكد ذلك ويعترف بأن الذي كان محقاً في المساجلات الماضية حول الثورة الدائمة ليس هو بل تروتسكي . « ان المرء لا يكذب قبل أن يموت ، ومرة اخيرة كنت اريد ان اقول لك كل هذا[١١٠] » « لكني فكرت دوماً انه ينقصك قليلاً إصرار لينين وصلابته وعناده، قدرته على أن يكون وحده ويواصل وحده الطريق التي كان يعتبرها الأصح . . . غالباً ما تراجعت عن موقف صحيح لتتمكن من عقد اتفاق أو مساومة تبالغ في تقدير اهميتهما وقيمتهما . » وعند هذه النقطة ترك لتروتسكي ما يشبه دعوة اخيرة لكي يجد في ذاته تلك « القوة التي لا تقهر » التي ستضمن لمثلهما الاعلى المشترك النصر ، ربما المتأخر قليلاً ، لكن الاخير والنهائي .

تلك المآخذ التي أملاها إخلاص صديق على وشك الموت ومودته ، ما كان يمكن الا ان تصيب من تروتسكي وتراً وتهزه هزاً : حتى نهاية حياته بقي « وحيداً ومتوحداً ، صلباً وغير مهادن » . لكن انتحار يوفي بقي غير فعال سياسياً ، وبقيت رسالته الاخيرة دون نشر . لا بل حاولت الغيبيو ان تختلسها من تروتسكي الذي اضطر تقريباً الى انتزاعها انتزاعاً من يديها . ولقد اغرق انتحار يوفي المعارضة في مشاعر الاحباط ، إذ وجد فيه الكثيرون علامة يأس . وخاف تروتسكي ان تنتقل عدوى يوفي الى آخرين . فبعد هزيمة

١١٠ ـ في سيرة تروتسكي الذاتية ، يروي تروتسكي ان يوفي نوى اكثر من مرة نشر تقرير عن محادثته مع لينين ، لكنه اقنعه بالامتناع عن ذلك لأنه خشي ان تؤدي الهجمات التي سيتعرض اليها يوفي الى تدمير صحته بالكامل . ورسالة يوفي إثبات لهذه الحقيقة . اما النص الكامل للرسالة فموجود في المحفوظات .

معارضة ١٩٢٣ ، انتحر العديد من اعضائها ، كأوجني بوش ، وكانت بطلة اسطورية في الحرب الاهلية بأوكرانيا ، ولوتوفينوف ، النقابي المرموق وأحد المناضلين القدامى في المعارضة العمالية ، وغلازمان أحد سكريتيري تروتسكي . لكن الضربات التي تلقتها المعارضة اليوم كانت لا مثيل لها من حيث شراستها ، ولا تترك للمرء ان يرى طريقاً واضحة أمامه . وكان للمعارضة اسباب اكثر بكثير كي تنكفىء الى حالة من حالات الذعر . ولم تفهم المعارضة المعنى الذي اراد يوفي إعطاءه لانتحاره الا بعد أن تم نشر رسالة يوفي بين مجموعات المعارضة . لم يكن ذلك عملاً يائساً بل كان عملاً من أعمال الايمان(١١١) .

في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر مشى وراء نعش يوفي موكب ضخم على رأسه تروتسكي وراكوفسكي وايفان سميرنوف ، وقد اجتاز الموكب شوارع موسكو وساحاتها باتجاه مقبرة دير نوڤوديفيتشيي في ضاحية المدينة . كان ذلك في بداية ما بعد الظهر لأحد ايام العمل ، ولقد حددت السلطات موعد الدفن في تلك الساعة لكي لا يشعر به أحد . لكن آلافاً عديدة من الاشخاص انضموا للموكب وانشدوا على امتداد الطريق أناشيد جنائزية واخرى ثورية . وانضم الى المعارضين ممثلون للجنة المركزية ولمفوضية الشؤ ون الخارجية . كانوا يريدون ان يخنقوا الفضيحة مهما يكن الثمن فأتوا يقدمون تحية رسمية لخصمهم الميت . وحين بلغ الموكب الدير الذي كان بطرس الاكبر سجن فيه اخته صوفيا وأمر بأن يذبح تحت نافذتها عدة مئات من انصارها ، حاولت الشرطة والغيبيو ان تمنعا الموكب من الدخول الى المقبرة ، لكن الجمهور اقتحم الحواجز وتجمع حول القبر المفتوح . وحين اراد مندوب للحكومة ان يلقي كلمة استقبلته الجموع بهدير غاضب . ثم تكلم تروتسكي وراكوفسكي . قال الأول : « لقد غادرنا يوفي ، ليس لأنه لم يكن يريد مواصلة النضال ، بل لأنه لم يكن يتمتع بالقوة البدنية الضرورية للقيام بذلك . كان يخشى ان يغدو عبئاً بالنسبة لكل اولئك الذين كانوا منخرطين في المعركة . ان حياته ، لا انتحاره ، هي التي ينبغي ان تكون مثالاً يحتذيه اولئك الذين تركهم خلفه . النضال مستمر ، فليبق كل في مركزه ، لا يغادرنّ احد ساحة المعركة ! »

ذلك التجمع في مقبرة ، تلازمها الذكريات الوحشية للتاريخ الروسي ، كان آخر

---

١١١ ـ حذف تروتسكي من النص الذي جرى تداوله المقاطع التي كانت تعبر عن بعض التشاؤم بما يخص المستقبل المباشر للمعارضة ، وكان يوفي قد سمح له بذلك مسبقاً .

اجتماع وآخر تظاهرة عامة للمعارضة . هنالك ظهر تروتسكي للمرة الاخيرة امام الجمهور ، وكانت دعوته للشجاعة ورباطة الجأش آخر خطاب له في روسيا(١١٢) .

« فليبق كلٌ في مركزه ! لا يغادرنَّ أحد ساحة المعركة ! » كم من المرار ظهرت هذه الكلمات في أوامر تروتسكي اليومية في اللحظات الأكثر حرجاً إبان الحرب الأهلية ! وكم من المرار اعادت الى المعركة فرقاً مشتتة وفاقدة المعنويات ، لتقودها حتى النصر ! لكن الكلمات كانت قد فقدت اليوم سلطتها ! فزينوفييف وكامينيف وأنصارهما كانوا قد بدأوا يغادرون مراكزهم ويبحثون يائسين عن طريق الانسحاب من المعركة . عشية دفن يوفي ، كانت موسكو قد بدأت تضج بإشاعات حول استسلامهما لستالين . لكن تروتسكي دوّن ملحوظة في ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر كذَّب فيها تلك الاشاعات واكد ان ستالين هو الذي اطلقها لبذر الفوضى والارتباك داخل المعارضة . وقد أكد تروتسكي أيضاً ان القمع يفيد المعارضة وطلب الى انصاره الاستمرار في اعتبار أنفسهم أعضاء في الحزب وقال لهم انه لا الطرد ولا السجن يمكن ان يبررا خلق حزب جديد . لكن إذا قبلت المعارضة بطردها ـ اجاب زينوفييف وكامينيف ـ يؤدي بها ذلك حتماً ، شاءت أو أبت ، الى تشكيل حزب جديد . ولذلك كان ينبغي فعل المستحيل للحصول على الغاء قرارات الطرد : « لقد آن الاوان ، يا ليف دافيدوفيتش ، الذي علينا ان تكون لنا فيه شجاعة الاستسلام . » فرد تروتسكي : « إذا كان هذا النوع من الشجاعة ، شجاعة الاستسلام ، هو كل ما ثمة حاجة إليه ، كان ينبغي ان تكون الثورة انتصرت قبل وقت طويل في العالم اجمع(١١٣) » .
إلا ان الثلاثة اتفقوا مع ذلك على إرسال بيان مشترك الى المؤتمر الذي كان سيبدأ جلساته في اول كانون الاول/ديسمبر . كان البيان الذي وقعه ١٢١ معارضاً يوضح انه لا يمكن المعارضة ان تتخلى عن افكارها ، لكنها تعترف بأن الانشقاق الذي قد يؤدي الى صراع بين حزبين « يهدد المثل الاعلى اللينيني بشكل خطير » ؛ وأن المعارضة تشارك في جزء من المسؤولية عن ذلك ، لكنه بعيد عن أن يكون الجزء الاهم ؛ واخيراً أنها مستعدة لحل

---

١١٢ ـ نجد الخطاب وإعلان وفاة يوفي في المحفوظات . وقد كتب ل . فيشر الذي حضر المشهد انه بعد الاحتفال « تجمع الكل حول تروتسكي لتحيته . ثم طُلب الى الناس أن يعودوا الى بيوتهم لكن دون جدوى ، ومضى وقت طويل دون أن يتمكن تروتسكي من الخروج من المقبرة . في الاخير ، وقف جمع من الشباب ، كتفاً لكتف ، في شكل سلسلتين بشريتين طويلتين كي يتمكن تروتسكي من المرور بينهما كما في ممشى ضيق والوصول الى المخرج . لكن الجمهور قطع السلاسل واكتسح الممشى الضيق فذهب تروتسكي ينتظر وحيداً في ملجأ بالمقبرة . . . لم يستطع الاحتفاظ بهدوئه . سار كنمر هائج . . . لم اكن بعيداً عنه وقد تولد انطباع واضح بأنه كان يخشى التعرض للاغتيال . » ل . فيشر ، المرجع المذكور ، ص ٩٤ .
١١٣ ـ فيكتور سرج ، المنعطف القاتم ، ص ١٤٩ .

منظماتها . وكان البيان يطالب المؤتمر في الختام باعادة المعارضين المطرودين أو الملقى بهم في السجون .

ما كان هنالك ادنى شك في ان المؤتمر سيرد هذا النداء ولن يوافق على الغاء قرارات الطرد . وهكذا كانت جبهة المعارضة ستتفكك وتمضي كل من الجماعتين المكونتين لها في سبيلها .

كان المؤتمر سيجتمع على مدى ثلاثة اسابيع ، وكان منشغلاً كلياً بقضية الانشقاق . ولم يكن للمعارضة مندوب واحد يتمتع بحق التصويت . ولم يظهر تروتسكي في المؤتمر ، لا بل لم يطلب حتى الترخيص له بالحضور للاحتجاج بصفته الشخصية على طرده . وقد صوت المؤتمر بالاجماع على اقتراح يؤكد ان افكار المعارضة لا تتوافق مع الانتماء الى الحزب . حاول راكوفسكي ان يدافع عن المعارضة ، لكنه أُبعد عن المنبر بالقوة . ثم استمعت الجمعية الى كامينيف ، مدهوشة بقدر ما هي متسلية ، وهو يقدم صورة مؤثرة عن وضع المعارضة والتعهدات التي اخذتها . قال إنه ورفاقه في مأزق ، فإما ان يخلقوا حزباً ثانياً ، وذلك يعني « دمار الثورة » ويؤدي الى « الانحطاط السياسي » ، وإما ان يخضعوا ، بعد صراع شرس وعنيد ، خضوعاً كاملاً ودون اي تحفظ للحزب ، ويستسلموا دون قيد او شرط » . ولقد قرروا الخضوع ، اي انهم اتفقوا على الامتناع عن اي نقد للسياسة الرسمية ، لأنهم كانوا « عميقي الاقتناع بأنه لا يمكن الحصول على انتصار السياسة اللينينية الصحيحة إلا في الحزب وبالحزب ، لا من دونه وضده » . لقد اعلن الزينوفييفيون إذاً عن استعدادهم للخضوع لكل قرارات المؤتمر ، و « لتطبيقها ، مهما تكن قاسية[١١٤] »

بعد أن وضع كامينيف نفسه ورفاقه تحت رحمة المؤتمر ، حاول الوقوف في منتصف الطريق . قال إن المعارضين الذين كانوا يستسلمون كانوا يتصرفون كبلاشفة ، لكنهم لن يعودوا بلاشفين حقيقيين إذا هم جحدوا افكارهم . لم يحصل قبل ذلك الحين ـ وفقاً لما أكده ـ أن طُلب من اي كان أن يفعل ذلك ، ناسياً انه ، هو وزينوفييف ، طلبا ذلك من تروتسكي في عام ١٩٢٤ . « فإذا أدنّا الافكار التي دافعنا عنها في الاسبوع الماضي أو الاسبوعين الماضيين ، سيكون ذلك نفاقاً من جانبنا . كما أنكم لن تصدقونا إذاك . » ولقد قام بمحاولة اخيرة يائسة لانقاذ كرامة المستسلمين : دافع عن مطلب اطلاق سراح التروتسكيين المسجونين . « كيف يمكن القبول بوضع يكون فيه اناس كمراشكوفسكي في

---

١١٤ ـ ١٥ سييزد ف ك ب (ب) ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦

السجن بينما نحن طليقون ؟ لقد كان هؤلاء الرجال رفاقنا في المعارك ، ونحن مسؤولون أيضاً عن كل الذي فعلوه . » وفي الاخير توسل للمؤتمر كي يتيح لجميع المعارضين فرصة حل ما ربطوه « نتوسل اليكم ، اذا اردتم ان تكرّس هذه الجمعية في التاريخ . . . كمؤتمر مصالحة : مُدوا لنا يد المساعدة[١١٥] » .

بعد اسبوع من ذلك التاريخ اكتمل تفكك جبهة المعارضة . ففي العاشر من كانون الاول انفصل الزينوفييفيون عن التروتسكيين وتكلموا بأصوات مختلفة . اعلن كامينيف وباكاييف وافدوكيموف باسم الاولين قبولهم النهائي بكل القرارات التي اتخذها المؤتمر . وفي اليوم ذاته أعلن راكوفسكي ورادك ومورالوف انهم متفقون مع الزينوفييفيين حول « الضرورة المطلقة » للابقاء على نظام الحزب الواحد ، لكنهم يرفضون الانصياع لقرارات المؤتمر . « بالنسبة الينا ، يعادل التوقف عن الدفاع عن افكارنا داخل الحزب التخلي عن تلك الافكار ، وبذلك نكون قد خنا أبسط واجباتنا تجاه الحزب والطبقة العاملة .[١١٦] »

لقد ردد زينوفييف وانصاره ، في الواقع ، ما كان قد قاله تروتسكي عام ١٩٢٤ ، اي ان الحزب هو القوة الوحيدة القادرة على « حماية مكاسب اوكتوبر » « الاداة الوحيدة للتقدم التاريخي » ، واخيراً ان « لا أحد يمكن أن يكون على حق بمواجهته » . ان مجمل تلك القناعات هو ما دفعهم الى الاستسلام . اما تروتسكي واصدقاؤه فكانوا ، بالمقابل ، مقتنعين بحزم أنهم « على حق بمواجهة الحزب » ؛ لذا قرروا مواصلة القتال ، معتقدين انهم لا يقاتلون ضد الحزب بل لأجله ـ لانقاذه من ذاته او بالاحرى من بيروقراطيته . لقد حاول ، في الواقع ، كل من تروتسكي وزينوفييف أن يربعّا الدائرة نفسها ، لكن حاول كل منهما ذلك بطريقة مختلفة . فالزينوفييفيون كانوا يأملون في أن يتمكنوا ، ببقائهم داخل الحزب ، من « بعثه » ، حين تسنح الظروف . اما التروتسكيون فكانوا مقتنعين بأنه لا يمكن القيام بذلك الا من الخارج . لكن هؤلاء واولئك كانوا يرددون بالتعابير ذاتها ان ادنى محاولة لخلق حزب آخر ستعود بالكارثة على الثورة ، معترفين هكذا ضمناً بانهم يعتبرون الطبقة العاملة مفتقرة الى النضج السياسي ، وبأنه لا يمكن الاعتماد عليها لدعم حزبين شيوعيين ، وبأنه كان من العبث إذاً تأليب العمال على بيروقراطية الحزب التي كانت لا تزال ، رغم كل اخطائها وعيوبها ، حارسة لمصالح البروليتاريا ، ومؤتمنة على الثورة واداة

---

١١٥ ـ ١٥ سييزد ف ك ب (ب) ، ص ٢٤٨

١١٦ ـ المرجع ذاته ، ص ١٢٨٦ ـ ١٢٨٧ .

للاشتراكية . فإذا لم يكونوا يعتقدون بكل ذلك ، لا يعود يمكن تفسير الاستهوال الذي كان يتكلم به تروتسكي وزينوفييف على « حزب آخر » ، لا بل يصبح ذلك امراً مضحكاً ومثيراً للسخرية . وفي تلك الحالة ، يكون عليهم ، على العكس ، أن يعتبروا من واجبهم ان يبنوا حزباً آخر . فالمعارضون إذ اعترفوا بخصومهم ، ولو ضمناً وبتحفظات شديدة ، كحراس لديكتاتورية البروليتاريا ومؤتمنين عليها ، وكانوا في صراع معهم ، إنما كانوا يقعون في التناقض . وقد فكر زينوفييف ، بوحي من ضميره ، ان يحل ذلك التناقض بالقبول بأوامر الكتلتين الحاكمتين . اما تروتسكي ، الذي كان مقتنعاً بأن تينك الكتلتين لن تستطيعا البقاء طويلاً حارستين للثورة ، فقد اطاع اوامر ضميره الذي قال له انه لا يمكن كسب اي شيء عن طريق الخضوع والاستسلام .

في حين كانت جبهة المعارضة تنهار حول تروتسكي ، وتتزايد حالات الطرد ، ويستسلم آلاف المعارضين ، بقي مقداماً جسوراً ، مزدرياً تجاه « النفسين الميتتين » ، زينوفييف وكامينيف ، يتوقع ان ينتقلا من استسلام الى استسلام ، ومن زوال حظوة الى زوال حظوة آخر اكثر اذلالاً من سابقه . اما الكتلتان الحاكمتان فكانتا الآن في أوج نشوة الانتصار . ولقد كان ارتياحهما مضجاً وصخاباً لا سيما أنهما خشيتا حتى اللحظة الاخيرة الا يتمكن ستالين من دفع المعارضة الى الاستسلام . وما كاد يعلن زينوفييف وكامينيف استسلامهما حتى أعربت الكتلتان الحاكمتان عن عدم قبولهما به وعن ضرورة أن يدين المستسلمان افكارهما من دون تحفظ ويتراجعا . فقد كان جرى إفهام زينوفييف وكامينيف في البدء أنه يمكن إرجاعهما الى صفوف الحزب اذا تعهدا فقط بعدم التعبير عن افكارهما . لكن بعد أن اعطيا ذلك التعهد قيل لهما ان صمتهما سيكون اهانة للحزب وتحدياً له . قال كالينين في المؤتمر : « أيها الرفاق ، بماذا ستفكر الطبقة العاملة . . . بصدد افراد يتعهدون بعدم الدفاع عن أفكار ما انفكوا يعتبرونها صحيحة ؟ . . . إما ان يكون ذلك غشاً متعمداً . . . أو أن يكون هؤلاء المعارضون قد اصبحوا شبيهين بأولئك الجهلة الذين يحتفظون بأفكارهم لأنفسهم دون ان يدافعوا عنها[١١٧] . » وفي الحقيقة ان الكتلتين الحاكمتين كانتا تخشيان توريط نفسيهما إذا هما وافقتا على اول استسلام لزينوفييف وكامينيف . إذ قد يتساءل الناس متعجبين : ما هو هذا الحزب الذي يتيح لأعضائه أن تكون لهم أفكارهم الخاصة بهم ، لكنه يحول بينهم وبين التعبير عنها ؟ ما كان في وسع المنتصرين ان يتوقفوا في منتصف الطريق ؛ فليحتفظوا بالارض التي اكتسبوها ، كان

---

١١٧ ـ المرجع ذاته ، ص ١٢١١ .

عليهم ان يربحوا اراضي أخرى ويحطموا المعارضين المهزومين اكثر فأكثر . بعد أن حظر عليهم المؤتمر التعبير عن هرطقتهم ما كان في وسعه الا ان يمنعهم ايضاً من الايمان بها ، حتى في صمت ضميرهم . بعد أن خطف صوتهم ، كان عليه ان يجردهم من افكارهم الخاصة بهم . وكان ينبغي ان يرد لهم هذا الصوت كي يستخدموه في جحد أفكارهم .

مر اسبوع آخر بالمساومات من الجانبين ، اسبوع كان الزينوفييفيون يتخبطون خلاله ويكافحون من داخل الفخ . فهم لم يكونوا قادرين على التراجع عن استسلامهم الاول . ولكي ينقذوا معناه وينجزوا ما رجوا ان ينجزوه من خلاله ، انزلقوا في استسلام جديد . هكذا في ١٨ كانون الاول/ديسمبر عاد زينوفييف وكامينيف وقرعا ابواب المؤتمر ليقولا انهما يدينان وجهات نظرهما كـ « خاطئة ومعادية للينينية » . ويقال إن بوخارين استقبلهما بالكلمات التالية : « أحسنتما حين راجعتما تفكيركما ؛ فلقد كانت هذه لحظة الحسم ، وستار التاريخ الحديدي يسقط الآن . » والكل يعرف ان ستار التاريخ الحديدي هذا سوف يسحق فيما بعد بوخارين ذاته . اما الان فلا شك ان هذا كان مثلج الصدر برؤيته زينوفييف وكامينيف يأتيان ليعلنا خضوعهما ، فهو تساءل كالعديد من اعضاء الكتلتين الحاكمتين ، بأقصى درجات القلق ، ما الذي قد يحدث إذا رفض زينوفييف وكامينيف التراجع والاستسلام وانضما الى تروتسكي من جديد . حتى اورجونيكيدزه ، الذي اختارته لجنة الرقابة المركزية مقرراً ، وكان قد قدم الاقتراح المطالب بالطرد ، اظهر تضايقه حين قال ان تلك التدابير القمعية تتناول اناساً « قدموا اسهاماً مهماً لصالح حزبنا وقاتلوا في صفوفنا سنوات عديدة » . لكن ستالين والاكثرية ، اللذين أسكرهما الفرح ، استمرا في توجيه الضربات للراكعين المنهزمين . ولقد رفضا اعادتهما الى الحزب حتى بعد تراجعهما . ومن سخرية القدر ان ريكوف ، الذي سيشارك في يوم من الايام زينوفييف وكامينيف مصيرهما المأساوي ، هو الذي خرج اليهما فيما كانا ينتظران وصفق الباب في وجههما . اوضح لهما ان الحزب لم يوافق على عودتهما اليه وأن عليهما اجتياز فترة تدرج لمدة ستة أشهر على الاقل ، بعدها تتخذ اللجنة المركزية قرارها بصدد تلك العودة .

* * *

ترك ارتداد الزينوفييفيين تروتسكي وأنصاره معزولين تماماً. ولقد هدأ ذلك الارتداد الضمائر الحساسة جداً لدى بعض الستالينيين والبوخارينيين الذين وجدوا فيه التبرير النهائي لعمل ستالين . قالوا في أنفسهم لا بد أن تروتسكي مخطىء تماماً حتى يرتد ضده حلفاؤه بالأمس . كانت عينا الحزب ، والبلاد بأسرها ، تحدقان بالمؤتمر ، وفي المؤتمر

بالذات جرى المشهد المذهل للاستسلام ؛ ولم يجر الاهتمام كثيراً بالجزء من المعارضة الذي لم يشارك في ذلك المشهد . اما التروتسكيون فخيّم عليهم الذهول . لقد أمضهم شديد المضض الشعور بأن قطيعتهم مع الحزب نهائية بمعنى ما . لم يستطيعوا ان يصدقوا كم ان الهوة اصبحت عميقة بينهم وبين الزينوفييفيين ؛ وقد تساءلوا إذا لم يكونوا تصرفوا بجسارة مجنونة : هل كان عليهم حقاً ان يقوموا بالدعاية شبه السرية ؟ هل كان عليهم ان يطلقوا ذلك « النداء الى الجماهير » في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ؟ لماذا سرّعوا الانشقاق ؟ تلك الاسئلة والوساوس دفعتهم للرد على الاحكام بالطرد باعلانات حماسية لا تنتهي عن اخلاصهم غير المنقوص للحزب . ولقد حذا البعض ـ وكانوا قلة ـ حذو الزينوفييفيين ، بينما تأرجح آخرون . لكن الاكثرية بقيت حازمة في عزمها على ان تقاوم القمع وتواجهه . لكن لم يكن قد اصبح معروفاً بعد من « المستسلم » ومن ليس كذلك . فبعد المؤتمر مباشرة ، طرد الف وخمسمائة معارض ووقع الفان وخمسمائة بيانات بالارتداد[118] . لكن بين اولئك الموقعين كان هنالك من سحبوا توقيعاتهم حين رأوا أن الاستسلام يجر الى استسلام آخر ؛ وبين الذين رفضوا التوقيع كان هنالك ايضاً من انتهوا الى العودة عن قرارهم حين أُخضعوا لشتى انواع الارهاب والأغراء والاقناع . وقد نظر هؤلاء الى اولئك ، والعكس بالعكس ، ككاسري إضراب أو خونة . ولما كان غير معروف اين ينتهي هذا الخط واين يبتدىء ذلك ، انتشر الارتباك والشك في كل جبهة المعارضة سابقاً .

إذ رأى تروتسكي ما انطوى عليه استسلام زينوفييف من عبث وعدم جدوى ، تثبت من انه اختار الطريق الصحيح . وقد بذل جهداً محموماً لنقل قناعته الى اتباعه المحبطين . أوضح لهم كيف أنه لا الحذر ولا التسويف كانا سيفيدانهم ، لأن ستالين كان سيجد في كل الحالات الأعذار التي يحتاج اليها لتصفيتهم . أما المطلوب الآن فكان لمّ شعث كل الذين صمدوا ، ورسم خط فاصل واضح بينهم وبين المرتدّين ، وتحاشي المواقف الملتبسة ، وشرح اسباب القطيعة شرحاً واضحاً للمعاصرين كما للأجيال القادمة . يضاف الى ذلك انه لم يعد في وسع المعارضة ان تواصل العمل كما كانت تفعل حتى الان ، وانه اصبح عليها ان تدخل في « سريّة » حقيقية ، وتقيم وسائل اتصال جديدة بين مجموعاتها ، وتضع مناهج عمل جديدة ، وتقيم صلات مع المعارضين الاجانب .

كان وقت قصير جداً باقياً لكل ذلك . فستالين لم ينتظر نهاية العام ليعدَّ عملية نفي المعارضين . إلا أن المنظم عديم الرحمة للتطهيرات الدامية اللاحقة كان لا يزال مهتماً ـ ويا

---

١١٨ ـ بوبوف ، المرجع المذكور ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ .

للغرابة ـ بسمعته وبحفظ المظاهر . فلكي يتحاشى فضيحة نفي شرس وباد للعيان اراد ان يتخذ نفي اعدائه شكل رحيل ارادي . هكذا عرض ، عن طريق اللجنة المركزية ، على القادة التروتسكيين مراكز ادارية صغيرة في شتى جهات البلد الواسع . كان على تروتسكي ان يتوجه ، « وفقاً لرغباته الخاصة به » ، الى استراخان على ضفاف بحر قزوين . وقد دخل رادك وراكوفسكي ، كمندوبين للمعارضة ، في اوائل كانون الثاني/يناير في مساومة غريبة بصدد تلك الاقتراحات . احتج الرجلان على ارسال تروتسكي الى استراخان قائلين ان صحته ، التي هدمتها الملاريا ، لن تستطيع تحمل مناخ ساحل قزوين الرطب والحار . ولقد توقفت المساومات حين اعلن تروتسكي واصدقاؤه أنهم مستعدون للموافقة على أي تعيينات في المناطق ، شريطة ان لا تكون ذرائع للنفي ، وان توافق المعارضة على كل تعيين بمفرده ، وأن تكون تلك التعيينات آخذة بالاعتبار صحة المعنيين وعائلاتهم وسلامتهم(١١٩) .

في ٣ كانون الثاني/يناير ، حين كانت المساومة في أوجها ، طلبت الغيبيو الى تروتسكي ان يمثل أمامها ، فتجاهل الطلب كلياً . لقد وصلت المهزلة عند ذلك الى نهايتها ، فبعد أيام قليلة ، اي في ١٢ يناير ، أعلمت الغيبيو تروتسكي بأنه وفقاً للمادة ٥٨ من قانون العقوبات ، الذي يتعلق بالنشاطات المضادة للثورة ، سوف يجري نفيه الى ألما ـ آتا في التركستان ، غير بعيد عن الحدود الصينية . ولقد تحدد موعد الرحيل في ١٦ كانون الثاني/يناير .

* * *

روى لنا ايام تروتسكي الاخيرة في موسكو كاتبان ، احدهما تروتسكي والآخر لا انتماء سياسي له اطلاقاً . في ١٥ كانون الثاني/يناير اجرى مقابلة معه بول شيفر ، مراسل جريدة Berliner Tageblatt . ألقى « نظرة سطحية » فلم ير ما يمكن ان يدل على ان الشرطة كانت تراقب تروتسكي . (يمكن التفكير بأنه لم يكن الصحفي الالماني يتمتع ، بهذا الصدد ، بنظر ثاقب) . لكنه لاحظ حركة محمومة في بيت تروتسكي : كان أناس يأتون ويمضون ، وكان هناك وداع الذين ينطلقون بلا انقطاع الى المنفى وكل الانهماك حول رزم يتم اعدادها تمهيداً لسفر طويل . « في كل المماشي والزوايا ، كانت هناك أكداس كتب ،

---

١١٩ ـ ثمة تقرير عن « المفاوضات » في رسالة كتبها تروتسكي ، أو أحد أصدقائه ، الى لجنة الرقابة المركزية والمكتب السياسي ، في الايام الاولى من عام ١٩٢٨ .

وايضاً كتب ، طعام الثوريين هذا مثلما كان دم الثيران يغذي السبارطيين». ولقد وصف شيفر على هذه الخلفية الرجل ذاته ، وكان « ذا قامة فوق الوسط بقليل ، وله بشرة رقيقة جداً ، ولون اصفر ، وعينان زرقاوان غير واسعتين ، يمكن ان تصبحا وديتين للغاية لكنهما تومضان عند الحاجة كالبرق وتفيضان قوة وسطوة » . أما الوجه فكبير ممتلىء حياة ، « يعكس القوة ورفعة النفس في آن معاً » بينما الفم صغير جداً بالنسبة لهكذا وجه . واليد لطيفة ، ناعمة ، أنثوية . « هذا الرجل الذي اخرج جيوشاً من العدم وشحن العمال والفلاحين بحماسه هو ، رافعاً إياهم فوق مستوى وعيهم بكثير . . . هو للوهلة الأولى خجول ومرتبك . . . وربما كان لاجل ذلك أخّاذاً . »

خلال الحديث ، كان تروتسكي لطيفاً لبقاً للغاية لكن متيقظاً . كان يسره ان يعبر عن رأيه Pro foroexterno ، لكنه اظهر الكثير من التحفظ حيال الصحفي البورجوازي بشأن مشكلات السياسة الداخلية . لا ادنى تلميح الى خصومه ، لا ادنى شكوى ، ولا أي هجوم . في مرة واحدة لامس الحديث قضايا الحزب الداخلية ، حين ابدى شيفر ملاحظة تقول ان لويد جورج تنبأ بـ« مستقبل نابوليوني لتروتسكي » . وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي لمح فيها بصورة غير مباشرة للنفي ، ولخطط تروتسكي بصدد المستقبل ، وهلم جراً . لكن تروتسكي تناول وجهاً آخر للمقارنة ، فأجاب بروح دعابة : « انها فكرة غريبة ان اكون الرجل الذي يضع نهاية للثورة . ليست هذه اولى حماقات لويد جورج . » . ومن الملاحظ أنه لم تتبادر لذهن تروتسكي في المقارنة مع نابوليون المماثلة السطحية لكن البديهية بين مصيريهما كمنفيين ، بل الموضوعة السياسية الكريهة بالنسبة اليه ، المتمثلة ببونابارتية تلي الترميدور . كانت الاعتبارات العامة تسبق لديه الاعتبارات الشخصية . (« لا يمكن ان ننسى ابداً ـ كتب شيفر ـ أن هذا الرجل هو قبل كل شيء وفوق كل شيء مقاتل ») . وقد تكلم تروتسكي بوجه خاص على انحطاط الرأسمالية ومنظورات الثورة في اوروبا ، التي ربط بها ، كما دائماً ، مستقبل روسيا البلشفية . « سرعان ما تخلى تروتسكي عن لهجة الحديث ، فتضخم صوته ، وغدا فصيحاً خطابياً » ، وأبرز سرّاء الثورة العالمية وضرّاءها ، بـ« حركات ذات انسجام رائع » . وقطع الحديث وصول رفيق كان سيمضي في المساء الى المنفى وقد جاء يسأل تروتسكي إذا كان هنالك ما يمكنه ان يفعله لأجله قبل رحيله . « تغضن وجه تروتسكي ، بشاربيه الصغيرين المتجهين الى أعلى ، تغضنات مرحة وهو يقول : « انت على سفر هذا المساء ، اليس كذلك ؟ » فرجل النقاش والسخرية ، لا يدع مناسبة تفوته ، وروح الدعابة لدى الرجل الذي لا يتزعزع بعيدة عن أن تخف . » قبل أن يستأذن تروتسكي دعا شيفر لزيارته في

ألما ـ آتا[١٢٠] .

بعكس شيفر ، يروي سِرج ان المنطقة المحيطة بمسكن تروتسكي كانت « خاضعة ليل نهار لمراقبة رفاق كانوا بدورهم تحت رقابة رجال الغيبيو » . ففي الشارع كان هؤلاء على دراجاتهم النارية يراقبون اي سيارة في ذهابها كما في ايابها .

« صعدت عن طريق سُلم خلفي . . . ذلك الذي كنا نسميه فيما بيننا الشيخ ، احتراماً ومودة ، مثلما كنا معتادين تسمية لينين ، كان يعمل في غرفة صغيرة تطل على الساحة ، لم يكن فيها غير سرير وطاولة عليها خرائط كل بلدان العالم . . . كان يرتدي سترة بالية ، نشيطاً مهيباً ، وقد أصبح شعره العالي شبه ابيض ، وبشرته توحي بالمرض . في ذلك القفص ، كان يبذل طاقة محمومة ، بينما يجري نسخ الرسائل التي أملاها ، في الغرفة المجاورة . اما في قاعة الطعام فكان يتم استقبال الرفاق الآتين من كل جهات البلاد ، الذين كان يحادثهم بسرعة بين مخابرتين هاتفيتين . كان توقيف الجميع ممكناً بين اللحظة والأخرى ـ وماذا بعد ؟ لا أحد يعرف . . . لكن الجميع يستعجلون للاستفادة من تلك الساعات الأخيرة ، لأنها كانت الأخيرة بالتأكيد[١٢١] . . . »

إن نهار السادس عشر من كانون الثاني / يناير ، الذي حفل بالاجتماعات وجلسات العمل والتوديعات والاعدادات الأخيرة للسفر ، مر كما في حالة حمّى . كان الرحيل قد تحدد في الساعة العاشرة ليلاً . وفي السهرة ، كل العائلة ، المنهكة ، والمتوترة ، كانت ترتاح بانتظار وصول رجال الغيبيو . لكن الساعة المشؤومة مرت ولم يأت أحد . ولقد ضاعت العائلة في الاحتمالات الى ان أنبأت الغيبيو تروتسكي هاتفياً بأن الرحيل تأجل يومين ، لكن دون اعطاء اي تفسير . وقد قطع التفكير في احتمالات أخرى وصول راكوفسكي واصدقاء آخرين ، في ذروة الهيجان . فلقد اتوا من المحطة حيث كان قد تجمع الألاف لتحية تروتسكي . كانت قد تمت مظاهرة عاصفة حول القطار الذي كان سيقله . تمدد الجمهور على السكة ، مصمماً بحزم على منع القطار من الرحيل ، فأرادت الشرطة صرفهم وتشتيت الحشد . لكن السلطات التي رأت اي منحى اتخذته المظاهرة ، قررت تأجيل النفي . فهنأت المعارضة نفسها على هكذا نجاح ، وعزمت القيام بمظاهرة جديدة بعد يومين . لكن الغيبيو قررت أخذ المعارضة على حين غرة وخطف قائدها دون علم

١٢٠ ـ بول شيفر ، Siebengahre Sowjetunion ، ص ١٥٨ ـ ١٦١ .

١٢١ ـ فيكتور سرج ، المنعطف القاتم ، ص ١٥٥ .

احد . كانت الخطة بسيطة : سوف يجري ترحيل تروتسكي عن طريق محطة اخرى . يساق الى محطة صغيرة في ضواحي موسكو ، ومن هناك يجري ترحيله في قطار آسيا الوسطى . لقد قالوا له ان يستعد للرحيل في ١٨ كانون الثاني/يناير ، لكن الشرطة اتت في السابع عشر لأخذه عنوة . ومن قبيل الصدف ان أحداً من أنصاره لم يكن يحرس بيته في تلك اللحظة ، فلم يجد رجال الغيبيو في المكان غير تروتسكي وامرأته وابنيهما ، وامرأتين كانت إحداهما ارملة يوفي[١٢٢] .

تلا ذلك مشهد نادر بطابعه المأساوي ـ الهزلي . فلقد أقفل تروتسكي الباب من الداخل ورفض ترك رجال الغيبيو يدخلون . كان ذلك تعبيراً عن تلك المقاومة السلبية التي واجه بها دائماً رجال الشرطة الذين يأتون لتوقيفه . ولقد تناقش الاسير وضابط الغيبيو عبر الباب المقفل . في الأخير ، أمر الضابط رجاله بخلع الباب ، وهو ما فعلوه . ثم اقتحموا المكان . ومن سخرية القدر ان الضابط الذي كان مكلفاً بتوقيف تروتسكي كان قد عمل كحارس شخصي له خلال الحرب الاهلية ، في القطار العسكري . فحين وجد نفسه وجهاً لوجه مع قائده القديم ، انهار وهو يتلعثم : « اقتلني يا رفيق تروتسكي ، اقتلني . » حينئذ شرع تروتسكي يشدد من عزيمة جلاده ، ويشجعه ويقنعه بتنفيذ الاوامر التي تلقاها . ثم عاد الى المقاومة السلبية فرفض ارتداء ملابسه . فانتزع المسلحون خفيه ، وألبسوه ، وإذ رفض المسير أنزلوه الدرج وسط صيحات استهجان عائلة تروتسكي وأرملة يوفي التي كانت تتبعهم . لم يكن ثمة شهود آخرون ، باستثناء بعض الجيران ، وهم موظفون كبار وأزواجهم ، أثارت الضجة حيرتهم وفضولهم فاستطلعوا الأمر ثم ما لبثت وجوههم المرعوبة أن اختفت .

تم تكديس المنفي وعائلته في سيارة للشرطة نقلت في وضح النهار ، وهي تندفع في شوارع موسكو دون ان تثير الانتباه ، قائد ثورة اوكتوبر ومؤسس الجيش الأحمر . وفي محطة كازان ، حيث قادته المجموعة ، رفض السير حتى القطار . فجرّه المسلحون الى عربة منعزلة تنتظره في فناء لتحويل القطارات . كانت المحطة مطوقة برجال الشرطة وخالية من المسافرين ، باستثناء بعض عمال السكك الحديدية الذين كانوا منهمكين حولها . خلف مجموعة الحماية كانت تسير عائلة المنفي . وقد تبادل سرجي ، الأصغر بين ولدّي تروتسكي ، الضربات مع احد رجال الغيبيو ، بينما حاول ليوفا ، البكر ، تأليب عمال

---

١٢٢ ـ مويا جيزن (حياتي) ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

المحطة ، فصاح بهم : « انظروا ايها الرفاق ، انظروا كيف يسوقون الرفيق تروتسكي . » فراح العمال يحملقون بأعين فارغة ، ولم ينبسو بصيحة او حتى بتمتمة احتجاج .

* * *

كانت قد مرت ثلاثون سنة على تأمل الشاب تروتسكي ابراج موسكو وأسوارها للمرة الأولى : كان ذلك اثناء نقله من سجن اوذيسا الى منفاه في سيبيريا ؛ ومن خلف قضبان عربة سجن كان قد القى أول نظرة على « بلدة القياصرة » ، « عاصمة الاممية الشيوعية » لاحقاً . ومن خلف تلك القضبان ايضاً القى نظرته الاخيرة على موسكو ، ذلك انه لن يعود أبداً الى مدينة انتصاراته وهزائمه . دخلها كثوري مضطهد ، وغادرها بالصورة ذاتها .

الفصل السادس

سنة في ألما ـ آتا

توقفت في محطة صغيرة مقفرة ، على بعد خمسين كيلومتراً من موسكو ، المقطورة التي نقل فيها تروتسكي وعائلته من العاصمة ، وهناك جرى قطرها بقطار منطلق الى آسيا الوسطى . ولما كان سيرغي يرغب في متابعة دروسه في الجامعة فقد عاد الى موسكو ؛ أما سيدوفا المريضة والمحمومة ، وليوفا ، فتبعا تروتسكي الى منفاه . كانت مجموعة من الحراس مؤلفة من دزينة رجال تقريباً تخفرهم . كان هؤلاء يراقبون سجينهم وامرأته المتمددين على مقعدين خشبيين داخل مقصورة يضيئها فانوس ضعيف ، وذلك من الممشى وعبر الباب المشقوق . كان الضابط الذي تولى توقيف تروتسكي لا يزال يقود المجموعة ، وكان وجوده في القطار يعيد الى الاذهان بصورة مضحكة ساخرة قطاراً آخر مشهوراً ، هو ذلك الذي كان مركز القيادة العامة للـPredrevoyen[1] الذي كان آنذاك حارسه الشخصي . وقد كتبت سيدوفا : « كنا نموت تعباً بعد الحيرة والشك والمفاجآت والتوتر في الايام السابقة ، وكنا نرتاح . » شرع تروتسكي يفكر في وضعه الراهن ، وهو متمدد في الظلمة أو متأمل السهل الابيض الواسع الذي كان يجتازه القطار في انطلاقه نحو الشرق . هكذا إذاً ، جرى انتزاعه من العالم وضجيجه وسحره ، وقطعه عن عمله ونضاله وعزله عن أتباعه وأصدقائه . ماذا كان سيلي ذلك الآن ؟ وماذا كان عليه ان يفعل ؟ حث نفسه على كتابة بعض الملاحظات في يومياته أو على نص احتجاج ، لكنه لاحظ آنذاك ، شبه مصدوم ، أنه ذهب « دون ادوات الكتابة » . وهو ما لم يكن حدث معه من قبل ، حتى أثناء فراره الخطر من اقصى الشمال ، في عام ١٩٠٧ . كان كل شيء من صنع الصدفة الآن ، وهو لم يكن يعرف حتى اذا كان منفاه المتوقع لا يزال ألما ـ آتا . لكن انعدام

١ ـ الـ Predrevoyen هو رئيس المجلس الثوري العسكري .

الاستقرار حفز مزاجه المتحدي والمشاكس ، وقد لفت انتباه امرأته الى ان ثمة ما يعزيه على الاقل وهو أنه لن يموت ميتة شخص محافظ في سرير مريح بالكرملين .

في اليوم اللاحق ، توقف القطار في سمارا ، فأرسل تروتسكي احتجاجاً الى كالينين ومنجنسكي يقول فيه انه طيلة عمله الثوري الطويل لم تعامله شرطة رأسمالية بالنفاق والكذب اللذين عاملته بهما الغيبيو ، التي خطفته دون ان تعلمه الى اين تذهب به ورحّلته دون ان تمكنه من تغيير ثيابه الداخلية ، ومن ان يحمل معه أبسط اسباب الراحة وأدوية لزوجه المريضة[٢] . الا ان الحراس كانوا يتصرفون بأدب ، وحتى بصورة ودية تماماً كما فعل الجنود القيصريون في عام ١٩٠٧ وهم ينقلون الى المنفى قائد سوفييت بطرسبورغ . ففي الطريق اشتروا ثياباً داخلية ومناديل وصابوناً ، الخ . لعائلة تروتسكي ، واشتروا وجبات الطعام في المحطات . كان سجينهم يوحي لهم بالخوف ذاته الذي كان يمكن ان يوحي به في ظل النظام القديم دوق كبير لحراسه الذين يمضون به الى المنفى . ذلك انه ليس ثمة ما يؤكد انه لن يعود سريعاً الى السلطة . لذا حين وصل القطار الى تركستان ، طلب قائد المجموعة الى سجينه اعطاءه شهادة حسن سلوك[٣] . وفي الطريق ، كان سيرموكس وبوزنانسكي ، سكريتيرا تروتسكي المخلصان ، قد التحقا بالقطار آملين ان يخدعا الغيبيو . ولقد قطعت احداث من هذا النوع رتابة الرحلة .

في بيشبك ـ فرونزي[٤] ، انتهت الرحلة بالقطار . أما الـ ٢٥٠ كيلومتراً التي كانت باقية قبل بلوغ ألما ـ آتا ، فكان يجب قطعها في السيارة والشحن والزلاجة ومشياً على الاقدام . توجّب اجتياز جبلٍ مغطى بالجليد وعاصف ، وعبور اكداس عالية من الثلج الذي تذروه الرياح ، والتوقف في احدى الليالي في حجرة ضائعة في الصحراء . واخيراً ، بعد سفر اسبوع ، بلغت الجماعة ألما ـ آتا ، في الساعة الثالثة من صباح ٢٥ كانون الثاني/يناير ، فاقتيد المنفي وعائلته الى فندق صغير يدعى « السبعة أنهر » في شارع غوغول . كان الفندق « يعود الى ايام غوغول » ، ويبدو ان روح الهجّاء الكبير المحوّمة فوقه اوحت الى تروتسكي العديد من ملاحظاته عن ألما ـ آتا وأسلوب الاحتجاجات المتوالية التي ارسلها من هناك الى موسكو .

حوالى نهاية العشرينات ، كانت لا تزال ألما ـ آتا مدينة صغيرة ذات طابع محض

---

٢ ـ المحفوظات .

٣ ـ نص الشهادة موجود في المحفوظات .

٤ ـ اعيدت تسمية مدينة بيشيك باسم فرونزي ، تكريماً لخليفة تروتسكي في مفوضية الحرب .

شرقي . هي المعروفة بجنائنها وبساتينها البهية الرائعة ، كانت بلدة كيرغيزية فقيرة وادعة ، يكاد يمكن الحديث عن وصول الحضارة اليها ، معرضة للزلازل والفيضانات والرياح الجليدية وموجات الحرارة الشديدة . وكانت موجات الحرارة هذه تتلازم مع غيوم كثيفة من الغبار ومع الملاريا وشتى انواع الهوامّ . كانت المدينة على وشك ان تصبح عاصمة كازاخستان الادارية ، لكن الادارة الجمهورية كانت لا تزال في طور الولادة ؛ بانتظار ذلك ، كان الموظفون يصادرون وسائل الراحة المتاحة ، وكانت الاكواخ المحلية مزدحمة بالسكان اكثر مما في العادة . « في البازار ، وسط المدينة ، يجلس الكيرغيزيون في الوحل ، أمام أبواب دكاكينهم ، يتشمسون ويتخلصون من القمل . »[٥] لم يكن البرص غريباً عن المدينة ؛ وخلال الصيف ، أصيبت الحيوانات بالطاعون ، واندفعت في الشوارع الكلاب المسعورة وهي تنبح وتعوي .

وفي السنة ذاتها ، غدت الحياة في ألما ـ آتا اكثر صعوبة بسبب النقص في الخبز . فخلال الاشهر الاولى لاقامة تروتسكي تضاعف سعر الخبز ثلاث مرات ، وكانت صفوف طويلة تتشكل امام حوانيت الخبازين القلائل . وكانت السلع الغذائية الأخرى اكثر ندرة ايضاً ، وما كان هنالك نقل أو بريد منتظمان ، وكان السوفييت المحلي يحاول تحسين المواصلات باللجوء الى مقاولين خاصين . ان تعاسة المكان وعجز اعيان المنطقة وبلاهتهم يظهران بوضوح في هذا المقطع من مراسلات تروتسكي : « كتبت الصحافة المحلية منذ ايام ما يلي : « ثمة اشاعات تنشط في المدينة مروّجة ان الخبز سينفد ، بينما تأتي عربات عديدة محملة بالخبز . » إن العربات ستأتي ، مثلما يقولون لكن بانتظار ذلك ستنشط الاشاعات ، وتنشط الملاريا ، لكن الخبز لن ينشط ، من جانبه » .

ذلك هو المكان الذي كان على تروتسكي ان يبقى فيه . كان ستالين مهتماً بإبقائه أبعد ما يكون عن موسكو ، وجعله يتدبر امره بموارده الخاصة به على وجه الحصر . ولقد أوقف سكريتيرا تروتسكي ، أحدهما بين موسكو وألما ـ آتا ، والآخر في ألما ـ آتا ، ونفيا الى مكان آخر . الا انه لم يكن يبدو ، مؤقتاً ، ان لدى ستالين مشاريع اخرى تتعلق بعدوه . كانت الغيبيو لا تزال تعامل تروتسكي باحترام ، وهو ما سيغدو غير ممكن تصوره فيما بعد . فقد حرصت على ان تنقل اليه مكتبته الضخمة ومحفوظاته التي كانت تضم وثائق مهمة صادرة عن الحكومة او الحزب ، وهكذا وصلت الى ألما ـ آتا شاحنة ممتلئة بكل ذلك . واحتج

---

٥ ـ حياتي .

تروتسكي لدى كالينين واورجونيكيدزه ومنجنسكي بخصوص ظروفه المعيشية ، طالباً مسكناً أفضل ، وحق الذهاب في رحلات صيد وحتى ان يُرسل اليه كلبه الصغير من موسكو . وتذمر من انه إذا كان تم ابقاؤه في الفندق الصغير في شارع غوغول فذلك فقط لأغراض تتعلق براحة الغيبيو ، ومن ان نفيه كان سجناً في الواقع : « كان في وسعكم ان تلقوا بي في السجن بموسكو بدل ان تنفوني الى مسافة اربعة آلاف فرسخ[٦] . » ولقد انتجت احتجاجاته فلم تمر ثلاثة اسابيع على وصوله حتى اعطي مسكناً من أربع غرف وسط المدينة ، في شارع كراسين رقم ٧٥ (سمي الشارع هكذا بعد وفاة صديقه كراسين) ، وسُمح له بالقيام برحلات صيد . وواصل تروتسكي ارسال برقيات ساخرة الى موسكو ، عارضاً فيها متطلباته التي كان بعضها جدياً والآخر تافهاً ، ومازجاً الخصومات الصغيرة بالمجادلات الكبرى . كتب لصديق له : « مايا ، عزيزتي مايا (المقصود كلبته الصغيرة) لم تشتبه حتى بأنها الآن محور معركة سياسية كبرى » . وقد رفض في كل حال أن يعتبر نفسه أسيراً ، كما ان مضطهديه أبدوا شيئاً من اللين .

بدا شبه منشرح بعد سنوات طويلة من العمل الدائب والتوتر المتواصل . بصورة غير متوقعة وبما يشبه الصدفة ، كانت الشهور القليلة الاولى من اقامته في ألما ـ آتا تنطوي على مذاق شبه رومانسي . فالسهب ، والجبل ، والنهر والبحيرة كانت تفتنه كما لم يحدث له منذ طفولته . كان يستمتع كثيراً بالصيد ، وفي الرسائل الكثيرة التي كان يوجهها آنذاك ، كانت تقطع النقاشات السياسية والنصائح في الغالب اوصافٌ شعرية لمشهد طبيعي أو سرد هزلي لمغامراته كصياد . كان قد حُظِّر عليه في البدء ان يغادر ألما ـ آتا ، ثم سُمح له بأن يصطاد الى مسافة ٢٥ فرسخاً بعيداً عن ألما ـ آتا . وقد ابرق الى منجنسكي بعزمه على ألا يستجيب للحظر المفروض عليه لأنه لم يكن يستطيع العثور على مناطق صيد ملائمة في الحيِّز المحدد له ، وبأنه ينبغي السماح له بالابتعاد على الاقل لمسافة سبعين فرسخاً ؛ وفي الاخير كان يطلب الى موسكو ان توعز الى مسؤولي الغيبيو المحليين الا يضايقوه . ولقد مضى الى الصيد ، ضمن المسافة التي ارادها ، ولم تحدث إزعاجات . لكنه تذمر لدى المسؤول المحلي للغيبيو لأن جواسيسه كانوا يلاحقونه بفظاظة وهدد بـ « الاضراب » ، اي بالتوقف عن الصيد ، إلا اذا كانت تلك الرقابة البوليسية بناء على طلب من موسكو ، ففي تلك الحالة يتفهم تصرفات مسؤولي الغيبيو المحليين ويتوقف عن الاحتجاج . وسرعان ما أصبحت الرقابة اكثر مرونة وأقل بروزاً .

---

٦ ـ مقتطف من احتجاج مرسل في بداية شباط/فبراير ، المحفوظات .

كان قد بدأ رحلات الصيد بعد قليل من وصوله ، وقد واصلها طالما استمرت هجرة الربيع للحيوانات على امتداد نهر إيلي . وكانت بعض رحلاته تدوم عشرة ايام ، متعبة للغاية لكنها مهدئة . وفي رسائله لاصدقائه ، كان يروي باعتزاز انتصاراته كصياد. في البدء ، أمضى ليالي في اكواخ الطين الخاصة بالكيرغيزيين أو في اليورت Yourtas الممتلئة بالبق ، ينام بصحبة دزينة من الكيرغيزيين على الارض ، ويعد الشاي بالماء الآسن ، كاظماً تقيؤه بشق النفس . « في المرة القادمة ، سأنام تحت النجوم واجبر أصحابي على ان يحذوا حذوي[7] . » وهكذا في المرة اللاحقة ، في اواسط شهر آذار/مارس ، أمضت الجماعة تسعة ايام وتسع ليال وسط طقس جليدي في العراء . واذ كان تروتسكي يجتاز نهراً ممتطياً حصاناً ، في احدى المرار ، سقط في الماء . هذا ولم تكن الغنيمة كبيرة ، إذ لم تتعد أربعين بطة بوجه الاجمال . وقد كتب يقول لبعض الاصدقاء : « في الحقيقة أن صيداً أكبر بكثير يمكن العثور عليه أبعد قليلاً على ضفاف بحيرة البلخاش ، لأن هناك نموراً وفهوداً ، لكني قررت توقيع معاهدة عدم اعتداء مع النمور . . . ان هذه العودة المؤقتة الى الهمجية تروق لي كثيراً ، فليس للمرء مناسبة في الغالب كي يقوم بتجارب من هذا النوع ، كأن يمضي تسعة أيام وتسع ليال في العراء ، دون اغتسال ودون ان يكون عليه ان يلبس او ينزع ثيابه ، وان يأكل طرائد مطبوخة في دلو ماء ، ويسقط من على حصانه في نهر (تلك كانت المرة الاولى التي اضطررت فيها لنزع ثيابي) ويبقى أياماً وليالي على قرمة خشب وسط الماء والحجارة والقصب[8] . » وإذ انتهى فصل الصيد البري ، جاء دور صيد الأسماك وقد تمكنت ناتاليا ايڤانوڤنا من الانضمام الى الفريق ، مع ان الصيد الذي يتعلق الامر به لا يمت بصلة الى التسلية الهادئة لأبناء المدن الذين يلعبون بصنارتهم الصغيرة ؛ فكل رحلة صيد كانت هنا عملاً طويلاً ومتعباً على متن مراكب ضخمة ثقيلة الاحمال ، مقروناً بمطاردة تتطلب الحنكة والخبرة .

في الايام الاولى من حزيران ، حين بلغت موجات الحرارة ألما ـ آتا ، اقامت العائلة في داتشا Dacha عند أسفل الجبال ، خارج المدينة . كان تروتسكي قد استأجر مزرعة ، سقفها مغطى بالقصب ، محاطة بجنينة تفاح . ومن البيت ، كان يمكن ان يرى المرء ، من جهة ، المدينة من اعلى الى أسفل محاطة بالسهب ، ومن جهة أخرى ، ذرى الجبال المغطاة بالثلوج . خلال العواصف الشديدة ، كان السقف القصبي يسرّب المياه وكانت العائلة

---

٧ ـ المخفوظات .

٨ ـ رسالة في اول نيسان/ابريل ١٩٢٨ ، المحفوظات .

بأسرها تندفع الى الدور العلوي حاملة الدِّلاء والدسوت . وفي الجنينة ، كانت ثمة غرفة خشبية يعمل فيها تروتسكي ، سرعان ما امتلأت بالكتب والصحف والمخطوطات وكانت تهتز من تأثير الضرب على آلة كاتبة قديمة كان يسمع صوتها في البستان بأسره . ومن طاولة العمل ، كان يمكن تروتسكي ان يلاحظ النبتة التي نمت عبر شق في ارضية الحجرة ووصلت بأسرع ما يمكن الى ركبتيه . وكل ذلك ان دل على شيء فعلى الطابع « الزائل » لمسكنهم ؛ الا انه كان مما يثلج الصدر ان تكون العائلة تمكنت من الافلات من المدينة حيث كان الناس في تلك الفترة يطاردون وسط غيوم الغبار في الشوارع الكلاب المسعورة بغية قتلها . وعلى امتداد الاشهر السابقة ، كان تروتسكي وسيدوفا عانيا ، كلاهما ، من الملاريا وتابعا « نظاماً من العلاج بالكينين » ، لكن نوبات الحمى كانت توقفت تقريباً في ذلك الحين[٩] .

ولقد كان على المنفي ان يكسب عيشه . فهو كان يقبض حقاً مخصصاً حكومياً ، لكنه كان طفيفاً للغاية وغير كاف ، مع ان العائلة كانت صغيرة وحاجاتها متواضعة ، لموازنة تزايد كلفة المعيشة . وقد توقفت غوسيزدات ، دار نشر الدولة ، قبل قليل عن نشر مؤلفات تروتسكي التي كان ظهر منها حتى ذلك الحين ١٣ جزءاً فقط . لا بل ان تلك الاجزاء ذاتها كانت قد سحبت من المكتبات و المكتبات العامة . وكان في ذهن تروتسكي مجموعة من المشاريع الادبية الجديدة ، فهو فكر في كتابة دراسة عن الثورة في آسيا واستحصل على مجموعة من المؤلفات الاساسية حول الصين والهند . وكان يريد كذلك ان يكتب ملخصاً لتاريخ روسيا والعالم منذ ثورة اوكتوبر . ومنذ وصوله الى ألما ـ آتا ، بدأ يهيىء اعلاناً بالمبادىء الاساسية للمعارضة مخصصاً للمؤتمر السادس للاممية الشيوعية الذي كان سينعقد خلال الصيف . وقد كان اصدقاؤه ، ولا سيما بريوبراجنسكي ، يحثونه على كتابة مذكراته ، فشرع في العمل في نيسان/ابريل واستعاد ، مستعيناً بصحف الجنوب القديمة وبخرائط نيكولاييف واوذيسا ، ذكريات طفولته وصباه التي بدأ بها كتاب حياتي .

الا انه ما كان بالامكان أن يكسب من اي من تلك الاعمال مبلغاً من المال ، لأنه لم يكن لأي منها حظ في النشر . الا ان اي منفي ، استناداً للمادة ٥٨ ، المتعلقة بـ « النشاطات المعادية للثورة » ، كان لا يزال بإمكان السعي لكسب حياته كمترجم ، او سكرتير تحرير أو مصحح . وحين تبين ان بين المؤلفات التي يمكن ان يسمح لتروتسكي بترجمتها او بتصحيح ترجمتها مؤلفات ماركس وانجلز ، بادر الى العمل بحماس . كان

---

٩ ـ رسالة من تروتسكي الى راكوفسكي في ١٤ تموز/يوليو ؛ المرجع ذاته .

صديقه القديم ريازانوف ، مدير معهد ماركس ـ انجلز في موسكو في ذلك الحين ، يعد الطبعة الروسية من الاعمال الكاملة لماركس ـ انجلز ، فطلب الى تروتسكي ترجمة Herr Vogt . في تلك الاهجوّة غير المشهورة ، كان ماركس يرد على الافتراءات التي اطلقها ضده كارل فوغت ، وكان عميلاً لنابوليون الثالث كما تبين فيما بعد . وحين قرأ تروتسكي ذلك النص للمرة الاولى لاحظ ان ماركس احتاج الى عدة مئات من الصفحات لدحض اتهامات فوغت ، وانه هو سيكون محتاجاً لـ «انسيكلوبيديا كاملة» لغسل نفسه من افترآات ستالين . ثم طلب ريازانوف الى تروتسكي اصدار الترجمات ومراجعة بروفات الاجزاء الاخرى من مؤلفات ماركس وانجلز ، وهو ما فعله تروتسكي(١٠) .

تُظهر المراسلة بين تروتسكي وريازانوف بأي تواضع ووجدان حي انكب تروتسكي على ذلك العمل : نجد في تلك الرسائل ملاحظات تفصيلية شبه متحذلقة حول اسلوب الترجمة واقتراحات بالتحسينات المطلوبة . وينعدم في تلك المراسلة ، اجمالاً ، الطابع السياسي لتحتفظ بطابع رسائل العمل . وليس ثمة ادنى اثر من السخرية في الطريقة التي ينظر بها تروتسكي الى ذلك الانشغال الذي يدر المال ، وكان الوحيد آنذاك المسموح له بممارسته في الاتحاد السوفياتي . وكانت الاتعاب التي يدفعها له ريازانوف تكفي حاجات العائلة وتغطي أكلاف العدد الضخم من الرسائل التي كان يبعث بها تروتسكي(١١) .

منذ وصول تروتسكي الى ألما ـ آتا بذل ما في وسعه ليعيد الاتصال باصدقائه وانصاره ، المشتتين في شتى انحاء البلاد والمفروض عليهم الصمت والعزلة . في البدء ، لم يكن ذلك ممكناً الا عن طريق البريد العادي ، وبالوسائل الاكثر بدائية ، لأنه كان فتحاً أن تحصل في المكان الذي انت فيه على ريشة وقلم وبعض الاوراق من النوع الرديء أو بعض الشموع . وقد غدا ليوفًا « وزيره للشؤ ون الخارجية ووزيره للبريد والبرق والهاتف » ، وحارسه الشخصي ، ومساعده في أبحاثه وسكريتيره ومنظم رحلات الصيد . بفضله ، بدأ سيل متواصل من الرسائل والرسائل السيّارة Circulaires ينطلق من ألما ـ آتا في جميع الاتجاهات . ومرتين او ثلاثاً في الاسبوع ، كان ساعي بريد عليل يصل ممتطياً حصاناً ناقلاً كيس البريد الممتلىء رسائل ومقصوصات من الصحف ، وحتى فيما بعد كتباً وصحفاً

١٠ ـ في احدى الرسائل ، يقول تروتسكي ايضاً انه يترجم اعمال توماس هودغكن Hodgkin ، « الاشتراكي الطوباوي الانكليزي » .

١١ ـ بين نيسان/ابريل وتشرين الاول/اوكتوبر ١٩٢٨ ، ارسل تروتسكي ٨٥٠ رسالة سياسية ، بعضها بطول الابحاث ، و ٥٥٠ برقية ، وتلقى ١٠٠٠ رسالة و ٧٠٠ برقية ، عدا مراسلته الخاصة .

اجنبية . ولا شك ان الرقابة والغيبيو كانتا تراقبان عن كثب تلك المراسلة . وكانت هذه تأتي بصورة رئيسية من راكوفسكي ، المنفي الى استراخان ، ورادك المنفي في توبولسك ، وبريوبراجنسكي في اورالسك ، وسميلغا في ناريم ، وبيلودورودوف الذي تم ارساله الى اقصى الشمال حتى اوست ـ كيلوم في جمهورية كومي ، ومن سيريبرياكوف بآسيا الوسطى في سيميبالاتنسك، ومن مورالوف في تارا ، ومن ايفان سميرنوف في ارمينيا بنوڤو ـ بايازيت ، ومن مراشكوفسكي في فورونيج . وبصورة اقل انتظاماً كان تروتسكي يراسل جيشاً من اعضاء المعارضة الآخرين . وفيما بعد ، خلال العام ، كتب الى سوسنوفسكي[١٢] الذي كان على اتصال شبه منتظم بكل جاليات المنفيين في سيبيريا وآسيا السوفياتية ، في بارنول ، وكامينسك ، ومينوسينسك ، وتومسك ، وكولباشيفو ، وبينيسيسك ، ونوفوسيبيرسك ، وكانسك ، وآشبنسك ، وأكتيوبينسك ، وطشقند ، وسمرقند ، الخ . ومع جاليات روسيا الاوروبية ، كان يتراسل بواسطة راكوفسكي الذي كان مسؤولاً ، انطلاقاً من استراخان ، عن أنوية المعارضة على امتداد الفولغا الجنوبية والقرم ، وبواسطة مراشكوفسكي الذي بقي على اتصال مع جاليات الشمال ، انطلاقاً من فورونيج . وحيث كانت توجد مجموعات مهمة من المنفيين ، كانت الرسائل والرسائل السيّارة تنسخ من جديد وتوجه الى المجموعات الاقل اهمية . وابتداء من شهر نيسان/ابريل ، قامت دائرة بريد سرية بين ألما ـ آتا وموسكو ، لم تكن توزع البريد أو تستلمه الا مرة كل اسبوعين او ثلاثة اسابيع .

بهذه الصورة ، شكلت مجموعات المنفيين ، الذين كان عددهم واهميتهم يتزايدان بانتظام ، جماعة على حدة ذات نشاط سياسي كثيف . وقد كان تروتسكي ملهم المعارضة في المنفى ومنظمها ورمزها . ولم يكن الوضع النفسي للمنفيين متجانساً ، إذ كان البعض مصابين بالذهول ، بينما لم يكن الآخرون يجدون في القمع الذي يتعرضون له غير مزحة رديئة . ويبدو أن الاكثرية كانت مقتنعة في الفترة الاولى بأن انتصار ستالين قصير الامد ، وان ما سيلي من الاحداث سينتقم لاعضاء المعارضة الذين سيتلقون التحية ، ما ان يعودوا من المنفى ، لصحة وجهات نظرهم ولشجاعتهم ولاخلاصهم للماركسية ـ اللينينية .

وبما ان ظروف حياتهم ، المتعبة والمذلة ، لم تكن مع ذلك مضنية ، فلقد عاد اعضاء المعارضة الى نوع من الحياة الفوه قبل الثورة . كانت مهمة السجناء والمنفيين السياسيين ان يستفيدوا من بطالتهم القسرية لتوضيح فكرهم ، والدراسة واعداد النفس لليوم الذي

---

١٢ ـ رسالة في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ، المحفوظات .

عليهم ان يضطلعوا فيه من جديد بمسؤ ولياتهم في النضال المباشر او في الحكم . ولقد كانت الشروط ملائمة لهذا العمل ، ففي العديد من الجاليات ، كان ثمة مثقفون ، ومنظّرون لامعون ، وكتاب موهوبون ، يجدون في رفاقهم جمهوراً مختاراً من المستمعين . وكان التبادل المكثف للافكار يساعد على صون الانضباط الذاتي واحترام الذات . ومن ألما ـ آتا كان تروتسكي يتابع ذلك التبادل بلهفة ويشجعه . كان يورد في بعض الرسائل لأصدقائه تلك الحكمة لغوته ، التي ترى بأنه للاحتفاظ بما كسبه المرء على الصعيدين الفكري والاخلاقي ، عليه ان يكتسبه من جديد بلا انقطاع . هكذا غدت الجاليات مراكز نشاط سياسي وفكري وأدبي مرموق . وفضلاً عن الدراسات و « الاطروحات » حول الشؤ ون الجارية ، جرى الشروع بأعمال اخرى اكثر اهمية . فرادك بدأ بكتابة سيرة حياة واسعة للينين ، وكان راكوفسكي منشغلاً بإعداد سيرة لحياة سان ـ سيمون ودراسة لبدايات الاشتراكية الطوباوية بينما كتب بريوبراجنسكي مؤلفات حول الاقتصاد السوفياتي ، واقتصاد اوروبا في القرون الوسطى ، وبدأ سميلغا وضع كتاب عن بوخارين ومدرسته ، وكتب دينجلستيدت بحثاً حول البنى الاجتماعية في الهند ، الخ . الا ان كل تلك الاعمال الفكرية ، مهما تكن قيِّمة ، لم تكن تعطي جواباً عن السؤ ال الذي كان يسيطر على كل افكار المنفيين ، والذي سرعان ما ستطرحه الاحداث من جديد : ما الذي سيحصل ؟

حتى في اقاصي سيبيريا وآسيا الوسطى ، جرى الشعور قبل نهاية الشتاء بصدمة ازمة جديدة . فالأزمة الكامنة منذ مدة طويلة غدت مهددة مع حلول الخريف ، قبل نفي المعارضة مباشرة . كانت اهراء الدولة نصف فارغة ، وكان الجوع يهدد سكان المدن ، بينما كان تموين القوات المسلحة غير اكيد . فالصفوف التي لا تنتهي على ابواب المخابز والزيادات المتتالية في سعر الخبز ، التي كان تروتسكي شاهدها في الما ـ آتا ، كانت تعم الاتحاد السوفياتي .

مع ذلك ، لم يكن وضع الزراعة رديئاً ؛ فلقد جرت تقريباً زراعة مساحة من الاراضي لا تقل عما زُرع في افضل السنين ، ومنذ ثلاث سنوات كانت المواسم ممتازة . لكن « الرابط » بين المدينة والريف انقطع مرة أخرى ، وكان الفلاحون يرفضون تسليم الخبز وبيعه بالسعر المحدد . كان جمع الحبوب يترافق بالهيجانات الشعبية ، ويتم طرد المكلفين رسمياً به من الارياف فيعودون فارغي اليدين الى المدن . كان لدى الفلاحين القليل من الحوافز ـ لا بل لم يكن لديهم اية حوافز ـ لتسليم انتاجهم اوبيعه ، لانهم لم يكونوا يستطيعون الحصول بالمقابل على البسة او احذية ، أو معدات زراعية او سلع صناعية

اخرى . وكانوا يطالبون برفع سعر القمح بشكل ملموس ، وبذلك كانوا يصطفون ، بصورة اكثر وضوحاً مما في الماضي ، خلف الفلاحين الاغنياء .

في المكتب السياسي ، كان البوخارينيون والستالينيون يتجابهون بصدد هذه المسألة ، في حين كانوا يتفاهمون لمطاردة التروتسكيين وسحق الزينوفييفيين . كان البوخارينيون يتمنون تهدئة الفلاحين عن طريق التنازلات ، بينما كان الستالينيون يميلون الى استخدام القوة ، وان لم يكونوا قد حزموا أمرهم تماماً للقيام بذلك . ففي اول اسبوع من كانون الثاني/يناير ، اي قبل نفي تروتسكي بعشرة ايام ، اضطر المكتب السياسي لاتخاذ قرار بصدد متابعة جمع الحبوب ؛ ولا شك ان الازعاج الذي سبّبه الوضع في الارياف دفعه لتسريع نفي تروتسكي . وفي ٦ كانون الثاني/يناير اصدر المكتب السياسي تعليمات سرية أوعز بها الى منظمات الحزب كي تلجأ الى الصرامة الاشد تجاه الفلاحين الذين يعيقون عملية الجمع ، وان تصادر الخبز ، وترد برفض جازم على كل مطالبة بزيادة اسعار السلع الغذائية وتشدد مراقبة الكولاك . لكن تلك التعليمات لم توضع موضع التنفيذ ، فاضطر المكتب السياسي لتكرار توجيهها بعد مرور خمسة اسابيع ، لكن بالحاح اشد هذه المرة وبتكتم أقل .

في اواسط شباط/فبراير ، أطلقت البرافدا صفارة الخطر : « الكولاك يرفعون رأسهم » . واخيراً ، في نيسان/ابريل ، اعلنت اللجنة المركزية بفظاظة ، وبتعابير يحسب المرء انها مستعارة من التروتسكيين والزينوفييفيين ، ان ازمة خطيرة تهدد البلاد ، وان تلك الأزمة ناجمة عن تنامي « السلطة الاقتصادية للكولاك » ، التي لم تنجح سياسة الحكم المالية في إفشالها . « عن طريق التمايز الذي تم داخل الفلاحين ، وجد الكولاك انفسهم ، مع تنامي سلطتهم الاقتصادية ، قادرين على ممارسة نفوذ مهم على مجمل السوق[13] . » واضافت اللجنة المركزية ان الحزب كان ولا يزال مع ذلك بطيئاً في إعادتهم الى صوابهم . وقد اتخذت تدابير طارئة : سوف يُطالب الكولاك بتسليمات قسرية بغية الحد من قدرتهم الشرائية ، وستصادر مخزونات الحبوب ، ويجمَّد سعر الخبز ، واخيراً سوف يجري فصل الموظفين واعضاء الحزب الذين يبدون رأفة تجاه الكولاك . هذه القرارات لم يجر تصويرها كتراجع عن السياسة المتبعة ، بل كتدابير معدة لمواجهة صعوبات غير متوقعة . لم تكن قرارات اللجنة المركزية تشير ، ولو تلميحاً ، الى « جماعية كلية » ، لا بل على العكس ،

---

١٣ ـ KPSS ريزلوتسياخ ، ج ٢ ، ص ٣٧٣ .

فقد تم استبعاد هكذا منظور استبعادا كاملا . ومع ذلك فالطريقة التي حللت بها اللجنة المركزية الوضع ، والالحاح الذي جرى التشديد به على الخطر الذي سببه الكولاك ، وعجز الحزب عن مواجهته ، كل ذلك كان قد بدأ يسمح بتوقع تغيير جذري في السياسة . كان الستالينيون قد حصلوا على اكثرية في اللجنة المركزية ، وباستحصال ستالين على اعطاء الحزب سلطات اكبر لمكافحة الكولاك ، عزز سلطته في وجه البوخارينيين ؛ وقد تمكن من طردهم من العديد من المناصب على المستويين الادنى والمتوسط ، في الادارة وجهاز الحزب .

كان رد الفعل الاول من جانب المنفيين التروتسكيين على تلك الاحداث مزيجاً من التسلية والسخرية وحتى الابتهاج . وقد تساءلوا : ألَمْ تبرهن توقعات المعارضة عن صحتها ؟ ألم يكن ستالين مضطراً لأن ينحو يساراً كما طالبت بذلك المعارضة ؟ كيف لم يكن في وسع الحزب أن يفهم الآن من كان على حق ومن أخطأ في تلك المساجلة الواسعة في السنوات الاخيرة . وكان معظم أعضاء المعارضة يهنئون أنفسهم ، منتظرين بثقة متزايدة ان يجري استدعاؤ هم للتعاون من أجل إنهاض الوضع وقيادة سياسة بلشفية جديدة . وقد كان تروتسكي يتوسع في مراسلاته في التنويه ببعد نظر المعارضة ، مبدياً مزاجاً ممتلئاً ثقة ، دون أن يشارك أنصاره آمالهم المبالغة في تفاؤ لها[١٤] .

لكن الاسابيع توالت ، وزادت حدة « الانعطاف يساراً » دون ان يجري أي تعديل في الموقف الرسمي تجاه المعارضة . عندئذ حل ، وسط جاليات المنفيين ، محل التهاني التضايقُ والحيرة . فالمجرى الذي اخذته الاحداث كان يؤدي الى التشكيك ببعض التحليلات والاطروحات الاكثر اهمية للمعارضة ، لاسيما تقديراتها لموازين القوى داخل الحزب . بدأ بعض التروتسكيين يتساءلون : هل كنا على حق في التنديد بستالين كحامي الكولاك ؟ هل كنا محقين حين قلنا انه بهزيمة المعارضة اليسارية سيختل توازن الحزب الداخلي بحيث يتعزز اليمين البوخاريني ويطيح الوسط الستاليني ؟ ألم نفرط في تقدير قوة العناصر المحافظة داخل الحزب ؟ وبدل أن يجري تخطي الكتلة الستالينية ، هي ذي تتخطى اليمين . الم نبالغ حين اطلقنا صيحات كاساندرا حول خطر الترميدور ؟ وعموماً

---

(١٤) انظر مثلاً ، رسالته الى سوسنوفسكي ، في ٥ آذار/ مارس ١٩٢٨ ، المحفوظات . يعيد الى الأذهان بوجه خاص الاتهامات بالانهزامية الموجهة ضده ، لأنه قال إن محصولاً جيداً ، مثله مثل المحصول الرديء ، يمكن ان تكون نتيجته ، في ظل سياسة ستالين وبوخارين ، تعزيز وضع الكولاك . اما اليوم فالبرافدا ـ كما يقول ـ التي اكتشفت فجأة قوة الكولاك ، فتتكلم على المواسم الثلاثة الأخيرة ، التي كانت ممتازة ، « كما لو كانت ثلاثة زلازل » .

ألم نذهب بعيداً جداً في نضالنا ضد ستالين ؟

إن الجزء الاكبر من المنفيين لم يكن يسمح لتلك الشكوك بمراودة افكاره ، لكن اقلية طرحت تلك الاسئلة بالحاح متزايد . واذ كان السؤال يجر سؤالاً آخر ، توصلت إلى إعادة النظر في وجوه اوسع فأوسع لبرنامج المعارضة ونشاطها . كانت الاجوبة تتعلق برأي المعارضة حول التوجه اليساري لستالين : هل يجب اخذه على محمل الجد أم لا ؟ كان لا يزال بالامكان النظر الى عمل ستالين ضد الكولاك كمناورة لا مستقبل لها ، وكتكتيك تسبب به وضع مؤقت وهو لا يستتبع اطلاقاً عدم العودة الى سياسة مماثلة للكولاك . وهذا ما كان يفكر به الكثير من المعارضين ، لكن البعض كانوا مقتنعين بأن ستالين قد عدل نهائياً اتجاه سياسته ، وأن الأمر يتعلق بالطور الاول من هزة خطيرة ، ولم يكونوا مرتاحين لمنظورات المعارضة . فكيف يمكن المعارضين ان يبقوا مكتوفي الايدي ، في حين ينخرط الحزب في نضال خطير ضد العناصر الرأسمالية او شبه الرأسمالية في الامة ، علماً ان المعارضة هي التي كانت قد طالبت بهذا النضال بالذات ؟

كانت المعارضة قد ارست عملها على القناعة بان الجناح اليميني هو الذي كان يقود في كل الميادين المهمة . وان التكتل الستاليني ، الضعيف والمتأرجح ، كان يسير خلفه كظله ، بحيث شعرت بالارض تميد من تحتها حين أطلق ستالين هجومه الاول ضد الكولاك . كان زينوفييف وكامينيف بررا استسلامهما ، منذ كانون الاول /ديسمبر ، بالقول ان ستالين على وشك تبني توجه يساري . ولم يطل الوقت حتى كان تروتسكيان مرموقان ، بياتاكوف وانطونوف ـ اوفسينكو ، يحذ وان حذوهما ويعلنان قطيعتهما مع تروتسكي ، علماً أنهما كانا القائدين الاكثر حزماً وجسارة لمعارضة عام ١٩٢٣ ؛ وفي السنوات اللاحقة ، كانا شاركا في النضال دون الكثير من القناعة ، وحين تخليا عن المعارضة بررا ذلك بأن ستالين تبنى الان برنامجها . وفي البلاد تلقى المنفيون ارتداد بياتاكوف وانطونوف ـ اوفسينكو بالاحتقار والسخرية اللذين يستحقهما المرتدون . لكن حججهما مارست مع ذلك بعض التأثير وحفزت التساؤلات .

في بداية ايار/مايو ، بعث تروتسكي برسالة إلى جاليات المنفيين يحدد فيها موقفه ، وكان لا يزال يجهل كل شيء أو معظم الاشياء عن التيارات الجديدة التي تتجاذب تلك الجاليات (١٥) . في تلك الرسالة يقول إن الانعطاف اليساري الذي اقدم عليه ستالين هو

(١٥) انظر رسالته السيّارة في ٩ أيار/مايو. المحفوظات .

العلامة الأولى لتغيرات مهمة ، وإن في وسع المعارضة ان تعتز لأنها كانت روح السياسة الجديدة وملهمتها . وبالطبع ما كان يمكن لذلك الاعتزاز الا ان يتلون بالكآبة، اذا فكر اعضاء المعارضة بالثمن الذي دفعوه لقاء ذلك النصر . لكن غالباً ما كان قدر الثوريين أن يتمكنوا ، لقاء اضخم التضحيات أو أكثرها مأساوية ، من دفع آخرين ، وحتى اعدائهم احياناً ، لتطبيق اجزاء من برنامجهم الثوري . هكذا فإن كومونة باريس التي اغرقها جلادوها في الدم ، انتصرت مع ذلك عليهم لأنها اضطرتهم لتطبيق جزء من برنامجها : إذا كانت الكومونة فشلت كثورة بروليتارية ، فلقد نجحت مع ذلك في جعل المَلَكية مستحيلة في فرنسا، وقيام جمهورية برلمانية على الاقل امراً محتوماً .هكذاستكون ، Mutatis mutandis علاقات المعارضة بالتوجه اليساري لدى ستالين : يمكن ان تنهزم المعارضة ، وربما لن يجري تطبيق مجمل برنامجها ، لكن نضالها سيكون ، على الاقل ، جعل من المستحيل مواصلة الجماعة الحاكمة تراجعها امام العناصر الرأسمالية وتدشين نيب جديدة .

ماذا كان على المعارضة أن تفعل ؟ إن من واجبنا ـ كتب تروتسكي ـ تقديم دعم نقدي للتوجه اليساري لدى ستالين . ولن يمكن في اي ظرف كان التحالف مع بوخارين ضد ذلك التوجه . علينا على العكس تشجيع الوسط الستاليني المتردد في القطع النهائي مع اليمين وفي الاقتراب من اليسار . ان تحالفاً بين المعارضة ومضطهديها الستالينيين ضد المدافعين عن الكولاك ليس امراً مستحيلاً ، حتى لو لم تظهر هذه الامكانية على الفور . وعلى المعارضة ، اكثر مما في اي وقت مضى ، ان تطالب بالحرية داخل الحزب ، و « التوجه اليساري يسهل النضال من اجل الديمقراطية البروليتارية » . واذ كان تروتسكي يستدل بهذه الطريقة ، كان منطقياً مع ذاته تماماً : لم ينفك ، منذ عام ١٩٢٣ ، يؤكد ان « الوظيفة » الرئيسية للنظام الستاليني هي ان يحمي من الهجمات العمالية بيروقراطية حزبية تحمي الكولاك ورجال النيب . كان طبيعياً إذاً ، بالنسبة اليه ، أن يستنتج بأنه حين تتوقف البيروقراطية عن حماية الكولاك والنيبمان ، سوف تقترب اكثر فأكثر من الطبقة العاملة ، وتسعى للتصالح مع الناطقين بلسانها وتعيد لهم حرية التعبير . لكن في حين على المعارضة أن تدعم التوجه اليساري ، عليها في الوقت ذاته ان تقاوم الاضطهاد الستاليني وتُفهِّم الحزب انه طالما استمر ذلك الاضطهاد لاشيء يضمن استمرار ستالين في سياسته الجديدة وعدم خضوعه مرة اخرى للكولاك . ولقد كان تروتسكي يعترف بأن « موقفه مزدوج » وانه ليس من السهل تبنيه ، لكنه كان يعتبر ان هذا الموقف هو الوحيد الصحيح في الظروف القائمة . كان بياتاكوف قد قال ان مواقف تروتسكي « تتناقض مع نفسها » . فيجيب تروتسكي بأن « كل التناقضات تختفي لدى رجل (مثل بياتاكوف) ينتحر وهو يقفز

الى النهر » .

كان لموقف تروتسكي كل المرانة الديالكتيكية التي كان يتطلبها التباس الوضع . فإذا كان ينظر الى هجوم ستالين على الكولاك كحدث مهم وواعد ، فلقد كان يلح في الوقت ذاته ، بالمزيد من الحزم والقوة ، على الحاجة الى حرية نقد ونقاش تكون الضمانة الرئيسية لأصالة السياسة الجديدة . لم يكن تروتسكي يقدم للمعارضة اي غاية شخصية تحققها بل مبادىء تدافع عنها . وحين كان عدوه يتبنى صفحة جديدة من برنامجه ، كان يعترف بأنه هو صاحبها ويحث أنصاره على مساعدة عدوه لانجاح هذه المهمة او تلك التي يراها ضرورية . لكن كانت هنالك صفحات اخرى كثيرة في ذلك البرنامج ، ولم يكن تروتسكي مستعداً لتمزيقها . وبصدد المنظورات المستقبلية للمعارضة ، كان يستبعد فرط التفاؤ ل كما يستبعد فرط التشاؤم : كان من الممكن ان تجبر الاحداث الستالينيين على التصالح مع المعارضة ، وفي تلك الحال تستعيد المعارضة القيادة الادبية والسياسية . لكن على المعارضة ان تكون مستعدة ايضاً لمشاركة الكومونيين الفرنسيين الابطال مصيرهم ، وان تحفز بشهادتها بالذات المثل الاعلى للاشتراكية والتقدم .

إن كون تروتسكي اتخذ موقف التأييد النسبي للتوجه اليساري لستالين واعترف بقيمته الايجابية فاجأ انصاره لا بل بلبلهم . فالذين كانوا قد بدأوا ينتقدون موقف المعارضة السابق تعززت حجتهم . فاذا كان تروتسكي الان على حق ـ قال هؤلاء ـ ألم يكن مخطئاً إذاً من قبل حين حذر من شبح الخطر الترميدوري ؟ الم يسىء تقويم سياسة ستالين ؟ هل يحق للمعارضة ان تعزي نفسها بفكرة ان التاريخ سينتقم لها كما سبق ان انتقم لكومونة باريس ؟ الم يكن على التروتسكيين ان يقدموا الدعم القوي لأولئك الذين يخوضون نضالاً جباراً ضد الملكية الخاصة فيساعدوا هكذا في صنع التاريخ بدل ان ينتظروا بصورة سلبية الحكم الذي سيصدره حتماً ؟ كان يمكن الأجيال اللاحقة ان تمجد استشهاد الكومونيين ، لكن لم يقاتل هؤلاء ليحصلوا على هالة الشهادة بل لبلوغ اهداف كانوا يرون انها ملموسة ويمكن بلوغها .

كانت اسئلة كهذه تعبر عن المأزق الذي كان التروتسكيون مسجونين فيه ، وهو مأزق كان الاحباط يجعله مفعماً بالمرارة . كان النفي والبطالة الاجبارية والشكوك القوية ترزح على اولئك الناس من نار وفولاذ الذين صنعوا ثورة وحروباً اهلية وبنوا دولة جديدة . كان طردهم من الحزب الذي كرسوا له حياتهم ، والذي تسبب لهم بالعديد من الاقامات في السجون القيصرية ، وكانوا لا يزالون يعتبرونه الأمل الاعظم للبشرية ، عبئاً بالغ الثقل

يرزح على صدورهم . ولقد اصبح ذلك غير محتمل حين فهموا ان بعضاً من خلافاتهم الاساسية مع الستالينيين بدأت تزول وأن الحزب يبادر الان للقيام بما تاقوا بحرارة لآن يقوم به . وليس صعباً على المناضل السياسي ان يتحمل الهزيمة والحرمان والاذلال طالما هو يعرف بوضوح لماذا يقاتل ، وطالما يشعر أن انتصار قضيته يتوقف فقط على عمله وعمل رفاقه . لكن حتى المناضل الاكثر صلابة يخاطر بالسقوط في وضع بهذه الغرابة حين يلاحظ أن مثله الاعلى ، او على الاقل جزءاً كبيراً من مثله الأعلى ، قد استعاده المسؤول عن اضطهاده وتبناه . حينئذ لا يعود انتصار قضيته يبدو له مستنداً إلى كتفه . كل شكل من اشكال النضال يتراءى له عبثياً . يبدأ بالتساؤل حينذاك إذا كان محقاً في اعتبار المسؤول عن اضطهاده عدواً له .

كان ستالين يعرف بالتفصيل اضطراب المعارضة وحيرتها ، لكن هو ايضاً كانت له مآزقه . كل امتداح لسياسته اليسارية يقوم به تروتسكيٌّ كان يخدمه ، لكن دعماً من جانب التروتسكيين كان يخيفه ايضاً . لقد انطلق في طريق مجهولة وخطرة ، تدفعه الظروف ، ويملؤه التردد والشكوك . كان يخاطر في التسبب بنزاع خطير مع الفلاحين . لم يقدِّر اهمية المقاومة التي سيواجهها وعنفها ، ولم يكن باستطاعته ذلك . لقد ارتد بحذر على حلفائه بالأمس ، البوخارينيين الذين لم يكن يبخس اطلاقاً تقدير نفوذهم وشعبيتهم . ولم يكن يدري الى اين سيؤدي به ذلك الصراع وفي أي مخاطر قد يرمي به . ومثله مثل تروتسكي ، ما كان بإمكانه ان يستبعد امكانية الاضطرار للتحالف مع المعارضة اليسارية ، ضمن وضع بالغ الحرج . لكنه كان يعرف ايضاً ان هكذا احتمالاً يعني انتصار تروتسكي ، وهو كان عاقد العزم على ان يبذل كل ما في وسعه للاجهاز على البوخارينيين دون ان يحتاج للتصالح مع تروتسكي . كان على حق في الخوف من ألا تكون قوة تكتله الخاص به كافية ، ومن أن لا يكون رجاله قادرين على تسيير جهاز الدولة وادارة الصناعة المؤممة والمالية اثناء الحقبة الجديدة من التطور المتسارع التي ستكون ممتلئة بالعثرات . لقد كان الستالينيون قبل كل شيء رجالاً لجهاز الحزب . أما المنظرون ، والسياسيون ، والاقتصاديون ، ومدراء الصناعة ، والخبراء الماليون والزراعيون ، ورجال السياسة الحقيقيون ، فكانوا يوجدون بين التروتسكيين والبوخارينيين والزينوفييفيين . وكان ستالين يحتاج لاسهام رجال مختصين ، عازمين على تطبيق سياسة معادية للكولاك وقادرين على تطبيقها عن قناعة وبفعالية . ذلك النوع من الرجال كان يجده داخل المعارضة اليسارية ، لذا كان ستالين يرغب في ان يلحق به اكبر عدد ممكن من التروتسكيين والزينوفييفيين الأكفاء ، دون ان يستسلم أمام تروتسكي او زينوفييف . وقد طرح الصوت على التروتسكيين من دون علم

تروتسكي . زين لهم مرسلوه السياسة اليسارية الجديدة واجتهدوا في اقناعهم بأن معارضتهم لستالين لم يعد لها من مبرر . اما المنفيون فبدأوا بصورة شبه جماعية يديرون أذنهم الصّماء ، لكن دعوات عملاء ستالين لم تسقط على ارض جدباء . فلقد تضاعفت الشكوك لدى بعض التروتسكيين وبدأوا يعيدون النظر ، اكثر فأكثر ، بموقف المعارضة السابق ، بعين نقدية وجديدة .

لم ينتبه تروتسكي لهذا الوضع الاحوالى منتصف أيار/مايو . فلقد أرسل اليه بيلو بورودوف تقريراً حول النقاشات التي كانت تدور في جاليات المنفيين . واوضح له تروتسكيٌ آخر كان لايزال في السلك الدبلوماسي الستاليني ، اوضح له من برلين ما كان يتصوره خطة ستالين للعمل . فحسب ذلك المراسل ، كان ستالين يأمل تحسين وضعه ، الدقيق حالياً ، بجعله بعض كبار المعارضين المنفيين يدينون المعارضة ، وكان يعتمد على مساعدتهم للتمكن من إنجاح سياسته اليسارية وتوجيه ضربة الرحمة هكذا إلى تروتسكي . لا بل كان ينتظر من اجل الانخراط عميقاً في السياسة اليسارية الحصول على استسلام عدد كبير من التروتسكيين المرموقين . فهل كان ستالين سينجح في ذلك ؟ ذلك كان الآن السؤال الذي ينبغي طرحه . إذا توصلت المعارضة لمنعه من تنفيذ خطته ، واذا لم تصعفها الارتدادات ، واذا تمكنت من المقاومة ، على الاقل ، حتى الخريف ، أي حتى يكون ستالين تمكن من إدراك ان كتلته الخاصة به عاجزة عن حل الصعوبات ، عندئذ يصبح للمعارضة حظ في استعادة المبادرة والعودة الى السلطة . لكن إذا نجح ستالين في تحطيم معنويات المعارضة ، واذا أنجده المستسلمون التروتسكيون ، يبقى حينئذ في السلطة ويسحق البوخارينين ويتمكن من تطبيق سياسته اليسارية دون أن يضطر لمصالحة تروتسكي وأنصاره العنيدين . ولقد كان كاتب الرسالة يخشى ان يكون ستالين على وشك النجاح : كانت معنويات المعارضة مهتزة بشكل خطير وكان عدد كبير جداً من المعارضين مستعداً للتخلي عن النضال (١٦) .

في الظاهر ، لم يصدق تروتسكي ان المعارضة كانت فاقدة للمعنويات الى تلك الدرجة . فالقليل القليل من المنفيين وصلوا الى حدود الاستسلام . وثمة حالة جديرة بالذكر هي حالة سافاروف ، القائد السابق للكومسومول الذي وقّع وثيقة ارتداد جرى بعدها استدعاؤه الى موسكو . لكن حالة سافاروف بقيت استثنائية ، لأنه لم يكن

(١٦) هذه الرسالة المهمة ارسلها من برلين شخص لم يذكر اسمه ، في ٨ أيار ١٩٢٨ . كان تروتسكي يعرف اسمه ، لكن في نهاية حياته ، حين صنّف محفوظاته ، لم يتمكن من تذكر هذا الاسم . وهذا المراسل الذي كان في عام ١٩٢٨ على وشك ان يُصرف من مهماته كان يسأل تروتسكي إذا من واجبه القبول بالعودة الى موسكو . ويبدو أن تروتسكي اعطاه رأياً بالايجاب .

تروتسكياً. فكعضو في تكتل زينوفييف، كان قد رفض في البدء الاستسلام مع زعيمه، ثم بعد تفكير أعقب نفيه مع التروتسكيين ، عاد عن قراره وأعلن استسلامه . لكن يبدو أن قراره لم يتأثر اطلاقاً بالحالة النفسية للمنفيين التروتسكيين . مع ذلك حين اراد تفسير اسباب البادرة التي صدرت عنه ، استخدم لغة ما كان يمكن ألا تؤثر على التروتسكيين : «كل شيء سيتم صنعه الآن بدوننا !» وهذا الـ «شيء» كان يشمل الهجوم على الكولاك وعلى النيبمان، وتطور القطاع الاشتراكي في الاقتصاد ، والتصنيع السريع ، وعلى الارجح جماعية الاستثمارات الزراعية ، لأن كل هذه العناصر للتوجه اليساري كانت متلازمة . لقد كانت فكرة ممضة بالنسبة للتروتسكيين أن يكون التبديل الكبير ، تلك «الثورة الثانية» ، سيتم امام اعينهم لكن من دونهم . وبقدر ما كان تروتسكي ، الحريص على الموضوعية والمتجرد من كل هوى ، يشير الى الطابع التقدمي لقرارات ستالين الاخيرة والى ما فيها من جاذبية وما تستدعيه من استحسان ، وبقدر ما أصر على واجب المعارضة بأن تقدم الدعم لتلك القرارات ، كان الاحباط يزداد لدى تابعيه ويزداد التفكير بقلق شديد حول جوانب الصحة والخطأ في سياسة المعارضة ، ويتضاعف الشعور الممض لديهم بأنه يستحيل عليهم ، وهم مطرودون من حزبهم ، ضائعون في وحشة المنفى ، ان يقدموا اي دعم للسياسة اليسارية الجديدة .

قبل نهاية أيار/مايو ، بعث تروتسكي برسائل جديدة الى انصاره[١٧] ، يدافع فيها عن نشاط المعارضة السابق ويحاول ان يحدد منظورات جديدة . ويمكن تلخيص محاجته بالنقاط الثلاث الآتية :

١ ـ ليس صحيحاً أنه أفرط في تقدير قوة اليمين البوخاريني ، التي كانت لا تزال في كل حال عظيمة . كما ان المعارضة لم تخطىء حين حذرت الحزب من خطر الترميدورية ، لأنها إذ اقدمت على ذلك ساعدته على إفشال القوى الترميدورية . لقد اجبر عمل المعارضة وضغط الطبقة العاملة الستالينيين على قطع صلتهم بالبوخارينيين ؛ ولو لم يحصل ذلك ، لكان النقص الحالي بالخبز قد ادى الى تنازلات ضخمة للرأسماليين الزراعيين الصغار ، وسبب عوضاً عن المنعطف اليساري مداً جارفاً باتجاه اليمين . وكان تروتسكي يخشى ان يقدم اولئك الزاعمون ان المعارضة بالغت في تقدير الخطر اليميني على الاستسلام لستالين .

(١٧) انظر رسائله الى بيلو بورودوف (٢٣ أيار) والى يودين (٢٥ أيار) في المحفوظات .

٢ ـ ليس من حق المعارضة اطلاقاً ان تفكر بأنها ذهبت بعيداً في هجماتها ضد ستالين . على العكس من ذلك ، فإن زينوفييف وكامينييف ، الجبانان والخائفان ، هما اللذان حالا دون الذهاب بعيداً كفاية : « كان عملنا عمل دعاويين ولم يكن غير ذلك » . ان المعارضة لم تحتكم عملياً في اي يوم من الايام الى القاعدة بما يكفي من العزم والجرأة . وحين سعت اخيراً للقيام بذلك في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ، حاول ستالين ان يورطها في حرب اهلية ، فكان عليها عندئذ ان تتقهقر .

٣ ـ إذا كان ستالين يتبنى الآن بعض شعارات المعارضة ، فليس على هذه ان تشعر بالإحباط وتثبيط الهمة . فلقد اندفع التكتل الستاليني في سياسة يسارية حين لم يعد في وسعه ان يفعل شيئاً آخر ، لكنه لن يتمكن من المضي بهذه السياسة الى نهاياتها . وبالتالي فإن تروتسكي اكد لأنصاره ان « الحزب سيكون بحاجة الينا » .

هذه الحجج والتأكيدات لم ترض العديد من أنصار تروتسكي ، فهو لم يقدم لهم منظوراً واضحاً . وقد ظلوا يتساءلون اذا كان ستالين قد انخرط نهائياً في الصراع ضد الكولاك او إذا كان توجهه اليساري يستجيب فقط لضرورات تكتيكية مؤقتة . كانوا يريدون جواباً جازماً لا لبس فيه ، ولم يكن تروتسكي قادراً على اعطائهم إياه ، كما ان ستالين ذاته كان عاجزاً عن تحديد موقفه بدقة . ولم يكن تروتسكي يوضح لأنصاره كيف يمكنهم ، ضمن الوضع الذي هم فيه ، أن يضعوا توصياته موضع التنفيذ ، اي كيف يمكنهم ان يدعموا ستالين ويقاتلوه في الوقت ذاته .

منذ ربيع ١٩٢٨ ، ظهر تياران ورأيان في الجاليات التروتسكية . كان ثمة ، من جهة ، اولئك الذين اعتبروا ان واجبهم فوق كل شيء وقبل كل شيء هو دعم التوجه اليساري لستالين ، وهو واجب كان تروتسكي لا ينفك يردده لهم ؛ وكان من الجهة الاخرى اولئك الذين يميلون بوجه خاص لمواجهة ستالين ، تماماً كما كان تروتسكي يطالبهم أيضاً بأن يفعلوا . هكذا فإن التباينات التي ظهرت داخل جبهة المعارضة بين التروتسكيين والزينوفييفيين عادت الى الظهور الآن داخل المجموعة التروتسكية التي انقسمت الى « توفيقيين » و « عنيدين لا يقبلون المصالحة » . كان لايزال التوفيقيون بعيدين جداً عن تصور الاستسلام لكنهم كانوا يتمنون أن تلطف المعارضة عداءها حيال التكتل الستاليني وتعد نفسها لمصالحة مشرّفة على قاعدة السياسة اليسارية الجديدة . كانوا يؤكدون ان النزاهة والاستقامة ومصلحة المعارضة الخاصة بها تتطلب منهم ان ينظروا بعين النقد الى اطروحات المعارضة المعروفة ويعدلوها على ضوء

الاحداث . وهذا الموقف كان موقف المعارضين من الجيل القديم ، وكانوا اناساً هادئين ومتبصرين ، دفع بهم تعلق عنيف جداً بحزبهم القديم الى حنين لانهاية له . وبين التوفيقيين كان هنالك ايضاً « البيرقراطيون المستنيرون » ، من اقتصاديين ومن إداريين ، الذين كان برنامج المعارضة للتصنيع والتخطيط الاقتصادي يهمهم اكثر بكثير من مطالبها المتعلقة بالحرية داخل الحزب وبالديمقراطية البروليتارية . وكان هنالك اخيراً اولئك الذين فلّت المحن واشكال الاضطهاد ارادة المقاومة لديهم حيال الجماعة الحاكمة . ولما كان الافراد يتحركون بفعل حوافز مركبة ، كان يستحيل في العديد من الحالات تحديد حوافزهم واسبابهم .

أما التروتسكيون المعاندون فكانوا من الشباب بصورة رئيسية ، الذين لم يكن طردهم من الحزب يمثل بالنسبة اليهم قطْعاً في حياتهم كذلك الذي كان يشعر به الكبار . كانوا اناساً اجتذبتهم المعارضة بدعواتها الى الديمقراطية البروليتارية اكثر بكثير مما ببرنامجها الاقتصادي والاجتماعي ؛ وكان بينهم ايضاً منظّرو العداء للبيروقراطية ، والمتحمسون للمعارضة ، والمتعصبون ضد الستالينية . وفي هذه المجموعة ايضاً ، لم يكن يمكن ان يميز المرء الحوافز الفردية بسهولة . وفي اغلب الحالات ، كان الشباب ، الذين لم تشكل القطيعة مع الحزب احباطاً معنوياً كبيراً بالنسبة اليهم ، لامبالين نسبياً بالمشكلات الاقتصادية والاجتماعية المعقدة لكن مستجيبين بحماس لدعوة المعارضة الى حرية الرأي ، وكانوا ينظرون الى كل بيروقراطية بعداء شرس ، جعله الاضطهاد والنفي اكثر شراسة .

كان جناحا المعارضة التروتسكية يميلان إلى التداخل مع مجموعات معارضة اخرى . فالتوفيقيون كانوا يقتربون اكثر فأكثر من الزينوفييفيين الذين احتقروهم حتى ذلك الحين . فقد بدأوا ينظرون اليهم من زاوية اخرى ، واذا لم يكونوا مستعدين لأن يحذوا حذوهم فقد فهموا شيئاً فشيئاً اسباب استسلامهم ، واعاروا آذانهم لحججهم ونظروا الى اعمالهم وحركاتهم نظرة عطف . ومن جهة اخرى ، فإن المعاندين الاكثر تطرفاً لاحظوا ان ثمة العديد من النقاط التي يشتركون بها مع آخر المتصلبين من المعارضة العمالية والديسيميين ، المتحلقين حول سابرونوف وفلاديمر سميرنوف ، والذين كانوا منفيين مثلهم مثل التروتسكيين . كان حقد هؤلاء على البيروقراطية لا يعرف الحدود التي يعرفها لدى التروتسكيين . كانوا قد تخلوا بصورة مكشوفة الى هذا الحد او ذاك عن انتمائهم القومي او السياسي ، وبالتالي عن كل ولاء للدولة والحزب .

كانوا يعتبرون ان الثورة والبلشفية ماتتا ، وان على الطبقة العاملة ان تنطلق مجدداً من الصفر ، أي أن تفجّر كفاحاً ثوريًا جديداً للتحرر من استغلال « رأسمالية الدولة » الجديدة ومن بورجوازية النيب ومن الكولاك . وبالنسبة للعديد من التروتسكيين الشباب ، كان في هذا البرنامج البسيط والذي لا لبس فيه جاذبية وإقناع اكثر بكثير من تحاليل تروتسكي التي جرت موازنتها بعناية ، ومن « السياسة المزدوجة » . كان من الاسهل هضمه ، حيث « نعم » فيه تعني « نعم » و « لا » لا ، من دون اي تعقيد ديالكتيكي . فالديسيميون يقولون إن فضح ستالين كحفار قبر الثورة ، وتأييد الوجه التقدمي للتوجه اليساري الجديد ، كما يقول تروتسكي ، أمر لا منطق فيه ، فأن تقاتل ستالين يعني ان تقاتله لا ان تدعمه .

كان اتجاها المعارضة الستالينية ينظران الى تروتسكي كقائد ودليل ،لكن كلًا منهما لم يرد القبول بأكثر من الجزء من برنامجه الذي يعتبره مناسباً . والطرفان كانا يتذرعان بالمبادىء الاساسية للمعارضة وبمصالحها المشتركة لكن التباينات زادت حدة بصورة تدريجية ، فضعف الشعور الرفاقي وتضخمت الشكوك المتبادلة لدرجة أن الاتجاهين بدآ ينظران الواحد للآخر نظرات سوداء ويوجهان الواحد للآخر كلمات قاسية . فالمعاندون كانوا يعتبرون ان رفاقهم الاكثر اعتدالًا اناس قليلو الوفاء ، إذا لم يكونوا فارين من ساحة المعركة . اما المعتدلون فاعتبروا المعاندين يساريين متطرفين أو فوضويين غير ناضجين ، مجردين من الانضباط الفكري الماركسي ومن المسؤولية عن مصير الثورة . وشك المعاندون في ان يكون التوفيقيون يعملون لحساب ستالين ، بعلم منهم او من غير علمهم ، فيما اعتبر التوفيقيون انه ما من شيء يورط المعارضة ويساعد ستالين بفعالية اكثر من مبالغات مذهبيي التروتسكية والمتعصبين لها .

وكان الناطقون بلسان الاتجاهين معارضين قدامى واصدقاء لتروتسكي موثوقين ومحترمين . فبريو براجنسكي كان اول من قال بضرورة تبني موقف اكثر اعتدالًا حيال الستالينيين . وكان مشهوراً بصلابته كمعارض، وبأن ما من حافز شخصي أو انتهازية كانا يمليان عليه يوماً افعاله . كانت نقطة ضعفه الوحيد في احتقاره الشديد للنفعية كما للركض وراء الشعبية ، وفي الصلابة النظرية لوجهات نظره ، هذا إذا اعتبرنا ذلك من قبيل الضعف . ولقد بدا مقتنعاً للمرة الأولى بضرورة الاعتدال في كتاباته عامي ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ . فهو الذي كان المنظِّر الرئيسي للتراكم البدائي الاشتراكي . كان قد كتب في **الاقتصاد الجديد** : « إن مرحلة التراكم البدائي الاشتراكي هي الحقبة الاكثر حرجاً في حياة الدولة الاشتراكية بعد نهاية

الحرب الاهلية . . . إنها مسألة حياة او موت بالنسبة لاقتصاد اشتراكي أن يجري الحد ما أمكن من طول هذه الحقبة ، وان يجري في اسرع وقت ممكن بلوغ الطور الذي يمكن فيه ان يبرهن النظام الاشتراكي عن كل ميزاته إذا قورن بالرأسمالية . » إبان طور التراكم البدائي ، لا يمكن الدولة الاشتراكية الا ان تقدم للناس أسوأ مضار النظامين : فهي لن تستمتع بمنافع الرأسمالية ولن تستفيد من منافع الاشتراكية . سيكون عليها ان « تستغل » الفلاحين لأجل تمويل التراكم في القطاع الاشتراكي . ويجب ان نتذكر بصدد هذه النقطة ان بريو براجنسكي اصطدم مع بوخارين ومدرسته النــارودنية الجديدة ، التي اطلق عليها تسمية« مدرسة مانشستر الفكرية السوفياتية الخاصة بنا » . وقال : « لا يمكن ان نواجه ضغط الاحتكار الرأسمالي (الاجنبي ولا سيما الاميركي) إلا بحاجز واحد ، هو حاجز الاحتكار الاشتراكي » . يجب أن نُخضع هذا لرقابته القطاع الخاص من الاقتصاد ، ولا سيما الزراعة الخاصة ، بواسطة تدابير ضريبية ونظام موجّه للاسعار » . ورداً على صيحات بوخارين الساخطة ، كان بريو براجنسكي قد أجاب : «هل من حل آخر؟ فلنتكلم بفظاظة : من الذي سيدفع ثمن تطور صناعة الدولة ؟ هل عمالنا الصناعيون الثلاثة ملايين بوجه الحصر ؟ . . . أو أن على الاثنين والعشرين مليوناً من المالكين الصغار للأرض أن يدفعوا أيضاً ما يتوجب عليهم ؟ » إلا انه لم يكن طالب مع ذلك بمصادرة املاك صغار الفلاحين ولا فرض الجماعية القسرية على أراضيهم ، لكنه كان يحدس أكثر من أي شخص آخر بعنف النزاع المحتوم الذي سيدفع الدولة وطبقة الفلاحين الى المواجهة فيما بينهما ، ذلك النزاع الخاضع « للقانون الحديدي للتراكم البدائي الاشتراكي[١٨] » .

كان طبيعياً إذاً ان يستقبل بريو براجنسكي بلهفة توجه ستالين اليساري . فهذا التوجه جاء يؤكد صحة نظرياته الخاصّة به ، وكان يشكل بالنسبة اليه طوراً محتوماً وضرورياً بشكل مطلق . وقد فهم على الفور ان هذا الانعطاف اليساري كان ذا اهمية بالغة ، لا بل كان اكثر اقتناعاً بذلك من تروتسكي بكثير. إن تبايناته مع تروتسكي ، التي بقيت حتى ذلك الحين ضمنية في كتاباتهما لكن دون نتائج عملية ، بدأت تنعكس إذاك في مواقفهما . فتروتسكي لم يكن توصل ابداً إلى درجة التفكير بأن من الطبيعي بالنسبة لدولة عمالية ان « تستغل » الفلاحين ، او انه ، على الاقل ، لم يصغ يوماً تلك الفكرة بالصلافة ذاتها التي

---

(١٨) انظر الفصل الخامس .

صاغها بها بريو براجنسكي . كما انه لم يطالب بوتيرة تصنيع مجنونة كتلك التي طالب بها صاحب الاقتصاد الجديد . أضف الى ذلك ان الاطروحة التي دافع عنها هذا الكتاب لم تكن تتعارض اطلاقاً مع فكرة الاشتراكية في بلد واحد ، لأنها كانت تنطوي ضمنا على الفكرة القائلة بأن التراكم البدائي ، ذلك الطور الاكثر حرجاً في عملية الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، يمكن ان يتم في اطار دولة واحدة ، امة واحدة متخلفة صناعياً . وأخيراً ، خلافاً لتروتسكي ، كان بريو براجنسكي علق اهمية كبرى على « القوة الموضوعية للقوانين » التي تفتح الباب الى الاشتراكية ، وهي قوة ستفرض نفسها بنفسها وتجبر قادة الحزب على ان يجعلوا من انفسهم ، ولو رغماً عنهم ، ادوات الاشتراكية . ولقد قال إن تأميم كل الصناعة الكبرى يقود حتماً الى تخطيط الاقتصاد والى التصنيع المتسارع . أما رفض القيام بذلك ، كما فعل الستالينيون والبوخارينيون ، فكان من قبيل الوقوف بوجه ضرورة تاريخية ، ضرورة لم يعرف ان يميزها في الوقت المناسب غير المعارضة ، التي حاولت أن تجعل البلاشفة يغونها . ربما أجهز ستالين وبوخارين على المعارضة ، لكنهما « لن يستطيعا انتهاك قوانين التاريخ » . « إن بنية اقتصاد الدولة لدينا (التي) غالباً ما تظهر اكثر تقدمية من كل نظام قيادتنا الاقتصادية » ستنتهي الى إجبار تلك القيادة على تطبيق برنامج المعارضة .

هذه الافكار ، التي لا تظهر في اغلب الاحيان إلا بشكل استطرادات او تلميحات في مؤلفات بريو براجنسكي السابقة ، اصبحت حينئذ الموضوعة الرئيسية لفكره . ان ستالين الذي شهر حربه ضد الكولاك لم يكن في نظره غير الاداة اللاواعية أو المعاندة للضرورة . وفي حين كان تروتسكي لا يزال متشككاً إلى هذا الحد أو ذاك بصدد التوجه اليساري وكان يتساءل إذا لم يكن ذلك الوجه مناورة مؤقتة ، كان بريو براجنسكي يعتقد من دون اي تحفظ ان ستالين جاد في ما يفعل ، وانه عاجز عن العودة الى سياسته القديمة ، وانه سينخرط في صراع أكثر فأكثر شراسة ضد الكولاك ، وان معطيات الوضع قد تعدلت بالتالي جذرياً بالنسبة للبلاد عموماً وللمعارضة بوجه خاص . وقد أوضح ان روسيا على عتبة هزة ثورية عظيمة . فالكولاك ، حسبما قال ، سيواصلون رفض تسليم محاصيل الحبوب وتهديد المدن بالمجاعة . ولن يكون الفلاحون الفقراء والمتوسطون قادرين على تقديم كمية كافية من المحاصيل الزراعية ، وسوف تؤدي الهجمات ضد الكولاك إلى تأليبهم هم ايضاً ضد الحكومة ، بما يؤدي الى نزاع جبار بين الحكومة وجمهور الفلاحين الاوسع . وفي ربيع ١٩٢٨ ، اكد بريو براجنسكي ان تهديدات ستالين والتدابير الطارئة التي اضطر لاتخاذها احدثت في الارياف اضطرابات عنيفة بحيث ان الحكومة ستضطر من اجل تهدئتها لأن تقدم للرأسمالية تنازلات ضخمة وخطرة لدرجة أنه ليس ستالين وحده هو من سيرفض

تقديمها ، بل كذلك بوخارين وريكوف[١٩] . وفقط سياسة يمينية بالكامل او يسارية بالكامل قد تسمح بتحاشي الكارثة . وكل شيء كان يدعو للاعتقاد أن ستالين سينخرط اكثر فأكثر في سياسة يسارية .

ما ينبغي ان يكون دور المعارضة في هذه الهزة ؟ اجاب بريوبراجنسكي عن هذا السؤال بقوله إن المعارضة كانت المفسر الواعي للضرورة التاريخية والمعبر عنها . لقد برهنت عن بعد نظر رفيع : فأفكارها « تنعكس في سياسة ستالين الجديدة كما في مرآة مشوّهة » . ما كان للأزمة الحالية ان تكون بهذه الخطورة لو اخذ الحزب باكراً بنصائح المعارضة . كان على المعارضة ان تستمر في المطالبة بتسريع الصناعة وان تناضل بحزم لا مثيل له من أجل إرساء الديمقراطية البروليتارية . ولا شك انه اذا كانت المعارضة وعت بدقة حاجات الحقبة الحالية ، لم يكن في وسعها أن تلبي تلك الحاجات بصورة ملموسة . ان ستالين وانصاره هم الذين كانوا يضطلعون الآن بهذا العمل ، بعد ان جعلوا من انفسهم ادوات الضرورة التاريخية التي لم يستطيعوا فهمها والتي طالما كافحوا ضدها . لكن من الضروري القول ان المعارضة اقترفت هنا وهناك بعض الاخطاء . فهي بالغت في تقدير الخطر اليميني واستعجلت في تأكيد التواطؤ بين الستالينيين والكولاك ، لقد أخطأت في تحليل الاتجاهات داخل الحزب وعلاقاتها بشتى الطبقات الاجتماعية ، وهو ما يصعب على الماركسيين قبوله . ينتج عن ذلك ان على المعارضة ان تعدل موقفها وتبادر الى التقارب مع التكتل الستاليني .

واقترح بريوبرجنسكي ، بالتالي ، ان تطلب المعارضة إلى الحكومة السماح لها بعقد جمعية عامة تتمثل فيها كل جاليات المنفيين لمناقشة الموقف الذي يجب تبنيه في الوضع الجديد. ولا شك ان تروتسكي كان قد قال إن تحالفاً بين اليسار والوسط ضد اليمين ممكن لا بل مرغوب فيه ، لكنه لم يقترح يوماً القيام بأي إجراء لتسهيل ذلك . اما بريوبراجنسكي فكان يرى أن تلك السلبية مشؤومة ، لأنه إذا كان ينبغي عقد ذلك التحالف ، فهذا هو الوقت المناسب ، اذ يمضي الستالينيّون لمحاربة اليمين ، على المعارضة أن تبادر لتحقيق ذلك التحالف ، بدل انتظار ان يكون ناتج أحداث يمكن أن لا تتم أبداً .

لم يتجاوب تروتسكي اطلاقاً مع اقتراحات بريوبراجنسكي . فإذا كان التحالف بين اليسار والوسط أمراً مرغوباً فيه ـ حسبما قال ـ فليس على المعارضة ان تكون السباقة إلى تحقيق التقارب بينهما ، فالسجناء وجلادوهم ليسوا بحلفاء . وقد كان يخشى ان يكون

(١٩) انظر بريوبراجنسكي ، Levyi Kurs v Derevnie : Perspectivy المحفوظات .

بريوبراجنسكي ينظر بتفاؤ ل مبالغ فيه الى التوجه اليساري ؛ في كل حال ، حتى لو كان الامر كذلك ، فان الهوة التي تفصل المعارضة عن الستالينية لم تزل قائمة ، والاضطهاد مستمر ، والحزب ما انفك محروماً من حريته ، بينما لم يتوقف نظامه الداخلي عن الازدياد سوءاً . فعصمة القائد فيه عقيدة صالحة للحاضر وحتى للماضي : لقد جرى تزوير تاريخ الحزب بكامله . فكيف يمكن المعارضة ، ضمن تلك الشروط ، ان تخطو الخطوات الاولى نحو المصالحة ؟ إنها ستكسو نفسها بالعار إذا هي طلبت الى مضطهديها بالسماح لها بعقد اجتماع ، فمجرد الطلب ينضح بروح الاستسلام[٢٠] .

خلال شهر ايار/مايو ، ناقشت جاليات المنفيين اقتراح بريوبراجنسكي ، وللمرة الاولى حددت هكذا الموقف الاجمالي للمعارضة حيال التوجه اليساري . لقد جرى رفض الاقتراح بالاجماع ، فالغالبية الكبرى من المنفيين كانت من المعاندين الذي لا يؤمنون بالتوجه اليساري وظلوا يرون في ستالين حامي الكولاك وشريك الترميدوريين ، واحتفظوا بكل ايمانهم بالمثل الاعلى للمعارضة ولم يكونوا مستعدين إطلاقاً لتصور تعديل في موقفهم .

الا ان افكار بريوبراجنسكي شقت طريقها الى العديد من الاذهان . ويبدو أن رادك كان الاول بين قادة المعارضة الذي تأثر بها ، مع انه لم يمر وقت طويل على الفترة التي كان لا يزال خلالها بين الذين يريدون المضيّ الى النهاية . ففي عام ١٩٢٧ ، لم يتوقف عن المطالبة بأن تهاجم المعارضة بالمزيد من الشجاعة الجماعة الحاكمة ، وأن تتحول الى عمال المصانع الذين لم يكونوا ينتمون للحزب وتجعل من نفسها ناطقة بلسان مطالبهم ، بدل الاكتفاء بإعلانات نوايا وباعتبارات نظرية بحتة . ولما كان يؤ يد دائماً فكرة حزب جديد ، خاض حملة ليتم قبول الدسيميين داخل المعارضة ، مثلما كانوا يطلبون . واذ زادت نزعته الكفاحية بعد النفي ، تكلم بالكثير من الاحتقار بصدد ارتداد زينوفييف وبياتاكوف الذي كانت له ، كما قال ، الرائحة الكريهة لاعتراف دوستويفسكيٌ . «لقد جحدا قناعاتهما وكذبا على الطبقة العاملة . لا يمكن مساعدة الطبقة العاملة بالأكاذيب[٢١] .» وفي ايار/مايو ، حين اقترح بريوبراجنسكي عقد جمعية عامة ، كان رادك بين الذين وقفوا ضد ذلك الاقتراح ، في الوقت الذي انتقد فيه موقف بريوبراجنسكي التوفيقي .

---

(٢٠) انظر تروتسكي ، **Pisno Drugu** ، ٢٤ حزيران/ يونيو ١٩٢٨ ، المحفوظات .

(٢١) انظر رسالة رادك الى جينيا ، المكتوبة في توبولسك في ١٠ ايار/ مايو ١٩٢٨ ، ورسالته ايضاً الى بريوبراجنسكي في ٢٥ أيار/مايو ، المحفوظات .

لم يمر شهر واحد حتى كان الرجل يبدو وقد تغيّر بالكامل أصبح محامي المصالحة بكل ما يتمتع به من حذق وقريحة وذكاء . وقد عزز انضمامه الى مجموعة المعتدلين وضع تلك المجموعة بشكل واضح ، لأنه مع بريوبراجنسكي كانا ، بعد تروتسكي وراكوفسكي ، الاكثر نفوذاً بين القادة في المنفى . وفيما بعد ، حسبما تبين من مراسلته الضخمة ، ضعفت ارادة مقاومة الستالينية لديه من اسبوع لآخر ، مع انه مرت سنة تقريباً قبل أن يقرر رادك الاستسلام حقاً .

إنه سيكون من قبيل التبسيط ان ننسب ذلك التطور الى تقلب لدى رادك او الى نقص في الشجاعة ، فالاسباب وراء تبدله كانت معقدة . لا شك انه لم يكن يتمتع بـ «الصلابة البلشفية » التي اكتسبها الآخرون في العمل السري ، وفي سجون القيصر وخلال سنوات المنفى في سيبيريا . ففترات العمل السري بالنسبة اليه كانت قصيرة ، إذ حتى عام ١٩١٧ ، كان نشاطه السياسي قد جرى بصورة رئيسية في اطر الحركات الاشتراكية الرسمية في النمسا ـ هنغاريا وفي المانيا . لقد كان رادك قبل كل شيء رجلاً من بوهيميا ومن اوربا الغربية ، رجلاً اجتماعياً ، معتاداً على الجو الصاخب للمدن الكبرى وعلى ان يكون ايضاً في قلب الشؤون العامة . وخلال اكثر من ٢٥ عاماً ، كان قد فتن لجاناً مركزية شهيرة ومكاتب تحرير كبرى بأفكاره وذكائه . وطيلة عشر سنوات كان احدى منارات الحزب البلشفي والاممية الشيوعية . وطالما سمع حوله دبيب الحياة السياسية ، لم تتخل عنه ثقته بنفسه وطاقته ؛ وقد بقي نشيطاً وجسوراً ، لا بل نجح في البقاء في قلب النشاط السياسي ، حتى في سجن موابيت في برلين ، عام ١٩١٩ . لكن حين ألقي به في الوحشة المقفرة والقاسية لسيبيريا الشمالية ، بدأت معنوياته تضعف ، فلقد كانت العزلة عبئاً ثقيلاً بالنسبة اليه ؛ كان كما لو انه طرد من الحياة بالذات ، ولقد اهتز شعوره بالواقع . كل السنوات التي قضاها بجانب لينين ، رفيقاً ومستشاراً مقدراً ، يساعده في ادارة شؤون حركة عالمية ، كل تلك السنوات لم تكن إذا غير حلم ؟ ان اناساً اشد مرانة منه بكثير كانوا يفكرون تلك الافكار . هوذا مثلاً ما كتبه الى رادك ايفان سميرنوف ، احد ابطال الحرب الاهلية ، من ارمينيا الجنوبية لأرمينيا الشمالية :

> « عزيزي كارليوشا[٢٢] ، أنت تتألم لأننا خارج الحزب ، لقد كان ذلك بالنسبة لي ايضاً وبالنسبة لكل الآخرين ، احتضاراً حقيقياً . في البدء ، داهمتني كوابيس حقيقية ، فكنت أستيقظ فجأة في عز الليل ، غير مصدق

---

(٢٢) تصغير شارل .

اني منفي ، انا الذي اشتغلت لأجل الحزب ، وبلا انقطاع ، منذ عام ١٨٩٩ ، دون اخذ يوم راحة واحد ، وليس كبعض انذال شركة البلاشفة القدامى الذين تركوا الحزب بعد عام ١٩٠٦ لمدة تزيد عن عشرة اعوام[٢٣] . »

ولكن إذا كان رادك واصدقاؤه قد احسوا بالاضطراب ، فليس فقط لأن وضعهم الشخصي كان حرجاً للغاية . كانوا يفكرون بمصير الثورة ، وكانوا معتادين على اعتبار أنفسهم الحراس الحقيقيين لـ «مكاسب اوكتوبر» ، والمؤتمنين الوحيدين على الماركسية واللينينية ، اللتين خلطهما البوخارينيون والستالينيون وزوّروهما . كانوا معتادين على التفكير بأن كل ما يفيد الماركسية والثورة لا يمكن الا ان يفيد المعارضة أيضاً ، وان هزائم المعارضة هي هزائم للثورة ايضاً . لكن ما الذي حل بالمعارضة ؟ لقد غدت بدعة ، شلة عاجزة كلياً ، خارج الدولة الكبرى والحزب الكبير اللذين تماثلت معهما . كيف يمكن ان تجد حركة تنتسب الى رسالة بذلك السمو نفسها في ذلك الوضع المنخفض ؟ لقد كانوا امام المأزق التالي : إذا كانوا هم الحراس الشرعيين والموثوقين الوحيدين حقاً لاوكتوبر ، لا يمكن عندئذ إلا أن تؤدي هزيمتهم القاسية الى كارثة للثورة لا علاج لها ، ولكن إرث اوكتوبر يكون قد ضاع . لكن اذا لم يكن الامر كذلك ، واذا كانت «مكاسب اوكتوبر» غير محسوسة إلى هذا الحد أو ذاك ، واذا كان الاتحاد السوفياتي لا يزال ، رغم كل ما حدث ، دولة عمالية ، ألا تكون المعارضة قد أخطأت ، الا تكون سقطت في الغطرسة حين اعتبرت نفسها المؤتمن الوحيد على الماركسية اللينينية وأنكرت على خصومها كل فضيلة ثورية ؟ هل كل ما بقي من تلك الحركة البلشفية الواسعة التي هزت العالم عدة آلاف من المعارضين ؟ هل يكون جبل الثورة ولد فأرة ؟ لقد كتب رادك الى سوسنوفسكي : «لا يمكنني ان أعتقد أن كل عمل لينين والثورة لم يستطع ان يترك خلفه الا خمسة آلاف شيوعي في كل روسيا[٢٤] . » والحال أنه إذا اخذ المرء حرفياً بعض تأكيدات المعارضة ، إذا فكر حقاً بأن كل الكتل البلشفية الاخرى لا تفعل غير تمهيد طريق الثورة المضادة ، لا يعود قادراً على تجنب هذا الاستنتاج الذي يدحضه حسُّ الواقع والحسُّ الماركسي للتاريخ كلاهما . حقاً ، إن الملحمة البلشفية المنسوجة بالبطولة والتضحيات والآمال والدم والعرق لا يمكن ان تكون مجرد ضجيج وجنون لا يعنيان شيئاً . طالما تحالف الستالينيون والبوخارينيون مع الكولاك والنيبمان ، لم تكن مطالب المعارضة واتهاماتها بلا أساس ، لكن التوجه اليساري الذي كان

---

(٢٣) الرسالة هذه ، التي كتبت عام ١٩٢٨ ، موجودة في المحفوظات .

(٢٤) رسالة بعث بها من تومسك في ١٤ تموز/يوليو ١٩٢٨ ، في المحفوظات .

يدفع التكتل الستاليني الى الانخراط في صراع حتى الموت مع الملكية الخاصة كان يدل على ان عمل لينين وثورة اوكتوبر ترك خلفه اكثر من حفنة اناس انقياء بكثير ، اكثر بكثير من « خمسة آلاف شيوعي في كل روسيا » . بعيداً عن ان يكون بركان الثورة ولد فأرة وانطفأ ، هوذا لا يزال ناشطاً .

حاول بريوبراجنسكي ان يبرهن ان «القوة الموضوعية» للملكية الاشتراكية هي التي تعطي روسيا الاندفاعة الضرورية لتحقيق تحولات ثورية واشتراكية أخرى . هذه «القوة الموضوعية» تتجسد في اناس ، اي في ادوات ذاتية . لقد كانت الكتلة الستالينية اداة الضرورة التاريخية ، ورغم ما اقترفته من ارتباكات واخطاء وحتى من جرائم ، فهي كانت تتصرف كحارسة لارث اوكتوبر وبطلة للاشتراكية . قال رادك إن الستالينيين قد برهنوا عن انهم اكثر استحقاقاً للتقدير مما اعتقدت المعارضة ، وتلك واقعة يمكن المعارضة ـ لا بل ينبغي ـ ان تعترف بها ، علماً ان ذلك لا ينتقص منها اطلاقاً . فخلال المسيرة الجديدة نحو الاشتراكية ، لعبت المعارضة دور الطليعة بينما شكل التكتل الستاليني المؤخرة ولم يكن صراعهما صراعاً بين طبقتين متعاديتين لهما مصالح متناقضة ، بل قطيعة بين جزأين من الطبقة ذاتها ، لأن الطليعة والمؤخرة تنتميان للمعسكر ذاته ، ولقد حان الوقت لسد الثغرة بينهما. كانت تبلبل العديد من المعارضين فكرة المصالحة بين الستالينيين والتروتسكيين ، لكن تحالفاً كهذا ـ في رأي رادك ـ لن يكون اكثر غرابة مما كانت في السابق تغييرات اخرى في التحالفات داخل الحزب . «جاء وقت كنا نفكر فيه ان ستالين ثوري جيد وان زينوفييف ميؤوس منه ، لكن الامور تغيرت منذ ذلك الحين ، فلماذا لا يمكن ان تتغير من جديد ؟» .

لا جدال في انه كانت هناك نبرة يأس في كل تلك المحاجّات ، لكن يأس كان يسعى لانكار ذاته والتحول الى أمل . كانت تغذي الموقف التوفيقي وتنميه العزلة المتعاظمة لروسيا البلشفية في العالم وكان رادك وبريوبراجنسكي وكثيرون آخرون يتطلعون الى تبدل عظيم وواعد في مصير الشيوعية انطلاقاً من الاتحاد السوفياتي لا بدونه . وهذا الواقع يفسر اشياء كثيرة لاحقة .

كان الأمر غداة الثورة الصينية. ففي كانون الاول/ديسمبر ١٩٢٧ تم اغراق الانتفاضة الشيوعية في كانتون في الدم ، وكان ذلك الفصل الاخير ، او الخاتمة في دراما سنوات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ . كل الفكر البلشفي احس عميقاً بصدمة الهزيمة : لقد دمرت اكثر فأكثر ، لا بل خنقت احياناً ، تراث اللينينية الاممي ، في الوقت ذاته الذي عززت فيه انانية الدولة السوفياتية الفتية . كانت الاشتراكية في بلد واحد تبدو ، اكثر من اي وقت

مضى ، الطريق الوحيدة الممكنة ، وتمثل التعزية الوحيدة . لكن موجة الانعزالية لم توفر هذه المرة المعارضة بالذات ، إذ بلغت جاليات المنفيين الاكثر بعداً وأثرت في نفس التوفيقيين . فالهزيمة الاخيرة تلك ، مثلها مثل الانعطاف اليساري لدى ستالين ، اعطت بريوبراجنسكي ورادك مبررات جديدة للتحرر من الهالات التي تحيط بسجل المعارضة . وقد تساءلا : إذا كانت المعارضة اخطأت جزئياً في تقدير توازنات القوى داخل روسيا ، هل هنالك ما يمنع من ان تكون اخطأت ايضاً في تحليلها للوضع العالمي ؟ واذا لم يكن الترميدور السوفياتي الذي فضحه تروتسكي غير فزاعة ، لماذا لا تكون موضوعة الثورة الدائمة خاطئة هي الاخرى ؟

بعد اسبوعين فقط من نفي تروتسكي وبريوبراجنسكي بدآ يتناقشان بالمراسلة حول انتفاضة كانتون . ولما كان تروتسكي يعرف القليل من الاشياء حول الظروف الحقيقية للحدث ، ويحاول ان يكوّن رأياً بالاستناد الى التقارير المتأخرة والنادرة التي نشرتها البرافدا ، فقد واصل مع بريوبراجنسكي النقاش الذي بدآه من قبل في موسكو . وكالعديد من البلاشفة المعارضين ، لم يكن بريوبراجنسكي موافقاً على اطروحة الثورة الدائمة ونتيجتها الطبيعية المتمثلة بعجز الثورة الصينية عن الانتصار إذا لم تتحول الى ديكتاتورية للبروليتاريا . ومثل زينوفييف وكامينيف ، كان يفكر انه ليس في وسع الصين أن تمضي أبعد من ثورة بورجوازية . وفي المنفى ، ناقش تروتسكي وبريوبراجنسكي انعكاسات انتفاضة كانتون على خلافهما الايديولوجي . فلقد كانت البرافدا ذكرت ان المتمرّدين في كانتون شكلوا مجلس نواب عمال وبادروا الى تشريك الصناعة . وكتب تروتسكي الى بريوبراجنسكي في ٢ آذار/مارس ان الانتفاضة المجهضة غنية بالدروس ؛ فهي تبين لنا بوضوح تام ان الثورة الصينية القادمة لن تتوقف عند الطور البورجوازي بل سترسي سوفييتات وتحدد الاشتراكية هدفاً لها . وقد أجاب بريوبراجنسكي بأن ستالين هو الذي افتعل الانتفاضة ، لهدف واحد هو جعل الآخرين ينسون كل تراجعاته السابقة إزاء الكيومنتانغ ، وبأن تلك الانتفاضة كانت مغامرة يائسة ، وان «سوفييت» كانتون وشعاراته «الاشتراكية» لم تكن التعبير العميق عن حركة جماهيرية ولم تعكس المنعطف الداخلي لسيرورة ثورية اصيلة[٢٥] . وكان جواب بريوبراجنسكي بالطبع اقرب بكثير الى الحقيقة ، بينما كان تروتسكي يعتمد ، بالمقابل ، على وقائع مشكوك بها استخلص منها استنتاجات حول طابع الثورة الصينية القادمة . لكن ذلك لا يمنع ان تلك الاستنتاجات كانت

(٢٥) إن جواب بريوبراجنسكي (غير المؤرخ) موجود في المحفوظات .

صحيحة : فثورة ١٩٤٨ - ١٩٤٩ الصينية سوف تتخطى حدودها البورجوازية وبذلك ستكون «ثورة دائمة» ، حتى ولو كان مسارها وتجمع الطبقات الاجتماعية داخلها مختلفين عما توقعته النظريات التروتسكية وحتى الماركسية اللينينية .

وقد كتب بريوبراجنسكي : «علينا ، نحن البلاشفة القدامى في المعارضة ، ان ننفصل عن تروتسكي بصدد الثورة الدائمة» . واذا لم يكن في وسع مضمون هذا الاعلان ان يفاجىء تروتسكي ، فإن لهجته الاحتفالية المضخمة فاجأته بالتأكيد . لا شك ان تروتسكي اعتاد على سماع خصومه ، وفيما بعد زينوفييف وكامينيف ، يأخذون عليه ماضيه غير البلشفي ، لكن هذا الموقف حين جاء من بريوبراجنسكي بالذات ، رفيقه الحميم في التفكير منذ عام ١٩٢٢ ، ما كان يمكن الا أن يكون ذا وقع قاس عليه . كان يعرف ان اتهامات من هذا النوع لا تأتي صدفة أبداً ، وما ادهشه أكثر أيضاً هو ان رادك انتقد هو الآخر الثورة الدائمة . فرادك الذي لم يكن ، من جانبه ، بلشفياً قديماً ، كان قد دافع حتى ذلك الحين عن اطروحة تروتسكي من دون اي تحفظ ، وإذا كان بقي يعترف ان تروتسكي توقع عام ١٩٠٦ مسار الثورة الروسية ، وكان توقعه أصح وادق من توقع لينين ، فلقد اضاف انه لا ينتج عن ذلك ان مخطط الثورة الدائمة صالح للتطبيق في بلدان اخرى . ففي الصين ، حسب وجهة نظر رادك ، لا مناص من تفضيل « الديكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين » التي دعا اليها لينين ، لأنها تأخذ بالحسبان نزاعاً محتملاً بين الثورة البورجوازية والثورة الاشتراكية .

لم يكن لهذه المساجلة في الظاهر ، اي تأثير مباشر على المشكلات الراهنة ، ولم ينجرّ تروتسكي اليها الا على مضض . اجاب ان الصين برهنت للتو على ان اي ثورة معاصرة ، لا تصب في عملية تغيير اشتراكي شاملة ، محكوم عليها بالهزيمة حتى لو اقتصرت على تحديد اهداف بورجوازية صرفة . ومهما يكن ، فلقد كان معبراً ان يرى المرء توفيقيين يهاجمان الثورة الدائمة في حين لم يحاول تروتسكي يوماً من الايام ان يجعل من اطروحته قانوناً من قوانين المعارضة . لم تكن تلك هي المرة الاولى التي تؤدي فيها المرارة التي ولدتها هزائم الشيوعية في الخارج والميل الى الانعزال الى حفز البلاشفة للارتداد ضد الاطروحة التي كان اسمها بالذات يضع تلك الانعزالية موضع الاتهام . ان نتيجة كل النضالات الايديولوجية بصدد الثورة الدائمة منذ عام ١٩٢٤ كانت ان تلك الاطروحة ظهرت للحزب كرمز للتروتسكية ، وكهرطقة تروتسكي الاساسية والمصدر الايديولوجي لكل انحرافاته السياسية . كانت الثورة الدائمة قد غدت بالنسبة لأنصار ستالين وبوخارين مسخاً مريعاً . والمعارض الواقع فريسة الشك والافكار الرديئة ، والمتطلع الى العودة لصفوف الحزب ،

فردوسه المفقود ، كان من البديهي ان يسعى للتملص من كل ما قد يسمح بالتفكير بأنه يشعر بأي تعاطف مع ذلك المحظّر .ولنتذكّر أن تروتسكي كان قد اعلن ، بهدف تسهيل التقارب بين زينوفييف وكامينيف وبينه ، ان مؤلفاته الماضية حول الثورة الدائمة تجد مكانها في متحف محفوظات التاريخ ، وانه غير مستعد للدفاع عنها نقطة فنقطة ، حتى ولو كان لا يزال مقتنعاً بأن اطروحته اجتازت بنجاح اختبار السنين . ومع ذلك لم ينجح تروتسكي في ارسال اطروحته الى متحف التاريخ .فقبل كل شيء ، كان هناك أعداؤه الذين دفعوه للدفاع عنها ، لا بل اجبروه على ذلك ، كما كان هنالك حلفاؤه ايضاً الذين فعلوا الشيء ذاته ، وحين كانوا يفعلون ذلك كانت تلك علامة اكيدة على ان احد تحالفاته ، او إحدى شراكاته السياسية ، على وشك الانهيار .

لقد انفجرت الخلافات بصدد مشكلة اكثر راهنية وأقل نظرية بكثير . كان المؤتمر السادس للاممية الشيوعية سينعقد في موسكو خلال صيف عام ١٩٢٨ . وكان من حق المعارضة ، وفقاً للنظام الداخلي ، ان تستأنف امام المؤتمر بوجه الحزب الروسي الذي طردها ، وكانت تنوي ذلك . لم يكن هنالك ادنى حظ لذلك الاستئناف بأن يلقى القبول ، او حتى للسماح لقادة المعارضة بأن يمثلوا امام المؤتمر للدفاع عن قضيتهم . وقد كتب تروتسكي : « . . . سوف يحاول المؤتمر ، على الارجح ، ان يغلق علينا من جديد ، وبالصورة الاكثر استبداداً ، غطاء النعش . . . لكن من حسن الحظ ، ان الماركسية ستنبعث من ذلك القبر المصنوع من ورق ممضوغ ، وتدق جرس الانذار مثل طبّال متعذر كبحُه !(٢٦) » وعزم تروتسكي كتابة نقد قصير وحازم جداً لسياسة الكومنترن ، بالاضافة الى بيان قصير حول اهداف المعارضة . لكن حين شرع بذلك ، اصبح ذانك العملان الصغيران دراسة ضخمة شغلته طيلة الربيع والصيف(٢٧) . كان على المؤتمر أن يتخذ قراره بصدد برنامج نُشرت مسودة مشروعه : كان بوخارين كاتبه الرئيسي وكان يتناول بوجه خاص اطروحة الاشتراكية في بلد واحد . وأعطى تروتسكي بيانه شكل انتقاد للبرنامج الجديد ؛ ثم اكمله في حزيران/يونيو . وفي تموز/يوليو ، الحق به رسالة الى المؤتمر بعنوان : ماذا بعد ؟ وضع فيها جردة بـ «خمس سنوات من اخفاقات الاممية» وخمس سنوات من نشاط المعارضة ؛ قال إنه يعبر عن رأيه «دون ادنى تحفظ ، أو ازدواج او دبلوماسية» ، وانه يريد قبل كل شيء أن يحدد

---

(٢٦) رسالة سيّارة لتروتسكي في ١٧ تموز/يوليو ١٩٢٨ ، المحفوظات .

(٢٧) النسخة الانكليزية تحمل العنوان التالي : الأممية الثالثة بعد لينين .

بوضوح ما يفصل المعارضة عن خصومها . وقد أوصل نسخاً من بيانه قبل افتتاح المؤتمر مباشرة وطلب الى كل المعارضين ان يستعيدوا مضمونه في رسائلهم الجماعية والفردية الى المؤتمر .

في غضون ذلك ، كان كل من رادك وبريوبراجنسكي أعد بيانه الخاص به ، جاعلاً إياه اكثر توفيقية من حيث المضمون كما من حيث الشكل . لا شك ان بريوبراجنسكي وضع كشف حساب كارثياً بسياسة الكومنترن خلال السنوات الأخيرة ، وتكلم بصراحة فظة على الخلافات التي تفصل التروتسكيين من كل الالوان عن الستالينيين وعن الكومنترن . لكنه قال في الخاتمة إن «العديد من تلك الخلافات قد زالت بعد التغيير الذي طرأ على سياسة الاممية» ، لأن هذه حذت حذو الحزب الروسي ، وقامت هي الاخرى بـ «انعطاف الى اليسار[٢٨] » . اما رادك فكتب بياناً مماثلاً ارسله مباشرة الى موسكو ، يقول فيه : إذا كان التاريخ يُظهر أن بعض قادة الحزب الذين كنا ، حتى الأمس ، نبارزهم بحد السيف هم افضل من الافكار التي كانوا يدافعون عنها ، فما أحد سيسره ذلك اكثر منا[٢٩] . »

إن واقع ان تروتسكي ورادك وجّها للمؤتمر رسالتين فرديتين ، ومتعارضتين جزئياً ، اساء الى قضية المعارضة . فبدل ان تبرهن هذه عن وحدتها أظهرت انها تتكلم بصوتين . وحين علم تروتسكي بما حصل ، ابرق الى مراكز المعارضة الرئيسية يطالبها بأن تجمد رادك علناً . فاستشاطت جاليات المنفيين غضباً وجحدت رادك وارسلت الى موسكو البيانات المناسبة . وفي الاخير ، اعلم رادك ذاته المؤتمر انه يسحب رسالته ويعلن اتفاقه الكامل مع تروتسكي . وقد اعتذر لكبوته تلك من رفاقه معللاً اياها بصعوبات الاتصال بتروتسكي الذي بلغه نقده للكومنترن متأخراً جداً . وقبل تروتسكي التفسير وأسدل السّتار مؤقتاً على الحادثة ، قائلاً ان المعارضة «اعادت تنظيم جبهتها» . إلا أن الانشقاق الذي ظهرت ملامحه الأولى لم يتوقف بل جرت تغطيته فقط بحجاب شفاف جداً .

ولقد ساعد تروتسكي على إعادة الوحدة الى صفوف المنفيين حادث مهم . ففي تموز/يوليو ، كانت اللجنة المركزية عقدت دورة لها بدا فيها ان تكتل بوخارين استعاد تفوقه

---

(٢٨) بريوبراجنسكي : Chto nado Skazat Kongrezu Kominterna ، المحفوظات .

(٢٩) توجد مذكرة رادك ، المكتوبة في تومسك في حزيران/ يونيو ١٩٢٨ ، في المحفوظات . لا بد أن تروتسكي قرأ « على طريقة التحليل النفسي » المقطع المذكور اعلاه : وضع خطاً احمر تحت كلمة « الأمس » في الجملة التي يتكلم فيها رادك على قادة الحزب « الذين كنا ، حتى الأمس ، نبارزهم بحد السيف » .

على تكتل ستالين . وكانت المشكلة المثارة لا تزال هي ذاتها : ازمة الخبز وخطر الجوع الذي يهدد مدن روسيا . فالتدابير الطارئة التي اتخذت خلال العام لم تبعد ذلك الخطر ، والوضع تفاقم بعد مواسم الشتاء الرديئة نسبياً في اوكرانيا وشمالي القوقاز . كان الفلاحون في حالة هياج ، وهم لم يسلموا غير ٥٠٪ من الحبوب التي كانوا يبيعونها عادة قبل الثورة . وقد اضطرت الدولة لوقف كل صادراتها من الحنطة[٣٠] . ولا شك ان الطريقة العنيفة التي استخدمت في جمع الحبوب اثارت غضب الفلاحين ، لكنها لم تنجح في ادخال الخوف الى قلوبهم . اخذت اللجنة المركزية علماً بـ «استياء الفلاحين . . . الذي تجلى في احتجاجات جماعية ضد التعسف في تصرفات الادارة» ؛ واضافت اللجنة المركزية بأن تلك الطرائق «سمحت للعناصر الرأسمالية باستغلال الاستياء وتوجيهه ضد الحكومة السوفياتية . . وكانت في اساس النقاشات حول الالغاء (الوشيك) للنيب[٣١] » .

خلال دورة اللجنة ، وبعد تقرير ميكويان ، طالب التكتل البوخاريني بوضع حد للتوجه اليساري . طلب ريكوف الغاء كل التدابير ضد الكولاك ، وذهب فرومكين ، مفوض المالية ، ابعد من ذلك فطلب اعادة نظر كاملة بكل السياسة الزراعية المتبناة في المؤتمر الخامس عشر (الذي تبنى فيه ستالين بعض افكار التروتسكيين والزينوفييفيين بغية ارباكهم) وبالعودة الى السياسة البوخارينية بشكل اساسي التي كان قد اعتمدها المؤتمر الاسبق . اما اللجنة المركزية فقررت الا تعيد النظر بقرارات المؤتمر الخامس عشر ، لكنها الغت مع ذلك كل التدابير الطارئة المتخذة ضد الكولاك . ونادت بضرورة احترام القانون من الآن وصاعداً ، ومنعت الزيارات للأهراء والمزارع وحملات التفتيش التي تطولها . كما وضعت حداً لمصادرة المنتجات الغذائية وللجباية القسرية لتسليفات الحبوب . واخيراً وبوجه خاص ، سمحت بزيادة سعر الخبز بنسبة ٢٠٪ ، وهي زيادة كانت منعتها منعاً باتاً قبل ثلاثة اشهر[٣٢] . اذا نظرنا الى هذه القرارات الآن ، نرى انها كانت المحاولة الاخيرة من جانب اللجنة المركزية لتهدئة الفلاحين ، الاخيرة قبل الغاء الملكية الزراعية الخاصة . اما في ذلك الحين ، فقد بدا مع ذلك أن الكولاك ربحوا جولة ، وان ستالين تخلى عن التوجه اليساري ، وان بوخارين وريكوف أمليا سياستيهما .

يمكن بسهولة ان نتصور كيف استقبل المنفيون التروتسكيون تلك التدابير . لقد

---

(٣٠) KPSS V Revolutsyakh ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ .

(٣١) المرجع ذاته ، ص ٣٩٥ .

(٣٢) المرجع ذاته ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ .

عادوا مجدداً الى ارضهم المألوفة ، ونظام الاشياء القديم الذي اعتادوا على التفكير وفقاً له والمناقشة انطلاقاً منه بدا وقد أرسي من جديد . رأوا «المدافعين عن الكولاك» يعززون مواقعهم من جديد ، ورأوا «الوسط المتأرجح» التابع لستالين مطواعاً كما كان دائماً . إذ سمحت اللجنة المركزية بزيادة في سعر الخبز ، فانها ضربت عمال الصناعة وخدمت مصالح الفلاحين الاغنياء . ولا شك ان تلك لم تكن النهاية ، فالجناح اليميني سينتقل مجدداً الى الهجوم ويستمر الستالينيون في التراجع . لقد كان الخطر الترميدوري أقرب مما في اي وقت مضى ، والترميدوريون كانوا يتقدمون . وكان تروتسكي يفكر بالطريقة ذاتها . وقد اعلن : «مع خطاب ريكوف ، تحدى الجناح اليميني ثورة اوكتوبر . . . ينبغي قبول التحدي .» كان رفع سعر الخبز يدل فقط على بداية نيب جديدة . ولتهدئة الكولاك ، سوف يسعى الجناح اليميني ، قريباً جداً ، لينتزع من الدولة احتكار التجارة الخارجية . كان يرى ريكوف وبوخارين ، منتصرين ، «يطاردان ستالين كتروتسكيٍّ ، مثلما فعل ستالين مع زينوفييف» . كان ريكوف قد قال امام اللجنة المركزية ان «المهمة الاكثر الحاحاً بالنسبة للتروتسكيين هي الحيلولة دون انتصار الجناح اليميني» . وقد اجاب تروتسكي ان ذلك هو دون ادنى شك الواجب الأساسي للمعارضة[٣٣] .

بين التروتسكيين ، كان التوفيقيون معزولين الآن تماماً . «ما الذي جرى لتوجه ستالين اليساري ؟» هكذا سأل المنفيون رادك وبريوبراجنسكي بلهجة الظفر . «لم يكن كل ذلك غير هباء منثور . لكن ذلك كان كافياً بالنسبة اليكما لترميا بأفكارنا ومبادئنا التي عجم عودها الزمن ولتدعوانا للمصالحة مع الستالينيين .» مرة اخرى ، رأوا صعود ستالين كفصل صغير في الصراع الاساسي الذي كانوا يخوضونه ضد البوخارينيين ؛ وكانوا اكثر اقتناعاً من قبل بأن كل البلاشفة الذين ظلوا على ولائهم للثورة سينظرون الى الأمور قريباً مثلهم ، اي كنزاع بين اليمين واليسار ، وسينتهون الى اختيار اليسار . ولقد اعطتهم الهزيمة الظاهرة التي مني بها ستالين اكبر الآمال . هكذا كتب تروتسكيٌّ مرموق كسوسنوفسكي : «ليس بعيداً ذلك اليوم الذي سترتفع فيه اصوات عبر العالم بأسره منادية بعودة تروتسكي[٣٤] » .

وسط ذلك الاضطراب السياسي ، عاشت عائلة تروتسكي مأساة . فابنتا تروتسكي زينا ونينا كانتا مصابتين بالسل . ولقد ساءت صحة نينا ، الصغرى بين الاثنتين

---

(٣٣) Yulskiye Plerum i Prava opasnost ، المحفوظات .

(٣٤) رسالة سوسنوفسكي الى رافايل ، ٢٤ آب/اغسطس ، المحفوظات .

(لم تكن تجاوزت السادسة والعشرين) كثيراً بعد سجن زوجها نيفلسون ونفيه . وقد علم تروتسكي بذلك خلال الربيع ، اثناء رحلة صيدسمك .ومع أنه لم يكن يعرف بعد مدى خطورة مرض نينا ، أمضى الاسابيع اللاحقة في القلق والهم الشديدين . كان يعرف ان ابنتيه واولادهما يعيشون ضمن ظروف مادية بالغة الصعوبة ، وانهم لم يكن في وسعهم الاعتماد على مساعدة اصدقاء ، وأن زينا ، المصابة هي ايضاً بالسل ، كانت تمضي ايامها ولياليها عند سرير اختها . وقد ابرق تروتسكي لزينا يقول : «أنا حزين لكوني لا أستطيع أن اكون بجانب نينوشكا لاساعدها . ارجوك اعلامي عن حالتها . قبلاتي لكما . ابوكما .» وهو لم ينقطع عن طلب اخبارهما ، لكنه لم يتلق اي جواب . وقد كتب الى راكوفسكي سائلاً إياه ان يستعلم في موسكو . واخيراً عُلم ان نينا ماتت في ٩ حزيران/يونيو . وبعد ذلك بوقت طويل تلقى آخر رسالة كتبتها له . كانت قد ارسلتها بالفعل ، لكن الرقابة احتفظت بها ما يزيد عن عشرة اسابيع . ولقد تألم تروتسكي كثيراً حين عرف أن ابنته انتظرت عبثاً جواباً منه وهي على فراش موتها . بكى فيها «ثورية متحمسة وعضواً في المعارضة» مثلما بكى فيها ابنته . ولها اهدى نقده لبرنامج الكومنترن الذي كتبه في الفترة التي فارقت الحياة خلالها .

كانت لا تزال رسائل التعزية من عدد كبير من المنفيين تصل إلى ألما ـ آتا حين تلقى تروتسكي صدمة أخرى سببت له الكثير من الالم والحزن . فبعد موت نينا عزمت زينا على المجيء الى ألما ـ آتا . كان زوجها هو الآخر منفياً وهي كانت استنفدت قواها بالعناية بأختها . وقد اجلت رحلتها من اسبوع لأسبوع إلى حين وصل الى الخبر إلى ألما ـ آتا انها مريضة إلى درجة لا يمكن السفر معها . وكان مرضها تفاقم ، إذ أصيبت بانهيار عصبي ، وقد جعلها ذلك عاجزة عن الانضمام الى ابيها ورؤيته قبل طرده من روسيا .

إلا ان العائلة اجتمعت مع ذلك في الداتشا بضواحي ألما ـ آتا حين اتى سرغي لتمضية العطلة ، ترافقه زوج ليوفا واولاده . لم يبقوا سوى عدة اسابيع ، ولقد كان اللقاء مصطبغاً بالحداد والقلق .

بعد «الانعطاف اليميني» للسياسة الحكومية ، تفوق التروتسكيون المتطرفون والمعاندون في كل مراكز المعارضة تقريباً . لم يكن جمهور المنفيين الواسع يريد حتى ان يصغي لكلام حول اي نوع من التقارب بين المعارضة والستالينيين . لكن المعاندين والمتطرفين لم يكن على رأسهم قادة لهم نفوذ بريوبراجنسكي ورادك واهميتهما . كان الناطقون بلسانهم أناساً كسوسنوفسكي ودينجلستدت وإلزين وآخرين مثلهم يعبرون عن

حالة نفسية اكثر مما يحددون بوضوح موقفاً سياسياً .

كان سوسنوفسكي المتكلم الأقدر باسم المجموعة . وحين كان يؤكد بثقة أن «الصيحة المطالبة بعودة تروتسكي ستدوي قريباً عبر العالم» كان يعبر عن الأمل المحموم لعدد كبير من رفاقه . كان صديقاً موثوقاً لتروتسكي واحد افضل الصحفيين البلاشفة ، وكانت شعبيته تمتد أبعد بكثير من حلقات المعارضة . لكن سوسنوفسكي لم يكن قائداً ولا منظِّرا سياسياً . كان متميزاً كمؤرخ إخباري لروسيا البلشفية وكناقد فطن للآداب والعادات . ولما كان متمرد المزاج ، تحركه ضغينة شرسة ضد اللامساواة والظلم ، عبر عن غيظه واستنكاره عالياً حين رأى بيروقراطية ذات امتيازات تسود في دولة العمال . وقد فضح بقوة جشعها وفسادها وتنفّجها ، وطموحها كمحدثة نعمة الذي كان يجعلها تماثل نفسها بالارستقراطية وبالبيروقراطية القيصرية وتصاهرهما . كان لا يشعر بغير الاحتقار تجاه اولئك الذين تراودهم فكرة التصالح مع الجماعة الحاكمة . ومن هذه الناحية كان على طرفي نقيض مع رادك ، الذي كان كتب اليه قائلاً إنه عاجز عن الاعتقاد بأن كل ما تبقى من حزب لينين حفنة صغيرة من المعارضين الأنقياء . لكن سوسنوفسكي كان لا يزال يرى أن المعارضة هي حقاً الحارس الوحيد لارث اوكتوبر . لا شيء يعبر عن شخصه اكثر من الرسالة التي بعث بها الى فاردين ، رفيقه القديم ، الذي تخلى عن المعارضة في الوقت ذاته الذي غادرها فيه سافاروف ، وأعلن استسلامه . اعاد سوسنوفسكي الى ذهنه ، بازدراء لا رحمة فيه ، عادة جنائزية قديمة لدى اليهود بموجبها يهتف المنتمون الى الكنيس ذاته الذي ينتمي إليه الميت ، يهتفون في اذنيه فيما هم يرافقونه الى المقبرة : « يا فلان ابن فلام ، اعرف انك ميت ! » وذلك ما كان يهتف به سوسنوفسكي الآن في اذني رفيقه القديم ، وذلك ما كان سيهتف به في آذان كل المستسلمين فيما بعد . وكان سوسنوفسكي يتابع تطور رادك بحذر ، متسائلاً إذا لم يكن سيهتف تجاهه بالكلمات ذاتها(٣٥) .

أما الناطقان الآخران بلسان المعارضة فكانا اكثر فتوة واقل اهمية . كان استاذ الجامعة دينجلستدت عالم اجتماع واقتصادياً واعداً ؛ انضم الى البلاشفة عام ١٩١٠ ، وكان محرضاً بالغ التأثير لأسطول البلطيق عام ١٩١٧ ، لكنه يكاد يتخطى الثلاثين عاماً . وكان إلزين احد افضل سكريتيري تروتسكي . وقد تساءل هذان الرجلان إذا لم يكن

---

(٣٥) في الفترة ذاتها، كتب رادك أيضاً الى فاردين : تشكل رسالته ورسالة سوسنوفسكي مفارقة ملفتة للنظر في ايار/مايو كان رادك بدأ يطور اتجاهه التوفيقي . انه يوبخ فاردين لكن بلطف ومودة ، وكان بعيداً عن وصف المستسلم بأنه « ميت اخلاقياً » . ورسالتا سوسنوفسكي ورادك موجودتان في المحفوظات .

تروتسكي ذاته يبدي علامات ضعف وتردد . هكذا كتب اليه دينجلستدت ان «بعض الرفاق مبلبلون شديد البلبلة» منذ أكد أن توجه ستالين اليساري «خطوة في اتجاهنا دون ادنى شك» وان على المعارضة «دعم ذلك التوجه دعماً غير مشروط[٣٦] » . وكانا يأخذان أيضاً على تروتسكي «تساهله» حيال بريوبراجنسكي ورادك . لم يكونا يأملان مثل تروتسكي إصلاحاً للحزب وانبعاثاً للديمقراطية البروليتارية .

هكذا ، في حين كانت المعارضة تضم ، من جهة ، كل اولئك الذين كانوا يميلون اكثر فأكثر الى التفاهم مع مضطهديهم ، كان جناحها اليساري يميل للذوبان مع أنصار ف . سميرنوف وسابرونوف ، اي مع الديسيميين وبقايا المعارضة العمالية . تلك المجموعات «اليسارية المتطرفة» كانت قد انضمت ، كما سبق ذكره ، الى جبهة المعارضة عام ١٩٢٦ ، ثم غادرتها فيما بعد او طردت منها . وفي المنفى امتزج اعضاؤها بالتروتسكيين وحاولوا كسبهم لصالح آرائهم دون ملل . كانوا يدفعون أفكار التروتسكيين إلى أقصى نتائجها ، وهي نتائج منطقية حيناً ، وعبثية حيناً آخر ، واحياناً ايضاً عبثية لفرط منطقيتها . كانوا يعبرون عن كل الانفعالات التي تهز قلوب التروتسكيين مضخمينها تضخيماً كبيراً ، حتى وان كانت استدلالات كثيرة لتروتسكي تمر فوق رؤوسهم . هكذا حدث لهم ان قالوا اشياء رفضها تروتسكي في البدء باستنكار ، لكنه استعادها فيما بعد وصاغها . لقد انتقدوا تردد تروتسكي وقالوا إنه من قبيل الوهم المفرط التعويل على اصلاح ديمقراطي للنظام الداخلي للحزب . (لم يتوصل تروتسكي الى الاستنتاجات ذاتها الا بعد خمس سنوات (أوست) . كتب سميرنوف عام ١٩٢٨ يقول ان الحزب الذي يقوده ستالين «جثة عفنة» ، وكان يؤكد هو وانصاره ان ستالين هو القائد المنتصر للترميدور الروسي الذي تم عام ١٩٢٣ والممثل الشرعي للكولاك والملاكين عموماً . وكانوا يتهمون النظام الستاليني بأنه «ديمقراطية بورجوازية» أو «ديمقراطية فلاحية» ، لن تكون قادرة على أن تطيحها إلا ثورة بروليتارية جديدة . كتب سميرنوف : «إن التصفية التي تناولت عام ١٩٢٣ الديمقراطية داخل الحزب والديمقراطية البروليتارية عموماً لم تكن ـ حسبما يمكن ادراكه الآن ـ إلا تمهيداً لصعود ديمقراطية كولاكية ـ فلاحية[٣٧] .» واكد سابرونوف ان «الاحزاب البورجوازية بدأت تنتظم بصورة شرعية في البلاد» : كان ذلك عام

(٣٦) انظر رسالتي دينجلستدت الى تروتسكي في ٦ تموز/يوليو و ٢٤ آب/اغسطس عام ١٩٢٨ ، في المحفوظات ؛ انظر كذلك رسالته الى رادك في ٢٢ آب .

(٣٧) الاستشهاد مأخوذ من دراسة ديسيمية ، Pod znamia Lenina ، ينسبها تروتسكي الى ف . سميرنوف . المحفوظات .

١٩٢٨[٣٨] ! بمعنى آخر كان يتهم ستالين بإعادة الرأسمالية في الوقت الذي كان فيه على وشك الغاء الملكية الخاصة للفلاحين ، المصدر الرئيسي لقوة الرأسمالية في روسيا . كان يتهم ستالين بإرساء نظام بورجوازي متعدد الاحزاب ، في حين كان المذكور يدفع نظام الحزب الواحد الى أبعد نتائجه ويعد لصعوده الذاتي كقائد واحد ووحيد . وفي الحقيقة ان ذلك كان نوعاً من الدونكيشوتية . وربما امكن العثور على بعض آثار الدونكيشوتية لدى تروتسكي لكن واقعيته وصرامته الشخصية كانتا تمنعانه من الانجراف معها . اما سميرنوف وسابرونوف وانصارهما فلم تكن لديهم تلك الكوابح حين انطلقوا في هجومهم على طواحين الهواء الخاصة بـ «الديمقراطية الكولاكية» المنسوبة الى ستالين ؛ وبعض تلامذة تروتسكي الشباب وقعوا تحت إغراء الانضمام اليهم ، لا سيما حين اعطت «تصفية التوجه اليساري» ، مؤقتاً ، مظهراً مخيفاً لطواحين الهواء[٣٩] .

وسط كل تلك التيارات المتعاكسة ، بذل تروتسكي كل ما في وسعه لمنع المعارضة من التفكك . فبالنسبة إليه ، كانت تلك الخلافات مجرد صراع بين جيلين ، صراع بين «الآباء والابناء» ، الأولين وقد نضجوا منذ زمن طويل واكتسبوا الكثير من المعرفة والخبرة ، والآخرين وهم مفعمون حماساً بريئاً وجسارة . وكان يشعر بنفسه قريباً من هؤلاء واولئك ، ويفهمهم أيضاً كما يخشاهم . كانت لديه حدوس قائمة بخصوص بريوابراجنسكي ورادك ، فتحت مواقفهما وحججهما ، كان يميز اسباباً عميقة ستقودهما الى الاستسلام . لكنه لم يكن يريد ان يجعل منهما عدوين ، لذا منحهما مغنم الشك ودافع عنهما ضد مبالغات التروتسكيين المفرطين في الحماس . وقد ناقش الرجلين بصبر لكن بحزم : اعترف بأنهما غير مخطئين بصدد التوجه اليساري ، وبأن الهيئة العامة للبلاد تتغير ، لكنه رجاهما في آن معاً ألا يستخلصا من ذلك نتائج متسرعة جداً والا يبالغا في تقدير حظوظ مصالحة حقيقية مع الستالينية . في الوقت ذاته ، حاول كبح المتطرفين في الجناح الآخر ، قائلاً لهم ان لديهم نظرة مفرطة في الثقة بامكانات المعارضة وان ذلك قد يؤدي بهم الى خيبة أمل قاسية . فمن قبيل التبسيط الاعتقاد ان التدابير الاخيرة لتهدئة الكولاك تشكل «الكلمة الاخيرة» لدى ستالين وبانها لا بد ان تؤدي الى «الانهيار المحتوم» للنظام

---

(٣٨) انظر تصريح سابرونوف لأحدهم في ١٨ حزيران/يونيو . المحفوظات .

(٣٩) كان تروتسكي يعتبر أن من يشاركون سابرونوف وسميرنوف آراءهما يشكلون الجناح المتطرف في الحركة المعادية للستالينية . لكنه كان يؤيد التعاون مع ديسيميين أكثر اعتدالاً ، كرافايل ، و ف . كوسيور ، ودروبنيس ، وبوغولافسكي . انظر رسالته السيارة بصدد الديسيميين ، في ٢٢ ايلول/ ديسمبر ١٩٢٨ ، المحفوظات .

الستاليني . فالوضع اكثر تعقيداً بكثير ، ويستحيل ان يرى المرء مسبقاً ، وبيقين ، أين سيصب . في كل الاحوال ، إذا كان قد قال سابقاً «سيبقى الحزب بحاجة الينا» فلقد كان اقل ثقة من سوسنوفسكي بكثير بأن «النداء لعودة تروتسكي سيدوي قريباً عبر العالم[٤٠] » .

لقد بذل ما في وسعه للحفاظ على وحدة المعارضة حول شعار النضال الحازم ومن دون مساومة لأجل اصلاح النظام الداخلي للحزب . واذا كانت ادانته الصارمة لـ «الاوهام حول التقارب بين المعارضة والستالينية» صانت مشاعر الشباب المتصلبين الودية تجاهه ، فإن شعار الإصلاح داخل الحزب أبقى على الرباط بينه وبين التوفيقيين . ولقد ندد بموقف الديسيميين «السلبي والعقيم كلياً» حيال الحزب وسعى لجعل رفاقه القدامى يتخطون الحنين الى الحزب وقلق العزلة والشعور باللاجدوى ، كل تلك الحالات التي كان المعارضون الاكبر سناً يقعون في فخها في اغلب الاحيان . اراد ان يوقظ في ذواتهم الشعور بأهمية رسالتهم ، وان يجعلهم يعون انهم يتكلمون من منفاهم البعيد الى الطبقة العاملة المجبرة على الصمت ، وان كلماتهم كانت لا تزال مؤثرة ، وعاجلاً او آجلاً ستبلغ آذان الطبقة العاملة والحزب وتؤثر في نفسيهما . لكنه أضاف أن تلك القناعة ينبغي ألا تدفع المعارضة إلى مشاعر الرضى عن النفس والغطرسة . لا شك انها المدافع الحقيقي الوحيد الباقي عن التراث الماركسي واللينيني ، لكن ذلك يجب الا يدفعها إلى ان تلقي بكل خصومها ، دون تمييز إلى القمامة ، ولا الى الادعاء ان كل ما بقي من حزب لينين لا يتعدى بضعة آلاف من المعارضين . لقد كانت المعارضة على حق حين فضحت «الانحطاط البيروقراطي» للحزب ، لكن حتى في هذا الميدان ، يجب الحرص على حس النُسَبِ ، اي فهم ان «الانحطاط يتم بدرجات مختلفة» ويمكن ان يبقى عدد كبير من الناس النزيهين والأصحاء داخل الحزب . «إن الموقع الذي يحتله الآن ستالين لا يدين به فقط للارهاب الذي يمارسه جهاز الحزب ، بل كذلك لثقة جزء من العمال البلاشفة أو ثقتهم الجزئية به .» على المعارضة ألا تفقد الصلة بهؤلاء العمال ، فإليهم يجب ان تتوجه .[٤١] .

إن مداخلات تروتسكي الموازنة بدقة لم تلق دائماً حسن الاستقبال . فلقد ظل

---

(٤٠) انظر رسالة تروتسكي الى « ف . د » (ربما إلزين ؟) في ٣٠ آب/أغسطس ١٩٢٨ .

(٤١) انظر رسالته السيّارة بصدد الخلافات بين المعارضة والديسيميين ، في ١١ تشرين الثاني ١٩٢٨ ؛ انظر ايضاً رسائله في ١٥ تموز و ٢٠ آب و ٢ تشرين الاول و ١٠ تشرين الثاني ، بصدد الموضوع ذاته .

اليساريون المتطرفون ينتقدون رأفته بالتوفيقيين ، بينما اخذ بريوبراجنسكي ورادك على تروتسكي دعمه لـ «الموقف الديسيمي» لاولئك التروتسكيين الذي كانوا يتصرفون كما لو كانت المعارضة حزباً جديداً لا كتلة في الحزب القديم . وقد تنامت الخلافات بين المجموعتين الواقفتين على طرفي نقيض . لكن طالما بقي تروتسكي في الما ـ آتا وتمكن من ان يمارس مباشرة نفوذه ، وطالما بقيت سياسة ستالين حائرة مترددة ، فلم تزد من حدة مآزق المعارضة ، طالما نجح تروتسكي في منع مختلف المجموعات في صفوف انصاره من الابتعاد كثيراً بعضها عن البعض الآخر ، وبالتالي من التسبب بانهيار المعارضة .

في هذا الوضع بالغ الصعوبة ، كان راكوفسكي هو من قدم له الدعم الادبي الاقوى . كانت صداقتهما القديمة والعظيمة قد تعمقت واغتنت : كان بينهما الآن علاقة حميمة للغاية ، والكثير من المودة ، ناهيك بالتفاهم الفكري الاكثر صلابة . بعد أن اشتهر راكوفسكي كقائد لحكومة اوكرانيا البلشفية وكدبلوماسي ، كان آنذاك منفياً في أستراخان حيث شغل منصباً وضيعاً في ادارة الغوسبلان المحلية . إن مراسلته مع تروتسكي وروايات شهود العيان تظهر بأي قوة شكيمة وهدوء كان يتحمل قدره ؛ وهي تسمح ايضاً بتصور كثافة عمله الفكري كمنفي وتنوعه[٤٢] . كان قد حمل معه الى استراخان ، بين أمتعته كمنفي اعمال سان ـ سيمون وآنفانتان ، ومؤلفات عدد كبير من المؤرخين الفرنسيين للثورة ، ومؤلفات ماركس وانجلز ، وروايات ديكنز وكلاسيكيي الادب الروسي . وقد كان سرفانتس مؤلفه المفضل في الاسابيع الأولى من النفي . كتب الى تروتسكي يقول : «في مثل هذا الوضع ، أعود الى دون كيشوت وانهل منه رضى وارتياحاً عظيمين .» اما حنينه الى مسقط رأسه دوبر وجدا فجعله يقرأ أوفيد مجدداً . ولما كان مهتماً من الناحية المهنية بالتخطيط الاقتصادي لمنطقة استراخان ، فقد شرع يدرس بجدية تامة «المنحنيات الجغرافية» للسهوب القزوينية ، والشروح التي قدمها لتروتسكي حول طبيعة أعماله ممتلئة بالاستشهادات بدانته وارسطو . لكن ما اثار اهتمامه كثيراً وشغله فوق كل شيء إنما الثورة الفرنسية التي شرع يعيد دراستها بشغف[٤٣] ؛ وقد كتب سيرة لحياة سان سيمون . كان

(٤٢) يروي لويس فيشر الذي مضى لرؤية راكوفسكي في استراخان انه رآه مرة يقوم بدور المترجم لمجموعة من السائحين الاميركيين ، بناء على طلب السلطات المحلية . كان راكوفسكي يبدو متهكماً مهزولاً . وفي نهاية الزيارة ، اراد السائحون المشار اليهم ان يعطوا راكوفسكي بقشيشاً ، فانسحب نصف حزين نصف ساخر ، بحركة مهذبة .

(٤٣) حين كان راكوفسكي سفيراً في باريس ، فعل الكثير لتشجيع المؤرخين السوفيات على دراسة مخطوطات الثورة الفرنسية التي كان يهتم بها كثيراً . وبين الكتب التي حملها الى المنفى وكان يحبها كثيراً كتاب التاريخ السياسي للثورة الفرنسية ، مع إهداء من مؤلفه أولار .

يبلغ تروتسكي تفاصيل عن تقدم عمله ، وهكذا ذكّره بنبوآت سان سيمون بصدد روسيا والولايات المتحدة ، ذينك العملاقين المتعادين لاحقاً (نبوآت اقل شهرة من نبوآت توكفيل التي أتت بعدها ، لكن اكثر فرادة بكثير) . وهو يتذمر في رسائله من تأثير التقدم في السن على ذاكرته وخياله ـ كان في الخامسة والخمسين في الفترة التي نفي فيها ـ لكنه يقول انه يعمل« بحيوية شديدة ـ avec ardeur(*) »ولقد حث تروتسكي بحنان أبوي على أن لا يبذر كل طاقته ومواهبه على تصريف الشؤون الجارية : «إنه لمن الاهمية القصوى بمكان ان تكرس نفسك لمهمة عظيمة ، تشابه مهمة سان سيمون ، فتدرس بنظرة جديدة عدداً كبيراً من المشكلات وتعيد قراءة الكثير من الاشياء من زاوية محددة[٤٤] .» وقد اوصل الى تروتسكي كتباً ودوريات لم يكن في وسع الاخير ان يجدها في ألما ـ آتا . وبقي على اتصال بولدي تروتسكي اللذين كانا في موسكو وشارك في حداد العائلة . ومن الناحية السياسية دعم تروتسكي ، سواء ضد التوفيقيين او ضد اليساريين المتطرفين . وباختصار ، بين كل قادة المعارضة ، لم يكن هنالك من ارتبط به تروتسكي بالقوة التي شدته الى كريستيان جيورجيفتش[٤٥] .

كان مزاج راكوفسكي السياسي يختلف في العديد من النواحي عن مزاج تروتسكي . لا شك انه لم يكن يمتلك مقدرته الفكرية ولا حماسه ولا قوة التعبير لديه ، ولا طاقته الفريدة والعاصفة ، لكنه كان يمتلك ذهناً بالغ الوضوح والنفاذ الى بواطن الامور ، وربما أيضا قدرة على التجرد الفلسفي أعظم من قدرة تروتسكي . واذا كان اخلاصه للمعارضة ما بعده اخلاص ، إلا انه لم يكن متحزباً ، بمعنى ان وجهات نظره كانت تتخطى باتساعها واهميتها الاهداف والتكتيكات المباشرة للمعارضة . واذا كان مقتنعاً بأن المعارضة على حق وسيتم الانتقام لها في نهاية المطاف ، فلقد كان اقل ثقة بحظوظها في النجاح السياسي . رجع الى الوراء ليعانق بنظرة واحدة الصورة الواسعة للثورة ، فميز بوضوح العامل الرئيسي المأساوي الذي كان يجتازها من طرف لآخر والذي أصاب كل الكتل المتصارعة . ذلك «العامل» كان «التفسخ المحتوم لحزب الثورة بعد انتصاره» .

ولقد فصّل هذه الموضوعة في الرسالة الى فالانتينوف ، وهي دراسة اثارت الكثير من

(*) التعبير وارد بالفرنسية في النص الأصلي لرسالة راكوفسكي .

(٤٤) انظر رسالة راكوفسكي الى تروتسكي في ١٧ شباط/فبراير ١٩١٨ ، في Bulleten oppozitsii ، العدد ٣٥ .

(٤٥) كان تروتسكي قد اهدى كتابه ، الادب والثورة ، « إلى كريستيان جيورجيفيتش راكوفسكي المناضل ، والانسان ، والصديق » .

الاضطراب في الجاليات التروتسكية خلال صيف عام ١٩٢٨[٤٦] . تساءل راكوفسكي : كيف يمكن تفسير الخبث العميق والانحطاط الاخلاقي اللذين ظهرا داخل الحزب البلشفي ، ضمن حزب مؤلف من ثوريين شرفاء ومخلصين وشجعاناً ؟ ومن قبيل التبسيط المبالغ به ان نحمّل التكتل الحاكم والبيروقراطية كل الخطايا . ثمة سبب اكثر عمقاً هو «تبلد الجماهير ولا مبالاة الطبقة العاملة الظافرة بعد الثورة» . كان تروتسكي قد اوضح ان وضع روسيا المتأخر ، وقلة عدد افراد الطبقة العاملة ،وانعزال البلاد والتطويق الرأسمالي ، كانت العناصر الرئيسية في «الانحطاط البيروقراطي» للدولة والحزب . اما راكوفسكي فكان يرى ان هذا تفسير صحيح لكن غير كامل . وقد اكد انه حتى في الامة الاكثر تقدماً والاكثر تصنيعاً ، حتى في بلد مؤلف فقط من العمال ومحاط بدول اشتراكية ، يمكن بعد انتصار الثورة ان تقع الجماهير في التبلد ، وتتخلى عن حقها في صياغة وجودها الخاص بها وتسمح لبيروقراطية اعتباطية بالاستيلاء على السلطة . ذلك كان ـ حسبما قال ـ الخطر العميق الذي يتهدد كل ثورة ظافرة ، « خطر المهنة» الخاص بممارسة السلطة .

تؤدي الثورة والحرب الاهلية عموماً إلى التفكك الاجتماعي للطبقة الثورية . فالطبقة الثالثة الفرنسية تفككت بعد ان انتصرت على النظام القديم ؛ دمرت وحدتها التناقضات الطبقية في احشائها ، والنزاعات بين البورجوازيين والعامة . لكن حتى جماعات متجانسة اجتماعياً لا بد ان تنفجر بفعل «التخصص الوظيفي» لأعضائها ، إذ يغدو بعضهم القادة الجدد ، ويبقى الآخرون منقادين . « تحوّل الوظيفة العضو الذي يتولاها بتكييفه مع ذاتها» . لما كانت الطبقة الثالثة تفككت ، فقد ضاقت القاعدة الاجتماعية للثورة ولم يعد يمارس السلطة غير عدد أقل فأقل من الاشخاص . تم استبدال الانتخابات بالتعيين . كانت الامور قد تطورت الى حد بعيد بهذا الاتجاه قبل الانقلاب الترميدوري بكثير : ان روبسبيير هو الذي حفز السيرورة التي ستسحقه فيما بعد . في البدء ، كان سخط شعب جائع وبائس هو الذي حال دون ان يوكل العاقبة مصير الثورة الى تصويت شعبي ، ثم دفع الارهاب والعسف اليعقوبيان الشعب الى اللامبالاة السياسية؛ وهذه اللامبالاة هي التي سمحت للترميدوريين بالاجهاز على روبسبيير وتدمير الحزب اليعقوبي . وفي روسيا ، تمت تحولات مشابهة على صعيد «التركيب الداخلي» للطبقة العاملة و«فيزيولوجيا» تلك الطبقة ، وأدت الى نتائج مشابهة : تركيز السلطة في عدد صغير جداً من الايدي ، واحلال هرم من

---

(٤٦) يوجد نص الرسالة ، المكتوبة في ٢ آب /اغسطس ١٩٢٨ ، في المحفوظات. كان فالانتينوف ، المحرر سابقاً في ترود ، قد نفي بصفته تروتسكياً .

المعينين محل الهيئات التمثيلية . انقسم الحزب البلشفي الى فئتين من الناس : القادة والمقودين . لقد تفكك وتحول الى حد أن «بلشفي عام ١٩١٧» كان عاجزاً عملياً عن التعرف الى نفسه في «بلشفي عام ١٩٢٨» .

كانت بلادة عميقة ومرعبة ، تشلّ كذلك الطبقة العاملة وخلافا لتروتسكي لم يكن راكوفسكي يعتقد أبداً أن ستالين انطلق في سياسيته اليسارية تحت ضغط العمال . كانت تلك السياسة عملية بيروقراطية تقررت حصراً في القمة وجرت المبادرة لتنفيذها من اعلى . لم يتخذ مناضل القاعدة اية مبادرة، هو الذي كان مشغولاً جداً بالدفع عن حرياته . ولقد اعاد راكوفسكي الى الاذهان جملة لبابوف تعود لعام ١٧٩٤ : « إعادة تثقيف الشعب بحب الحرية اصعب من انتزاع الحرية .» كان بابوف اطلق صيحة الحرب «الحرية والكومونة المنتخبة» ، لكن لم تكن هنالك اذن واحدة تصغي اليه . لقد تعلم الفرنسيون من جديد الحرية ، لكن توجب ان تمر ٣٧ سنة ، من عام ١٧٩٣ الى عام ١٨٣٠ ، كي يفعلوا ذلك ، ويخرجوا من بلادتهم ويفجروا ثورة اخرى . لكن راكوفسكي لم يطرح بصراحة السؤال الذي كان يطفر حتماً إلى الشفاه كم من الوقت يجب ان تنتظر الجماهير الروسية لتستعيد حيويتها ونشاطها السياسيين لكنه كان يرى ضمناً أن انبعاثاً سياسياً لن يتم في روسيا الا في مستقبل بعيد ، بعد تحولات اجتماعية كبرى وفقط حيث تكون الطبقة العاملة تطورت ، وتضخم عددها ، وغدت منسجمة متسقة ، وامكنها ان تنسى الضربات التي لا تحصى التي تلقتها وكل إحباطاتها . وقد «اعترف» انه لم يتوقع يوماً انتصارات سياسية مباشرة او وشيكة للمعارضة وانه كان على هذه ان تكرس بالتالي كل جهودها للتربية السياسية للطبقة العاملة . واذا كانت المعارضة قامت في هذا الميدان بأكثر مما قامت به الجماعة الحاكمة ، فلقد قال إنه يجب الاعتراف بأنها لم تفعل مع ذلك ، ولم تحاول أن تفعل ، شيئاً كثيراً ؛ وعلينا ألا ننسى أن «التربية السياسية لا تؤتي أكُلَها إلا ببطء شديد » .

كانت الخلاصة الضمنية لكل ذلك أنه لم يكن للمعارضة عملياً إلا حظ ضئيل في ان تعدل مجرى الاحداث في مستقبل قريب ، لكن أنه في وسعها الاطمئنان الى ان التاريخ سيعطيها في النهاية حقها ، ولو بعد الممات . كان راكوفسكي قد حلل بوضوح شديد مأزق المعارضة الاساسي : كانت محشورة بين بيروقراطية مستبدة وخائفة وفاسدة الاخلاق وطبقة عاملة متبلدة وسلبية بصورة يائسة . قال بالحاح : «اعتقد انه من المجافي للواقع بعمق التعويل على اصلاح لنظام الحزب الداخلي تتولاه البيروقراطية .» لكنه لم يكن يعتقد أيضاً بحركة انبعاث تتولاها الجماهير أو تحفزها قبل سنوات طوال . كان ينتج عن ذلك ـ مع ان

راكوفسكي لا يقول هذا الشيء بصراحة ـ ان البيروقراطية كما كانت آنذاك ستبقى ربما طوال عشرات السنين القوة الوحيدة القادرة على ان تقرر اصلاح المجتمع السوفياتي وتبادر الى ذلك . كانت مبادىء المعارضة بالذات تحكم عليها بأن تستمر في عدائها اللدود للبيروقراطية ، لكن دون ان تتمكن مع ذلك من الاحتكام ضدها الى الشعب ، مع بعض الحظ في النجاح . لن يمكن المعارضة بالتالي ان تلعب عملياً اي دور في تطور الحزب والدولة ؛ كانت ملغاة سلفاً من السيرورة التاريخية الواسعة التي ستحوّل فيها بعد المجتمع السوفياتي . كان الامل الوحيد الباقي للمعارضة هو ان تعمل للمستقبل ، وبصورة شبه حصرية ، في الميدان الايديولوجي .

تلك الاستنتاجات ، الضمنية في رسالة راكوفسكي الى فالانتينوف ، كان يمكنها في بعض الحالات ان ترضي جمعاً صغيراً من المنظرين والمفكرين ، لكن كان لها ، بالنسبة لحركة شعبية ، الوقع الذي يكون لحكم بالموت . كان راكوفسكي يتصور مسار الثورة ومستقبل المعارضة ببعد نظر بارد وفطن وبهدوء رواقي ، وهما امران لم يكونا ينطبقان على آلاف المعارضين الذين قرأوا الرسالة إلى فالانتينوف . فاولئك الناس ، عمالاً كانوا او مثقفين ، كانوا قبل كل شيء ثوريين ومناضلين ، يهتمون بشغف بالنتائج المباشرة لمعاركهم وبالهزات التي كانت تخض البلاد وتقولبها . كانت المعارضة بالنسبة اليهم حركة سياسية ، من حيث الجوهر ، لا نادي فلاسفة او صانعي نظريات ، وما كانوا يريدونه هو أن تنتصر بما هي حركة سياسية . حتى الأكثر بطولة والأكثر تجرداً بين المتمردين والثوريين يناضلون عموماً من اجل اهداف يعتبرون ان من الممكن الى هذا الحد أو ذاك أن يبلغوها في حياتهم ، ونادرون جداً واستثنائيون للغاية اولئك المفكرون والمنظرون الذين ينخرطون في نضال لن يتمكن التاريخ من جعله ينتصر الا بعد مماتهم .

كل المعارضين تقريباً كانوا قد سعوا لتعزيز القطاع الاشتراكي في الاقتصاد السوفياتي ، ولتطوير التصنيع ، ولاحياء الروح الاممية من جديد ، وبعث قليل من الحرية داخل الحزب . ما كان في وسعهم الخضوع للفكرة القائلة ان تلك بالنسبة اليهم اهداف لا يمكن بلوغها . كانوا قد فهموا انه لا يمكنهم بلوغها بقواهم الخاصة بهم وأنهم بحاجة لمساعدة الجماهير او مساعدة البيروقراطية . لكن لم يكن في وسعهم تصور ان تلك المساعدة لن تأتي لا من هنا ولا من هناك . لكي يوجدوا سياسياً، كان ينبغي أن يؤمنوا ، مهما يكن الثمن ، ان الجماهير ستنتفض عاجلاً أو آجلاً ضد البيروقراطية ، او ان البيروقراطية ستعمد ، من ضمن حرصها على مصلحتها الخاصة بها ، أو استجابة لأسبابها الخاصة بها ،

الى تنفيذ معظم الاصلاحات التي كانت تطالب بها المعارضة . كان التروتسكيون المتطرفون يريدون التوجه الى الجماهير ، بينما كان التوفيقيون يريدون التوجه الى الجماعة الحاكمة أو جزء من تلك الجماعة . والطرفان كانا مخدوعين ، لكن ليس بالدرجة ذاتها . ما كانت هنالك علامة واحدة في البلاد تسمح بالاعتقاد بأن حركة جماهيرية ستتم بصورة عفوية لاجل الدفاع عن اهداف المعارضة . لكن بالمقابل ، كان واضحاً ان البيروقراطية تتخمر : كانت تقسمها على نفسها مشكلات اساسية كالتصنيع والسياسة الفلاحية . كان التوفيقيون يعتبرون ان التكتل الستاليني اقترب من المعارضة بصدد تلك المشكلات ، وهو ما كان يشجعهم على الامل في ان يقترب منها ايضاً ضمن ميادين اخرى . فإذا كانت البيروقراطية القوة الاجتماعية الوحيدة القادرة على اتخاذ مبادرات ملموسة ، لماذا رفض الاعتقاد بأن بإمكانها المضيّ حتى اعادة الحرية الى داخل الحزب . واذا لم يكن الامر كذلك ، فستكون منظورات المستقبل قاتمة بشكل لا يُحتمل : فالحرية داخل الحزب والديمقراطية البروليتارية ، إجمالاً ، ستبقيان كلمات فارغة من كل حقيقة ملموسة وذلك لمدى غير منظور .

أثرت حجج راكوفسكي تأثيراً كبيراً على تروتسكي الذي أوصى المعارضة بالاطلاع عليها ؛ لكن يبدو أنه لم يدرك ما تنطوي عليه من مستتبعات ذات طابع متشائم . ذلك أن المفكر المفعم تجرداً وموضوعية كان الآن يتناقض داخل تروتسكي ، إذا لم يكن يتصارع ، مع القائد السياسي الذي يغلي نشاطاً وحيوية . كان يمكن المفكر فيه أن يقبل تحليلاً يقود عملياً إلى الحكم على المعارضة بما هي حركة سياسية ، لكن القائد السياسي كان يرفض بكل بساطة ان يأخذ بالاعتبار استنتاجاً مماثلاً ، فكيف بتبنيه . كان في وسع المنظرّ التسليم بأن روسيا ، مثلها مثل فرنسا قبلها ، «نسيت الحرية» ولا يمكنها تعلمها ثانية قبل صعود جيل جديد . كان على رجل العمل أن يستبعد من فكره منظوراً من هذا النوع ويسعى ليقدم لانصاره هدفاً ملموساً . إذا كان يمكن المفكر أن يسبق عصره ويعمل للاجيال القادمة ، فلا يمكن قائد المعارضة ان يهرب من عصره ، بل يجب عليه ان يعيش فيه ويؤمن مع انصاره بأن عليهم إنجاز مهمة «مهمة» وبناءة . لكن المفكر والقائد السياسي في تروتسكي كانا يرفضان في آن معاً القبول بعزلة بلاده في العالم . كان لا يزال مقتنعاً بأن ضعف البلشفية الأعظم ناجم عن عزلتها وبأن انتصار الثورة في بلدان أخرى سيساعد الشعب في الاتحاد السوفياتي على تعلم الحرية من جديد وذلك بصورة اسرع بكثير مما لو تجمد في عزلته الثورية .

حوالى نهاية صيف ١٩٢٨ ، وصلت الى ألما ـ آتا أخبار مجفّلة ، مصدرها الحلقات

التروتسكية السرية في موسكو . كانت تؤكد ، معززة بالأدلة المفصلة ، ان ستالين سيستعيد سياسته اليسارية وان القطيعة بين كتلته وكتلة بوخارين كلية ونهائية . وكانت التقارير الآتية من موسكو تجزم بأن الستالينيين ، مثلهم مثل البوخارينيين يدرسون امكانية تحالف مع المعارضة اليسارية ! وبدأوا يتنافسون للحصول على دعم التروتسكيين والزينوفييفيين . كان يبدو ان الاصوات التي تشترط عودة تروتسكي لن تتأخر في الوصول إلى الأسماع .

كان تروتسكيو موسكو على اتصال وثيق بكامينيف الذي أعلمهم بالمباحثات التي دارت بينه وبين سوكولنيكوف اثناء دورة تموز/يوليو للجنة المركزية . فسوكولنيكوف الذي كان لا يزال عضواً فيها ، والذي كان الى حد ما نصف بوخاريني نصف زينوفييفي اعرب له عن الامل بتشكيل تحالف بين اليمين واليسار ضد الوسط الستاليني ، لا بل حاول ان يلعب دور الوسيط . روى لكامينيف كيف ان ستالين تبجح في اللجنة المركزية بأنه سيحصل قريباً جداً ، في نضاله ضد البوخارينيين ، على دعم الزينوفييفيين والتروتسكيين ، وانه أضاف ايضاً انهم «أصبحوا في جيبه» . ولقد روَّع ذلك بوخارين فكلف سوكولنيكوف بالتوسل للمعارضة اليسارية كي ترفض دعم ستالين ، وحتى كي تتحالف معه ضد الستالينيين . لكن دورة تموز/يوليو للجنة المركزية انتهت بنجاح ظاهري لبوخارين ، او لمزيد من الدقة بنوع من المساومة بينه وبين ستالين . وبعد وقت قصير ، عاد الصراع المكشوف فاستعر بينهما . والتقى بوخارين كامينيف سراً بحضور سوكولنيكوف ، فأوضح انه سيضطر ، هو كما ستالين ، للتوجه الى المعارضة اليسارية ومحاولة التحالف معها . كان البوخارينيون ، مثلهم مثل الستالينيين ، لا يزالون يخشون التحالف مع اعدائهم القدامى ، لكن الفريقين كانا يعرفان ان ذلك التحالف سيغدو «حتمياً قبل مرور شهرين» . ولقد قال بوخارين إن من المؤكد في كل الاحوال ان يستدعي المعارضون المطرودون والمنفيون قريباً إلى موسكو ويعاد دمجهم في الحزب[٤٧] . وكتب كامينيف الى زينوفييف ، الذي كان لا يزال نصف منفي في فورونيج ، تقريراً مفصلاً عن لقائه مع بوخارين يسمح لنا بتخيل جو ذلك اللقاء ولونه الخاصين . إن بوخارين الذي اختلى بكامينيف وسوكولنيكوف لم يعد يشبه إطلاقاً الرجل الذي ساهم قبل سبعة اشهر فقط ، خلال المؤتمر الخامس عشر ، مساهمة فعالة في

---

(٤٧) تقارير تروتسكيي موسكو موجودة في المحفوظات . ومحضر لقاء سوكولنيكوف كامينيف مؤرخ في ١١ تموز/يوليو ١٩٢٨ ، بينما محضر لقاء بوخارين ـ كامينيف في ١١ آب/اغسطس . وثمة ايضاً محضر عن لقاء التروتسكيين مع كامينيف مؤرخ في ٢٢ ايلول/ سبتمبر . وقد جرى توزيع محضر لقاء كامينيف ـ بوخارين سراً بواسطة تروتسكيي موسكو بعد اشهر من ذلك الحين ، حين نفي تروتسكي الى خارج روسيا .

سحق المعارضة . لم يعد فيه أثر لبوخارين المتجبر والمتبجح الذي كان قد أخذ على كامينيف ، بسخرية وقحة ، «اعتماده على تروتسكي» والذي كان قد هنأه ستالين على «ذبح» قادة المعارضة بدل إضاعة وقته بـ «النقاش معهم» . وصل الى منزل كامينيف كالسارق ، مرعوباً ، شاحباً مرتجفاً ، ملقياً نظرات خلفه ومتكلماً بالهمس . بدأ بالتوسل لكامينيف كي لا يقول كلمة لأي كان عن نقاشهما ، وبأن لا يلمّح إليه ، لا بالمراسلة ولا بالهاتف ، لأنهما كانا ، كلاهما ، تحت رقابة الغيبيو . كان بوخارين المحطَّم قد اتى لـ «يستند» الى خصمه القديم ، الذي كانت معنوياته هو أيضاً منخفضة جداً . كان الذعر يدفعه للكلام دون ادنى تماسك .ردد كما لو كان تحت تأثير هاجس مخيف ، من دون ان يتلفظ إطلاقاً باسم ستالين : «سوف يغتالنا» ، «إنه جنكيز خان جديد» ، «سوف يخنقنا» . ترك بوخارين لدى كامينيف «انطباعاً بأنه رجل صدر الحكم بحقه» .

جزم بوخارين بأن النزاع بين الفلاحين والحكومة هو الذي في اصل الأزمة في صفوف الجماعة الحاكمة . قال إنه ، خلال النصف الاول من العام ، قمعت الغيبيو على امتداد البلاد ١٥٠ تمرداً متباعداً ومتفرقاً للفلاحين ، هي نتائج الوضع الميؤوس منه الذي دفعت الموجيك اليه تدابير ستالين الطارئة . وفي تموز/يوليو ، ارتعبت اللجنة المركزية لدرجة تظاهر إزاءها ستالين بأنه تراجع : كان قد الغى التدابير الطارئة مؤقتاً ، لكن بهدف واحد هو إضعاف البوخارينيين والاستعداد بفعالية اكبر لهجوم جديد . منذ ذلك الحين ، نجح في كسب دعم فوروشيلوف وكالينين اللذين كانا حتى تلك الفترة الى جانب البوخارينيين ؛ وهكذا اصبح يحوز الغالبية في المكتب السياسي . كان الآن مستعداً ـ حسب ما نقله بوخارين ـ لشن هجومه النهائي ضد الملكية الفلاحية . كان قد تبنى اطروحة بريوبراجنسكي وأوضح انه لا يمكن الاشتراكية الروسية أن تنجز تراكمها البدائي إلا «عن طريق استغلال» الفلاحين ، لأنها ، بعكس الرأسمالية الفتية ، لا تستطيع استثمار المستعمرات ولا الاستعانة بالرساميل الاجنبية . ووصل ستالين الى استنتاج مفاده أنه كلما تقدمت الاشتراكية ، كلما اصبحت المقاومة الشعبية أقوى ، وان «قيادة حازمة» هي وحدها التي يمكنها كبحها ، وقد وصف بوخارين ذلك الاستنتاج بأنه خليط من «الأمية والحماقة» ، واستطرد قائلاً : «هذا يعني دولة بوليسية ، لكن لن يسمح ستالين لشيء بأن يقف في طريقه» ؛ «إن سياسته تقودنا الى الحرب الاهلية ؛ سوف يضطر لاغراق الانتفاضات في الدم» و «سوف يندد بنا كمدافعين عن الكولاك .» كان الحزب على شفير الهاوية : فإذا ربح ستالين سيزول كل اثر للحرية . وعاد يردد : «سوف يغتالنا» ، «سوف يخنقنا» . «ان اصل البلية يكمن في ان الحزب والدولة اختلطا كلياً الى هذا الحد .»

ضمن هذا الوضع ، قرر بوخارين أن يستنجد بالمعارضة اليسارية . كان يبدو له الآن ان اسباب الانقسام القديمة جرى تخطيها في جزء كبير منها . قال لكامينيف : «إن خلافاتنا مع ستالين اخطر بكثير ، اخطر بما لا يقاس من تلك التي تفصلنا عنكم .» إن ما كان مطروحاً الآن ، لم يكن فقط مجرد خلافات سياسية ، بل صيانة الحزب والدولة ، بالاضافة الى حياة كل خصوم ستالين . طبعاً كانت المعارضة اليسارية تؤيد سياسة معادية للكولاك ، لكن بوخارين كان يعرف انها لن تسعى يوماً لتطبيقها بالطرق عديمة الرأفة والدامية التي هي طرق ستالين . في كل حال ، ليست الافكار هي ما كان يهم ستالين : «إنه دساس لا مبادىء عنده يُخضع كل شيء لشهوة السلطة . . . لا يعرف غير الانتقام . . . وطعنة الخنجر في الظهر . . . .» وهذا هو السبب في أنه على من يقفون في وجه ستالين أن لا تحول بينهم خلافات ايديولوجية ، لكن ان يوحدوا جهودهم ويدافعوا عن أنفسهم معاً .

وليشجع بوخارين شركاءه المحتملين ، عدد بعد ذلك المنظمات والشخصيات التي كان يفترض انها مستعدة للوقوف في جبهة واحدة ضد ستالين . ان العمال يكرهون ستالين ـ قال ـ وهذا معروف تماماً : ففي احد الايام ، وكان تومسكي سكران ، تمتم في اذن ستالين : «قريباً سيبدأ عمالنا يطلقون النار عليك ، سيفعلون ذلك» . وفي خلايا الحزب ، كان المناضلون مشمئزين من افتقار ستالين للمبادىء لدرجة انهم تساءلوا حين اطلق التوجه اليساري : « لماذا لا يزال ريكوف رئيساً لمجلس مفوضي الشعب ، بينما تروتسكي منفي في ألما ـ آتا ؟ » وقد جزم بوخارين بأنه إذا كانت « الشروط النفسية » لطرد ستالين لم تتوفر بعد ، فالأمور في طور النضج . لا شك ان ستالين عرف كيف يكسب فوروشيلوف وكالينين ، واورجو نيكيدزه الذي انتهى الى كره ستالين فاقد للشجاعة . لكن اندرييف ، وقادة لينينغراد ـ وكيروف من بينهم ـ وياغودا وتريليسر ، نائبي قائد الغيبيو ، وآخرين غيرهم ، مستعدون للارتداد على ستالين . كان بوخارين يزعم ان الرجلين اللذين كانا يقودان الغيبيو فعلياً يقفان بجانبه ، لكنه لم ينفك يتكلم مع ذلك بارتعاب على الشرطة السياسية . وتعداده القوى التي يمكن ان يؤلبها ضد ستالين لم يكن يمكن ان يبدو لمحاوره دقيقاً ومضموناً .

بعد اسابيع ، ارسل تروتسكيو موسكو تقريراً الى ألما ـ آتا حول لقاء جديد بينهم وبين كامينيف . «ان ستالين على وشك تقديم عروض للمعارضة اليسارية» : كان كامينيف متأكداً من ذلك لدرجة أنه طلب الى زينوفييف أن لا يفسد الموقف بالرد بالكثير من اللهفة على

دعوات ستالين . وقد جزم ان ثمة حلاً وشيكاً ؛ كان «متفقاً تماماً مع تروتسكي » في التفكير بأن سياسة ستالين فجرت غضب الفلاحين بمجملهم لا الكولاك وحسب ، وبأن التوتر بلغ نقطة القطيعة . وبالتالي فإن تغييراً في قيادة الحزب كان لا بد منه ، و «سوف يتم حتماً قبل نهاية العام» . لكن كامينيف كان يتوسل لتروتسكي ان يقدم على الخطوات الاولى من اجل تسهيل اعادته الى الحزب . «على ليف دافيدوفيتش ان يدلي بتصريح يقول فيه ما جوهره : استدعونا ولنعمل معاً . لكن ليف دافيد وفيتش عنيد ، ولن يفعل شيئاً من هذا القبيل ، وهو يفضل البقاء في ألما ـ آتا إلى أن يُرسل اليه قطار خاص يعيده . لكن قبل أن يقرروا ارسال القطار ، يكون الوضع قد افلت من يدينا وغدا كيرنسكي ante portas[٤٨] » .

لكن ستالين لم يقدم على الدعوات أو على العروض المباشرة التي كان ينتظرها كامينيف . ادلى فقط بتلميحات عديدة واضحة الى مصالحة محتملة ، في الوقت الذي كان يضمن انها ستصل الى مسمع تروتسكي بطرق ملتوية . هكذا قال لشيوعي اجنبي ، أحد الأسيويين ، إنه يعترف انه وان كان تروتسكي وانصاره منفيين ، فهم خلافاً للديسميين لم يتركوا «ارضية الايديولوجية البلشفية» ، وانه ، اي ستالين ، ينتظر المناسبة الاولى لاستعادتهم الى موسكو . والذين يحيطون بستالين ، ولا سيما اورجونيكيدزه ، تكلموا على إعادة تروتسكي الى الحزب بصورة حرة وعلنية . وفي المؤتمر السادس للكومنترن ، جرى اعلام الوفود الاجنبية سراً بامكانية قيام تحالف بين ستالين وتروتسكي لا بل ترجيح ذلك[٤٩] .

كانت أزمة الحزب الروسي امتدت في تلك الفترة الى الاممية . رغم التظاهر بالاجماع والحماس الرسمي ، خيبت آمال اعضاء المؤتمر السادس الطريقة التي كان ستالين وبوخارين يقودان بها شؤون الاممية . ولقد تداول المؤتمرون نقد البرنامج الجديد ، الذي صاغه تروتسكي ، وإن بنسخة تعرضت للرقابة ، وقد علم تروتسكي عن طريق مراسليه أن النص المذكور ترك تأثيراً واضحاً على المؤتمرين[٥٠] . حتى القادة الشيوعيين الاجانب الذي كانوا معتبرين ستالينيين متحمسين لم يكونوا يخفون في لقاآتهم الخاصة تمردهم على

(٤٨) تأثر كامينيف بهجمات تروتسكي على المستسلمين ؛ لكنه تدخل ، هو وزينوفييف رغم ذلك لدى بوخارين ومولوتوف لصالح تروتسكي ، واحتجا على شروط حياته في المنفى التي تعرض صحته للخطر .

(٤٩) انظر رسالة غير مؤرخة بعنون : Podgotovka Kongresa ورسائل اخرى غير مؤرخة آتية من موسكو ، في المحفوظات .

(٥٠) هذه النسخة المراقبة هي التي نقلها الشيوعيون الامريكيون معهم من روسيا ونشروها في الولايات المتحدة عام ١٩٢٨ .

العقائد والطقوس التي فرضها ستالين على الحركة الشيوعية . سُمع صوت توغلياتي ـ ايركولي يتذمر من زيف المراسم الخاصة بالمؤتمر ، من «تظاهرات الولاء الحزينة والمثيرة للرثاء» وغطرسة القادة الروس . ويقال إنه اضاف : «هذا امر يثير عميق اليأس » . «ما هو مأساوي هو انه لا يمكن قول الحقيقة بصدد المشكلات الحالية الاهم . لا يجرؤ احد على الكلام . . . » وقد وجد توغلياتي نقد تروتسكي «مثيراً للاهتمام بصورة خارقة . . . ، إنه تحليل ثاقب جداً للاشتراكية في بلد واحد» . اما توريز ، القيادي الفرنسي ، فقال إن «الانزعاج والاستياء والتشكك» وسمت الحالة النفسية للمؤتمر ، وقد أيد هو ايضاً النقد التروتسكي للاشتراكية في بلد واحد ، قائلاً : «كيف أمكنهم تبليغنا هذه النظرية ؟» ربما كان على الحزب الروسي أن يكافح التروتسكية ، لكن كان عليه كذلك ان يرفض عقائد ستالين الجامدة . وقد اعتبر انحطاط الاممية «شيئاً لا يحتمل تقريباً» . لم يكن مستحيلاً أن يُخفى في المؤتمر نزاع ستالين وبوخارين ، لذا جرى اعلام المندوبين الاجانب الموثوق بهم بأنه في حال قطع ستالين نهائياً مع بوخارين يمكن ان يجد من المرغوب فيه او الضروري تشكيل تحالف مع تروتسكي .

واستمرت اخبار من هذا النوع تصل من كل مكان الى ألما ـ آتا ، خلال شهري آب/اغسطس وايلول/سبتمبر . كان ستالين لا يزال يتصرف بما لا يدع مجالاً للشك وبما يؤكد فكرة تأييده عودة وشيكة لتروتسكي . وقد كان ذلك ، جزئياً ، مناورة وحيلة حربية . فبإتاحة ستالين الاعتقاد باستعداد لعقد صلح مع تروتسكي ، نجح في إرعاب بوخارين وريكوف ، وفي بذر الفوضى في صفوف التروتسكيين ، وفي جعل التوفيقيين نافدي الصبر لاتمام المصالحة . لكن لم يكن ثمة غير الخداع في موقف ستالين . ما كان في وسعه أن يكون متأكداً تماماً من نتيجة امتحان القوة الذي بدأه مع بوخارين وريكوف وتومسكي ولا من امكانية الانتصار في الوقت ذاته ، وفي عز الأزمة القومية ، على معارضتين ، المعارضة اليمينية والمعارضة اليسارية . كان يحاول بعناد ما بعده عناد أن يركع المعارضتين ، لكن طالما لم يصل الى ذلك كان عليه ان يترك الباب مفتوحاً امام تحالف مع احداهما . كان وضعه اصبح اقوى من وضع بوخارين الى حد انه لم يكن حتى محتاجاً لتقديم عروض مباشرة له . لكنه كان يطلق بالونات اختبار ويراقب كيف تكون ردود فعل تروتسكي واصدقائه .

كان تروتسكي مهيأ تماماً لبعض تطورات الوضع ، لكنه فوجىء بالبعض الآخر . فالتفاقم الكارثي للصراع بين المدينة والريف ، والقطيعة بين ستالين وبوخارين ، وواقع ان

انظار بعض خصومه وبعض المستسلمين كانت معلقة عليه من جديد ، كل ذلك كان يتوافق مع توقعات تروتسكي . كان لا يزال يميل الى الاعتقاد بأن التكتل الستاليني لن يكون قادراً على التخلص من الورطة لوحده ، وانه بالتالي سيضطر للتوسل للمعارضة اليسارية كي تهرع لنجدته . كان قد ردد مراراً ، بالصورة الاكثر وضوحاً وعلنية ، ان المعارضة «ستؤدي واجبها» في مثل تلك الحالة ولن ترفض التعاون ، وهو ما اعاد تأكيده مجدداً . لكنه اضاف انه يرفض اي «تركيبات بيروقراطية» واي تفاوض وراء الكواليس من اجل مقعد في المكتب السياسي ، ولن يكتفي بالحصة من السلطة على جهاز الحزب التي قد يقدمها ستالين له in extremis . وقد اعلن انه ، هو واصدقاؤه ، لن يعودوا الى الحزب الا إذا غدت الديمقراطية البروليتارية نظامه ، مع كامل حرية التعبير والنقد ، وبشرط ان تنتخب القاعدة القيادة بالاقتراع السري ، لا ان تعين تلك القيادة اقطاعات الجهاز بنتيجة الترتيبات المألوفة بين الكتل[٥١] .

كان ستالين في وضع صعب ، بالتأكيد ، لكن ليس في وضع يائس لدرجة القبول بشروط تروتسكي . لكن تروتسكي كان ينتظر ان يتفاقم الوضع المذكور بحيث يجبر الجزء الاكبر من التكتل الستاليني ، مع قائده او بدونه ، على القبول بالتحالف وفقاً لشروطه . وهو لم يكن يريد ان يتصور شروطاً أخرى ، أكان ذلك من حيث المبدأ او انطلاقاً من المصلحة الشخصية . فبعد تجاربه الماضية ، كيف يمكنه ان يثق بـ «الجهاز» وأفضاله ؟

لكن تروتسكي فوجىء في الوقت ذاته بالمسار غير المتوقع للاحداث . فمنذ سنوات ، كان يفضح «الخطر اليميني» ، والمدافعين عن الكولاك والترميدوريين كان مستعداً لتشكيل «جبهة موحدة» مع ستالين ضد بوخارين ، اما الآن فكان بوخارين هو الذي يتوسل للمعارضة اليسارية كي تتحالف معه ضد ستالين ، مضطهد الطرفين وعدوهما المشترك . وحين كان بوخارين المرتعب يتمتم : «سوف يخنقنا . . . سوف يغتالنا» ، لم يكن في وسع تروتسكي الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بهذيان رجل تحت هاجس الارهاب ، فهو غالباً ما تكلم على المجزرة التي يعدها لأعضاء الحزب «حفار قبر الثورة» . وفي الحقيقة ان نداء بوخارين جاء متأخراً جداً ، بعد ان كان ساعد ستالين على سحق المعارضة وتدمير حرية الحزب . لكنه لم يكن الاول بين خصوم ستالين الذي تصرف بتلك الطريقة . فقبله فعل زينوفييف وكامينيف الشيء ذاته ، ومع ذلك لم يحل ذلك دون ان يضع تروتسكي يده بيد

---

(٥١) انظر مثلاً رسالة تروتسكي الى س . أ . في ٢٠ آب/اغسطس ١٩٢٩ .

كل منهما . هل كان عليه ان يرفض اليد التي يمدها اليه بوخارين ؟ اذا كان ستالين تبنى احدى نقاط برنامج المعارضة ، التوجه اليساري ، فبوخارين تبنى نقطة أخرى : فباسم الديمقراطية البروليتارية وجه نداءه الى المعارضة . كان تروتسكي في مأزق : فهو ما كان في وسعه ان يصمّ اذنيه ازاء نداء بوخارين دون ان يجحد احد مبادئه ، كما لم يكن بامكانه الاستجابة لذلك النداء دون العمل ـ أو الظهور كما لو كان يعمل ـ ضد مبدأ آخر باسمه كان تعهد بدعم التوجه اليساري .

للخروج من هذا المأزق ، اتخذ تروتسكي موقفاً اكثر تحفظاً تجاه التوجه اليساري الستاليني واصبح أقل توكيداً في اعلان دعم المعارضة له . ولقد كانت له اسبابه للتصرف على هذا المنوال ، بغض النظر عن عروض بوخارين . فمن كل اطراف الاتحاد السوفياتي ، كتب له اعضاء في المعارضة يروون له الارهاب الذي اشاعه ستالين في الارياف خلال الربيع وفي بداية الصيف ، و «فنون الشراسة» التي استخدمها ضد الفلاحين المتوسطين وحتى فقراء الفلاحين . اما الادارة فكانت تحاول القاء تبعة ذلك على التروتسكيين والزينوفييفيين الذين ضغطوا عليها ـ حسبما رُوي للناس ـ من اجل خوض النضال ضد الفلاحين . كل شيء كان يدعو للاعتقاد انه حتى لو استعاد ستالين التوجه اليساري فسوف يؤدي ذلك الى كارثة دموية . وقد رد تروتسكي سلفاً التهمة بالمسؤولية في هذا الصدد . ففي آب/اغسطس ١٩٢٨ ، قبل عام تقريباً من بدء «تصفية الكولاك» ، كتب تروتسكي لأنصاره انه إذا كانت المعارضة التزمت بدعم التوجه اليساري ، فهي لم تتخيل يوماً ان تعامل الفلاحين كما فعل ستالين . كانت قد طالبت برفع الضرائب على الاغنياء ، وبمساعدة حكومية للفلاحين الفقراء ، وبتدابير عادلة ومساواتية تجاه الفلاحين المتوسطين ، وبتشجيع الجماعية الطوعية ، لكنها لم تطالب ابداً بـ «توجه يساري يكون تجليه الاساسي الاستبداد الاداري والفظاظة» . من اجل الحكم على سياسة ستالين ، «من الضروري الا ننظر فقط الى ما يفعله بل كذلك الى كيف يفعل ما يفعله[٥٢]» . لم يكن تروتسكي يعني إطلاقاً انه ليس على المعارضة ان تدعم التوجه اليساري ، بل كان يشدد اكثر من اي وقت مضى على ان من واجبها الجمع بين الدعم والنقد الصارم . لقد وقف وقفة جازمة في وجه

---

(٥٢) انظر رسالة تروتسكي في ٣٠ آب الى بالاتنيكوف ، « استاذ احمر » واقتصادي منفي الى اكتيوبينسك . وفي رسالة الى راكوفسكي في ١٣ تموز ، كتب تروتسكي ان رادك وبريوبراجنسكي يتخيلان انه لما كان التكتل الستاليني تحول الى اليسار ، لم يعد له ألا «ذيل يميني» وينبغي اقناعه بالتخلص منه . وحتى لو كان صحيحاً، فذلك لن يفيد في شيء ـ قال تروتسكي ـ إذ: « إن قرداً من دون ذيل لم يصبح بعد كائناً بشرياً » . المحفوظات .

التوفيقيين الذين استعادوا شجاعتهم منذ ثبت لهم ان القطيعة بين ستالين وبوخارين لا رجعة فيها وعرفوا ان ستالين سيعود الى «الهجوم ضد الكولاك» . وقد رد ايحاءات كامينيف بازدراء ، وأعلن انه لن يفعل شيئاً لتسهيل عودته الى الحزب ولن يتوسل بصورة خاصة مضطهديه لاستدعائه الى موسكو . ان في وسعهم ان يفعلوا ذلك اذا أرادوا ، لكن حتى لو فعلوا ذلك لن يتوقف عن مهاجمتهم هم والمستسلمين لهم[٥٣] .

كان ذلك رد تروتسكي على اقتراحات كامينيف ، لكن كذلك على تملقات ستالين الغامضة والمشكوك بها . كل مصالحة بينهما كانت غير واردة . وعلى العكس ، فقد رد تروتسكي على نداء بوخارين بصورة اكثر ودية . وقد فعل ذلك في ١٢ أيلول/سبتمبر بواسطة رسالة سيارة بعنوان : «حديث صريح مع رجل حزبي حسن النية .» اما المناضل «حسن النية» فكان بوخارينياً كتب الى تروتسكي يسأله عن موقفه تجاه الجناح اليميني ، الذي اصبح آنذاك المعارضة اليمينية . اجابه تروتسكي ان الهوة بين المعارضتين بصدد المشكلات الكبرى للسياسة الاجتماعية والصناعية هي اعمق وأشمل مما في أي وقت مضى ، لكنه مع ذلك مستعد للتعاون مع اليمين ضمن هدف محدد ، هو اعادة الديمقراطية الى الحزب . فإذا كان ريكوف وبوخارين يقبلان بالتوحد مع اليسار من اجل الاعداد لمؤتمر للحزب منتخب بشرف وديمقراطي حقاً ، فهو لا يطلب شيئاً آخر للتفاهم معهما .

هذا الموقف اثار الدهشة وحتى الاستنكار في الجاليات التروتسكية . فالكثير من المنفيين ـ وليس التوفيقيون وحسب ـ احتجوا وذكّروا تروتسكي بما سبق ان قاله غالباً حول التحالفات بين اليمين واليسار ضد الوسط ، معتبراً اياها انتهازية ومؤذية ومسؤولة عن غرق اكثر من ثورة . الم يكن سر الترميدور الفرنسي بالضبط تحالفاً مشؤوماً بين اليمين اليعقوبي واليعاقبة اليساريين ضد الوسط المتمثل بروبسبيير؟ ألم يحدد سلوك المعارضة حتى ذلك الحين احتمال قيام تحالف مشروط مع الستالينيين ضد البوخارينيين ؟ لكن لم يكن العكس وارداً في يوم من الأيام ! واخيراً ألم يؤكد تروتسكي ذاته هذا المبدأ مجدداً قبل قليل ، حين اعلن للاممية الشيوعية ان المعارضة اليسارية لن تقوم بأي تحالف مع معارضي الستالينية اليمينيين ؟

وقد رد تروتسكي بأن العدو الرئيسي بالنسبة إليه لا يزال اليمين البو خاريني ، لا الوسط الستاليني . اما التحالف الذي عرضه على بوخازين فلا علاقة له بأي مشكلة

(٥٣) Pismo Druzyam ، ٢١ تشرين الاول / اكتوبر .

سياسية . لكن ليس ثمة من مبرر لعدم التحالف معه من اجل الهدف المحدد بوضوح ، هدف اعادة الحرية الى الحزب . إذا كان مستعداً لـ « التفاوض مع بوخارين ، فذلك بالطريقة نفسها التي يتفاوض بها رجل يتبارز مع خصمه ، بواسطة الشهود ، من اجل ضبط قواعد المعركة وانظمتها »(٥٤) . ما كان يمكن اليسار الا ان يريد مواصلة المساجلة مع اليمين وفقاً لقواعد الديمقراطية داخل الحزب . واذا كان ذلك ما يرغب فيه اليمين فطبيعي جداً أن يتحالف الاثنان لاعادة ارساء تلك القواعد وتأمين الغلبة لها .

لم يكن لتلك المحاجة غير تأثير طفيف على تلامذة تروتسكي . فلقد اعتادوا كثيراً على اعتبار تكتل بوخارين عدوهم الرئيسي بحيث لم يكن في وسعهم تصور تحالف معه مهما يكن شكله . كانوا قد هاجموا الستالينيين منذ زمن طويل ، وبحزم ، كالشركاء المنافقين لليمين . بحيث كانوا يرفضون الآن ، مستفظعين ، امكانية ان يظهروا بدورهم شركاء هذا اليمين بالذات . كما لم يكن في وسعهم القبول باعتبار التحالف مع بوخارين محض اتفاق تقني مشابه لذلك الذي يتم بين المتبارزين . اولاً لأنه كان في تلك المبارزة ، اذا صح القول ، ثلاثة خصوم ،ولأن اي اتفاق بين اثنين منهم موجه آلياً ضد الثالث . اضف الى ذلك ان الديمقراطية في الحزب هي مشكلة سياسية بامتياز ، لها انعكاساتها على كل المشكلات الأخرى . ان تحالفاًبين اليمين واليسار ، حتى لأجل هدف ملموس ومحدد ، لا بد أن يؤدي في حال نجاحه إلى اطاحة التكتل الستاليني ، في حين كان الأخير قد انخرط في سياسة يسارية .هذه السياسة ستتوقف اذاك فوراً ، وما يتبع يتوقف على النتيجة غير الاكيدة للصراع بين اليمين واليسار . فإذا انتصر اليمين ، سيعلن حتماً النيب الجديد التي كان خطرها هاجس التروتسكيين . فهل في وسعهم ان يركبوا ذلك الخطر ؟ هل من حقهم ، والبلاد على شفير الكارثة الاقتصادية والفلاحون في هياج شديد ، ان يعرضوا الحزب لتشنجات يمكن ان تطيح الستالينيين دون ان يكون البوخارينيون والتروتسكيون قادرين ، بالضرورة ، على ان يتخطوا خلافاتهم الديمقراطية ، ويحكموا معاً بكل بساطة ؟ يمكنهم هكذا ان يدمروا الحزب ، ولو لم يريدوا ذلك ، وان يتيحـوا للقوى المعادية للبلشفية ان تتحرك وتعمل . وهكذا تكون اجتمعت كل شروط الحالة الترميدورية الكلاسيكية ، لأن تحالفاً مماثلاً بين اليمين واليسار ، اللذين أرعبهما الارهاب ، هو بالضبط ما ادى الى سقوط روبسبيير . ألم يكن تروتسكي يلعب بالنار الترميدورية ،هوالذي أمضى كل وقته طوال السنوات الأخيرة يحذر الاخرين منها ؟

---

(٥٤) انظر Nazloby Dnya (دون تاريخ محدد) حيث يرد تروتسكي على الانتقادات . المحفوظات .

كان تروتسكي والمعارضة في مأزق . فاذا كان لا يزال لديهم حظ في البقاء ، فهو في تحالف عام لكل البلاشفة المعادين للستالينية . علماً أن لا شيء يجزم أن ذلك التحالف سينقذهم حقاً . كانوا محقين في تخوفهم من ان يؤدي الى دمار الحزب البلشفي . واذ تطلع تروتسكي وبوخارين الى التحالف فيما بينهما ، استجابة لفعل لا إرادي من أفعال الدفاع عن النفس ، لكن لا هذا ولا ذاك كان في وسعه ترك ذلك الفعل يتحكم بسلوكه اللاحق . كانت الكتلتان تهتمان بإنقاذ الحزب كما هو أكثر من اهتمامهما بإنقاذ نفسيهما ؛ او انهما لم تكونا تفهمان بوضوح مأزقهما الذي لا مخرج منه . وفي الظاهر أن بعض القادة كانوا واعين إياه . فالتقرير الذي وضعه كامينيف عن لقائه مع بوخارين يتضمن الكلمات المشؤومة التالية : « احياناً أقول لبافيم : أليس وضعنا ميؤوساً منه ؟ اذا تحطم بلدنا نتحطم معه ؛ واذا خرج سليماً وبدل ستالين توجهه السياسي ، سوف نتحطم ايضاً » . وقد قال رادك في رسالة لرفاقه إن الخيار المطروح عليهم ليس « إلا الخيار بين شكلين من الانتحار السياسي ، احدهما يتمثل بالطرد نهائياً من الحزب ، والآخر بالعودة اليه بعد جحد قناعاتنا »[٥٥].

لم يكن لعرض التحالف الذي قدمه بوخارين المذعور وجواب تروتسكي الاستفهامي أي تتمة . . فلم يكن في وسع البوخارينيين أن يردوا على اقتراح زعيمهم إلا بالطريقة التي رد بها التروتسكيون على جواب تروتسكي . فأعدى أعدائهم كانوا ، في نظرهم ، التروتسكيين والزينوفيفيين ـ ومأخذهم الأخير على ستالين هو انه اصبح عضواً سرياً تروتسكياً (أو كما قال بوخارين ، انه تبنى افكار بريوبراجنسكي[٥٦]) . كيف كان يمكنهم ، ضمن هكذا شروط، ان يتصوروا التعاون مع التروتسكيين ؟ كانوا يعرفون أن التروتسكيين والزينوفييفيين يؤيدون في الواقع التوجه اليساري ، ولا بد ان بوخارين ذاته فهم ذلك اثناء لقائه مع كامينيف . وحتى اذا كان التروتسكيون المنفيون خافوا من الضربة التي يمكن ان يوجهها للحزب تحالف اليمين واليسار ، يمكن أن يتخيل المرء بسهولة ان البوخارينيين كانوا يخشون ذلك اكثر بكثير ، هم الذين كانوا جزءاً من الجماعة الحاكمة أو ارتبطوا بها ، والذين لم يزالوا ضمنها . لقد ثبطت عزائمهم حين لمح ستالين الى انه قد

---

(٥٥) رسالة مؤرخة في ١٦ ايلول/سبتمبر ، المحفوظات .

(٥٦) الاستشهاد مأخوذ من Platforma Pravovo Kryla VKP (b) ، (٢٣ تشرين الاول ١٩٢٨) لسميلغا ، حيث يشرح الزامتكي ايكونوميستا لبوخارين ، التي ظهرت في البرافدا في ٣٠ ايلول . (كان ذلك العرض العلني الوحيد لاعتراضات بوخارين على التوجه اليساري) . وقد كتب سميلغا ايضاً كتاباً عن بوخارين والبوخارينية ، لكننا نجهل اذا كان أنهاه .

يتحالف مع تروتسكي اذا لم يتصرفوا كما يجب . وقد قرروا ألا يتمادوا في انتقاد ستالين . لم يحاولوا حتى ان يناضلوا علناً ضده كما سبق ان فعل التروتسكيون والزينوفييفيون ، أو حين ارادوا ذلك رأوا أنهم إذ حرموا المعارضة اليسارية من أي حرية تعبير ، حرموا نفسهم منها أيضاً . هكذا يفهم المرء لماذا لم يستطع بوخارين مواصلة محاولاته للتقارب ولا قبول العرض بـ « الاتفاق المحدود » الذي تضمنه جواب تروتسكي .

كل ذلك عزز وضع التوفيقيين التروتسكيين . فثلاثة بين قياديي المعارضة المنفيين الأكثر تأثيراً ، هم سميلغا وسيريبرياكوف وايفان سميرنوف ، اصطفوا الى جانب رادك وبريوبراجنسكي . قالوا إنه كان بديهياً ان ستالين لم يقل « كلمته الأخيرة » في تموز/يوليو ، حين اعطى انطباعاً بالخضوع للكولاك ، وان التوجه اليساري لم يتوقف . وقد اعترف تروتسكي ضمناً ان المعارضة اليسارية عاجزة عن الاستمرار في عزلتها وأن عليها ان تسعى وراء حلفاء . لكن حلفاءها الطبيعيين إنما كانوا الستالينيين لا البوخارينيين . وهذا يعني ان التوفيقيين راضون عن الطريقة التي كان يعامل بها ستالين المعارضة اليمينية . كتب سميلغا : « اليوم يضرب النظام بوخارين ، تماماً كما ضرب المعارضة اللينينية . . . (يجري الآن) خنق البوخارينيين دون علم الحزب والطبقة العاملة . » لكن « ليس هذا سبباً كي تعلن المعارضة اللينينية عن تضامنها السياسي مع اليمين » . كان شعارها لا يزال « إسقاط اليمين ! » هذا كان شعار تروتسكي خلال الصيف ، لكنه خففه في الخريف . اصبحت علاقاته بالتوفيقيين متوترة وغير ودية . وغدت صلاته ببريوبراجنسكي نادرة ، بينما صارت مراسلته مع رادك جافة ومتباعدة . وأدان رادك هجمات تروتسكي القاسية على زينوفييف وكامينيف والمستسلمين الاخرين . كتب رادك : « من المضحك إرجاع استسلامهم الى جبانتهم . يكفي أن نلاحظ ان الجماعات الواحدة بعد الأخرى ، تقف اليوم ضد الاستسلام وتستسلم في الغد ـ وان هذا حدث مراراً ـ لنفهم ان الامر يتعلق بصراع على المبادىء لا فقط بخوف من القمع[٥٧] . » لا شك ان المستسلمين كانوا ينتحرون سياسياً ، لكن الذين رفضوا الاستسلام كانوا يفعلون الشيء ذاته . كان الامل الوحيد هو في ان تبدد هزات جديدة داخل الحزب ، وتحوّلُ هذا الحزب الى اليسار ، الحيرة والتردد وتسمح للمعارضة بالعودة الى الحزب بكرامة .

في حين كان رادك يبرر اسباب زينوفييف وكامينيف ، اطلق في التداول بين اصدقائه

---

(٥٧) انظر رسالة رادك السيارة الى الرفاق في ١٦ ايلول/سبتمبر .

دراسة ضخمة دحض فيها النظرية التروتسكية حول الثورة الدائمة(٥٨) . لكنه لم يرسلها الى تروتسكي الذي لم تصله الا بصورة غير مباشرة ، من موسكو . رداً عليها ، نصح تروتسكي المؤلف ساخراً بأن يرجع الى المؤلفات التي كان كتبها رادك ذاته من قبل دفاعاً عن التروتسكية ، مضيفاً أنه يجد فيها افضل دحض لاطروحاته الجديدة(٥٩) . لم يكن تروتسكي بدأ يشتبه بنية رادك في الاستسلام . كان يثق بدعابته وبروحه الاوروبية ـ الماركسية التي اعتقد انها ستمنعه من السقوط في الطقس البيزنطي الخاص بالارتداد . ولما كان تروتسكي لا يزال على مودته وتقديره للرجل فقد عزا سلوكه لـ « سوداويته » واستمر يدافع عنه ، كما عن بريوبراجنسكي ضد شكوك المتصلبين الشباب »(٦٠) .

رغم كل شيء ، كان تروتسكي لا يزال الزعيم الذي لا جدال فيه ، سواء بالنسبة للتوفيقيين او بالنسبة للمعاندين . تعبر عن عواطفهم تجاه تروتسكي تعبيراً تاماً رسالة كتبها رادك بالذات في تشرين الأول/ اوكتوبر الى اللجنة المركزية ، محتجاً على تفاقم وضع تروتسكي الصحي ، هذا الأمر الذي اثار سخط المنفيين الى حد بعيد :

« إن مرض تروتسكي جعل صبرنا ينفد . لا يمكننا ان نبقى صامتين في حين تهدم الملاريا ذلك الذي كان طيلة حياته مكافحاً في خدمة الطبقة العاملة ، ذلك الذي كان سيف ثورة اوكتوبر .»

إذا كان الانشغال بالمصالح التكتلية أطفأ فيكم كل ذكريات النضالات التي خيضت معا من اجل الثورة ، فلندع الكلام للعقل والوقائع . إن الأخطار التي تسعى الجمهورية السوفياتية لإبعادها تتراكم . . . وفقط اولئك الذين لا يفهمون ما ينبغي عمله لمواجهة تلك الاخطار سيعرفون ، وهم غير مبالين ، ان هذا المناضل الرفيق تروتسكي ، يموت ببطء . لكن كل من هنالك بينكم ـ وهم عديدون ـ ممن يرعبهم التفكير بما سيحمله الغد الآتي . . . لا شك سيقولون : فلنتوقف عن هذا اللعب غير الانساني بصحة الرفيق تروتسكي وحياته(٦١) .

---

(٥٨) ان نص المؤلف Razvitie i Znachenie lozunga Proletarskoi Diktatury (لم يصدر الى الآن) موجود في المحفوظات . رداً عليه ، كتب تروتسكي الثورة الدائمة ، وهو الدفاع التاريخي والنظري الاكمل عن اطروحته .

(٥٩) انظر رسالة تروتسكي الى رادك في ٢٠ تشرين الاول/اكتوبر ، المحفوظات .

(٦٠) بعد اشهر طويلة ، في نهاية ايار/مايو ١٩٢٩ ، تلقى تروتسكي في برنكيبو الانباء الاولى عن استسلام رادك بالكثير من الشك وكتب : « وراء رادك ربع قرن من العمل الثوري الماركسي . . . من المشكوك به ان يكون قادراً على الالتحاق بالستالينيين . في كل حال ، لن يتمكن من الاستمرار معهم . فهو قبل كل شيء ماركسي الى ابعد الحدود واممي ايضاً » . المحفوظات .

٦١ ـ مقتطف من المناضل في اول كانون الثاني/يناير ١٩٢٩ .

منذ الصيف ، كانت صحة تروتسكي تفاقمت بشكل خطير ، فلقد عاودته الملاريا ، وكان يعاني من اوجاع قاسية في الرأس ، ومن اصابة مَعِدية مزمنة سوف تظل تضايقه حتى نهاية حياته . وقد تلقى من المنفيين ، منذ عرف هؤلاء بوضعه الصحي ، طوفاناً من الرسائل وبرقيات التعاطف معه والاحتجاج ضد موسكو . وبعض المنفيين الذين ارادوا القيام بعمل اكثر حزماً لصالح تروتسكي ،عزموا بدء اضراب جماعي عن الطعام . وقد وجد تروتسكي صعوبة في ثنيهم عن ذلك القرار اليائس . كتب رسالة الى المنفيين قال لهم فيها انه لا مجال للقلق كثيراً بصدد صحته لأنها ليست رديئة لدرجة منعه من العمل . كان من المفضل ضمان انتشار اكبر للاحتجاجات التي عبرت عنها المعارضة حتى ذلك الحين ، لكنه من التهور بمكان اللجوء لعمل عنيف لن تكون له غير نتيجة واحدة هي مفاقمة وضع اولئك الذين يخوضونه[٦٢] .

مع تقدم الخريف ، بدأت تتلبد غيوم فوق رأس تروتسكي . ففي تشرين الاول/اوكتوبر لم تعد تصله رسائل اصدقائه وانصاره ؛ لم تعد تصله غير الرسائل الواردة من اناس مستعدين للتخلي عن المعارضة ، فلقد كانت الرقابة انتقائية . ولم تعد تصل رسائله وتعليماته الى المرسلة اليهم . حتى انه لم يتمكن من الحصول على جواب البرقيات التي كان يطلب فيها معلومات عن صحة زينا التي ظلت تشغل باله . وهو أمضى الأيام المتوافقة مع ذكرى الثورة في الوحدة والخشية ؛ لم يتلق ايا من رسائل التهنئة المعتادة . ثم تضاعفت النُذُر السيئة . فأحد الموظفين المحليين ، وكان متعاطفاً سراً مع المعارضة ، وبقي على اتصال بتروتسكي ، سجن فجأة . وأحد المعارضين الذي اتى من موسكو ووجد عمل سائق في ألما ـ آتا حيث كان على الارجح يشغّل البريد السري ، بين موسكو وألما ـ آتا ، اختفى في احد الايام دون أن يترك أثراً . اما عائلة تروتسكي فكانت قد غادرت الداتشا ، والجنينة ومساكب الزهور ، للغوص مجدداً في الكآبة الرهيبة للمدينة الصغيرة . كتبت سيدوفا لأحد الاصدقاء :« منذ نهاية تشرين الاول/اوكتوبر ، لم نتلق اي رسالة من جماعتنا . اما برقياتنا فتبقى دون جواب . إنه حصار بريدي حقيقي . وبالطبع ، لن تتوقف الامور عند هذا الحد ، بل ستتفاقم ، ونحن نتوقع ذلك . . . الطقس هنا جليدي ، والبرد في غرفنا احتضار حقيقي . فالبيوت لم تُبْنَ للطقس البارد ، وسعر الخشب جنوني . »

---

٦٢ ـ هوذا مثلاً نص برقية الى منفيي بينيسيسك ، في ١٤ تشرين الاول ١٩٢٨ : « اعارض بحزم اشكال الاحتجاج التي تتصورون . . . مرضي لا ينطوي على خطر فوري . الرجاء الالتزام بخط مشترك(من السلوك) . تحياتي الاخوية . تروتسكي . »المحفوظات .

وفي الاخير ، بلغته اشاعات من عدة جهات بأنه سيغادر الما ـ آتا قريباً ويجري نقله الى منفى أبعد حيث سيخضع لعزلة اكثر صرامة بكثير . وقد رفض تصديق ذلك في البدء ، فكتب الى إلزين في ٢ تشرين الأول/اوكتوبر : « لا اعتقد ان ذلك سيحدث . فالى اي زاوية من العالم يمكن ان يرسلوا بي ؟ » كان يعد نفسه لقضاء شتاء من العمل الكثيف في الما ـ آتا : ابحاث ، واعمال ادبية ، وبالطبع رحلات صيد في الجهات البرية المحيطة . لكن الاشاعات لم تتوقف ، وكان الحصارالبريدي وتدابير اخرى تدل على ان شيئاً أسوأ سيحدث .

كان ذلك خريفاً غريباً . ففي ذكرى الثورة كانت الشعارات الرسمية التي تعالت من الافواه في الساحة الحمراء بموسكو : «الخطر يأتي من اليمين» ، «الحرب على الكولاك» «الى الخارج يا رجال النيب » «فلنسرّع التصنيع» . وقد تجاوب صدى تلك الشعارات في كل البلاد ، حتى في المناطق الاكثر بعداً لا بل وصولاً الى الما ـ أتا . منذ كم من الزمن وتروتسكي يسعى لإقناع الحزب بتبني هذه السياسة ! في السنة الماضية بالذات ، وفي الذكرى ذاتها ، كان انصاره طافوا شوارع موسكو ولينينغراد بهذه الشعارات مكتوبة على راياتهم . ولقد تم تشتيتهم ، واسيئت معاملتهم ، وجرى اتهامهم بانهم مضادون للثورة . ألم يكن ذلك أروع انتقام للمعارضة ان ترى الجماعة الحاكمة مجبرة على تبني افكارها ! إن أي شخص يهتم قليلاً بالامور العامة ما كان يمكن الا ان يلاحظ ذلك . فالهجمات على تروتسكي «السوبر ـ مُصَنِّع» ، و«عدو الموجيك» ، كانت لا تزال في كل ذاكرة . ان انعدام الشرف في تلك الهجمات والنفاق الذي كانت تنطوي عليه كانا ظاهرين الآن في وضح النهار ومدويين في وجه الشمس . الكثير من البلاشفة احسوا بالذهول : اليس ستالين هو الذي اصبح الآن السوبر ـ مُصنِّع وعدو الفلاحين ؟ ومع ذلك ، ففي ذلك العام ، مثلما في العالم الذي سبق ، شارك الملايين من المواطنين الروس في الاستعراضات الرسمية ، وساروا على الطرقات التي اختارتها لهم الحكومة ، وهتفوا بالشعارات التي اختارتها الحكومة ، كما لو ان شيئاً غير عادي لم يحدث ، وكما لو كانوا أناساً آليين عاجزين عن التفكير والتأمل والتصرف .

لقد سمحت البلادة الشعبية لستالين بأن يسرق ثياب تروتسكي دون عقاب . وكان تروتسكي يعزي نفسه بالقول ان ستالين سيعجز عن ارتدائها لأنها لن تناسبه . كان لا يزال يعتقد أنه مع تفاقم الأزمة القومية ستبقى الكتلة الستالينية وحيدة في الساحة وتتخطاها ضخامة الصعوبات . ولقد تفاقمت الأزمة بالفعل . فإزاء واقع الارياف المتمردة ، والمدن

المهددة بخطر الجوع ، كانت البلاد تعيش حالة توتر لا تحتمل . كانت ثمة حالة عصبية محمومة في الاجواء وشعور بالخطر والذعر . اما جهاز الحزب فكان يجمع كل قواه ويطلب الى الجميع ان يكونوا مستعدين لمواجهة الكارثة ، دون ان يحدد في كل حال ماذا ستكون . لكن لم تكن هنالك أدنى رغبة ، كما يبدو ، لاستدعاء المعارضين .

حوالى نهاية العام ، كان موقف ستالين أقوى بكثير مما في الصيف . لم يعد يخاف كثيراً ان يناضل ضد المعارضتين في آن معاً . فاليمين المقموع ، والمحبط ، كان قد بدأ يستسلم ؛ واليسار الذي تمزقه خلافاته بدا مشلولاً . كان ستالين يراقب الخلافات بين تروتسكي ، ورادك ، وبريوبرا جنسكي ، والمعاندين والديسيميين ، وقد استنتج ان الوقت يعمل لصالحه . كان لا يزال في طور التمهيدات لحملته الكبرى من اجل التصنيع والجماعية ، وكان التروتسكيون التوفيقيون بدأوا يعتبرون ان عليهم الا يكونوا خارج ما يجري . ما كان يصعب على المرء ان يتخيل ما هم فاعلون حين تنتهي التمهيدات ويأتي طور الانجازات الملموسة . طبعاً لم يكن التوفيقيون قد اصبحوا على استعداد للاستسلام ، لكنهم كانوا يسيرون في هذا الاتجاه بثبات ، ولم يكن ينقصهم بعد غير الوقت وبعض التشجيع . وقد شجعهم ستالين بواسطة عملائه بكل الوسائل التي كانت في حوزته : تذرع بالمصلحة العليا للثورة ، وناشد الاخلاص البلشفي ،متناوبا بين اللطف والتهديد ، كما عزز نظام الارهاب ضد التروتسكيين المتصلبين والديسيميين[٦٣] . هكذا كان يعول على ان يضع المعارضة « في جيبه » ، كما كان ادعى مبكراً . كان بحاجة ، في الواقع ، الى مساعدة اليسار من اجل تطبيق سياسته الجديدة . لكنه كان يفضل ان يحصل على تلك المساعدة بتمزيق ذلك اليسار لا بالتحالف معه ، وبتدجين جزء منه وجعله ينقلب ضد تروتسكي . كان يأمل أن ينزل به هزيمة أقسى بما لا يقاس من كل الهزائم التي انزلها به حتى ذلك الحين .

لكن رغم كل المقدرة التي تمتع بها ستالين ، ما كان في وسعه التأكد من النجاح في ما كان بدأه . كان على وشك الانطلاق في عمل جبار ، لم يتصور مثيلاً له قائد دولة في يوم من الايام : كان سيصادر دفعة واحدة املاك عشرين مليون فلاح ويجبرهم ، هم وعائلاتهم ، على تشكيل مزارع جماعية ، كما كان سيخرط روسيا المدينية في تصنيع مجنون ستتكرر فيه كل

---

٦٣ ـ في الخريف ، تعززت الرقابة البوليسية على المنفيين ، وسجن الكثيرون منهم . القي ب ـ ـ ف . سميرنوف في السجن لانه حضر متأخراً خمس دقائق الى المكتب المحلي للغيبيو بمعرض تدقيق معتاد . ومات بوتوف ، احد سكريتيري تروتسكي ، في السجن بعد اضراب عن الطعام لمدة خمسين يوماً .

قساوات التراكم البدائي الرأسمالي لكن بدرجة اوسع وفي مهلة اقصر بكثير . ما كان في وسعه ان يعرف كيف سيكون رد الفعل في البلاد ، ولا ما يمكن ان تولد تلك الخضّات من يأس وجنون وعنف وتمرد ، ولا الى اي من الاعمال المتطرفة يمكن ان ينجر هو بالذات ، اي ستالين ، ولا إذا كان خصومه سيحاولون الاستفادة من الفرصة المتاحة لاعادة تثبيت اقدامهم . إذا فعلوا ذلك ، لا بد أن يختاروا تروتسكي قائداً لهم ويعهدوا اليه بإدارة الامور . فحتى من ألما ـ آتا ، كانت افكار تروتسكي وشخصيته ، المحاطة بهالات النفوذ الذي يحوزه الأبطال الشهداء ، تخلب لب النخبة البلشفية . ورغم احباط جاليات المنفيين وارتباكهم ، كان تروتسكي يكسب انصاراً جدداً في خلايا الحزب . كانت الغيبيو تصادف منهم الكثيرين بحيث ما اقتربت نهاية عام ١٩٢٨ حتى كان ما بين ستة آلاف وثمانية آلاف معارض يساري يتم توقيفهم وينفون ، بينما كان قد جرى في بداية العام تقدير عدد التروتسكيين والزينوفييفيين مجتمعين باربعة آلاف او بخمسة آلاف فقط . لم يكن كامينيف وحده هو الذي اعتقد انه في حالة الطوارىء قد يبادر الحزب إلى « إرسال قطار خاص » يرجع فيه تروتسكي . كان هنالك بين المستسلمين ، وحتى بين الستالينيين من يطرح الكثير من الاسئلة ، ويحاصره الشك . بعض الستالينيين كانوا حتى يتساءلون إذا لم يكن تروتسكي على حق منذ البدء ، طالما التوجه اليساري سليم وضروري . وكانت الافتراآت والفظاظات بحقه تثير اشمئزازهم . وكان ستالين يعرف انه مقابل كل واحد من الستة آلاف او الثمانية آلاف معارض الذين اختاروا السجن أو المنفى بدل التراجع عن افكارهم ، كان هنالك واحد او اثنان من المستسلمين يؤيدان في اعماقهما رفاقهما الاكثر تصلباً ، وواحد أو اثنان من المتشككين او « التوفيقيين » dvurushniki او ذوي الوجهين كما كان يسميهم) في تكتله الخاص به . هؤلاء كانوا ينقادون الآن ، لكن ألن ينقلبوا ضده حين تنقلب وجهة الرياح ؟

كما ان ستالين ما كان في وسعه الاستخفاف بخطر تحالف بين تروتسكي وبوخارين . لقد بقي في هذه المرة مجرد مشروع ، لكنه سيظل كسيف ديمقليس طالما تروتسكي هو القائد غير المنازع للمعارضة اليسارية ويمكن ان تتم إعادته من آلما ـ آتا « في قطار خاص » . لذا ضاعف ستالين جهوده لتحطيم روح المعارضة . استخدم عملاؤه كل ما لديهم من إغراآت ومن مداعبة للآمال لدى رادك وبريوبرا جنسكي واصدقائهما ، واعدين إياهم باعادة الاعتبار ، ومتذرعين بالاهداف المشتركة ، ومتكلمين على العمل العظيم والمثمر والشريف الذي لا يزال يمكنهم ان يقوموا به لصالح الحزب والاشتراكية . لكن كل تلك الكلمات المعسولة كانت تصطدم بحاجز مخيف : النفوذ الذي كان تروتسكي يمارسه من

ألما ـ آتا والذي حال حتى ذلك الحين دون تفكك المعارضة . وقد قرر ستالين ان يزيل هذا الحاجز من طريقه .

لكن ما العمل ؟ كان ستالين لا يزال ينفرمن الاغتيال ، ولم يكن يجرؤ على سجن عدوه . فالعار سيكون ثقيلاً للغاية ، لأنه رغم كل ما حدث حتى ذلك الحين ، فإن ذكرى الدور الذي لعبه تروتسكي في الثورة كانت لاتزال حية جداً في كل ذاكرة : لكل ذلك قرر ستالين طرد تروتسكي خارج البلاد . كان يعرف انه حتى ذلك التدبير قد يسبب صدمة كبرى ، لذا هيأ الرأي العام لتقبله ، بصورة منهجية . بدأ باشاعة أنباء تقول ان تروتسكي سيطردقريباً من البلاد ، ثم أوعز بتكذيب تلك الاشاعات رسمياً ، ليعود فينشرها من جديد بعد قليل . وهكذا نجح في تبليد حساسية الرأي العام . فالاشاعات ، تليها التكذيبات ، فالاشاعات الجديدة ، جعلت من طرد تروتسكي خارج الاتحادالسوفياتي مسألة مألوفة ، بالتدريج ، وبالتالي أقل صدماً . عند ذلك ، اصبح في وسع ستالين ان ينتقل بمشاريعه الى حيز التنفيذ .

* * *

وسط كل الشكوك حول المستقبل الخاص بتروتسكي ، طرح الرجل مرة اخرى السؤال الكبير والصعب : « إلى اين تمضي الثورة ؟ » كان الاتحاد السوفياتي الآن في الضباب الذي يفصل عهدين ، عهد النيب وعهد « الثورة الثانية » الستالينية[٦٤] . كان وجه المستقبل القريب لا يزال غامضاً ؛ وفي افضل الاحوال كان يمكن ان يحزر المرء ملامحه ، اكثر مما يمكنه ان يراها . كان تروتسكي بدأ يلاحظ ان بعض الاطروحات التي عرضها في السنوات السابقة قد تخطتها الاحداث او قد تتخطاها قريباً ، فحاول تخطيها بنفسه ، لكن سطوتها عليه كانت لا تزال قوية . اراد أن يحلل آفاق المستقبل الجديدة ، لكن عاداته الفكرية التي اكتسبها خلال النيب وكيّفها مع حقائق النيب ، بالاضافة الى ذكرياته عن تاريخ الثورة الفرنسية نزلت بثقلها الشديد ، بالغ الشدة ، على تحليله .

فهم مثلاً ان تصوره للترميدور السوفياتي اصبح غير مقبول . كان من العبث الآن الزعم ان بوخارين وريكوف لا يزالان المدافعين عن الملكية الخاصة ، وان ستالين

---

٦٤ ـ استعملت للمرة الاولى تعبيرا الثورة الثانية » في السيرة التي وضعتها حول ستالين . وغالباً ما أخذ علي ذلك . قيل لي إن الجماعية والتصنيع لايعاد لان ثورة . لكن إذا لم يكن قلب لعلاقات الملكية ، ناتج عن النزع الفظ لملكية ٢٠ مليوناً من صغار المستثمرين ثورة اقتصادية واجتماعية ، فماذا عسانا نسميه ؟

رفيقهما المساعد فاقد الارادة ، وانهما سيكونان المستفيدين اقصى الاستفادة من سياسته . لذا تخلى تروتسكي عملياً عن اطروحته حول الترميدور السوفياتي[٦٥] . ففي «رسالة الى الأصدقاء»[٦٦] ، تعود الى تشرين الأول / اكتوبر ١٩٢٨ ، وتشكل احدى الع دراساته للفترة التي قضاها في الما ـ آتا (مع انها كتبت باللغة المميَّزة للمعارضة) ، أوضح ان بوخارين والبوخارينيين هم ترميدوريون فاشلون Manqués(*) لم يجرؤوا على العمل وفقاً لقناعاتهم . هوذا الوصف الساخر والممتلىء حيوية الذي كتبه حول سلوكهم : « ذهب بوخارين ابعد من أيٍّ من قادة اليمين (في الدفاع عن مصالح الكولاك ورجل النيب) ، اما ريكوف وتومسكي فتطلعا اليه وهو يعمل ، لكن من مسافة مأمونة . في كل مرة خطا فيها بوخارين في الماء البارد (الخاص بالترميدور) ، ارتعش وارتعد وقفز خارجه . أما تومسكي وريكوف فهرعا الى الغابة يحتميان » . وهذا هو السبب في ان الكولاك ، ورجل النيب ، والبيروقراطي الرجعي ، الذين خيب آمالهم قادة اليمين البلشفي ، يخضعون لاغراء البحث في مكان آخر عن قادة حقيقيين ، لا سيما في الجيش . واذا كانت ذكريات الثورة الفرنسية لا تزال تسيطر على تفكير تروتسكي ، راح يتكلم آنذاك على « خطر بونابرتي » وشيك ، عانياً بذلك أن الثورة الروسية يمكن أن تقفز على الترميدور وتنتقل مباشرة من الطور البلشفي الى الطور البونابرتي .

وتابع تروتسكي يقول ان الخطر البونابرتي يمكن أن يتخذ شكلين مختلفين ، اما شكل انقلاب عسكري كلاسيكي ، انقلاب ١٨ برومير روسي ، أو شكل ديكتاتورية شخصية لستالين . وكان يرجح أن الجيش ، المستند الى الفلاحين المالكين والحاظي بدعمهم ، هو الذي قد يحاول قلب حكم ستالين ودفن كل النظام البلشفي . اما من هو القائد العسكري الذي قد يقود الحركة ، فتلك كانت مسألة ثانوية بالنسبة لتروتسكي ؛ ففي ظروف ملائمة ، حتى أشخاص ذوو مقدرة ضئيلة كفوروشيلوف أو بوديني يمكن ان يأخذوا المبادرة وينجحوا . (أورد تروتسكي مثلا مفضلاً لدى ستالين : Iz Griazi delayout Kuyazia ، ويمكن ترجمته كالتالي : يمكن صنع أمير من مجرد قذارة) . فالشروط الملائمة لقيام انقلاب كانت متوفرة : الفلاحون يضمرون الكراهية الشديدة للحزب الذي يقوده ستالين ،

٦٥ ـ استعادها مع ذلك ودافع عنها خلال وجوده في المنفى بتركيا ، لكنه «اعاد النظر» فيها بعد سنوات .
٦٦ ـ Pismo Druzya ، ٢١ تشرين الاول/اوكتوبر ، المحفوظات .
(*) بالفرنسية في الاصل (م) .

والطبقة العاملة مستاءة ومتبلدة . ان ديكتاتورية عسكرية محتملة سيكون لها بالتالي قاعدة واسعة ، وستكون مضادة للثورة بطبيعتها كما بأعمالها . ستسعى لضمان الأمن والاستقرار للقطاع الخاص في الاقتصاد ، ولتأمين التوسع له ؛ وهي ستضعف القطاع الاشتراكي أو تشله . وفي الأخير ، قد تنتهي الى اعادة الرأسمالية . وخلص تروتسكي الى القول إنه إزاء خطر كهذا على جميع البلاشفة الحقيقيين ان يتوحدوا للدفاع عن الاشتراكية ، وسيكون من واجب المعارضة التعاون مع ستالين وتكتله ، لأن ستالين ليس الناطق بلسان الملايين ، بل بلسان « محدثي النعمة » في البروليتاريا ، ولأنه حرص حتى ذلك الحين على ان لا يقطع بشكل مكشوف مع الطبقة العاملة .

كان ممكناً أيضاً أن يصبح ستالين ذاته البونابرت السوفياتي . وينتج عن ذلك وضع مختلف تماماً بالنسبة للبلاد والمعارضة . فستالين لا يستطيع ممارسة ديكتاتوريته الشخصية الا بواسطة الحزب ، لا بواسطة الجيش . لن يكون إذاً لديكتاتوريته النتائج المضادة للثورة التي تتبع انقلاباً عسكرياً . لكن قاعدته الاجتماعية ستكون ضيقة جداً ، وسيفتقر النظام الى الصلابة والاستقرار الى ابعد الحدود . وسيجد ستالين نفسه في نزاع دائم مع كل طبقات المجتمع : فيحاول ان يقمع حيناً هذه الطبقة ، وطوراً تلك ، مستخدماً هذه ضد الأخرى ، والعكس بالعكس ، حسب الظروف . سيكون عليه ان يصارع باستمرار ليحتفظ تحت سيطرته بجهاز الحزب وببيروقراطية الدولة وبالجيش ، وسيكون عليه ان يحكم في الخوف والحذر المتواصلين واللذين لا علاج لهما . وهو سيقمع كل نشاط سياسي واجتماعي عفوي ويلغي كل حرية تعبير . ضمن هكذا شروط ، لن يعود هناك مجال لـ «جبهة موحدة » تضم المعارضة اليسارية والستالينيين ؛ ولن يكون بينهما غير الصراع من دون صلح ممكن .

ضمن هذا السياق ، حلل تروتسكي باختصار ، لكن ببعد نظر عظيم ، الارضية الاجتماعية الخاصة بالديكتاتورية الستالينية ، وآلياتها وشكلها وأسلوبها ، كما ستتطور خلال العشرين سنة اللاحقة . رسم سلفاً صورة الامين العام الذي اصبح النموذج المكتمل للديكتاتور التوتاليتاري . لكن بعد أن فعل كل ذلك ، تأمل لوحته ببعض التشكك : كان يعتقد رغم كل شيء ان خطر الديكتاتورية العسكرية اكثر واقعية . كان يرى اكثر ترجيحاً بكثير احتمال ان يعمد فوروشيلوف او بوديني او جنرال آخر الى تنظيم تمرد الجيش ضد ستالين وان يقاتل التروتسكيون والستالينيون عندئذ « في الجهة ذاتها من المتراس » . وقد اضاف انه على مستوى التاريخ ، يمكن ان تكون قليلة الاهمية معرفة مَنْ بين الاثنين ، ستالين او فوروشيلوف ، هو الذي « سيمتطي الحصان الابيض » ، ومن منهما

سيجري سحقه . لكن على المدى القصير ، كان الفرق مهماً لأن الامر يتعلق باختلاف بين انتصار واضح ومباشر للقوى المعادية للاشتراكية(في حالة ديكتاتورية عسكرية) ، وتطور في النظام اكثر تعقيداً بكثير ، واقل وضوحاً بكثير ، وأبطأ بكثير (في حالة ديكتاتورية ستالينية) . وكان تروتسكي يعتقد انه على المدى الطويل ، قد تعني ديكتاتورية ستالين دمار الاشتراكية ، لان الطريق الستاليني قد يؤدي هو ايضاً إلى انتصار الكولاك والنيبمان . « إن فيلم الثورة يدور في الاتجاه المعاكس وينتهي فيه دور ستالين حيث بدأ كيرنسكي . فالكيرنسكية تلخص الانتقال من الرأسمالية الى البلشفية ، بينما يمكن الستالينية الظافرة ان تمثل العودة من البلشفية الى الرأسمالية » .

قد يكون من السهل جداً ، في عودة بالنظر الى الوراء ، أن يبين المرء الاخطاء التي ينطوي عليها هذا التحليل ، لكنه أسهل ايضاً بكثير ألا يلاحظ المرء الجوهر الحقيقي الذي ينطوي عليه . فأن نتخيل فوروشيلوف او بوديني كبونابرت ، ذلك أمر شبه عبثي . فمن هذه « القذارة » لايمكن صنع اي أمير . لكن بما ان تروتسكي كان يكتب تحليلاً سياسياً ، كان عليه ان لا ينظر فقط الى الحقائق الحالية في الوضع ، بل كذلك الى احتمالات التطور التي ينطوي عليها . والانقلاب العسكري كان حقاً احد المصائر الممكنة للوضع . هذا الممكن لم يتحقق ، على الاقل خلال الثلاثين سنة اللاحقة ، لكن خطر انقلاب عسكري لم ينفك هاجس ستالين وخلفائه : تشهد على ذلك النزاعات بين ستالين وتوخاتشيفسكي وجنرالات آخرين عام ١٩٣٧ ، ومع جوكوف عام ١٩٤٦ ، والنزاع بين خروتشوف وجوكوف ذاته عام ١٩٥٧ . لقد وضع تروتسكي إصبعه على ثابتة من ثوابت السياسة السوفياتية ، لكنه بالغ في الظاهر بتقدير اهميتها . كما بالغ في تقدير قوة الدفع الاجتماعي الذي ترى النظرية الماركسية أنه في اصل تلك الثابتة : ارادة الفلاحين الدفاع عن الملكية ، والقدرة التي يمتلكونها للقيام بذلك ، وقدرتهم على ان يفرضوا انفسهم ، بواسطة الجيش ، على ابناء المدن . ان تروتسكي بالذات كان قد كتب عام ١٩٠٦ ان « تاريخ الرأسمالية هو تاريخ إخضاع الارياف للمدن » ، وضمن هذا المنظور حلل بلادة الفلاحين الروس وعجزهم السياسي في ظل النظام القديم[٦٧] . هذا الخضوع من جانب الارياف للمدن يميز بالاحرى تاريخ الاتحاد السوفياتي . كان ستالين يعد نفسه بالضبط لتحريك المطارق الآلية التي كانت على وشك الانقضاض على الملكية الخاصة الفلاحية وسحق الفلاحين . لكن تلك المطارق لم تمنع مع ذلك الفلاحين من مقاومة الجماعية ؛ اما نتيجة تلك المقاومة

---

٦٧ - النبي المسلح ، ص ١٥٦ .

غير المنظمة ، والمشتتة في الزمان كما في المكان ، فكانت جعل المزارع الجماعيـة فاقدة الفعالية ومتأخرة بلا انقطاع ، لكنها لم تستطع ان تتجسد وتلد حركة سياسيته حقيقية وعلى المستوى القومـي . وعلينا ان نبحث في هزيمة الفلاحين المتعلقين بالملكية عن اخفاقات المرشحين في الجيش لمنصب بونابرت سوفياتي .

لم يكن عجز الفلاحين وصمتهم غير عنصر في البلادة السياسية للمجتمع ما بعد الثوري بمجمله . والبلادة العامة هي التي كانت تجعل البيروقراطية الحكومية تبذل نشاطاً خارقاً وتبدو كلية القدرة . ولقد لامس تروتسكي مراراً هذا المعطى من معطيات الوضع ، وباستمرار كان يبتعد عنه ذهنه الثاقب . وقد اعطت كروبسكايا مرة ملاحظة ، يرجح ان تكون استعارتها من لينين ، تقول إن تروتسكي كان يميل الى بخس تقدير بلادة الجماهير(٦٨) . كان تروتسكي يبدو بذلك مخلصاً لنفسه ولروحه الثورية . فالثوري يجد نفسه حين يتحرك المجتمع ويفعل ، حين يطلق كل طاقاته ، وحين تدافع كل الطبقات الاجتماعية عن مصالحها وتسعى لتحقيق تطلعاتها بأقصى حد من الحيوية والحركة . عند ذلك تكون حساسية الثوري كأدق ما تكون ، ويكون ذكاؤه اكثر ما يكون ثاقباً ، وعينه أسرع وأمضى . لكن ما أن يغرق المجتمع في خدره وتسقط شتى طبقاته الاجتماعية في نوع من الاغماء ، حتى يفقد المنظّر الثوري الكبير ، اكان يدعى تروتسكي او حتى ماركس ، شيئاً من بعد نظره ومن قوته الفكرية . فالمناخ الاجتماعي غريب تماماً عنه حينذاك ، ولا يتوصل عقله للتكيف معه . هكذا نفسـر أخطاء تروتسكي في التقدير . فحتى حين بذل اكبر الجهد ليأخذ بالحسبان تعب الجماهير بعد الثورة ، كان لا يزال يستحيل عملياً بالنسبة اليه ان يقدّر كل عمقه . فلأنه تقدم على الواقع الراهن ، ظل يتصدر الجماعات والطبقات ـ الكولاك ، العمال ، القادة العسكريين ، الكتل البلشفية ـ كما لو كانت تنشط وتتحرك ، واثقة من ذاتها وتغلي بالحياة ، مستعدة للهجوم بعضها على البعض الآخر لخوض معارك جبارة . كان فكره مرتبكاً لدى مرأى جبابرة ناعسين ومخدرين تتمكن بيروقراطية من ان توقف ايديهم وأرجلهم وتشلّهم .

لأنه ، في التحليل الأخير ، يماثل السيرورة الثورية مع الوعي الاجتماعي ونشاط الجماهير الكادحة ، دفعه الغياب البديهي لذينك الوعي والنشاط إلى استنتاج انه مع الستالينية الظافرة ، « كان فيلم الثورة يدور بالمعكوس » ، وان ستالين كان يلعب فيه دور

---

٦٨ ـ ن . كروبسكايا : K . Voprosuob Urokakh Oktyabrya Za Leninism ، ص ١٥٥ .

كيرنسكي بالمعكوس . هنا أيضاً كان الخطأ بيّناً ، لكن علينا ان لا نتجاهل الجوهر الحقيقي الذي ينطوي عليه . لم يكن الفيلم يدور كما توقع رواد الثورة وصانعوها ؛ كان يدور بصوةر مغايرة جزئيا لكن ليس بالمعكوس ولم يكن ستالين كيرنسكي بالمعكوس . كان الفيلم لا يزال يدور ، لكن ربما كان لا يزال مبكراً جداً اصدار حكم نهائي عليه . ربما كان من الممكن نظرياً الاعتقاد بأنه سينتهي بتراجع للثورة الروسية بأهمية تراجع الثورتين الفرنسية والانكليزية ، لكن ذلك كان احتمالاً بالغ البعد . حين كتب تروتسكي ان فيلم الثورة يدور بالمقلوب ، كان يريد ان يقول إنه قد ينتهي بإعادة الرأسمالية . وفي الواقع ان لقطاته التالية كانت التخطيط الاقتصادي والتوسع الصناعي وتربية الجماهير ، وهي الامور التي كانت تشكل ، رغم كل التحريف والانحطاط البيروقراطيين ، وباعتراف تروتسكي بالذات ، الاسس الضرورية للاشتراكية ، الشرط Sine quanon(*) لإنجاز وعود الثورة . وبالطبع لم تكن اسس الاشتراكية تعادل انجازها ، والاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٠ كان لديه ما يكفي من الاسباب لينظر الى انجازات الستالينية ، او على الاقل لبعض وجوهها بعينين متحررتين من الاوهام الى حد بعيد . لكنه لم ير الكولاك والنيبمان منتصرين في نهاية الطريق الستالينية(٦٩).

هل كانت الستالينية نوعاً من البونابرتية ؟ لم يستعمل تروتسكي التعبير بمعناه المعروف ، أي « الحكم بالسيف » والديكتاتورية الشخصية . ان التعريف الماركسي للبونابرتية ، بالمعنى الاوسع ، هو انها الديكتاتورية التي تمارسها آلة الدولة او البيروقراطية ، وليست الاوتوقراطية العسكرية غير شكل خاص من اشكالها . ما هو جوهري ، وفقاً للنظرية الماركسية ، في البونابرتية هو ان الدولة ، او الجهاز التنفيذي ينتزع استقلاله السياسي من الطبقات الاجتماعية كافة ، ويرسي سيطرته المطلقة على المجتمع . بهذا المعنى ، كان لحكم ستالين ، بالطبع ، الكثير مما يجمعه بالبونابرتية . الا ان المعادلة لا تقدم إلا مفتاحاً شديد العمومية والغموض لفهم الظاهرة بكل تعقيدها وتناقضاتها . فستالين لم يمارس ديكتاتوريته بواسطة جهاز دولة « مستقل » قدر ما مارسها بواسطة حزب « مستقل » سمح له ايضاً بابقاء الدولة تحت سيطرته . وكان لهذا الفرق نتائج بالغة الاهمية على مسار الثورة والمناخ السياسي في الاتحاد السوفياتي . كان جهاز الحزب يعتبر نفسه

(*) - الذي لا بد منه (م)

٦٩ - كانت اوروبا الشرقية (هنغاريا ، بولندا ، المانيا الشرقية) على شفير عودة البورجوازية الى السلطة في نهاية العهد الستاليني ، ولم يوقف ذلك غير الجيش السوفياتي ، أو تهديده بالتدخل .

الحارس الوحيد للفكر والتراث البلشفيين والمعبر الشرعي الوحيد عنهما . كان هو الذي حكم ، وبالتالي فإن الفكر والتراث البلشفيين هما اللذان ظلا ، رغم كل التشويهات التجريبية والكهنوتية التي أخضعا لها ، الايديولوجية والتراث الرسميين في الاتحاد السوفياتي . ولم يكن ذلك ممكناً إلا لأن الايديولوجية والتراث البلشفيين كانا متأصلين في بنية الاتحاد السوفياتي الاجتماعية ، لاسيما في القطاع الاقتصادي المديني المؤمّم . وإذا اردنا ان نقيم موازنة ، مهما تكن محدودة ، بين الثورتين الفرنسية والروسية ، علينا أن نلجأ الى الخيال : ما كان يمكن ان تغدو فرنسا الثورية لو ان الترميدوريين لم يطيحوا روبسبيير ، ولو ان هذا الاخير حكم فرنسا باسم حزب يعقوبي مطيع وعاجز ، خلال الفترات اللاحقة كلها ، التي يسميها التاريخ اليوم حكم الادارة ، فالقنصلية فالأمبراطورية ، وباختصار ما كان غدا وجه فرنسا لو لم يظهر اي نابليون ولو تواصلت الثورة بكاملها تحت راية اليعاقبة ؟[٧٠]

رأينا أن ديكتاتورية الحزب بدأت في نهاية الحقبة اللينينية . كانت مكتوبة في نظام الحزب الواحد ، وهو النظام الذي كان يكمن ، بالنسبة للينين ، في ممارسة الحرس البلشفي القديم السلطة . يمكن إذاً ان نصف حكومة لينين ، في سنواتها الاخيرة ، بالبونابرتية إذا اعطينا لهذه الكلمة المعنى ذاته الذي اعطاها إياه تروتسكي ، مع انه كانت تنقصها لتكون كذلك بالكامل تلك الميزة الاساسية المتمثلة بالديكتاتورية الشخصية . لذا حين تكلم تروتسكي عام ١٩٢٨ على الخطر البونابرتي كانت تتراءى له بالنسبة للمستقبل لحظة سياسية عيشت قبل سنوات عديدة . ومما لاشك فيه ان استبداد جهاز الحزب ، بعد لينين ، اصبح اثقل فأثقل واكثر فأكثر فظاظة . لكن المظهر الاساسي للتاريخ السياسي العاصف في سنوات ١٩٢١ -١٩٢٩ ليس هنا ، بل بالاحرى في واقع ان سلطة الحزب الواحد تحولت الى سلطة تكتل واحد . وبالنسبة لاحتكار البلشفية للسلطة السياسية كان ذلك يمثل حظه الوحيد في الاستمرار والتوطيد . ولقد بينّا في الصفحات الاولى من هذا

---

٧٠ ـ رأى اوغست بلانكي في روبسبيير« نابوليون مبكراً أو نابوليون جهيضاً » ، وقالت مدام دو ستايل عن القنصل الاول : « إنه روبسبيير ممتطياً حصاناً » . (دانييل غيرين ، صراع الطبقات في ظل الجمهورية الأولى ، ج ٢ ، ص ٣٠١ -٣٠٤ ، يكرس عدة صفحات مهمة للغاية بهذا الصدد .) لكن ال ـ« روبسبيير ممتطياً حصاناً » كان يعتمد على قوى اجتماعية مختلفة جداً عن تلك التي كانت تدعم زعيم اليعاقبة : كانت دعامته الرئيسية الجيش ، لا البورجوازية الصغيرة ، ولم يكن تحت اكراه الايديولوجية اليعقوبية .وقد قال ميشليه عن روبسبيير : « Il eut le cœur moins roi que pretre(*) » . اما نابوليون فلم يكن لا ملكاً ولا كاهناً . وكان ستالين حبراً اعظم وقيصر في آن معاً .

(*) ـ معناها « كان قلبه قلب كاهن اكثر منه قلب ملك » .

الجزء ان نظام الحزب الواحد كان ينطوي على تناقض داخلي . كانت التكتلات المتعددة ، والجماعات ومدارس الرأي البلشفي ، تشكل داخل الحزب الواحد نوعاً من نظام تعدد الاحزاب المموّه . وكان منطق نظام الحزب الواحد يتطلب ضمناً تصفية التعددية الحزبية وباسم هذا المنطق كان يتكلم ستالين ، حين اعلن ان على الحزب البلشفي ان يكون وحيد الاتجاه أولا يعود بلشفياً (الى حد ما ، إذ اصبح الحزب وحيد الاتجاه توقف عن ان يكون بلشفياً) .

كان يمكن منطق الحزب الواحد ان يطبق بصورة اقل فظاظة ، بالتأكيد ، وان يكون له تجليات أقل صرامة ، وربما كان يمكن ألا يجري دفعه الى نتائجه القصوى ، او ان النظام بالذات هو الذي كان يمكن تعطيله بولادة ديمقراطية عمالية حقيقية لو ان كامل تاريخ الاتحاد السوفياتي ، المعزول والمحاصر في تخلفه وبؤسه القديمين ، لم يكن سلسلة لا تنقطع من الكوارث والآفات والازمات التي تهدد الامة في وجودها بالذات . يمكن القول ان كل ازمة تقريباً ، وكل تهديد ، كانا يحولان المشكلات السياسية الكبرى الى قضية حياة او موت ،ويفجران الصراع بين التكتلات والتجمعات البلشفية ، ويعطيان صراعاتها تينك الحدة والكثافة الخارقتين اللتين ادتا إلى احلال حكم الكتلة الواحدة محل حكم الحزب الواحد . عند النقطة التي وصلت اليها قصتنا ، اي عند حسم النزاع بين الستالينيين والبوخارينيين ، كان ذلك التطور يصل الى نهايته الحاسمة . ما لم يكن حصل بعد وكان سيحصل ، انما هو صعود ما يشبه البونابرتية : الانتقال بعد عام ١٩٣٠ من سيطرة كتلة واحدة الى ديكتاتورية رجل واحد . هذا المآل ـ اي الاوتوقراطية الستالينية ـ هو ما توقعه تروتسكي بصفاء بصيرة ، مع انه اخطأ بصدد وجوه اخرى .

لكن حتى في تلك الفترة ، لم يفهم تروتسكي أن صعود الستالينية كان النتيجة المحتومة للاحتكار البلشفي للسلطة . رأى فيه نهاية كل حكم بلشفي . وحين كان ستالين يصوّر ، على العكس ، السلطة الحصرية لكتلته كالنتيجة والتأكيد الاخير لقاعدة الحزب الواحد ، كان تروتسكي يعتقد ، من جانبه ، ان ذلك كان نفياً لتلك القاعدة . وفي الواقع أن الاحتكار البلشفي للسلطة ،كما أرساه لينين وتروتسكي ، وجد في الاحتكار الستاليني تأكيده ونفيه في آن معاً . كان ستالين وتروتسكي يلحان في الواقع على وجهين مختلفين للمشكلة ذاتها . ولقد شرحنا كيف تحولت سيطرة الحزب الواحد إلى سيطرة كتلة واحدة وكيف حلت الستالينية محل اللينينية . ورأينا ان ما لم يكن الاضمنياً في بداية ذلك التطور غدا صريحاً بالتدريج ، ليظهر في الطور الاخير بأشكال قصوى وجذرية . ضمن هذا الحد ، يمكن القول ان ستالين كان على حق حين قال انه بقي مخلصاً للخط الذي رسمه

لينين على صعيد ادارة شؤ ون الحزب . لكن دحض تروتسكي الشديد لذلك لم يكن اقل استناداً للوقائع . ان سيطرة كتلة واحدة كانت تشويهاً لسيطرة الحزب الواحد مثلما كانت نتيجة لها . لقد احتج تروتسكي والقادة البلاشفة ، الواحد بعد الآخر ، بقولهم إنهم حين منحوا البلاشفة ، في ايام لينين ، احتكار السلطة ، فكروا ان ذلك الاحتكار سيتلازم مع ديمقراطية عمالية ، وانهم لم يفكروا بفرض انضباط حد يدي في الحزب بل اعتبروا دائماً ان الحرية داخل الحزب امر بديهي لا يجادل احد فيه ، وأنهم يضمنون ذلك . كان على المرء أن يكون أصم وأعمى لكي لا يلاحظ التناقض بين الستالينية واللينينية ، وهو تناقض كان يتجلى في المناخ الايديولوجي والاخلاقي والفكري للبلشفية بوضوح اشد مما في مجالي التنظيم والانضباط . في هذا الصدد ، كان فيلم الثورة يدور حقاً بالمقلوب ، على الاقل بمعنى ان الستالينية كانت .'كل مزيجاً من الماركسيةوالعناصر بالغة القدم ، والبدائية ، ونصف الاسيوية الخاصة بروسيا : همجية الموجيك وجهله ، من جهة ، والتقاليد الاستبدادية للجماعات الحاكمة القديمة ، من جهة اخرى . بمواجهة كل ذلك ، كان تروتسكي يجعل من نفسه بطل ماركسية كلاسيكية بكل نقاوتها ، وبكل قوتها الفكرية والاخلاقية ، وكذلك بكل ضعفها السياسي ، ضعف كان يعود الى عدم توافقها مع روسيا المتخلفة واخفاقات الاشتراكية في الغرب . وهكذا حين طرد ستالين تروتسكي ، كان يطرد الماركسية الكلاسيكية من روسيا .

ذلك كان القدر الغريب للخصمين المتعارضين ، بحيث انه في حين كان تروتسكي يُطرد من بلاده بادر ستالين ، بطريقته الهجمية الخاصة به ، الى اقتلاع الوحشية والهمجية الروسيتين اللتين تقيأتا - إذا صح التعبير - الماركسية الكلاسيكية ، كما انطلقت البيرقراطية الستالينية في الوقت ذاته تطبق برنامج تروتسكي بخصوص التراكم البدائي الاشتراكي . ان تروتسكي هو الذي كان الأب والملهم الشرعي للثورة الثانية التي سيضمن ستالين تنفيذها خلال السنوات العشر اللاحقة . ولا يفيدنا في شيء ان نتساءل كيف كان تروتسكي قاد تلك الثورة ، او اذا كان نجح في انجاز التصنيع في روسيا بالوتيرة ذاتها والمستوى ذاته دون الحكم على الجماهير السوفياتية بالحرمان والبؤس والاضطهاد ، كل تلك الويلات التي عانتها في ظل ستالين ، او اذا كان اظهر قدرة على دفع الموجيك الى الجماعية بالاقناع لا بالقمع . ليس من جواب عن هذه الاسئلةويكفي المؤ رخ ان يحلل الاحداث والاوضاع كما كانت في الواقع دون ان يحاول التفكير بالاحداث والاوضاع التي كان يمكن ان تكون . ان التطور السياسي في العشرينات هو الذي حدد التحول الاجتماعي الذي ستشهده روسيا بين عامي ١٩٣٠ و

١٩٤٠ . هذا التطور ادى الى الاوتوقراطية والى انضباط احادي الاتجاه وبالتالي الى التصنيع والجماعية القسريين . اما الآلات السياسية التي كانت ضرورية للتراكم البدائي الاشتراكي فقد صنعت في العشرينات ، وكانت في الفترة التي نحن بصددها جاهزة للاستعمال . لم يتم صنعها خلال إعداد حر وواع للمستقبل ، لكن في غمرة صراعات الحزب الداخلية ، صراعات اصبح خلالها الاحتكار البلشفي للسلطة الاحتكار الستاليني . لكن اذا كان الانضباط أحادي الاتجاه والاوتوقراطية يشكلان ـ كما قد يقال باللغة الماركسية ـ البنية القومية السياسية للتراكم البدائي الاشتراكي ، فهما يجدان عندئذ تبريرهما إلى هذا الحد أو ذاك . فقد يستطيع انصار ستالين الجزم بانه من دون ذينك الانضباطاحادي الاتجاه والاوتوقراطية ما كان يمكن تحقيق ذلك التراكم ، بالاتساع الذي عرفه . وإذا تكلمنا بصراحة نقول إن الصراعات التي لا تنتهي بين الكتل البلشفية ، التي انتهت الى « القيادة الحازمة » لستالين ، ربما اوصلت الى النصر رجلاً قاتل من ضمن مصلحته الخاصة به ، لكنه حين حصل على النصر استخدمه لتصنيع الاتحاد السوفياتي ، وتجميع الاستثمارات الزراعية واعادة صياغة وجه البلد بكامله . وليبرر ستالين « قيادته الحازمة » كان يمكنه فيما بعد أن يبين كيف استخدمها .

لقد رفض تروتسكي تبريرات ستالين ، وظل يفضح في خصمه مغتصباً بونابرتياً . لكنه عرف ان يعترف بالوجوه التقدمية والايجابية للثورة الستالينية الثانية ويرى فيها تحقيق جزء من برنامجه . كان قد قارن ، كما نذكر ، قدره وقدر المعارضة بقدر كومونيي باريس الذين هزموا عام ١٨٧١ كثوريينبروليتاريين، لكنهم نجحوا مع ذلك في قطع الطريق امام عودة الملكية . ذلك كان انتصارهم في الهزيمة ، اما التحول الخارق للاتحاد السوفياتي بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٤٠ فكان انتصاراً لتروتسكي في هزيمته . لكن الكومونيين لم يتصالحوا أبداً مع الجمهورية الثالثة ، تلك الجمهورية البورجوازية التي ما كان في وسعها ان تنتصر يوماً بدونهم ، ولقد ظلوا اعداءها . كذلك لم يتصالح تروتسكي ابداً مع الثورة البيرقراطية الثانية ، وبوجهها ظل يدعو لتأكيد ذات الطبقة العاملة في دولة عمالية ، ولحرية الفكر في الاشتراكية . وهكذا حكم على نفسه بالعزلة السياسية لان الكثيرين من انصاره الاقربين، سمحوا لأنفسهم بأن يقعوا في اسر ثورة ستالين الثانية أو تحت إغرائها ، بنتيجة تعبهم واحباطهم ، من جهة،وعن قناعة، من جهة اخرى . كانت المعارضة في المنفى على وشك التصفية الذاتية الفعلية .

هل كان تروتسكي إذاً في صراع مع عصره ؟ هل خاض معركة لا أمل منها « ضد

التاريخ » ؟ فلنستمع الى نيتشه .

« إذا كنت تريد سيرة ، لا تبحث عن واحدة عنوانها : « السيد فلان وزمانه » ، بل عن واحدة يكون عنوانها : « مقاتل ضد زمانه » . . . ليس التاريخ « غير نظام يقرن الهوى بالخطأ » ، بحيث ينبغي قراءته كما اراد غوته ان نقرأ روايته فرتر ، كما لو كانت الحكمة فيها : كن رجلاً ولا تتبعني » . لكن لحسن الحظ ان التاريخ يحتفظ لنا بذكرى حية لكبار « المقاتلين ضد التاريخ » ، اي ضد القوة العمياء للواقع . . . وهو يمجد العظمة التاريخية حقاً لاولئك الرجال الذين لم يهتمون الا قليلاً بـ « الأمر هكذا » وفضلوا أن يتبعوا « هكذا ينبغي أن يكون » بفرح اعظم وعنفوان اكبر ، ان لا يجّروا جيلهم الى القبر بل يؤسسوا جيلا جديداً ـ ذلك هو الحافز الذي يدفعهم دائماً الى الأمام . . . » .

هذه كلمات ممتازة رغم رومانسيتها الذاتوية الضمنية . لقد كان تروتسكي حقاً « مقاتلاً ضد زمانه » ، ولكن ليس بالمعنى النيتشوي . فكماركسي كان معنياً الى حد بعيد بـ « الامر هكذا » ، وكان يعرف ان الـ « هكذا ينبغي أن يكون » هو ابن الـ « الامر هكذا » . لكنه رفض الانحناء امام « القوة العمياء للواقع » واخضاع الـ « هكذا ينبغي ان يكون » لـ « الأمر هكذا » .

قاتل ضد زمانه لا كدون كيشوت أو سوبرمان نيتشوي ، بل كرائد ، باسم المستقبل لا الماضي . وبالتأكيد ، إذا بحثنا جيداً ، يمكن ان نجد اثراً للدونكيشوتية لدى كل الرواد العظام . لكن الرائد الاصيل ليس دون كيشوت ولا طوباوياً . والتاريخ يعرف القليل القليل من الرجال الذين كانوا على القدر من الانسجام الكامل والظافر مع زمنهم الذي كان عليه تروتسكي عام ١٩١٧ وفي الاعوام التي تلت . لذا أليس لأنه كان يحمل في ذاته بعض الغربة العنيدة عن حقائق جيله انخرط فيها بعد في نزاع مع عصره ؟ إن طبيعته ومزاجه كرائد هما اللذان كانا السبب في ذلك . فعام ١٩٠٥ تنبأ بـ ١٩١٧ وبالسوفييتات ؛ وعام ١٩١٧ ، لم يكن تابعاً لأحد كقائد للسوفييتات ؛ كان ملهم التخطيط الاقتصادي والتصنيع منذ عام ١٩٢٠ ؛ واخيراً كان وبقي ـ حتى لو لم يكن معصوماً من الخطأ ـ المبشر العظيم بيقظة قادمة للشعوب الثورية (والحاجة لتخطي الستالينية التي اخذت بتلابيب الاتحاد السوفياتي خلال اعوام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٦ مؤشر واضح لهذه اليقظة السياسية ، علامة لاتزال خجولاً لكنها اكيدة) . باسم التاريخ بالذات ناضل تروتسكي « ضد التاريخ » ؛ وضد أموره الواقعة ، التي كانت كلها في الغالب وقائع اضطهاد ، ناضل من اجل الافضل ، من

اجل الانجازات المحرّرة التي سيكون ذلك التاريخ قادراً عليها في يوم من الأيام .

* * *

في بداية كانون الاول/ديسمبر ، احتج تروتسكي لدى كالينين ومنجنسكي ضد « الحصار البريدي » الذي كان ضحيته . ولم يأته الجواب الا بعد ١٥ يوماً . في ١٦ كانون الاول/ديسمبر وصل موظف كبير في الغيبيو ليقدم اليه« تحذيراً نهائياً » : عليه ان يوقف فوراً « نشاطاته المعادية للثورة » أو « يعزل كلياً عن الحياة السياسية » و « يجبر على تغيير محل اقامته » . في اليوم ذاته اجاب تروتسكي برسالة تحدٍّ إلى قادة الحزب والاممية :

« إن الطلب إليّ أن اتوقف عن نشاطي السياسي يعني مطالبتي بجحد النضال الذي خضته في خدمة الطبقة العاملة العالمية والذي انخرطت فيه منذ اثنين وثلاثين عاماً متواصلة ، اي منذ غدوت واعياً . . . فقط بيرقراطية مهترئة حتى العظم يمكن ان تجرؤ على طلب استقالة من هذا النوع . فقط مرتدّون حقيرون يمكنهم اعطاء هذا الوعد . ليس لدي ما أضيفه ![٧١]»

ثم تبع ذلك شهر من الانتظار والأرق في ألما ـ آتا . لم يعد رسول الغيبيو الى موسكو ، بل انتظر الأوامر في مكانه . وكانت تلك الاوامر لا تزال تتوقف على قرار المكتب السياسي ، ولم يكن هذا قد قر على رأي نهائي . وحين طلب ستالين التصويت على قرار الطرد من البلاد ، وقف في وجهه بعنف كل من بوخارين وريكوف وتومسكي . وبوخارين ، الذي مزقه وخز الضمير لما فعله بحق تروتسكي ، وكان قد ازداد رعبه من « جنكيز خان الجديد » ، صرخ وبكى ونشج والجلسة منعقدة . لكن الاكثرية انصاعت لارادة ستالين . وهكذا في ٢٠ كانون الثاني /يناير ١٩٢٩ ـ وكان قد مر عام وعدة ايام على خطف تروتسكي من موسكو ـ احاط رجال مسلحون بمنزل تروتسكي في ألما ـ آتا ثم احتلوه . قدم موظف الغيبيو الى تروتسكي الامر الجديد بالنفي ، الذي كان يحظر عليه في هذه المرة دخول « اي مكان في اراضي الاتحاد السوفياتي » . وللحال كتب تروتسكي : « تبلغت قرار الغيبيو ، المجرم بجوهره وغير الشرعي من حيث الشكل ، في ٢٠ كانون الثاني /يناير ١٩٢٩[٧٢]» .

وقد تكررت المشاهد المأساوية الهزلية التي كانت قد تمت أثناء توقيفه في موسكو

---

٧١ ـ المحفوظات .

٧٢ ـ المحفوظات .

فجلادوه ، الذين اربكتهم الاوامر التي تلقوها ، كان يبدو عليهم الخوف من تنفيذها . ولما كان يزعجهم ان لا يعرفوا اين عليهم ان يقودوا سجينهم ، ألقوا اسئلة قلقة بصدد عائلته وابدوا له خفية تعاطفهم وصداقتهم . لكن الاوامر الموجهة اليهم كانت دقيقة : عليهم نزع سلاحه ، إخراجه من المنطقة خلال اربع وعشرين ساعة ، وإعلامه بأنه سيعرف بعد رحيله الى اين سيتم نفيه .

فجر كانون الثاني/يناير ، غادر السجين وعائلته ألما ـ آتا بحراسة جيدة الى فرونزي عبر صحراء جبلية وممر كوردا ي . لقد قطعوا الطريق ذاتها في السنة السابقة اثناء عاصفة ثلجية . لكن الوضع اسوأ بكثير في هذه المرة . كان شتاء عام ١٩٢٩ شتاء مشهوراً بقساوته ، فطيلة قرن لم يمر شتاء قارس مثله . « احتجزت الثلوج الجرار القوي الذي قطرنا عبر الممر ، وقد اختفى تقريباً تحت ركام الثلوج ، هو والعربات السبع التي كانت تتبعه . سبعة رجال وعدد كبير من الجياد تجمدوا من البرد . . . وقد اضطررنا لركوب الزلاجات ، وبقينا سبع ساعات لم نتقدم فيها اكثر من ثلاثين كيلو متراً[٧٣].

وفي فرونزي ، ركب تروتسكي وعائلته قطاراً خاصاً باتجاه روسيا الاوروبية . وخلال الطريق تلقى رسالة تعلمه بأنه سُينفى الى القسطنطينية . وللحال ارسل احتجاجاً الى موسكو يعلن فيه أنه ليس للحكومة الحق في طرده الى الخارج من دون موافقته . كانت القسطنطينية نقطة تجمع بقايا جيش فرانغل حين غادروا القرم . ألا يخجل المكتب السياسي من تسليمه للحراس البيض وانتقامهم ؟ ألا يمكن على الاقل الحصول له على تصريح بالاقامة في المانيا او بلد آخر ؟ اخيراً طلب السماح له برؤ ية افراد عائلته المقيمين في موسكو . ولقد استجيب طلبه هذا فجيء بسرغي وليوفا من موسكو واقتيدا الى قطار المنفيين . ومرة اخرى ، رفض تروتسكي الذهاب الى القسطنطينية . فنقل رجل الغيبيو ، المكلف بمرافقته اثناء الرحلة ، احتجاجاته وانتظر التعليمات . في غضون ذلك ، حُرف القطار عن طريقه ، واوقف على خط جانبي « قرب محطة صغيرة ميتة » .

« هناك غرق القطار في الخدر بين حاجزين رقيقين من الأشجار . ومضت الأيام وازداد عدد علب المحفوظات الفارغة التي كانت مرمية إلى جانب القطار يوماً بعد يوم . كانت العقاعق والغربان تتجمع لأخذ حصتها في اسراب اكبر فأكبر عدداً . اتساع . . . وحدة . . . كانت آثار خطى الثعالب

---

٧٣ ـ حياتي .

النحيفة تصل الى القطار . وكانت القاطرة واحدى مقطوراتنا تمضيان يوماً الى محطة اكبر لتأتيا منها بوجبة الظهيرة وبالصحف . اكتسحت الانفلوانزا مقصوراتنا . كنا نقرأ اناتول فرانس وتاريخ كليوشيفسكي . . . اما ميزان الحرارة فكان هابطاً الى ٥٣° تحت الصفر . وكانت قاطرتنا تروح وتجيء على السكة لمنع التجمد . . . لم نكن نعرف حتى أين نحن[٧٤] »

مر اثنا عشر يوماً واثنتا عشرة ليلة هكذا دون أن يسمح لأحد بمغادرة القطار . الصحف وحدها تحمل اصداء العالم الخارجي : كانت تمتلىء بالشتائم العنيفة قدر ما هي مهدِّدة ضد التروتسكية ، وفيها كلام على اكتشاف «مركز تروتسكي» جديد وتوقيف عدة مئات من المعارضين[٧٥] .

بعد اثني عشر يوماً ، تواصلت الرحلة . انطلق القطار بكل سرعته الى الجنوب ، عبر سهوب اوكرانيا المألوفة . بما ان حكومة المانيا رفضت ، حسبما زعمت موسكو ، دخول تروتسكي إلى اراضيها ، فسيجري طرده الى القسطنطينية في نهاية المطاف . وقد عاد سرغي الى موسكو لمتابعة دروسه الجامعية ، وعادت امرأة ليوفا ، آملين ان تجتمع العائلة قريباً في الخارج . وقد عانقهما الوالدان وفي النفس هواجس قاتمة ، لكن لما كانا غير واثقين من مستقبلهما لم يتجرآ على الطلب اليهما الذهاب معهما الى المنفى . ولم يقيض لهما أن يرياهما بعد ذلك .

من القطار ، وفي ظلمة الليل ، رأى تروتسكي روسيا للمرة الاخيرة . اجتاز القطار شوارع اوذيسا ومرفأها ، اوذيسا مدينة طفولته وطموحاته الاولى واحلامه الاولى حول العالم . كانت اوذيسا لاتزال في ذكرياته الحاكم القيصري العجوز الذي كان يمارس « سلطة مطلقة بمزاج جموح » والذي « كان يطلق في الشارع ، واقفاً في عربته ، شتائم بصوته الجاف ، وهو يهدد بقبضة يده » . كانت شتائم اخرى وصوت غليظ آخر ـ أو ربما الشتائم ذاتها والصوت ذاته ـ تعود الى ذاكرة هذا الرجل ابن الخمسين سنة في شوارع طفولته . في احد الايام جعلته رؤ ية شخصية رفيعة يحني رأسه ،و« ويشُد على محفـظه كتبه ويعود الى المنزل » . اما اليوم فكان القطار ـ السجن يعدو نحو المرفأ من حيث كان سيبحر في اتجاه

٧٤ ـ حياتي .

٧٥ ـ بين السجناء فورونسكي ، محرر كراسنايانوف ، وبودو مديفاني والعديد من البلاشفة الجيورجين الذين عارضوا ستالين منذ عام ١٩٢١ ، و ١٤٠ معارضاً من موسكو وزعوا « الرسالة الى الاصدقاء »التي كتبها تروتسكي ، والتي تحدثنا عنها اعلاه .

المجهول . وتأمل تروتسكي في غرابة قدره . كان رصيف الميناءاسود من كثرة الجنود ، وكانت تطوقه هذه الفرق ذاتها التي كان لايزال قائدها قبل اربع سنوات . وكما للسخرية منه ، كان المركب الذي ينتظره يحمل اسم عائلة لينين ، ايليتش ! وقد غادر المركب المرفأ سريعاً في عز الليل ، خلال العاصفة . حتى البحر الاسود كان متجمداً في ذلك الفصل ؛ وقد اضطرت كاسحة جليد لأن تفتح لهم ممراً على امتداد ٨٠ كيلو متراً تقريباً حين رفع ايليتش مرساته ورأى تروتسكي الشاطىء يبتعد ، لا بد أنه فكر ان البلد الذي يغادره تحول بكامله الى صحراء متجمدة شاسعة وان الثورة ذاتها كانت تموت في نعش من الجليد .

ما من قوة على الأرض ، ما من كاسحة جليد بشرية ستفتحان له طريق العودة .

الفهرس

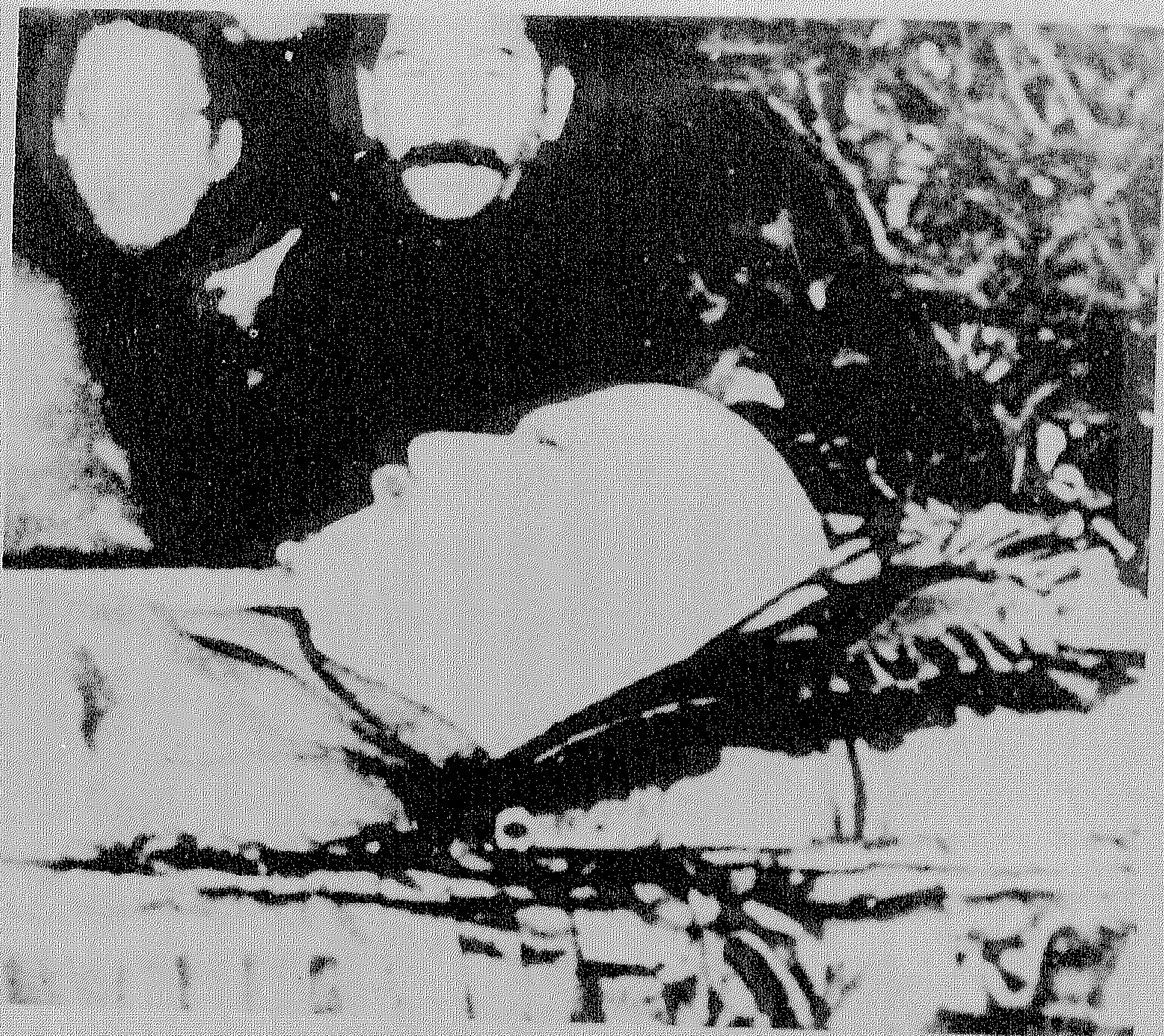
ملحـــق: الصـــور

لينين خلال نقاهته ، وكان محظراً عليه أي عمل. ومع ذلك فقد كان لا يزال يكافح: في ٤ يناير ١٩٢٣، أوصى في «الرسالة إلى المؤتمر» بتنحية ستالين من منصب الأمين العام، وفي ٦ آذار/ مارس قطع كل علاقة له معه.

توفي لينين في ٢١ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٤. وقد تم تحنيط جثمانه، المسجّىٰ أعلاه في دار النقابات في الأسفل، من اليسار إلى اليمين: ستالين، كامينيف، سابرونوف، رودزوتاك، مولوتوف، كالينين وبوخارين، يحملون النعش.



تروتسكي في سوخوم حيث كان يقضي فترة نقاهة عام ١٩٢٤، في الفترة التي توفي فيها لينين. وقد تعمد ستالين ألا يبلّغه في الوقت المناسب، بحيث يحول هكذا دون حضوره المأتم.

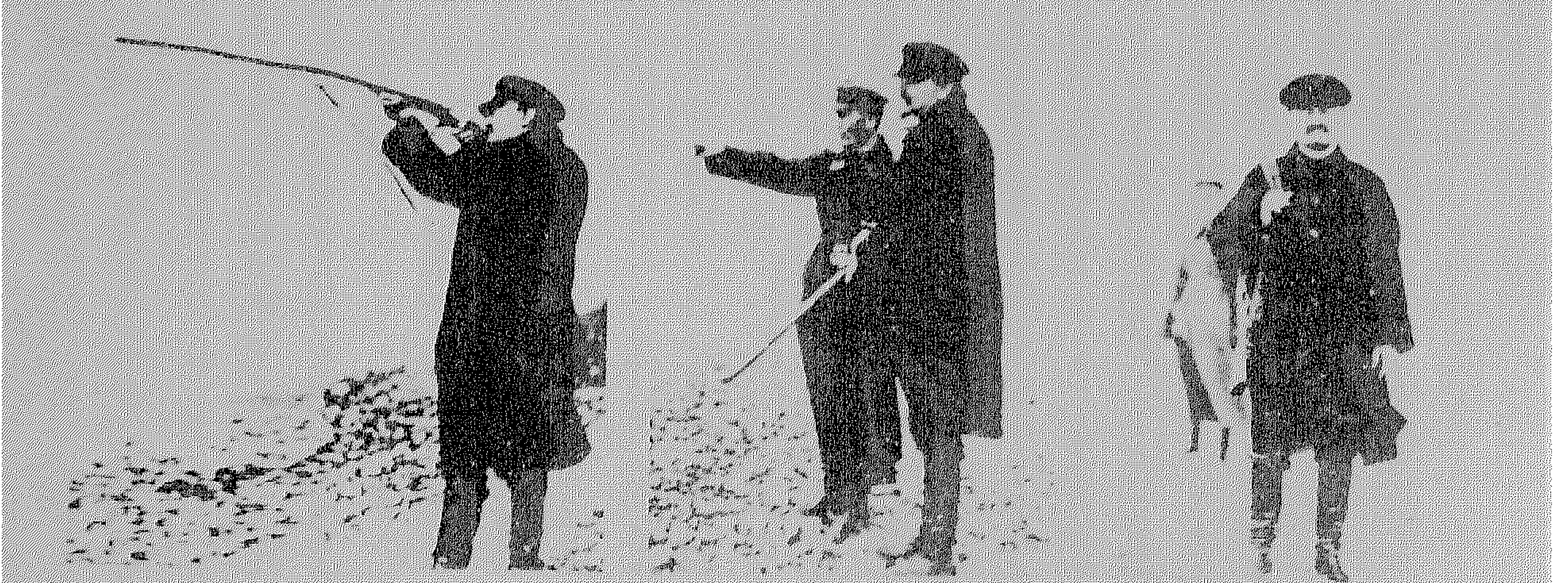


ستالين، الذي كان لينين قطع كل صلة له به قبل عشرة أشهر، يجلس هنا قرب جثمانه.

يُرى تروتسكي مع جمع من معاونيه يكرمون مناضلاً
مسناً من سوخوم حيث كان لا يزال يُمضي نقاهته







كان يشعر تروتسكي بحاجة دائمة إلى نشاط جسدي كثيف، والصيد احد نشاطاته المفضلة. هنا صور مأخوذة أثناء رحلة صيد برفقة ناتاليا، وطبيبه الدكتور غيتيه، وأحد معاونيه.

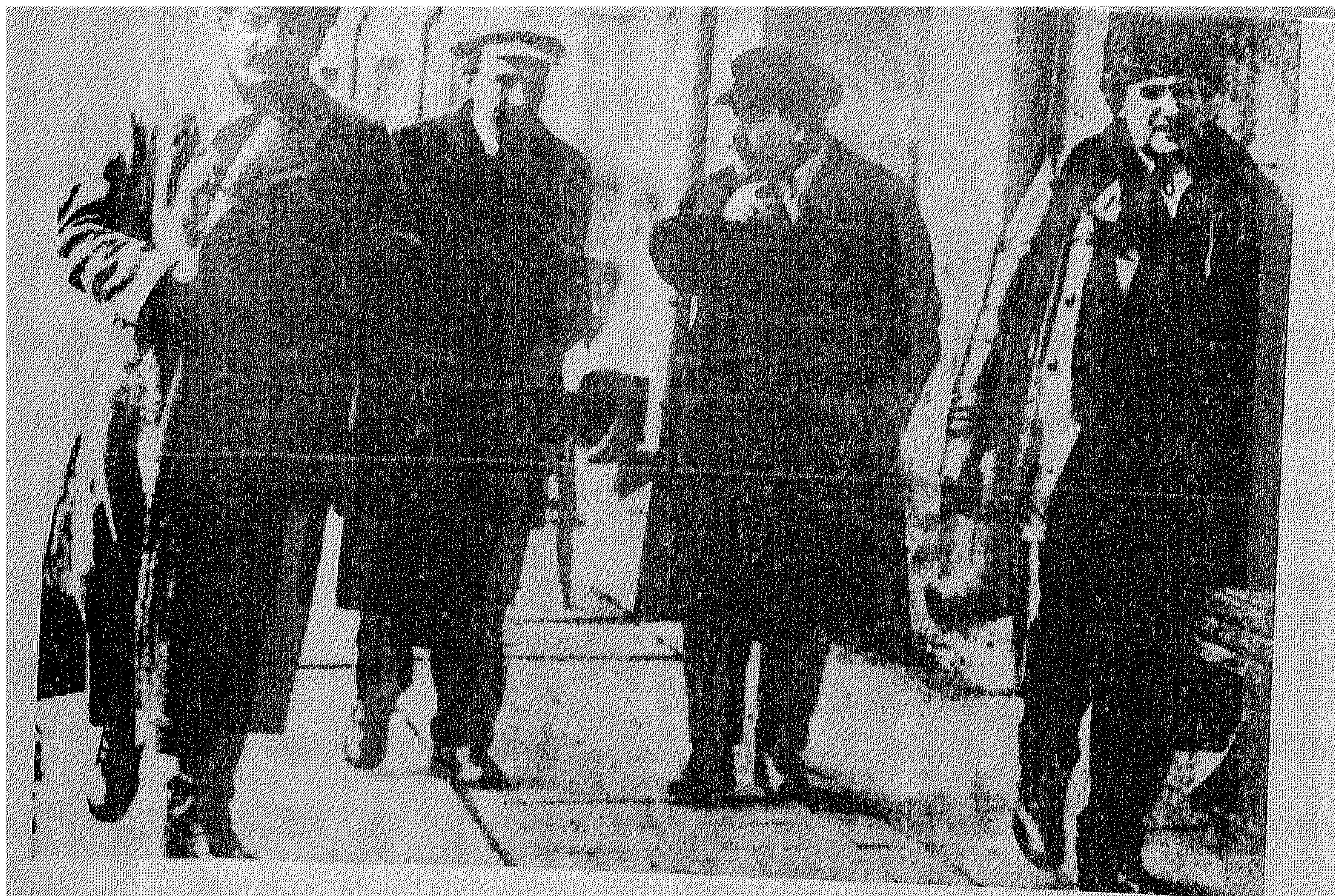


إلى جانب كريستيان «راكوفسكي»، الذي كان أقرب المقربين إليه، وأحد ألمع الوجوه الثورية في البلقان. ترأس حتى عام ١٩٢٣ مجلس مفوضي الشعب في أوكرانيا وتابع سياسة ستالين القائمة على «الترويس»، فتخلص منه مؤقتاً بإرساله سفيراً إلى باريس، قبل أن يعدمه أثناء التطهيرات الكبرى.





حول تروتسكي، في سوخوم، عام ١٩٢٤، معاونوه الأقربون ومحاربون قدامى في الجيش الأحمر. رغم هزيمة المعارضة، يعتز الثوريون بأخذ صورة معه.





في الأعلى، الشلة التي هزمت تروتسكي، وهم من اليمين إلى اليسار: زينوفييف، كامينيف، ريكوف الذي حل محل لينين في رئاسة مجلس مفوضي الشعب، فستالين.

في الأسفل، مفوض الشعب لشؤون الحرب مع دورة لتلامذة الضباط في الجيش الأحمر.



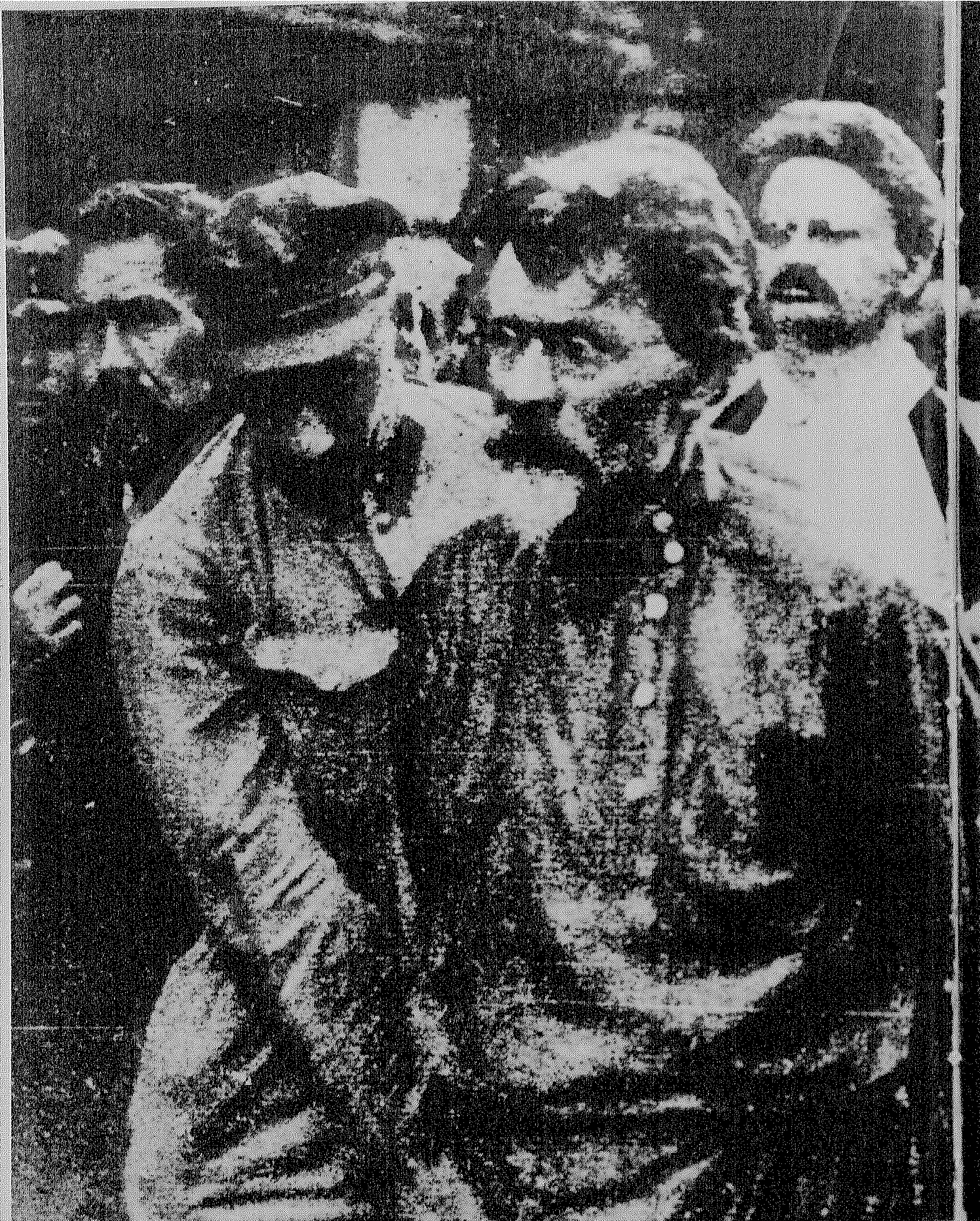
تروتسكي يستعرض القوات في الساحة الحمراء بموسكو في الذكرى السابعة للثورة في ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٤.

خلال الاستعراض الذي تم في الذكرى السابعة للثورة، من اليسار إلى اليمين: فوروشيلوف، تروتسكي، كالينين، فرونزي، (وخلفه بوديني واقفاً)، والشيوعية الألمانية كلارا. زتكين.





من اليسار إلى اليمين: ريكوف، ياغودا، كالينين، تروتسكي، كامينيف، ستالين، بوخارين، وهم يحملون نعش دزرجنسكي الذي توفي عام ١٩٢٦. وهو الظهور الأخير لتروتسكي كقائد حزبي في الاتحاد السوفياتي.





صورة مركبة للفنان الكبير جون هارتفيلد نُشرت بمناسبة الذكرى العاشرة للثورة. وهي إحدى الصور الأخيرة التي يظهر فيها تروتسكي (إلى اليسار) في الصحافة الشيوعية الرسمية بوجه القائد الثوري. ويُرى إلى اليسار لينين منحنياً.



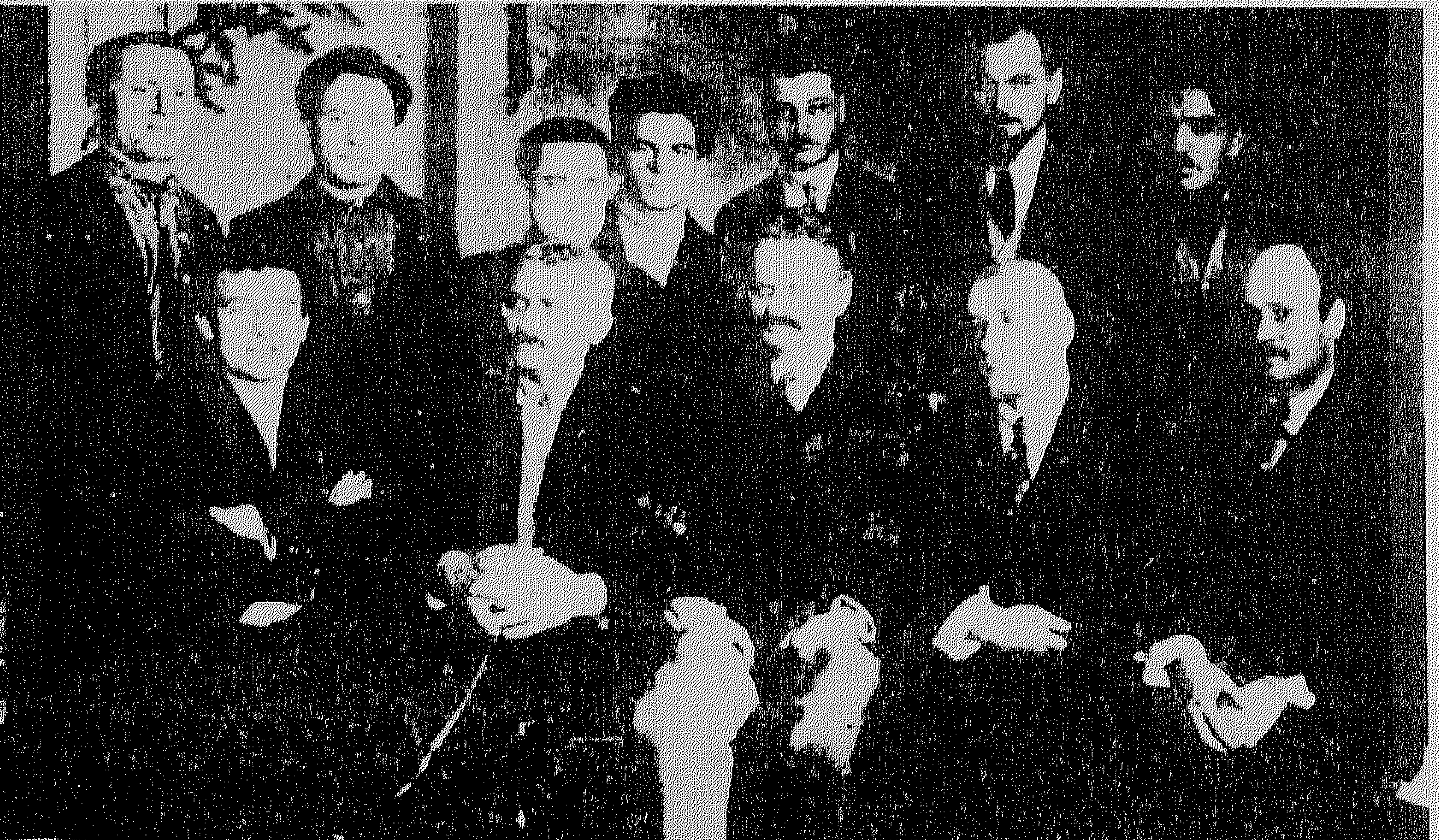


لقد انتحر أدولف يوفي في سن الرابعة والأربعين. هذا الثوري القديم، الصديق الشخصي لتروتسكي والذي سبق أن تعاون معه في إصدار البرافدا الفيينية، كان مصاباً بمرض عضال وقد ووجه برفض التصريح له بالسفر لتلقي العلاج اللازم في الخارج. وقد أعطى لانتحاره معنى الاحتجاج ضد السياسة الستالينية وشرح ذلك في رسالة لتروتسكي.

في الصورة العليا، أعلاه، يرى يوفي إلى جانب تروتسكي. وفي الأسفل، تروتسكي يخطب في المأتم الذي أقامته المعارضة ليوفي، والذي ضم عشرة آلاف من المشيعين. «النضال مستمر. فليبق كلٌ في موقعه».



الصورة أعلاه تمثل أدولف يوفي.



مجموعة من المعارضة اليسارية عام ١٩٢٧. من اليسار إلى اليمين، في الصف الأول: ايشتشنكو، ايفان سميرنوف الذي لقبه لينين بـ «ضمير الحزب»، تروتسكي، ايڤار سميلغا، في الصف الثاني، الثاني هو مان نيفلسون زوج نينا ابنة تروتسكي، والخامس ب. التسين والأخير لليمين ف. أ. ترفاغانيان.



في ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٨ ، اختطفت الغيبيوتو وتسكي بالقوة ونفته إلى الما آتا، حيث وصل خلال الشتاء والثلج . وهو يُرى هنا وسط الطبيعة المغطاة بالبياض





LA RUSSIE ILLUSTRÉE

ИЛЛЮСТРИРОВАННАЯ РОССІЯ

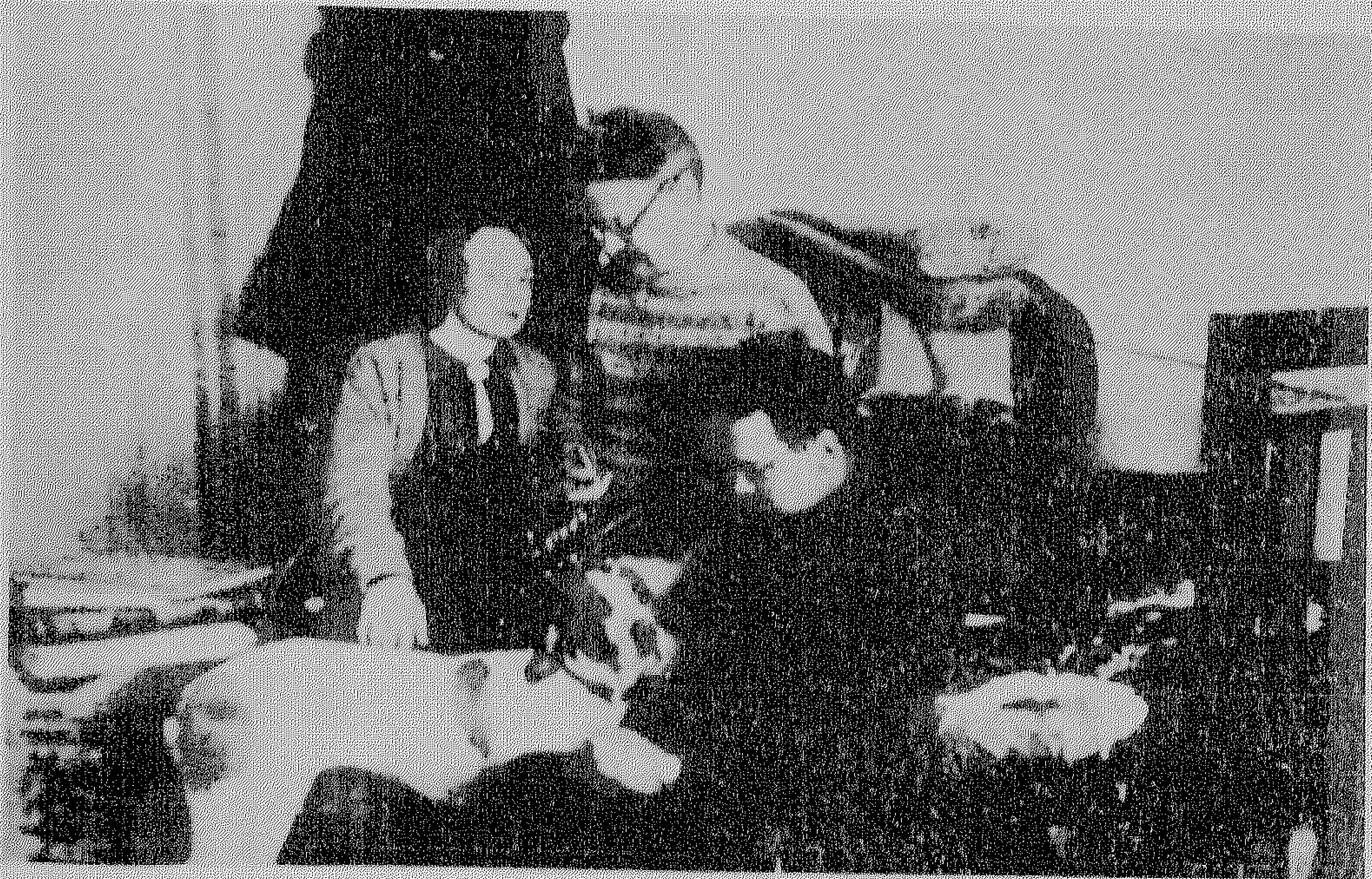
في الأسفل صورة لنينا، ابنة تروتسكي الثانية. وقد ماتت بالسل أثناء وجود أبيها منفياً في الماـ آتا عام ١٩٢٨، وزوجها مان نيفلسون منفياً هو الآخر في سيبيريا، وكان قبلُ مفوضاً سياسياً في الجيش الأحمر. أما أولادها فتعهدتهم جدتهم الكسندرا لفوفنا، وبعد توقيفها مضوا إلى كيروف لدى جدة والدتهم، ماريا لفوفنا، ثم اختفوا معها.

أعلاه، صورة لتروتسكي وسط انصاره نشرتها في الصفحة الأولى مجلة مهاجرين بيض سرَّتها الأحداث التي تمت داخل روسيا.

أما الصورة الكبرى فتمثل مظاهرة نظمها في لينيسيسك في ٧ نوفمبر ١٩٢٨ جمهرة من المنفيين اليساريين. إلى اليسار لافتة كتب عليها: «صوبوا النار إلى اليمين، إلى الكولاك والنيمان والبيروقراطية!». في الوسط لافتة عليها صورتا لينين وتروتسكي، وقد كتب عليها: «عاشت ديكتاتورية البروليتاريا!».







في الأعلى، القادة الرئيسيون للمعارضة يحيطون بتروتسكي. من اليسار إلى اليمين، في الصف الأول: ليونيد سيريبرياكوف، كارل رادك، تروتسكي، بوغوسلافسكي. ويبدو واقفاً كل من راكوفسكي، ياكوف، دروبنيس، الكسندر بيلوبورودوف، والصحفي الكبير ليف سوسنوفسكي.

في الأسفل، تروتسكي مع ناتاليا وابنها ليوفا (٢٢ عاماً)، الذي سيكون خلال ذلك النفي معاوناً ثميناً لوالده.



النبي الأعزل

تروتسكي ١٩٢١ - ١٩٢٩

«النبي الأعزل»، الجزء الثاني من ثلاثية دويتشر حول حياة أحد أبرز قادة عصرنا، يصور لنا ليون تروتسكي في نضاله المأساوي الجبار ضد البيروقراطية الصاعدة، هذا النضال الذي ما لبث أن انضم إليه خصماه السابقان زينوفييف وكامينيف، ليعودا فيستسلما مجدداً لجبروت ستالين، «الدزرجيموردا» الروسي اللفظ المعبر عن تخلف روسيا وانعزال الثورة فيها، فانحطاطها المتزايد. كما يصور كذلك السنة التي قضاها تروتسكي بمنفاه في ألما - آتا قبل أن يجري إبعاده نهائياً إلى الخارج.

«النبي الأعزل»، ليس وصفاً لمأساة تروتسكي وحسب، بل كذلك لمأساة الثورة الروسية الواقفة مذاك عند الجدار البيروقراطي الصلب، الذي لا يزال يحول دون السير قدماً نحو إنجاز الاشتراكية.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠ - ٨٠٧٩٠٠ برقيا موكيالي بيروت ص.ب ١١٥٤٦٠ بيروت

الثمن

الغلاف: عماد حليم